اقرأ

تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

دكتور حسين مؤنس

آدم يعود إلى الجنّة

اقرأ ٣٦١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦١ - ديسمبر سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

بعد الظلام يكون النور ، ومن الليل يخرج النهار . .

بعد قليل يتلاشى السكون المخيم على الدار الصغيرة القائمة على شاطئ الترعة . سيسرى النشاط فيها وفيما حولها ، ويصحو الراقدون فى الفرُش داخلها ، ويبدأ فى حياتهم يوم جديد يشبه اليوم الذى مضى وفات ، ولا يختلف كثيراً عن الغد الراقد خلف أستار الغيوب . .

هذه الدار تقوم فى قرية صغيرة ، على شاطئ ترعة صغيرة أيضاً ، خلف بلدة عزبة البرج شمالى دمياط . هذه الناحية القاصية من شمالى الدلتا تعيش وكأنها قابعة وراء السحب . نادراً ما يدخل حياتها عنصر جديد . الذين يعيشون هناك هم حفداء مباشرون لسكان شمالى الدلتا قبل عصر الأسرات . إلى هناك أتوا من جزائر البحر فى فجر التاريخ ، وهناك أقاموا إلى اليوم . زرقة عيونهم وشقرة شعورهم مصريتان أصيلتان ، كسهل الدلتا وهضبة الصعيد . .

هنا نادراً ما يحدث شىء يستحق الذكر ، أو لا يستحقه : الناس يولدون ، ويكبرون ، ويعيشون ، ثم يموتون . . حياة فاترة بطيئة الحركة مثل ماء الترعة . يخرجون إلى الحياة كما تخرج ثمرات الجميز من شجرتها الضخمة . . بعضها يقع إلى الأرض ، ويأكله النمل ، أو تدوسه الأقدام ، أو يتخطفه الطير . . فى الغالب تبقى على الأغصان بقية يستمر بها وجود نوع الجميز فى قيد الحياة . . كما لا يفنى الجميز ،

كذلك لا يفنى البشر . . الذين يبقون يكررون قصة آبائهم من ألوف السنين ، وتنتهى حياتهم بدون احتفال كبير . . إنهم يموتون ليولد غيرهم . . لا بد أن تبتلع الأرض إنساناً حتى يخرج إليها إنسان جديد . .

الدار الصغيرة التى نقف أمامها الآن تختلف كثيراً عن كل ما حولها. إنها دويرة لطيفة من طابق واحد تعلوه غرفتان ، واضح أنهما إضافة جديدة . . إنها مبنية بالطوب الأحمر ، هذا يميزها مما حولها من الدور .. عدا ذلك لا تتسم بغنى أو يسار ، ومع ذلك تستقر العين عليها دون غيرها. فيها أشياء يستريح لها القلب وتهش لها النفس . أشياء صغيرة ، ولكنها تترك فى النفس وقعاً لطيفاً . . كل الأشياء الجميلة فى الحياة صغيرة . . على كل من جانبى الباب شجرة ورد . عند أصل الجدار تنمو زهور برية لطيفة ، صفراء وحمراء وبيضاء ، تنظر إليك بعيون واسعة كعيون القطط . . لا بد أن السعادة أقامت — أو تقيم — هنا ، فالورود والزهور بصمات السعادة . .

باب الدار يقوم فى مواجهة الترعة ، وهو يرتفع عن الأرض ثلاث درجات . غصون من شجرة لبلاب تتسلق الجدار وتلتقى فوق المدخل فى عريش أخضر جميل . . بين باب الدار والترعة مساحة واسعة تغطى بعضها تكعيبة عنب . .

هنا تعيش امرأة جميلة . . كل ما يشع فى الدار وحولها من جمال وديع كأنه الهمس ، إنما هو نبض رقيق لقلب هذه السيدة الشابة الجميلة الراقدة الآن فى سكون آخر الليل . . إنها صغيرة رقيقة فى فراشها ،

ولكنك عندما تراها فى النهار وتسمع صوتها تشعر كأنها تملأ الدنيا أمامك . .

اسمها « طاهرة » . . كتبوها فى شهادة الميلاد « الست الطاهرة » . . هكذا أراد أبوها . . كان صياد سمك كمعظم أهل هذه الناحية . فى الخريف يصطادون فى بحيرة المنزلة ، وفى بقية العام يلتمسون رزقهم فى مصب النيل وفى المنطقة المسماة بشطوط دمياط . . هنا قرى كثيرة كل أهلها صيادون : عزبة اللحم والخياطة وعزبة البرج وغيرها . .

ناس يعيشون على الفتوح . . رزق يوم بيوم . . عندما يلقون بالشباك لا يدرون بماذا تخرج . . أحياناً تعود بحمل ضخم يملأ قاع المركب الصغير إلى نصفه . . أحيانا أخرى يخرج كوم متواضع من الجران والكابوريا . . نصف الكوم يباع ويشترى بثمنه خبز ، والباقى يشوى . . على السمك المشوى والأرز المطبوخ بالسيرج تعيش العائلة والعيال إلى اليوم التالى .

أهم ما يميزهم إيمانهم الصادق بالله ، ثم نظافتهم وجمال نسائهم .. هنا كل شىء نظيف ناصع البياض . هنا أيضاً كل النساء جميلات ، شقر تضفى عليهن الشمس سمرة فاتنة تزيدها زرقة العيون فتنة . . هنا ثلاثة أشياء تأسر القلب : شعور كستنائية فاتحة أو شقراء ، وبشرة خمرية صافية السمرة ، وعيون جميلة واسعة زرقاء أو خضراء أو عسلية . .

* * *

هذه الدار وما حولها من أرض — لا تزيد مساحتها على فدانين — هى بعض ما خلف للست الطاهرة أبوها الشيخ إبراهيم من ميراث . ترك لها — إلى جانب ذلك الإرث البسيط — ثروة أكبر من السمعة

والجاه . . كان فى أول أمره صياداً كسائر أهل الناحية . وكان — كغيره من الصيادين هناك — منتسباً للطريقة الدسوقية . كان شيخه ولياً من الدرجة الرابعة ، وواحداً من ألوف يقولون إنهم أخذوا الولاية فى المنام عن سيدى إبراهيم الدسوقى . هذا الولى من الدرجة الرابعة كان اسمه سليمان . . رجل جشع منهوم قليل الحياء .. قال لإبراهيم ذات مرة : اسمع يا إبراهيم.. أنت تصلح لأن تكون ولياً . . سأكشف لك السر ، ولكن لا بد أن تدفع لى الثمن . .

— وما هو السر ؟ . .

— حتى تعدنى بدفع الثمن . .

— قد لا أستطيع دفعه . .

فضحك الشيخ سليمان وبدا وجهه كوجه شيطان . قال : ياعبيط . . نحن الأولياء لا يعز علينا ثمن . . عندما أعطيك السر ستضرب الأرض هكذا — وضرب الأرض بعصا من البوص كانت فى يده — ثم تطلب ما تريد ، فيكون لك ما تريد . . خروف محمر أو بنت السلطان . .

— وما هو الثمن ؟ . .

— بسيط . . بسيط جداً . . تتزوج بنتى زكية . .

— ولكنى متزوج . .

— قلت لك إنك عبيط . . لك الحق فى أربع . . وبعد الولاية تستطيع أن تأخذ منهن ما تريد بدون حساب . .

ثم مال نحوه وقال فى همس : « قسماً بالله يا إبراهيم .. نسوان المحافظة

والبركله فى أصبعى هذه . . آخذ منهن من أشاء وأدع من أشاء . . بركة هذا الخاتم تذل لك كل جبار وكل جبارة . . ماذا تقول ؟»

فمر الشيخ إبراهيم بيده على لحيته الكثة السوداء ، ونظر إلى صاحبه بعينين ثابتتين وقال : « لا أريد هذا السر . . »

— عجيبة ! . . لا تريده ؟ !

— لأنى لا أريد أن أتزوج على زوجتى . . إنها عندى تساوى الدنيا كلها . . من كانت عنده زوجة صالحة وتزوج عليها فقد كفر بنعمة الله . . لا يجوز أن نكفر بنعمة الله ياشيخ سليمان . .

— بل أنت كفرت بنعمة الله ورفستها بقدمك يا منحوس . . الآن لا ولاية ولا سلطان ولا خيرات ولا نعم . . غلبان يا إبراهيم . . والله غلبان ومولود فى يوم نحس . .

ولم يرد عليه .. تركه يهذى ومضى عنه ،عاد إلى بيته .. عندما نظر فى وجه زوجته الوسيم شعر أنه أحسن صنعاً إذ ترك الشيخ والمشيخة والولى والولاية . . أى شىء فى الدنيا أحسن من زوجة صالحة ، وبخاصة إذا زينها الله بالجمال ؟ . .

* * *

انصرف إبراهيم بعد ذلك عن المشايخ وحلقات الذكر والكرامات ، وأقبل على العمل . . اكتشف أن الولاية الحقيقية هى الإخلاص فى طلب الرزق ومعرفة حقوق الله . . كان يخرج للصيد بقاربه الشراعى الصغير قبل الفجر . كان يرافقه صبى واحد ، كان تابعه أيام الدروشة وخدمة الشيخ سليمان . . اسمه صابر ، وكان أبرك عليه من عشرة صبيان . .

المعلمون الآخرون كان يصحبهم أربعة صبيان أو خمسة أو ستة ، ولكن صابراً كان أبرك من الأربعة والخمسة والستة . كانت الشبكة تخرج مثقلة بالبورى والطوبار والدنيس والمياس واللوت والقروس والوقار وسمك موسى ، فى حين كان الآخرون يعودون بالكابوريا والشبار وما يشبهه من أصناف السمك التافه الصغير . . كان كل رفاقه يتعجبون .. كان يبيع فى اليوم بثلاثة جنيهات وأربعة ، ويعطى الفقراء سمكاً كثيراً . . أول الأمر شعر زملاؤه نحوه بالحسد، ثم بالغيظ ، ثم بالعداوة . . تركهم يقولون ما يشاءون ، ولزم صمت الصالحين . . كان يعمل ويصلى ويتصدق ، ويعيش وحيداً مع زوجته خديجة فى كوخ كان فى الموضع نفسه الذى تقوم فيه الدار الآن . . صمته جعل عداوتهم له تتحول إلى رهبة منه . . قالوا إن جنية بحر تخدمه . .

قال لهم صابر إن الله يرزقه لإخلاصه فى عمله واجتهاده وصدقه وإيمانه .. قال واحد منهم إن الله منّ عليه بالولاية لزهده فى إغراء الشيخ سليمان الفاجر .. التفوا حوله واعتذروا له . . تحولت رهبتهم منه إلى حب .. أرادوا أن يتخذوه وليـاً . . قال لهم : «قال لكم صابر إن ولايتى هى الإخلاص والاجتهاد والصدق والإيمان . . »

بعد سنتين بنى لهم جامعاً جميلا على الضفة الأخرى من النيل سماه جامع السيدة خديجة . . هناك قامت مساكن الكثيرين منهم ، واشترى هنا الفدانين اللذين تقوم فيهما الدار . لم يكن له أولاد ، فلماذا يشترى أكثر ؟ . . ثم بنى الدار التى وصفناها ، وبنى الجامع الجميل الذى يقوم غير بعيد من البيت .

كان صابر يقول له : « يامعلم إبراهيم . . لا بد لك من ولد . . »
فكان رده دائماً : « الأولاد تأتى عندما يريد الله سبحانه وتعالى . . لى أولاد كثيرون عند الله . . سيعطينى الصالح منهم فقط عندما يحين الوقت . ما الفائدة فى عشرة أولاد كلهم عصاة ؟ ! اسمع يا صابر . . . ربنا كان يستطيع أن يعطى سيدنا عمران خمسين ولداً ، ولكنه أعطاه بنتاً ، أعطاه ستنا مريم أم سيدنا عيسى أخى سيدنا ومولانا محمد . . سامع ياصابر ؟ ستنا مريم التى هى أفضل من ألف ولد ، هذا هو كرم ربك . . »

برغم أنفه أصبح الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى ولىّ . . كرامته كانت شبكة الصيد التى تخرج مثقلة . . هو وحده كان يعرف سر هذه الكرامة : الذكاء . . عرف أين يكثر السمك الكبير القيمة ، وعرف أحسن طريقة لصيده . . كان أيضاً يبكر ساعتين قبل غيره . . بينما يكونون هم ما يزالون يحتسون أكواب الشاى فى قهوة النيل ، يكون هو وحده فى مواقع الصيد وقد ألقى شباكه . .

* * *

كانت نفسه تتوق إلى الولد ، ولكنه لم يطلب من الله سبحانه شيئاً . . الطلب من الله عيب وسوء أدب . . فى ذات يوم وجد امرأته خديجة حاملا . قال لمن حوله : « آن الأوان . الأرواح عند الله فى السماء ، وهو يطلق منها ما يشاء وقتما يشاء . . »

لم يكن يشك فى أن المولود غلام . عندما لم يبق على الميلاد إلا شهر أو نحوه ، خرج ليسير على قدميه إلى طنطا . كان قد نذر هذا المولود للسيد البدوى . أراد أن يأتيه الخبر هناك فيسمى الغلام سيداً . . وصل

إلى هناك وجاور وصلى وتصدق . لم يكن معه إلا صابر . فى ذات يوم كان ينام فى صحن الجامع ، فرأى السيد البدوى يناوله رسالة مقفلة ويقول له: « اذهب بها إلى ستّى الطاهرة أم هاشم . . حاجتك عندها . . »

من طنطا سار إلى القاهرة ، على قدميه أيضاً . سار خلفه رفيقه الوحيد صابر . . كانا يشتدان فى السير . لا بد أن يكونا قرب مقام الست الطاهرة عندما تلد خديجة ، ليعطى المولود اسم الحسين . .

هناك صلى وجاور . كان يقيم عند صاحب له اسمه الحاج عبد المطلب ، يسكن فى شارع نور الظلام .

فى ذات ليلة كان يسبّح فى مقام الست بعد صلاة العشاء . جاء إليه عبد العزيز الهراس . كان صياداً مثله من عزبة البرج . لا شك أنه يحمل إليه خبراً ، ولكن وجهه الشاحب كان لا يدعو إلى تفاؤل :

— أين أنت يا معلم إبراهيم ؟ الست ولدت أمس . رزقك الله بنتاً . .

مرت على وجه إبراهيم سحابة من الحزن . ربت صابر على ظهره وقال : « زعلت يامعلم ؟ . . نسيت سيدنا عمران عندما أعطاه الله مريم ؟ نسميها مريم . . أليس كذلك ؟ »

ويبدو أنه لم يسمع . كان لا يزال واجماً ، ثم قال فى صوت أجش : « قلت مريم ؟ لا . . الست الطاهرة . . سموها الست الطاهرة . . . الاثنتان سواء . . ستنا مريم البتول وستنا الطاهرة . . »

ويارح الجامع إلى دار صاحبه فى شارع نور الظلام .

عندما اقترب من البيت رأى بجواره سرادقاً ينتشر منه صوت قارئ

يرتل القرآن . شعر برهبة وخوف . هذا المشهد نذير بموت أحد أهل الدار . .

بخطوات ثقيلة سار إلى السرادق عند باب بيت صاحبه . . لمحه أحد الجالسين خارج السرادق فهب إليه . . قال فى همس : « يوم أسود كالهباب يا عم إبراهيم . الحاج عبد المطلب ابنه مات . . »

فصرخ إبراهيم : « حمزة ؟ . . »

ــ حمزة الطالب فى المعلمين العليا . قصف شبابه الإنجليز ضحى اليوم . . خرج فى مظاهرة يهتف لمصر والاستقلال . فى شارع الدواوين . حاصرهم الإنجليز ورموهم بالمترليوز . ثمانية عشر شاباً كالورد ماتوا اليوم شهداء على يد الإنجليز أعداء الله . حمزة جاءته رصاصة واحدة فى رقبته . لم يأخذ غيرها . أنت تعرف أن دكان أبيه فى شارع خيرت ــ وصل إليه الخبر فى دقائق . ذهبنا لنأخذ الشهيد ولكن الإنجليز كانوا قد نقلوه إلى القصر العينى . أخذناه من هناك . كان يتضوع مسكاً . . مسك الشهداء . . صلينا عليه ودفناه العصر . سيلقى الله برصاصة الإنجليز فى حنجرته . مات شهيداً ، له الجنة . . الإنجليز سيمحقهم الله محقاً . يوم القيامة ستشهد عليهم دماء الشهداء . . مسكين الحاج عبد المطلب . . سارقاه السكين . . إنه لا يشعر بهول ما أصابه . لولا ذلك لكان الآن فى عداد المجانين . . إنه هادئ ساكن ممتثل لأمر الله .

ووقف إبراهيم ذاهلا . لم يكن يعى شيئاً من آى القرآن التى يتلوها القارئ . ولم يكن يفكر فى شىء . لقد توقف ذهنه عن العمل كأنه آلة تعطلت فجأة . . تنبه عندما توقف القارئ عن القراءة . دخل السرادق . .

كان صابر جالساً إلى جانب الحاج عبد المطلب . لا يدرى إبراهيم كيف سبقه إلى هناك . تقدم إبراهيم فى تردد حتى وقف أمام صاحبه ؛ ومد يده معزياً . فاض الدمع من عينيه، ولكن شفتيه لم تنبسا بحرف .. قال الحاج عبد المطلب وكأن صوته يخرج من صدع شجرة : « حمزة دائماً شهيد يا إبراهيم . . أيام الحرب مع المشركين شهيد ، وأيام الحرب مع الإنجليز شهيد . سيدنا رسول الله قدم عمه حمزة ، وأنا قدمت ابنى حمزة . كلهم شهداء ، والشهداء تيجان المؤمنين . . » .

ونظر إلى الأرض لحظات ثم عاد يقول وكأنه يناجى نفسه : « ياخسارة يا أولاد . . سنة أولى معلمين عليا ويضيع منا هكذا فى شربة ماء ؟ . . ماذا حدث يامسلمون ؟ . . ماذا حدث ؟ . . والله ما أنا فاهم . . يقول لى صابر إنك زعلان لأن الله لم يرزقك بغلام . . وماذا فى ذلك ؟ . . كنت تريد السيد البدوى فأعطاك الله الست الطاهرة ، من الأحسن ؟ أنا أيضاً كان عندى حمزة طالب المعلمين العليا فأصبح عندى حمزة الشهيد . . . من الأحسن ؟ سبحانه وتعالى أعطى ، وسبحانه أخذ . . هل له شريك فى ملكه ؟ . . أخذ منى ابنى ليعطينا مصر ، مصر أم الدنيا ، بلد المشايخ والأسياد . . جنة الأرض ، هل نريدها مجاناً ؟ . . مش ممكن . ناس منا لا بد أن يدفعوا الثمن . . وأنا منهم . . قدمنا أولادنا لكى تسلم مصر . . أم الدنيا ، بلد المشايخ والأسياد . . أليس كذلك يا إبراهيم يا صياد ؟ . . لا جنة بلا شهداء ، وكل منا ينبغى أن يؤدى نصيبه من ثمن مصر . . جاءت قرعتى هذه المرة . . . كان ينبغى أن أفهم ذلك وأتقبل الخبر بصبر وإيمان، ولكنى كافر

بالنعمة يا إبراهيم . . أتدرى ماذا فعلت عندما جاءنى الخبر ؟ . . صرخت ولطمت وشددت شعرى . . فعلت فعل من لا يؤمن . . هل هذا كلام يا إبراهيم ؟ . . هل هذا هو العهد الذى أخذناه على الشيخ ؟ . أستغفر الله العظيم . . »

وسكت فجأة ، وشخص بصره إلى بعيد .

وكان القارئ يستعد لمتابعة تلاوة القرآن ، ولكن منظر وجه عبد المطلب أوقف البسملة فى حلقه ، فأنزل يديه بعد أن كان قد رفعهما إلى أذنيه ليبدأ القراءة ، وظل صامتاً . .

وقال أحد الجالسين هامساً فى أذن إبراهيم : « مسكين الحاج عبد المطلب . . . أصابه الجنون عندما جاءه الخبر . . . قفز من الدكان وجرى إلى شارع الدواوين ، هناك رأى شيداً ممدداً على الأرض غارقاً فى دمائه والناس لا يجرؤون على الاقتراب منه خوفاً من الإنجليز . . كانوا ما يزالون هناك بالترليوزات .. حسبه ابنه فهجم على واحد منهم يريد أن يخنقه بيديه . . تعثر فى طريقه ووقع . . ضحكوا عليه . . ارتطم رأسه بالأرض وغاب عن الوجود .. ذهبنا كلنا إلى قصر العينى ، تسلمنا حمزة ودفناه ، وأبوه غائب عن الوجود ، أفاق فى بيته بعد الغروب . . » وعاد عبد المطلب يتكلم . . زائغ البصر شارد اللب : «يرضيك يا إبراهيم ياصياد ؟ . . يدفنون ابنى بدون علمى؟ .. قالوا لى إننى كنت غائباً عن الوجود . . أنا أغيب عن الوجود ؟ تصدق أننى أغيب فى يوم حمزة ؟ . . ربنا يسامحهم . . »

وبعد لحظة ذهول مضى يقول : « ثلاثة بالله العظيم يا إبراهيم ،

لقد رأيت رسول الله النهارده . . رأيت وجهه كالقمر . . تبارك الخلاق ! عليه ألف صلاة وسلام . .نظر إلىّ نظرة تأنيب وعتاب وقال : عيب ياعبد المطلب عيب ، أنت مؤمن وصابر ومحتسب . . . ماذا جرى لك ؟ حزين على ابنك حمزة ؟ . . ماذا حدث عندما مات حمزة عمى ؟ . . . استقبلته ملائكة العرش ليدلوه على قصره فى الجنة . . وأنت حزين يا عبد المطلب ؟ . . هنيئاً لك شهادة ابنك . . سبحانه وتعالى يريد أن تحيا مصر . . مصر التى قال فيها جل جلاله (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) . . سبحانه يأمركم أن تقوموا على أعدائه لتخرجوهم من مصر . . . لا بد لذلك من شهداء ودماء . . أعز دم على الله دم الشهداء ، اختار الله ابنك ليكون دمه طهارة وكفارة عن مصر . . حزين على حمزة يا عبد المطلب ؟ . . هل يغضب العبد على مولاه ؟ . . من أغلى عندك : ابنك أم مصر ؟ . . قم ياعبد المطلب صلّ لله واستغفره واشكره على ما أنعم به عليك . . اشكره على سلامة مصر . . . » .

واسترسل يقول بصوت عميق كأنه آت من وراء الأبد : « اليوم يا عبد المطلب مات من شباب مصر ثمانية عشر ؛ استشهدوا ليحيا هذا البلد المبارك .. حقاً ، الشجرة الطيبة لا تروى إلا بماء طاهر . . والأرض الطاهرة لا يطهرها إلا الدم الطاهر ، دم الشهداء . . شهداء بدر وأحُد طهروا أرض جزيرة العرب . . مادام هناك شهداء فهناك أرض كريمة طاهرة . . عندما يبخل الناس بدمائهم تذل أرضهم ، تموت ويموتون عليها بدون أن يدروا . . لا والله ياناس ، ماتموت أرضنا أبداً . . لن نبخل عليها بالدم أبداً . . بشراك بابنك حمزة . . بشراك وأنت السعيد



بشهادته . . أخذه الله منك وأعطاك مصر . . ».

وسكت الأب الثاكل لحظة ثم قال : « وأنت يا إبراهيم ياصياد . . ربنا أعطاك الطاهرة وتحزن ؟ . . أتعرف من الطاهرة ؟.. هى مصر . . ».

وسكت ، وساد صمت . . .

وشق الصمت صوت القارئ يقرأ القرآن . . ولأول مرة فى هذه الليلة أحس الجالسون فى السرادق أن كلمات الله تنفذ إلى قلوبهم وتعصرها عصراً . . لأول مرة بعد مأساة اليوم أحسوا أنهم مسلمون مؤمنون ، ربما لأن شعاعاً من نور نفذ إلى قلوبهم فأضاء ظلامها ، شعاع من مصر بلد الأنبياء والشهداء والعلماء والمشايخ والأسياد . .

* * *

بينما كان صوت القارئ يتردد فى الآذان بكلام الله كان إبراهيم يمسك بيد صابر ويبتعد به عن السرادق ويقول له : « صابر يابنى .. خذ قطار الساعة السابعة إلى دمياط ، نم فى المحطة حتى لا يفوتك . . . من هناك أسرع إلى عزبة البرج ، قل لهم يسمونها « مصر » . . »

فنظر إليه صابر وقال فى دهشة : « مصر ؟ .. نسميها مصر .. ؟ »

ـ نعم مصر . . مصر ولدت من ضلعى اليوم . . ألم تسمع كلام عبد المطلب ؟ ربنا سبحانه وتعالى أخذمنا اليوم ثمانية عشر شهيداً على رأسهم حمزة ، وأعطانا مصر . . روح ياصابر ، الله يسترك يا بنى . .

ـ ولكننا قلنا لهم يسمونها الست الطاهرة . .

ـ نعم ، هى الست الطاهرة مصر . . قل لهم يسمونها مصر . . خذ .. هذان جنيهان لتذكرة القطار ومصاريفك . .

ــ وأنت ؟ . .

ــ أنا سأزور الست الطاهرة أخت الحسين غدا ، لأصلى وأدعو عند المقام : ثم أذهب إلى طنطا لأزور السيد ، ومن طنطا إليكم ، سأكون عندكم فى بحر ٣ أيام . .

وفعل كما قال . . زار السيدة زينب ، ثم شيخ العرب السيد . عندما خرج من ضريح سيدى عبد العال وجد صمتاً شاملا مخيماً على البلد والدنيا . قالوا له إن اليوم حداد فى مصر كلها على الشهداء . كانت المتاجر كلها مغلقة الأبواب ، والشوارع خالية إلا من نفر قليل .

وفى سيره مر برجل يقف على ناصية حارة ، وقد أسند لوحة إلى الحائط وعلق عليها صوراً كبيرة لعرابى ومحمد فريد ومصطفى كامل وسعد زغلول ، والرجل ينادى بصوت مبحوح : « أبطال مصر ياجدع . . أبطال الاستقلال . . فلتحى مصر ! . . »

فألقى إليه إبراهيم نظرة شاردة وسأله : « بكم الواحدة ؟ . . »

ــ بقرش . . .

ــ هاتهم كلهم . .

ــ يحيا الاستقلال ! . . تحيا مصر ! . .

وأخذ يناوله الصور . . وبينما كان إبراهيم يخرج النقود من جيبه قال له الرجل : « سينفون سعد باشا إلى سيشل .. عشرة آلاف عسكرى إنجليزى ذهبوا إلى سعد فى بيت الأمة ليقبضوا عليه . كان نائماً ساعتها .. أطل عليهم من النافذة وأمرهم بالوقوف فوقفوا مكانهم لا يتحركون . . . أصل ربنا أعطاه قوة جيش كامل . وخاف قائدهم ، فتقدم نحو سعدباشا

ووقف تحت النافذة وقال : حرام عليك ياسعد باشا . . سلم نفسك أرجوك ، وإلا قطعوا رقبتى . . أنا رجل صاحب عيال . . أنا مش قدك ياسعد باشا . . اعمل معروف ! »

فقال له سعد : « والشهداء ياحضرة القائد ؟ . . »

ــ ثلاثة بالله العظيم ما قتلت أحداً . .

ــ والاستقلال ؟ . .

ــ ستأخذه مصر ياسعد . . . بس تعال معى أرجوك ولا تقطع عيش الأولاد . .

ــ أنا لن أخرج ولن أسلم . . . ولتفعل القوة بنا ما تشاء أفراداً وجماعات . . .

ــ ياسعد اعمل معروف . . لا تجعلنى أستعمل وسائل لا أريدها . .

ــ لا يهمنى . .

ــ هل يرضيك أن أهدم مقام السيدة زينب ومقام الحسين ومقام السيد البدوى وكنيسة مارى جرجس ؟ !

ومضى بائع الصور يقول : « هذا فقط هو الذى جعل سعد باشا يسلم نفسه . . إنه يخاف على أهل البيت والأسياد والمقامات . . قبضوا عليه وسجنوه ، والجرائد تقول إنهم سينفونه إلى سيشل فى آخر الدنيا ، لكى يموت هناك وحيداً حزيناً على مصر . . ولكن سعداً لن يموت ، إنه حامى مصر وراعيها ، وسيعود منصوراً بإذن الله . . »

ونظر إبراهيم إلى صور الأبطال ، ثم ضمها إلى صدره وسار ، فلحق به الرجل وقال : « ألا تريد علماً ؟ .. ألا تريد علم مصر لتعلقه

فوق الصور؟ . . انتظر. . »

ثم عاد مسرعاً إلى المكان الذى كان يقف فيه ، وفتح صندوقاً كان على دكة خشبية وأخرج علماً مطبقاً ، عاد به إلى الحاج إبراهيم ونشره . . علماً أخضر عليه هلال وثلاثة نجوم تتألق وسط بساط الخضرة . . كان علما كبيراً طوله قرابة المتر . . وأعجب الحاج إبراهيم منظره فسأل الرجل عن ثمنه . . عشرة قروش ، دفعها وطوى العلم فى حنان وعناية ووضعه تحت إبطه وسار .

* * *

وصل إلى بيته فى القرية بعد سفر طويل متعب . لقيته زوجته وهى تبتسم وفى ملامحها شىء من أسف مستور لأنها أنجبت بنتاً ، وقالت: « كان بودى أن أعطيك السيد البدوى . . . »

ــ لا عليك ياخديجة . . . ربنا عوضنا خيراً . . أعطانا مصر . . . كما أعطى سيدنا عمران مريم . . أين هى ؟ . .

ودخل فرآها فى فراشها مستغرقة فى النوم ، رآها صغيرة رقيقة جميلة ، فأخرج العلم ، ووضعه عليها ، وابتسم وقال : « هذه مصر ، وهذا ثوبها .. ما أجملها . . ! أين الصور ؟ . . صور عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد ؟ . . »

وجاءته بها خديجة ، فمضى وأتى بشاكوش ومسامير ، وعلق الصور صفـًا واحداً فوق مصر ، وقال : « هؤلاء حماتها .. إنهم حماة أهل البيت والمشايخ والأسياد . . حماة مصر . . . »

* * *

بعد الظلام يكون النور ، ومن الليل يخرج النهار . .

مصر الرقيقة الجميلة راقدة فى فراشها، والفجر يقترب . . عمرها الآن سبع وعشرون سنة . تزوجت وولدت غلاماً يرقد على سرير صغير مقابل سريرها . إنها تراه بعين قلبها . تنظر تجاهه ولا تراه ، فإن الظلام دامس . .

اسمه « آدم » ، وعمره تسع سنوات . . سماه بهذا الاسم جده الشيخ إبراهيم الصياد . . مات الجد من سنتين مخلفاً لابنته هذا البيت والفدادين حوله ، وخلف لها أيضاً هموماً كثيرة سببها زوجها إسماعيل ، وخلف لرجاله أرضاً واسعة على الضفة الأخرى ، وهبه إياها وزير الأوقاف عندما لقيه مرة فى رأس البر وأعجب به وبصلاحه ، وهبه إياها ليبنى فى وسطها مسجداً . . وبنى المسجد من ماله فعلا . .

زوجها إسماعيل ليس فى الدار الآن . خرج من ساعة أو نحوها . إنه صياد ، وككل صياد هناك ينبغى أن يخرج للصيد بعد منتصف الليل بساعتين .

* * *

الشابة الجميلة الرقيقة الراقدة فى فراشها الآن لم تنم منذ خرج زوجها . إنها تفكر فيه ، تستعيد قصة زواجها منه وحياتها معه ، تستعيدها فى انتظار الفجر والنعاس .

إنه شاب جميل ، طويل عريض فى الثلاثين من عمره . . تزوجته من عشر سنوات ، لأن شكله أعجبها . كانت إذ ذاك زينة بنات القرية وابنة شيخها إبراهيم الصياد . كانت مرحة طروباً تضحك لها

الدنيا وتضحك هى للدنيا . . كانت رقيقة جميلة خفيفة ، تجرى هنا وهناك فى مرح كأنها طفلة . . كان رزق أبيها واسعاً واسمه ضخماً. كان أحسن صياديها وأكرمهم على أهلها . بنى الدار واشترى الحقل الصغير ، ثم بنى للقرية جامعها وقدم لأتباعه الصيادين الأرض الواسعة والمسجد على الضفة الأخرى .

كانوا ينادونها بالطاهرة وبالست ، ولكن أحب أسمائها إلى الناس كان « مصر » . عندما وصل صابر من سبع وعشرين سنة كانوا قد قيدوها فى سجل المواليد « الست الطاهرة » . . عندما وصل أبوها من القاهرة أراد تغيير الاسم ، اقترحوا عليه أن يضيفوا إلى اسمها فى السجل وورقة الميلاد عبارة « الشهيرة بمصر » ، وهكذا كان . . أصبحت الست الطاهرة — أو الطاهرة الشهيرة بمصر ، التى دثرها أبوها فى مهدها بالعلم الأخضر ذى الهلال والنجوم. ما زال العلم معلقاً على الحائط إلى جانب صور حماة مصر فوق السرير الذى ينام عليه آدم .

كانت تستطيع أن تتزوج شاباً أحسن وأغنى من إسماعيل هذا ، ولكنها كانت شابة . . استهوتها القامة المديدة والملامح السمحة ، واستجاب طبعها للصوت العريض العميق . .

تعلقت به بدون أن تنبس لأبيها بحرف ، ولكن أباها فهم . . لم يكن إسماعيل يعجبه . كان صياداً ماهراً وجريئاً ، ولكنه كان لاعباً كثير العبث ، وكان لا يصلى إلا مضطراً . . كان أبوه رجلا تقياً ، ولكنه لم يأخذ من أبيه تقاه . .

ذات ليلة خلا إبراهيم بابنته فى بيتها وقال لها : « أراك تنظرين إلى

إسماعيل رضوان .. »

ـ أنا لا أنظر لأحد . .

وتصاعد الدم إلى وجهها ، وأسرعت إلى المطبخ لتدارى حالها. غابت طويلا ، فناداها يطلب العشاء . كان العشاء فولاً بالأرز وشيئاً من الجبن ونصف بطيخة . .

أتت بالأطباق ووضعتها على المائدة . كانوا يأكلون على مائدة لا على طبلية ، ويجلسون على كراسى لا على الأرض . . كان أبوها قد قرأ فى إحدى المجلات مقالاً من الكثير الذى نشر عندما كشفوا قبر توت عنخ آمون ، يقول إن المصريين القدماء كانوا يأكلون على الموائد ويجلسون على الكراسى ، ويستعملون الملاعق والسكاكين والشوكات . قال : «لا بد أن نأكل مثل أجدادنا. اشترى المائدة وما يلزمها. ناقشه فى ذلك صاحبه الشيخ رجب ،وقال له إن السلف الصالح كانوا يأكلون على الطبلية ، فقال له : «إن السلف الصالح كانوا لا يأكلون ، وكانوا لا يعرفون الطبلية . . كان غذاؤهم شيئاً من تمر وشيئاً من لبن ، وهذا طعام لا يؤكل على طبلية . . ولكن المؤكد أن أجدادنا المصريين كانوا يأكلون على الموائد ويجلسون على الكراسى . » .

أمسك بالملعقة فى يده ونظر إلى ابنته وقال : « يعجبك إسماعيل رضوان ؟ . . »

ـ لا يعجبنى أحد . . .

ـ اسمعى يا مصر .. أمك قبل أن تموت لم توصنى إلا بشىء واحد. قالت لى : لقد سعدت معك يا إبراهيم . . ليست هناك نعمة للمرأة

أغلى من زوج تسعد معه . . هكذا كانت ستنا خديجة مع رسول الله خير الأزواج . . اختارته هى بنفسها . . وصيتى لك أن تزوج مصر بمن يعجبها ، بمن تختاره هى . . قلت لها : ولوشعرت أنه لا يصلح لها ؟ فقالت لى : مصر تعرف ما يعجبها وما لا يعجبها ، وما يعجبها يصلح لها . . . »

بعد لحظة صمت قالت مصر : « أنا لا أفكر فى الزواج الآن . . »

— بل تفكرين .. أنا أقرأ هذا فى عينيك، وأوان زواجك قد حان.. فهل يعجبك إسماعيل ؟ . . هل تختارينه ؟ . .

— لم أسمع أن البنات فى بلدنا يخترن أزواجهن بأنفسهن . .

— لقد حكيت لك ما قالته لى أمك . . كان هذا أحد شيئين طلبتهما فى حياتها ، الأول أن أبنى جامعاً للصيادين على بر السنانية ، والثانى أن أزوجك بمن تختارين . . ما رأيك ؟ . .

فسكتت ، فأعاد السؤال . . واستمرت على صمتها ، فنهض وهو يقول : « صمت البنات رضا . . ستتزوجين إسماعيل رضوان . . وفقك الله معه . . »

* * *

ولم يوفقها الله معه . . إسماعيل كان دائماً شاباً مفتوناً بنفسه مغروراً بما منحه الله . . على عادة الكثيرين من الشباب الذين لم يكتب الله لهم حظا كبيراً من السعادة ، كان يكسب كثيراً وينفق أكثر. كان لا يحفل بزوجته . كان يعتقد — كأترابه ممن هم على شاكلته — أن الاهتمام بالزوجة ضعف ، وأن الاستماع لرأيها لا يتفق مع كمال الرجولة . كان

يراها تحبه وتعجب به فيسرف في إهمالها ، حاسباً أنه مهما فعل فسيظل كما هو سيد البيت والقلب ومحط النظر .

حتى جاء يوم عرف فيه أن مصر ليست كغيرها . .

كان ذلك في أوائل أحد الأصياف ، وقد بدأت الحياة تدب في مصيف رأس البر على طرف البر المقابل . هو وأمثاله من شباب الصيادين كانوا يرون أن الصيف والمصيف فرصة للعمل والكسب والفسحة والفرجة واللعب والمتاع . هناك نساء كثيرات غريبات ، وهناك مقاه ومشارب وفنادق وأشياء كثيرة تجتذب هوى الشبان . .

وعاد مرة مع الصبح . [؟]وجد مصر واقفة على الباب في انتظاره . . أراد ولوج الباب فقالت : « إلى أين ؟ . . »

— إلى بيتي . . إنني متعب وأريد أن أنام . .

— هذا ليس بيتك . . بيت الرجل هو مأواه بالليل . .

فقال في عنف وازدراء : « هل تريدين تأديبي ؟ . . »

— ذلك واجبي . .

— تعتزين عليّ لأن البيت بيت أبيك ؟ . .

— كان بيتك أيضاً طالما احترمته . .

— والآن ؟ . .

— ليس بيتك . . إنه بيت مصر ، ولن تدخله إلا إذا عرفت حقه . .

— اسمعي يا مصر . . أنت تعرفين أنني مجنون . . وإذا مضيت الآن فلن أعود . .

— ستعود عندما تستحق العودة . .

كان أبوها ما زال على قيد الحياة . كان ينام فى غرفة علوية . فتح النافذة ونظر بدون أن يقول شيئاً . نظر إليه إسماعيل وقال :

« يا عمى إبراهيم . . يعجبك هذا ؟ »

فلم ينبس الرجل بحرف . .

— يا عمى الشيخ إبراهيم ، هذا بيتى . . هل ترضى أن أمنع من دخول بيتى ؟ . .

ظل الرجل صامتاً ، ولكن ملامحه كانت تنطق بأنه سيتدخل لحماية ابنته إذا تجاوز إسماعيل حده . .

وقال إسماعيل لمصر : « إذن أعطينى ملابسى . . »

— لا ملابس لك عندى . . لقد تزوجتنى بثوبك هذا الذى عليك ، وبه تعود من حيث أتيت . . وأنت مدين لأبى بمال كثير . .

— إذن آخذ شباكى وأدواتى وأمضى . .

— ولا هذه . . هذه أدوات لكسب العيش للأسرة وليست لك وحدك . .

— وماذا ستعملين بها ؟ . .

— سأخرج للصيد . . إن مصر ليست فى حاجة إلى أن يعولها رجل . .

وأغلقت الباب ، وتركته فى الطريق . . وأغلق الشيخ نافذته . . وأطل على ابنته من أعلى السلم وقال : « ياطاهرة . . يا مصر .. أنت جديرة بأمك خديجة . . . نامى يا بنتى ولا تخافى . . . نامى فقد طال سهرك وتعبك . . دعى السهر والتعب له . . بارك الله فيك . . »

الشهور التى أعقبت ذلك كانت شهور حرب صامتة بين مصر

وإسماعيل . . ظن أنها لن تصبر على بعده ، ولكنها صبرت . . وحسب أنه يستطيع الاستغناء عنها بالعيش مع أمه وأخواته ، فتبين له أنه لا يطيق ذلك طويلا . . وسعت أمه لتزويجه بامرأة أخرى ، فلم تتحرك مصر ولا أظهرت جزعاً .. كان أبوها يقول لها : « أنا أعرف أنك تحبينه ، ولكنى أحب منك هذا الثبات وذلك الإباء . . مثلك يامصر لا يستطيع أحد أن يفرض عليها وصايته . . استمرى فى ذلك ، بهذا وحده تستعيدين زوجك . . . »

— إننى لا أريد أن أستعيده . . أنت تعرفنى ، إذا أغمضت عينى عن شيء فلن أفتحها عليه أبداً . . .

— قولى ما تشائين يا مصر ، ولا تنسى أننى أبوك إبراهيم . . على يدىّ هاتين حملتك ، قلبك هذا أنا وضعته فى صدرك ، وأنا أقرأ ما فيه كأنه كتاب مفتوح . .

— وماذا تقرأ فيه ؟. .

— أقرأ أنك تريدين أن يعود لك زوجك . .

— غير صحيح . .

— بل صحيح . . أنت وفية يامصر . . أنت رقيقة يابنتى ، أقوى مافيك هو أضعف مافيك : قلبك . . إذا أحببت أخلصت .

— وإذا كرهت ؟ . .

— أنت لا تكرهين إلا الخيانة . . وإسماعيل لم يخنك بعد . .

* * *

بعد شهور مات أبوها إبراهيم الصياد . مات على شط السنانية عند

جامعه الذى بناه هناك . كان يوم جمعة فى شهر يناير ، والشتاء قارس والصيادون هناك أهلكهم الجوع . ذهب إبراهيم وحمل إليهم أرزاً كثيراً وسمناً ودقيقاً وخروفين . . صلوا معه الجمعة وطبخوا وأكلوا ، وضحك أولادهم وخرجوا يلعبون وملأوا الدنيا ضجيجاً ، وجلس هو على عتبة الجامع ينظر إليهم . .

بعد قليل أقبل عليه سلامة العزبى حارس المواشى للمهايرة ، أسرة عبد المجيد ماهر ، ذلك الرجل الموسر الذى يملك هو وأسرته الكثير من أراضى النخيل والقمح والأرز التى تغطى البر الغربى قبالة عزبة البرج وعزبة اللحم . . مئات الفدادين تغطيها غابات النخيل وتسرح فيها ماشية من بقر وجاموس وغنم وخيل . .

قال سلامة : « صحيح ياعم إبراهيم : الغنى غنى النفس. أنت هنا على عتبة جامعك وليس عليك إلا ثوب من الدبلان مثلى أنا سلامة الفقير ، ولكنك أطعمت وأسعدت ، وهؤلاء الأولاد الذين يضحكون يعبرون لك عن شكرهم . . وهؤلاء الذين أعمل عندهم يملكون هذا كله ، ولكنهم لا يطعمون أحداً ولا يضحك فى وجههم طفل . . »

فنظر إليه إبراهيم طويلا ثم قال : « كيف حال امرأتك ؟ . . »

ــ الحمد لله ، زالت عنها الحمى ، وهى فى طريق التحسن . .

ــ ابنتى مصر أرسلت لامرأتك دجاجتين ، وطلبت منى أن أحجز لها نصيبها من الأرز والسمن ، خذه من صابر . .

ــ الله يعلم أن زكية امرأتى تدعو لك ليل نهار . .

وسكت لحظة ثم قال : « زكية عندها هدية لآدم . . »

– هدية لآدم ؟ . . مِن زكية ؟ . . ما الهدية ؟ . .

– حصان . . . مهر صغير . . عمره ثمانية أشهر . .

– ومن أين لزكية هذا المهر ؟ . .

– ولد مريضاً وأرادوا أن يتركوه يموت . . كانت هي التي قامت على ولادته . . طلبت من شطا الخولى أن يعطيها إياه . . ففعل بإذن الحاج عبد المجيد .. أخذناه وداويناه .. والله ياشيخ إبراهيم كنا نرضعه بأيدينا.. والآن صح وكبر وأصبح مهراً جميلا . .

– ولماذا لا تحتفظون به ؟ . .

– ليس لدينا ما نطعمه به . . إنه يأكل كثيراً ، والحاج عبد المجيد لا يسمح بأن يرعى فى أرضه . . فتقبّله منا هدية . .

– قبلته . .

وذهب سلامة العزبى فغاب بضع دقائق ثم عاد يجر مهراً صغيراً لونه بنى فاتح ، رشيق الجسم رفيع القوادم حسن العنق صغير الرأس تزين جبينه غرة بيضاء كأنها نجمة ، وفى قوادمه وخوافيه تحجيل بديع ، وأحنى المهر رأسه فتناول إبراهيم معرفته الشقراء ومشطها بيده وجعلها كلها على يمين رقبته ، وقال وهو يتأمله : « ما أجمله ! .. هذه أجمل هدية أهداها الله للإنسان . . »

ثم قام إليه ومر بيده على رقبته وضمه إليه وقال : «قال سيد المرسلين : الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامة .. هكذا قال الصادق الأمين ..»

وسمع صوت ابنته مصر من بعيد فقال : « مصر .. ماعلمت أنها ستلحق بنا . . »

وعندما وقع بصرها على المهر أسرعت إليه وأمسكت برأسه وقالت : « ما أجمله ! . . لمن هذا الفرس الجميل ؟ . . »

ــ لآدم ابنك . . .

ــ لآدم ابنى ؟ . . ما أجمله من حصان ! . . ما أجمل آدم على ظهره ! . . هل اشتريته ؟ . .

ــ لا ، بل أهدته لنا أم الخير زكية وزوجها سلامة . .

وبعد لحظة سألها : « ما الذى أتى بك ؟ لم تقولى إنك آتية . . »

ــ خفت عليك . . . رأيتك متعباً هذا الصباح . . ما كان ينبغى أن تخرج اليوم . .

ــ الحق أننى متعب . . ولكن ما كان يمكننى أن أتخلف عن هؤلاء الإخوان بعد أن وعدتهم . .

ــ إذن . . هيّا نعود . . لقد قمت بما عليك ووفيت بوعدك . . ماذا نسمى هذا المهر الجميل ؟

فقال سلامة : «نسميه نسراً . . إن له عينى نسر . .»

فقال إبراهيم : « لا..نسميه ريحان .. ريحان هو حصان فرعون .. حصان رمسيس الذى رأيناه يجر عجلته الحربية فى الصور . . هذا هو بعينه . . انظرى إلى رأسه وجسمه وقوائمه . . أريد أن أرى حفيدى آدم على ظهر جواد كهذا يحارب أعداء مصر بلد الشهداء . . بلد أهل البيت والمشايخ والأسياد . .»

قالها بصوت هادئ خفيض . . واسترسل يقول : « خذى ريحان وعودى إلى بيتك يامصر . . عودى لابنك . .»

— وأنت ؟ . .

— أنا متعب . . أعتقد أن الأفضل أن أستريح هنا الليلة . . .فى هذه الغرفة الملحقة بالجامع . . سأستريح إلى الغد . . اتركى لى صابراً . . سيعنى بى صابر وسلامة وأم الخير

* * *

ولم تكن هذه أول ليلة يقضيها إبراهيم الصياد فى السنانية ، كان يحب هذا البر وأهله وجامعه . تركته ابنته ومضت تجر ريحان وتمسح رقبته وظهره . . ووجدوا صعوبة فى إنزال ريحان فى القارب الشراعى ، ولكنه نزل على خوف ، وظل واقفاً برهة والقارب يسير الهوينى ، ومصر تمسح رقبته وتربت جبينه . . فأنس إليها وبرك ووضع رأسه على الأرض عند قدميها .

* * *

فى أثناء ذلك كان أبوها إبراهيم الصياد قد انتقل إلى الحجرة الملحقة بالجامع . كان فى الحجرة سرير متواضع صغير . . ما إن أراح الرجل جنبه عليه حتى أحس أنه مريض جداً . . صنعت له زكية شراب ينسون تناوله ونام . . فى منتصف الليل صحا وأيقظ صابراً وقال له :

— لم أصلّ المغرب والعشاء ، هات لى ماء أتوضأ . .

وتوضأ وصلى ، ثم نظر إلى صابر وقال : « لا أدرى إن كنت أرى شمس الغد . . . إن روحى تذهب منى كأنما تغوص فى بحر عميق . . إذا متّ فادفنونى خلف جامعى هذا . لا تنقلونى . . لا تبكوا علىّ ولا تلطم النساء خدودهن . هذا حرام . اطلبوا لى الرحمة والمغفرة ،

فى هذا كفاية . . وصيتكم مصر . . والصيادون . . وآدم . . إذا رجعت مصر لإسماعيل فكن أنت إلى جانبها دائماً . . لا تخافوا عليها . . ربنا مع مصر دائماً ، لأن مصر مع الله دائماً . . »

وسكت لحظة كأنما يسترد أنفاسه ثم عاد يقول : «حافظوا على هذه الأرض التى يقوم فيها الجامع . . إنها أرضكم كلكم ، أعطانى إياها عبد الرازق باشا وزير الأوقاف عندما قابلته فى رأس البر من خمس عشرة سنة . . »

ثم جعل يشير بيديه ويقول : «كل هذه الأرض ملككم . . . من حدود نخل الحاج عبد المجيد ماهر إلى شاطئ النيل أرضكم . . أرض كثيرة جدًّا محددة فى الحجة التى أعطانى إياها عبد الرازق باشا عندما زرته فى الوزارة فى مصر . . . كل الأرض التى أمام عزبة البرج والتى تمتد إلى رأس البر أرضكم . . أخذتها من الوزارة لتكون وقفاً للجامع وأرضاً للصيادين يقيمون فيها فى أثناء موسم الصيد ويبنون فيها بيوتهم إذا أرادوا . . أرضكم هى هذه الضفة والضفة الأخرى ، فحافظوا عليها . . »

وسكت لحظة ، فقال صابر : «لا أدرى ياسيدى الشيخ . . ولكنى سمعت أن ورثة الحاج عبد المجيد يريدون أن يستولوا على هذه الأرض . . »

— لن يستطيع ذلك أحد .. لا ورثة الحاج عبد المجيد ماهر ولا غيره.. مادمتم متحدين ومتمسكين بحقكم ، فلن يأخذ أحد منكم شبراً . . هكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم متحدين فنصرهم الله . . هذه الأرض مقدسة ، أخذناها لنبنى فيها الجامع فلا تفرطوا فيها . . اتحدوا واثبتوا ولا تخافوا ، ينصركم الله . .

استمع صابر لهذا الكلام صامتاً بدون أن ينبس بكلمة . كان ما يسمعه أكثر مما يستطيع أن يدرك . ثم عاون الشيخ إبراهيم على الرقاد وغطاه ، ونام على عتبة البيت . .

قبل الفجر بقليل فاضت روح الشيخ إبراهيم الصياد في سكون . لم يشعر بذلك صابر . كان مستغرقاً فى النوم عندما انتقلت روح شيخه إلى الدار الآخرة . . وكما أوصى الشيخ : دفنوه فى اليوم التالى خلف جامعه . شطوط دمياط كلها حضرت الجنازة والصلاة والدفن . ارتجت ضفتا النيل ، فقد مات رجل عظيم وولد ولى جديد . .

بعد أسابيع قامت فوق الضريح قبة ، وبدأت وفود الناس تزور المقام وتقرأ الفواتح وتنذر النذور . .

وأصبح صابر حارس مقام سيدى إبراهيم الصياد ولى الله وراعى الصيادين، وزاد عمران مسجد سيدى إبراهيم الصياد إلى جانب الضريح ..

من ذلك الحين لم يرم صياد شبكته فى الماء إلا قال : « بركاتك ياسيدى إبراهيم ياصياد . . » ولم يبخل سيدى إبراهيم الصياد ببركاته على أحد . .

* * *

بعد الظلام كان النور ، ومن الليل خرج النهار . .

النور ينفذ الآن من شباك صغير أعلى الباب . أشعة مترددة تلتمس طريقها فى ظلام الحجرة ، وتستقر على الوسادة التى يضع عليها الغلام آدم رأسه . لقد تحرّت الأم أن تكون الوسادة فى هذا الموضع حتى يقع أول شعاع من الضوء على وجه ابنها الحبيب . بالنسبة لها

يولد ابنها مرة كل يوم ، عندما يقوى الشعاع تستطيع تبين ملامح وجهه الجميلة ، بعد قليل تنهض وتشد حبلاً يجر ستاراً على النافذة العالية فيسود الظلام من جديد ، ولكن أشعة النور تتسلل من كل جانب .

بعد أن تمتلئ عيناها من وجه ابنها تنام .

تلك كانت أحلى أوقات نومها . . تنام فى عمق وصورة ابنها بين جفنيها . .

نامت ساعة وبعض ساعة . أيقظها طرق على الباب . تحركت فى فراشها ولم تكترث . الطارق ريحان . . ريحان ينهض من مرقده عندما يرى أشعة الشمس . . عمره الآن سنتان وبضعة أشهر . . إنه طفل أتى يبحث عن طفل صديق ليلعب معه . .

ولكن الطفل الصديق فى نوم عميق . .

الأم الشابة الجميلة الراقدة فى فراشها تعود إلى النوم . ريحان يفهم وينطلق بكل شبابه يدور حول الحقل ويصهل . إنه شاب قوى سعيد يعرف حدود بيته ويدور حولها رافع الرأس والذيل . يدور ويدور ، ويقف وسط الحقل ويهز رأسه كأنه يتحدى ، ثم ينفد صبره بعد نصف ساعة أو قريب منه ، فيجرى إلى الباب مرة أخرى ويضربه بقادمته ويصهل . . هنا يصحو آدم فيقف فى فراشه وينادى أمه : « ريحان . . ريحان . . افتحى لريحان . . »

وتفتح لريحان ، فيدخل ويقترب من الغلام ، ويتشممه كأنه يسلم عليه ، آدم يقبله ويضم عنقه. يخرج الحصان ويقف على الباب. بسرعة تضع الأم سرجاً خفيفاً على ظهره، وترفع ابنها وتجلسه على السرج،

وتناوله العنان فى يده . ويجرى الحصان خبباً . فى خيلاء يمضى فى الحقل وصاحبه الصغير على ظهره . .

الأم تنهض وتعدّ الإفطار لها ولابنها . تضعه على خوان صغير فى مدخل الدار . على خطوات تضع طعام ريحان . بعد دقائق تأكل الأسرة كلها معاً : مصر وآدم وريحان . .

بدأ يوم جديد فى حياة مصر . . إنها تعمل بيديها كل شىء فى بيتها ، وتشرف بنفسها على كل شىء فى أرضها . . خمسة رجال ونساؤهم يعملون معها فى البيت والحقل ، ولكنها الأولى حين يبدأ النهار ، والأخيرة عندما يحين موعد النوم . . يدها فى كل شىء وعينها فى كل مكان . . رجالها ونساؤها يعملون فى اجتهاد وصبر ، ولكن أحياناً ينقص عملهم الحب . . مصر تقول : « لا يكمل عمل بغير حب . . »

إنها تحزن حزناً عميقاً عندما ترى من العاملين معها تقصيراً أو إهمالا . هذا هو الشىء الذى يغضبها أكثر من غيره . . كانت تحب مَن حولها وتضحى بمالها وجهدها فى سبيلهم ، وكانت تدهش إذ ترى الآخرين يضنون على رزقهم بالعمل . كانت ترى ذلك أنانية وجمود قلب ونضوباً فى الحب . كانت إذا غضبت لم تقل كلمة جارحة ، بل يتجلى الغضب فى عينها وتسكت . . كان ذلك عقاباً كافيا للمسىء . .

أول ما تبدأ به عملها زيارة الجاموستين والبقرة فى الزريبة . مسعد وزوجته ناعسة مسئولان عنها . لم تجد أحداً منهما هناك . . فتحت الباب ودخلت . كانت البهائم قلقة فى مرابضها . فتحت لها الباب فخرجت ، لأنها كانت مشتاقة إلى الهواء . . فتحت النافذة فدخل النور ، كانت

الأرض فى حاجة إلى غسل . . فتحت صنبور الماء وأخذت المقشة ومضت تعمل . . أقبلت ناعسة مسرعة ، وأرادت تناول المقشة منها فرفضت . .

ــ ما دمت تنامين حتى الضحى فلماذا تتعبين نفسك ؟

ــ لم أنم حتى الضحى ، ولكن مسعد جاءه المغص . .

ــ مسعد لم يجئه المغص ، سهر عند شريبة وشرب عنده كعادته وجاءك متأخراً ، فطلب طعاماً وأزعج الأولاد ، ثم نام متأخراً . . .

ــ إذن فقد قالوا لك ؟

ــ سمعت بكاء الأولاد . .

ــ قسمتى هكذا . . نحن النساء لا نستطيع أن نصلح الرجال . .

ــ بل تستطيعين . .

وأقبل مسعد ، رأى المقشة فى يد سيدته فأسرع يريد أن يأخذها منها وهو يقول : « أستغفر الله ياست . . والله لا تنظفين الزريبة أبداً . . »

ــ ذهبت إلى دكان شريبة وسكرت ؟ . .

ــ لا والله ياست . . ثلاثة بالله . .

ــ لا تحلف كاذباً . . ذهبت وشربت . . تستطيع أن تفعل بنفسك ما تريد ، ولكن ماذنب أولادك وزوجتك والبهائم ؟

ــ والله ياست ياطاهرة الولد قنديل هو الذى أخذنى . .

ــ إذن اذهب إلى قنديل وخذه واخرجا من الأرض . . لا حياة لكما هنا بعد ذلك السكر . .

فاستدار ومشى بدون أن يقول حرفاً . كانوا جميعاً يعرفون أن

مصر إذا غضبت فهى تعرف لماذا تغضب ، وأنها على حق عندما تغضب ، وأنها لا ترضى عن المسىء إلا عندما ترى أنه قد عرف خطأه ولن يعود إليه . .

وأقبل رجل آخر ، فدخل لينظف الزريبة . ووقفت مصر تنظر إليه وهو يعمل ، وترشده فى عمله ليكون العمل دقيقاً متقناً كما تريده ، فإذا هى فى ذلك سمعت أصواتاً من بعيد ، ثم أقبل عدد من الرجال فى ملابس الصيادين . كانوا خمسة نفر يتقدمهم رجل لطيف الهيئة وسط فى العمر ، ولكنه مهموم بادى الكآبة ، فحيا وقال : « لا تؤاخذينى ياست ياطاهرة ، ولكننا متعبون جداً ، ولم ينصفنا أحدمن رجال بلدكم.. »

— ولماذا تأتونى ؟ ألم أقل لكم إن الرجال لاينبغى أن يطلبوا الإنصاف من أحد ؟ . . لا بد أن ينتصفوا لأنفسهم . .

— لقد حذرنا من ذلك عمدة بلدنا . .

— لأنه يخاف . .

— مع أنه لا مجال للخوف ، فإن خصومنا لا يستطيعون فصله من العمودية . .

— هؤلاء الرجال يخافون ، لأنهم تعودوا الخوف . . يخافون ولو لم يكن هناك ما يخيف . . .

— وما العمل ؟

— هل أنتم أيضاً خائفون ؟

— لا ، نحن لا نخاف . .

— بل خائفون . . لأنكم لم تتعودوا أن تأخذوا حقكم بأيديكم . .

ـ لأننا لا نريد أن ندخل فى عراك طويل مع أولئك الناس . .

ـ بل لأنكم خائفون . . لا بد أن تطردوا الخوف من نفوسكم . . لقد حرموا عليكم دخول منطقة الصيد ومنعوكم من نزول البر الثانى للعمل وإصلاح الشباك وزيارة الشيخ ، فلماذا لا تقتحمون هذه المواقع ؟ . .

ـ بالقوة ؟

ـ بماذا إذن ؟ ألم أقل لكم إنكم خائفون ؟ هذه الأرض أرضكم ، لكم دائماً الحق فى النزول هناك والإقامة والعمل والزيارة، فلماذا إذن تحرمون هذا الحق الآن ؟

وكان إسماعيل زوج الست الطاهرة مصر قد أقبل من بعيد ووقف يسمع ، ثم أشعل سيجارة وقال : « أنتم تنسون أن المهايرة قد اشتروا هذه الأرض كلها أخيراً . . »

فقالت مصر : «غير صحيح.. إنهم لم يشتروا هذه الأرض، بل يريدون أن يضعوا يدهم عليها بالقوة . . »

ـ ومن قال لك إنهم لم يشتروها ؟

ـ لأن هذه الأرض كلها تبع لمقام الشيخ إبراهيم الصياد . . .

ـ أبوك . . .

فرد أحد الصيادين قائلا : « بل أبونا كلنا . . أبو هذه الناحية . . »

فقال إسماعيل وهو يهز كتفيه : « ليكن كما تقول ، ولكن هذا ليس معناه أننا نضع يدنا على هذه الأرض . . »

فقالت مصر : « هذه أرضنا ، أرض أولئك الناس . . منذ مئات السنين هى أرضهم ، فكيف يُمنعون من النزول بها الآن ؟ »

— قلت لك إن المهايرة اشتروا الأرض كلها . .

— قلت لك إنهم لا يمكن أن يشتروها . .

— (فى غضب) اشتروها . .

— كيف يشترونها إذا كان أبى قد حصل عليها كلها من وزير الأوقاف لكى ينشئ فيها مسجداً ومدرسة وأشياء أخرى للصيادين ؟ . .

— وما الذى يثبت ذلك ؟

— عندى ما يثبته ، ولكننا لن نكتفى بهذا الإثبات .. لن نعتمد على الوثيقة التى بيدنا فقد يخوننا الآخرون ويؤيدون عدونا . . إننا لا ننسى أبداً أن الحق يتلاشى أمام القوة . . هؤلاء الرجال سيحمون حقهم بأيديهم . .

— أمام ورثة الحاج عبد المجيد ماهر ورجالهم ؟ . .

— أمام الدنيا كلها . .

— هذه مغامرة غير مأمونة . . . هؤلاء الناس أقوياء جداً . .

— إنهم ليسوا بهذه القوة . . ولكنهم سيصبحون أقوياء جداً إذا ضعفنا نحن . .

فقال واحد من الصيادين : « نحن لن نضعف . . »

فقالت الست الطاهرة : « اثبتوا فى مكانكم وأنا معكم . . »

ثم التفتت إلى الصيادين وقالت : « إذا كنتم مستعدين لمواجهة خصومكم واستعادة أرضكم وحقوقكم بالقوة فستنالونها . . »

فرد نفر من الصيادين : « نحن مستعدون . . »

— المهم أن تكونوا متحدين جميعاً . .

ــ متحدون . . هذا رزقنا وقوت عيالنا . .

ــ إذن اذهبوا واجمعوا أنفسكم وتأكدوا أنكم تقفون صفا واحداً وتعالوا لكى نرسم خطتنا . .

ــ سنفعل ذلك ونعود إليك غدا . .

وذهبوا بجملتهم وهم يتحدثون فيما بينهم ، وسارت مصر ومن خلفها إسماعيل حتى دخلا البيت وأغلقا الباب ، فجلس إسماعيل ووضع ساقاً على ساق وقال : « أتدرين ماذا تفعلين . . ؟ »

فلم ترد عليه ، ومضت تصلح من شأن حجرتها . . فعاد يقول فى شيء من التحدى :

ــ إننى أكلمك ..

ــ سمعت . . ماذا تريد ؟ . .

ــ إننى زوجك ، وعندما أكلمك فلابد أن تصغى لما أقول . .

ــ هل أنت متأكد أنك زوجى ؟ . .

ــ إذن . . فماذا أكون ؟

ــ أين كان زوجى منذ ثلاثة أيام ؟ . . آخر مرة رأيتك كانت يوم الأربعاء . .

ــ لقد نمت هنا أمس وكل ليلة ، وخرجت فى الفجر للعمل . .

ــ ومتى أتيت أمس وأول أمس؟ . .

ــ هل تحاسبيننى على دخولى وخروجى كأننى طفل ؟ . .

ــ أحاسبك كزوجة . .

ــ ومنذ متى كان للزوجة الحق فى أن تحاسب زوجها ؟ . .

– كل زوجة جديدة بهذا الاسم لها الحق فى أن تحاسب زوجها ..

– طول عمرنا فى هذه المشكلة . . وقد قلت لك ألف مرة إننى لن أسمح لك بأن تحاسبينى . . أنا رجل البيت ولى الحق فى أن أدخل وقتما أشاء وأخرج وقتما أشاء . . هكذا كل الرجال مع كل النساء . .

– وهل كل الرجال يمكثون فى الحانة إلى منتصف الليل وينفقون مكسبهم ثم يعودون إلى بيوتهم لمجرد النوم ؟ . . هل تسمى هذا حقوق الرجل ؟ . .

فقال فى سأم : « قلت لك لست طفلا . . إننى لست ابنك . . أنا زوجك . . أنا سيد البيت ، ولى الحق أن أتصرف كما أريد . . »

– من المستحيل أن أقبل هذه المعاملة . . ليست هناك امرأة لها كرامة تقبل ذلك . .

– أنت مغرورة ، لأنك ابنة الشيخ . .

– أنا زوجة ، وأعرف حقوقى . .

– تمسكك بحقوقك هذه سيخرب البيت . .

– لولا أننى أعمل فى هذا البيت طول النهار والليل لما ظل قائماً .

– وأنا ؟ . . هل ألعب ؟ . .

– نعم . . أنت تلعب . .

– لو قلت هذا مرة ثانية فإننى سأخرج ولن أعود . .

– تستطيع أن تخرج بلا عودة إذا شئت . .

– ستندمين . . .

ـ أنا فى ندم منذ تزوجتك . . .

فأخذ كوفية صوفية كان قد وضعها على أريكة، فوضعها على كتفه ونظر إلى مصر نظرة طويلة وقال : « إذا خرجت فلن أعود ..»

ـ هذا تهديد ؟ . .

ـ أردت أن أنبهك فقط إلى أننى حرّ فى أن أتصرف كما أريد ، أدخل عندما أريد وأخرج عندما أريد . . إننى رجل حر فى أن أتصرف كما أشاء . .

ـ إنك هنا زوج قبل كل شيء ، وعليك أن تحترم التزاماتك كزوج .

ـ لست فى حاجة إلى من يعلمنى واجبى . . قلت لك إنى حر أتصرف كما أريد . .

ـ وأنا لا أقبل هذه المعاملة . .

ـ إذن فأنا ذاهب إلى حيث أعيش رجلا حرًّا ... ولن أعود حتى تقلعى عن هذا التفكير . .

ـ ماذا تقصد بحريتك هذه ؟ . .

ـ أقصد ألا يحاسبنى أحد على ما أعمل كما تفعلين أنت معى . . ليست هناك امرأة واحدة تفعل ذلك مع زوجها . .

ـ لأنهن لا يحببن أزواجهن . . لا توجد رابطة حب بينهم ، هناك رابطة خوف . .

ـ وأنت لا تخافين منى ؟ . .

ـ قطعاً لا أخاف منك . .

— لماذا لا تخافين منى ؟ . . هل أنا أقل من غيرى من الرجال الذين يخيفون زوجاتهم ؟ . .

فأدارت وجهها إلى النافذة ومسحت دمعة سالت على خدها وقالت :

— أنت لا تفهم ذلك . . .

— ما الذى لا أفهمه ؟

فالتفتت ونظرت إليه طويلا ، ثم قالت : « يا إلهى ! .. كيف خدعت فيك على هذه الصورة ؟ . . »

فهز كتفيه فى بلادة وقال : « ماذا تقولين ؟ »

— لا شىء . .

— لقد تعبت منك ومن الحياة معك . . تعبت ولم أعد أستطيع . . طول حياتنا خصام ، خصام . . اسمعى . . هذه هى آخر مرة أقول لك فيها ذلك . . سأعيش هنا حرًّا كما أريد . . ولا أريد أن تسائلينى أو تضايقينى . .

— لن أقبل . .

— ذنبك على جنبك . . هذه المرة أنت المسئولة . . أنا ذاهب الآن ولن أعود . .

— افعل كما تريد . .

فنقل كوفيته من كتف لكتف وأشعل سيجارة وخرج . .

ووقفت واجمة . كان الدمع فى عينيها ، ولكنها لم تبك . لقد أحبت هذا الرجل من صباها . فى سنوات شبابها الباكر كان رفيق أحلامها .

كانت أعز أمنياتها أن تتزوجه . لم يكن أبوها راضيا عنه ، ولكنه رأى تعلقها به فكف عن المعارضة وترك القدر يجرى فى طريقه . وتزوجته ، فلم تسعد معه إلا فترة قصيرة جدًا . كانت طفلة كبيرة تعبث بها أمواج الحب فلم تنتبه إلى استبداد هذا الرجل بها وعدم تجاوبه معها . كان شابًا جميلا مغروراً ، نشأ منذ الصغر مدللا أنانيا كسولا . عندما فتحت عينيها على حقائق الدنيا واتسع قلبها ، أحست أن هذا الرجل يلعب معها . أحست أحياناً أنه لا يحبها كما تحبه ، ولكن كبرياءها أبت الاعتراف بهذه الحقيقة . برغم كل شىء ظلت تحبه ، وتأمل أن يتحسن حاله ويفهم قدرها ويبادلها عواطفها . ظلت تأمل ذلك ، برغم أنه كان من الواضح أنه مستحيل . . ولكن الحب أعمى ، وأصم أيضاً . .

ومنذ تزوجا ، كان الخصام بينهما مستمرًا والأزمات متصلة . لم يتحسن هو شيئاً ولا غير طبعه ، ولا هى تنازلت عن كبريائها أو سلمت مصيرها للمقادير أو استسلمت للظلم والامتهان كما تفعل النساء حولها . . . ظلت دائمًا رافعة الرأس متمسكة بكرامتها وحقوقها فى عناد وكبرياء . وكان يمكنها أن تطلب الطلاق وتحصل عليه وتتزوج . إن لها عزوة كبيرة فى هذا البلد ، وهذا الرجل لا يستطيع حيالها شيئاً ، ولكنها لا تفعل شيئاً من ذلك ، لأنها أصيلة ولأن لها ابناً لا تريد له أن يتعرض للعواصف العائلية . كان ابنها آدم نور عينيها وأملها الجديد فى الحياة ، بعد أن خاب ظنها فى أبيه . . فى هذا كانت تشبه ملايين المصريات ممن يخيب الأزواج رجاءهن ، فيملأ الابن الوليد فراغ الحب الهائل الذى يخلفه الأزواج . .

وأحست هذه المرة بحزن عميق ، كأنما شعرت أن الخصومة هذه المرة أعمق من كل مرة مضت . . شعرت أنه فعلا لن يعود قريباً ، فقد ازدادت علاقاته برفقاء السوء ، وتعود الشراب فى الحانة ، ونشأت له مسرات أخرى خارج بيته . . وهناك أمه إلى جانب ذلك تشجعه على الاستمرار فى العناد والابتعاد عن زوجته . . أحزنها ذلك كله وملأ قلبها همًّا ، ولكنها كانت قوية ثابتة عالية الرأس كأنها سنديانة ضخمة ، فجففت دموعها ، ودخلت غرفتها فنظرت فى مرآة صغيرة هناك ، وأصلحت من هيئتها .. كانت ترتدى ثوباً بنيا داكن اللون يبدو من بعيد وكأنه أسود . كان ينسدل إلى قرب قدميها ، ولكنه كان حسن التفصيل ، يبدى قوامها الرقيق الحسن التكوين . وكان شعرها يسترسل على جانبى وجهها وتتدلى منه خصلات على جبينها الناصع البياض ، وفى مؤخرة رأسها شبكت طرحة سوداء تنساب على ظهرها وتزيد منظر وجهها نبلا وجمالا ، وكان هذا زيها دائماً أبداً . كان أبوها يقول إنه زى مصر ، وكان يحتفظ بصفحة من مجلة فيها رسم مشروع تمثال نهضة مصر الذى كان محمود مختار قد وضع نموذجه ومضى يبحث عن المال لتحقيقه . وكان صابر يقول : « بل هذا هو زى الست الطاهرة أم هاشم كما بدت له فى المنام ذات مرة ، وهو نائم قرب المقام . . »

وسمعت صوت ابنها آدم فى القاعة الوسطى ، فخرجت تجرى ، فوجدته يضحك ويجرى نحوها ، فحملته ونظرت إلى حيث أتى فإذا ريحان على الباب كأنه يريد أن يدخل ، فأشارت إليه وقالت : « ريحان . . قف مكانك . . إياك أن تدخل . . سآتيك بالسكر . . »

فقال آدم : « إنه عطشان . . لم نجد صابراً ليضع له ماء . . »

فقالت تخاطب ريحان : « إذن اذهب إلى مكانك . . سآتيك بالماء . . اذهب وسيلحق بك آدم بعد قليل . . »

ولم يتحرك الحصان ، بل وقف يهز رأسه ، فأعادت عليه القول وسارت نحوه ، فاستدار واتجه إلى الموضع الذى يضعون له فيه طعامه وماءه أثناء النهار . كان ذلك عريشاً تظله شجرة جميز خلف الزريبة التى ينام فيها فى الليل . .

ومضت مصر تمسح وجه ابنها ويديه وهى تكرر ما قالته له قبل ذلك مئات المرات من الحذر من اتساخ ثوبه ويديه ووجهه ، كل ذلك والغلام يضحك ويتعجل أن تفرغ من تنظيفه ليسرع إلى صديقه ريحان . .

وبعد قليل أقبل صابر فأخذ الماء وسار خطوات والحصان خلفه ، فنادته مصر وقالت له : « أنت تعرف أن إسماعيل خرج غاضباً الآن ، لقد ذهب إلى بيت أمه ، وأخشى أن يفكر فى شىء بخصوص آدم ، أو يحاول شيئاً ضد أرضنا وزرعنا . . ربما يحاول أيضاً إيذاء ريحان لأنه لايحبه ، فنبه على رجالك بأن يشددوا الحراسة على كل شىء : مداخل أرضنا والطرق من حولنا ، وخذوا بالكم من المعدية ومن مكنة المياه ومخزن الحبوب وكل شىء . . لا نريد أن نفاجأ باعتداء علينا . »

— إن سيدى إسماعيل رجل طيب ، وهو لا يمكن أن يفكر فى أذانا . .

— إذا لم يفكر هو فى الأذى فكر فيه غيره . . أمه بالذات لن

تسكت عنى .. ستحاول على الأقل أخذ الولد، والولد لن يخرج من هنا ، وأنت مسئول عنه . قل هذا كله لسعد وشعبان وعبد الفتاح وغيرهم من الشبان الأشداء ليبدءوا الحراسة من الآن ، وسأمر بهم عندما أنتهى من أعمال البيت .

وسار صابر لينفذ أوامرها ، ولكنها نادته وقالت : « وخذ بالك من ريحان . . أنت تعرف كم أحبه ، خذوا بالكم منه جداً ، وحاذروا أن يمسه أحد بأذى . . »

ووقفت مكانها تتابعه فى سيره ، وسبح خيالها بعيداً . .

كانت تشعر أنها مسئولة عن هذا البيت وما فيه ، عن هذه القرية وكل من يسكنها ، عن هذا النهر الجارى غير بعيد ، عن الضفة التى يقوم عليها بيتها وأرضها وقريتها، والضفة الأخرى التى يقوم فيها قبر أبيها ويسكنها الصيادون . . كانت تشعر أنها مسئولة عن هذا البلد كله ، وأنها أم لهذا البلد كله . . ومدت يديها فجذبت أطراف ثوبها إلى جسدها كأنها طير يرفرف بجناحيه ثم يضمهما على أفراخه، وسارت نحو البيت رافعة الرأس حازمة الأسارير ، دون أن يقلل الحزم من ذلك الجمال الرفيع الذى أفرغه الله على وجهها الدقيق الوسيم وقوامها الأنيق المستقيم . .

* * *

غير بعيد من بيتها ، على الضفة الأخرى للترعة ، جلس زوجها إسماعيل مع أمه ، وأخته واثنين من أقاربه كان قد قص عليهم قصة خصومته الجديدة مع مصر ، وكيف ترك لها البيت ومضى مصمماً



هذه المرة على ألا يعود ، وكانت الأم تصغى وفى عينيها فرح وشماتة .

وسكت إسماعيل لحظة وأشعل سيجارة ، فقالت الأم : « وابننا آدم ؟ . . كيف نتركه لها ؟ . . »

– سنأخذه طبعاً . .

– ولماذا لم تأت به معك ؟ . .

– قلت أتحدث معكم أولا . .

– لا بد أن تأتى به اليوم . .

وقالت أخته : « نذهب الآن ونأتى بآدم . . لن يبيت هناك ليلة واحدة . . »

فقال إسماعيل بعد لحظة صمت : « ولكنى لم أطلقها بعد . . »

فأسرعت الأم قائلة : « ولماذا لم تطلقها ؟ .. ماتزال متعلقاً بها برغم مافعلت بك ؟ . . أم أنت تخاف منها ؟ . . »

وظل صامتاً . .

مرت فى ذهنه صورة مصر أول ما تزوجها . . رأى نفسه أمام أبيها يرجوه أن يزوجه منها والرجل العجوز الأشيب يرفض . .

ولكن مصر أرادت ، ولم يستطع الشيخ أن يخالفها .. إنها وحيدته ، هى رمز الست الطاهرة فى بيته . .

هاهى ذى فى يوم زفافها . . وجهها المشرق الجميل . . شعرها الكستنائى الفاتح الذى يلتقى مع جبينها ، كأنه لقاء الليل مع النهار فى الفجر . .

عيناها الضاحكتان فى جمال الصبا وطهر العذارى . .

وشباب القرية كلهم عيون حاسدة وقلوب أحرقها الوجد . .

وهو من بينهم السعيد الفائز لأنها اختارته من دونهم . .

وعبس أبوها عندما تم عقد القران ، ودعا لها بالنجاة لأنه لم يكن يطمئن إليه . . .

فى طرفة عين ، عندما لمس هذا الشاب يد مصر أصبح كل شىء فى القرية بعد أن كان لا شىء . .

وابتسمت له الدنيا وعرف العيش فى بيت جميل يظلله الهناء . . ولكنه ليس أهلا للهناء . .

مضى يلعب ويعبث ، ويجتمع بأصحاب السوء على مائدة الشراب ، حتى أكلت مقاعد الحانة من ثيابه أكثر مما أكلت مقاعد بيته . .

وصبرت مصر واحتملت فى صمت . فى عمق عينيها غرقت الآلام . .

والآن . . . ها هو ذا ، كما دخل الجنة يخرج منها بخطايا كثيرة لا بخطيئة واحدة . والخاطئة الكبرى أمه تجره خارج باب رضوان كأنها الحية التى أخرجت آدم من الجنة . .

وسمع صوتها تصرخ : « طلقها إن كنت رجلا . . »

وقبل أن يردّ اتجه نظره إلى الباب ، إذسمع وقع أقدام فى الدهليز. إنها أقدام عم عبد الرحيم الإسناوى . .

ودخل عم عبد الرحيم الإسناوى . .كان رجلا ضخماً يسير كأنه شيخ البلد خرج من المتحف إلى الطريق . رجل مهيب ، شديد السمرة ، واسع العينين ، جميل الملامح ، كثير الشعر ، عريض المنكبين . .

قال بدون أن يلقى تحية :

ـ لا يا أم إسماعيل . . لن يكون رجلا إذا طلقها . . الرجال لا يطلقون نساءهم إرضاء لغليل أمهاتهم . .

ـ يطلقها لأنها طردته من بيته . .

ـ هى لم تطرده . . هو خرج بنفسه . . كما خرج يستطيع أن يعود . .

فقال إسماعيل : « ولكننى لا أريد أن أعود . . »

ـ بل تريد أن تعود . . ولا بد أن تعود . .

ـ كيف ؟ . .

ـ لأنك تحبها ، وأنا أعرف ذلك . .

فقالت الأم : « كيف يحبها إذا كانت قد طردته من البيت ؟ . . »

فقال إسماعيل غاضباً : « إنها لم تطردنى . . أنا خرجت من نفسى . »

فقالت الأم : « وتريد أن تعود الآن ذليلا ؟ . . »

وقال عبد الرحيم الإسناوى : « لاتستمع إليها . . إنها حماة تكره زوجة ابنها . . »

* * *

وأشعل عبد الرحيم سيجارة ، ووضع عصاه إلى جواره وجلس ، فبدا وكأنه تل . . لا يعرف أحد متى خرج من أعماق الصعيد حيث ولد . . هو نفسه لا يتكلم ، لأن شيخ البلد لم يخرج عن صمته من أربعة آلاف سنة . .

فى عينيه حديث صامت رهيب مقبل من وراء الأبد . .

يقولون إنه خرج من قريته فى الخامسة عشرة من عمره . يقولون إنه قتل قاتل أبيه وهرب . سار على قدميه من إسنا إلى بور سعيد ، وهناك اختفى فى زحمة ألوف العمال فى الميناء وشركة القنال . خلال سنوات قليلة أصبح رئيس عمال وهو فى العشرين ، وأمسك بالعصا وحلق رأسه وأصبح شيخ البلد ، ثم تزوج ابنة أحد الصيادين فى بحيرة المنزلة . . بعد قليل أصبح كبير الصيادين . الزعيم زعيم منذ مولده . . ضرب رجلا مرة وحبسوه ستة أشهر ، فأصبح فى السجن زعيم المساجين .. كان صهره من أهل هذه القرية ، وكلما خرج من السجن أقبل معه إليها وحط رحاله فيها ، لأنها أعجبته ولأنه كان يحب زوجته . . أصبح من مريدى الشيخ إبراهيم ، ثم صار ذراعه اليمنى . قبل أن يموت الشيخ أوصاه بابنته مصر . قال له :

– لست فى حاجة إلى توصية ياسيدى الشيخ . . مصر ابنتى وأنا أبوها . .

وبالفعل صار أباها . برغم ذلك كان يقول : « ماوقفت أمامها إلا شعرت أننى ابنها . . »

وقالت الأم : « لا بد أن يسمع كلامى . . إننى أمه . . »

فقال فى هدوء : « اسكتى أنت ياوليه . . أنا أريد صالح ابنك فدعينا من أحقادك . . »

وقال إسماعيل : « يا عم عبد الرحيم أنا لن أعود إلى زوجتى . . »

فنهض الرجل وقال : « إذن نعود نحن . إنها لن تبقى وحدها أبداً . . »

وقام خارجاً ، ونهض فى أثره الرجلان اللذان كانا هناك . قبل أن يخرج قال : « لن يكون معك أحد . . ستقف وحدك وسط الطريق ، وسينقطع رزقك ، ويومها لن تستطيع هذه أن تطعمك . . »

وساد صمت . .

لم يبق إلا إسماعيل وأمه وأخته وصفير الريح فى الخارج . .

كان المساء يهبط ، وصمت كئيب يغرق المكان ، والشمس تجمع أطراف أشعتها الشاحبة وتمضى . .

ونهض إسماعيل وقال : « سأذهب إلى المقهى . »

وقالت الأم : « إياك أن تذهب إليها . . »

* * *

عندما دخل المقهى كانت الدنيا ليلا ، لم يجد أحداً . استقبله شريبة صاحب المقهى صامتا وقال له : « لا أحد هنا الليلة . . »

ــ والرجال ؟ . . أين ذهبوا ؟

ــ إلى مصر . . شىء خطير حدث عصر اليوم . .

ــ ماذا حدث ؟

ــ المهايرة وضعوا يدهم على أرض الشيخ إبراهيم وأنذروا الصيادين ليخرجوا منها . .

ــ وكيف حدث ذلك فجأة ؟ . . كنا هناك من أيام . .

ــ عزيزة هانم . . هل تذكرها ؟

ــ عزيزة ماهر . . طبعاً أعرفها . . إنها صاحبة الأرض . .

ــ لا . . ليست صاحبتها . . إنها تدعى ذلك . .

ـ هذا ما نقوله نحن ، ولكن هذه الأرض أرضها ، اشترتها من أخيها نور الدين ماهر بالمال الذى ورثته من زوجها الأول طلعت باشا سليمان . .

ـ يسمونه طلعت الحرامى . .

ـ حرامى أو غير حرامى . . لقد مات وترك ماله لزوجته ، وبهذا المال اشترت الأرض . . . ولكن ماذا تريد من الصيادين ؟ . . لماذا تريد أن تطردهم من أكواخهم هناك وتحرم عليهم الصيد عند الشاطئ ؟

ـ يقولون إنها تريد أن تبنى فنادق وتصلح المنطقة . .

ـ ألا يكفيها ما تملك فى رأس البر ؟ . .

ـ الأغنياء يريدون دائماً أن يكونوا أغنى ، وهى امرأة أشطر من الرجال . .

ـ إنها تعجبنى . . .

ـ ماذا يعجبك فيها ؟ . .

ـ أليست امرأة جميلة وغنية ؟ . .

ـ بالنسبة لأمثالنا هى ليست امرأة ولا جميلة . . إنها سيدتنا ونحن عبيدها ، لأننا فقراء وغير متعلمين . . الذين يحق لهم أن يروها كامرأة هم فقط الأغنياء مثلها . . .

ـ مثل طلعت باشا سليمان . .

ـ طلعت الحرامى . . .

ـ حرامى أو غير حرامى ، إنه يعجبنى . .

فقال شربية صاحب المقهى : « أنت تريد أن تكون منهم ،

ولكنك لن تكون . . أتعرف كيف ينظرون إليك ؟ . . »

ـ لا ، ولكنى أعرف كيف تنظر إلىّ هى . .

وابتسم لنفسه . . وهز صاحب الحانة رأسه وملأ له كوبا صغيراً من النبيذ فوضعه أمامه ، وقال له : « ألاتذهب للاجتماع بإخوانك ؟ . . »

ـ لا ، بل أنا ذاهب إلى مكان آخر . .

ـ لا تحطم نفسك أيها المسكين . .

ـ وماذا أفعل بحياتى ؟ مادمت فقيراً فحياتى هذه لا معنى لها . . دعنى أحطمها . .

وصمت لحظات ثم قال : « ولكنى لن أسمح لها بأن تحطمنى . . »

ـ من هى ؟ . .

ـ أنت تعرف من أريد . . الطاهرة . .

ـ أنت لن تستطيع أن تغلب الطاهرة أبداً . .

ـ أنا لن أستطيع . . ولكن عزيزة هانم تستطيع . .

ـ ولا عزيزة ولا آل عزيزة جميعاً . كل الناس فى البلد معها ، وهذه أرضها وهى لا بد أن تأخذ أرضها . .

ـ منذ متى هى أرضها ؟ . .

ـ أليست هذه كلها أرض الشيخ إبراهيم الصياد ؟ . .

ـ الشيخ إبراهيم الصياد ؟ . . كيف يستطيع شراء أرض واسعة كهذه ؟ . .

ـ الحكومة أعطته إياها . . وزير الأوقاف أعطاه إياها . . كلنا نعرف ذلك . . هذه كانت أرض الأوقاف والشيخ إبراهيم أراد أن يبنى

المسجد فيها والوزير أعطاه إياها . .

— هل معكم ورقة تثبت ذلك ؟ . .

— وصاحبتك عزيزة ، هل معها ما يؤيد دعواها ؟ . .

— لقد ورثت زوجها . . ثم إنها غنية وقوية ، ومثلها لا يحتاج إلى إثبات ملكية . .

— دعك من هذا الكلام الذى لا معنى له يا إسماعيل وقل لى : هل اشترى زوجها هذه الأ ض ؟

— هو كان محافظا ووزيراً . . وقد أتى ورأى الأرض وأراد أن ينشئ فيها فنادق ويشق طريقاً ، ووافقت الحكومة . . . ثم ورثت عزيزة ذلك كله ، ومؤكد أن لديها ما يثبت ذلك . .

— ليس لديه أو لديها شيء .. إنه اغتصاب . .

— اغتصاب .. نهب .. كما تريد .. المهم أن لديهم القوة على أن يحموا ما بيدهم . . . وأنتم ماذا بيدكم ؟ . .

— كأنك تستهين بنا وبقوتنا ؟

— أنا لا أستهين بأحد . . وإنما أنا أعرف أنهم وراءهم الحكومة ، وأنتم ماذا وراءكم ؟ . . وماذا يستطيع الصيادون أمام عزيزة ماهر وآل ماهر ومن ورائهم الحكومة ؟ . .

— إذا كنا رجالاً فسنحمى أرضنا . .

— ولكن قل لى ياشربية : هؤلاء الناس كلهم يكرهونك ويسمونك الخمورجى ، فلماذا تتحمس لهم الآن ؟ . .

— هذا حق ، ولكنهم أهلى وعشيرتى . . وإذا لم أكن منهم فمن

أكون ؟ وما داموا الآن فى خطر فلا بد أن أقف معهم . .

فشرب إسماعيل شيئاً من الكوب ، وأرسل نظره فى الظلام خارج المقهى ، ولمعت عيناه ببريق غريب . . وتحسس ذقنه فلم تعجبه خشونته ، ونظر إلى ثيابه فلم يرض عنها .. ثم نظر إلى الرجل وقال : « وعزيزة هانم.. هل هى هنا ؟ . . »

— يقولون إنها وصلت من أيام ومعها رجال ومهندسون وبوليس . . إنها تريد أن تشرع فى العمل . يقولون إن معها رجالا أغنياء كثيرين ، يريدون أن ينشئوا شركة كبيرة . . وسمعت أن زوجها الثانى منهم . .

— ولكنها طلقت زوجها الثانى هذا . . .

— هؤلاء الناس أمرهم عجيب . . طلقها لأنه لم يستطع أن يعيش معها ، ولكنهما اتفقا على أن يعملا معاً فى تنمية ثروتهما . . هؤلاء الناس نادراً ما يجمعهم الحب ، ولكن دائماً يجمعهم المال . . هذا هو العصب الذى يجمع بينهم ، ويجعل منهم قوة خطيرة . .

— معنى هذا أنكم لن تستطيعوا شيئاً حيالهم . .

— لماذا تقول « أنتم » ؟ . . ألست منا ؟ . . ألست من أهل هذا البلد ؟ . .

— طبعاً أنا منكم ، ولكنى لست مجنوناً حتى أقف أمام الدنيا كلها . .

— ولكن هذا حقنا . . أقصد أن هذه الأرض أرضنا . .

— لا يعرف أحد أين يكون الحق . .

— هناك مقام الشيخ إبراهيم شاهد على ذلك . .

— وهل مقام الشيخ إبراهيم سيقاوم هؤلاء جميعاً ؟ . . سيزيلونه فى نصف ساعة ، ويومها لن تجد أحداً يذكر أنه كان هناك قبر لشيخ اسمه إبراهيم . .

— والمسجد ؟ . .

— يبنون أعظم منه . .

ثم نهض واقفاً واتجه نحو الباب ، فناداه الرجل وقال : « إسماعيل.. إننى أخوك ، وأنت تعرف ذلك . . »

— ماذا تريد أن تقول ؟ . .

— لا تنفصل عن إخوانك . . .

— إننى سأنقذهم من الدمار الذى تريده لهم بنت الشيخ إبراهيم . .

— أنت لن تنقذ أحداً ، ولكنك ستحطم نفسك . .

— إننى أعرف عزيزة هانم . . وهى تعرفنى . .

— أنت تعرفها كسيدتك ، وهى تعرفك كراكبى مسكين . . يجذف أو يسوق لها اللنش وهى تتسلى بالنظر إلى الماء . .

— هذا ما تظنه أنت . .

— لا تحطم نفسك . .

فابتسم وقال وهو يخرج : « فى هذا الطريق . . لن أتحطم أبداً . . »

* * *

الفجر يرسل أشعته الأولى ، والصمت يشمل الكون . . على الضفة الأخرى يرتفع صوت صابر يؤذن الفجر . لم يرض أن يترك شيخ المسجد وحده عندما سمع بالمرأة والمهندسين والرجال والبوليس . . خاف أن

يعتدوا على المسجد وضريح الشيخ ، فعبر بقاربه فى ظلام الليل ودخل الجامع وبات عند الشيخ سعد . . فى الفجر استأذنه وقام بالأذان بدله .

بعد الأذان صلى الفجر مع الشيخ سعد . لم يكن هناك غيرهما . .

بعد أن سلما نظر صابر إلى الشيخ سعد وقال : « هل هذا يرضى الله ؟ الصيادون أهل هذه الأرض الطاهرة وأصحاب المسجد يطردون من هنا ، ويظل بيت الله خالياً كأنه منفى فى أرض الشيطان ؟ . . »

وقال شيخ الجامع : « سمعتهم يقولون إنهم سيهدمون الجامع والضريح . . . »

— متى ؟ . .

— ربما خلال أشهر . .

— هل أنت متأكد ؟ . .

— سمعتهم يقولون ذلك . . إنهم كل يوم هنا ، يقيسون ويرسمون ويتناقشون . .

— طمئنى . . خفت أن يهدموا المسجد اليوم أو غدا . .

— هذا مسجد ولىّ الله ، ولن يستطيعوا هدمه لا اليوم ولا غدا .

— ومن يمنعهم ؟

— الوزارة . .

— الوزارة والدنيا كلها معهم . . يستطيعون هدم المسجد ويقولون للوزارة إنهم سيبنون مسجداً جديداً . . إنهم أقوياء وأغنياء . .

— وكذابون أيضاً . .

— ولهذا فأنا أخاف منهم . . إننى أخاف من الكذابين . . لا أدرى

ماذا أفعل إذا هدموا المسجد . .

ـ أنت معنا . . . مع الشيخ إبراهيم ومع مصر . .

ـ وماذا نستطيع حيال القوة ؟ . .

ـ نستطيع إذا كنا رجالا . . الرجال لا يغلبهم أحد . .

ـ يغلبهم البارود والنار . . .

ـ ولماذا لا يكون معنا بارود ونار ؟

ـ إذن سنحارب الدنيا كلها . .

ـ إذا كنا على حق فلابد أن نحارب الدنيا كلها فى سبيل حقنا . .

ـ ولماذا لا تتفاهمون معهم ؟ .. إنهم مستعدون أن يعطوكم شيئاً إذا طلبتم ذلك . . .

ـ لا بد أن نركع أمامهم على ركبنا أولا . . ثم إنهم لن يعطونا شيئاً بعد ذلك . .

ـ لماذا لا نجرب ؟

ـ لأننا واثقون من أن القوى لا يعطى الضعيف شيئاً أبداً . . القوى دائماً يأخذ من الضعيف . .

ـ أى أننا ضعفاء فلا بد أن نعطى . . .

ـ هذه قاعدة من قواعد الحياة على وجه الأرض . .

ـ وما العمل ؟

ـ لا بد أن نكون أقوياء . .

ـ ليس معنا سلاح ولا بارود . .

ـ إذا أردنا السلاح وجدنا السلاح ، وإذا كنا مستعدين

للموت فسنجد البارود . .

ـ لم أسمعك تتكلم بهذا الكلام أبداً يا صابر ، ماذا جرى لك ؟ . .

ـ فتحت عيني على الحقيقة عندما سمعت مصر تقول إنها ستقاتل. .

ـ متى قالت ذلك ؟ . .

ـ أمس ، عندما وصل إليها الصيادون وشكوا إليها ما فعلوه بهم . .

ـ وكيف ستقاتل هى ؟ . .

ـ ستقاتل بنا . . مصر دائماً تقاتل برجالها . .

ـ أرجو ألا تخذلوها . . .

ـ وأنت ، ماذا ستعمل ؟ . .

ـ أنا إمام جامع . . ولكنى واحد منكم . . إذا قررتم القتال فسأقاتل معكم . .

ـ لن تتخلى لهم عن هذا المسجد ؟ . .

ـ وحدى لن أستطيع شيئاً . .

ـ لن تكون وحدك .. لن يكون واحد منا وحده.. سنقف معا ..

ـ ومن أين السلاح . . ؟

ـ أنا عندى سلاح لك . .

ـ أنت ؟ من أين ؟ . .

ـ أعطانى إياه الشيخ إبراهيم . .

ـ والشيخ إبراهيم ، كيف حصل على السلاح ؟ . .

ـ فى المظاهرة التى قتل فيها حمزة ابن صديقه عم عبد المطلب وقع من الإنجليز سلاح كثير . أخفاه الطلبة عند عم عبد المطلب ،

وعبد المطلب أعطى الشيخ إبراهيم منه ثلاث بندقيات ، والشيخ إبراهيم كان يقول : « ما دام الإنجليز عندهم سلاح فهم لن يخرجوا من بلادنا إلا إذا صار عندنا سلاح مثله . . »

ــ وماذا تنفع ثلاث بندقيات ؟ . .

ــ كان يقول : « كل مؤمن يدبر سلاحه بنفسه . هذا هو حكم الشرع ، لأن كل مؤمن مجاهد » . . وكان يقول : « أنا دبرت سلاحي وسلاح ابنتى وسلاح صابر ، وعندما يجىء وقت المعركة سيخرج كل منا بسلاحه ، وعلى الآخرين أن يدبروا سلاحهم » .. هكذا كان يقول . .

ــ وهل تعرف كيف تستخدم السلاح ؟ . .

ــ الشيخ إبراهيم تعلم استعمال السلاح من طالب طب كان زميل الشهيد حمزة ، وهو علمنى وعلم الست الطاهرة . .

ــ وعندكم بارود ؟ . .

ــ ما يكفى ليوم . .

ــ أين هذا السلاح ؟ . .

ــ أنا عندى سلاحى ، والست عندها سلاحها ، وسلاح الشيخ إبراهيم هنا . .

ــ إنه لى . . .

ــ إذا كنت مستعداً للحرب أعطيتك إياه .

ــ أنا مستعد . .

ــ لا . . لست مستعداً . . !

ــ من أين تعرف ذلك ؟ . .

— لأنك غير مستعد للموت بعد . عندما تكون مستعداً للموت قل لى . .

— قلت لك إننى مستعد . . أنا تلميذ الشيخ إبراهيم وإمام مسجده . .

— هل ستحارب فى سبيل مسجدك هذا ؟ . .

— كما قلت لك . . إذا سرتم كلكم للحرب سرت معكم . .

— إذن فأنت لست مستعداً بعد . .

— لا أفهم ! . . .

— المقاتل لا ينتظر الآخرين.. إنه يأخذ سلاحه ويسير نحو العدو ؛ كان الشيخ إبراهيم يقول إن الصحابة لم يكونوا ينتظرون بعضهم بعضاً . كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم للحرب ويعين لهم مكان الاجتماع وموعده . . عندما يحين الموعد يخرج من حضر ولو كان واحداً ، لأن الرجل منهم بألف . .

— سمعت منه هذا الكلام . .

— ولكنك لم تحفره فى صدرك . . السمع لا يكفى . .

— الآن هو محفور فى قلبى ، وهذه الظالمة لن تهدم مسجد الشيخ إبراهيم . . لا بد أن تقتلنى أولا . .

— هكذا يكون الكلام . . الآن سأعطيك بندقية الشيخ إبراهيم والبارود اللازم لها . .

— وتعلمنى ؟ . .

— طبعاً . .

— الليلة القادمة . سأجيئك عند منتصف الليل . نتقابل عند

الدوامات . اجلس على الشاطئ وأنا آتيك . .

ـ الدوامات بعيدة . .

ـ نريد أن يسمعوا طلقات النار ونحن نتدرب . .

ـ فعلا . . سأكون فى انتظارك . .

ـ عليك أن تفتح عينيك وتراقب كل شىء . . عندما آتيك تقول لى كل ما يصل إليك من الأخبار . . مصر تريد ذلك . . أنت رجلنا على أرضنا التى يحتلها العدو . .

ـ لاتخف . .

ـ المهم ألا تخاف أنت . الخوف هو عدونا . .

ـ سأتغلب على الخوف . .

ـ أتدرى ماهى أحسن طريقة للتغلب على الخوف ؟ . .

ـ طريقة الصحابة . .

ـ نعم ، كانوا يقولون : اطلب الموت توهب لك الحياة . . لكى تتخطى الموت ينبغى أن تفترض أنه وراءك . . إذا كان الموت وراءك فلا يبقى أمامك إلا الحياة . .

ـ أنا الآن لا أريد الحياة . . أريد الموت . . موت الشهداء . .

ـ أرسل أولادك وامرأتك إلى الست غدا . .

ـ أرسلتهم إلى بيت أبيها أول أمس . . عندما رأيت نذر الخطر . .

ـ إذن فأنت جندى . .

ـ أنا ابن مصر ، وفى سبيلها سأفعل كل شىء . .

ـ لن يمسوا هذا الجامع ، وسنعبر إليهم ونطردهم . .

ـ هذه أرض مصر . . ومصر لا بد أن تأخذ أرضها . .

ـ إلى الغد . . الله والرسول والصحابة معك . .

* * *

بعد الظهر بقليل . انتهت الصلاة فى جامع القرية ، ولكن عبد الرحيم الإسناوى بقى فى مكانه بعد التسليم . نهض وسار إلى ركن فى طرف الجامع وجلس . بعد قليل أقبل نحوه رجلان فى زى الصيادين وجلسا صامتين . .

فى صمت الجامع الخالى قرأ قارئ دون ترتيل كثير (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون. وعداً عليه حقّاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .

قال عبد الرحيم : « صدق الله العظيم . . »

وقال القارئ : «صدق الله العظيم . .»

ونهض وسار نحو ثلاثتهم فى ركن الصحن وجلس ثم قال : « أنا ذاهب الآن للتدريب . . »

ـ كم رجلا معك ؟ . .

ـ سأدرب عشرين اليوم، وعشرين صباح غد . .

ـ فى المكان نفسه ؟ . .

ـ نعم ، خلف حقول الأرز فى الطريق إلى فارسكور . .

ـ لا بد أن تغير المكان . .

ـ هل عرفوه ؟
ـ لا ، ولكنهم سيعرفونه ، ما كان ينبغي أن تقوله . لا يمكن حفظ سر يعرفه أربعة . .
ـ ولكنهم رجالنا . .
ـ السر إذا جاوز اثنين ذاع . وهذا سرك أنت لا سرنا نحن . . كل منا يحافظ على سره وحده.. إنها حرب ..
ـ فهمت . .
ـ الآن تتركنا وتعود إلى قراءتك. لن أراك إلا فيما بعد كما تعرف..
ـ لا بد أن أعيد الوضوء . .
ـ هذا شأنك . . .

ونهض القارئ واتجه نحو الميضأة ، وقال أحد الصيادين : « أليس هذا صلاح ابن الحاج حسنين الفوال ؟ »

ـ ليس هذا شغلك . .
ـ كنت أعرف أنه طالب فى الهندسة . متى دخل الأزهر ؟ . . .
ـ ليس هذا شغلك . .
ـ أردت فقط أن أعرف . .
ـ ومن أين تعرف الحاج حسنين الفوال ؟
ـ ابنى يعمل عنده فى مصنع الأثاث ، وهو واحد من شبابنا الذى يتدرب . .
ـ إذن لا أخفى عنك أنه هو ، والآن أنت مسئول عن هذا السر . .
ـ فى بئر . .

ـ (للصياد الآخر) وأنت أيضاً . .

ـ على عهد الشيخ إبراهيم . .

ـ كل واحد منا مسئول وحده أمام الله . .

ـ اطمئن . . نحن رجال . .

ـ هذا عشمي . . أتعرفان واجبكما ؟ .

ـ نعم . . سنعود الآن إلى الضفة الأخرى . . ونلزم الصمت . . .

ـ حتى تصلكم تعلياتى . .

ـ مع صابر ؟ . .

ـ لا أعرف الآن . . ستعرف رسولى إليك ، والعلامة بيننا ستعرفها الآن . . المهم أن تستعدوا كلكم وألا يظهر عليكم شيء . .

ـ نحن نعرف ذلك . .

ـ استمروا فى الصيد فى المنطقة التى حرموها عليكم . . إذا منعوكم فلا تقاوموا . . انتقلوا إلى المنطقة البحرية . .

ـ ومساكننا ؟ . .

ـ لن يجرؤوا على المساس بها . . سينذرونكم أولا . .

ـ وإذا أنذرونا ؟ . .

ـ اتركوها وانتقلوا إلى المنطقة البحرية . . هذا سيكون مكان أسراتكم عندما تقوم المعركة . .

ـ وأولادنا وأهلنا ؟ . .

ـ ترسلونهم من الآن إلى هناك . ستجدون هناك رجالا يعاونونكم فى البناء . .

فقال الصياد الثانى :

ـ لن أستطيع أن أنقل أسرتى . . امرأتى لن تسلم بيتها . . تقول إنها ستحاربهم . .

ـ دعها تحاربهم . .

ـ ياعم عبد الرحيم . . إنها أم أربعة . .

ـ دعها تحاربهم مادامت تريد . .

ـ وإذا قتلوها ؟ . .

ـ سيصبح أولادها رجالاً . . مصر تريد رجالاً . . لاينفعها أولاد يظلون طول عمرهم أطفالا يرضعون . .

ـ أحياناً أنا لا أفهم مصر . .

ـ ليس المهم أن تفهمها .. المهم أن تؤمن بها . .

ـ أنا أومن بها . . إنها الست الطاهرة . .

ـ زكى شنوده صاحب صلاح الدين الفوال يقول إنها ستنا مريم . .

ـ هى ستنا مريم أيضاً ... كان الشيخ إبراهيم يريد أن يسميها مريم، ولكن السيد البدوى أمره بأن يسميها الست الطاهرة . .

ـ ومن الذى سماها مصر ؟ . .

ـ الشهيد حمزة . . عندما استشهد فى المظاهرات بكاه الشيخ إبراهيم وهتف هاتف فى قلبه : «سمها مصر . . »

ـ مصر . . الست الطاهرة . . ستنا مريم . . الكل سواء . . . وأرضها لا تتجزأ . . من أسوان إلى الإسكندرية . . .

فقال عبد الرحيم :

– لا . . من منبع النيل إلى الإسكندرية . . هكذا كان الشيخ إبراهيم يقول : « إنها كلها أرض النيل . . كلها أرض مباركة ، لأن النيل ينبع من الجنة . . »

– شيء لله ياست ياطاهرة . . شيء لله ياستنا مريم . . .

وقال عبد الرحيم : « الآن يعرف كل منكم عمله . . . »

– طبعاً . . . ولكن نريد أن نسلم على الست قبل أن نعود . .

– لا تتأخروا . . تكونون هناك عند صلاة العصر . .

وتردد صوت القارئ : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

وقال عبد الرحيم : « صدق الله العظيم . . تلك هى العلامة . . »

– فهمنا . . .

– على بركة الله . .

* * *

بعد النور يكون الظلام ، ومن النهار يخرج الليل . . .

الشمس تهبط عند الأفق الغربى شيئاً فشيئاً ، وتبدو وكأنها تغوص فى ماء النيل ، حتى لا يبقى منها إلا حاجب متوهج أحمر فى لون الدم ، ويسيل هذا الدم وينتشر فوق صفحة الماء . . ويختفى حاجب الشمس ، مخلفاً فى السماء وهجاً أحمر برتقاليا يكتنفه إطار بنفسجى . .

وسط هذا الإطار الساحر من النور يتراءى البيت الصغير ، بيت الست الطاهرة فى هيئته الجميلة ، وتهب أنسام المغيب فتداعب الزهر

الصاعد على جانبى المدخل . . عصافير الجنة ، تلك العصافير الصغيرة ، تدور فى السماء فى رقصة وداع للنهار ، وكلما تضاءل النور هبطت فى دورانها وهى تزقزق فى شبه نشيد حزين . . إن شمس اليوم تموت ، وهذه العصافير تبكيها كما فعلت ملايين المرات منذ كانت الشمس ومنذ كانت العصافير . .

وانفتح باب البيت ، وظهرت على الباب الست الطاهرة بوجهها الوسيم وملامحها النبيلة ، ونزلت الدرجات الثلاث ، واتجهت إلى اليمين فوقع على شعرها ضوء الغسق، وتراءت حمرته فى وجهها الأسمر الرقيق ، ونظرت يميناً ويساراً ، ونادت : « حليمة ! . . »

وأقبلت حليمة ، رفيقتها ومربية آدم ، فسألتها فى لهفة الأم : «آدم . . أين آدم ؟ . . »

— هاهو ذا . . على ظهر ريحان . .

ونظرت إلى حيث أشارت ، فرأت ابنها فى طرف الحقل على ظهر الحصان الجميل ، فقالت وقد اشتد فزعها : « وحده مع ريحان فى هذه الساعة ؟ . . »

— لا .. معهما عبد الرحيم .. هاهو ذا مسنداً ظهره إلى شجرة الجميز .

وقرّ قلبها فى مكانه عندما وقع بصرها على عبد الرحيم . .

كان الرجل مسنداً ظهره إلى الشجرة ، وعصاه فى يده وعيناه على آدم وهو يجرى بالحصان . .

وقالت الست الطاهرة : « حقاً إن نعمة الله الكبرى رجل تطمئن إليه القلوب . . »

– ولكن . . أين مثل عبد الرحيم ؟ . .

– كلما نظرت إليه أحسست وكأنه يجر الصعيد كله إلى الدلتا . . يقولون إن الدنيا يحملها ثور . . ومصر دون شك يحملها صعيدى . .

– من يسمعك تقولين ذلك لا يظن أنكَ بحراوية . .

– أنا لا بحراوية ولا صعيدية . .

– أنت وجه قبلي ووجه بحري . . لا أدرى : عيناك من هنا ووجهك من هناك . .

– أمى كانت من الصعيد . . من ديروط . .

– يقولون إنها كانت أجمل صعيدية فى عصرها . .

– كان أبى يقول ذلك . . كان ينظر إلى وجهها ويقول : « حقاً إن نعمة الله الكبرى على الرجل امرأة صالحة ذات وجه وسيم . . »

ومدت بصرها إلى حيث ابنها . . كان ريحان يدور به معتزاً .. وكان صوت عبد الرحيم يتردد : « على مهلك ياريحان . . آدم صبى صغير . . . على مهلك . . على مهلك . . »

وقالت الست الطاهرة : « هل عاد الرجال إلى الضفة الأخرى ؟ »

– معظمهم . . عبد الرحيم استبقى منهم نفراً . . إنهم منتشرون حول البيت . .

– لانريد أن نحرم أهلهم منهم . . .

– سيذهبون من الغد . .

– ومن أين عرفت ذلك ؟ . .

ــ زوجى سيذهب معهم . . هناك ينتظرهم صلاح ابن الحاج حسنين القوال . .

ــ لا تذكرى اسمه لأحد . . إنه طالب هندسة ولا نريد أن نعرضه للخطر . . ربنا يحرسه هو وأصحابه مصطفى بدر وزكى شنوده وإخوانهم . .

ــ كيف أتوا قبل الامتحانات ؟

ــ دائماً يعودون إلى أهلهم قبل الامتحان بشهر ليذاكروا . .

ــ ولكنهم لا يذاكرون الآن . . إنهم مع الصيادين طول الوقت . .

ــ إنهم يدربونهم . . هذا أيضاً استعداد للامتحان . .

ــ كنت أرى أولادنا دائماً يستعدون للامتحان بالمذاكرة . .

ــ هذا هو الاستعداد للامتحان الأصغر . . الآن هم يستعدون للامتحان الأكبر . . يعدون مستقبل بلادهم لا مجرد مستقبلهم . .

ــ كنت أظن أنه خير لكل منهم أن يذاكر دروسه ليعد مستقبله . .

ــ مستقبل الوطن كله أهم . . وما الفائدة فى أن يهتم كل منا بمستقبله ومستقبل أولاده فى حين لا أحد يهتم بمستقبل الوطن كله ؟ . . ليس لأحد منا مستقبل ما لم يكن مستقبل مصر آمناً . . وما معنى أن يصبحوا مهندسين أو أطباء إذا لم يكن لهم وطن عزيز يمارسون فيه عملهم كمهندسين أو أطباء ؟ . . بدون هذا يصبحون جميعاً لاجئين ، واللاجئ لاجئ سواء كان طبيباً أو ممرضاً . . إنه لاجئ مشرد لا وطن له ؛ انظرى إلى أولئك الصيادين . . إذا لم نقف كلنا معهم الآن أصبحوا

لاجئين عندنا . . أصبحوا لاجئين يلتمسون العيش من فضل الآخرين . . إذا لم نبادر نحن إلى عونهم أصبحنا عن قريب مثلهم..لأن العدو إذا أحس منا ضعفاً فلن يسكت حتى يقضى علينا تماماً . . .

ــ أحياناً أشعر أنك لست امرأة ! . .

ــ إنى مشكلة بالنسبة لنفسى . . أحياناً أشعر أن سنى ٢٠ سنة ، وأحياناً ٢٠ ألف سنة . . أحياناً أشعر أنى كل نساء هذا الوادى وكل رجاله أيضاً . .

وساد الصمت ، الست الطاهرة تلقى نظرة أخيرة على الأفق . الآن هبط الليل وعم الظلام ، ومن بعيد تراءت مصابيح . من بعيد أيضاً يقبل ريحان وعلى ظهره آدم ، فتسرع نحوه أمه وتحمله وتضعه على الأرض ، وتزيح شعره عن جبينه وهو يقول : « لقد قفزت الحاجز الصغير اليوم . . غداً أقفز الكبير . . »

ثم يقبل عبد الرحيم بخطوات وئيدة بعض الشىء ، ولكنه نشيط منفرج الأسارير ، وتقول له الست الطاهرة : « حقـاً ؟ هل قفز اليوم حاجزاً ؟ . . »

ــ نعم ، الحاجز الصغير . . ومن أيام قفز فوق الترعة . . وغداً يقفز الحاجز الكبير . .

ــ ولكنه مازال صغيراً ياعبد الرحيم . .

ــ ينبغى أن يكون رجلاً من الآن . .

ــ فى العاشرة ؟ . .

– فى بلدنا يصبح الأولاد رجالا عند الفطام ، ونحن نعاملهم على أنهم رجال . .

وهنا يقول الصبي : « أمى . . يقولون إن ريحان جاء إلى جدى إبراهيم من السماء . . . »

– كيف من السماء ؟ . .

– هبط بجناحين . .

– وأين الجناحان ؟ . .

– عنده . . خلعهما وحفظهما فى بيته ، وسيطير بهما عندما يريد . . أنا أيضاً أريد جناحين . .

– لماذا ؟

– لكى أطير معه . .

– ولكن الإنسان يطير بدون أجنحة . . ألم تر الطائرة فى السماء ؟ . .

ثم طلبت إلى حليمة أن تأخذه لتغير ملابسه وتغسله وتعده للنوم . فى أثناء الحديث كان ريحان قد سار من تلقاء نفسه نحو مهجعه ، وتنظر مصر إلى عبد الرحيم وتقول له : « يبدو أنك متعب . . »

– إنى لا أشعر بنفسى . . عندما ينتهى ذلك كله فقد أعرف أمتعب أنا أم غير متعب . . ولكنى فى حاجة إلى فنجان قهوة . .

– تعال نشرب القهوة ونتكلم قليلا . .

– لدىّ كثير أقوله لك . .

– كنت أعرف ذلك ، ولكنى كنت أنتظر حتى يذهب الجميع . .

– كلهم ذهبوا الآن . .

ـ والصيادون ؟ . .

ـ ذهبوا جميعاً إلا عدداً قليلا منهم أصروا على أن يظلوا هنا لحمايتك . .

وأبرق وجهها بالبشر وقالت : « يحموننى أنا ؟ . . مَن يحمى مَن ؟ كنت أظن أننى أنا أحميهم كلهم . . »

وسارا معاً فدخلا البيت ، وذهبت نحو المصباح الغازى فرفعت شعلته قليلا ، ثم نادت حليمة ، فأقبلت ، وسألتها عن آدم فأكدت لها أنه يغتسل ، وأنه بعد ذلك سيتعشى وينام . . فرجتها أن تفتح عينيها وتنام معه فى الغرفة حتى تأتى هى . كانت حليمة مرضعة آدم ومربيته. امرأة مليئة بيضاء البشرة زرقاء العينين من عزبة البرج ، تلبس ثوباً أسود وتغطى رأسها بوشاح أسود . إنها شابة ولكنها لا تتزين ولا تميل إلى شىء من زينة الشباب . رجتها مصر أن تتركها مع عبد الرحيم وأن تتفرغ لآدم . عندما استدارت وذهبت قالت مصر لعبد الرحيم : « العواجيز يتمسكن بالشباب ، وهذه الشابة لا تريده . . »

ـ تقول إنها تتشبه بك . .

ـ ولكنى لم أقل إننى لست شابة . .

ـ لاأدرى ، أنت أصغر الجميع . . وأنت أم الجميع . .

ـ ولكنها هى . . مالها ومالى ؟ . . تصور أنها تعمل بيديها أجمل مناديل الرأس ولا تلبس مرة واحدة منديلا . .

ـ ربما هى لا تحب هذه المناديل . . أنا أيضاً لا أحب الأوية . .

ـ لاأدرى ، ولكننى أنا أيضاً لا أرتاح لها . .

– إنهم يكسبون منها كثيراً . .

– حليمة تكسب من المناديل أكثر مما يكسب زوجها من صيد السمك . .

– وأين زوجها الآن ؟ . .

– سمعتها تقول إنه هنا . .

– إنه واحد من أولئك الذين يصرون على حراستك . .

– وماذا يخشون عليّ ؟

– يخشون عليك منها . .

– تقصد عزيزة ماهر ؟ . .

– هي بالذات . . .

– ولكنني لا أخشاها . . .

– لوكنت منك لخشيتها . .

– وماذا يخيفني منها ؟

– إنها امرأة شريرة . . إنها سبب ذلك كله . .

– أؤكد لك أنها مدفوعة إلى ذلك . . . أهلها من ورائها . .

– لماذا تدافعين عنها ؟

– لأنها امرأة مثلي . . مسكينة مثل كل النساء هنا . .

– ولكن هذه ليست مسكينة . .

– لاتصدق أن هنا امرأة ليست مسكينة . . هذه البلاد يأكل الرجال خيرها كله . . هذه بلاد آدم ، وعلى حواء أن تبحث لنفسها عن مكان آخر . .

فضحك وقال : « يعجبنى أن تتحدثى أحياناً بلسان حواء . . »

— وماذا أكون أنا ؟ . .

— أنت أم آدم . . . أما ستنا حواء فزوجته . .

— تزوجها ثم تبنته . . هذه مأساة حواء . .

— أظن أنه فى ظروفنا الآن لا فرق بين آدم وحواء . . معاً يعيشان المأساة . .

وبينما كانت تحدثه ، كانت تعمل القهوة على منضدة صغيرة عند الحائط . عملتها على موقد سبرتو صغير ، ثم حملتها وسارت بها نحو كنبة إلى اليسار ، فنهض مسرعاً وهو يقول : « أستغفر الله ! » وحاول أن يأخذ منها الصينية الصغيرة فرفضت وقالت : « لعم عبد الرحيم لا بد أن أحمل القهوة بنفسى . . لا أكون مصر إذا لم أخدم الصعيد . . »

ونظر إليها فى صمت . وضعت الصينية على وسادة فى وسط الكنبة ثم جلست ، وتناول الرجل فنجانه فرشف منه شيئاً ثم قال : « بعد قليل يكون كل شىء مستعداً . . »

— أنت تعرف خطورة هذه المعركة . .

— نعم . . . ولا بد منها . . لهذا نحن نستعد لها جيداً . .

— هل طردوا الرجال من بيوتهم ؟

— ليس بعد . . أظن أنهم سينتظرون حتى ينتهى موسم الصيف . إنهم بحاجة إلى هؤلاء الرجال لأعمال المصيف ونقل المصيفين إلى رأس البر . شعورى أنهم سيطردونهم عندما ينتهى المصيف . . ربما بعد موسم السمان كذلك . .

ــ يريدون أن يستغلوا الرجال إلى آخر لحظة ، ثم يطردوهم بعد ذلك ..

ــ ولكنى لن أدخل المعركة معهم إلا إذا تدرب الرجال تماماً . .

ــ ولو اعتدوا علينا ؟ . أقصد لو طردوا الرجال قبل ذلك ؟ . .

ــ هنا سيجدوننا مستعدين . . عملنا ترتيباً لكل شىء . .

ــ المهمُ أن نضمن النصر . . إنها معركة وليست لعباً . .

ــ لهذا فأنا أحسب حسابى جيداً . . ومهما حدث فإن النصر لنا . .

ــ لأننا على حق . .

ــ بل لأننا نحمى الحق بالقوة . . لا حق بلا قوة . .

ــ هل أعددت للرجال كل ما هم بحاجة إليه فى مكان التدريب؟ . .

ــ نعم ، ونحن ننشئ لهم من الآن أكواخاً . .

ــ عند الدوامات ؟ . .

ــ نعم فى مكان إلى جوارها . . المهم أن نكون خارج منطقة نفوذ آل ماهر وأصحابهم . .

ــ والرجال ، كيف حالهم ؟ . .

ــ إنهم سعداء ويعملون بنشاط . . ونحن كلنا تحت رايتك . .

ــ لا أريد أن أكون مجرد راية . . أريد أن أكون العلم وحامل العلم ..

ــ أنت تقررين ذلك . .

ــ آه . . . فيم كنت تريدنى . . ؟

ــ نحن فى حاجة إلى شىء من النقود . .

ــ عندك مصاغى ...

ــ أعرف ذلك ، ولكنى أردت أن أستأذنك . .

ــ لا داعى للإذن . . هذا مالنا كلنا . . فى وقت كهذا يصبح المال كله للبلد . .

ــ هذا ما تقوله نساء الصيادين .. إنهن يردن أن يقدمن مصاغهن. .

فقالت فى شىء من غضب : « لا تأخذوا منهن شيئاً . . يكفى أن رجالهن وأولادهن فى المعركة . . . »

ــ ولكنهن يصررن على ذلك . . يقلن إنها معركتهن أيضاً . . هذه بيوتهن وتلك أرضهن . .

ــ نعم هذه بيوتهن وتلك أرضهن . . ولكن الدفاع عنها عمل الرجال . .

ــ ولكنهن يقلن : لماذا أنت فى المقدمة ؟ . .

ــ أنا أحارب برجالى، وينبغى أن يسمعن ما أقول . .

ــ لافائدة . . إنهن لن يسمعن ، ومن رأيى أن نتركهن ، فنحن فى حاجة إلى كل قلب جرىء مخلص ، وفى المعركة التى نحن فيها لا رجال ولا نساء . . إن بعضهن هنا فى الأكواخ الصغيرة خلف الجامع . . إنهن هنا فربما تحتاجين إليهن . .وربما احتاج إليهن الرجال . .

ــ عجباً ، كل هؤلاء الناس هنا ولا أسمع صوتاً ؟ . .

ــ لاأدرى . . هناك لحظات يستيقظ فيها الناس ويملأ قلوبهم العزم والتصميم . .

ــ ولهذا فهم صامتون . .

ــ طبعاً ، لأن الذى يعمل لا يتكلم . . والذى يتكلم لا يعمل . .

ــ كم أحب الإنسان الصامت . . الرجل الذى يعمل فى هدوء وصمت ، لا يصرخ ولا ينادى ولا يتحرك فى عصبية ولا يقفز هنا



وهناك كالقردة . . أؤكد لك أننا نستطيع أن نكسب المعركة بالصمت والهدوء والعزيمة . . إنها أسلحة ماضية . .

– تعرفين ياست ؟ . . واحد من أولئك الشبان المتعلمين الذين يعملون معنا هنا لا يتكلم كلمة واحدة فى اليوم . . طول النهار يعلّم ويدرب فى هدوء وصمت وثبات ، الدرس الأول الذى يعلمه لهم هو الصمت والثانى الثبات . . يفرض عليهم أن تمر ساعة كاملة من التدريب دون أن ينبس واحد منهم بكلمة ، يقول لهم : « ليفهم الواحد منكم الآخر بالنظر فقط . . دائماً عيونكم تنظر إلى حيث العدو وأصابعكم على الزناد . . أحب الرجل الذى ينظر بعين الصقر . . »

– هذا زكى شنوده . .

– تعرفينه ؟ . .

– إنه يذكرنى بصورة تمثال مصرى قديم رأيتها . .

– أظن أنه ما زال هنا . . سيقود الدفعة الأخيرة من الرجال التى ستعبر النهر هذه الليلة . .

– أريد أن أراه . .

– آتيك به . .

ويمضى ، وتسير مصر إلى غرفة ابنها فتنظر إليه وقد استسلم للنوم . . تقبله ، ثم تنظر إلى حليمة وتسحب الغطاء عليها . ثم تستوثق من أن باب الغرفة المؤدى إلى الحقل مغلق . تضع يدها تحت وسادة آدم وتخرج مصحفاً فتقبله ثم تعيده إلى مكانه . . تخرج وتعود إلى القاعة ، فتجد عبد الرحيم فى انتظارها وإلى جانبه شاب وسيم الطلعة أسود الشعر أسمر

اللون يرتدى قميصاً خشناً وبنطلوناً رماديين، ولكنه أنيق حسن الهندام.. قالت له وهى تمد يدها إليه :

ــ إننى أعرفك يازكى شنوده . .

ــ وأنا أعرفك من زمن طويل جداً . . قبل أن أعرف قريتكم هذه . .

ــ وكيف عرفتنى إذا كنت لم أبرح بلدى هذا ؟ . .

ــ عندما رأيتك أول مرة مع صلاح أحسست أن صورتك ليست غريبة عنى .. ذكرتنى بتمثال للإلهة إيزيس فى الجبل قرب ديروط . . تمثال رائع من الجرانيت لإيزيس واقفة تنظر إلى الأفق ، لابسة مثل ملابسك هذه . . هتفت عندما رأيتك : إيزيس ! هذه إيزيس ! . . وهناك صورة أخرى من هذا التمثال فى متحف أسيوط . كان حارس المتحف عم جرجس يمسح التمثال بمنديل من الكتان ويقول : « انظروا يا أولاد . . هذه أم مصر كلها . . . انظروا إلى عينيها ، إلى أنفها . . إلى العزة والكبرياء فى ملامحها تعرفوا معنى مصر . . هذه أمكم » . . . صدقينى ياست ياطاهرة . . أنت عندى إيزيس . .

ــ إننى أدعو الله أن يحرسكم جميعاً . .

وقال عبد الرحيم : « زكى . . اذهب الآن . . الرجال ينتظرونك . . »

فقال وهو ينظر إلى الست الطاهرة : « صلاح يقول إنك لا بد أن تزورينا فى الموقع . . »

ــ بإذن الله . . المهم أن تحافظوا على أنفسكم وعلى الرجال . .

ثم التفت زكى شنوده إلى عبد الرحيم وقال : « ولكن قبل أن أذهب أريد أن أسألك عن صابر . . »

ــ سيكون عندكم الليلة . . ألستم ذاهبين الليلة ؟

ــ لا بد أن نكون هناك فى الفجر . .

ــ ستجدونه هناك . . حافظوا على أنفسكم . . خذوا بالكم من الدوامات عندما تمرون أمامها . .

ــ سنمر جنوبها . .

ــ ابتعدوا عنها قدر الطاقة . . ألا تستطيعون أن تختاروا مكاناً آخر غير شاطئها ؟ . .

ــ لا يمكن . . إننا نحتمى بها . .

ــ إذن على بركة الله . .

وحياها وخرج ، وتبعه عبد الرحيم .. وأغلقت الباب .. وساد الصمت .

وسارت مصر ففتحت نافذة تطل على الحقل ، ودخل هواء منعش ، تنفست من أعماق صدرها ووقفت ونظرها مرسل فى الظلام . من بعيد تراءت أضواء خافتة تتراقص فى هدوء الليل ، تلك هى أنوار الضفة الأخرى ، حيث يربض العدو الذى يريد أن يغتالها . لا بد من القضاء عليه . الأضواء الصغيرة تترقرق فى صفحة الماء وتلمع كأنها نجوم . . خيل إليها أنها تسمع تلاطم أمواج النهر الخالد وهى تتوالى فى سيرها الأبدى إلى حيث لا يعلم إلا الله . . هذه المياه ينبغى أن تظل طاهرة ، لا يمكن أن نسمح للعدو بأن يدنسها . . لا بد من أن يزول . . لا بد من أن نستعيدها . .

ورفعت يديها وقالت : « هذه أرضى . . هذه لحمى ودمى . . هذه أنا . . لا بد أن أستعيد نفسى . . »

ودخلت حليمة فرأتها فى مكانها ، فتقدمت محاذرة أن تزعجها ، فلما اقتربت منها قالت : « سيدتى . . لا بد أن تستريحى . . لا بد أن تتناولى شيئاً . . منذ الصباح لم تأكلى شيئاً . . لا يمكن أن تعيشى على الماء وحده . . »

— إنها أرضنا ياحليمة . . هذه أرضى وأرض رجالى وأرض أبى .. هناك يرقد الشيخ الجليل . . هناك المقام المقدس . .

— له رب يحميه . .

— الله يحمى أرضه بالمخلصين من عباده ياحليمة . .

— المخلصون كثيرون . . إنهم يعملون كاترين . . . هذه الأرض لها رجالها دائماً ، ولكنك تهلكين نفسك . .

— إننى خائفة على رجالى ، لأن العدو هذه المرة غادر شرير . . . إنه ليس مجرد طالب عيش . . بل وحش كاسر . . لو تركناه لشرب ماء النيل كله ووصل إلينا . . لا يكفى طرده . . لا بد من القضاء عليه . . .

— ولكنك لن تستطيعى ذلك إذا مضيت تهلكين نفسك على هذه الصورة . . لا بد أن تستريحى الآن . .

— ولكننى لست متعبة . . إننى وحيدة . . برغم كل ما ترين . . أشعر أننى وحدى . . أولادى كثيرون ، ورجالى كثيرون ، ولكننى أشعر بوحدة موحشة . . قلبى كأنه خلاء واسع مظلم » . .

— سمعت أن أباك الشيخ إبراهيم كان يقول ذلك . .

— أظن ذلك . . وكان يقول إن الأنبياء والصلحاء جميعاً كانوا يعيشون فى وحدة . . كانوا يعيشون وسط الناس ليلا ونهاراً ومع ذلك كانوا

يشعرون بوحدة رهيبة . . كان بعضهم يقول : « ويل لى . . إننى أعيش على قمة الجبل وحدى . . » . .

– إذن لماذا تشكين ؟ . . لا مفر لك من هذه الوحدة . .

– ولكنى امرأة ياحليمة . . أنا امرأة مثلك . .

فصمتت حليمة برهة ، ثم أنصتت مصغية نحو باب غرفة آدم وقالت : « آدم . . هل صحا ؟ . . أتسمعين صوته ؟ . . »

وأنصتت مصر قليلا ، ثم ذهبت نحو الباب ففتحته وألقت نظرة ثم عادت تقول :

– لا . . . إنه نائم . .

وبعد لحظة عادت تقول : « كلكم تنسون . . . إننى امرأة . . . »

فسكتت حليمة برهة ثم نظرت إلى وجهها وقالت : « مازلت تحبينه . . »

ولم ترد الطاهرة ، بل ظلت ناظرة إلى الأرض ، ثم هزت رأسها وقالت : « لا أدرى . لا أدرى حقيقة شعورى . . . أحياناً لا أدرى من أنا أو من أنتم . . . » فعادت حليمة تقول : « لا تهربى من الجواب ... أما زلت تحبينه . . ؟ »

فرفعت رأسها بعد برهة وتجلى وجهها بغاية جماله وقالت : « لماذا تصرين على هذه العبارة ؟ . . »

– لأنى أعرفك . . لاتنسى ياطاهرة . . . كنا صبيتين معاً . . . ثم أصبحنا شابتين تعيشان بقلب واحد . . هل تذكرين تلك الأيام ؟ ...

– مع الأسف . . . مازلت أذكرها . . .

– لماذا تهربين من نفسك ؟ . .

ـ ليتنى أعرف أين نفسى . .

ـ بل لا تدرين أين قلبك . .

ـ وأين قلبي يا حليمة ؟ . .

ـ قلب المرأة يظل دائماً عند حبها الأول . .

فقالت فى ألم شديد : « حبي الأول ؟ . . أين هو حبي الأول ؟ . . ألم تسمعي يا حليمة أن الحب عصفور لا يحب الأقفاص ؟ . . »

ـ ولكن كل عصفور يحب عشه . .

فنظرت مصر حولها ثم إلى السقف ، ثم قالت : « وأين هو عشى ؟ . . » ثم ضحكت فى مرارة وقالت : « عشى ؟ هذا عشى . . . »

فقالت حليمة : « أنا امرأة متزوجة مثلك ، وأفهم هذه الأمور . . . الرجل يعود دائماً إلى عشه ، ما لم يتخذ عشاً آخر . . »

فقالت فى غضب : « لا يجرؤ . . »

ـ لو كنت منه ما جرؤت . . . ولو كنت منك ماحزنت . . ليس فيهم واحد يستحق الحزن . .

ـ لا أدرى . . .

ـ على أى حال . . . لا تغلقى الباب أبداً . . .

ـ لن أغلق الباب مالم يدخل باباً آخر . . .

ـ وحتى . . لو أخطأ ؟ . .

ـ لو أخطأ انتهى كل شىء . .

ـ نحن النساء نعفو دائماً . .

ـ فى هذه الحالة لا تعفو المرأة ، ولكنها تقبل الذل . . . وأنا

لا أقبله . . ليس هناك ما يدعو أحداً إلى أن يقبل الذل أبداً . . لا الحب ولا لقمة العيش . .

ــ ولا آدم ؟ . . ولا الأولاد ؟ . .

ــ ولا آدم . . .

ــ هذه قسوة . .

ــ ياحليمة . . لو تقبلت الذل فى سبيله لورث عنى هذا الذل ، وهذه جريمة فى حقه . . .

ــ على أى حال . . لم يحدث شىء إلى الآن . . فلماذا لا تدعين الباب مفتوحاً ؟ . .

فهزت مصر رأسها وجلست صامتة . وقالت حليمة : « آن أن تستريحى ياحبيبتى . . . »

ــ أظن ذلك . . وراءنا غداً عمل كثير . .

ــ تصبحين على خير . .

ــ حليمة . . لا أستطيع أن أنام قبل أن أطمئن على عم عبد الرحيم وصلاح الفوال وزكى شنوده وبقية الرجال . .

ــ نامى أنت ودعى ذلك لى . .

ــ وصابر . .

ــ ودعى هذا أيضاً لى . . نامى أنت وكفاك أن تعتنى بآدم . . .

وأشرقت أسارير الأم وهى فى طريقها إلى حجرتها وحليمة تنظر إليها فى حنان ، وقبل أن تفتح الباب نظرت إلى حليمة وقالت : « وريحان ... أرجوك ياحليمة . . قبل أن تنامى انظرى إلى ريحان . . اطمئنى

عليه ، قولى لواحد من الرجال ينام قرب بابه ، إننى أخاف عليه . .

ــ ليتنا نخاف عليك كما تخافين علينا كلنا . . »

وفتحت الباب ودخلت وأغلقته خلفها ، وذهبت حليمة فأغلقت النوافذ المفتوحة . . ثم خفضت نور المصباح الغازى وخرجت على أطراف أصابعها . .

* * *

حِدِأَن كثيرة تحوم فوق غابة النخيل . عشرات منها تطير وتتدافع فى الجو وتقترب من رؤوس النخيل ثم تعلو . رفع الشيخ سعد رأسه إلى أعلى وتعجب : « جنت هذه الحدأن ولا شك . . أم تعلمت أكل التمر ؟ . . غير ممكن . . الحدأة لا تحوم إلا على اللحم ، لا بد أن هناك لحما . . آه . . هاهو ذا كلب ميت ! لو كان حياً لما جرؤت واحدة منكن يابنات الأبالسة على الاقتراب منه . . سأرى شجاعتكن ! »

ثم رفع بندقيته وصوب نحو إحداهن وجعل يتابعها ، ثم أطلق النار . لم يصبها ، ولكن الحدأن كلها تطايرت واختفت . .

ضحك لنفسه وقال : « فهمت السر . . لكيلا تتخاطفك الكواسر لا بد أن تكون لك أسنان أو فى يدك سلاح . . »

وسمع صوتاً قادماً من بعيد ، فسار فى هدوء نحو جذع نخلة ورفعه بجهد شديد ، فانكشفت تحته حفرة فوضع فيها البندقية وأعاد الجذع .

وأقبل رجلان يعدوان ، فلما رأياه نادياه : « من أنت ؟ . . »

ــ أنا سعد إمام الجامع . .

ــ وماذا تعمل هنا ؟ . .

ــ أجمع البلح الساقط على الأرض . .

ــ وهل هذا عملك ؟

ــ هذا نخل الجامع . . هذا نخل مَقام الشيخ إبراهيم وأنا خادمه . .

ــ هل سمعت عياراً ناريا ؟ . .

ــ ماسمعت . .

ــ الصوت أتى من هذه الناحية . .

ــ لا أدرى . . ما سمعت شيئاً . .

فقال أحد الرجلين للآخر : « هذا حمار يا أخى لا يفهم شيئاً . . لماذا تسأله ؟ . . هذا ما رأى بندقية فى حياته . . » ومضيا واختفيا فى النخيل . .

ــ يا أولاد الأبالسة ! وضعتم أيديكم على أرضنا ودستموها بأقدامكم القذرة . . . أيتها الحدآن آكلات الجيف ! طلقة واحدة فى الهواء فلا تبقى منكن واحدة ! المرة القادمة سأحسن التصويب . . وستتبدد الأبالسة والحدآن وكل الكواسر العادية . .

* * *

القصر رابض كالحصن وسط الأشجار والنخيل ، يحيط به سور كبير يمنع الدنيا من ولوج بابه . من هذا الباب إلى السلم الرخامى يمتد رمل أحمر أنيق يقوم على جانبيه نخيل ملكى أبيض وأصص زهور . . .

وقف عند البوابة ينتظر الإذن له فى الدخول ، وبصره مرسل مع الممشى الرملى الأحمر المؤدى إلى سلم الرخام والآمال . أحس وهو ينتظر

أنه يصغر شيئاً فشيئاً ، وملابسه التى تأنق فيها أخذت تتهلهل فى إحساسه أمام الفخامة التى رآها . كان قد نزع عن نفسه ملابس الصيادين وارتدى البذلة الوحيدة التى لديه . كانت هى قد اشترتها له فى العام الماضى ، عندما رضيت عنه وأعجبها وأذنت له فى أن يقود لها اللنش ويمضى بها فى نزهات على صفحة النهر كأنها الأحلام . .

منذ الخريف الماضى وهذه الأحلام تؤرقه وتملأ نفسه بخيالات كأنها فقاعات هائلة . . لا يزال يذكر ساعات الأصيل واللنش يمضى بهما كالسهم على صفحة الماء ، ويدها على يده وصدرها يدفئ ظهره وخدها على خده . . . أحلم هذا أم علم ؟ . . دنيا هذه أم أخرى ؟ . . أيامها كان يرى نفسه ضخماً كهذا القصر . .

أما الآن وهو على باب القصر يلتمس الإذن ، وهذا البواب القاسى يقتحمه بنظراته ويرميه من عينيه بشرر ، فهو يحس بنفسه حقيراً صغيراً . . أصغر وأقل من هذه الجرادة التى تقفز عند قدميه . . إنها على أى حال فى بيتها . .

وجاء من باب القصر أعلى السلم الرخامى خادم يجرى يحمل الإذن له بالدخول ، وقرأ فى عينى البواب أن قيمته زادت فارتفع رأسه . .

فى البهو الذى أدخلوه فيه شعر مرة أخرى بصغر قدره ، كل ما هنا جميل كبير غال ورفيع ، إلا هو . قطع الأثاث والسجاد على الأرض ، والثريا فى السقف ، والستر على النوافذ ، والمرايا والصور على الجدران ، كلها لها أثمان غالية . . ليس هنا شىء لا قيمة له ولا ثمن ، إلا هو .

وانتظر . . حتى صار أضأل من نملة . . ثم انفتح باب ضخم

ودخلت ربة القصر وعروس الأحلام : عزيزة هانم ماهر صاحبة الأرض الواسعة . . ورثت بعضها عن أبيها ، وبعضها الآخر حصلت عليه من زوجها الأول . . ثم طلقت من زوجها الثانى – وهو ابن عمها – وأخذت منه مالا عريضاً ، ولكنها لم تقطع صلتها به . . إن المال يجذب المال ، وأصحاب المال كلهم أقارب ، والمال نسب . .

ثم أنشأ معها ومع نفر من أقاربها شركة لاستغلال أراضى هذه الناحية . . يقولون إنهم سينشئون مدينة تجعل من رأس البر مصيفاً عالميا فيه الفنادق الفخمة والمطاعم الفاخرة وملاعب القمار وعلب الليل والمتعة .. إنهم يعملون الآن فى جد .. خطوتهم القادمة هى الاستيلاء على أرض الشيخ إبراهيم واغتصابها من الصيادين وضمها إلى أراضيهم بالقوة . .

دخلت فى بذلة ركوب خيل أنيقة . . كانت عائدة لتوها من الجرى بالحصان فى أحراج النخيل التى تملكها . نظرت إليه طويلا ثم قالت بشىء من عدم الاكتراث : « ريّس إسماعيل . . ؟ لم يقل لى أحد أنك أتيت إلا من لحظة . . »

– أخشى أن أكون متطفلا . .

فأشعلت سيجارة ثم قالت : « كيف الحال عندكم ؟ »

– حسن بفضلكم . .

– يقولون إن جماعة من الصيادين يزعمون أن أرض الشيخ إبراهيم ملكهم . .

– هكذا نسمع من زمن بعيد . .

ـ هذا الشيخ إبراهيم وضع يده عليها . .

ـ لا أدرى . . كنت أسمع أن وزارة الأوقاف أعطته إياها ليبنى مسجداً . .

ـ هذه ليست أرض وزارة الأوقاف . .

ـ الشيخ إبراهيم وحده هو الذى كان يعرف حقيقة الأمر . .

فسكتت لحظة ثم جلست ، ودعته إلى الجلوس ، وقالت وهى تنظر إليه : « وابنته ؟ . . زوجتك أقصد . . ألا تعرف ؟ . . »

ـ أعرف أنها تصر على أن الأرض أرض الجامع . وأن أباها أخذها من وزارة الأوقاف ، وأظن أن لديها وثيقة بذلك . .

فقالت له ، وقد تغير صوتها مائلا إلى الرقة : « اقترب منى قليلا . . . أريد أن أسمع ما تقول . . ألم يحضروا لك شيئاً . . قهوة ؟ . . أنا أعرف أنك تحب القهوة . . أنت تصنعها جيداً . . »

فشعر بالأنس يملأ قلبه ، ولمعت عيناه وهو يقول : « كنت أعملها لك فى اللنش عندما نرسو عند حصن النصارى .. »

فضحكت وقالت : « أما زلت تذكر ؟ . . »

ـ وهل أذكر إلا ذلك ؟ .. طول العام وأنا أفكر فيه . .

فنهضت إلى الباب وأمرت بالقهوة ، ثم عادت فقدمت له سيجارة وأشعلتها له ، وجلست قريباً منه وقالت : « قلتَ لى إن لديها وثيقة بالأرض .. »

ـ نعم . . حجة . . حجة تسلمها الشيخ إبراهيم من الأوقاف . .

ـ وماذا فى هذه الحجة ؟ . .

— فيها كلام كثير . .

— عن هذه الأرض ؟ . .

— عن كل أرض الشيخ إبراهيم . . كل هذه المساحة التى يقوم فيها الجامع ومساكن الصيادين . .

— هل رأيتها أنت بنفسك ؟

— رأيتها مراراً ، ولكنى لم أقرأها . .

— وأين تحتفظ بها ؟ . .

— أظن أنى أعرف . . .

— كنت أريد فقط أن أرى هذه الوثيقة . .

— إنها تخفيها فى غرفة ابننا آدم . . أستطيع أن أقرأها وأقول لك ما فيها . .

وهنا دخل الخادم بالقهوة ، ووضعها على المنضدة الصغيرة ، وقالت له وهو يقترب من الباب خارجا : « اقفل الباب . . لا أريد أن يدخل أحد الآن . . عندنا عمل . . »

وخرج الخادم وأقفل الباب ، وقالت لإسماعيل : « هنا غير مناسب للحديث . . تعال فى هذه الغرفة الصغيرة . . هات قهوتك وتعال . . »

ودخلت به إلى صالون صغير أنيق يطل على الحديقة ، فأخذت مكانها على أريكة وثيرة ونادته ليجلس إلى جوارها ، وسار بالقهوة على مهل ووضعها أمامه . وأشعلت له سيجارة ، وأخرى لنفسها وقالت : « ولكنى أريد أن أقرأها بنفسى . . »

— كل شىء ممكن . . ولكن . . لماذا يهمك أن تريها ؟ . .

ـ لا لشيء . . لمجرد المعرفة . .

ثم وضعت يدها خلف رأسه وعبثت بشعره وقالت : « إذا كان ذلك صعباً عليك . . فأنا لا أريده . . »

فظل صامتاً ثم نظر إليها وقال : « سيلفى . . اطلبى منى روحى أعطك إياها . . اطلبى منى أى شيء أقدمه لك .. ولكن قبل أى شيء . . قولى لى . . ماذا أنا بالنسبة لك ؟ . . إننى صياد فقير . . كنت أعيش فى حدودى كأمثالى . . حتى كان العام الماضى . . لا أدرى ماذا جرى لى . . ثلاثة أسابيع مازلت أذكرها إلى الآن لحظة لحظة .. خرجت فيها من الدنيا التى كنت أعيش فيها ولم أستطع العودة بعد ذلك . . كل شيء فى حياتى الماضية تحطم ولم يعد له وجود .. إننى معلق فى الهواء .. قولى لى . . ماذا أنا بالنسبة لك ؟ . . »

ـ ولماذا تريد أن تعرف ؟ . .

ـ لأن مصيرى كله معلق بشفتيك . .

فسكتت لحظة ، ثم قالت فى هدوء : « ياريس إسماعيل . . ماذا تريد ؟ . . . فى العام الماضى عندما رأيتك أعجبتنى وتنزهنا وقضينا وقتاً سعيداً .. ومن الممكن جداً هذا العام أيضاً أن نقضى وقتاً أسعد . . ولكن ماذا نستطيع بعد ذلك ؟ . . أنت متزوج ولك ولد ، وأنا مقيدة بألف قيد . . صدقنى إننى أحبك . . ولكنى لا أريد لهذا الحب أن يؤذيك أو يؤذينى . . »

ـ من ناحيتى . . هذا الحب لا يؤذينى . .

ـ إننى أخاف عليك . .

ـ معنى ذلك أنك تحبينني ؟ . .

ـ لا أدرى . .

ـ لاتعذبينى . .

ـ إنى أعذب نفسى أيضاً . . .

وساد صمت للحظات ، أشعلت له خلالها سيجارة ولنفسها أخرى ثم قالت : « إننا نتسرع . . لماذا لا ندع الأمور تمضى كما هى هذا الصيف أيضاً ، وبعد ذلك يكون ما يكون ؟ . . »

ـ لم أطلب إلا أن أعرف إن كنت تحبيننى . .

ـ وإذا قلت لك إنى أحبك ؟

ـ إذن فلا يهمنى فى الدنيا شىء . .

وضمها إلى صدره ، وأراد أن يقبلها فى فمها ، فحولت وجهها ، فسقطت القبلة على خدها . . وضمها إليه فى قوة ، ولمعت عيناه ببريق غريب . . ثم استقرت عيناه على بوفيه صغير عليه سوار وخاتم وبعض المصاغ موضوعة بدون نظام ، وإلى جانبها كيس نقود . . ومرت بوجهه ابتسامة خاطفة وهو يدير بصره فى الحجرة وما فيها . . وقطع عليه تأملاته صوت رجل .. ونظر من خلال فرجة فى ستر النافذة فرأى رجلا على نخلة يأخذ من تمرها فى حجره ، وبدون أن تلتفت إليه قالت : « لصوص .. كل أهل هذا البلد لصوص يسرقوننى . . »

فقال فى هدوء : « إذا أردت لم أدع منهم أحداً هنا .. »

ـ هذا عشمى فيك . .

وتناول يدها ونظر فى عينيها ، فقالت : « نسينا أمر الحجة . . . »

ـ هل تريدينها حقاً ؟ . .

ـ نتكلم فيما بعد . .

ـ تحت أمرك . . .

ـ تنتظرني عند الطابية . .

ـ اليوم ؟ . .

ـ شريكي ربما يأتي اليوم . .

ـ ولكنه لم يعد زوجك . . .

ـ مهما يكن فهو ابن عمي وشريكي . . وهناك أمور لا بد أن تراعى . . هذا من صالحك . .

ـ إذن متى ؟ . .

ـ غداً بعد الظهر . . الخامسة . .

ـ لا بد أن أعد اللنش . . .

ـ طبعاً . . .

ثم نادت خادمها فأقبل، وقالت له : « الريس إسماعيل سيعدّ اللنش . . أعطوه المفتاح ونفذوا له ما يريد . . . »

ـ شكراً ياست هانم . . . ربنا يخليك لنا . .

وسار وراء الخادم . لم يكلمه هذا كلمة ، ولا نظر إليه نظرة . حقاً إن المتغطرسين الحقيقيين ليسوا هم الأغنياء وإنما هم خدمهم . ماذا تظن نفسك أيها الكلب ؟ . . ألست خادماً حقيراً ؟ لماذا تتعالى عليّ ؟ . . ألا تعرف أنني سيد سيدتك ؟ . . سترى عندما أضرب ضربتي وأذل

هذه التى تسمونها سيدتكم . . سأركلك يومها بقدمى ركلة تجعلك تعرف من أنا . .

ووصلا إلى باب فى أقصى يسار الحديقة ، ففتحه الخادم وأشار إلى غرفة صغيرة على الشاطئ وقال له : « اللنش هناك .. حاسب عليه كعينيك . . وهذا هو المفتاح . . بعد أن تنتهى من عملك تعيده إلىّ . . »

ومد يده بالمفتاح فى ازدراء ، فأخذه إسماعيل وسار . . وفتح باب الغرفة فوجد القارب هناك ، وفتح الباب المطل على النهر . وأغلق الباب خلفه ، وخلع بنطلونه وطبقه بعناية شديدة ، وبحث عن مكان نظيف وضعه فيه ووضع عليه المفتاح .

كان الباب المطل عل النهر يشمل الحائط كله تقريباً ، ففتحه على مصراعيه . وسار ، ثم جلس وأدلى رجليه فى الماء ، وحركهما فى صبيانية وهتف : « والله سلامات ياست ياطاهرة . . غداً تعرفين من إسماعيل . . غداً تقبّل قدمىّ ياعبد الرحيم ياكلب . . »

* * *

فى اليوم التالى ، وفى الخامسة تماماً ، كان فى مكانه لصق جدار الطابية الغارق إلى ربعه فى الماء. هذه الطابية قطعة من التاريخ . إنها من ذكريات الحروب الصليبية . أنشأها الصليبيون على ضفة النهر ، إلى الشمال بعيداً عن عزبة البرج — يسمونها « حصن النصارى » أو « الطابية » .. ظن أنه وحده ، ولكن عظاية ضخمة نبهته إلى أنه ليس سيد المكان . عظاية ضخمة يبدو أنها لا تخاف الإنس ، تقدمت نحوه فى بطء ورفعت إليه رأسها فشعر بخوف ، ورفع يده ليطردها . . هنا فقط

رأته ، وبعت عيناها الجامدتان فى الشمس ، وانحرفت وغابت عن ناظريه . .

تعب بصره من التحديق فى الأفق فى انتظار قاربها ، واستولى عليه الخوف من العظايات وإخوتها الثعابين ، وشعر بالمذلة تتسرب إلى نفسه ، وخطر بباله ابنه آدم فاشتاق إليه . .

آخر الأمر ربما كان عبد الرحيم على حق ، فنحن الصيادين علينا أن نقف صفاً واحداً لكي يحترمنا الآخرون . هؤلاء الآخرون جنس آخر غيرنا . إنهم يبصقون فى وجوهنا باستمرار ؛ والخيانة لا يمكن أن تؤدى إلا إلى الذل والعار . . أمى هى المسئولة عن الوقيعة بينى وبين الست الطاهرة . . أين أنا منها الآن ؟ . . هل تذكر يا إسماعيل أيام تزوجتها ؟ . كنت تخرج قبل الفجر للصيد ، وتظل هى ساهرة على باب البيت تنتظرك حتى تعود . . ما أبركك يا مصر وما أكرمك . . هل من سبيل إليك ؟ لعنة الله على الشيطان ! . .

ولكن هاهوذا اللنش مقبلاً من بعيد . . أخيراً أتت . . حقاً إنها تحبنى . . لا بد أن شيئاً أخرها . . سوف ترى ياعبد الرحيم ما أفعل بك . . .

هاهى ذى فى بهجتها كلها وأبهتها . . كل ما عليها حرير وذهب ! جسمها الجميل يرسل أشعة من عطر تملأ الجو كله ، ووجهها الأبيض الناصع الشفاف يغرى بالتقبيل ، وشعرها الذهبى يتموج مع الهواء ، وقميصها الأبيض يكشف عن عنق من فضة . . .

قفز إلى القارب ، وأمسك بدفته ، وجلست إلى جانبه . . وانطلق

القارب كأنه سهم مارق نحو السعادة : . والتف ذراعها حول عنقه ومست شفتاها خده . . وغمغمت فى صوت لا يكاد يسمع ، من هدير المحرك وصخب شق القارب لصفحة الماء بعنف : «لم تغب عن خيالى لحظة منذ أمس . . »

— هذا حالى منذ عام . . صورتك دائماً أمامى ؟ . .

وتخطى القارب فى سرعته الخاطفة قرية صغيرة على الشاطئ ، من هنا إلى البحر لا توجد قرى ، واتجه إسماعيل به نحو الشاطئ الغربى ، وخفف السرعة وأرسى عند مكان فيه بناء صخرى متهدم أعلاه كأنه قاعدة تمثال . هذا المكان يسمونه برج السلسلة . هنا كان أهل دمياط يربطون السلسلة الضخمة التى تغلق مجرى النيل . هناك بناء ضخم مثل هذا على الضفة الأخرى .

ربط القارب إلى جذع شجرة وأخذها بين ذراعيه طويلا . .،وبعد لحظة قالت له : «وزوجتك ؟ . . كيف حال زوجتك ؟ . . »

— ليست لى زوجة . . أنت حبيبتى وزوجتى وكل شىء . .

— أسألك حقاً . . كيف حال زوجتك ؟ . .

— قلت لك لم تعد لى زوجة . .

— ماذا تعنى ؟ . .

— تركتها . . . تركتها لأجلك . .

— منذ متى ؟ . .

— من شهر . .

وأحس أن الخبر لم يسرها ، فلكه العجب ونظر إلى وجهها وقال : « هل ضايقك ذلك ؟ . . »

ـ لا . . . ولكن . . إذا كنت قد تركتها فمعنى ذلك أنها لا تعيش معك . . .

ـ تركت لها البيت حتى أرى كيف ننفصل . .

فقالت فجأة وبدون حرص : « إذن كيف ستأتيني بالحجة ؟ . . »

ـ أستطيع أن أدخل البيت وآتيك بها . .

وبعد لحظة تفكير مرت بيدها على صدره وقالت : « ولماذا تترك البيت ؟ . . »

ـ وكيف أعيش معها وأنا أحب غيرها ؟ . .

ـ لا أطالبك بحبها . . ولكن من صالحنا أن تعيش معها . .

فلم يفهم ماتريد ، وقال : « لقد تركتها وتركت بيتى لأجلك . . »

ـ ولأجلى ستعود إليها وإلى البيت . . .

ومرت أمام عينيه سحابة ، وأحست أنه لا يفهم .. حقـًا إن الصياد لا يمكن إلا أن يكون صياداً .. ووضعت ذراعيها حول عنقه وابتسمت وقالت : « قلت لك افعل ما أقول لك لنصل إلى ما نريد . . . »

ـ إذا عدت إليها الآن ضاع كل شىء . .

ـ لا تدع كبرياءك تفسد علينا خطتنا . .

ـ وما هى خطتنا ؟ . . أفهميني فقط . . أحياناً أنا لا أفهم . .

ـ اسمع يا إسماعيل . . ماذا تريد فى النهاية ؟ . .

فاستبدت به الحيرة ولم يجب ، فعادت تقول : « ألنست تتمنى

مثلى أن يخلو لنا الجو ونعيش معاً إلى الأبد ؟ . . »

– طول العام وأنا أحلم بذلك . . ولكنى أحس الآن أننى واهم . . .

– دعنى أفكر لى ولك . . أنت شاب قوى وجميل وكل امرأة تتمناك . . ولكنك لا تعرف ما هو الحب . .

– أنا لا أعرف ما هو الحب ؟ . . خسرت بيتى وزوجتى وابنى ولا أعرف معنى الحب ؟ . .

– إذن لماذا تجعل كبرياءك تقف فى طريقنا ؟ . .

فقال فى صوت شاك متحير : « لقد طردتنى من البيت . . »

– هل طلقتها ؟ . .

– لا . . لم أطلقها بعد . .

– إذن تعود إلى بيتك . .

– ستغلق الباب فى وجهى . . .

– لن تفعل . . لأنها تحبك . . . هل أغلقت أنا بابى فى وجهك ؟ . .

– هذا شىء آخر . .

– نفس الشىء . . نحن النساء لا نستطيع أن نغلق أبوابنا فى وجه من نحب . .

– لا أدرى كيف أفعل ذلك . .

– تدوس على كبريائك هذه وتعود . .

– إنك لا تعرفينها . . إنها شديدة كالصخرة . .

– زوجى أيضاً كان كذلك . .

– ولكنك لم تعودى إليه . .

ــ ولكنى أعمل معه وأنفذ ما يريد . .

ففكر لحظات ثم قال : « إننى لا أفهمك . . أنت لا تعرفين مصر . . ألا تخشين إذا عدت إليها ألا أعود إليك ؟ . . »

ــ لا ... لا أخشى ذلك . . لأننى واثقة من حبك . .

فضحك فى مرارة ، وقال وكأنه يناجى نفسه : « آخ . . لو أثق أنا أيضاً من حبك ! »

فتعلقت برقبته ونظرت فى عينيه وقالت : «ألم أقل لك إنك لا تعرف الحب ؟ . . هأنذا بين يديك فماذا تريد ؟ . . »

ــ أريد أن تعرفى أننى أحبك . . وأننى مستعد لاقتحام الجحيم فى سبيلك . .

ــ وأنا ؟ . . ألم أترك الدنيا كلها من أجلك ؟ . . انظر حولك . . هل هنا إلا أنا وأنت ؟ . .

ــ وإذا كان الناس من حولنا . . هل تظلين كذلك ؟ . .

فالتصقت به . . وأحاطها بذراعيه ، وضمها إلى صدره فى عنف . . وقالت : « الآن أنت تصدقنى ؟ . . »

ــ لا أستطيع إلا أن أصدقك . . . حينما أكون معك أشعر كأننى لا إرادة لى . .

ــ هذا حالى أنا أيضاً معك . .

وكانت الشمس قد أخذت تغيب ، وهبت نسمات قوية تطاير معها شعرها وشعره ، وعبث الهواء بقميصها فزادها فتنة . . وفجأة انفلت

هز رأسه وقال : « يا لكم من ذباب غبي ! مليون سنة والعناكب تدبر لكم نفس الشرك وتقعون بالصورة نفسها . . . حقًّا إنكم تستحقون الموت . . »

وتنبه على صوت اللنش قادماً يشق الماء ، هبّ واقفاً وتهلل وجهه ودبت الحياة فى كيانه كله ، وهو ينفض التراب عن ثيابه . .

* * *

ـ كم أخذ منك إلى الآن ؟ . .

ـ إننى أعطيه بالقطارة . . .

ـ من المال أقصد . . .

ـ هذا لا يهم . . أخذ كثيراً . .

ـ كم ؟

ـ قل مائتين . .

ـ كفاية . . .

ـ لا بد أن يغرق تماماً . . لا بد أن تغطيه النقود وترتفع فوق رأسه حتى لا يطفو . . .

فابتسم وقال : « هل لى أن أسأل : إلى أى حد تعطينه غير ذلك ؟ »

ـ من الحب تقصد ؟ . .

ـ لا أدرى إن كان من حقى أن أسأل . . .

ـ ليس من حقك ، ولكنى أقول لك لأنى أريد أن أقول ذلك لأحد . . الكتمان متعب . .

ــ قولى ولا تخافى . . . لا تنسى . . كنا زوجين فى يوم من الأيام . .

ــ ألست آسفاً على تلك الأيام ؟ . .

ــ دائماً أشعر بالأسف . . ولكنك لا تريدين زوجاً . . أنت تريدين عبداً . .

ــ وأنت ماذا أردت منى : السيدة أم الجارية ؟ . .

ــ حاولت الأولى فلم أنجح ، والثانية فلم أنجح أيضاً . .

ــ أذمّ هذا أم مديح ؟ . .

ــ كما هو حالنا معاً دائماً : من هذا على ذاك . .

ــ لهذا هو يعجبنى . .

ــ حذار . . ليس من صالحنا أن يعجبك . .

ــ إذا أعجبنى فليست لى حيلة . . .

ــ أخشى أن يعجبك فعلا . .

ــ إذا كنت تخشى ذلك حقّاً فأنت ما زلت لا تفهمنى . .

ــ لقد اعترفت مراراً أن فهمك عسير علىّ جدّاً . . يكفى أن نتفق على أشياء معينة هى التى تهمنا ونترك ماعداها . . هذه مثلا . . ماهو الموقف الآن ؟ . .

ــ لصالح العمل فقط أصارحك . . هناك لحظات يعجبنى فيها . . لحظات فقط ، وعندما أعود إلى بيتى أتركه خارج الباب . .

ــ وهو ؟ . . ألا يحاول أن يتخطى الباب ؟ . .

ــ نعم . . ككل رجل . . ولكنه سيظل دائماً في المكان الذى أحدده له . . .

ــ ومتى يفعل ما نريد ؟ . .

ــ لم يبق إلا القليل . . لا بد أن يغرق تماماً أولا . .

ــ إذن أسرعى . .

ــ لكل شىء وقته . .

* * *

المقهى الصغير على شاطئ الترعة خال من الناس ؛ وصاحب المقهى غير موجود . إلى منضدة صغيرة بقرب النافذة جلس إسماعيل يدخن سيجارة . هذه أول مرة يرى المقهى خالياً من الناس فى هذه الساعة من المساء . . . لقد رفع أذان العشاء منذ قليل ؛ وفى مثل هذه الساعة يكون المقهى عادة غاصًّا بالناس . عندما يرفع أذان العشاء يتجه بعض الناس إلى المسجد ؛ وبعضهم الآخر إلى هذا المقهى ، أو الخمارة كما يسميها بعض الناس . . .

بعد قليل دخل شربية صاحب المقهى من باب جانبى . وقف مكانه عندما وقع بصره على إسماعيل ، ثم قال وهو يتقدم نحوه : « والله زمان . . . »

ــ مشغول والله يا شربية . .

ــ طبعاً يا عم . . . من مثلك ؟ . . سرايات وبنات ذوات ولنش وملابس حرير . .

ــ ألم أقل لك إننى لا أحب الفقر ؟ . .

فقال شربية فى حزن : « ولهذا تركته كله لى . . »

ودار ببصره فى المكان وهز رأسه أسفاً ، ثم مضى يقول : « انخرب بيتى . . . »

ــ ما الذى حدث ؟ . .

ــ الناس قاطعونى لصلتى بك . .

ــ ولكنى لم آت إلى هنا منذ أسابيع . .

ــ يظنون أنك هنا كل ليلة . . أول أمس حطم الصبيان هذه النافذة بالطوب . . .

ــ لماذا ؟ . .

ــ لا أدرى من قال لهم إنك معها هنا . .

ــ ولكن ألا ينظرون أولاً قبل أن يضربوا ؟ . .

ــ إنهم غضاب . . والغاضب لا يرى . .

ــ عزيزة هانم لا ذنب لها . . . ولكن كل الذنب من الأخرى . .

ــ لماذا تركت زوجتك ؟ . . . أى جنون فعلت ؟ . .

ــ هى طردتنى . . أنت تعرف ماحدث . . .

ــ وما العمل الآن ؟ . . إننى على وشك الإفلاس . .

ــ لا تخف . . خذ . .

وأخرج من جيبه نقوداً كثيرة وضعها على المنضدة وقال : « خذ ياشربية . . هذا كله لك . . »

قالها فى بطء وجد شديدين ، فاتسعت حدقتا الآخر ولم يصدق

عينيه . وقال وهو يجلس على مهل ونظره مثبت فى وجه صاحبه : « هذه فلوس كثيرة جداً يا إسماعيل .. »

– وعندى أكثر . . هذا نصيبك . . . ما أكثر ما أقرضتنى وساعدتنى . . .

– ولكن هذه النقود لن تنفعنى كثيراً يا إسماعيل . . . أستطيع أن أسير بها بضعة أشهر . . ثم تنفد . .

– عندها آتيك بغيرها . . إنها فى إصبعى كالخاتم . .

– من هى ؟ . .

– عزيزة هانم . .

– لا تخدع نفسك يا إسماعيل . هؤلاء الناس يلعبون بك . .

– صدقنى . . . أنا الذى ألعب بهم . . . من نصف ساعة فقط كانت بين ذراعىّ هاتين . . وما لها كله فى يدى . .

– عد إلى رشدك يا إسماعيل . . هذه بلادنا ونحن نعرفها . . نحن لسنا فى السينما ، وبنت الباشا هنا لا تتزوج الجناينى .

– وإذا أحبته ؟ . .

– هذا الحب مستحيل فى بلادنا . . . عالمنا عالم مقامات ، ولكل إنسان مكانه . .

– لقد تغيرت الدنيا . . والباشا لم يعد باشا . .

– ولكن بنت الباشا تظل دائماً بنت الباشا . .

– ولكن هذه ليست بنت الباشا . . إنها الباشا نفسه . .

فأمسك شريبة بكتفيه وهزه بشدة قائلا : « يا ابنى يا إسماعيل أفق لنفسك . أى باشا وأى بنت باشا ؟ . . أنت صياد فقير مثل الألوف هنا . . لو نفخوا فيك نفخة تطايرت فى الهواء . . »

فنظر إسماعيل إليه طويلا ثم قال : « يبدو أنك خائف حقًّا . . »

ــ كلنا خائفون هنا . . انظر حولك تفهم . . لم يدخل مقهاى هذا أحد من أسبوعين . . لقد باعت امرأتى مصاغها . .

ــ ولكنى قلت لك : هذا هو المال بين يديك ، وأنت لا تريد أخذه . . أتريده أم لا تريده ؟ . .

ــ أريد كل مليم فيه . .

ــ إذن ضعه فى جيبك وأصغ إلىّ . .

فأخذ شريبة الأوراق المالية فى يده ودسها فى جيبه وهو يقول : « لن أصغى إليك ، ولكنك أنت ستصغى إلىّ . . دعك من أولئك الناس ، فهم يلعبون بك ، وعد إلى زوجتك . . إننى أتكلم جادًّا الآن . . اسمعنى جيداً . . »

ــ دعك من جدك هذا فليس وراءه إلا الفقر . . هات لى زجاجة لكى نتكلم فى هدوء . .

ــ قسماً بالله ما عندى ولا رائحة زجاجة . . كل شىء انتهى يا إسماعيل . .

ــ إذن فاصنع لى فنجان قهوة . .

ــ أظن أن عندى شيئاً من البن . . ولكن أصغ إلى ما أقول . .

ونهض الرجل فذهب إلى منصته ومضى يعمل القهوة وهو يقول : «عد إلى زوجتك . . »

– بعد الذى فعلته معى ؟ . .

– إنها لم تفعل بك شيئاً . . أنت الذى تبطرت على النعمة . . كنت تعيش فى أحسن بيت هنا . . وزوجتك ست أهل البلد ، وكان رزقك وافراً . . .

– تقصد أن أحتمل الإهانة لأن البيت بيت أبيها ؟ . .

– إنها لم تعمل معك شيئاً سيئاً ، ولكنك أنت لعبى طول عمرك . .

– وأنت ؟ . . ألم تكن شريكى فى اللعب دائماً ؟ . .

– هذا موضوع آخر يا إسماعيل . . وأنا لم ألعب قط بزوجتى وبيتى ، ولم أزين لك الجرى مع هذه المرأة . .

– وهل زوجتى تعرف شيئاً عن ذلك ؟ . .

– أظن أنها تعرف ، ولكنها لا تصدق . . تظن أنها إشاعات . . اذهب إليها وعد إلى بيتك وابنك أولى بك . .

– ولكن كيف أعود ياشربية وهى لا تريدنى ؟

وحمل إليه القهوة وصبها فى الفنجان وجلس وقال : «معك سيجارة ؟..» وأعطاه واحدة وأخذ واحدة . . وانتشر الدخان فى المكان واختلط برائحة القهوة ، وهدأ الجو بعض الشيء . . وقال إسماعيل : «أنا لا مانع عندى من العودة إلى امرأتى ، ولكن كيف ؟ . . »

– امرأتى ابنة عم حليمة ، وهى تستطيع أن تمهد لك الطريق . .



— وهل تظن أن الطاهرة لن تثور فى وجهى إذا رأتنى ؟ . .

— ستثور ، ولكن ينبغى أن تحتمل لأنك المخطئ . .

— هل تظن أنت أيضاً أنى المخطئ ؟ . .

— المال الذى فى جيبى يؤكد لى أنك المخطئ ، أخز الشيطان وعد إلى بيتك حتى لا تعرضنا كلنا لكارثة . .

— ومتى تقوم زوجتك بالكلام مع حليمة ؟

— ستبدأ من الليلة . . إذا شئت . .

— وهل صحيح أن الصيادين غاضبون علىّ ؟ . .

— إذا رضيت هى عنك رضوا هم . .

وساد الصمت لحظة ، ونفث إسماعيل الدخان من فمه ثم قال : « أريد أن أرى ابنى ياشربية . . اشتقت لرؤية آدم . . »

— قم اذهب إلى بيت أمك الليلة ، وغداً يفتح الله علينا بالحل . .

— لا أريد أن أبيت فى بيت أمى . . لى أيام لم أذهب إليها ، وستأخذ فى سؤالى ، ثم إنها تكره زوجتى ، ولا أريد أن تفسد علىّ خطتى . . .

— إذن تعال ونم عندى الليلة

— أما عندك قطرة فى زجاجة نبل بها ريقنا ؟ . .

— ولا رائحتها وحياة أبيك . . لقد أهلكتنا جميعاً وأنت تتنزه وتلعب . .

ــ وهل كنت أستطيع غير ذلك ؟ . .

• • •

شاطئ النيل ساجٍ قبيل الفجر . كل شيء مستغرق فى نوم عميق ، حتى صرّار الليل تعب من عزف قيثارته وأراح ساقيه .. مياه النيل تحكي قصصها الأبدية للشاطئ فى شبه الهمس ، مخافة إيقاظ الشجر . .

مع أشعة الفجر الأولى بدأت الطيور فى أعشاشها تحرك أجنحتها ، ثم بدأت تتنادى وتتبادل البشرى بقرب طلوع اليوم الجديد . .

وعند أسفل شجرة ضخمة ــ كأنها أم رؤوم ــ وقفت الست الطاهرة ومن خلفها عبد الرحيم . كانا ينظران فى الماء الساكن فى صمت كأنهما ينتظران شيئاً . ها هو ذا القارب قادم من بعيد كأنه سحابة سوداء طافية على سطح الماء . المجذاف يضرب فى الماء فى رفق وحذر ، والمراكبي ينظر خلفه وحوله ليتأكد من أن أحداً لا يشعر به أو بقاربه . اتجه فى رفق نحو الشجرة . وبعد دقائق كان قد قفز إلى الشاطئ وسلم على الست ثم على عبد الرحيم . ودخلت القارب وخلفها الصعيدى القوى الذى يشبه « أطلس » حامل الأرض . ومضى القارب نحو الشاطئ الآخر فى رفق وصمت . .

وبينما كانت ضربات المجذاف تتوالى فى حركة رتيبة ، كان كل منهم يسبح فى همومه ومشاغله ، ثم ترامى إلى سمعهم أذان الفجر مقبلا من الشاطئ . وطارت الطيور وأخذت تحوم فوق الماء . وقال عبد الرحيم : « لم تأكلى شيئاً ياست . . . »

— وأنت ؟ ماذا أكلت ؟

— شربت كوباً من الشاى وأنا أنتظرك . .

— سيعملون لى شايا عندما نصل . .

— ولكنك لا تستطيعين أن تعيشى على الشاى . .

— هذا لا يهم ، المهم أن نقوم بواجبنا . .

— سمعت هذا الكلام مرة من أبيك الشيخ إبراهيم . . كنتِ أيامها صبية فى العاشرة وكنت تهلكين نفسك فى عمل الطعام للمريدين حتى العاشرة من الليل ، وقلت للشيخ الله يرحمه : « الطاهرة لا بد أن تستريح ياشيخ إبراهيم ، سآخذها للبيت وستتولى نحن العمل عنها . . » فابتسم وقال : « دعها . . إنها أمكم جميعاً ، والأم تعيش بالنظر إلى أبنائها . . » لقد وضع أبوك على كتفيك حملا ثقيلا منذ مولدك . . .

— هذا ليس حملاً ولا هو يجهدنى . . أنت تعرف ما يقلق بالى . .

وصمتت وأرسلت نظرها فى الماء ، وعبرت بوجهها سحابة حزن . كان حاجب الشمس يتراءى من بعيد . وقع الشعاع الأحمر على وجهها الجميل تحيط به الطرحة السوداء . ونظر إليها عبد الرحيم فى صمت وقال فى نفسه: « سبحان الله ! ما أجملك ! . . والله لولا أننى مسلم ومؤمن بالله لعبدتك . . »

وخطرت بباله صورة رآها كثيراً على جدران المعابد فى الصعيد : إيزيس رافعة رأسها ، وجانب وجهها يبدو وكأنه سحر خالص ، وقد تأنق الرسام القديم فى رسم قامتها المنسرحة الفاتنة ، وعند قدميها ركع كاهن

وتناول يدها . خيل إليه أنه يسمع نشيداً صعيدياً ينشدونه عندما يعبرون النيل ، ولكن تغنيه أصوات ملائكية من عالم آخر . . .

وأفاق على صوت مصر يخاطبه ؛ ونظرها مثبت فى وجهه ، وهى تقول : « أظنك تبكىَ . . »

ـــ الرجال لا يبكون . . وأنا ما بكيت فى حياتى قط . .

ـــ ولكن دموعاً تترقرق فى عينيك، وأنا أراها فى شعاع الشمس . .

ـــ أحياناً عندما أفكر فيك تنهلّ دموعى ، ولكننى لا أبكى . . فى حياتى ما عرفت ماهو البكاء . .

ـــ وأنا أيضاً لا أحب الرجل الباكى .. الدموع ليست للرجال .. كان أبى يقول إنه لم يبك فى حياته إلا مرتين : يوم مات الشهيد حمزة فى مظاهرات القاهرة ، ويوم ماتت أمى . .

ـــ كان رجلا . . هو أيضاً كان والد الكل ، وكان يعيش من النظر إلينا . .

وقال المراكبى الشاب : « وصلنا . . »

وانتظر حتى رسا القارب ، ثم قفز فى خفة الغزال إلى الشاطئ وجذبه فى قوة ، وقفز من خلفه عبد الرحيم ، ثم أخذ بيد مصر فخطت على الأرض وقالت : « لم نر الدوامات . . »

ـــ سرنا بعيداً إلى جنوبها . . . لا يحسن الاقتراب منها فى الليل .

ـــ لابد أن نراها فى العودة . .

ـــ طبعاً . . سنعود بعد صلاة الجمعة . .

وأقبل شابان فألقيا التحية في صوت خافت، وقبّلا يد الست الطاهرة، وقال واحد منهما لعبد الرحيم : « الرجال يتدربون منذ الفجر . . »

— هنا لن يعترضكم أحد . هذه أرض الفوال . .

فقالت مصر : « سافر صلاح ؟ . . »

— نعم . أعطانا هذه الأرض لنستعملها الآن . كان هنا منذ أيام هو وزكي ومصطفى بدر وفوزى وإخوانهم . . عادوا ليستعدوا لامتحاناتهم وسيكونون هنا من جديد في الصيف . . لقد وضعوا لنا خطة العمل لمدة شهر ونصف ثم مضوا . .

وهمس في أذن عبد الرحيم : « تسلمنا السلاح والذخيرة . . »

— للكل ؟ . .

— تقريباً . . .

— كفتكم النقود ؟

— مازال لدينا منها شيء . .

وساروا في صمت . كانوا أربعة : الطاهرة وعبد الرحيم والشابان . . ولكن وقع أقدامهم في تباشير الصباح كان لا يكاد يسمع . لقد علمهم عبد الرحيم أن الصمت هو سلاح النصر الأكبر . . الصمت ، والعمل في هدوء ، والحركة في خفة . . هنا لا يتكلم الناس إلا بالضرورى ، ولا يتنادون ولا يتصايحون . .

بعد قليل كانوا وسط المعسكر . أكواخ كثيرة تحت النخل ، وشباب يروح ويجيء في نشاط . هنا وهناك جماعات من الشباب يستمعون

إلى معلم منهم يشرح لهم فى صوت خافت كيف يقومون بالتدريبات البدنية الشاقة . الجسد سلاح المقاتل كما قال لهم صلاح الدين ، وقبل أن تمسك بالسلاح لا بد أن يكون جسدك قادراً على حمله واستعماله والسير والقفز والزحف والسباحة به . تمرينات شاقة يقوم بها أولئك الشبان . إنهم يستعدون لمعركتهم . بيوتهم ما زالت فى مواضعها فى الأرض التى يدبر الغاصبون طردهم منها ، ولكنهم يستعدون من الآن للذياد عنها إذا هاجمهم العدو . هذه الأرض التى يتمرنون عليها ملك للحاج حسنين الفوال ، وابنه صلاح أعطاهم إياها . إنها أرض نخل كثير ، يختفى المعسكر بين جذوعه تماماً .

ورآها شاب كان يمرن جماعة من إخوانه على استعمال السلاح ، فاستأذنهم وأقبل فحياها وقال : «ما كان ينبغى أن تأتى إلى هنا ياسيدتى ..»

ـــ بالعكس . . إننى أفكر فى أن أنتقل إليكم وأعيش معكم . .

ـــ ينبغى أن تكونى دائماً فى مأمن . .

ـــ لا أرضى أن أكون فى مأمن وأولادى فى خطر . .

ـــ نحن لسنا فى خطر . . مادمنا على أقدامنا فلسنا فى خطر . .

ـــ سأرسل إليكم آدم . .

ـــ لا ياست . . إنه مازال صغيراً . .

ـــ فى هذه المعركة لا صغير ولا كبير ..! . إن الموت يتهددنا جميعاً . .

ـــ ولكن الصبيان لا يقاتلون . .

— إذا لم يوجد الصبي المقاتل فلا وجود للرجل المقاتل . . الحرب روح وجو وحالة ، ولا يمكن أن ينام شاب فى سرير دافئ طول الليل ثم يخرج إلى الحرب فى الصباح كأنما هو ذاهب إلى مكتب . . ينبغى أن تعيش الجماعة كلها فى معسكر حتى تكون فى جو الحرب . .

وقال عبد الرحيم : « لهذا حرمنا على الرجال الإصغاء إلى الراديو ، لأن الأغانى المائعة تنافى روح الحرب ، وتضعف معنوية الشباب ، وتميل بهم إلى الرقة والنعومة والبكاء والحنين . . أنا لا أحب هذه الأغانى أبداً . . »

فقالت مصر : « إنها ليست أغانى مصرية على أى حال .. لا أدرى من أين أتوا بها . . إنها سم وضعف ، ولا أرضى لابنى أن يسمعها .. أريد أن يغنى قومى أغانى الرجال . . كلام رجال فى نغمات رجال تنشد على وقع طبول الحرب ، لا على نقر الدربكة ولا دغدغة العود ..»

قال عبد الرحيم : « قاتل الله العود . . إنه عجوز خليع . . »

فقالت : « أنا لا أحبه ولا أحب الناى الجريح . . »

— ولكنها موسيقانا . .

— أبداً . هذه ليست موسيقانا . . إنها موسيقى الجنائز . . غنتها وعزفتها النوادب فى جنازة آخر الفراعنة ، والمأتم لم ينته بعد . .

— لا بد من موسيقى جديدة . .

— لا بد من كل شىء جديد . . أحياناً أحس أننى ألبس أسمالا بالية من الرأس إلى القدم . . وأنا لا أحب الأسمال ولا الفقر . .

ــ من ياسيدتى يحب الفقر ؟ . .

ــ أكثر مما تتصور . . هناك من يعشقونه . .

ــ يحبونه لغيرهم لا لأنفسهم . . انظرى إلى هؤلاء . .

وأشار إلى بعض الرجال يتدربون . .

ــ هؤلاء ليسوا فقراء . . إنهم رجال يعملون بأيديهم ليكسبوا . . إنهم أعداء الفقر . . لا بد أن نطرد الفقر من بلادنا . .

ــ إنه لن يخرج . . إنه جزء من الجدار نفسه . .

ــ فليهدم الجدار . . إذا صممنا على أن نتخلص من الفقر تخلصنا منه . . دواؤه يسير جدًّا . . العمل . . هؤلاء الرجال هم دواؤه . . لهذا أريد أن يأتى آدم ليعيش معهم . .

ــ ليكن ماتريدين . .

ــ ولكن آدم لا يريد أن يأتى بدون ريحان . .

ــ ونحن هنا فى حاجة إلى ريحان . .

ــ متى تريدون أن يأتى إليكم ؟

فقال عبد الرحيم : «آدم سينام فى كوخى ، وسأبنى خلفه مأوى لريحان . . »

ــ نعم ، أحب أن يكونا دائماً تحت إشرافك أنت . .

ــ هما فى عينى . .

ثم ساروا فى بطء حتى وصلوا إلى كوخ عبد الرحيم وسط النخيل ، وهناك وجدوا أم خالد زوجة عبد الرحيم فى انتظارهم وقد أعدت الشاى

وشيئاً من الطعام ووقفت ووجهها الأسمر الوسيم يبتسم ، وأقبلت فعانقت مصر وقالت : « زارنا النبى . . »

وقال عبد الرحيم : « لها أيام مقيمة هنا فى انتظارك . . »

فقالت الطاهرة : « وأين خالد ؟ »

— مع الرجال يتدرب . . إنه يحسب نفسه الآن ضابطاً كبيراً . .

— المهم أن يكون مقاتلا عنيداً . .

— من هذه الناحية اطمئنى . . إنه لا يتزحزح عن مكانه أبداً . . وإذا أمسك البندقية ماتت يده على الزناد . . لورأيته ياسيدتى وهو يقفز كالفهد وينظر كالصقر ، وهو ثابت كالصخرة . . وشفتاه لا تنفرجان أبداً . . صلاح الدين يقول إنه ولد مقاتلا . .

فقالت مصر : « الرجل يولد فى العادة ليكون مقاتلا ، ولكن التربية السيئة تفسده . . إذا ربينا أولادنا ليكونوا مقاتلين فسيكونون مقاتلين . . ولكنك لن تصنع مقاتلا من إنسان يقول إن الحب يكويه أو أنه دايب من الحب . . فالمقاتلون — فيما أعرف — حديد يَكوى ولا يُكوى ، وصخر ينحدر عليه الماء ولا يذوب . . هؤلاء كانوا دائماً الرجال الذين بنوا بلادى . . أنا فى حاجة إليهم الآن ليعيدوا بناءها . . »

كانوا يتحدثون والشمس تعلو فى الأفق ، والرجال يعملون تحت بصرها فى نشاط وحيوية ، وعبد الرحيم ينظر إليهم بعينى نسر ، ثم تقدم وصاح : « كفى يارجال . . استريحوا قليلا . . تعالوا نشرب الشاى مع الست الطاهرة . . »

وفى صمت ونظام أقبلوا وجلسوا ، وأخذ واحد منهم يصب الشاى . .

وقالت وفى عينيها فرح عميق : « كم أحب الذين يعملون فى صمت . . الصمت صلاة . . »

ــ هكذا تعلمنا منك . .

ــ ومتى نرى الرجال لنناقش الموضوع ؟

ــ الآن . . بعد الشاى . .

وشربوا الشاى ، ثم نهض معظمهم وخرجوا ، وبقى ثلاثة وعبد الرحيم . . قام فأغلق الباب ، ثم جلس وقال : « مسعد وكمال وصادق يريدون أن يكلموك باسم إخوانهم . . »

ــ لهذا أتيت . .

ــ تكلم يامسعد . .

ــ ياست ياطاهرة . . نحن نريد أن نقاطع المصيف هذا العام . .

ــ لماذا ؟

ــ لأن هؤلاء الناس يريدون أن يستغلونا لحسابهم ، ونحن لا نقبل . هذا العام اشتروا لنشين كبيرين لنقل المصطافين من دمياط إلى رأس البر .

ــ وهل هذا يقضى على قواربكم ؟

ــ يقضى على نصف العمل . . .

ــ معنى ذلك أنكم تريدون أن تتركوا الميدان لهم تماماً . .

ــ بدوننا لن يستطيعوا تسيير العمل . .

ــ بل يستطيعون . . يأتون بعمال من الخارج . .

ــ نضربهم . .

ــ هذا لا نريده . . لا نريد أن يضرب عمال عمالاً وهم يتفرجون . .

ــ ما العمل إذن ؟ . .

ــ من الذين سيقودون اللنشين ؟

ــ نحن الثلاثة ميكانيكيون . .

ــ إذن نشترى لكم لنشين . .

فقال عبد الرحيم : « ثمنهما لا يقل عن ١٥ ألف جنيه . . »

ــ مبلغ كبير على رجل واحد . . ولكنه قليل على أربعمائة . . كل منكم يدفع ثلاثة جنيهات ، وأنا أدفع الباقى . . وتعملون شركة تعاونية ونقوم بالعمل معاً . . لا بد أن نتعلم كيف نعمل معاً . . هل تستطيع أن تشترى لنا اللنشين ياعبد الرحيم ؟

فقال مسعد : « ممكن جداً . . »

ــ إذن تأتون أنتم الثلاثة غداً إلى بيتى وندرس التنفيذ .. ستكون معهم ياعبد الرحيم . . أهم شىء ألا تنبسوا بحرف . . سلاحنا الأكبر ألا يعرف العدو ماذا نعمل . . هذا نصف النصر . .

* * *

ملأ لنفسه كأساً وجلس على أريكة وثيرة فى الصالون الفخم ثم قال :

ــ أظنه قد غرق الآن . .

ــ نعم ، ولكن لا بد أن يهبط إلى القاع . . لا أريد أن يطفو مرة أخرى . .

ـ إذن مزيداً من الخمر . . ومزيداً من المال . . أظنه لا يرفض المال الآن . .

ـ مادام قد مد يده مرة فسيظل يمدها دائماً . .

ـ الحياء نسيج رقيق جداً . .

فضحكت وقالت : « أنت تعرف أكثر من غيرك كم هو رقيق نسيج الحياء . . »

فقال وكأنه لم يسمع : « أريد أن أعرف أين تختلين به . . »

ـ فى أى مكان . . وفيم يهمك المكان ؟ . .

ـ أخشى أن يموت مرة بين يديك . .

ـ الميت .. كيف يموت ! ؟ .

* * *

ـ أعتقد الآن أنه لن يطفو . .

ـ غاص إلى القاع ؟ . .

ـ بلا أمل . .

ـ إذن لا تضيعى الوقت . .

ولم ترد . نظرت من النافذة وأرسلت بصرها عبر النيل إلى الضفة الأخرى ، على مدى البصر ، ووسط البيوت المتراصة كأنها جدار من حجر ، بدا بيت صغير من الطوب الأحمر هو بيت غريمتها الست الطاهرة ، أو هى توهمت أنها تراه .. ورفعت شعرها عن جبينها وأشعلت سيجارة ، ثم هزت رأسها كفرسة نافرة وقالت : «أيام . . لم يبق لك إلا أيام..»

* * *

فى صمت وهدوء تم شراء لنشين قديمين مما تستغنى عنه شركة القنال ، وقام مهندس هناك بإصلاحهما وإعدادهما ، فأصبحا فى ثلاثة أسابيع قاربين بخاريين فاخرين ، لا يقلان عن أى لنشات يمكن أن يشتريها أصحاب الشركة التى تريد أن تذل هؤلاء الرجال الطيبين بمالها . . تغلبوا عليها بالتعاون والعمل والصمت والجد الخالص فى الأمر . وسافر كمال إلى القاهرة واجتمع بزكى شنوده طالب التجارة ، فوضع لهم عقد الشركة ونظامها ، واستعان بأبيه الأستاذ بولس شنوده المحامى الكبير ، الذى عرض بسرور أن يكون محامى الشركة ومستشارها القانونى . .من أجل عيون زكى ، كما قال .. فرد عليه ابنه وهو يبتسم : « بل من أجل عيون مصر يا أبى .. »

— أجل ، عيون مصر يازكى . . أجل ، عيونها الحلوة . . وهل لنا غيرها ؟ . . .

فقال زكى وبصره سابح فى الفضاء : «لو رأيتها يا أبى .. لو رأيت جبينها الناصع الجميل . . لو رأيت عينيها لعبدتها كما كانوا يعبدون إيزيس . . »

— تحبها يازكى ؟ . .

فهز الشاب الأسمر الوسيم رأسه فى إيجاب ولم يقل شيئاً . .

وأتموا كل شىء فى نشاط وحماس قبل أن يبدأ موسم رأس البر أنشأوا لأنفسهم مرسى خاصاً على الشاطئ قرب محطة سكة الحديد ، واستقبلوا الناس وقاموا بخدمتهم فى نظام وجد . . ثم أقبل الموسم وتدفق

الناس على المصيف ، وعمل الرجال كما لم يعملوا فى سنة سابقة : زاولوا صيدهم وباعوا ما يسر الله لهم ، ونقلوا إلى المصيف المصطافين القادمين من نواحى القطر والآخرين الذين يذهبون إليه من دمياط . وقامت جمعيتهم بتنظيم العمل لهم هناك ، فاشتغل الكثيرون منهم بالتجارة ، وفتحوا محلات صغيرة جميلة للطعام والمثلجات وبيع أدوات الصيف والصحف وكل ما يحتاج إليه المصيفون .وفرغ صلاح حسنين ومصطفى بدر وزكى شنوده وفوزى عبد الرحمن من امتحاناتهم ، وأقبلوا إلى القرية ليعاونوا إخوانهم ، فأنشأوا إدارة جديدة منظمة ، فتضاعف كسب العمال جميعاً وزاد على ما كسبوه فى أى سنة سابقة . .

ولم يتوقف التدريب والاستعداد لمابعد الصيف. فى صمت وهدوء ونظام، سار التدريب فى المكان البعيد الذى اختاروه . وتم إنشاء أكواخ صغيرة للصيادين فيه ، وأقام أولئك الشبان المتعلمون مركزاً لتعليم الأطفال ، وسار كل شىء كما ينبغى أن يسير . .

وقالت الست الطاهرة : « ما أحسن أبنائى عندما يخلص بعضهم لبعض ويتحدون فيما بينهم ! . . هنا لايغلبهم أحد . . . »

وقال عبد الرحيم : « هكذا عرفتهم فى أيامهم الأولى ، أيام قاموا وحدهم بتحويل الأرض كلها من غابة للوحوش إلى دار للبشر . .

— وهل أصبحت فعلا داراً للبشر ؟ . .

— لا أدرى . . وربما كنا مسئولين عن ذلك . .

— ياسيدتى . . هذه مسئولية ضخمة تحملينا إياها . »

– لكل بلد على هذه الأرض مسئوليته ، ومسئولية مصر تحددت منذ البداية ، مسئولية هداية وتوجيه وريادة . . وهذا كان يقتضى عملا ضخماً كالذى قامت به أجيالنا الأولى . . ولكننا تراخينا ونسينا واجبنا . . عدوّنا الأول الإهمال والتراخى . . إننا ننسى دائماً أننا شعب كبير . . انظر إلى هؤلاء الرجال . . لقد استيقظوا وفتحوا أعينهم واتحدوا وأقبلوا على العمل واستعدوا للقاء الموت دفاعاً عن أنفسهم وحقوقهم . . برجال كهؤلاء تسترد مصر حجمها الطبيعى فى عالم البشر . .

* * *

الفلوكة تمضى فى الماء كالسهم المارق ، وذراعا عبد الرحيم القويتان تشدان المجدافين فى قوة وعلى وقع رتيب منتظم . ليس فى القارب غيره والست الطاهرة . كانا فى زيارة لمواقع الرجال على الضفة الأخرى . إنهما صامتان ، وقد سبح كل منهما فى بحر من الأفكار : أرضهم ومستقبلهم والمعركة . .

وبعد قليل نظر إلى الماء طويلا ، ثم عاد يجذف ، وسمع الاثنان لغط مياه تتدافع وتتلاطم ، وتراخى عبد الرحيم فى تجذيفه ثم وقف والمجدافان فى يديه وقال : « هذه هى الدوامات . . »

ونظرت إلى تلك الطاحونة المائية الرهيبة . . الماء يفور ويغور ويدور فى عنف حول ما يشبه أن يكون ثقوباً واسعة ، كأن فى وسط النهر آباراً ينصب فيها الماء بقوة وعنف . . وكل شىء ينجذب من بعيد نحو

هذه الطواحين القاتلة ويدور مع الماء ويختفى فى ثوان قليلة . .

وقال عبد الرحيم : « هذا إنذار من الله .. يقولون إن فى جهنم وادياً كله دوامات ، ولكن مياهه تغلى ، والأشقياء يغوصون إلى القاع ثم يردهم الله إلى سطح الماء ، ليغوصوا مرة أخرى . . »

ــ لا بد أن هنا بئراً تحت السطح تجعل الماء يفور ويدور حول نفسه على هذه الصورة . .

ــ ربما . . ولكنى سمعت ناساً يحكون حكاية تقول إن هذا هو المكان الذى غرق فيه عدو مصر الذى أراد أن يقتل شمايل . .

ــ قصّ علىّ أبى هذه القصة ، ولكنى نسيتها . . هل تذكرها أنت كلها ؟ . .

ففكر عبد الرحيم بعض الوقت ، ثم أمسك بالمجدافين وأخذ يجذف مبتعداً عن موقع الدوامات فى طريقه إلى القرية وقال : «كان ذلك فى أثناء حرب طويلة بين أوربا ومصر . . يقولون إن أوربا كلها تجمعت وحشدت قواها ، وأتت لتستولى على مصر ، يقود جيوشها ملك اسمه لويس كان معه مائة ألف فارس وخمسة آلاف سفينة . . نزلوا بشاطئ دمياط ، وكان عليها أمير اسمه فخر الدين خرج إليهم ومعه قوة كبيرة من المماليك . وعندما رأى ذلك الأمير جيش العدو خاف ، وفكر فى تسليم البلد للأعداء ، فرفض أهل دمياط ذلك وقرروا الدفاع عن بلدهم ، فما كان من الأمير الجبان إلا أن انسحب بمن معه من الجند ، وقام أهل دمياط يدافعون عن بلدهم بأنفسهم ، فأغلقوا

وأفاقت . . كأنما أخذتها قصته إلى عالم بعيد . .

وظلت صامتة واجمة . . فى حين كان مجذافاه يضربان فى الماء بهدوء . .

ونظر إلى جانب وجهها . . ورأى أشعة الأصيل تلمع فى دمعة انهلت على خدها . . وهتف لنفسه : « شمايل . . هذه شمايل . . »

* * *

على عتبة البيت وقف متردداً ..

رآه بعض الفلاحين الذين يعملون فى أرض الست الطاهرة ، فتعجبوا لرؤيته داخلا، ولكنهم لم يقولوا شيئاً، فهو – برغم ما تسامعوا به – مازال زوج الست الطاهرة ، وهذا بيته ، ومن حقه أن يدخله ..

ولكنه هو نفسه وقف متردداً ، فقد كان غير واثق من أن هذا بيته . .

لقد حطم أشياء كثيرة كان هذا الزواج يقوم عليها . .

منذ أن اختصم معها وخرج انطلق فى استخفاف وأنانية فى طريق الغواية . ظن أنه يصل إلى القوة والمال . .

جرى ولعب وعبث ، ومد يده إلى المال ، وانفصل بذلك عن الشجرة الزكية التى يطلع منها كل الناس الطيبين هنا . .

ولم تقل الست الطاهرة شيئاً . .

أصيلة وصابرة وكريمة وحرة ، تصرفت بحسب أصلها . .

لم يعلم بمأساة نفسها أحد إلا – ربما – حليمة . . فقد كانت تفرج عنها ما يعذب قلبها بكلمات قليلة هنا وهناك . .

وكان عبد الرحيم يعلم الكثير ، ولكنه لم يسمح لنفسه أبداً بأن يطرق الموضوع مع الست الطاهرة . .

كان دائماً يسائل نفسه : « ترى هل تعلم ؟ . . »

وكان إسماعيل أيضاً يضع لنفسه السؤال نفسه : « هل تعلم ؟ . . »

كان أمله الوحيد أن تكون غير عالمة بشيء . .

وفاجأه صوت يقول فى جفاف : « الست ليست هنا . . »

فقال محاولا إخفاء ارتباكه : « أريد أن أرى آدم .. اشتقت لابنى ... »

ــ منذ متى تشتاق لابنك ؟ . .

فقال فى تواضع وانكسار مفتعلين : « إنه ابنى ياحليمة . . وقد اشتقت إليه كما يشتاق كل أب إلى ابنه . . »

فتركته ومضت لشأنها ، فناداها : « حليمة ! »

ولم تلق إليه بالاً ومضت. وبقى وحده . .

وأحس بالمهانة تغمره . .

ومن بعيد رأى ريحان يرعى ، فأراد أن يتحبب إليه واقترب منه ، ولكن الحصان نفر منه وصهل فى غضب . .

وسمعت الست الطاهرة صهيل الحصان من بعيد ، فأقبلت . . واتجه بصرها ــ بقوة الغريزة ــ نحو زوجها . . وأمسكت بالحصان ومرت بيديها على وجهه ورقبته ، وسارت به نحو مربطه . .

وشعر إسماعيل بأنه يذوب مهانة وخجلا . .

ولكنه ضغط على نفسه وسار نحوها وهو يتلفت حوله ليتأكد من أن

أحداً لا يراه .. ووقف خلفها على مسافة منها ، وقال : « لا تريدين أن تريني ؟ . . »

فضت تمر بالفرشة على ظهر الحصان ولم تقل شيئاً، وعاد يقول « لاتريدين أن تكلميني ؟ . . »

فقالت بدون اكتراث : « أظن أنك أتيت لترى ابنك . . »

ـ هكذا قلت . . ولكن الحقيقة أنني أريد أن أراك أنت . . .

ـ على أي حال ، ابنك ليس هنا اليوم . .

ـ أين هو إذن ؟

ـ ليس من حقك أن تعرف . .

ـ ألست أباه ؟

ـ الأبوة ليست لقباً ، وإنما هي وظيفة . . لقد تركته الآن ثلاثة أشهر متوالية . .

ـ كنت مشغولا . .

ـ كل الآباء مشغولون . . ولكن أولادهم هم شغلهم الأول . .

ـ هل معنى ذلك أنني لا أستطيع أن أراه ؟ . .

ـ لم يقل أحد ذلك . . ولكن أولادنا ليسوا تسلية نراهم عندما نريد ونهملهم إذا شئنا . . آدم له حقوق ، وقد تنازلت عنها فتوليتها أنا . .

ـ لا مانع عندي من أن تتوليها أنت . . ولكن غيرك لا . .

ـ أنا لا أترك ابني لغيري . .

ــ عبد الرحيم مثلا . .

ــ عبد الرحيم لا يربى ولدى ، إنه رجل مخلص يرعاه ويرعانا كلنا . .

ــ وهل أنتم فى حاجة إلى رعاية ؟ . .

ــ نحن فى حاجة إلى أى رجل شهم يقف معنا . .

ــ وماذا يعمل ذلك الرجل الشهم ؟ . .

ــ على أى حال ، لا يعمل ما تعمله أنت . .

ــ وماذا أعمل أنا ؟ . . ماذا قالوا لك ؟ . .

ــ لست فى حاجة لأن يقول لى أحد شيئاً . . إننى أرى بنفسى . .

ــ وماذا رأيت ؟ . .

فتركت العناية بالحصان والتفتت نحوه وقالت : «أنت تعرف ماذا أرى وماذا يراه غيرى . . أنت تعرف تماماً ماذا أعنى . . »

ــ إننى لا أعمل شيئاً سيئاً . . ! إننى أجرى وراء رزقى . .

ــ على حساب إخوانك جميعاً وحقوقهم ؟ . . ألست تدرى ماذا يدبرون لنا ؟ . .

ــ لا تصدقى ما يقال ، إنهم لا يريدون بهم شرًّا . .

ــ وأرضهم التى يريدون أخذها ؟ . . وأرض أبى ومسجده هناك على الضفة الأخرى ؟ . .

ــ لن يمسها أحد بسوء . .

ــ هى قالت لك ذلك ؟ . .

ـ نعم . . وأنا أعمل معهم لكى أحول دون وقوع أى أذى على أرضنا . .

ـ هل تظن أنك تخدعنى بهذا الكلام ؟ . .

ـ أنا لا أخدعك أو أخدع أحداً . . أنا واحد منكم أسعى لرزق . .

ـ وهل الجرى مع امرأة فى البحر ، والنزهة معها طول اليوم ، سعى وراء الرزق ؟ . .

ـ للرزق أحكامه . . وأنا آخذ ما يعطينى الله . .

ـ وماذا أعطاك الله ؟ . .

ـ شيئاً من المال رزقاً لى ولابنى ولامرأتى . . إننى لا أفعل شيئاً حراماً . .

ـ اسمع يا إسماعيل . . إننى أعرف أنك تكذب . . وأنت أيضاً تعرف . . ليس لدىّ وقت أضيعه معك .. اختصر الطريق وقل لى : ماذا تريد ؟ . .

ـ لا تغضبى علىّ ، ولا تسيئى الظن بى . . أنت زوجتى وتعرفيننى جيداً . .

ـ أجل أعرفك ، ولهذا أرجو أن تكف عن محاولة الخداع . .

ـ فى حياتى لم أخدعك . .

ـ إذن فأنت لا تدرى ماذا تفعل . .

ـ بل أدرى تماماً ماذا أفعل . . وأعرف أننى لم أرتكب خطأ فى

حقك ولا فى حق آدم . . لماذا أرفض العمل عند امرأة تحتاج إلى مراكبي وسائق لنش ؟ . . ماذا يمكن أن يكون فى ذلك من الضرر ؟ . . أين أنا وأين هى ؟ . .

ــ نعم ، أريد أن أعرف أين أنت وأين هى ؟ . .

ــ أنا صياد سمك ومراكبي . . وهى امرأة غنية جداً . .

ــ ولماذا تزورها فى قصرها وتقضى معها الساعات . .

ــ صدقيني لا يحدث بيننا شيء . . إننى واحد من كثيرين يعملون عندها . .

ــ وكل الذين يعملون عندها يأخذون منها مالا كثيراً مثلك ؟ . .

ــ من قال إننى آخذ مالا كثيراً ؟ . .

ــ كل البلد تعرف . . وإذا كانت هى لا تتكلم فإن شركاءها يتكلمون . .

ــ إنها ليست شريكتهم . . إنها الوحيدة التى تقف معنا . .

ــ إذن فأنت مخدوع ولا تفهم شيئاً . .

ــ لست مخدوعا . . إننى أفهم كل شيء . . إننى أفهم تماماً ماذا أعمل ، وثقى أننى لم أرتكب خطأ فى حقك أو فى حق آدم . .

ــ وماذا تريد الآن ؟ . .

ــ أريد أن تصدقى ذلك . .

ثم قال فى مسكنة : « إننى دائماً مظلوم معك . . أنت تسيئين الظن بى مع إخلاصى الشديد لك . . تذكرى كيف كنت تعاملينني فى بيتى . .

لقد طردتنى من بيتى ، فماذا أعمل ؟ . . »

ــ أنا طردتك ، أم أنت خرجت بنفسك غاضباً ؟ .

ــ خرجت بعد أن طردتنى . . ثم إننى كنت غاضباً ، وقد أكون أسأت الكلام . .

ــ هذه ليست أول مرة . . أنا معك فى تعب منذ تزوجنا . . تعبت من لعبك وعبثك وجريك مع السكارى فى مقهى شريبة . . سئمت هذه الحياة السخيفة التى أعيشها معك . . ثم جريك مع هذه المرأة . . كيف تتحمل زوجة ذلك ؟ . .

ــ قلت لك إنه لم يحدث شىء مما تظنين . .

ــ إن الموضوع لم يعد موضوع خلاف زوجى بينى وبينك . . إنه أصبح خلافاً أساسيا بينك وبين أهل هذا البلد . . أنت مع أعدائنا ، وليس من حقك أن تدخل أرضنا . .

ــ أنا الآن أتحدث مع زوجتى . . دعينا جانباً من أهل البلد ، فأنا أستطيع أن أرتب أمورى معهم . . الذى يهمنى الآن هو أنت . . أريد أن أعود إلى بيتى وأبدأ من جديد . .

ــ هذه ليست المرة الأولى التى تقول فيها ذلك . .

ــ ربما . . ولكنها الأخيرة قطعاً ، وأنا أطلب منك الصفح .

ــ لم يعد للصفح مكان بعد أن دخلت بيننا امرأة . .

ــ لم يدخل بيننا أحد . . صدقينى . . إننى مظلوم وكلام الناس

كثير

ـ هؤلاء الناس يعرفونك جيداً . . وهم لا يدّعون عليك شيئاً . . إنهم على أبواب معركة ليستعيدوا حقوقهم ، وهم يرونك فى الناحية الأخرى . .

ـ إنهم مخطئون ، وسأوضح لهم موقفى . .

ـ كيف تشرح لهم حقيقة ما بينك وبين هذه المرأة ؟ .

ـ إنها معهم ، وهى مستعدة للمجىء إلى هنا لتؤكد لك ذلك . .

ـ لا أريدها فى بيتى . .

فقال وقد رفع صوته فى ضيق شديد : « إذن ماذا أعمل ؟ . . أقول لك إنها تريد أن تأتى إليك لتؤكد لك أنها ليست مع الآخرين . . صدقينى أنها ليست شريرة . . كيف أثبت لك ذلك ؟ »

ـ لا أدرى . . كما قلت لك . . الموضوع الآن ليس موضوعى . . إنه موضوع هذا البلد وأهله . . قل لهم أنت وانظر كيف يردون عليك . .

ـ يهمنى أن تصدقينى أنت أولا . .

ـ لم يعد هناك أى معنى لأن أصدقك أو لا أصدقك . .

ـ لا بد أن تصدقينى . .

فسكتت لحظة طويلة ، واستدار ليمضى .. فنادته قائلة : « وهذه المرأة ، ماذا تريد منى ؟ . . »

تريد صداقتك . . .

ـ ومنذ متى تريد مثل هذه المرأة صداقة مثلى ؟

ــ هذا ما قالته لى ، وقد رجتنى أن أتوسط بينك وبينها . . لماذا ترفضين اليد التى تمتد إليك ؟

فصمتت لحظة ، ثم قالت : « دعنى أفكر . . »

فتوقف مكانه ثم قال : « هل أستطيع الآن أن أدخل البيت لأغتسل ؟ . . »

فقالت بدون اكتراث : « ادخل إذا شئت . . »

ودخل البيت . . ووقفت هى تفكر . . وهنا ظهر عبد الرحيم فاقترب منها وقال :

ــ أنا لا أريده أن يدخل البيت .

ــ وماذا يمكنه أن يفعل ؟ . .

ــ كثيراً جداً . . إننى غير مطمئن . . لا أريده أن يدخل غرفة آدم . .

ــ لماذا ؟ . .

ــ هناك أوراق الأرض فيما أظن . .

ــ ولكنه لا يعرف . .

ــ إذا كنت أنا أعرف ، فلا بد أن جميع الناس يعرفون . .

ــ إذن ماذا أعمل ؟ . . لا أستطيع أن أطرده . .

ــ المهم ألا يدخل غرفة آدم . . قلبى يحدثنى أنه يريد أن يجوس هناك . .

وهنا أقبلت حليمة تقول : « عم عبد الرحيم على حق . . »

ــ إذن فاذهبى وادخلى غرفة آدم وأغلقيها من الداخل . .

وذهبت حليمة مسرعة ، وقال عبد الرحيم : « هل قلت له أين آدم ؟ . . »

ــ لا . . لم أقل شيئاً . .

ــ حسناً . . ينبغى ألا يظل طويلا داخل البيت . .

ومضى عبد الرحيم ، وبعد قليل أتت حليمة وقالت إنها أغلقت باب غرفة آدم ، وقالت إن إسماعيل يغتسل حقًّا . . ثم قالت : « ما كان ينبغى أن تفتحى صدرك له مرة أخرى .. إنه رجل غدار ، والغدار لا يؤمن أبداً . . إننى أعرف الرجال جيداً . . وأنت ياسيدتى طيبة القلب . . »

ــ إنه زوجى ياحليمة . . ماذا تريدين منى ؟ . .

ــ مازلت تحبينه . . برغم كل شىء . . مازلت تضعفين أمامه . .

ــ أنا لم أضعف . .

ــ أنت أعرف بإحساسك . . ولكنى أحذرك من قلبك . .

فقالت فى حيرة : « ماذا أعمل ياحليمة ؟ . . ماذا أعمل ؟ . . »

ــ لماذا أنت طيبة القلب هكذا ؟ . . لماذا لا تخرجينه من قلبك دفعة واحدة ؟ . .

ــ لو أعرف يقيناً أنه خاننى . .

ــ على أى حال . .ليكن شعورك ما يكون ، ولكنى لا أشعر باطمئنان مادام هذا الرجل هنا . .

وفى هذه اللحظة خرج إسماعيل من البيت وأقبل نحو الست الطاهرة وقال : « لا تتصورين شعورى عندما عدت إلى بيتى . . إننى أشعر بندم شديد . . أرجوك أن تصفحى عنى .. أريد أن أعود إلى بيتى . . »

فقالت حليمة فى غضب : « والمرأة الأخرى ؟ . . »

فقال فى رجاء : « لا تظلمينى ياحليمة .. أنت كنت دائماً فتاة طيبة .. ماذا جرى لكم ؟ . . ماذا فعلت معكم ؟ . . »

فقالت مصر : « لا داعى لهذا الكلام . . أنت ذاهب الآن . . »

— نعم . . وأريد أن أعود نهائياً إلى بيتى . .

وسكت لحظة ، ثم قال : « وكما قلت لك ، هذه السيدة تريد أن تأتى إليك لتتأكدى من أنها معنا . . »

فقالت حليمة فى غضب : « لا نريدها هنا . . »

فقالت الست : « لماذا ياحليمة ؟ . . لماذا نقفل الباب ؟ .. قد تكون صادقة . . »

— لن تكون صادقة أبداً . .

وبعد لحظة نظرت مصر إليه وقالت فى صوت يتحدى : « كلهم لا يريدون أن يروها هنا . . وأنا لا أستطيع أن أرغمهم على قبولها . . هذا البيت بيت الجميع . . ولكنى مستعدة للذهاب إليها . . »

فصرخت حليمة : « ماذا تقولين ياست ؟ . . »

— وستذهبين أنت معى . . أريد أن أراها عن قرب ، وأرى بيتها . .

— لن أذهب معك . .

ـ ستذهبين . .

ـ وماذا نقول لها ؟ . .

ـ لا شيء . . أريد أن أراها لأفهم أشياء كثيرة . .

ـ إذن نسأل عم عبد الرحيم . .

ـ هناك مسائل أقررها أنا بنفسى . .

ـ ولكن بعض الرجال قد يغضبون . .

ـ كلهم يثقون بى ويعرفون أننى دائماً أتصرف كما ينبغى . .

ـ أمرك . . ولكنى لن أضع يدى فى يدها . .

ـ ليس لك الحق فى أن تقولى ذلك . .

ـ معذرة . . قلته لأننى أخاف عليك منها . .

ـ لا تخافى علىّ منها . .

ـ بل أخاف عليك منها ومنه . .

فقال إسماعيل : « حليمة .. بأى حق تتدخلين بينى وبين زوجتى ؟ »

فتدخلت الطاهرة قائلة : « لا تخافى علىّ من أحد . . مادام أهلى حولى فأنا لا أخشى أحداً . . الله معى . . وقلوبكم دائماً معى . . »

فقال إسماعيل : « إذن متى تريدين الذهاب ؟ »

ـ سأقول لك بعد أيام . .

ـ هل أفهم من ذلك أنك صفحت عنى ؟ . .

ـ أراها أولا . .

ــ أمرك . .

ومضى في خطوات متثاقلة . عندما صار في الطريق ابتسم لنفسه . ولكن الابتسامة لم تلبث أن ماتت على شفتيه ، وأحسّ برهبة شديدة . ماذا فعلت بنفسك أيها الغبي ؟ . أتيت لتخدعها فخدعتك ! . . إن عزيزة لن تستطيع الثبات أمام الطاهرة . . . سيبدو كل شيء واضحاً في عينيها . . لا يستطيع أحد خداع مصر ..هذه نهايتك ولا شك .. لا بد أن تحاول إقناع عزيزة بأن ترفض . . هذا هو السبيل الوحيد لنجاتك . . إن عزيزة امرأة ملتوية وشيطانة ، ولكنها لا تقوى على مصر . .

ثم وقف لحظة وأشعل سيجارة ، وواصل السير مطأطئ الرأس ، وهو يشعر بأن ثقل الدنيا كلها حط على كتفيه . .

* * *

ــ يالها من امرأة قوية! تريدين أن تأكليها؟.. هاهي ذي ستأكلك.. أنا شخصياً لا أجرؤ على النظر في عينيها . . لقد رأيتها مرة واحدة ، وعند ما نظرت إليّ أحسست بأني غرقت في عينيها . .

ــ أنت دائماً تغرق في عيون النساء . .

ــ هذه ليست امرأة . . ليست واحدة من النساء . .

ــ إذن ماذا تكون ؟ . . شيطانة ؟ . .

ــ ياليت ! . . الشيطانات لا يخفنني .

أنت رجل ضعيف . . طول عمرك رجل ضعيف . .

ــ كل هذه الأرض ملكتُها ، وكل هذا المال جمعته ، وتقولين إنني ضعيف ؟ . .



ــ نعم . . أنت جمعت هذا كله بوسائل أنت تعرفها . . وكلها وسائل ضعف . .

ــ مغرورة . . أنت مغرورة . . وغرورك سيقتلك . . إننى أحذرك منها . . إذا وقفت أمامها فستموتين واقفة . .

ــ إذا مت فلن أموت وحدى . .

ــ لقد حذرتك . . لا تقابليها . . هذا الصياد الذى تجرين معه صعلوك لا يساوى شيئاً . .

ــ الرجال الذين يساوون شيئاً يتعبوننى . . ولهذا أستريح مع أولئك الذين لا يساوون شيئاً . . عندما أملّهم أعرف كيف أتخلص منهم . .

وأحس أن الإشارة إليه ، فنظر إليها طويلا ثم ردد : « مغرورة .. سيقتلك الغرور ! »

* * *

قال عبد الرحيم : « أنا موافق على ذهابك . . ولكن متى ؟ . . »

ــ بعد أسبوع . .

ــ ولماذا هذه السرعة ؟ . .

ــ السرعة أساسية هنا .. العدو يثبت أقدامه فى الأرض مع الأيام .. إنى أحس أن المعركة لا بد أن تبدأ .. هذه الضفة الأخرى لا بد أن نستعيدها . . وقد آن أوان ذلك . . أنا ذاهبة ، وعندما أضع قدمى هناك تبدأ المعركة . .

ــ إذن ليستعد الرجال . .

ـــ نعم . . وعندما أعود من هناك يبدءون العبور . .

ـــ الرجال ينتظرون إشارة الهجوم . .

ـــ هل يعرفون جميعاً معنى هذه المعركة ؟ . .

ـــ إنهم يعرفون أنهم إما أن يستردوا الأرض أو يموتوا . .

ـــ هل يعرفون أن العدو مستعد ؟ . .

ـــ يعرفون كل شيء ، ولهذا فهم يريدون دخول المعركة . . طال شوقهم إلى أرضهم . .

ـــ هل يناسبكم ذهابي بعد أسبوع . . أقصد في مثل هذا اليوم ؟

ـــ اذهبي اليوم إذا شئت . . نحن مستعدون من زمن طويل . .

ـــ على بركة الله . . لتكن ساعة الصفر سرًّا . .

ـــ هل في ذلك شك ؟ . .

ـــ وهل تذهبين معه وحدك ؟ . .

ـــ تخاف عليّ ؟ . .

ـــ لا . . لكن الحذر واجب . .

ـــ لا تخف . . سآخذ ريحان . . إنه مشتاق لآدم ، وآدم مشتاق إليـــه . .

ـــ أخشى أن يرفض إسماعيل . . إن ريحان لا يطيق رؤيته . .

ـــ سآخذه معي في القارب على أي حال . . لا يهمني ما يقول إسماعيل . .

* * *

أواخر سبتمبر . .

أقبل الخريف مبكراً هذا العام . تلبدت السماء بالغيوم ، وهطلت أمطار كثيرة فى يومين متتاليين . . وهبت عواصف قضت على البقية القليلة من العمران فى رأس البر ، فحزم أواخر المصيفين أمتعتهم وقوضوا العشش الباقية ، وخلا المكان الذى كان يفيض بالحركة . أصبح قاعاً صفصفاً ، وأخذت مياه البحر تغير عليه . . كل يوم تأكل منه جزءاً . . وأخذت مياه النيل الحمراء ترتد إلى النهر . .

وتوقفت عزيزة عن الخروج فى لنشها مع إسماعيل ، وخيم السكون على القصر وما حوله . وأقبلت أسراب السمان من وراء البحر فى موجات متتابعة ، وتساقطت فى الشباك الطويلة التى مدها الصيادون بطول الساحل . .

وعمر الساحل بالصيادين الذين أخذوا يجمعون السمان من الشباك . . كانوا يتسابقون فى ذلك ، لأن السمانة المسكينة إذا اصطدمت بخيوط الشباك وقعت على الأرض وتسارعت دقات قلبها وماتت فى دقائق . . لابد من ذبح السمان الواقع على الأرض قبل أن تفارقه الروح..أما المسكينات اللائى يعلقن بالشباك فيضطربن فيها حتى يمسكهن الصيادون بالأيدى . .

كان الشيخ إبراهيم ينظر إلى السمان فى الشباك وعلى الأرض ويقول : «كلنا سمان يا أولاد، ولكل منا خريفه وشبكته وموعده . . يا أولاد ! لو تدرون هوان هذه الحياة لما ضننتم بها على دين أو وطن . . » ثم يبكى ويتلو قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم

وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . .

هذا الموسم الدامى فرحة للصيادين : يأكلون ويطعمون أولادهم ويبيعون وتحمرا جيوبهم . . وآلاف الطيور تتعذب وتموت بعد رحلة طويلة هى فى الحقيقة سباق نحو الموت . .

وقال صابر لنفسه وهو يتأمل بعض مشاهد المأساة من مئذنة الجامع :

ـ سبحانك يارب ! مخلوقات تموت ، وأخرى تعيش . . مُلك أنت خلقته وأنت تدبره . . سبحانك ياباريء الكون بلا عون .. تخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى . . !

* * *

بعد الصيف يأتى الخريف ، ومن الصحو تأتى السحب والغيوم . . وإذا غضبت السماء بكت ، فرويت الأرض وضحكت . .

بالأمس ماتت طيور ، وبعد قليل تخضر الأرض ويطلع الحب ، وتأتى طيور أخرى فتلتقطه . . وتواصل الحياة قصتها . .

وعلى ماء المطر يحيا السمك . . كلما أمطرت السماء على الماء الملح انتعشت الأسماك فيه ، كأنها هى الأخرى تنتظر الماء الحلو لتشرب . . الماء الحلو ضرورى لتلقيح الأسماك . . بعد قليل – فى أكتوبر – يمتلئ النهر بأسماك جميلة ، ملايين منها فيها خير كثير للناس . . حياة تأتى من حياة . . وحياة تأتى من موت . . مُلك لا يعرف أسراره إلا خالقه . .

(مرج البحرين يلتقيان) . .

تأمل الكون ثم أغمض عينيك يمتلئ قلبك بنور الله . .

* * *

وقف ينتظر على شاطئ النهر بعد طلوع الشمس بقليل .

كان يعد قاربه ويهيئ شراعه ، ثم توقف قليلا وسأل نفسه للمرة المائة : « ولكن الحصان . . لماذا تريد أن تأتى بالحصان ؟ . . إننى لا أحبه وهو لا يحبنى . . لا أصدق أبداً ما تقوله من أن هذا الحصان مشتاق إلى الرعى بجوار جامع الشيخ إبراهيم . . كل هذا تدبير عبد الرحيم . . هذا الرجل يقف فى طريقى ولا سبيل أمامى إلا القضاء عليه . . »

ثم جلس وأشعل سيجارة ، وخطرت بباله عزيزة بهيئتها الجميلة وقوامها الفارع وملامحها التى تتحدث عن سلطان يلذ الخضوع له : سلطان الجمال وسلطان المال وفتنة الأصل العريق والبيت الكبير . . « ترى هل تصل أيها الصعلوك إلى ابنة السلطان ؟ . . آخ ! لماذا هى ابنة السلطان ، ولماذا أنا ابن الشيطان ؟ . . ما أطول المسافة بينى وبينك ! ولماذا تجعلينها أطول وأشق بهذا الشرط المستحيل ؟ . . كيف أستطيع أن أزيلها من الطريق بينى وبينك ؟ . . وماذا يحدث لى إذا زالت من الطريق ثم لم أجدك أنت ؟ . . لن أستطيع ذلك . . لا يستطيع ذلك أحد . . »

وانحنى رأسه . . وازداد انحناء . . وغاص فى الهموم . .

وأفاق بغتة على صهيل ريحان من بعيد . .

وأحس برعدة تهز جسده ، وهو يرى الطاهرة مقبلة ومن خلفها عبد الرحيم ممسكاً بعنان ريحان . .

حاول أن يبتسم تحية لهم ، ولكن الابتسامة ماتت على شفتيه . .

ـ لا . . لن أستطيع . . لا يستطيع ذلك أحد !!

وتبادلوا تحية فاترة . .

وخطت مصر إلى القارب معتمدة على ذراع عبد الرحيم . .

وخلفها ، وبدون تردد ، نزل ريحان فى القارب ووقف خلف سيدته . .

وقال عبد الرحيم : « هل أنت واثقة من أنك لن تحتاجى إلىّ ؟ . . »

ـ إننى محتاجة إليك دائماً . . ولكن هذه المهمة أريد أن أقوم بها وحدى . .

ـ إنها تكرهك . . وقد تكون قد دبرت لك شيئاً . .

ـ أنا لا أخشى من يكرهوننى . .

وقال إسماعيل محتجاً : « ياعبد الرحيم أنا معها وأنا زوجها .. هل نسيت ؟ » .

ـ أنا لا أنسى . . ولكنك أنت أحياناً تنسى . .

وسكت إسماعيل . .

وانطلق القارب فى سكون . .

كانت السماء ملبدة بالغيوم ، ثم أخذ الرذاذ يتساقط ، ولم يلبث المطر أن هطل مدراراً . .

ومدّت مصر يديها فملأتهما من ماء المطر ، ثم تركته ينساب من بين أصابعها . .

وأحست بأنفاس ريحان من خلفها ، فمدت يدها وأمسكت بلجامه وأسندت رأسها إلى ذراعه . . وأرسلت بصرها نحو زوجها . .

رأته شارد العينين ذاهلا عما حوله وهو يحرك المجدافين بذراعيه القويتين . .

وبعد لحظات قالت : « إسماعيل . . لماذا تكون دائماً بعيداً عنا ؟ . . »

وأفاق إلى نفسه وقال : « لا يمكن أن أكون بعيداً عنك ولا عن آدم . . »

ـ بل أنت بعيد جداً . . أنت تعرف أين أنت . .

ـ لماذا تقولين ذلك ؟ . .

ـ لأنه صحيح . .

ـ أنت لا تريدينني يامصر . . لم تعودى تحبينني . .

ـ إنني أحب من يحبوني . .

ـ لقد تغيرت علىّ من زمن طويل . .

ـ إنني لا أتغير ، ولكن الناس من حولى يتغيرون . . أنت لست إسماعيل الذى تزوجته منذ اثنتى عشرة سنة . . يومها لم تكن تشرب الخمر وتقضى لياليك فى الحانة . . يومها أيضاً لم يخطر ببالى أن تجرى وراء امرأة كهذه . .

ـ إننى لا أجرى وراءها . .

ـ لماذا تكذب ؟ . . نحن هنا وحدنا . . بين الماء والسماء . .

ـ كان لا بد أن أجرى وراء رزق . .

ـ هذا رزق أسود لا أريده ولا آدم يريده . .

وساد الصمت ، وتزايد هطول المطر ، وفتحت مصر عينيها فى دهشة وقالت : « خذ بالك . . أنت متجه بنا نحو الدوامات . . »

فأفاق لنفسه وقال : « كدت أضل الطريق . . شغلتنى عن نفسى . . »

وغيّر اتجاهه وأخذ يجذف بنشاط ليعوض الوقت الذى ضاع . .

وبعد قليل اقترب القارب من الشاطئ ، وتوقف إسماعيل عن التجذيف ونظر إلى زوجته وقال : « أريد أن أعود إليك . . »

ـ تستطيع ذلك إذا أردت . .

ـ وهل تغفرين لى كل ما فعلت ؟ . .

ـ غفرته لك فعلا . .

وانحدرت دموعه على وجهه ومضى يقول : «أصيلة والله . . أصيلة وبنت أصيل . . »

كان صابر ينتظر على الضفة الأخرى ومعه الشيخ سعد إمام الجامع . .

ونزلت إلى البر . . وخطا الحصان وراءها . . وهش لصابر الذى تناول لجامه بيده وسار به خلف مصر فى صمت . .

وقال إسماعيل : « الآن أذهب لترتيب المقابلة . . »

فقالت : « سأكون بانتظارك عند الشيخ سعد . . »

ومضى مسرعاً . .

وعندما ابتعد قال صابر :

— لاتخافي شيئاً . . لقد أعددنا كل شيء . .

— اطمئنوا . . أنا واثقة من كل شيء . .خذوا ريحان لآدم . . ستكون معى أنت ياصابر . .

* * *

كانت بانتظاره فى نافذة قصرها . .

عندما رأته آتياً مطأطئ الرأس قالت لزوجها السابق وشريكها اليوم : « لقد عاد بوجه آخر . . »

— انتظرى حتى تسمعى ما يقول . .

— هذا الكلب ضعيف . . إننى أعرف أنه ضعيف . . وهو لن يستطيع . .

— سيعمل ما نريد ، أراد أم لم يرد . .

— إذا ضعف أو تردد ضاع كل شيء . .

— إذا ضعف أو تردد ستكون هذه نهايته . .

— إنها نهايته على أى حال . . اذهب أنت الآن . . لا أريدك هنا . . لا أريد أحداً منكم هنا عندما تأتى هى . .

وخرج ، وأشعلت سيجارة ، ومرت بيدها على شعرها . وعندما انفتح الباب ودخل منه إسماعيل ابتسمت .. ثم قالت : « أين هى ؟ . . »

— إنها هناك عند شيخ الجامع تنتظر إذنك . .

— إذن اذهب وائت بها . .

— حالا . .

ثم جلس واستأذنها فى أن يأخذ سيجارة .. وظل صامتاً .. قالت: « ليس هذا وقت الضعف . . إذا ضعفنا خسرنا كل شيء . .»

ــ أنا لم أضعف . .

ــ ولكن وجهك متغير . . ماذا بك ؟ . .

ــ لا شيء . . أنا كما تعرفين . .

فاقتربت منه وجلست إلى جواره وأحاطته بذراعها وقالت : « إذا نفذنا خطتنا فسيكون هذا كله لك ولى . . لن يشاركنا فيه أحد . .»

فرفع رأسه وأدار بصره فى الغرفة الجميلة وردد: « نعم . . سيكون لنا .. لا يهمنى إلا أنت . . أنت فقط . . لا أصدق أنك ستكونين لى . . »

ــ أنا من الآن لك . . لابد أن نسير معاً منذ الآن . . خطوة خطوة . . كنت أبحث عن رجل . . وقد وجدته . . »

ونظر إليها . . أحس بالفتنة تسرى فى جسده . . وابتسمت . . وضمها إلى صدره . . وضمته إليها فى حرارة . .

ومرت لحظة صمت ، قطعتها بقولها : « إننى مشوقة للحديث معها . . »

ــ وأظنها أيضاً مشوقة لرؤيتك . .

ــ بعد أن تخرج من هنا ، وفى طريق العودة ، لا بد أن يتم كل شيء.. إذا ترددت لحظة فلن يكون لأحد منا مكان لا على هذه الضفة ولا على الضفة الأخرى . .

ــ اطمئنى . . لن أتردد . .

* * *

ظلت تتطلع من النافذة فى انتظار غريمتها . .

أحرقت سجائر كثيرة . . من حين لحين كانت تنادى رئيس رجالها وتسأله عما إذا كان كل شىء قد تم ، فيؤكد لها أن رجاله مستعدون لإشارة الهجوم .. قالت : «هل أنت واثق من أنهم لا يعلمون شيئاً ؟ . . »

ـ أنا واثق من أنهم ليست لديهم أية فكرة عما سيحدث لهم . . كانوا يحسبون أننى غافل عن أن صابر جاسوس علينا . . عرفنا كيف نخدعه هو والشيخ سعد . . أنفقنا فى ذلك مالا . . غدا نستعيده منهم ونطردهم من هذه الناحية . .

ـ إنهم لا يستحقون غير ذلك . .

وبعد لحظة قال : «أما كان الأحسن أن نقضى عليها هنا اليوم ؟ . .»

ـ ليس هذا من صالحنا . . سأجعله هو يقضى عليها بنفسه . . بعد ذلك يقع الشقاق بينهم وينتهى أمرهم إلى الأبد . . بعد ذلك نعبر إلى الضفة الأخرى أيضاً . .

وبعد لحظة قالت : « ولطفى .. لطفى بك . . أين هو ؟ . . »

ـ خرج بالسيارة ليأتى برجال آخرين . .

ـ رجال آخرين ؟ . .

ـ هو قال ذلك . .

ـ نحن لسنا فى حاجة إلى رجاله . .

ـ لا تخافى . . لن يصل منهم أحد إلى هنا .. لن نقوم نحن بالعمل

كله ليتمتعوا هم بالثمرة . .

ــ افتح عينيك جيداً . .

* * *

أقبلت فى خطوات ثابتة رافعة الرأس منسرحة القامة . . كان منظرها جميلاً فى ثوب الفلاحة الأسود الأنيق الذى كانت ترتديه ، والطرحة السوداء تسترسل مع الهواء وراء ظهرها فيبدو شعرها الكستنائى المتموج . إلى جانبها كان يسير إسماعيل مطأطئ الرأس يجر ساقيه جرًّا . أحس كأنها تعدو وكأنه هو يلهث وراءها . . .

ونظرت إلى القصر من بعيد وهى تقترب ، ثم قالت : « من أين يأتون بهذا المال كله ؟ . . »

ــ ناس أغنياء ، أباً عن جد . .

ــ هذا المال الكثير لا يورث . .إنه يُسرق . .

ــ وماذا نعمل ؟ . . هم اللصوص وهم العساكر . .

ــ العساكر نحن . . نحن أصحاب هذه الأرض . . هذه كلها أراضينا ، وهذا القصر من مالنا . .

ــ ستقولين لها ذلك ؟ . .

ــ إذا جاءت مناسبة . .

ــ لا لزوم . . ربما كان الأفضل أن نصالحهم . .

ــ كيف نصالحهم وهم غاصبون لأرضنا ؟ . .

ــ نصالحهم لكى يتركوا أرضنا . .

ــ إذا صالحناهم الآن أصبحت الأرض لهم نهائياً . .

ـ إذن لماذا أتيت لزيارتها ؟ . .

ـ أريد أن تشعر أننى لا أخافها . . أتيت وحدى بدون أحد من رجالى ، وأنا واثقة من أن رجالها يحيطون بالقصر . .

ـ إذن نعود . .

ـ عد وحدك إذا شئت . . أما أنا فلن أرجع عما عزمت عليه . .

وعندما كانا على أولى عتبات القصر انفتح الباب وظهرت عزيزة ماهر فى كل أبهتها . .

ابتسمت ونزلت السلم مسرعة . . وعانقتها وهى تقول مرحبة : « أهلا . . أهلا . . ما كنت مصدقة أنك تأتين . . »

فردت مصر لها التحية ، وقالت وهى تدخل القاعة الفسيحة : « لم أر هذا القصر قبل الآن . . متى بنيتموه ؟ . . »

ـ خلال السنوات الأربع الماضية . . كنت أريد أن أعيش فيه مع زوجى الثانى .. ولكن زواجنا لم يوفق . . فانفصلنا وذهب هو ليعيش فى مكان آخر . .

ـ ولكنه معك دائماً . .

ـ هو ابن عمى كما تعرفين . . وهو شريكى فى أعمال كثيرة . .

ودخلتا حجرة جميلة كل مافيها أنيق رشيق . . وجلست ودعت ضيفتها للجلوس ، وتركت إسماعيل واقفاً ، فجلس من نفسه . وأتت أكواب الليمون فشربوا ، ثم نظرت إلى إسماعيل وقالت : « أريد أن أتحدث معها على انفراد . . »

ونهض وخرج ، وأقفلت الباب واستدارت ، فإذا مصر قد وقفت ومضت تنظر إليها بعينيها الواسعتين . ثم قالت: «حدثونى كثيراً عن جمالك . . ولكن ما أرى يفوق كل ماسمعت . . »

ـ ياحبيبتى العفو . . أين أنا منك ؟ . . دعينى أتأملك . . فيم تفكرين ؟ . .

ـ ماكنت أتصور أن سوء حظى يكون له كل هذا الجمال . .

ـ ماذا تعنين ؟ . .

ـ كيف يكون لك هذا الوجه وتكونين بهذه القسوة ؟ . .

ـ فسّرى لى كلامك يا عزيزتى . . كامينى كلام امرأة لامرأة . . ماذا تريدين ؟ . .

ـ أنا لا أريد شيئاً . . أنت رغبت فى رؤيتى ، وعرضت أن تأتى إلى بيتى ، ولكنى خفت عليك من رجال بلدتنا ، ففضلت أن آتى أنا إليك . .

ـ ولكنك قلت شيئاً عن سوء حظك . . هذا لا أفهمه . .

ـ ألم تطلبى إلىّ الآن فقط أن أفتح لك صدرى ، وأن أكلمك كلام امرأة لامرأة ؟ . . هل كلامى هذا يصعب فهمه على امرأة مثلك ؟ . .

ـ آه . . تعنين زوجك ؟ . . ولكنى لست مسئولة عن ذلك . .

ـ أولا أحب أن تعرفى أننى لا أشكو . . مصر عمرَها كله تتألم ولا تشكو ، ثم إننى لم آت إلى هنا لكى أتكلم فى موضوع زوجى . .

هذا موضوع لا أتكلم فيه إلا معه هو . .

ــ لا أعتقد أنك تستطيعين الكلام معه فيه . .

ــ هو زوجي على أى حال ، وما يجرى بيني وبينه يخصنا نحن الاثنين . .

وساد صمت لحظة ، وعادت عزيزة تقول : « لا أدرى لماذا أشعر نحوك بحب كبير . . كنت أكرهك من كل قلبي قبل أن أراك وأسمع صوتك . . أما الآن فصدقيني أنى أخشى على نفسى . . »

ــ ولماذا تخشين ؟ . . إذا كنت صادقة فيما تقولين فما يمنعك من أن تفتحي لى قلبك وتنضمى إلىّ وإلى رجالى ، أولئك الناس الطيبين الذين تريدين أن تأخذى أرضهم ؟ .

ــ أنا لا أريد أن آخذ أرضهم . . إنها أرضى اشتريتها بمالى . .

ــ هذه ياعزيزتى ليست أرضاً . . إنها بالنسبة لنا وطن ، والوطن لا يشترى بالمال . . دعى هذا الوطن لأصحابه وعودى من حيث أتيت . . إنك امرأة غنية . . والأغنياء يجدون أوطاناً فى كل مكان . .

ــ صدقيني . . إننى لا أطمع فى هذه الأرض ولا أفكر فى أذى واحد من أولئك الرجال الطيبين . . لقد أتيت وشركائى لكى نضع أموالنا فى هذه الأرض وننشئ فيها المشروعات ونحولها إلى جنة . . هم أنفسهم سيكونون أسعد حالا معنا . . ستتسع أرزاقهم وتتفتح أمامهم أبواب الرقى . . عندنا مشروعات لمدرسة ومستشفى . . و . . .

ــ ولماذا لاتنفقون هذه الأموال فى بلدكم الذى جئتم منه ؟ . . ما الذى يجعلكم تنفقون هذه الأموال هنا فى أرض ليست أرضكم وبين ناس

لايحبونكم ؟ . .

ــ ولكن هذه أرضنا أيضاً ياعزيزتى . . قبل مئات السنين كانت هذه كلها أرض المهايرة . .

ــ لم تكن قط أرضكم . . ربما كان بعضكم يعيش هنا منذ زمن طويل ، ولكنهم هاجروا منها وتركوها ليجمعوا المال فى بلاد أخرى . .

ــ وجمعنا المال وعدنا واشترينا هنا أرضاً واسعة .

ــ ولكنا نحن أقمنا فيها مخلصين لها أجيالا بعد أجيال . . من مئات السنين لم تعرف هذه الأرض غيرنا . . نحن أحييناها وأصلحناها وحاربنا فى سبيلها وجعلناها وطناً . . كما قلت لك . . هذا وطننا . .

ــ ولكننا لم نشتر هنا إلا جزءاً قليلا . . والباقى لكم . .

ــ هذا كلام سمعناه كثيراً . .

ــ إنك تسيئين الظن بى . . إننى لست امرأة جشعة ولا طامعة كما تظنين . . لاتنسى أننى امرأة مثلك . . إذا سمحت لى قلت كذلك إننى امرأة مسكينة مثلك . .

ــ ولكننى لست مسكينة . . إننى لم أكن ولن أكون أبداً مسكينة . .

ــ فى رأيى أن كل امرأة يتركها زوجها امرأة مسكينة . .

ــ لماذا تعودين فى إصرار غريب إلى موضوع زوجى هذا ؟ . . إذا كنت تريدينه فخذيه . .

ــ أنا لا أريده . . ولا أريد أى رجل آخر . . هذا موضوع انتهى بالنسبة لى . .

ــ يخيل إلىّ أنك مسكينة فعلا . . غنية جداً ومسكينة جداً . .

ــ ربما . . ولكنني لست مسئولة عن ذلك . . هذه الدنيا ظلمتني . .

ــ ولماذا أنت قاسية . .

ــ لا أدرى أقاسية أنا أم غير قاسية . . ولكنني أعرف أنني لا أحب أن يغلبني أحد . . غلبوني كثيراً وأنا صغيرة . . أهلي ، هؤلاء الأغنياء الذين يحسدهم الناس ، عذبوني كثيراً أيام طيشي وشبابي . . حرموني من الرجل الذى أحببته وزوجوني من الرجل الذى أرادوا . .

ــ ولماذا أنت تريدين أن تنتقمي منى . . ومن أهل بلدى . .

ــ إنني لا أنتقم . . إنني أريد أن أنشئ هنا شيئاً ضخماً ، وأن يعمل فى خدمتى ألوف الرجال ويفيض المال فى يدى . . المال خير ما يعوض المرأة عن آلامها . .

ــ لن يكون لك شيء مما تريدين ياعزيزتى . . لن تنشئي شيئاً ، ولن يعمل أحد فى خدمتك ، ولن تجدى المال الذى يعوض آلامك . .

ــ بأى سلطة تقولين هذا الكلام ؟ . .

ــ بسلطة صاحب الحق . .

ــ كم أنت عنيدة ! . كنت أسمع أنك امرأة من طراز فريد . . والآن أرى بالفعل أنك لا تشبهين أى امرأة أعرفها . .

ــ لأنني لست مجرد امرأة . .

ــ إذن ماذا تكونين ؟ . .

ــ إننى أم . . أم لألوف الرجال . . لأجيال من الرجال . . أم

لهذه الأرض كلها . . أم لهذا النيل الذى يجرى على مرمى البصر . .

فظلت عزيزة واجمة لحظة ثم قالت : « لا أفهم . . لا أفهم شيئاً مما تقولين . . »

— بل تفهمين كل حرف فيه . .

— صدقينى أننى لا أفهم . .

— إذن حاولى أن تفهمى . .

— ولماذا لا تحاولين أنت ؟ . .

— إننى أفهمك جيداً ، أكثر مما تظنين . .

فملك الغيظ عزيزة وصرخت : « حذار أن تسخرى منى! . . »

فنظرت مصر إليها طويلا ، ثم جلست ووضعت ساقاً على ساق ، وقالت فى هدوء يشبه البرود : « حذار أن تصرخى فى وجهى هكذا مرة أخرى! . . »

— لا أدرى لماذا فعلت ذلك . .

— أنا أعرف . . أنت خائفة منى الآن . .

— أنا لا أخشاك ولا أخشى أحداً . . وأنت لم تأتى إلىّ هنا لتهينينى فى بيتى . .

وتعالى صوتها جدًّا ، فانفتح الباب وبرز منه رجل من خدم عزيزة وقال : « ماذا حدث ؟ . . »

فقالت عزيزة وقد أدارت ظهرها : « لم يحدث شىء . . افتحوا الباب لهذه السيدة لكى تخرج . . »

ـ زوجها ينتظرها هنا . .

ـ لتذهب هى وزوجها . . لا أريد أن أرى أحداً منهما . .

وهبت مصر واقفة ، ودخل إسماعيل فنظر إليها ثم إلى عزيزة ، ووقف صامتاً دهشاً مفتوح الفم . .

وبخطوات متزنة ثابتة ، عاليةَ الرأس ، سارت مصر . .

ونظر إسماعيل إلى عزيزة وخطا نحوها خطوة ، فقالت وهى تنظر من النافذة دون أن تلتفت إليه : « أنت تعرف ماعليك أن تفعله . . »

ـ ولكن ماذا ؟ . .

ـ أنت تعرف ماينبغى أن تفعله . .

ـ اسمحى لى فقط . .

ـ اذهب من هنا الآن . . لن أغفر لك ماصنعت بى هذه المرأة . . ولن تغفر لك هى مافعلته بها . . لا مكان لك هناك قطعاً . .

ـ وهنا ؟ . .

ـ نفذ ما اتفقنا عليه وعد إلى بيتك هنا . .

ـ بيتى ؟ . .

ـ هنا بيتك وامرأتك . . ماذا تنتظر ؟ . .

ومضت خارجة من باب آخر . . ووقف هو لحظات حائراً فى أمره . . ثم سار خارجاً مطأطئ الرأس صامتاً . .

* * *

صلى الشيخ سعد العصر ، ثم ذهب إلى داره فوجد الست الطاهرة

تنتظر فى ردهتها ومعها ابنها آدم، وفى المرعى خارج الدار كان ريحان يتزود بآخر قضمات من الشعير الزكى الذى زرعه سعد قبل مجىء ريحان بأسابيع . .

ـــ خيراً إن شاء الله . . ؟

ـــ حدث ماتوقعت . . لن يفصل بيننا وبينهم إلا الحرب . .

ـــ هى الحرب إذن ؟ . .

ـــ وهذا أوانها . .

ـــ وهكذا نقول جميعاً . . كنا ننتظر إشارتك . .

ـــ أنا عائدة الآن . .

ـــ لا تخافى . . كل شىء مستعد . .وهل تأخذين آدم معك ؟ . .

ـــ آدم سيظل هنا مع الرجال . .

ـــ ولكن ، هنا ستدور المعركة . .

ـــ ولهذا سيبقى هنا . .

ـــ ومتى تسيرين بإذن الله ؟ . .

ـــ الآن . . نادوا إسماعيل . .

ـــ وريحان ؟ . .

ـــ سيعود معنا . .

ـــ أفضل أن يرافقكم بعضنا فى أثناء العبور . . إننى غير مطمئن . .

ـــ لا تخف علىّ . . هناك كلام كثير أريد أن أقوله له ، منى إليه . .

ـــ أمرك ، ليحرسك الله . .

— اذهب يا آدم الآن . . من سيأخذه ؟

— هنا مسعد وإبراهيم ومصطفى . .

وقبّلت ابنها وضمته إلى صدرها فى حنان شديد ، ثم أخذه الرجال ومضوا . .

وخرج معها الشيخ سعد ، وتبعهما صابر وقد أخذ بعنان ريحان واتجهوا نحو النهر . .

كانت الشمس تنحدر نحو المغيب ، وقد تلبدت السماء بالغيوم وظهرت نذر المطر من جديد . . وقال الشيخ سعد : « يبدو أن الطلبة ينتظرونك . . »

— أين ؟ . .

— هنا وراء هاتين الشجرتين . .

ونظرت ، فإذا صلاح الدين وزكى شنوده ومصطفى بدر ، ونفر آخر من الطلاب من أهل دمياط والشطوط وأصدقائهم ، ممن قرروا الاشتراك فى المعركة إلى جوار إخوانهم من الصيادين وغيرهم من أهل البلد ، واقفين فى انتظارها وقد أخذوا أهبة الحرب وتقلد كل منهم سلاحه ، فابتسم وجهها وقلبها عندما رأتهم . وتقدموا فسلموا عليها وانتحوا بها جانباً . وقال صلاح الدين : « لو تأخرت قليلاً لكنا هاجمنا القصر . . »

— خشيتم علىّ منها ؟ . .

— العدو عدو . . وهو لا يؤمَن أبداً . .

— بورك فيكم . . والآن ، ماذا ستعملون ؟

ــ لكل منا موقعه ورجاله الذين يقودهم . . بمجرد أن يصل قاربك إلى الضفة الأخرى سيبدأ الهجوم . .

ــ وأين عبد الرحيم ؟ . .

ــ فى مكانه . . سيقود القتال . .

ــ إنها معركة إلى النهاية . . أنتم تعلمون ذلك . .

ــ لن نضع السلاح حتى نقضى على العدو تماماً . .

ــ إنه عدو مجرم وعنيد . . وستكون معركتنا معه ضارية . .

ــ لهذا نحن هنا . .

ــ إذن فاذهبوا على بركة الله . .

وقال زكى شنوده : « أنا غير مطمئن لعودتك معه فى القارب . . »

ــ معى ريحان . .

ــ وأخاف أيضاً على ريحان . .

ــ نحن معاً لن يغلبنا هذا الرجل . .

ــ لا يدرى أحد ماذا يمكن أن يعمل العدو . .

ــ هناك أشياء كثيرة أريد أن أعرفها منه إذا انفردت به فى القارب . . عبد الرحيم يعرف ذلك . .

ــ كما تريدين . .

ــ اذهبوا الآن يا أولادى . . لا تخافوا علىّ . .

وحياها الشباب فى رجولة وحزم ومضوا ، وجعلت تنظر إليهم حتى غابوا وسط النخل والشجر ، ثم سارت فى طريقها . وقال الشيخ سعد :

« قلبي منقبض . . »

فقالت : « لا داعي للانقباض . . من معه أولئك الشباب والرجال لا يمكن أن ينهزم . . »

وساروا صامتين . ثم قال الشيخ : « بمجرد أن تصلى هناك نبدأ . . من الشاطئين سيرقبون قاربك . . كونى على حذر . . هذا الرجل خائن . . »

— ولهذا لا أخافه . . الخائن لا يخيف إلا خائناً مثله . .

* * *

نزل ريحان فى القارب الشراعى وتبعته مصر ، فى حين وقف إسماعيل فى قاعه وقال : « هاهو ذا المطر يعود . . الطبيعة غاضبة . . »

— هى لا تغضب من غير سبب . .

— اللهم اجعله خيراً . . لن أنشر الشراع منذ الآن . . سأستعمل المجداف أولا ثم أرى هل أستطيع نشر الشراع . . .

وأخذ يجذف فى همة شديدة . وكان يدخن سيجارة ، ثم كأنه ضاق بها فألقاها فى الماء . . وأمسك بالدفة فى يده . . ودفعت الريح القارب دفعاً شديداً . .

وعلى صفحة الماء انتشر ذهب الأصيل ، فى حين أخذ المطر يهطل ، ثم يصير وابلا . . وهبت ريح عاتية جعلت القارب يميل ميلا شديداً . . ثم سكنت الريح فوقف إسماعيل وأخذ ينشر الشراع ، فقالت : « لا داعى للشراع . . المجاذيف أفضل فى هذا الجو . . »

ــ أظن أن العاصفة ستهدأ . .

ــ إذن انتظر حتى تهدأ فعلا . .

ــ لا تخافى . . أنا مراكبى منذ ولدت . .

ــ ألا تكفى المجاديف ؟

ــ لا تكفى . . القارب كبير . .

ــ ولكننا نتجه نحو الجنوب . .

ــ ستتحول الريح بإذن الله . .

ــ أقول لك اطو الشراع . . ستعصف الريح بالقارب . .

وهبت الريح من جديد . . ومال الشراع ميلا شديداً حتى كاد أن يمس الماء ، وأخذ ريحان يضرب بحوافره ويصهل . . وقالت مصر : « الآن تطوى الشراع . . نحن نتجه نحو الدوامات . . »

فنظر إليها وقال فى صوت يتحدى : « فى كل مكان تستطيعين إصدار الأوامر . . إلا هنا . . هذه مهنتى وأنا أعرفها . . دعينى أتصرف . . »

ــ قلت لك اطو الشراع . . القارب سيغرق هكذا . . الدوامات قريبة منا . .

ــ كفى أوامر . . لقد سئمت نفسى هذا العيش معك . . جاء دورى لكى أصدر لك أوامرى . . أقول لك اجلسى . . فى كل مكان تعتزين علىّ برجالك . . بماذا تعتزين الآن ؟ . .

ــ بنفسى ، ماذا تريد ؟ . .

– أريد ما أريد . . هذا ليس شأنك . . حسبتِ أن حصانك هذا يخيفني ؟ . . سترينه الآن يغوص في الماء أمامك . .

– إسماعيل . . أقول لك اطو الشراع . .

– وإذا لم أفعل ، فماذا تعملين ؟ . . رأسي تحت قدميك العمر كله . الآن جاءت اللحظة التي تجثين فيها على ركبتيك وتطلبين العفو . . حرمتني من ابني ومن بيتي وأزريت بي بين الناس . .من أنت ؟ . . ألست زوجتي ؟ . . ألست امرأة كغيرك من النساء ؟ . . لماذا تتفرعنين عليّ ؟. الآن تعرفين من أنا . .

واشتد هبوب العاصفة . . ومال القارب ميلا شديداً حتى مس الشراع الماء فعلا . . واجتهد إسماعيل في توجيه الدفة نحو الدوامات . . وصهل الحصان صهيلا شديداً وانتابه رعب وقلق بالغان ، وتعلقت مصر برقبته وأخذت تمسح بيدها عليها وتقول : «ريحان .. لا تخف .. اهدأ ياريحان» .. هذا الشيطان لن ينال منا شيئاً . . أنا معك . . ريحان . . ريحان .. »

وبينما كانت تناديه لم يكن قد بقي بين القارب والدوامات إلا أمتار قليلة . . واتجه القارب نحوها في عنف . . وخلع إسماعيل جلبابه ، وعندما تأكد أن طرف القارب دخل الدوامات قفز إلى الماء . . وزاد فزع ريحان فقفز في الماء ، وبعده مصر . .

وبعد لحظات كان القارب وسط الدوامات . . ودار دوراناً سريعاً ثم اختفى . .

وتعالى الموج . . ولم يعد المراقبون من الشاطئين يرون شيئاً . .ومضى

ريحان يكافح فى اتجاهه نحو الشاطئ الذى أبحر القارب منه . .

وغاصت مصر فى الماء لأول وهلة ، ولكنها كتمت أنفاسها . .

وعندما طفت على سطح الماء نظرت فلم تر إلا السماء والموج . .

وأخذت نفساً طويلا وغاصت مرة أخرى . .

وجاهدت حتى طفت ، ونظرت فرأت ريحان يكافح ويشق طريقه إلى البر . .

وهتفت : « ريحان ! . . ريحان ! . . »

وتوقف الحصان فى سبحه . . ثم التفت خلفه فرأى مصر تغوص تحت الماء بعد أن هتفت مرة ثالثة : « ريحان ! . . »

واستدار الحيوان النبيل . . وأخذ يكافح متجهاً نحوها . .

وطفت مرة ثالثة . . . فرأت ريحان إلى جوارها . . .

وجاهدت حتى اقتربت منه . .

ولمست رقبته ، وحاولت أن تمسك بمعرفته فلم تستطع . .

واقترب منها الحصان وطأطأ لها رأسه حتى أمسكت بلجامه . . ثم رفع رأسه فارتفعت معه . . وشهقت شهيقاً عميقاً . . وتشبثت بيدها الأخرى برباط سرجه وارتفع رأسها فوق الماء . . وأخذت تتنفس وتسعل . . واستدار ريحان وأخذ طريقه إلى البر والأمواج حوله متعالية . .

* * *

وهاج الرجال على الشاطئ وقالوا : « غرقت . . . مصر غرقت . . »

وقال عبد الرحيم فى حزم : « مصر لن تغرق أبداً . . من ألوف السنين

وهى تكافح هذا الموج . . »

فصاح رجل بصوت يخنقه البكاء : « أين هى إذن ياعبد الرحيم ؟ . . ثلاثة بالله العظيم غرقت . . »

— ومالك تبكى هكذا كالأرملة ؟ . . ألم أقل لكم إن الرجال لا يبكون ؟ . . الجندى لا يبكى أبداً . .

— حتى إذا كانت قد غرقت ؟ . .

— قلت لك إنها لم تغرق . . ولا يمكن أن تغرق ومن حولها رجال . .

— وماذا نعمل ياعبد الرحيم ؟ . .

— وهل هذا سؤال يارجل ؟ . . إلى القوارب . . هذه شارة الهجوم . . أشعلوا النار يارجال حتى يرى إخوانكم على الضفة الأخرى الإشارة ويبدءوا الهجوم . .

وقال بعض الرجال : « ولكن الموج عال جداً . . »

فقال عبد الرحيم وهو يخطو إلى قاربه : « من كان منكم يخاف على حياته فلا حاجة لنا به .. هذه حرب وليست لعباً . . لا نريد جباناً معنا .. إلىّ يارجال . . من يحب مصر فليأت معى . . »

وتسارع الرجال إلى القوارب . . بعضهم مسلح بالبنادق وبعضهم بالمراوات . .

وبعد قليل كانت عشرات القوارب تعبر إلى الضفة الأخرى وسط عاصفة عاتية : رياح تصفر ، وموج متدافع ، ومطر غزير منهمر . .

وتعالت على الشاطئ نار ليراها الرجال من الشاطئ الآخر . .

وقال رجل لعبد الرحيم : « بقى بعض الرجال على الشاطئ ثم تسللوا هاربين . . »

ـ هؤلاء ماتوا . . هربوا من الموت إلى الموت . . لا مكان لهم بيننا بعد الآن . . عندما نعود سنطردهم . . الأرض لا يستحقها إلا الذين يحاربون فى سبيلها . .

* * *

وغالبت القوارب الأمواج . .

انقلب بعضها فى الماء من هول العاصفة ، ولكن معظم رجالها استطاعوا الصعود فى مراكب أخرى . . وغاب بعضهم الآخر فى الأعماق . .

وعندما تراءى الشاطئ هلل الرجال ، وبرز رجال آخرون من الناحية الأخرى . . كانوا رجال عزيزة وشركائها . .

وبدأ الترامى بالرصاص . . وتساقط رجال كثيرون . .

واقتربت المراكب من الشاطئ . . وتحت وابل الرصاص قفز رجال على الشاطئ والتحموا مع العدو . .

وتقاطر رجال العدو ، وتواثب الرجال إلى البر ، واتسع نطاق المعركة ..
وأقبل رجال كثيرون آخرون كانوا ينتظرون على الضفة الأخرى ، ودخلوا القتال . . وسقط قتلى وجرحى . .

وهجم بقية رجال مصر الذين كانوا يتربصون فى هذا الشاطئ ..
وتردد صوت إطلاق الرصاص ، وتوالى الضرب ، وحمى الوطيس .
وصاح عبد الرحيم : « يارجال مصر .. ليس لكم إلا مصر . . موتوا

فى سبيلها وإلا فلا مكان لكم على الأرض . . »

وشيئاً فشيئاً أخذ رجال مصر يتغلبون . .

وخرقت جماعة منهم الصفوف واتجهوا نحو قصر عزيزة وبيدهم مشاعل..

وروعت عزيزة وصرخت : « لطفى ! . لطفى ! . أوقفوهم .. اقتلوهم قبل أن يصلوا . . سيحرقون القصر . . سنموت فى النار . . »

واقتحم الرجال البيت وأخذوا يشعلون النار فيه وهم يصيحون : « هذه أرضنا ولا مكان لكم فيها ولا بيت . . »

ومن بعيد رأى رجال العدو بيت سيدتهم يحترق فانتابهم الروع وأخذوا يتقهقرون . .

ومن أعلى المئذنة نظر الشيخ سعد إلى المعركة الدائرة فهتف : « الحمد لله وحده .. صدق وعده .. وأعز جنده .. وهزم الأحزاب وحده.. هذه مصر يارب .. كنانتك وحصن الإيمان . وليس لها نصير غيرك .. »

* * *

إلى الشاطئ وصلت مصر متعلقة بلجام ريحان . .

وسار الحصان خطوات وقد بدا عليه الإعياء ، ولكنه تحامل على نفسه وسار وهى متعلقة به . . ثم وقف . . وتسارعت أنفاسه . . ثم برك على الأرض .

وارتمت مصر عليه ، وألقت برأسها على رقبته . . وأخذت تسترد أنفاسها . . مكثت على هذه الحال بعض الوقت وهى ترتعد ، فقد كانت ملابسها مثقلة بالماء . . كانت خائرة القوى ، تنظر ولا تقوى على الحركة ، وقد امتدت ذراعها على رقبة ريحان . .

ثم رأت ناراً تتعالى من بعيد . .

ودق قلبها سريعاً.. ورفعت رأسها وسرى الدم فى وجهها واتسعت عيناها وصاحت : « هذا بيت العدو يحترق .. لقد صدق رجالى وعدهم . . »

وفى جهد شديد أنهضت الحصان وامتطت صهوته . . ولبثت رافعة الرأس تنظر إلى النار المتعالية من القصر . .

وعلى ضوء النار رآها بعض الرجال من بعيد فهتفوا : «مصر . . هذه مصر . . هذه هى . . سالمة بإذن الله . . »

وتسارع نحوها بعضهم . .

وبصر بها عبد الرحيم فقال للرجال : « قلت لكم إن مصر لن تغرق أبداً ومن حولها رجال . . »

وسار الحصان نحو ميدان المعركة . .

وتقدم عبد الرحيم وناول مصر العلم . . وسارت والمعركة على أشدها . . وهتفت : « آدم . . ابنى آدم . . أين هو ؟ . . »

وأجاب رجل من بعيد : « هنا . . معنا فى المعركة . . »

— هاتوه هنا . . ليكن إلى جانبى على الحصان . .

ورفعوه إليها . . فأركبته على الحصان أمامها . . وسارت والرجال من حولها ، فى حين أخذ رجال العدو يتهاربون . .

وقال رجل : « سيدتى . . لا تقتربى من القصر . . هناك جهنم . .

— بل هذه هى الجنة . . هذه هى أرض مصر استعدناها . . تلك هى الجنة . .

— إذن حذار من النار . .

ــ لا حذر من النار . . الطريق إلى الجنة يسير عبر النار . .

واستمرت المعركة طول الليل . .

وعندما انبلج الفجر كانت ألسنة اللهب ماتزال عالية ، وكان معظم القصر قد تحول إلى رماد . .

وقالت مصر وهى تتأمل آخر رجال الأعداء يهربون : « طوبى لكم يارجال . . صبرتم وقاتلتم وانتصرتم . . هذه قصتى معكم دائماً . . لقد تلاشى أعداؤكم . . »

وقال رجل : « لقد مات منا كثيرون . . »

ــ هؤلاء هم الشهداء . . هؤلاء هم المنتصرون . . الشهداء يفتحون أبواب الجنة . .

وقال رجل وهو يضمد جرح زميل له : « ما أجملها على حصانها ومعها ابنها . . »

ــ لقد فتحنا لها أبواب الجنة من جديد .. إنها أم الدنيا .. هى أم آدم وكل ابن آدم . .

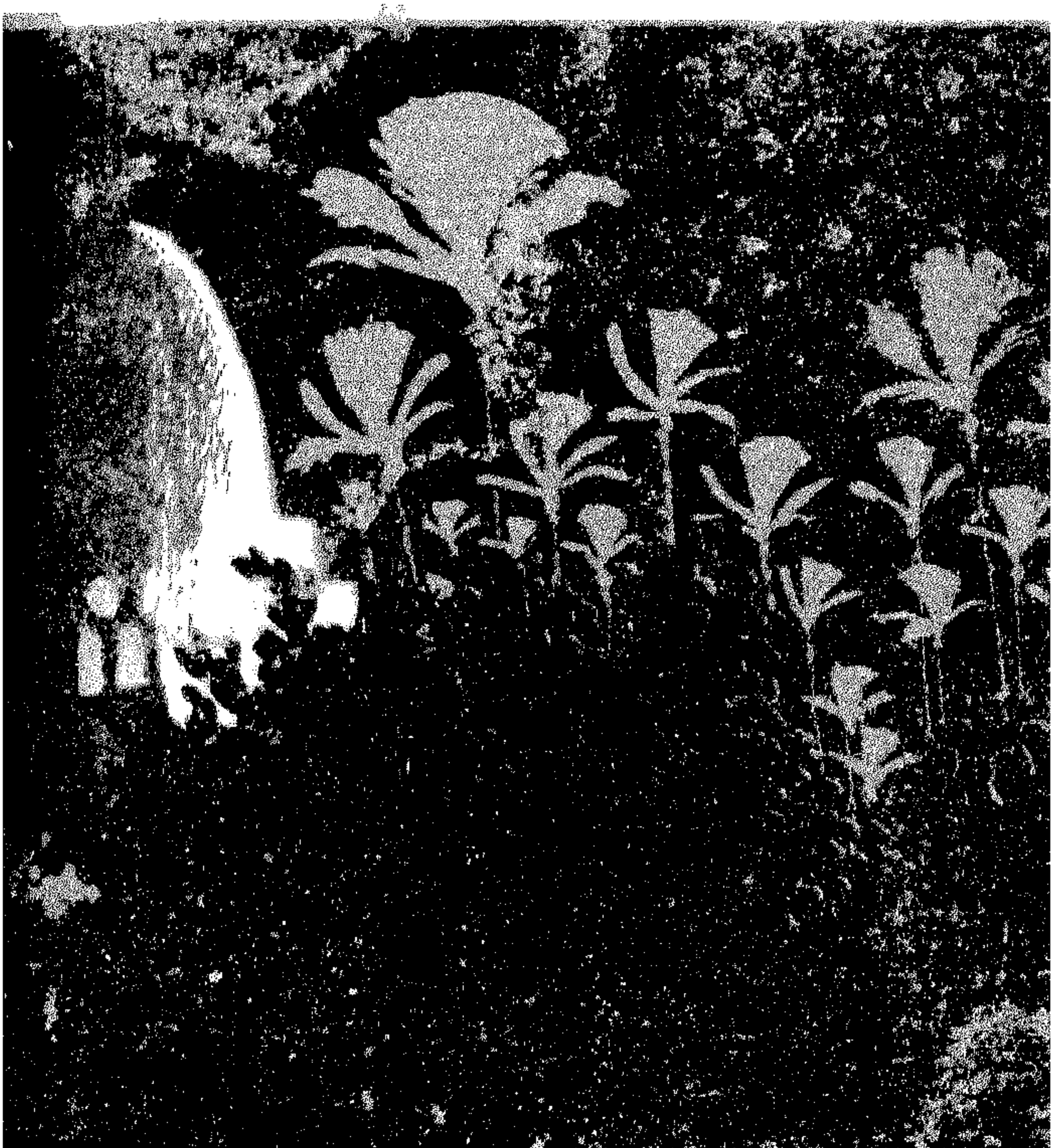
ــ آدم يعود إلى الجنة . .

ــ من خلال النار.. الجنة وراء ألسنة اللهب .. تحت ظلال السيوف ! ..

تمت

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٢/٥٨٠٤

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٢



اقرأ

تأليف : ثور هايردال

تلخيص : ميشيل تكلا

تقديم : كمال الملاخ

رحلات رع



اقرأ

تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

للرحالة النرويجي ثور هايردال

رحلات رع

تلخيص

ميشيل تكلا

اقرأ ٣٦٢

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٢ – يناير سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع .

هذه الرحلة . . وهذا الرجل !

مقدمة :

بقلم : كمال الملاخ

من حول فنجان شاى فى مكتبى بالقاهرة كان لقاؤنا الأول من سنوات . ونظرت فى عينى ضيفى الأشقر الطويل القامة إلى حد ما . . . ولم أجد إلا الجرأة والإقدام . . . ثم شيئاً آخر ربما أسميه : المغامرة . وكان حاضراً فى زيارته إلى مصر للمرة الأولى ليدرس إمكانية قيامه بما كان يعتزمه فى ذلك الحين ، ذلك أنه يعرض مشروعه فى أن يجدل مع رجال يختارهم زورقاً من نبات البردى ، كما فعل أجدادنا ، ولكن ليبحر به من مياه بحرنا الأبيض ومن مضيق جبل طارق يجتاز به ويعبر المحيط الأطلسى فى وجهته إلى خليج المكسيك ، كما لم يفعل أجدادنا حسب دراستى وتصورى. وبالطبع حمى النقاش يومها وراح الحوار ينسج جلستنا وهو يكاد يقرب من الغضب . ولم أعجب فاسمه الأول (ثور) هو رب العاصفة والرياح العاتية وزمجرة الغضب عند أهل شمال أوربا . أهل النرويج وكل ما يجاورها من دول خمس فى إسكنديناڤا .

قلت لصاحبنا ضيف القاهرة القادم من بعيد: (ثور هايردال) الذهبى الشعر الطويل القامة إلى حد ما . وكان ثالثنا زوجته الجميلة : لماذا تغضب

وتثور حول حقائق التاريخ والعلم . وأنا واحد من المتعصبين لتاريخ بلادى، والفخور بكل تفاصيله وما أعطوا للحضارة . وكان كل نبت من فروعها نبتاً مصرياً . ولكن العلم ، علم التاريخ ، وحقيقة التاريخ تعلو على مشاعرى . أنا أبحث عن كل ورقة خضراء أضيفها إلى شجرة الحضارة الضخمة المورقة المصرية . . . ولكن سماء التاريخ تعلوها بزرقة صفاء العلم والحق يظللها . أنا مع مصر وحضارتنا الضاربة ومع الحقيقة . صحيح أننا هنا على ضفتى النيل وعند شواطئ بحرينا الأحمر والأبيض ، وعلى طول سواحل بحيراتنا الخمس فكرنا ضمن ما فكرنا وسعينا إليه أن نركب الصعب . نركب الماء . نطفو فوق صفحاته ونعلو موجاته . وهكذا فكرنا فى بناء المركب . أول زورق . أول مركب فى التاريخ . تاريخ البشر . صنعنا أول زورق أولا فى خيال الأساطير . هل تذكر أسطورتنا ذات تفاصيل الوفاء والإيمان، وكيف تغلبا على الخديعة والمكر والدهاء والشر . . . أعنى أسطورة أوزير وإيزيس . وكيف اختلف الأخوان . حنق الأخ الشرير على أخيه الطيب الخير أوزير ف . . . . . . وتستمر التفاصيل، وإذا بتابوته يطفو مع الأمواج وتيار النيل . فيسرى به شمالا ليتلقفه موج البحر الأخضر العظيم . . . هكذا كانوا يسمون بحرنا الأبيض . . . وإذا بالتابوت يحمله الموج إلى شاطئ بيلوس القديم ، وهناك عند شاطئ جبل لبنان يتحول أوزير من تابوته إلى شجرة وارفة الظلال . ومن جذعها الذى يختاره حاكمها ليرضى به انبهار ابنته الأميرة ليأمر بنحت عمود خشبى يكمل به قاعة الأعمدة فى قصره الجميل . وتطير إليه إيزيس . زوجته

الوفية . وكانت أول من تخيل لها البشر أجنحة . كانت أيضاً إلهة السحر ، وهناك تنكرت . تقربت وسعت إليها الأميرة واستضافتها لترى ما أحضرت من عطر وأدوات زينة . وفى الليل تتحسس عمود زوجها . وتقتلعه . وإلى البحر تسعى به وتأتى به طافية على الماء حتى مستنقعات الدلتا .

وهناك يبعث من جديد بعد أن أطرته دموعها . . . وتستمر الأسطورة . ولكن هكذا كانت أول رحلة بحرية فى الوجود . فى وجود خيال البشر وأسطورته . . . التى تتابع . يظهر فجأة (ست) أخوها الشرير من وراء أكمة . لا يرضيه مايرى على ضوء القمر الساطع . . . قصة وفاء وحب وخير وإخلاص . . . هذا هراء . إذن لماذا هو موجود ولماذا الكراهية والشر الكامن . . . فيستل سيفه وينهال على أخيه الطيب أوزير يقطعه إرباً . . . ويمسك مقهقهاً بأشلاء الأخ الكريم يقذف بكل منها إلى مكان بعيد فى السماء لتتشتت أينما وقعت ! !

وإذا بإيزيس الوفية . . . تهرع باكية مفكرة فى ثانى رحلة لها فى التاريخ الأسطورى . . . تجمع سيقان نبات البردى . . . من عند الشاطئ ذاته ... تجدله زورقاً نباتيا صغيراً ... تركبه ... صاعدة نيل مصر . . . حتى تجمع أشلاء جسد زوجها فيما عدا قطعة واحدة .

وتستمر القصة تحكى وتحكى وتروى مزيداً من التفاصيل والحكايا . . . ويستمتع بالقصة . قصة الأسطورة كل من يسمعها من الأحياء . . . وهكذا يستمرون فى جدل زوارقهم الصغيرة التى يعبرون بها النيل فقط من مكان إلى مكان ، ومن شاطئ إلى شاطئ .... وحرصوا على أن يجدلوها بادئ الأمر من نبات البردى متوهمين أنه لا يغرق . إنه نبات مقدس

طالما اختارته الإلهة إيزيس .

ويتحضر المصريون أكثر ويجلبون ما ينقص وادينا من خشب . ويبنون منه ويصنعون زوارق ومراكب . . . لتعبر وتبحر وتقبل إلى مسافات طويلة . ولكنها من خشب لا من أغصان البردى .

ويحاول ضيفى (ثور هايردال) . . . أن يتحدث .

هو الضيف . . . إذن أتركه يتكلم . ولكن لا يستطيع نقاشاً . فالعلم مع التاريخ أقوى من صورة خلفية أرادها لرحلته المقبلة . لمزيد من الإثارة العالمية . إنه يحيي حضارة مصر العظمى .

وحضارة مصر عظمى نعم . حضارة كبرى نعم . هى أولى حضارات كوكبنا ، وقبل حضارة الصين القديمة بأكثر من ٧٠٠ سنة . ولكن أعود إلى الحق من خلال وثائق التاريخ .

فالثابت أننا فعلا كنا أول من عبر أمواج بحرنا الأبيض . ولكن إلى حد منتصفه . ، فى ركنه الشرقى نعم . ولكن قلة من رحلاتنا كانت تجوب فى عصورنا المتأخرة ما بين مصر وشواطئ آسيا الصغرى واليونان القديم وحتى روما وبالقرب من شواطئها ، وبالطبع جزر بحرنا حتى برقة غرباً . ولكن أكثر من هذا فى هذا البحر فلا .

ومن قديم الزمان سجل رجال « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة ما كان يفخر به ، إذ أمر بأن تنقل البحرية المصرية خشباً من أخشاب أشجار الأرز من لبنان القديم إلى مصر فشحنت ما يملأ حمولة ٤٠ مركباً مصرياً .

وغنى عن التعريف أن المصريين - قبل التاريخ بآلاف السنين - كانوا يرمزون إلى المراكب العتيقة برسوم أو نقوش ساذجة على أوانى الفخار الأولى كزخرفة، أو نتوء الصخور كرسوم تعكس أحلامهم فى الانتقال من مكان إلى آخر. وقد عثر عالم ما قبل التاريخ والأسرات: فلندز بيترى على ماعثر عليه وكشف عنه نموذجاً لمركب شراعى يعود تاريخه إلى ١١ ألف سنة وذلك خلال حفائره فى الفيوم.

والحديث والكلام والكتابة عن المراكب المصرية وأنواعها يطول من مراكب إبحار وسفر عادية تنشر الجناح أو الشراع كلما هبت الريح أو أبحرت فى اتجاه الريح أو تريد الإسراع واختصار مدة السفر. وكان الشراع فى متوسط مساحته من ٦٠ إلى ٧٠ متراً مربعاً، يلفونه على ساريته التى ينزلونها إلى سطح المركب فى حالة سكون الريح فى اتجاه متوازٍ بـ «كاميرا» أو حجرة أهم من فى المركب والتى تقام عادة على مسطحة مسقوفة ومحاطة إما بألواح أخشاب وغالبًا بحصير البردى . . . ولعل أفخم المراكب الملكية هى: (نجمة القطرين) التى كان يبحر بها تحتمس الثالث. وكان لكل مركب اسم. فلا غرابة إذن أن اشتق «ثور هايردال» اسم «رع» لمركبه الذى غامر به، وإن اتخذ من شمس مصر وإلهها القديم رمزاً يؤكد به مصرية رحلته. وتختلف أطوال مراكبنا وأنواعها.

● مراكب وزوارق عادية: تعدى النيل غالبًا مجدولة من البردى.

● مراكب نيلية: لرحلات طويلة مصنوعة من خشب ترفع مؤخرتها. ذات مجاديف عديدة. ودفة من مجدافين. وعليها مقصورة

صغيرة ليقف عندها « كابتن » الرحلة .

● مراكب بحرية : أكبر حجماً كانت تبحر إلى الجنوب فى بحرنا الأحمر إلى بلاد بونت، أو إلى شرق بحرنا الأبيض إلى سوريا أو لبنان القديم مثل تلك التى نطلق عليها (جبيليا) أى المتجهة إلى ميناء جبيل .

● مراكب شحن : ولها أبعاد وعروض مختلفة .

● مراكب الشرطة البحرية : وهى تلك التى تجوب مياه النيل لحراسة مراكب الشحن والسفر والإبحار العادية هادفة الأمان لكل من يركب صفحة النيل من المعتدين واللصوص والقراصنة . كما أمر بها حور محب .

● مراكب حربية : مثل تلك التى استعملها تحتمس الثالث أيام أسرتنا الـ ١٨ من تاريخنا القديم خلال غزواته أو حملاته الحربية الـ ١٧ عدداً، وكان من بينها خدعته الحربية الكبرى ، يوم أن حمل بعض رجاله عدداً من الزوارق والمراكب الحربية فوق عجلات تجرها الثيران واتجهت شرقاً ، وما إن وصلت إلى نهر الفرات حتى كشفوا عنها وأهبطوا زوارقنا ومراكبنا الحربية إلى سطح مياه النهر هناك ، ونجحت فى عبوره وهى محملة بالعتاد والجنود المصرية وغزت شرق النهر وأقامت هناك سجلا بذلك النجاح .

● مراكب صيد ونزهة : لصيد الأسماك وقضاء وقت طيب يوم الإجازة والأعياد .

● مراكب وزوارق رياضية : تتبع مباريات السباحة . . . ثم يلعبون

فوقها و يتبارون . . . أى فريق ينتصر على الآخر فيما لو استعمل المشاجب و « الزقل » الخشبية الطويلة يدفع بها ممسكها منافسه عن سطح المركب الآخر . . . بين صخب الروح الرياضية ومداعبتها .

● مراكب دينية : مثل تلك التى كانت تابعة للكهنة وفرعون تحمل زورق الإله ، مثل المراكب الدينية الضخمة التى كانت تبحر فى عيد هو (ايبوت) عندما تقلع من عند شاطئ معبد الأقصر شمالا حتى ميناء معابد الكرنك حاملة زورق تمثال « آمون ر ع » . . . . . . فى وسط همهمة الطقوس الدينية وهتافات المبتهلين وأنغام الكهنة والعازفين .

● مراكب مقدسة : وهى مراكب الشمس . . . التى تعودوا أن يضعوها فى خدمة الروح إلى جوار مدفن صاحبها مثل تلك التى منحتنى السماء حظ وشرف الكشف عنها فكانت أولى مراكب حقيقية من خشب — وليست رسوماً فقط أو نقوشاً لها — جنوب هرمنا الأكبر هرم خوفو فوق ربوة الجيزة فى ٢٦ مايو ١٩٥٤ تطول كل منها نحو ٤٥ متراً بعض أجزائها من قطعة خشبية واحدة تطول ٢٣ متراً ! إحداها لرحلة النهار وكان الفراعنة يطلقون عليها « معنجت » والثانية التى تجاورها وتماثلها طولا لرحلة الليل ويسمونها « مسكتت » وبذلك أثبت أيضاً أن المصريين عرفوا من ٥٠٠٠ سنة على الأقل وتخيلوا عالمنا بأنه دائرى أو بيضاوى يلفون حوله يطلقون عنان خيالهم إلى أعلى نقطة فى السماء نهاراً وراء الشمس فى رحلتها ، ثم هناك عالم آخر يتخيلون وجوده وهو الذى يسمونه ويطلقون

عليه « ايم دوات » أى العالم التحتى السفلى، أى القوس الذى يطوف من تحتنا لعالم تجوبه الشمس ، ذات الشمس ما بين مغيب وشروق جديد تلد لها من ذاتها أو ذاته فقد كانت ذكراً وأنثى فى الوقت ذاته عند الأقدمين.. وليداً جديداً لها ، شمساً جديدة ، أطلقوا عليها ٣ أسماء على عمرها الذى يختلف بين الفجر والمغيب : « نفرتم » وهى وليدة تحبو فى المشرق . . . ثم ما تلبث شاباً قوياً « رع » وهى تجتاز السماء علواً وارتفاعاً — ومن هنا اتخذ صاحبنا : ثور هايردال اسم مركبه . . . ثم والشمس فى طريقها إلى الغرب وإلى مغيب إنما تكبر وتشيخ وتتوكأ على عصا ، وهنا يتخذون لها الاسم الثالث وهو « أتوم » .

ونعود إلى ثور هايردال ورحلته أو مغامرته التى يحاول أن يربط فيها بين حضارتى مصر والمكسيك وأنه برحلته البحرية هذه سيثبت أن أجدادنا عبروا إلى هناك بدليل تلك الأهرامات المقامة على أرض المكسيك، هذه وجهة نظره التى أخالفها . صحيح أننا وقديماً عبرنا كل منتصف بحرنا الأبيض كما بينت واجتزنا حتى شلالنا الرابع فى النيل وأبحرنا عند كل موانئ بحرنا الأحمر حتى وصلنا إلى باب المندب وبلاد بونت والصومال . ثم هناك رحلة يتحدث عنها هيرودوت أنها تمت فى عصر الفرعون « نكاو » الثانى ، و «حم ايب رع » الذى عاش فى القرن السادس ق. م . أو على وجه التحديد حكم مصر ١٥ سنة ابتداء من عام ٦٠٩ ق . م . ذلك أنه يقال إن نكاو — وهو ثانى فراعنة الأسرة الـ ٢٩ إبان عصر بعث نهضتنا المصرية القديمة — بعث بجماعة للطواف حول أفريقيا . استغرقت

رحلتهم ٣ سنوات . وبرهان هذا أن بحارتها عادوا ليحكوا كيف رأوا الشمس تشرق عن يمينهم أو من الغرب ! . وكان هؤلاء البحارة من الفينيقيين . ويذهب الباحثون إلى أنهم بذلك قاربوا جنوب أفريقيا . ولو أنى أعتقد دون جلب فخار رخيص . . . أنهم قد يكونون أبحروا حول منحنى كبير بالقرب من باب المندب فيما لو اجتازوه جنوباً . لأنه لا توجد أى فائدة ترجى من مثل هذه الرحلة ؟ بعقليتنا الواقعية القديمة !

ثم أناقش مسألة الأهرامات بين مصر والمكسيك . . . أو تلك المقامة خلال دولتنا القديمة والوسطى فوق ربى غرب وادينا وأهرامات المكسيك، وأشرح لضيفى أشقر الشعر الطويل القامة إلى حد ما الفرق الواضح بينهما زمنياً ومعمارياً ووظيفة !

فأهراماتنا الـ ٨٢ إنما هى أقدم طويلا . . . بدأت فكرة إقامتها تحت سماء مصر كل منها كمدفن لفرعون أو للملكة زوجته ، وذلك كما أسلفت فى حقبتين من حضارتنا القديمة ألا وهى القديمة حتى المتوسطة وكان صلبها من حجر وإن اضمحلت أخيراً فكانت من طوب لبن فى قلة منها . وفى الوقت ذاته كانت أوجهها الماثلة نحو الجهات الأربع الأصلية لدنيانا، إنما لانعكاس بهاء رب الأرباب الذى يعتقدون فيه : الشمس (رع) ثم تمر فترة طويلة لا يعيشها إنسان واحد يستطيع أن يعبر البحر والمحيط ويتابع ما تركه فى مصر ليقيمه حيث حط به المقام الجديد ويشيد هرماً فى المكسيك . فلا يوجد إنسان عاش وحده ١٤٠٠ سنة ! ! وهذه هى الهوة الزمنية أو الفترة التى طالت حتى ظهر هرم واحد مبنى من

الحجر وهو هرم بالنكى فى المكسيك . وأصغر حجماً ، وقد أقيم عام ٦٩٢ ق . م . أى بعد أن هجر أجدادنا فكرة إقامة الأهرام بـ ١٤ قرناً من الزمان ! ! لأنها كانت ظاهرة للاعتداء ، ومن ثم غيروا أسلوب الدفن الملكى الفرعونى فحفروا له مقابرهم داخل جوف الجبل خاصة جبل القرنة غرب الأقصر إبان عصر الإمبراطورية القديمة أو عصر الدولة الحديثة من تاريخنا القديم .

والواضح أن أغلب أهرامات المكسيك قد بنى بعد بداية العصر المسيحى وبعد الميلاد بـ ٢٠٠ سنة وأكثر . وهى أقل حجماً وارتفاعاً . قاعدة ترتفع هرمية بالطين وليست حتى بقوالب الطوب النىء ، لترفع فوقها معبداً للقمر لا للشمس ! !

وأتابع حديثى مع ضيفى النرويجى المغامر الذكى : ثور هيردال . . . أن الحضارة ، أى حضارة ، إنما تتبع طريقين أولهما :

● الانتشار : ذلك أن تقتبس حضارة ما أقيمت على أرض بعيدة من حضارة سابقة لها وإن كانت تعايشها على امتدادها .

● الانعزال : وهى ثانى الطريقين . . . وهى إمكانية قيام حضارة فى بقعة ما دون اتصال مع حضارة أخرى . وهى تلك التى أميل لها فى حالتنا هذه . أى توارد أفكار وخواطر . وفكر الإنسان واحد ، واقعه وأحلامه وخياله ومخاوفه وقلقه وأوجاعه وحتى أمراضه . . . أينما كان ، ربما يسمع بحكاية عن طريق إنسان يتناقلها من رجال قوافل يجوبون على الأرض

أو من بحارة من ميناء إلى ميناء آخر ... وتبقى الحكاية عالقة فى الخيال حتى ينفذها الإنسان . مثل ما يحدث الآن على سبيل المثال من سفن الفضاء والطلوع والمشى فوق القمر . . . ألم يتخيل أجدادنا كل هذا وأكثر . فإذا كان هو المقصود فأهلا وسهلا بمغامرة النرويجى الجرىء هايردال . . . أما محاولة ربط الصلة فى أن مصريين عبروا واجتازوا فلا . . . مهما استند إلى هواجس عابرى سبيل مثل المؤرخ الأوربى القديم بلينوس سكوندس كاخوس الذى عاش فى بداية المسيحية وليس فى عصر المصرية القديمة . . عندما ذكر وكتب بأن أجدادنا عبروا البحر فى قوارب من البردى .

وهو بالكاد ما كانوا يعبرون به الضحل من البحيرات أو البرك لصيد الأسماك أو البط لأخذ البيض من أعشاشها فوق سيقان أحراش النباتات أو يعبرون به عرض النيل من شاطئ إلى آخر . وبالطبع ليس من رأى كمن سمع .

ولهذا فالواقع الملموس برهان أكيد .

وأعود لضيفى الأشقر الشعر الطويل القامة إلى حد ما . . .

أنظر فى عينيه فلا أرى إلا مزيداً من الإصرار والجرأة والإقدام قائلا لى: قد يكون الحق معك مع الصدق ولكن سوف أقوم برحلتى .سأقوم بها .

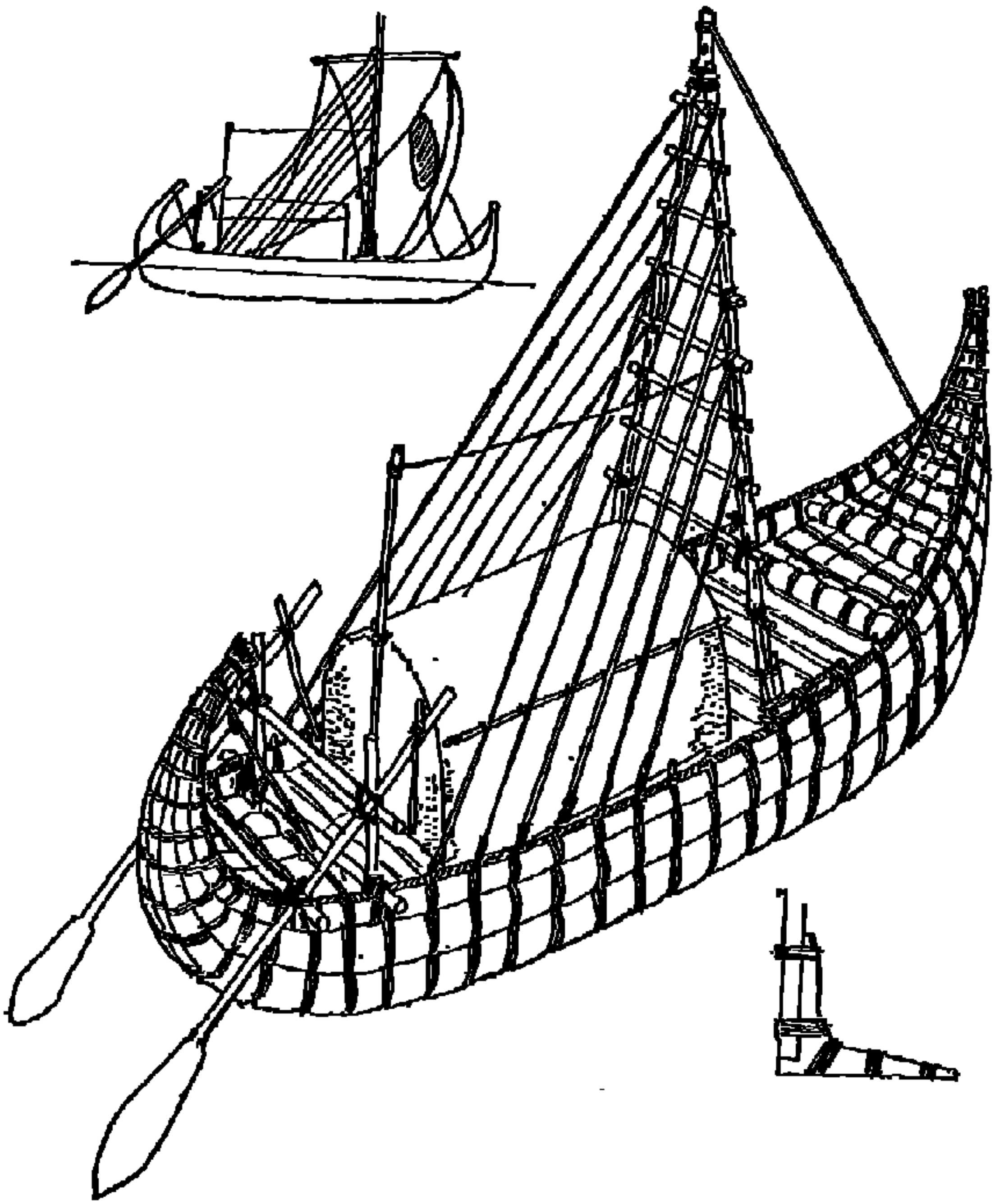
وتضحك زوجته الجميلة الرقيقة وهى تحكى كيف كان زوجها يخاف البحر صغيراً ولا يعرف حتى السباحة !

وأتتبع رحلته الأولى وقلبى معه . وأنزعج لفشل رحلته الأولى ، وأتتبع رحلته الثانية وقلبى معه وأسعد بنجاحها خاصة وأن مصرياً شجاعاً كان على قائمة رجال بعثته وهو الجرىء المقدام : جورج سوريال الذى عاونه فى الرحلتين .

وعندما قال لى صديقى رجل العلم والعلوم «مشيل تكلا» إنه فى سبيل إعداد كتاب بالعربية عن رحلة القارب (ر ع ٢) وإن دار المعارف ستطبعه وتنشره وإنه يريد مقدمة له، فجال قلمى بهذه السطور، لا أحاول بها أو أبغى إلا لمحة صدق فى تاريخنا المشرق، والذى أضاء للإنسان فى زمانه الماضى طريق الحضارة تحت مشعل الثقافة ... ثقافة الفكر والفن والعلم والإيمان .

ك . الملاخ

القاهرة : صيف ١٩٧٢



رسم كروكى السفينة « رع »

الباب الأول

لغز واحد ، ورأيان لاثالث لهما . .

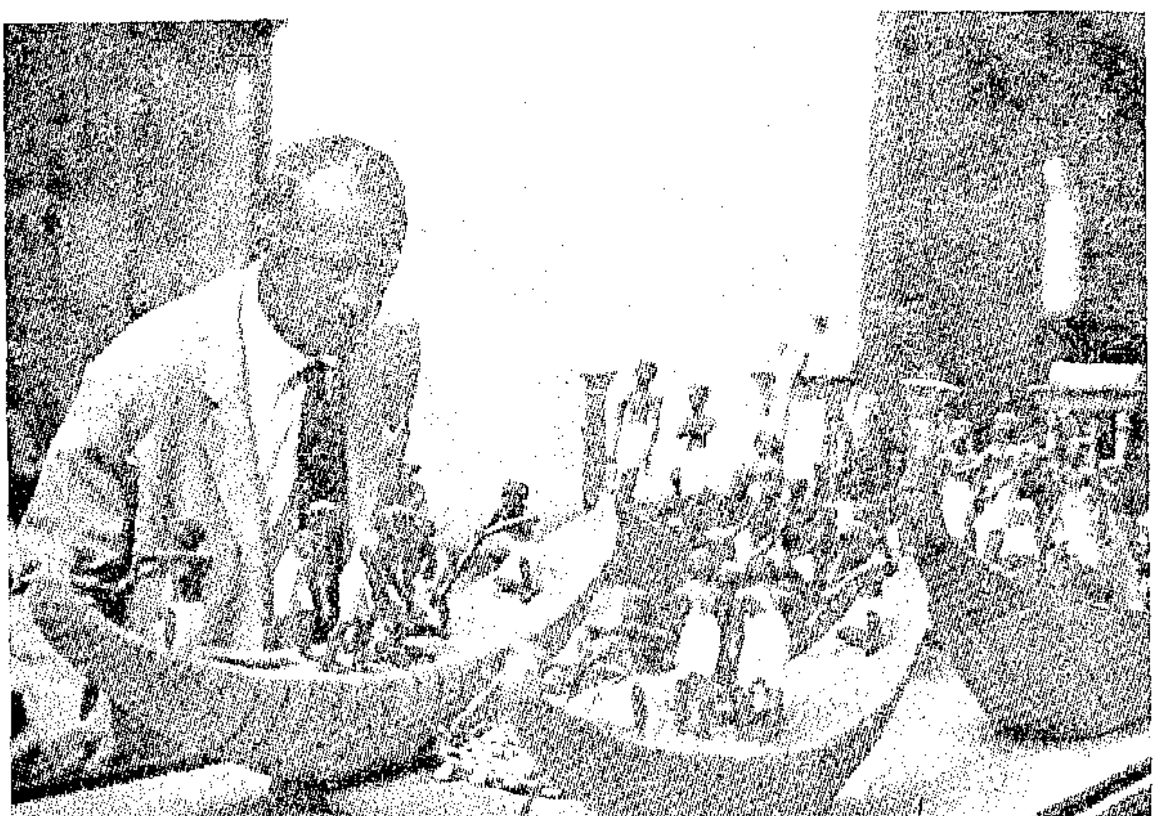
قصبة تعبث بها الرياح . . . نكسرها فتطفو على وجه المياه . . . وتتحمل ثقل ضفدع صغير . مائتا ألف قصبة داعبتها الريح . . . وحقل كامل منها كأعواد الحنطة الخضراء تموج على طول الشاطئ . نقطعها ونحزمها فى حزم كأعواد القمح ، فتطفو الحزم على وجه المياه . فيصعد إليها : روسى ، وأفريقى، ومكسيكى ، ومصرى ، وأمريكى ، وإيطالى ، وأنا نرويجى ، ومعنا قرد وعدد من الدجاج الصيّاح ، فى طريقنا إلى أمريكا . . . .

نحن الآن فى مصر . . . فوق رمالها الجافة الساخنة أو فوق رمال الصحراء . . . يؤكد لى عبد الله أن أعواد البردى ستطفو ، وأننا سوف نكون فى مأمن ، ونحن على أعواد البوص ما دامت الحبال ستحملنا . . . ولكن هل تتحمل الحبال ؟

شعرت بإنسان يهزنى من كتفى ليوقظنى . وقال عبد الله : إن الساعة الآن الثالثة لنبدأ عملنا من جديد . وكانت الشمس حامية فى داخل الخيام المصنوعة من الخيش . فقمت ونظرت من خلال فتحة فى الباب ، وهبت على حرارة جافة ، وضوء قوى حارق من الشمس التى ألهبت متاهات

الرمال الذهبية تحت سماء الله الزرقاء الصافية الأديم . . .

وظهر صف الأهرامات . . . ثلاثة منها كالطود الشامخ ، وهرمان صغيران كأنها أسنان سمك القرش في قوس السماء . . . وقد ظلت هكذا لا تتحرك ، ولا تتغير منذ الوقت الذى كان فيه الرجال جزءاً من الطبيعة ، فبنوها طبقاً لتعاليم الطبيعة . وأمامنا فى المنخفض الضحل قبع شىء لا عمر له ، بنى منذ عشرة آلاف سنة ، شىء فى الرمال الصفراء على هيئة قارب نوح احتجزته الصحراء بعيداً عن البحر وأمواجه الصاخبة .



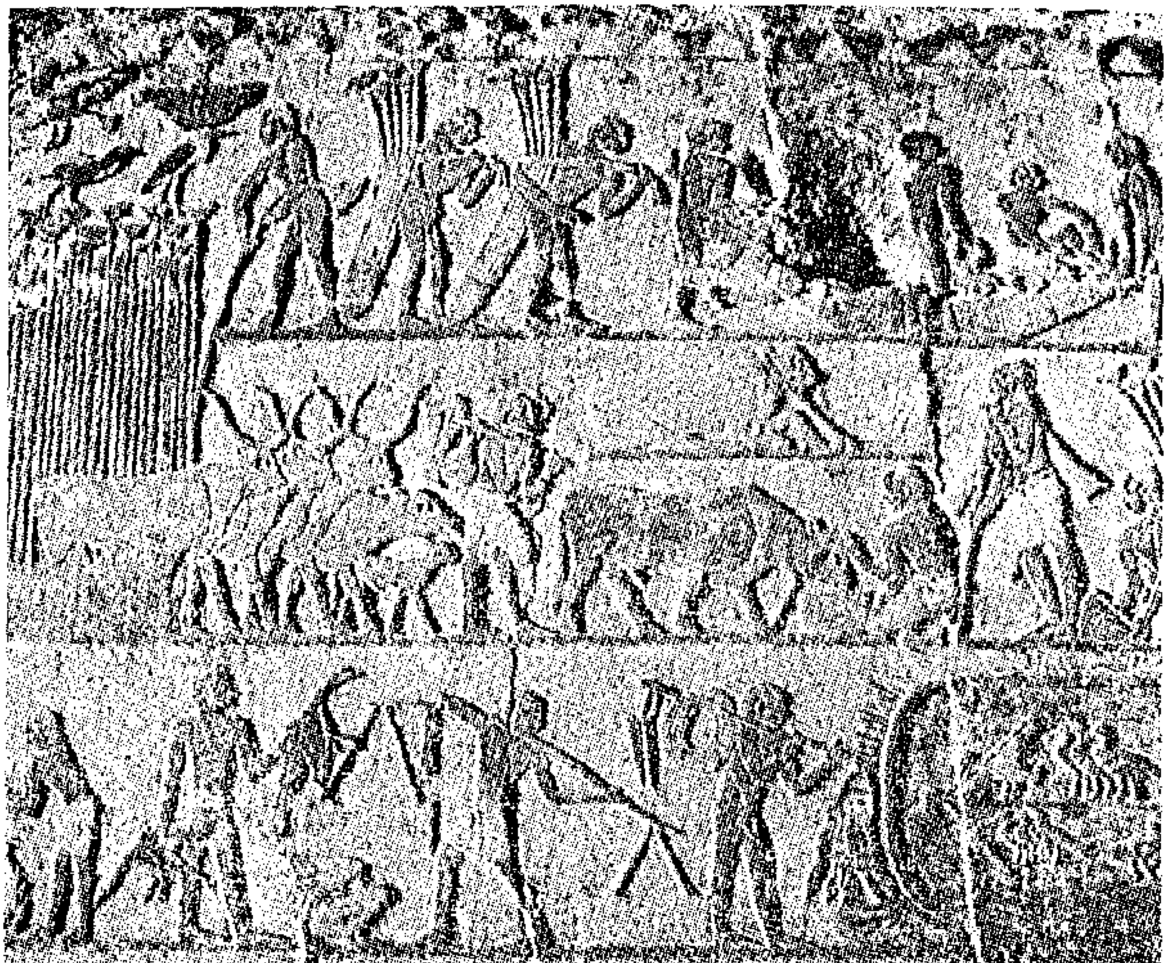
ثور هايردال يفحص نماذج من قوارب البردى المصرية القديمة المحفوظة فى المتحف المصرى — القاهرة

ووقف بجواره جملان يجتران أجزاء من القارب المصنوع من نبات البردى . فقد حزمت الأعواد الذهبية على هيئة قارب يتطلع إلى زرقة السماء كأنه هلال . . .

بدأ العمال يحزمون حزمًا من أعواد البردى ، وخرجت من الخيمة وكأننى نمت ألف سنة ، فأنا صاحب فكرة إعادة بناء مثل هذه القوارب الورقية ، التى انصرف عن بنائها الملك خوفو وخلفاؤه ، وأمروا ببناء هذه الأهرامات التى بدت وكأنها سلسلة من الجبال الصلبة . . .

وجلس العمال يفتلون الحبال بأيديهم القوية ؛ وأسنانهم ، وأقدامهم العارية . ويبنون القارب من نبات البردى ، على غرار تلك القوارب المرسومة بأعداد هائلة على جدران غرف الدفن لبناة الأهرامات هنا فى الصحراء . وصادفتنا مشكلة : لا بد لهذا القارب من صار ننشر عليه الشراع . . . فعدت إلى الخيمة وأخرجت تصميمات القوارب المصرية القديمة ، فلم أر فيها أى أثر لمسمار ، ورأيت مسافة سميكة مسطحة نصب فوقها الصارى مشدوداً بالحبال ، بعد أن ثبت فى كتلة من الخشب القوى ، ربطت بالحبال أيضًا . وجلست أفكر فى خيمتى . فلم تكن لدى نظرية ثابتة عن المصريين القدماء ، وإذا كانوا حقيقة قد نقلوا حضارتهم إلى الجزر النائية أو القارات البعيدة . وكان هناك كثيرون ممن آمنوا بهذه الفكرة ، وأكدوا أن بناة الأهرامات نقلوا روحهم الثقافية إلى أمريكا الاستوائية قبل كولمبوس بأزمنة بعيدة،لم أكوّن لنفسى نظرية خاصة تؤكد ذلك الاعتقاد ، ولم أعثر على أى دليل مادى يؤكده أو ينفيه .

وشرعت أوازن بين حضارة مصر وحضارة المكسيك ، فرأيت هوة سحيقة بين الحضارتين أو التاريخين ، ورأيت كذلك فجوة من الماء أعرض من النيل بعشرة آلاف مرة . . .



المصريون القدماء يحزمون أعواد البردى لصناعة القوارب

كان المصريون القدماء يستخدمون قوارب مصنوعة من أعواد البردى ، ثم طوروها بقوارب مصنوعة من الخشب تتهادى على صفحة النيل ، وعلى قيد خطوات من الخيمة كان صديقى أحمد يوسف يجمع

قاربًا خشبيًّا من قوارب الملك خوفو. وقد اكتشف علماء الآثار أن قاربًا خشبيًّا كبيراً دفن على كل جانب من جوانب هذا الهرم العظيم.

إذن فهناك أربعة قوارب [1] منها حفظت بإحكام والغريب أن قارب خوفو العظيم قد صمم بطريقة فذة نادرة، وبخبرة مهندسين، أو بناة صنعوه ليبحر فى البحار المفتوحة بقدرة ونعومة يتحدى بها أعتى الأمواج. وبدأت أفكر مرة أخرى. إن المنظر الانسيابى للقوارب المصرية القديمة قد صممها المصريون القدماء، أو نفس الجيل الذى اخترع الكتابة، وبناء الأهرامات، والتحنيط، وجراحة المخ، والفلك. أو ربما تدرب صناع هذه القوارب فى الخارج، فى بعثات أمر بها الفرعون خوفو وحققها. ويبدو أن الرأى الأخير هو الأكثر احتمالا، لأن خشب الأرز لا ينمو فى مصر، ومنه صنعت هذه المراكب القديمة. وأن اللبنانيين أو الفينيقيين كانوا سادة صناعة القوارب التى مخروا بها عباب البحر الأبيض، وأجزاء من المحيط الأطلنطى. وكان ميناؤهم بايبلوس أشهر ميناء أو مدينة فى العالم القديم، استوردت البردى من مصر، لأن المدينة كانت مركزاً للثقافة والكتب فى العصور القديمة. ومن كلمة بايبلوس Byblos [2] أو بايبل كان معنى الكتاب المقدس. وكانت هناك

---

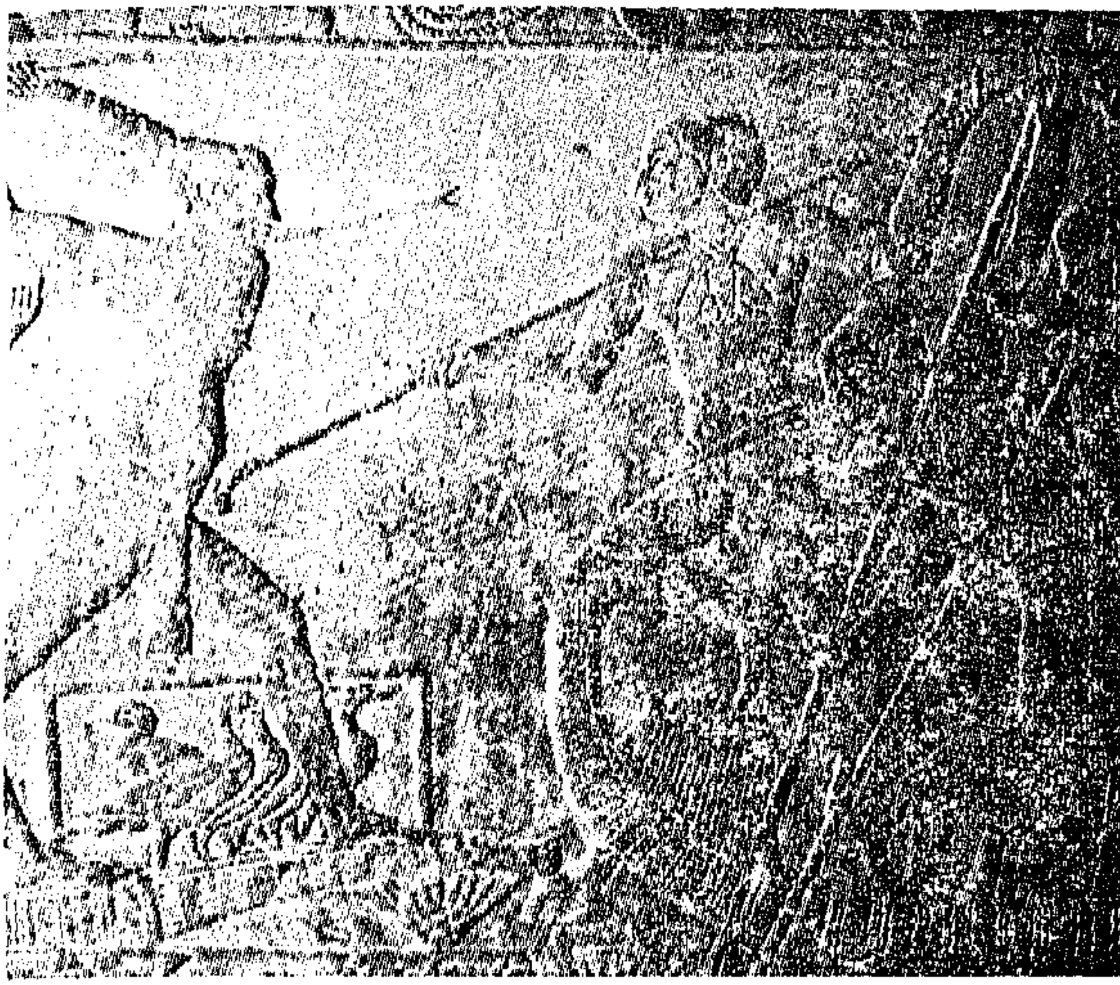
(١) والمؤلف يشير إلى مراكب الشمس التى اكتشفها الأثرى كمال الملاخ عام ١٩٥٤ والتى يرجع تاريخها إلى ٤٦٠٠ سنة مضت. (المترجم)

(٢) هى ميناء «جبيل» اللبنانى، شمالى بيروت، وكانت على علاقة تجارية مع مصر الفرعونية.



قارب مصرى قديم من نبات البردى وعليه بحارته

تجارة بين مصر وبايبلوس فى الوقت الذى بنى فيه هرم خوفو . وربما قلد بناة القوارب فى مصر سفن الفينيقيين . . . من يدرى ؟ ولكن الغريب أن قوارب خوفو كانت مصممة على هيئة زهرة نبات البردى المتفتحة ، ترتفع مقدمتها ودفتها إلى أعلى بدرجة أكثر من سفن الڤايكنىج The Vikings وذلك للإقلاع بها فى أعالى البحار ، وليس للنزهة بها فوق صفحة النيل . . . وكان مركب البردى هو النموذج الذى أخذت عنه نماذج المراكب الخشبية وليس العكس . . .



الإبحار بقوارب البردى فى النيل حيث كانت أقفاص
الطيور وسلال الطعام وأوانى الماء تنقل من مكان إلى آخر

ولكى نبنى قاربًا كقوارب قدماء المصريين فى الوقت الذى نهضت فيه حضارة البحر الأبيض على قدميها وعلى ضفاف نهر النيل ، لم نكن فى حاجة إلى مهارة نجار أو بلطة ، بل إلى سكين نقطع بها أعواد البردى وإلى بعض الحبال . وهذا ما كان يفعله كل من أصدقائى موسى وعمر وعبد الله هناك عند سفح أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع . . . كانوا

يبنون قارباً من نبات البردى ، تماماً كالقوارب المنقوشة على حوائط المدافن التى تحيط بنا . . .

إذن فما الذى كنت أريد أن أحققه ؟ كنت أريد أن أحقق بناء قارب يتحمل السفر فى البحار ، وأثبت أن المصريين القدماء كانوا من أمهر بحارة العالم قبل أن يستقر بهم المقام ليقيموا التماثيل والبنايات التى تتحدى الزمن . . . واتجهت نحو ذلك القارب الذى قطع الرحلة بين مصر ولبنان أو المسافة التى لا تزيد على مائتين وخمسين ميلاً . . . وكنت أريد أن أعرف إذا كان قارب من البردى يستطيع أن يتجاوز هذه المسافة إلى ما وراء القارات . . . وأخيراً أردت أن أعرف إذا كان قارب من البردى يستطيع أن يتحمل الرحلة إلى أمريكا .

قد تسأل : لماذا كل هذا ؟ لأنه لا يوجد إنسان يعرف من الذى وصل أولا إلى أمريكا ؟ هل هو كولمبوس ؟ إنه لم يكتشف أمريكا بل أعاد اكتشافها . . . كان كولمبوس رجلا ذكياً شجاعاً عرف فى قرارة نفسه أن الأرض كروية ، وأنه لن يصطدم بحافة العالم ، فأقدم على رحلته إلى عالم المجهول . . . إنه يمثل نقطة التحول فى التاريخ، لأنه غيَّر طريقة الحياة فى العالم كله . ولكنه لم يكتشف أمريكا بل كان أول إنسان كشف الطريق إلى أمريكا للعالم كله . . . وصلها فى عام ١٤٩٢ ميلادية . إذن فتى اكتشفت أمريكا ؟ لا أحد يعلم . إن أول إنسان اكتشف أمريكا لم يحسب الوقت أو يعرف التاريخ بالضبط . ولم يعرف الكتابة، أو أنه وصل إلى قارة جديدة . . . كل ما فى الأمر أن الرجل البدائى جال

السواحل المتجمدة لسيبيريا . وذات يوم وجد نفسه على الساحل الشرق لمضيق بيرنج Bering Strait الثلجى . وهو لا يشك أن الوحوش الضارية سبقته إليها . . . ولسنا نعرف على وجه التحقيق أن الذى اكتشف أمريكا جاءها سائراً على المياه المتجمدة ، أو فى قارب على طول الشواطىء العارية للتندورة . وكل ما نعرفه أن أول إنسان مات فى الأرض الأمريكية ولد أصلا فى دائرة القطب الشمالى الآسيوية . وأن مكتشف أمريكا كان لا يعرف الزراعة أو المعمار أو المعادن أو الغزل . وأنه كان يتدثر بجلود الحيوان ، وأن عدده وآلاته كانت الحجارة والعظام ، لأنه كان من رجال العصر الحجرى . ويقول العلماء إن الذين جاءوا إلى أمريكا استوطنوها منذ خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد من الشمال القطبى . وأن هؤلاء الغزاة الأوائل انحدرت من أصلابهم المجموعات المتباينة من الهنود الأمريكيين . ولقد كشفت الكشوف الحديثة أن العائلات البدائية ارتحلت ذهاباً وإياباً بين سيبريا وألاسكا . وفى داخل أمريكا من ألاسكا فى الشمال إلى « تييردل فيجو» Tierradel Fuegos فى الجنوب استقر المقام بهؤلاء الرواد فى أكواخ من أغصان الأشجار ، وفى الكهوف ، ثم توزعت هذه العائلات توزيعاً جغرافياً نحو الجنوب وتكونت أمريكا . وفى يوم ١٢ أكتوبر عام ١٤٩٢ هبط كولمبوس على سان سلفادور فى جزر الهند الغربية(١) ، ثم اتخذ طريق سلفه من المغامرين أمثال كورتيز Cortès وبيزارو Pizarro من الغزاة الإسبانيين . وهناك كانت فى انتظاره حضارات

---

(١) وهى إحدى جزر بهاما فى الشمال الغربى.

غير أوربية ، وشعوب مختلفة عن شعوب أوربا . ووراء الجزر التى نزل إليها كانت هناك ثقافات ممتازة أيضاً . وقال الشيوخ لكولمبس ورجاله إن أقواماً جلودهم بيضاء سبق أن هبطوا عليهم وجاءوا معهم بأسرار الحضارات القديمة . ولم يحدث وصول الإسبان أى دهشة فى المكسيك أو بيرو . وأصبح من المؤكد أن هذا الجزء من أمريكا لم تسكنه قبائل الصيادين الذين جاءوا من سيبيريا ، بل سكنته قبائل من الرجال المثقفين الذين درسوا التاريخ ، وألّفوا الكتب ، وبرعوا فى العلوم الطبية . واستطاع علماؤهم من رجال الفلك ، أن يرصدوا حركات الأجسام السماوية بدقة متناهية ، ويحسبوا مراكز خط الاستواء ، ويميزوا بين النجوم الثابتة والكواكب . وكان تقويمهم أضبط وأدق من تقويم أوربا فى عصر كولمبس ، وحددوا سنة المايا Mayan Year رقم صفر بالسنة ٣١١٣ قبل الميلاد . وكانوا — مثل قدماء المصريين — يجيدون عمليات التربنة أو جراحة الجماجم بدون أن يقتلوا المريض ، وكانت هذه الجراحة غير معروفة لجراحى أوربا حتى بعد عصر كولمبس بكثير . . .

اختلط الأمر على الإسبان عند غزوهم لهذه البلاد ، بل لقد فقدوا أعصابهم ، وظنوا أنهم وصلوا إلى بعض الحضارات الممتازة للهند البعيدة . ولصقت كلمة الهنود التى أطلقها الإسبان على سكان تلك البلاد باللغات الأوربية وهى إحدى أخطاء الإسبان . . .

وفى جنوب أمريكا ازدهرت حضارة مماثلة هى حضارة الإنكا Inkas وقد غزا هذه البلاد حفنة من الإسبان بدون أن يطلقوا رصاصة واحدة ، لأن

تعاليم تلك القبائل القديمة كانت تتوقع دائماً قدوم البيض ذوى اللحى الطويلة ، من وراء البحار ، لأن أجدادهم جاءوا بالحضارة فى الأزمنة البعيدة ، ووعدوا بأن يعودوا . هكذا سجلت كتبهم أو تعاليمهم المحفوظة عن ظهر قلب أباً عن جد وكابراً عن كابر . . .

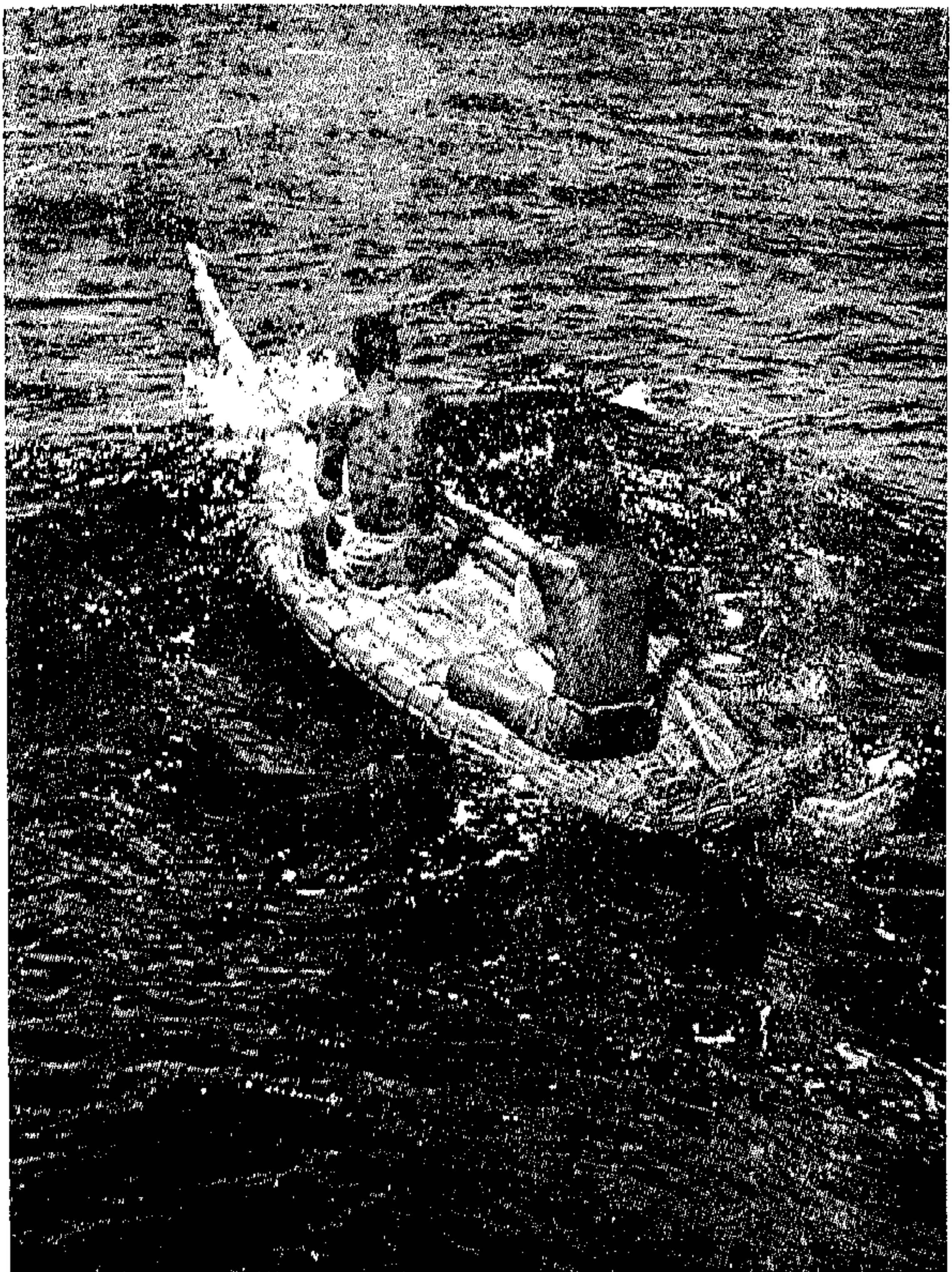
وراودنى سؤال : ما الذى حدث فعلا فى المكسيك وبيرو قبل أن يذهب كولمبس وأصحابه إلى أمريكا ؟ وهل بذر رجال العصر الحجرى البذور التى عثر عليها الإسبان فيما بعد ؟ أم أن أبناءه وأحفاده وقفوا على الشاطئ يستقبلون بعض المغامرين الذين جاءوا إليهم عبر الأطلنطى بدون تذاكر عودة ، قبل أن تنتشر الحضارة فى أفريقيا وآسيا ، ثم إلى سواحل أوربا البربرية . والرد الصحيح على سؤالى الحائر هذا هو : إذا كانت الحضارة قد بدأت فجأة بدون تطور محلى ، فلا بد أنها استوردت بطريقة ما من وراء البحار . ولكن المشكلة الوحيدة هى أن الحضارة العظيمة التى بدأت تزدهر فى العالم الجديد ، قبل السيد المسيح بعدة قرون ، مر عليها ألفان من السنين ، بعد أن توقفت الثقافات أو ماتت تماماً فى المناطق الهامة من العالم القديم . كما كان الحال فى مصر مثلا . وعليه فإن الرد على هذا السؤال ليس بديهياً على الإطلاق . . .

إذن لماذا نبنى قارباً من أعواد البردى ؟ لقد زرت مصر مرات كسائح عندما وقع نظرى على قوارب البوص مرسومة على جدران وادى الملوك . وميزت القارب فى الحال الذى كان يشبه النوع العام لقوارب بناة الأهرامات فى شمال بيرو ، التى رسموها على أوانيهم الفخارية عندما

ازدهرت الحضارة فى جنوب أمريكا . كما رأيت مثل هذه القوارب فى المحيط الباسيفيكى فى جزيرة إيستر Easter على جدران قرية أورنجو Orongo فهذه المتوازيات الثلاثة : جزيرة إيستر و بيرو ومصر، لايمكن أن تكون كل واحدة منها قد بلغت نفس الحضارة المستقلة . ولعل الأغرب أن سكان جزيرة إيستر كانوا يطلقون اسم « رع » على الشمس، وعليه لايمكن أن يكون ذلك مصادفة، لأن « رع » كان اسم الشمس فى مصر القديمة . وفى جزيرة إيستر وبيرو ومصر كانت تقام التماثيل الضخمة تشريفاً وتحية لإله الشمس . فهل كان هناك اتصال بين هذه الأطراف أو كان الأمر مجرد مصادفة ؟ . . .

منذ قرون مضت عندما سيطرت السفن على البحار أصبحنا نؤمن بأن الشعوب القديمة المتحضرة كانت تتحرك بدون قيود . فالرحالة ماجلان Magellan وكابتن كوك Captain Cook وغيرهما قد داروا حول الأرض أكثر من مرة . فلم لا تكون هذه الشعوب قد طافت حول الأرض على قوارب أو سفن من أى نوع كانت . ونحن فى هذا العصر الذى اخترعت فيه النفاثات والمحركات القوية أصبحنا نؤمن بأن العالم فى العصور القديمة كان كبيراً ، وكبيراً بعد أن أصبح الآن صغيراً وصغيراً .

لاحظ العالم البريطانى « بيرسى سميث» Percy Smith أن الحضارات القديمة للمكسيك وبيرو تتشابه كثيراً مع حضارة قدماء المصريين ، وأن اتصالا عبر المحيط قد كان بين الشعبين . وعندما عثر على نفس التشابه فى جزيرة إيستر وبعض أجزاء فى بيرو ، رسم خطاً من



قارب مصنوع من نبات البردى ينطلق به صيادان من سكان جزيرة إيستر

مصر عن طريق البحر الأحمر والمحيطين الهندى والباسيفيكى ، وعلى طول الطريق إلى بولينيزيا Polynesia وجنوب أمريكا ، وعن هذا الطريق أو الخط ، كما قال ، وصل عابدو الشمس إلى أمريكا عن طريق جزيرة إيستر ...

وهز بعضهم رءوسهم وقالوا إن الرحلة من مصر إلى جزيرة إيستر لا معنى لها - برغم أن جزيرة إيستر أقرب إلى مصر عن طريق أمريكا ، منها عن طريق الهند . فإذا أبحر المصريون القدماء ٢٥٠٠ ميل نحو الشرق لوصلوا إلى الهند عابرين نصف العالم إلى جزيرة إيستر . . . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إذا كان الأمريكيون الجنوبيون القدماء قد أبحروا ٢٥٠٠ ميل غرباً من سواحلهم لعبروا جزيرة إيستر كما فعلنا فى رحلتنا عبر الباسيفيكى حيث قطعنا ٤٣٠٠ ميل من ساحل أمريكا الجنوبية مارين بجزيرة إيستر فى نصف رحلتنا . . . هذه الجزيرة التى استعمرها الإنسان من قديم الزمان ، تقع على بعد نحو ألفى ميل غرب شيلى ، اكتشفها الأوربيون فى عام ١٧٢٢ وقد سميت بهذا الاسم لأن الهولندى الذى اكتشفها وصلها يوم عيد الفصح وسماها البوليينزيون « صرة العالم » لأنهم هبطوا إليها من قوارب كبيرة ووجدوا بها ملاحين. وقد حفروا قوارب ضخمة من البوص ، وعليها صوارى على جدران الجزيرة . وعلى هذه القوارب رجال لهم رءوس كرءوس الطير ، وهى نفس الرموز التى وجدت فى بيرو ومصر لعبادة الإله « رع » إله الشمس .

عندما خطر ببالى قوارب البوص فى جزيرة إيستر فكرت فى بناء قارب من أعواد البردى . وكنت قد رأيت قوارب من هذا النوع أن أزور

الجزيرة . بل لقد استخدمتها فى بحيرة تيتيكاكا Titicaca Lake فى مرتفعات الأنديز Andes ، عندما كنت هناك أدرس حضارة أمريكا الجنوبية الحجرية . وتعجبت من قدرة هذه القوارب على حمل الكثير من الأثقال والتى تستخدم بوفرة لعبور الأحمال عبر البحيرة إلى أطلال مدينة تياهوانا كو Tiahounaco . وككل إنسان قرأ تاريخ إمبراطورية إنكا عرفت أن هذه القوارب كانت الأثر الباقى لوسائل النقل المائية قبل وصول كولمبس إلى أمريكا . وقد عم استخدامها على طول الساحل الباسيفيكى لبيرو عندما هبط الإسبان عليها . وأصغر هذه القوارب كان على هيئة خرطوم الفيل لا يتحمل غير ثقل رجل واحد ، وكان بعضها يربط إلى بعض لنقل الماشية والخيول . . .



قوارب من البردى حيث يصنعها الصيادون فى بحيرة تيتيكاكا

الباب الثانى

قارب من نبات البردى

فى جزيرة إيستر شاهدت قارباً من تلك القوارب القديمة المصنوعة من أعواد البوص ، وهى تندفع فوق الأمواج وعليها أربعة من كبار الصيادين ، وتنزلق بسرعة لا تعبأ بالريح . ولاحظت شبهاً كبيراً بينها وبين القوارب التى رأيتها تمخر عباب بحيرة تيتيكاكا وشبهاً أكبر بقوارب حضارة الإنكا القديمة ، التى نقشتها شعوب موشيكا Mochica القديمة على أوانيهم الفخارية. السيراميك على الساحل الباسيفيكى لجنوب أمريكا . . .

لجزيرة إيستر تاريخ مثير ، فهذه الجزيرة التى وجدها الأوربيون عارية عاقراً يعيش فيها بعض المتوحشين على البطاطا ، وقد هجروا معابدها وتماثيلها الضخمة ، التى أقيمت فى أمكنة متفرقة . وكانت فى الأصل غابة من الغابات غطت جدران البركان الخامد الذى يظهر عليها الآن . . . وفى هذه البقعة الخضراء وسط أمواج المحيط الزرقاء هبط على الجزيرة بناءون مهرة قبل أن يعرف الأوربيون المحيط الباسيفيكى بأزمنة سحيقة . وأشعل هؤلاء البناءون النار فى الغابة فهطلت ذرات السناج والدخان على البحيرات الموجودة فى البركان الخامل ، ورسبت فى القاع مع لقاح أشجار النخيل والغابة . وكان الغرض من حرق الغابة إنبات حقول من البطاطا

مأكولهم الرئيسى . وكذلك لبناء منازلهم الصخرية ، ومعابدهم ذات الدرجات التى تشبه مبانى بيرو القديمة ومصاطب مصر . وتجاهل البناءون الأشجار التى سقطت ، وانصرفوا عنها ، لأن فنهم كان مقتصراً على الحجر وليس على الخشب . وكانت أحجام الأحجار التى يقطعونها كبيرة فى حجم عربة سكك حديدية . وكانت تنقل من طرف الجزيرة إلى طرفها الآخر ، وهى مرفوعة على نهايتها . . . والغريب أن العلماء وفقوا إلى اكتشاف هام ، وهو أن الرواد الأوائل لهذه الجزيرة أحلوا محل النباتات والغابات التى أبادوها ، نباتات مزروعة جلبت بذورها من وراء المحيط . فالبطاطا الأمريكية جاءت إلى الجزيرة وما جاورها من جزر بولينيزيا من بيرو قبل أن يصل كولمبس إلى أمريكا . . . كما نمت أعواد البوص أو « بوص توتورا Totora » أو حصيرة من هذا النباتات فوق سطح بحيرة البركان الخامدة وقد استخدمها أهالى بيرو فى صناعة القوارب الصغيرة والكبيرة على السواء ، وكذلك فى تسقيف بيوتهم وفى صناعة الحبال . . .

وفى شهر يناير عام ١٩٦٦ أعلن أحد علماء التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية بجامعة كاليفورنيا أن قوارب البوص فى بيرو القديمة تشبه قوارب البردى لمصر القديمة ، وأن الحضارتين القديمتين متشابهتان فى أكثر من وجه برغم اختلاف الطبيعتين . فنفس الحضارة التى وجدت فى مصر وشرق البحر المتوسط وجدت أيضاً فى بيرو . وإذ كانت مصر فى أفريقيا وبيرو فى أمريكا، فمعنى هذا أن محيطاً واحداً كان يفصل بين القارتين هو المحيط الأطلسى . واستخدمت الحضارتان قوارب ورقية أى من أعواد

البردى أو البوص . ولكن هل يستطيع قارب من هذا النوع أن يمخر عباب المحيط الذى يفصل بين القارتين ؟ واحتدم الصراع بين المفكرين . . . فإذا كانت المكسيك وبيرو قد حصلتا على حضارة من وراء البحر فأى بحر يكون ؟ وعن طريق أى مراكب أو سفن ؟ ولم يستطع واحد من هؤلاء المفكرين أن يمدنا بالرأى السليم ، أو الرد الصحيح . وازداد الصراع حدة عندما استقر الرأى فى النهاية على أن المحيط الأطلنطى لم يعبره إنسان



قارب من البردى حيث يكثر استعماله فى المكسيك

قبل كولمبس . ولكن تاريخ الڤايكنج لا ينكر أن النرويجيين كانوا أول من وصلوا إلى أيسلاند ، ثم إلى الساحل الجنوبى الغربى لجرينلاند حيث عاشوا زهاء خمسة قرون قبل أن يعبر كولمبس المحيط إلى أمريكا . . . وقد تركوا وراءهم أطلالا من المزارع والمدافن والكنائس . وكانت مستعمرة جرينلاند تدفع الضرائب إلى ملك النرويج . إن المسافة عبر شمالى الأطلنطى من النرويج إلى جرينلاند، كانت مساوية للمسافة بين جنوبى الأطلنطى من أفريقيا إلى البرازيل . وكانت المسافة بين جرينلاند وأراضى أمريكا لا تزيد على مائتى ميل . ويقول بعض المفكرين إن أحداً لم يفكر فى قطع هذه المسافة القصيرة على الإطلاق ، ولكن كتابات الڤايكنج ذكرت عكس ذلك ، فالرحالة « بجارنى هرچولفسون » Bjarni Herjolfsson كان أول من عبر الأطلنطى . ولكن سفينته اختفت فى الضباب . وبدلا من أن يهبط على الساحل الطويل غير المعروف الذى اكتشفه عاد إلى جرينلاند واشترى سفينته فيما بعد « ليف إيركسون » Leif Ericsson الذى أبحر فى عام ١٠٠٢ مع خمسة وثلاثين من رجاله حيث كانوا أول من وضعوا أقدامهم على الشاطئ فى مكان أطلقوا عليه اسم : ڤينلاند vineand . وهناك أقاموا بعض البيوت ، وقضوا الشتاء قبل أن يعودوا إلى جرينلاند . وفى عام ١٠٠٣ قام أخوه « ثورڤالد » Thorvald بنفس الرحلة ، وبعد عامين قتل بسهم أطلقه عليه أحد المواطنين . فدفنه الرجال فى ڤينلاند وعادوا إلى جرينلاند . تبعت ذلك عدة محاولات لاستيطان ڤينلاند ، لكن غارات الهنود المتكررة أجبرتهم على العودة إلى

جرينلاند ومنها إلى أوربا كما ذكرت سجلات الفايكنج .

ولكن أين فينلاند هذه وما هو الدليل على أنها توجد فى أرض أمريكية ؟

فى أقصى الطرف الشمالى « لنيوفاوند لاند » وجدت آثار للفايكنج الذين حاولوا استيطان المنطقة فى حوالى عام ١٠٠٠ بعد الميلاد . وكانت هذه الآثار لبيوت تناثرت حولها قطع الأخشاب المحروقة . . . ووجدت فى الأبواب مسامير حديدية ، وعجلة لغزل المنسوجات الصوفية .

وكان هنود هذه المنطقة لا يعرفون الحديد أو الغزل . وقد قام بهذه الاكتشافات العالم النرويجى « هلج انجستاد » Helg Ingstad . وبذلك أثبت بالدليل القاطع وصول الفايكنج إلى هذه المنطقة البعيدة فى نيوفاوندلاند ، وأنهم وصلوا إلى أمريكا بعد عبورهم المحيط الأطلنطى ، وسجلوا هذا الوصول قبل أى إنسان آخر . . . وبرغم أن أقدامهم لم ترسخ فى أمريكا إلا أنهم وصلوها من الشمال المتجمد قبل أن يعبر كولمبس خطوط الطول الاستوائية .

ولكن عبور المحيط كان يحتاج إلى سفن قوية . وإذا كان إنسان قد جاء من أفريقيا ، ورسخت قدمه فى أمريكا ، فمن المؤكد أن هذا الإنسان قد علم الهنود كيف يبنون بيوتهم من قوالب الطوب ، وكيف يكتبون على الورق . ثم كيف يبنون السفن التى تمخر عباب المحيطات والبحار المفتوحة . وما كان بحار يستطيع أن يعبر الأطلنطى ومعه المهندسون المعماريون والفلكيون الذين يستطيعون بناء الأهرامات من غير أن يحضر معه بعض

بناة السفن والمراكب . وقبل السيد المسيح بألفين وسبعمائة سنة تعلم المصريون كيف يبنون المراكب الخشبية ذات الهياكل المفرغة والأسطح والكبائن ذات الألواح الخشبية الأنيقة المرتبة . ولكن فكرة بناء هياكل المراكب من الألواح الخشبية لم تصل إلى الهنود إطلاقاً . وفى جميع أجزاء آمريكا ، قبل كولمبس ، لم يتعلم أى إنسان أن يبنى المراكب إلا من أعواد البوص . وكانت هذه حقيقة لا يمكن تجاهلها بأى حال من الأحوال . كل ما كانت تمتلكه أمريكا فى ذلك الوقت سفن ، أو قوارب من البوص ، أو قوارب من جذوع الشجر ، لأن نبات البوص أو البردى لم ينم فى مصر وحدها بل فى أجزاء متفرقة من العالم .

قمت بزيارة أخرى إلى الأنديز لألقى نظرة ثانية على قوارب الهنود ، وطرت فوق بحيرة تيتيكاكا فوق سقف العالم والتى ترتفع ١٢٥٠٠ قدم فوق مستوى البحر ، تحيطها كوكبة من القمم الثلجية ترتفع بدورها إلى تسعة آلاف قدم نحو السماء الزرقاء . وفوق الهضبة من خلفنا تطل أطلال عاصمة الإنكا القديمة مركز الثقافة القديمة مدينة تياهواناكو وهرم « أكابانا » Akapana والتماثيل الضخمة للملوك غير معروفين محفورة فى الصخور . . .

وفى الريح الشديدة كان بعض هنود الآيمارا Aymara يروحون ويجيئون بقواربهم ، وهم يصطادون السمك . وعلى البعد كان الإنسان يرى أشرعة القوارب وقد ملأها الهواء ، وقد بنيت القوارب بدقة متناهية ، فكانت

تنزلق على الماء بسرعة وترسو على الطين ، ويخرج منها الصيادون ومعهم ما اصطادوه من السمك . . .

ومثل هذه القوارب لا تزال تبنى بالمئات وبنفس الطريقة التى كان يبنى بها أجداد هنود الآيمارا ، والكوشوا Quechua قواربهم القديمة منذ أربعمائة عام ، عند ما جاء الأسبان وعثروا على أطلال تياهواناكو بأهراماتها المدرجة . وكان البدائيون من الهنود يظنون أنها وجدت هكذا منذ فجر التاريخ بعد أن بناها رجال الفيراكوشا Viracocha . وقد وصفهم المؤرخون على أنهم رجال بيض بلحى ، وكان ملكهم يدعى كون تيكى «ڤيراكوشا Con-Tiki-viracocha» رسول الشمس على الأرض . وكان رجال الڤيراكوشا قد استقر بهم المقام على جزيرة الشمس فى بحيرة تيتيكاكا . وتقول الأساطير إنهم أول من بنى أول قارب من البوص ، وأن الرجال البيض جاءوا إلى الجزيرة على قوارب من البردى عند ما ظهروا لأول مرة أمام الهنود ، الذين كانوا فى ذلك الوقت لا يعرفون شيئاً عن عبادة الشمس ويجهلون الزراعة والعمارة . فهذه الأساطير التى كتبها الأسبان منذ أربعة قرون لا تزال حية فى أذهان الهنود . وفى كثير من الأحيان كانوا ينادوننى باسم « ڤيراكوشا » ومعناها « الرجل الأبيض » .

لقد أعجبت كثيراً بمنظر هذه القوارب وهى تتهادى فوق صفحة البحيرة ، وتذكرت الزمن الذى كانت تنقل فيه كتل الصخور من « الكابيا Kapia » البركان الخامد على الشاطئ الآخر . ولم يكن هناك ما يدعو إلى الشك بأن الحضارة التى اختفت كانت متصلة بطريقة ما

بمراكز الثقافة الأمريكية الأخرى ، والتى وجدها المكتشفون الأمريكيون مهجورة مندثرة فى الغابات الاستوائية ، من المكسيك إلى الهضبة المحصورة بين بيرو وبوليفيا . وقبل أن تتحول بنايات تياهواناكو إلى أطلال كانت عاصمة لأقوى إمبراطورية فى العالم امتد نفوذها إلى بيرو والأجزاء المجاورة لأكوادور وبوليفيا وشيلى والبرازيل والأرجنتين أى على طول ساحل يمتد إلى ١٥٠٠ ميل فى جزر جالاپاجوس Galapagos على بعد ستمائة ميل من الشاطئ . وقد أقنعتنى الآثار التى وجدتها فى جزيرة إيستر أن الحضارة بلغتها قبل العصر البولينيزى .

ولكن أين كانت الجذور ؟ هل كانت هنا فى أمريكا ؟ أو فى الجانب الآخر من الأطلنطى ؟ الحقيقة أن السفن الخشبية كانت معروفة فى جانب واحد من الأطلنطى . ولكن قوارب البردى أو البوص كانت معروفة على الجانبين . . . وكان فن بناء هذه القوارب موروثاً ، من مصر وبيرو . وليس ذلك فقط ، فقد رأيت قوارب مماثلة فى المكسيك ، وفى جزر البحر الأبيض المتوسط ، وعلى ساحل الأطلنطى ، فى المغرب تحت جبل طارق . وكانت القفزة من المغرب إلى المكسيك غريبة تماماً كالمسافة بين مصر وبيرو . .

لذلك قررت بناء قارب من البردى . . .

الباب الثالث

مع هنود غابات « الصبّار »

لمحت الشاطئ من بعيد ، وأنا أطل برأسى من وراء أشجار الصبّار ، التى ارتفعت من فوق ، كأنها أنابيب أرغن ، وتشعبت أغصانها فى عالم كله أشجار . ومع ذلك فقد كانت الأرض التى أسير عليها رملية جرداء ، ليس بها عشب أو زهور ، غير تلك التى تطل علينا من العناقيد المتدلية من أوراق الصبار ذاتها . . .

كانت الغابة التى دلفت إليها صامتة . لا همس ولا حفيف من الأشجار التى تناثرت هنا وهناك . وفجأة قفز أرنب جبلى من بين ظلال أشجار الصبّار التى عكستها أشعة الشمس الغاربة ، ثم رفع الأرنب أذنيه ، ونظر حوله قبل أن يختفى تماماً . وعلى الممر نفسه الذى اختفى عنده الأرنب ، ظهر سنجاب مخطط وهو يجرى بأقصى سرعته ، ثم توقف فجأة ، ورفع ذيله فى الهواء ، ثم تكور واختفى بدوره بين أشجار الغابة . وعلى غصن شجرة جلس نسر لا يبدى أية حركة ، حتى اقتربت من شجرته ، فنشر جناحيه وطار بنعومة فى الهواء وحلق فوق الغابة . وعند ما نقلت قدمى سمعت صوت حذائى وأنا اشق طريقى فى الغابة المزدحمة بالقوارض والثعابين وحشرات الصحراء المختلفة .

وفى هذا الهدوء المطبق التقطت أذناى صوتاً فاتراً واهياً ، ولكنه طن كأنه صوت أسد يزأر . وكان هذا إنذاراً بوجود خطر قريب منى . . . وليس الإنسان فى حاجة إلى أن يرى حية من ذات الأجراس لكى يقفز جانباً ويفر من موت محقق ... لقد أخرجت الحية لسانها والتهبت عيناها ، وارتفع ذنبها قليلاً وهى تضرب به لأرض على أهبة أن تضرب ضربتها المميتة القاتلة . وكانت الحراشيف الجافة كأنها قطع من البلاستيك ترتعش من الغضب . فنظرت حولى بسرعة أبحث عن عصا ، ولكنى لم أر شيئاً غير أشجار الصبار ذات الأشواك القوية ، وأخيراً لمحت شجرة صبار ميتة فقلت فى نفسى : « فى هذه الكفاية » . فانتزعت غصناً قوياً وانهلت به على الحية فأصبت منها مقتلا وظل جسدها يرتعش ويدق أجراساً لمدة طويلة . كان المفروض أننا نبحث عن بناة القوارب فى غابة الصبار هذه . ولم يكن أمامنا شجرة واحدة نستطيع أن نتسلقها لنعرف معالم الطريق الذى يجب أن نسلكه . وكان صديقى المكسيكى « رامون برافو Ramon Bravo» قد اختفى فى الغابة على أمل أن يجد منها مخرجاً . فى حين جلست زوجته أنجليكا Angelika فى العربة فى بطن الوادى ، حيث فقدنا معالم الطريق أكثر من عشرين مرة . . . ومن مكانى الذى وقفت فيه لمحت الشاطئ والبحر وانعكاس ضوء الشمس على صفحة الماء ، والجبال الزرقاء البعيدة ، وكان فى هذا الكفاية لنبدأ رحلتنا قبل مغيب الشمس . . .

وشرعنا نسير ، وفجأة دلفنا إلى أرض فسيحة ، وظهر البحر أمامنا بأمواجه الفضية وشاطئه الذهبى ، ولمحنا ظهور خمسة حيتان وهى تبرز من

الماء وتتجه نحونا ، ثم تختفى فى خليج كاليفورنيا . وعلى الجانبين امتدت صحراء سونورا Sonora . وكان علينا أن نعثر على كوخ واحد به أثر للحياة . . . وطال بنا السير حتى ظهرت من بعيد إحدى القرى الهندية بمجرد أن غرق قرص الشمس فى لأفق البعيد وراء الجبال الزرقاء . وكانت القرية الهندية من سلالة قبائل « سريس » Seris القوية التى عرفت الزراعة والعمارة عن طريق اتصال رجالها بالرجال البيض . . . وكان سكانها لا يزيدون على ستين فرداً ، وقد استقر بهم المقام فى هذا المنعزل الرملى لبونتا شوكا Punta chuneca . لم يبد الهنود أى اهتمام بنا ، بل انصرف كل واحد إلى عمله ، وقد جلسوا فى مجموعات صغيرة . واقترب منا أطفال القرية وسرعان ما اندفعوا نحو كوخ ليناذوا على شوكو المترجم صدق رامون الذى جاء إلى هذه القرية مرة ليصور بعض حيوانات الخليج. وأخبرهم رامون أنه جاء بصديق ليرى بعض قوارب البوص [1] ... ولكن الهنود كانوا قد أبطلوا صناعة هذه القوارب منذ سنوات . . .

وجاء الليل فاضطررنا أن ننام على الأرض فى حظيرة الصيد ، ومن حولنا الهنود يتسامرون طول الوقت حتى داعب الكرى أجفانهم فناموا عندما اختفت النجوم من السماء . وفى الصباح استيقظنا من نومنا ، وأخذنا نساوم الهنود على صناعة قارب من البردى ، ولكنهم قالوا إن الأمر يحتاج إلى وقت طويل ، والبردى على مسافة بعيدة من مكانهم فى جزيرة القروش .

---

(١) يقصد البردى .

وقررنا الذهاب إلى جزيرة القروش لنرى نوع البردى الذى ينمو فيها . . . وبعد مرور بعض الوقت هبطنا إلى الجزيرة المزدحمة بالأيائل ، والغزلان ، والأرانب ، والسحالى ، والثعابين والقوارض . ولكن الإنسان لم يسكنها منذ تركتها قبائل « السريس » Seris إلى داخل البلاد، وسرنا مسافة طويلة فوق الجزيرة نبحث عن البحيرة التى ينمو عندها نبات البردى ، حتى اقتربنا من الجبال التى تحيط بها . وعبر نصف النهار ، والشمس محرقة ، وبدأنا نصعد مرتفعاً ، حتى بلغنا قمته فوقفنا نلهث وننظر إلى ما تحتنا . وعلى مسافة من مكاننا رأينا منظراً غريباً . بحيرة ممتلئة بالماء ، وحولها نبات البردى ، سامقاً بأعواده فى الهواء فأسرعنا ، نجرى نحو الماء ، لكننا لم نر غير أعواد البردى ، فشق المرشد الهندى طريقه وراح يقطعها بسكين حادة ، ونحن من خلفه نتبعه كظله ، حتى بلغنا منطقة بها صخور عليها طحالب ، وظهرت أمامنا بحيرة فأسرعنا نعب من مياهها لنطفئ ظمأنا بعد مسيرة طويلة تحت وهج الشمس .

لقد اكتسبت خبرة من هذه الرحلة الغريبة ، وعرفت أن أفراد قبائل السريس كانوا يبنون قواربهم من أعواد البردى المنتشرة حول البحيرة ، لأنه كان من العسير عليهم أن يعثروا على خشب فى صحراء سونورا ، فى حين كان الشاطىء يعج بأعواد البردى . وربما أخذوا هذه الصناعة عن أجدادهم أو من البحارة الذين زاروا هذه المنطقة فى الماضى السحيق . وكانوا أيضاً يبنون هياكل قواربهم من الأشجار القوية ويغطونها بجلد الحيوانات، لأن عجول البحر كانت تغطى صخور جزيرة القروش . إذن

فمن الذى علم رجال قبائل السريس بناء قواربهم ؟

تركنا البحيرة، وتسلقنا الجبال ، بعد أن قطع الهنود المرشدون حزماً كبيرة من البردى ولم نضل طريق العودة لأن الهنود كانوا قد تركوا علامات على طوله . . . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب عندما بلغنا قاربنا . . . ولكن حزم النبات لم تكف لبناء قارب ، بل فقدت الأمل تماماً لأن هذه المنطقة لا تصلح لبناء قارب يعبر بنا المحيط الأطلنطى نظراً لصعوبة الحصول على أعواد البردى ومشقة الوصول إليها عبر غابات الصبّار .

وعندما بلغنا القرية الهندية الصغيرة خرج الرجال لاستقبالنا وبرز رجل هندى عملاق من قبائل السريس الذين وصفهم الأسبان بأنهم حقًّا من العمالقة . ثم اتجه نحو قاربه العتيق المصنوع من نبات البردى، وراح يرممه ويشد حزمه بحبال قوية ، حتى استعاد القارب شكله الأصلى فوقفنا طويلا نمعن النظر فيه . ثم سحبه الهنود وانطلقوا به نحو أمواج البحر ثم امتطوا ظهره فانساب بين الأمواج رشيقاً سريع الحركة . وعندما عادوا كانوا قد اصطادوا سلحفاة ضخمة . لكن القارب المصنوع من نبات البردى كان قد امتص قدراً كبيراً من الماء فجره الرجال الرجال وتركوه فوق الرمال ليجف . . .

كانت هذه هى المكسيك ، حيث كان أجداد قبائل السريس يبنون قوارب البردى ويمتطون بها صهوة البحر . . . ومن حولهم جيرانهم يستخدمون نفس القوارب فى تنقلاتهم من إمبراطورية الإنكا فى الجنوب إلى كاليفورنيا فى الشمال . وكذلك فى البحيرات الداخلية

فى المكسيك ذاتها . . . وفى بداية القرن الماضى رسم الرسام الفرنسى ل . شورى Choris ثلاثة من الهنود يجدفون على قارب مصنوع من نبات البردى على طول ساحل ميناء سان فرانسسكو . وفى المكسيك أيضًا رؤيت قوارب من البردى تشبه قوارب بيرو فى البحيرات وفيما لا يقل عن ثمان ولايات طبقًا لما رواه عالم المايا المعروف دكتور إريك طومسون Dr. Eric Thompson .

وقفت أنظر إلى القارب الورقى الذى سحبوه نحو رمال الشاطئ ليبقى هناك بجوار كوخ الهندى العملاق، وكأنه آخر مشهد فى فصل غير مكتوب عن قوارب البردى التى انقرضت فى المناطق الوسطى لأمريكا الشمالية . . .

الباب الرابع

مع البدو فى قلب الصحراء

أفريقيا . . . أجمل اسم لأجمل قارة . . . جدار من الغابات الخضراء وأغصان الأشجار الاستوائية القوية تتحطم تحت أقدام الزنوج وهم يحملون المؤن ويشقون طريقهم فى الغابة الكثيفة . والزراف والقرود تتحرك هنا وهناك ، وزئير الأسود كقصف الرعود . لم أدخل إلى قلب أفريقيا من قبل . فنى قلب وسط أفريقيا وفى حجرة صغيرة فى فورت لامى عاصمة جمهورية تشاد جئتها زائراً فى قارب من البردى عبر الأطلنطى . إن نهر شارى Shari الوحيد الذى وقع عليه نظرى يتدفق بنعومة نحو الشمال . ولكن الماء الذى يحمله من الغابة لا يصل إلى البحر البعيد . . . ومن الغابات الواسعة بالقرب من حدود الكونغو فى الجنوب يمر النهر عبر السافانا ونصف الصحراء فى طريقه إلى بحيرة تشاد على الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى ، وهنا تبلغ الحرارة درجة كبيرة حتى إن الماء يتبخر بسرعة . . .

كانت هذه هى البحيرة التى أردت أن أزورها ، وبرغم سهولة العثور عليها فى الخريطة فإن الوصول إليها من الأمور الشاقة . وفى شمالها ينمو نبات البردى ، ويغطى مساحة كبيرة منها ، وعلى شواطئها يبنى الزنوج

قوارب تشبه القوارب البردية التي تشبه إلى حد بعيد قوارب جنوب أمريكا وجزيرة إيستر . وفى مصر كانت هذه الصناعة قد اندثرت تماماً ولكن هنا فى قلب أفريقيا لا تزال قائمة . . .

ومن فورت لامى ركبنا سيارة جيب فى طريقنا إلى قرية بول Bol التى تقع على البحيرة . وكان الطريق وعراً شائكاً عبر الصحراء فى الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى . وكانت درجة الحرارة فى أثناء النهار ترتفع إلى ٥٠ درجة مئوية (١٢٢ فارنهايت) فى الظل ، وقد انبطحت أمامنا كثبان الرمال وقد انغرست فى بعضها عربة الجيب . وبعد مجهود مضن عنيف كنا نشق طريقنا من جديد ، حتى لاحت لنا البحيرة من بعيد . وخطر لنا أن نترك السيارة ونجرى ونلقى بأنفسنا إلى المياه الحلوة ولكن السائق « بابا » نصحنا بأن نتريث حتى نصل إلى قرية « بول » Bol فإذا واصلنا السير بسرعة دخلناها قبل حلول الليل لأن الصحراء أشد خطورة فى الليل منها فى النهار . . .

وفى قرية « بول » انتهى بنا المطاف وتجمع حولنا القرويون . ثم ظهر رجل زنجى ضخم سألنا من نكون ، ولماذا جئنا ، وما الهدف من هذه الزيارة عند حلول الليل . . . وكان الرجل متوعك المزاج ، فهو عمدة « بول » ومسئول عن ألفى شخص بها من الزنوج والعرب وليس فى حاجة إلى مزيد من المتاعب .

قضينا ليلتنا فى ضيافة العمدة « أدوم رمضان » Adoum Ramadan وفى الصباح رأيت لأول مرة قارب البردى فى قلب أفريقيا وهو يتهادى

على صفحة بحيرة تشاد بجوار جزيرة عائمة من نبات البردى الذى تفتحت زهوره فى اتجاه السماء الزرقاء . . .

أخذنا العمدة إلى السلطان (مبودو مبامى) M'Bodou M'Bami القائد الدينى وأقوى رجل فى المنطقة بأسرها ، والسلطان ينحدر من أصلاب قبيلة بدوما ، وعندما علم برغبتنا فى بناء قارب من أعواد البردى ، أرسلنا إلى أحد رجاله « عمر مبولو » Omar M'Bulu وهو من خبراء صناعة القوارب الورقية يجيد اللغة العربية بجانب لغته الأصلية (بدوما) Pouduma وعلمنا الرجل كيف نبنى قاربًا من البردى يتسع لاثنى عشر رجلا ، كذلك القارب الذى تداعبه الرياح على شاطئ البحيرة . وجلسنا على الأرض نرقب عمروموسى ورجالا آخرين تطوعوا للقيام بالعمل ، ورأيناهم ينزعون الأغصان القوية التى تشبه الجلد من شجرة الدوم ، ويلفون بها أعواد البردى فى براعة وسرعة متناهية كأنها الحبال . . .

كانت أعواد نبات البردى فى تلك البقعة من قلب أفريقيا طويلة تزيد على مترين ، وبقطر بوصتين ، ولم تكن مفرغة أو جوفاء كأعواد البامبو بل إسفنجية . وما هى إلا ساعات قليلة حتى كان أمامنا قارب طوله اثنى عشر قدمًا . إذن فمن الذى علم هؤلاء الرجال هذه الصناعة ؟ ربما تعلموها من أجدادهم الذين تعلموها بدورهم من سكان وادى النيل . . . وفى هذه القرية الصغيرة النائية علمنا أن قوارب كبيرة من البردى تبنى بين وقت وآخر لنقل أربعين طنًا من الأثقال والبضائع من مكان إلى آخر أو من شاطئ إلى آخر . وقال موسى ، أحد الذين صنعوا لنا قارب

البردى : إنه اشترك مرة فى بناء قارب نقل أكثر من ثمانين رأساً من الماشية ، وآخر أبحر بأكثر من مائتى رجل دفعة واحدة . . . ولم أصدق الرجل فى بادئ الأمر ولكن عندما قفزت إلى القارب الصغير ومعى موسى وعمر وعبد الله ، تحمل القارب ثقلنا فذهلت من قدرته .

وهكذا قضينا النهار كله فى بناء القارب ثم تجربته . وفى الليل عدنا إلى مكان راحتنا . استلقيت على الأرض مع زملائى نحصى النجوم فى السماء حتى غفلت عيوننا بعد عمل يوم طويل شاق . . . ولكن ما كدت أغمض عينى ، حتى سمعت صوت طبول تدق من بعيد ، فجلست على الأرض ، ورحت أنصت ، وحاولت أن أوقظ زملائى ، ولكن النوم كان قد غلبهم فاستسلموا له ، ولم يعبأوا بمحاولاتى . . . فتركت المكان ، ورحت أبحث عن مصدر الصوت فى الظلام . وسرت وقتاً لا بد أن يكون طويلا ، حتى بلغت حائطاً كانت تدوى من ورائه الطبول . فوقفت أنظر إلى دائرة تجمع حولها الرجال ، وراح بعضهم يرقص فى داخل الحلبة بالسيوف ، ثم اشتركت فتاتان فى الرقص الإيقاعى الجميل ، ورأيتنى أنضم إلى الرقص بطريقة آلية . فاتجهت نحوى الأبصار ، وعلت دقات الطبول . وأغلب الظن أننى رقصت وقتاً طويلا لأن الدائرة المحتشدة بالناس بدأت تنفرط كحبات المسبحة ، ولم يبق غيرى وأربعة رجال . وهنا بدأت منافسة حادة بيننا . ارتفع صوت النفير ، وعلت دقات الطبول ، وبدأنا نرقص فى نشوة ، وقوة وجنون ، حتى بدأ الرجال يتساقطون واحداً وراء الآخر . وتجمع الناس من جديد ليلقوا نظرة على

ذلك الرجل الأبيض الذى هبط عليهم يرقص رقصات سريعة على دقات الطبول . . . ولمعت العيون من حولى ، وجوه أسود من الليل وأسنان أبيض من الثلج وجباه تتساقط عليها حبات العرق من طول الرقص والإجهاد . وفجأة شعرت بلطمة قوية على كتفى ، فالتفت فإذا به عمر قريب السلطان ، وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة كبيرة ... وهبط على عمر كذلك من السماء ، ورأى الرجال أنه يتحدث إلى كصديق ، فأخذوا يتسللون فى الظلام واحداً وراء واحد . . .

وفى الصباح انتشرت الشائعات عن مقدرتى كراقص (التوم توم) Tom-Tom dancer وعن المبلغ الكبير الذى دفعته للعازفين وضاربى الطبول . . .

اضطررنا أن نمكث فى قرية « بول » عدة أيام حتى تنتهى بعض المتاعب التى اتخذت طريقها بين العرب والزنوج . وأثناء هذه الأيام أكثرنا من النزهة فى قوارب البردى حتى وصلت ذات يوم طائرة خاصة لتنقلنا إلى فورت لامى . . .

ودعنا عمر وموسى وعبد الله، وطلبت إلى السلطان أن يسمح لهم بالسفر إلى مصر عندما نقرر بناء قارب من أعواد البردى لنمخر به عباب المحيط الأطلنطى . . . ووافق السلطان ووافق الرجال كذلك ،وانطلقت بنا الطائرة إلى عنان السماء ، وتركنا قرية « بول » وبحيرة تشاد ، وقوارب البردى والجزر الطافية الخضراء ، فوق البحيرة الكبيرة . . .

استغرقت الرحلة ساعة واحدة وصلنا بعدها إلى فورت لامى ، حيث انتظرنا بها عدة أيام على أمل أن يصل إلينا السائق « بابا » ومعه القارب الصغير وبعض المعدات التى لم تستطع الطائرة الصغيرة حملها ... ومضت الأيام ولم تظهر سيارة الجيب فاتصلنا بقرية « بول» فأفادنا العمدة أن السائق غادر القرية منذ أيام ، فأرسلنا عدة سيارات تبحث عنه ، وطائرة صغيرة ، ولكن جهودنا كلها باءت بالفشل . وعاودنا الكرة من جديد ، وأخيراً جاءتنا الأنباء أن السيارة سرقت ، وأخفيت خلف شجرة كبيرة فى الطريق الصحراوى الطويل . . . وحاول السائق أن يبيع ما فيها من معدات تصوير ، لكن أحداً لم يبد اهتماماً بها . ولما كان القارب غير ذى موضوع فقد ألقوا به فى الصحراء . ولم يستطع الرجل غير بيع وقود السيارة . . . وعادت إلينا معدات التصوير ، أما الذى حدث للسائق « بابا » بعد ذلك فلم نستدل على شىء من أخباره . . .

وعادت إلينا معدات التصوير كاملة ، والغريب أنه قبض على عبد الله، ذلك الرجل الأمين ، الذى قدم لنا خدمات جليلة أثناء وجودنا فى قرية بول ، بتهمة التجارة فى الرقيق .

وهكذا تركنا قلب أفريقيا حيث شاهدنا فى تلك البقعة النائية كيف يبنون قوارب البردى بنفس القدرة والكفاءة التى كانت تبنى بها القوارب فى كل من مصر وأمريكا الجنوبية وجزيرة إيستر . . .

الباب الخامس

فى وسط الرهبان السود
عند منابع النيل

لكى نبنى قاربًا من البردى، كان علينا أن نبحث عن نبات البردى. ولكن أين نجده ؟ هل نجده فى تشاد عند بحيرة الصحراء ؟ إن الطريق إليها وعر شاق . فلا أنهار تشق طريقها فى وسط أفريقيا إلى العالم المحيط . ولا طرق سهلة من أى نوع كانت . وكنت فى حاجة إلى أعواد كثيرة من البردى لا أستطيع نقلها على متن الجمال . حقيقة أن صناع القوارب يمكن أن يأتوا بالطائرة ، ولكن ليس هناك أعواد تكفى لبناء قارب كبير يتحمل رحلة المحيط . فتركت هذه الفكرة جانبًا ، واتجهت بنظرى إلى مصر . . . فالفرعون العظيم مسجى فى قبره ، وقوارب البردى من حوله منحوتة على جدران مقبرته الصخرية . . . الصخور فى الصحراء والبردى على شاطئ النهر ، والطمى يتدفق على ضفاف النيل فى أثناء جريانه من جبال إثيوبيا . . .

لقد أسس الفلاح المصرى حياته على الطمى ، وصنع الصياد قاربه من البردى ، فى حين استخدم الفرعون الصخور ليخلد نفسه . وعلى أوراق البردى سجل أساتذة مصر وعلماؤها فصولا من حياة الإنسان الأول .

وكانت الصخور تنقل على قوارب مصنوعة من نبات البردى ، لذلك خلدت ونقشت على الصخور . وظهرت زهور البردى فى الفن المصرى القديم مرة ومرات ، حتى أصبحت رمزاً وطنياً للصعيد أو مصر العليا . وفى الأساطير اتحدت مع زهور اللوتس للوجه البحرى على يد حورس (الرجل الطائر) ابن إله الشمس « رع » ، عندما اتحدت مصر فى مملكة واحدة .

لكى نبنى طوفاً كان علينا أن نفعل كما فعل رجال الإنكا ... التوغل فى غابات إكوادور للبحث عن أشجار فتية مليئة بالعصارة أو لبن النبات ...

ولكى نبنى قارباً من البردى كان علينا أن نفعل كما فعل الفراعنة ... الخوض فى مستنقعات البردى على طول شواطئ النيل ، وقطع أعواد البردى الطازجة . وعندما أراد فرعون مصر أن يبنى قارباً لم تصادفه مشكلة واحدة ، لأن بناة القوارب كانوا يعرفون كل شىء عن نبات البردى ، وصناعة قوارب البردى بعد أجيال طويلة من الخبرة . وكانت القوى العاملة غير محدودة ، ومواد البناء متوافرة تنمو فى أعداد لا حصر لها خارج بوابات القصر . ومستنقعات البردى على ضفتى النيل تمتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى عدة أميال داخل الصحراء المصرية . . .

ولكن كان هذا فى الماضى السحيق . وأعواد البردى لا تنمو الآن فى مصر . هكذا أكد لى جورج سوريال ، وجورج من رجال الضفادع البشرية يعرف النيل معرفة تامة ، وأذكر أنه قال : هناك صخور كثيرة إذا أردت أن تبنى هرماً ، ولكن ليست هناك أعواد من البردى تكفى لصنع عربة أطفال . . .

كانت تتهادى فيه قوارب البردى على بحيرة تشاد من بعيد ، كانت تمس القوارب المنحنية بأناقة تتهادى على صفحة بحيرة تانا وقد حافظت على هيئتها المصرية القديمة . ولم يحاول صناع القوارب أن يطوروها أو يغيروا من شكلها ، فاحتفظت بمنظرها عبر ألوف السنين ، ومنذ فجر التاريخ ، وهؤلاء الرهبان السود الذين عاشوا عبر القرون ، حافظوا بدورهم على تقاليد حياتهم ، فارتدوا زياً مميزاً ، وبرغم أن أشجاراً ضخمة نمت فى الجزر التى يعيشون فيها ، فإنهم لم يبنوا القوارب الخشبية أو يصنعوها من جذوع الشجر . واستخدم أجدادهم قوارب البردى فى القرون الوسطى ، وهاهم يستخدمونها اليوم فى عصر الذرة . وقد جئنا لنتعلم من هؤلاء الرهبان السود ونستفيد من تجربتهم ، وهم وحدهم الذين يعرفون أين ينمو بوفرة وكثرة . . .

إذن فمن هم الذين علموا هؤلاء الرهبان ؟

فى فجر المسيحية انتقل الدين الجديد من مصر إلى إثيوبيا قبل أن يتم الاتصال بين منابع النيل المنخفضة ومنابعه العليا بألف سنة ، وفى عام ٣٣٠ وفى الوقت الذى كانت فيه المسيحية تشق طريقها خلال القارة الأوربية كان المذهب القبطى المسيحى ينتشر من مصر حتى ربوع إثيوبيا . واستقر المسيحيون الأوائل فى مملكة أكسوم Axum القديمة هناك فوق جبال إثيوبيا شمالى بحيرة تانا ، ثم فر معظمهم بعد ذلك إلى الجنوب . ومن الجزر المحصنة فى بحيرة تانا وزواى Zuai لينجوا من الاضطهاد . واختفى الرهبان السود فى بحيرة تانا بعد أن ظلوا بها سبعمائة عام ،

وانضمت إليهم أجيال جديدة من الشباب ، جاءوا من داخل البلاد إلى الجزر فى قوارب من البردى .



قارب بردى به ثلاثة من الصيادين فى بحيرة تانا

ذهبنا لمقابلة الرهبان السود . وكانت أول جزيرة هبطنا إليها دغلا كثيفاً من الأشجار ، وكان فى انتظارنا كاهنان تسربلا فى رداءين طويلين ، وظهرت أقدامهما عارية ولحيتاهما سوداوين كالليل . وعلى صدريهما تدلى صليبان فضيان من الطراز القبطى ، وانحنى الراهبان بهدوء وأشارا نحو الطريق الذى سوف نسلكه إلى قمة الجبل . ورأينا بعض قوارب البردى وقد وضعت بعناية بجوار حائط كبير وبجوارها كميات من أعواد

البردى وقد جمعت على هيئة حزم . . .

صعدنا ممراً مرتفعاً حتى بلغنا كنيسة صغيرة فوق الجبل . وظهر عدد من الرهبان السود الإثيوبيين فى ملامحهم الدقيقة وأعوادهم الطويلة وأنوفهم المعقوفة ولحاهم الطويلة . وكانت وجوههم صغيرة لشبان وفتية يرتدون أردية خشنة ، أقدامهم عارية أو فى صنادل مفتوحة ، يعيشون على أسماك البحيرة، يصلون ويترنمون ويشكرون . . .

كانت الجزيرة تسمى « كوفران جبرائيل Covran Gabriel»

ورأينا صورة للملاك جبرائيل وقد استل سيفه عندما أخذونا إلى داخل الكنيسة ، وجميع الكنائس القبطية فى بحيرة تانا تشبه كنيسة الملاك جبرائيل ، وقد زينت بصورة قديمة يرجع تاريخها إلى ثلثمائة سنة أو أكثر . ورأينا كذلك صوراً لفرعون مصر وهو يغرق بجيشه فى البحر الأحمر وقد برزت خوذات القادة وأسلحة الجيش من فوق سطح المياه .

وجلسنا نتحدث عن قوارب البردى . فهى بالنسبة للرهبان السود كالخيل والجمال لفرسان الصحراء . . . وعرفنا أنهم يسحبون هذه القوارب بعد رحلاتهم النيلية لتجف فوق الرمال، وإلا امتصت المياه . وبرغم أنها لا تغرق مطلقاً إلا أنها تفقد قدرتها على الحمولة فى المسافات أو الرحلات الطويلة . وكلما ازداد القارب اتساعاً أصبح قادراً على الطفو . ولكن لا فائدة ترجى من بناء القوارب الكبيرة لصعوبة سحبها على الرمال لتجفيفها بعد كل رحلة تقوم بها . . . فتركنا الرهبان السود إلى جزيرة أخرى يطلقون عليها اسم ناربجا (Narga .) وكانت هذه الجزيرة مسطحة

ينمو فى وسطها نبات البردى مما شجع الرهبان الذين يعيشون فيها على استمرار تجديد قواربهم مرة كل سنة . . .

وفى البرج الحجرى الوحيد جلس راهب من الرهبان لم ينبس ببنت شفة أو يلفظ بكلمة واحدة ، بل لم يتحرك من مكانه مطلقاً فى أثناء زيارتنا . ولهذا البرج قصة . فقد بنته الإمبرطورة منتواب Mentuab منذ مائتين وخمسين سنة للعبادة والتأمل . وجلس صاحبنا الراهب فى أعلى مكان فيه منذ سنوات قليلة مضت بعد أن أقسم أن يجلس هكذا بلا حراك بقية حياته حتى يموت . . . ويحتبره إخوانه الرهبان قد يساً يجلس بين السحب العابرة لا يأتى بحركة واحدة . . .

وانتقلنا إلى جزيرة «داجا ستفانو Daga Stefano» وهى جزيرة مقدسة لا تطأها أقدام النساء ، ولا أميرات البيت المالك ، فقد حرمت عليهن الجزيرة إلى الأبد . . . وقد حاولت الأميرة منتواب أن تدلف إليها ، ولكن لم يسمح لها على الإطلاق منذ قرنين ونصف قرن من الزمان . وفى هذه الجزيرة طالعتنا قوارب البردى وحراس أشداء يحرسونها بالليل والنهار وسمعنا صلوات تنبعث من هنا وهناك وأعواد البردى تنمو بوفرة غريبة ، وتتحمل المياه لمدة ثمانية أيام أو أسبوعين بدون أن تغرق أو تغوص فى الماء . ولكنهم قالوا إن أعواد البردى يجب أن تظل جافة بعيدة عن الماء . . . ولم تختلف معلومات رهبان هذه الجزيرة عن غيرها من الجزر التى زرناها فى بحيرة تانا . . .

ودعانا رهبان الجزيرة المقدسة إلى كهف من الكهوف الغريبة .

فدخلنا غرفة من غرف الرعب . فقد رأينا أكواماً من الجماجم البيضاء ، والصلبان العتيقة ، والأمتعة الخاصة بالأساقفة والمطارنة الذين ماتوا من أزمنة بعيدة . أما الكنوز الحقيقية فكانت لأكفان من الزجاج مغطاة بالقماش . وأزاح الراهب القماش جانباً فظهرت أربع موميات لأربعة من أباطرة إثيوبيا القدماء الذين حنطوا ليقضوا أبديتهم فى الجزيرة المقدسة وقد عبرت جثث هؤلاء الملوك بحيرة تانا العاصفة فوق قوارب من البردى ، تماماً كما كانت تنتقل جثث الفراعنة المحنطة فوق القوارب على صفحة النيل لدفنها . . .

خرجنا من هذه الزيارات للرهبان السود بحصيلة من الآراء والأفكار . فقد عرفنا أن قوارب البردى يجب أن تكون صغيرة ليسهل سحبها وتجفيفها بعد رحلة يوم واحد فى النهر . . . وكان هذا الرأى محالا بالنسبة للمحيط الذى ننوى أن نعبره على متن قارب مصنوع من نبات البردى . . أما القوارب الضخمة التى رأيناها فى بحيرة تانا ، فقد كانت مصنوعة من جزأين : قارب رفيع له مقدمة أو دفة منحنية، ووسادة سميكة من البردى لملء الفراغ . أما قوارب بحيرة تشاد فأكثر صلابة . والفرق بين الصناعتين أن رهبان بحيرة تانا حافظوا على الشكل الأصلى للقوارب الورقية فجعلوها خفيفة ، فى حين ركز صناع بحيرة تشاد جهودهم لكى تتحمل قواربهم الأحمال والأثقال . وفى طريق عودتنا إلى الشاطئ المقابل لبحيرة تانا عبرنا جزراً صغيرة ورأينا أعداداً من حيوان « سيد قشطة » ، وقال لنا الرهبان : إن هذه الحيوانات تمقت قوارب البردى وتقلبها إذا حانت الفرصة

لأنه كان يتم صيدها عن طريق هذه القوارب منذ أزمنة غابرة فى التاريخ .

وفى أقصى الجنوب الغربى لبحيرة تانا عثرنا على مستنقعات من نبات البردى . . . ومن بين أعواد البردى الطويلة سبحت طيور عديدة الأشكال والألوان والأحجام . وفى هذه المنطقة ، كما فى غيرها من المناطق ، كان يغلب على ظن الناس أن قوارب البردى لا تستطيع أن تمكث فى الماء أكثر من أسبوعين وإلا امتلأت بالماء ، وغاصت تحت الأمواج . وكان الحل الوحيد أمامنا أن ننقل أعواد البردى من بحيرة تانا ، وكذلك



قارب بردى يصطاد به صاحبه فى بحيرة زواى

صناع القوارب من تشاد، ونستخدم الرسوم التى ظهرت على مقابر قدماء المصريين للقوارب القديمة . . .

وفى اليوم التالى اتجهنا إلى بحيرة زواى بعد أن سلكنا طرقاً ضيقة ودورباً وممرات تسير عليها قطعان الحيوانات عند هجرتها كل عام من مكان إلى آخر . وعلى جانبى البحيرة رأينا مستنقعات من نبات البردى ومئات من القرود تلعب فوق أغصان الشجر، وسمعنا أصوات الضباع والطبول من بعيد . وأخذنا ننتقل من جزيرة إلى أخرى ونفحص قوارب البردى المختلفة الأحجام والأشكال وندون ملاحظتنا عن طريقة صناعتها . وعرفنا أن هذه القوارب تشبه قوارب البردى فى تشاد والمكسيك وبيرو . . .

وعدنا إلى مصر تتقاذفنا الهواجس وتختلط علينا الأفكار، فهل عبور الأطلنطى من الأمور الضرورية والمخاطر التى يجب أن يقدم عليها الإنسان . . . هل تساوى الرحلة هذا العناء الكبير ؟! . . .

الباب السادس

عالم بناة الأهرامات

قال الوزير المصرى موجهـًا إلىّ الحديث ومعنا سفير النرويج :

ـــ إن قاربـًا من البردى يغرق بعد أسبوعين . . . ليست هذه كلماتى بل هى لرئيس معهد البردى المصرى . ويقول علماء الآثار إن قوارب البردى لا يمكن أن تكون قد ارتحلت وراء مصب نهر النيل لأن البردى يذوب فى ماء البحر ويتحطم فى الأمواج . . .

فقلت معقبـًا :

ـــ هذا هو ما نريد أن نجربه تمامـًا . . .

لم يكن أمامى أى شىء أستطيع أن أقدمه ، أو أعرضه على بساط البحث غير أن أقوم بالتجربة مهما كلفنى ذلك من مشقة وجهد . ولا سيما قد وقف أمامى عدد من الخبراء فى نبات البردى . فوزير الثقافة ووزير السياحة قد بذلا مجهوداً كبيراً ، وعقدا اجتماعـًا حضره عدد من مديرى المتاحف ورجال الآثار والمؤرخين وخبراء البردى . وعرض رئيس معهد البردى رأيه بصراحة وكرره ، ولكنه قال مبتسمـًا : بما أنك قد رأيت قاربـًا من قوارب البردى يمخر عباب الماء فأنا أول من يشجعك أن تقوم بالتجربة . . .

أما فكرة أن قاربًا من البردى ، بالنسبة إلى رئيس متحف القاهرة ، يمكن أن يتهادى بين أمواج البحر فقد كانت فكرة طائشة ، لأنه قال : إن مصر كانت تصدر البردى إلى بايبلوس لصناعة الكتب فى العصور القديمة ، لأن القوارب الخشبية كانت تستطيع أن تعبر ذلك الركن الداخلى المفتوح من البحر المتوسط . أما أن يعبر قارب من البردى المحيط الأطلنطى فذلك يكاد يكون ضربًا من المحال ، وأى خبير يستطيع أن يقول إن مثل هذا القارب الورقى لا يستطيع أن يذهب وراء مصب النهر . . .

وتدرج النقاش من البردى إلى الأهرامات إلى الهيروغليفية على جانبى المحيط الأطلنطى وأخيراً قال الدكتور جمال محرز المدير العام للآثار المصرية[1] :

— إذا استطاع إنسان أن يبنى قاربًا من نبات البردى على غرار القوارب المرسومة على جدران حجرات الدفن ، ويحاول أن يجربه فما لا شك فيه أن هذه تجربة سوف تكون على جانب كبير من الأهمية . . .

وصرح على الأثر وزير الثقافة لمحافظ الجيزة أن يعطينا مساحة كبيرة عند سفح هرم خوفو لإقامة الخيام عليها لبناء القارب الورقى . وبشرط ألا نحفر فى الرمال ، وذلك لأننا سوف نكون فى وسط مقابر الأسر الفرعونية القديمة . وعندما انتهى الاجتماع ، وفى أسفل الدرج التقيت بوكيل وزارة السياحة عادل طاهر الذى هز على يدى بحرارة وقال :

---

(١) توفى بعد الرحلة .

ـ يجب أن تبنى القارب فنحن من أنصار تجربتك لأنها سوف تذكر العالم بأن مصر تصنع الثقافة . . .

ووجدتنى أخيراً واقفاً مع السفير النرويجى « بيتر أنكر Peter Ankar » وهو يبتسم ابتسامة عريضة، فبجانب عمله كسفير لبلادى ، يحب التاريخ القديم ويعشقه . وأخيراً جلست فى غرفتى ورحت أفكر . . . فليس أمامى وقت للانسحاب، أو التراجع ، وعلىّ أن أقرر فوراً وبسرعة خاطفة ولا سيما وأن مدخراتى لا تكفى للقيام بالمهمة ... ولكن ناشرى هذا الكتاب ربما قامروا على نتيجة الرحلة أو المغامرة . فماذا يحدث إذا لم نخرج من التجربة بنتيجة مرضية ؟

داعبت ورقة صغيرة بين أصابعى . ومر أمامى شريط طويل من الذكريات ، الرهبان السود ، ورجال القبائل المختلفة ، والعلماء ، وخبراء البردى ، كل هؤلاء لم يقدروا للقارب البردى غير أربعة عشر يوماً فى الماء يغوص بعدها إلى الأعماق . ولكنى مكثت ساعات طويلة فى قوارب مختلفة من البردى . . . كما جلست فى قارب تفكك فى الماء وكاد يغرق ... وكنت أعرف أن أعواد نبات « التوتورا » فى أمريكا أصلب من أعواد البردى تتحمل الرحلات الطويلة ولا تمتص الماء بسرعة كما يفعل البردى . . . .

وأمسكت بورقة أخرى وقرأت ما فيها :

« عزيزى ثور فى إيطاليا :

هل تتذكر عبد الله من تشاد ؟ إننى على أتم استعداد للحضور

لبناء قارب كبير مع عمر وموسى . ونحن فى انتظار أوامرك . . . وأنا أعمل حالياً نجاراً فى باستور آير بفورت لامى . . .

. . . مع تحياتى . . . عبدولاى جبرين (Abdoulaye Djibrine (abdullah

وارتسمت أمامى صورة عبد الله بوجهه الأسود الفاحم ، وضحكاته ، وآثار جرح على حاجبيه وأنفه ، وابتسمت للخطاب الرقيق ، وكان رائعاً من ذلك الرجل الأمى فى قلب أفريقيا الوسطى أن يبحث عن عنوانى ويدعونى إلى العمل . . . ولكن لماذا ترددت ؟ . فعبد الله على أتم استعداد للحضور ومعه عمر وموسى. فهم يبنون القوارب الكبيرة لنقل الماشية عبر بحيرة تشاد ويعرفون عن قدرتها ما لم يعرفه أساتذة هذا العالم .

وهم على استعداد لبناء قارب يطفو على وجه المياه لعدة أشهر . لقد وضع خطاب عبد الله حداً لترددى وعلىّ أن أعتمد على رجال من تشاد . . .

وفى هذه الليلة أبرقت لصديق لى فى أديس أبابا ، يمتلك قاربين كبيرين فى بحيرة تانا ، وكنت قد اتفقت معه على أن يقطع مائة وخمسين متراً مكعباً من أعواد البردى يجففها ويحزمها فى الطرف الشمالى من البحيرة، ولهذا الرجل خبرة فى نقل الأثقال، فقد سبق أن نقل حجراً أثرياً وزنه ١٨٠ طناً من أكسوم إلى روما فى عام ١٩٣٧ . وقرر صديقى «ماريو بوتشى » Mario Buschi أن ينقل خمسمائة حزمة من البردى مسافة ٤٥ ميلا عبر جبال إثيوبيا من بحيرة تانا إلى البحر الأحمر . . .

لم يكن أمامى وقت أضيعه . فعيد الميلاد يقترب . وإذا كان علينا

أن نعبر الأطلنطى قبل موسم الأعاصير فيجب أن نبحر من أفريقيا فى شهر مايو . وظهرت أمامى مشكلة أخرى . فقطع أعواد البردى بهذه الكمية الضخمة سوف يستغرق وقتاً طويلا لأن المياه عالية فى بحيرة تانا فى ذلك الوقت . فطول العود الواحد يزيد على عشر أقدام ، ويجب أن تقطع تحت الماء ، ثم تجفف فى الشمس وإلا تعفنت. بعد ذلك تأتى مرحلة شاقة،أى نقلها عبر جبال إثيوبيا وأخيراً إلى البحر الأحمر . . . وقبل أن تصل إلى القاهرة لا بد من إقامة الخيام وإمدادها بكل وسائل الراحة عند سفح الأهرامات . فإذا تم بناء القارب كان علينا أن ننقله إلى أى ميناء أفريقى على ساحل الأطلنطى مستخدمين الميكانيكية المصرية القديمة فى إدارته والإبحار به بعد ملئه بقوارير الماء والطعام . والحق يقال ، كانت هناك ألوف الأشياء لا بد من إنجازها . . .

أرسلت البرقية إلى إثيوبيا ، وأخرجت ورقة وقلماً فلا بد من إدارة العجلة حالا والبحث عن بحارة ليشتركوا معى فى التجربة . . .

وفكرت فى الحال فى البحارة الذين عملوا معى على طوف البلزا — كون تيكى— الذى عبرت به المحيط الباسيفيكى،وكنا نتقابل بين وقت وآخر ونسترجع ذكريات الرحلة الغريبة — على هذا الطوف كنا خمسة من النرويجيين وسويدياً واحداً أى ستة من الإسكندنافيين . ولكن على قارب« رع » ، قررت أن يكون عددنا سبعة من البحارة من جنسيات مختلفة من الأوربيين والأفريقيين . وأن يكون معنا خبير فى صناعة القوارب ، ولما كان هدف الرحلة إثبات أن اتصالا قد تم بين الحضارتين القديمتين

لأفريقيا وأمريكا، فمن الأفضل أن يكون معنا مصرى ومكسيكى ومندوب من الولايات المتحدة وآخر من روسيا، وأن يرتفع علم الأمم المتحدة على القارب بعد الحصول على الإذن بذلك .

وفوق أبى الهول والأهرامات كانت النفاثات الحربية تهدر وترعد والمدافع تقصف على طول قناة السويس والجنود من القارات الخمس يتقاتلون فى حرب ضروس فى بلد أجنبى . . . وفى الأماكن التى لم تصلها الحروب كان الرجال يجلسون وراء الأزرار الذرية فى خوف من الدول الأخرى . ولكن على قارب مصنوع من نبات البردى كانت الصورة تختلف ، فيه مكان يلتقى فيه مندوبو الأمم والشعوب المختلفة ، ويعيشون تحت سقف واحد فى وئام وسلام . لقد كان الهدف من الرحلة أن تكون تجربة ودراسة لحضارة الإنسان التى بدأت تتصدع . فأرض أجدادنا لم يعد لها وجود فقد ازدحمت الأرض بالناس والنفاثات ورجال الفضاء . وأصبحت الكرة الأرضية محدودة يدور حولها الإنسان فى ساعة واحدة وأربعين دقيقة . ولم تعد الجبال وسلاسلها تفصل بين الأمم والشعوب ، ولم تعد الأجناس مستقلة أو معزولة ، فالكل متصل بالكل ، وأصبحت الأرض مزدحمة . وفى الوقت الذى يعمل فيه مئات الألوف من الخبراء فى تحطيم الذرة وإشعاعات ليزر ، فإن عالمنا الصغير يدور بسرعة تزيد على سرعة الصوت نحو مستقبل غامض ، لذلك شرعنا نعمل لتحقيق أمل قد يكون واهياً . . .

إن فكرة الإقلاع بقارب من البردى محاولة لإثبات أن الرجال يمكنهم

أن يعملوا معاً فى سلام بغض النظر عن جنسياتهم ودياناتهم وألوانهم أو معتقداتهم السياسية . لهذا السبب بدأنا العمل . . .

تناولت قلمى وكتبت إلى عبد الله وطلبت إليه أن يحضر ومعه عمر وموسى ، وسوف أكون فى انتظارهم عند وصولهم إلى القاهرة . . . ولدهشتى وصلنى الرد بسرعة ، وطلب عبد الله شهادة عمل ومائة وخمسين ألف فرنك تشادى . وكان المبلغ ضخماً حتى إن البنك الأهلى فى إيطاليا لم يعرف سعر التحويل للفرنك التشادى . أضف إلى ذلك أن مشاكل عديدة سوف تقوم قبل أن يصل المبلغ سالماً إلى يدى عبد الله جبرين . لقد وثقت بهذا الرجل من أول وهلة ، وبدون أن أعرف عنه شيئاً ، غير أنه رجل فى رداء أبيض ظهر فى قرية بول ، ومن مكان مجهول ، ثم اختفى مرة أخرى، بعد أن تطوع ليعمل مترجماً فى أثناء زيارتى لبحيرة تشاد . وكما يقول الرجل فحرفته نجار وإذا كان لا يخدعنى حقيقة ، فسوف يوفر علىّ الوقت والمال . . .

تطور الموقف، فبوتشى الإيطالى سيقوم بشحن حزم البردى، وعبد الله وبناة القوارب سوف يصلون إلى القاهرة . فأسندت إقامة المعسكر عند سفح الأهرامات إلى صديقى المدرس الإيطالى « أنجلوكوريو» Angelo cario الذى اتصل بدوره بصديقه العقيد المتقاعد عطية أسامة ليحصل على الإذن الخاص بتفريغ شحنة حزم البردى فى منطقة السويس .

بدأت العجلات تدور حقاً فى دولة بعد أخرى ، وعثرت على إيطالى ومصرى ، وزنجى من تشاد ، على أن أختاره من بين الرجال الثلاثة

يستيقظ ليقوم بنصيبه فى عمل النهار . . .

ومرت الأيام والقارب يمتص المزيد من مياه البحر . وكان وزن القارب وحباله اثنى عشر طنًا ، ثم أضيفت إليه أطنان أخرى ، ومع ذلك ظل صامداً طافيًا كجزيرة من الجزز الصغيرة . وكان أثقل ما فيه صاريه الضخم وطن الماء العذب المحفوظ فى الأوانى الفخارية . وكان كل يوم يقضيه القارب فى الماء يضيع من حياته طبقًا لما كان يقوله الخبراء . وموسم الأعاصير على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى يقترب هو الآخر بخطى حثيثة .

قررنا بدء الرحلة بدون أدنى تأخير . وانضم إلينا عدد من القباطنة لتحريك القارب ووضعه فى الخط الصحيح بعد أن أمضى ثمانية أيام بأكملها فى ماء البحر أو أكثر من نصف حياته كما كان يقول الخبراء . وفى الساعة الثامنة صباحًا من يوم ٢٥ مايو ارتفعت الأعلام فوق السفينة « رع » وهى تتهادى فى ثقة وإيمان متجهة نحو مياه الأطلنطى ومن حوله الريس فتح أو العملاق الأسود فى قوارب مع عدد من معاونيه ليخرج « رع » من الميناء .

وانضم إلى القارب قرد صغير جاء من جبال أطلس فأطلقنا عليه اسم « صافى » . وتعلق القرد بصارى القارب ولم يهبط منه إلا بعد وقت طويل . . . وكانت لحظات الوداع مثيرة ، ونحن نهبط إلى سطح القارب واحداً وراء واحد . وانطلقت صفارات السفن من حولنا ، وتعالت أصوات المودعين كقصف الرعود ، كما اندفعت خلفنا مراكب الصيد واليخوت ، ومن فوقنا طائرة السفارة ، وأخرى هليكوبتر جاءت من العاصمة الرباط .

ولأول مرة رفعنا شراع « رع » الضخم الثقيل والمصنوع من القماش المصرى القوى . وكان ارتفاعه ٢٦ قدماً وعرضه ٢٣ قدماً . ودفعت الريح الشراع ثم أصبح ساكناً يعرض قرص الشمس الكبير كرمز لرع . . . فى حين ارتفعت الأعلام بحسب ترتيبها الأبجدى : تشاد ، مصر ، إيطاليا ، المكسيك ، مراكش ، النرويج ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وعلى الجانبين علم الأمم المتحدة . . .



القرد صافى رفيق الرحلة جاء من جبال أطلس

وقفت مع عبد الله نمسك بالدفة على الجسر الخلفى للمقصورة الرئيسية ننظر بشغف وإمعان إلى أمواج البحر ، وهى تتحطم عند أقدام الحاجز الصخرى الكبير خارج الميناء على بعد مائة ياردة منا . فهل كنا نقترب من الأرض ؟ فألقينا فى الحال بحبل إلى أقرب مركب صيد فامتلأ الشراع بالهواء واندفع القارب بسرعة هائلة فى خط مستقيم . خارجًا إلى البحر . وبهذه السرعة الجنونية كنا نخالف قوانين الطبيعة ، فكان أول ما حدث أن شبكة بها جراد البحر « لبستر » حتى اندفعت نحونا واشتبكت بالدفة ، فكادت تتحطم . فعملنا فيها بخناجرنا وأنقذنا الدفة من التحطيم . وكان الشىء الثانى الذى حدث أن أحد المجاديف الثلاثة التى ربطناها على جانب « رع » قد انفصل من مكانه بسبب السرعة الخاطفة . . .

بدأت الريح تهب ببطء شديد ، ثم ازدادت سرعتها تدريجيًا . وكنا لا نزال قريبين من صافى ومن بيوتها المنتشرة هنا وهناك . وبدأنا نفكر ماذا سيحدث لدفة السفينة تحت وطأة هذه الريح العاتية . وكان أملنا الوحيد أنه وراء الساحل المراكشى سوف تحملنا الريح والتيار مباشرة من الساحل ، وبذلك نمضى أسبوعًا أو أسبوعين بدون أن تقذف بنا الأمواج إلى الصخور ، وكان خوفنا شديداً من الساحل وليس من البحر المفتوح . . .

لقد صممنا دفة قيادة « رع » طبقًا للنماذج المصرية القديمة المختلفة ، وحاولنا أن نحصل على صار من خشب الأرز فى لبنان الذى كان يستعمله المصريون فى مجاديفهم وصواريهم . لكن جهودنا ذهبت أدراج



وحده فى المحيط .. القارب «رع» بعد أن غادر ميناء آسفى بالمغرب

الرياح ، لأن ما تبقى من هذه الأخشاب النادرة قد حفظ فى حديقة خاصة فاخترنا شجرة مصرية للصارى والمجاديف . . .

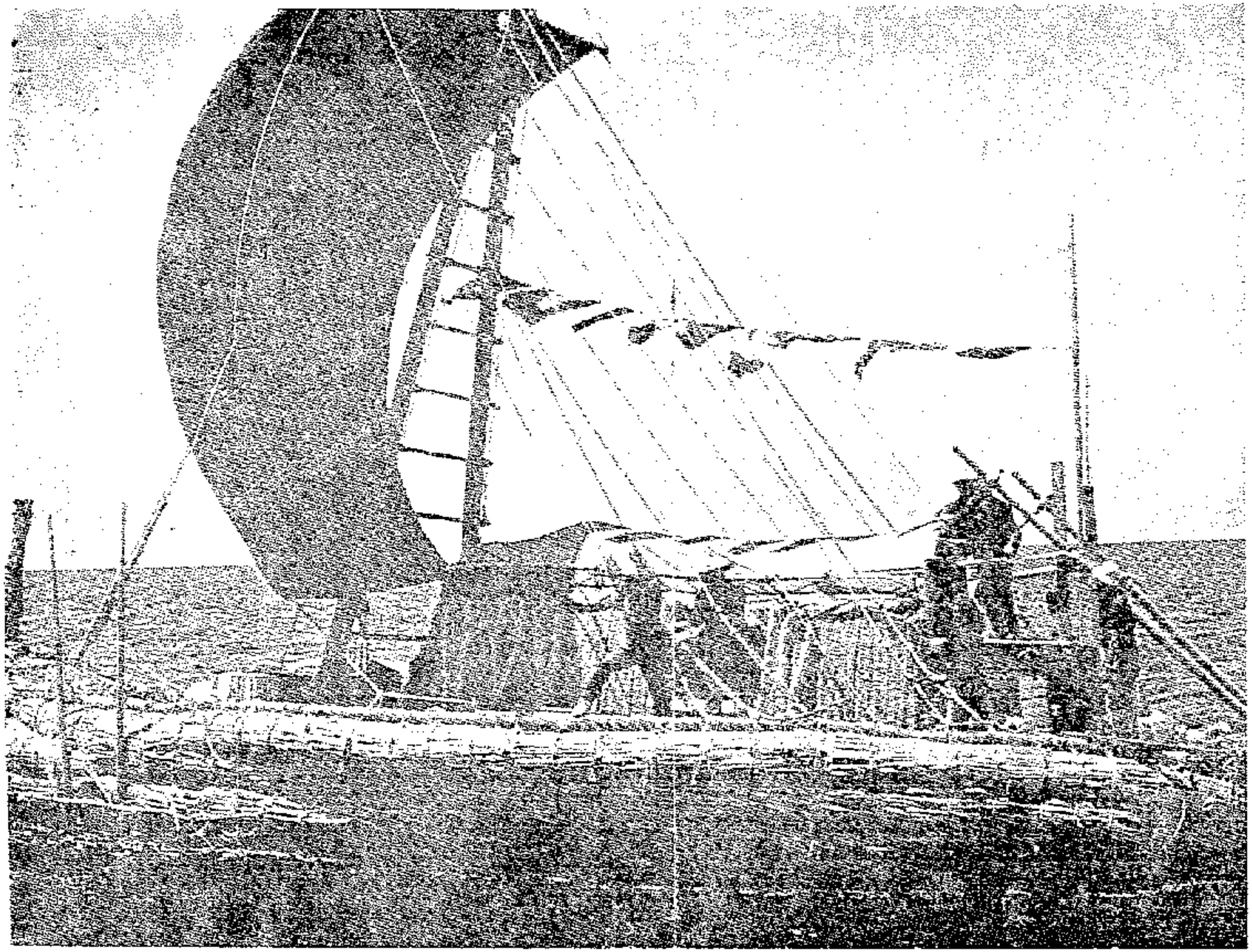
وصمد « رع » للريح ، واتخذ طريقه الصحيح ، واختفت من حولنا مراكب الصيد ، والهواة ، وكذلك الطائرات . وأصبحنا وحيدين فى البحر المفتوح الممتد أمامنا . . . سبعة رجال وقرد وقفص خشبي به دجاج صياح و بطة واحدة . . . وشاع الهدوء من حولنا وكأننا فى فلك نوح .

ازدادت سرعة الريح ، وبدأت الأمواج تعلو وتتجه نحو « رع » الذى رفع أحد جانبيه ليدع الأمواج تمر من تحته . وبين وقت وآخر كانت الأمواج تتجة مباشرة نحو المجاديف ، فيخفف عبد الله قبضته الحديدية عليها ، حتى لا يحطمها الضغط المائى العنيف . ومر كل شىء على ما يرام ، وارتفعت معنوياتنا ، وبدأنا نحتسى القهوة ، وأصبحت الحياة فى البحر وكأنها الحياة فوق قمم الجبال . . .

كانت سرعة « رع » لا تزيد على ثلاث عقد[١] فى الساعة ، وبدأ الساحل يختفى رويداً رويداً ، وأشرفت الساعة على الثالثة والربع مساء عندما تركت الدفة أنا وعبد الله لرفيقين آخرين — جاءت نوبتهما فى القيادة — فتناولها كل من كارلو وجورج . ودخل عبد الله المقصورة لينام ، فى حين رحت أفحص السطح المزدحم بالأوانى الفخارية ، وجلود الماعز وسلال الخضراوات . وبعد أن قمت بهذه الجولة ، ذهبت لأنام لأول مرة بعد

---

(١) العقدة = الميل البحرى أى ١٨٥٢ متراً تقريباً .   (الناشر)



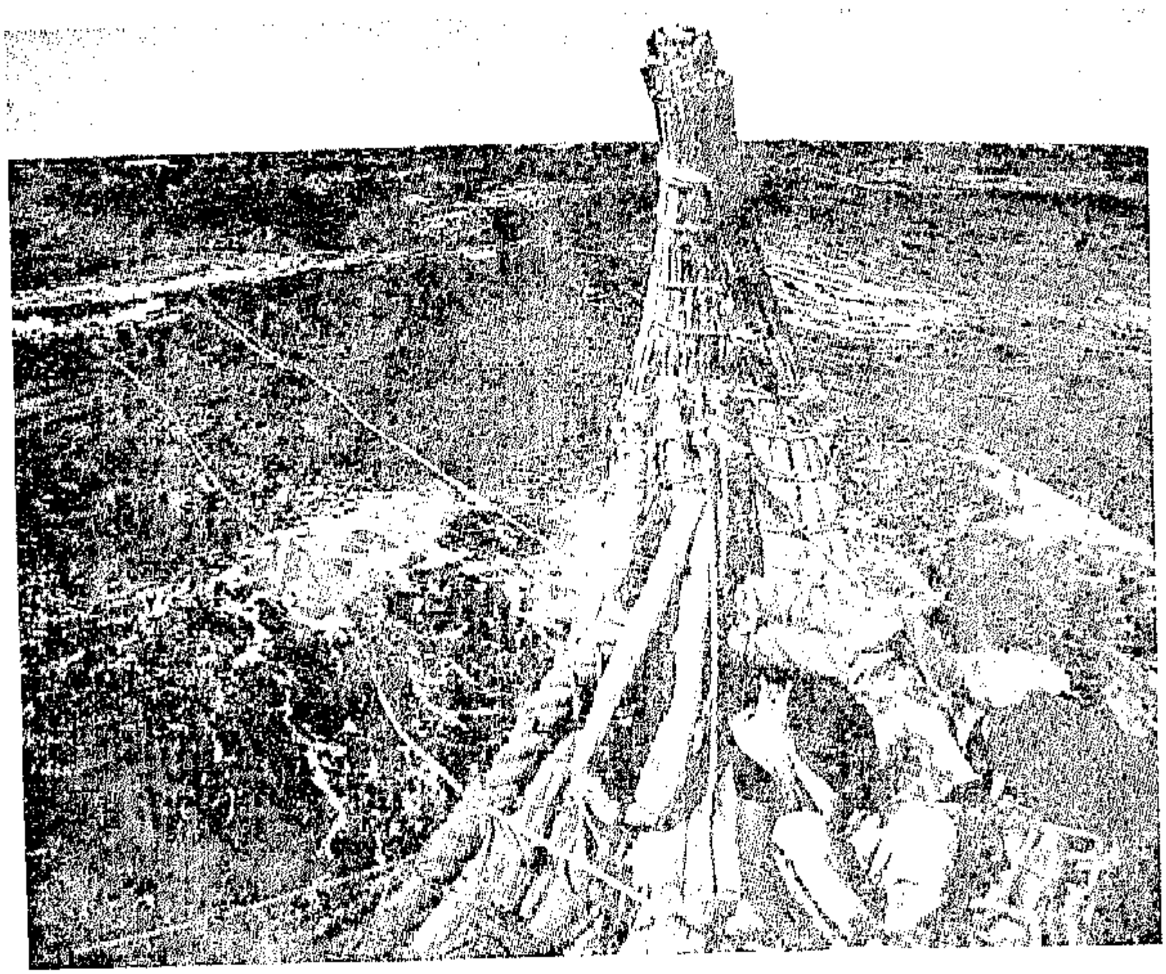
القارب العظم رع وعلية بحارته يحاولون حمايته من عنف الرياح

عدة أسابيع من الشغل الشاغل ، والعمل المتواصل . وما كاد النوم يداعب جفونى حتى سمعت صوتًا ينادينى ... « ثور ... ثور » فقفزت على الأثر ، وقد ازدحمت الأفكار السوداء فى رأسى ، وأشار يورى نحو الدفة وقد تعلق بها الرجلان وهما يصرخان طلبًا للنجدة . ومد جورج ذراعه وصرخ بالإيطالية : « إن الدفة قد تحطمت ! » ولحسن الحظ كنا قد ربطنا حبلا بكل مجداف على الطريقة المصرية القديمة ... ومع ذلك كان « رع » يتقدم ثابتًا فى طريقه المرسوم ...

لقد تحطم مجدافا الدفة ويمكننا استخدام الطريقة القديمة التى كان يستخدمها شعب الإنكا فى قيادته للقوارب فى داخل البحار ... واستيقظ عبد الله من نومه هو الآخر على أصوات الضجيج ، وعلت ضحكاتنا . فقد أصبح القارب يقود نفسه بنفسه بدون حاجة إلى دفة ترشده وتقوده . وكان علينا والحالة هذه أن نجلس فى المقصورة ونرقب البوصلة والأجهزة الملاحية الأخرى ...

اتجه القارب نحو الجنوب الغربى فى الطريق الذى كنا نريد أن نسلكه وهو نفس الطريق الذى اتخذه القارب طوعًا واختيارًا ، وهو مرفوع الشراع ، شامخ الرأس ، ونحن على سطحه ننعم بلذة السفر كأى ركاب عاديين . وقلت لمن معى إن ما حدث لنا هو من تصاريف القدر وحسن الطالع . وكان علينا أن نفسح الطريق لأمنا الطبيعة تفعل ما تشاء ، وبرغم أنه كان لدينا دفة أخرى فوق القارب ، لكننا فضلنا ألا نضعها خوفًا عليها من التحطيم لأننا بدأنا فعلا نعبر المحيط الأطلنطى العظيم ...

وفى المساء كان اثنان من البحارة أو الرواد قد أصيبا بالمرض ، فالبحار الحقيقى ، زميلنا الأمريكى ، قد أصيب بالأنفلونزا ، والعالم سانتياجو أصيب بإكزيما جلدية ، وكان القارب يتجه بجد وإصرار نحو جزر كنارى . وخاف الطبيب يورى أن يكون سانتياجو قد أصيب بمرض « تينا » Tinea وهو مرض قاتل منتشر فى شمال أفريقيا . . .



اندفعنا بالقارب نحو الجنوب على طول الساحل
الأفريقى بدون شراع أو مجداف

عندما أرخى الليل سدوله علق كارلو مصباحاً فوق الصارى حتى لا تصطدم بناء السفن العابرة . وكانت وردية الليل مقسمة بين إيطاليا ومصر والنرويج . فروسيا قد بذلت أكثر مما يلزم فى رعايتها للولايات المتحدة والمكسيك . وفضلنا أن نترك النجار الذى جاء من تشاد يستمتع بنوم هادئ طويل حتى يستطيع أن يصلح من أمر الدفة فى الصباح ، فأمامه عمل مرهق شاق .

وهددتنا الرياح التى أخذت تهب من الشمال الغربى ثم من الغرب الشمالي،ومكثت طول الليل وأنا أرقب الفنار البعيد ، وهو يتلألأ بضوئه القوى فى الظلام ، حتى اختفى هو الآخر تماماً . . . وما دام الظلام قد حل لم أجرؤ على أن أغادر المكان . وكان على أن أحملق فى الظلام باحثاً عن بصيص من نور ، وكلما رأيت نور قارب أو سفينة انخلع قلبي من مكانه،فهل كان هذا الضوء منبعثاً من الشاطئ ، وهل نتجه بهذه السرعة والعنف نحو المبانى ؟ : وما دامت المياه من حولنا فلا خوف علينا من أى كارثة . . .

وعندما ظهر الفجر فى الشرق واختفت الأرض تماماً من حولنا رأيت يورى وقد ارتدى رداء سميكاً وجلس يبتسم ، فاندفع كل منا إلى فراشه لينام ، ولندع حزم البردى تشق طريقها فى إصرار وعناد وثقة واطمئنان . لم أكن وحدى الذى أرهقه التعب، فلم يغمض لى جفن خلال يوم كامل . ومر اليوم الأول ونحن على القارب الورقى « رع » . . .



مجدافا الدفة بعد أن تحطما وعبد الله جبرين يحاول تقويتهما بالحبال

الباب الثامن

من الساحل الأفريقي إلى (كيب چوبى)

صاح الديك ، وشممت رائحة عشب جاف ، وقلت فى نفسى إننى لا بد فى ضيعة من الضياع . ولكن الحقيقة لم تكن كذلك لأننى كنت محمولا على محفة . فقد استيقظت وأنا فى زكيبة النوم . وسمعت صوت المياه وهى تندفع من تحتى ، والأمواج ترعد فى أذنى . وحقيقة الأمر أننى كنت فى قارب . وفتحت عينى فرأيت الأمواج الزرقاء من خلال فتحات حائط البامبو . وكنت فوق القارب « رع » . أما رائحة العشب الجاف فقد انبعثت من الوسادة السميكة التى كانت محشوة بالعشب المراكشى الجاف . . .

وصاح الديك مرة ثانية ، فركعت على يدى وركبتى وزحفت إلى حائط البامبو ، لألقى نظرة ، فإذا بنا على مقربة من الساحل ، ولم أر غير أمواج تعلو وتهبط ، فواصلت زحفى إلى الأمام . وكان الهواء بارداً مثلجاً ، ويورى جالساً على الجسر وكأنه إسكيمو يدون بعض الملاحظات : ولا بد أننا قد توغلنا فى البحر لأن ريح الشمال بدأت تهب ومعها ترتفع الأمواج إلى اثنى عشر قدماً فسألنى يورى : أين نحن الآن ؟ فقلت : الله وحده يعلم . واستيقظ عبد الله وتبعه جورج ، والتففنا حول كارلو ،

الذى أعد لنا طعام الفطور . وسألنى جورج بدوره : أين نحن ؟ . . ؟ فقلت لا أدرى . أغلب الظن أن الساحل الذى نراه للقارة الأفريقية . فعاد يسأل : ولكن كيف عرف القدماء الطريق بدون بوصلة ؟ . . .

فقلت : كانوا يعرفون الطريق أو الشرق والغرب بالنظر إلى الشمس ، وكذلك الشمال والجنوب من النجم القطبى وصليب الجنوب – أربعة نجوم لامعة – وكذلك كانوا يعرفون خطوط الطول بقياس الزاوية من الأفق إلى النجم القطبى ، فهى دائمًا على زاوية تسعين درجة نحو القطب الشمالى وهى تمس الأفق مباشرة إذا كنت تنظر من خط الاستواء . . .

فإذا كنت عند درجة ٦٠ شمالا فإن النجم القطبى يصبح على درجة ٦٠ فوق الأفق . وإذا كنت على درجة ٣٢ فإن النجم القطبى يصبح أيضًا على درجة ٣٢ وهكذا . وإذا رأيت النجم القطبى تستطيع فى الحال أن تعرف خط الطول منه مباشرة . وكان الفينيقيون وسكان جزر شرق أستراليا والفايكنج يعرفون خطوط الطول بالتقريب ، وذلك بحساب المسافة تبعًا لسرعة السفن . وكانت تيارات المحيط غير المنظورة عاملاً مشكوكاً فيه ما داموا لا يرون الأرض . . .

وفى المتحف المصرى بالقاهرة رأى جورج الأجهزة التى كان يستعملها قدماء المصريين منذ آلاف السنين لقياس زوايا الأجسام السماوية ، وكم كان النجم القطبى والشمس من أهم الأشياء فى حساباتهم الفلكية والمعمارية .

كان شراب « الكركديه » المصرى الذى قدمه لنا كارلو ضمن طعام الفطور مثل شراب التوت الساخن ، وكان الخبز المصرى « كالبسكويت »

من أجود أنواع الخبز الذى أكلناه ونحن على ظهر القارب « رع » . . .

وفى داخل القارب كان نورمان وسانتياجو لا يزالان مريضين . وكانت مشكلة سانتياجو أن الرطوبة فى « رع » أصبحت عالية جداً ، مما جعل محتويات القارب كلها مالحة ، وكان جلده يؤلمه أشد الألم ومع ذلك كان الرجل يقاوم فى صمت .

كان القارب « رع » فى شكله الغريب يشبه وحشاً مائياً يمخر عباب الماء ويخيف كل من يعترض طريقه . وكان أغرب ما فيه صاريه الضخم وشراعه الكبير ، أو كأنه زعنفة سمكة تعلو وتهبط بين الأمواج . . .

بعد مرور اليوم الأول صدمنا صدمة عنيفة عندما جاءنا النجار عبدالله ومعه شريط القياس وأخبرنا بأن جسر القيادة تقلص بقدر ثمانى بوصات من حائط المقصورة ، وفى أماكن أخرى ضغطت بطريقة قد تؤذى أصابع القدم إذا سقطت بينها ، لذلك كان علينا أن نسير بحذر شديد ونرقب عن كثب تصرف القارب الورقى خلال الرحلة التى قد تمتد إلى أسابيع ونحن فى يومنا الثانى . . .

ومن خبرتى السابقة فى رحلتى على الطوف « كون تيكى » الذى عبرت به المحيط الباسيفيكى تعلمت أنه لا بد أن يلف كل واحد منا نفسه بحبل خوفاً من أن تقذفه الريح إلى الموج ، لأن أى سباح ماهر لا يمكن أن يلحق بنا ، والريح تدفع القارب دفعاً وبسرعة تكاد تكون جنونية . وبرغم أننا كنا نحتفظ بصندوق كبير به أطواق نجاة إلا أننا ما كنا لنستخدمها إلا فى حالة الطوارئ القصوى . وكان القانون الأول الذى

التزمنا به أن نظل على ظهر القارب . وألا نتحرك من مكان لآخر من غير هذه الحبال الملفوفة حولنا وفى نهاية الحبل خطاف . وطبقت هذا القانون بحرفيته بصرف النظر عن نوع الجو الذى كنا نعيش فيه كل يوم . . .

بدأت الريح تهب بعنف ، وبدون دفة فى القارب . وكان من العسير علينا السيطرة عليه سيطرة كاملة . ومع ذلك فقد كان « ر ع » يجرى فى الاتجاه المضبوط . واشترك معى عبد الله ، بعد أن أدى فروض الصلاة ، فى ترميم المجاديف وربطها بأعمدتها . كما اشترك معنا كارلو . وبعد مرور وقت استطعنا أن نرمم المجداف الأول عندما ازداد هبوب الريح مما هدد بتحطيم الصارى من أعلاه . وحاولنا أن نطوى الشراع ، ولكننا عدلنا عن هذه الفكرة خوفاً من أن يطير ويقع فوق الأمواج . وكان علينا والحالة هذه أن نعيد القارب إلى طريقه الصحيح ، وذلك بتحويل الشراع .

وفوق السطح رأيت إبرة البوصلة تتحرك ببطء شديد . وبعد مجهود مضن عنيف بذله كل بحار فوق القارب الورقى استطعنا أن نتغلب على حدة الريح ، ونندفع به فى الاتجاه الذى يكفل لنا البقاء فوق صفحة الماء الموجاء . وكنا فى بعض الأحيان نندفع بسرعة نحو الساحل الأفريقى ، ثم نجذب الحبال ، ونحول اتجاه القارب فى محاولة للعودة إلى الاتجاه الصحيح ، وبدون مجاديف الدفة كان القارب يرفض أن ينصاع لأوامرنا . وكان الشراع يدفع به نحو الجنوب الشرقى أو الجنوب الغربى ،

ولا شيء بينهما ، وكلما هاجمتنا الريح اتجه أنف «رع» نحو الجنوب الشرقي ، حتى أصبح الساحل الأفريقي البعيد قريباً منا . . . وهكذا رحنا نتخبط شمالا ويميناً . . . كل واحد منا متعلق بحبل حتى القرد صافي اختار له حبلا وتمسك به . . .

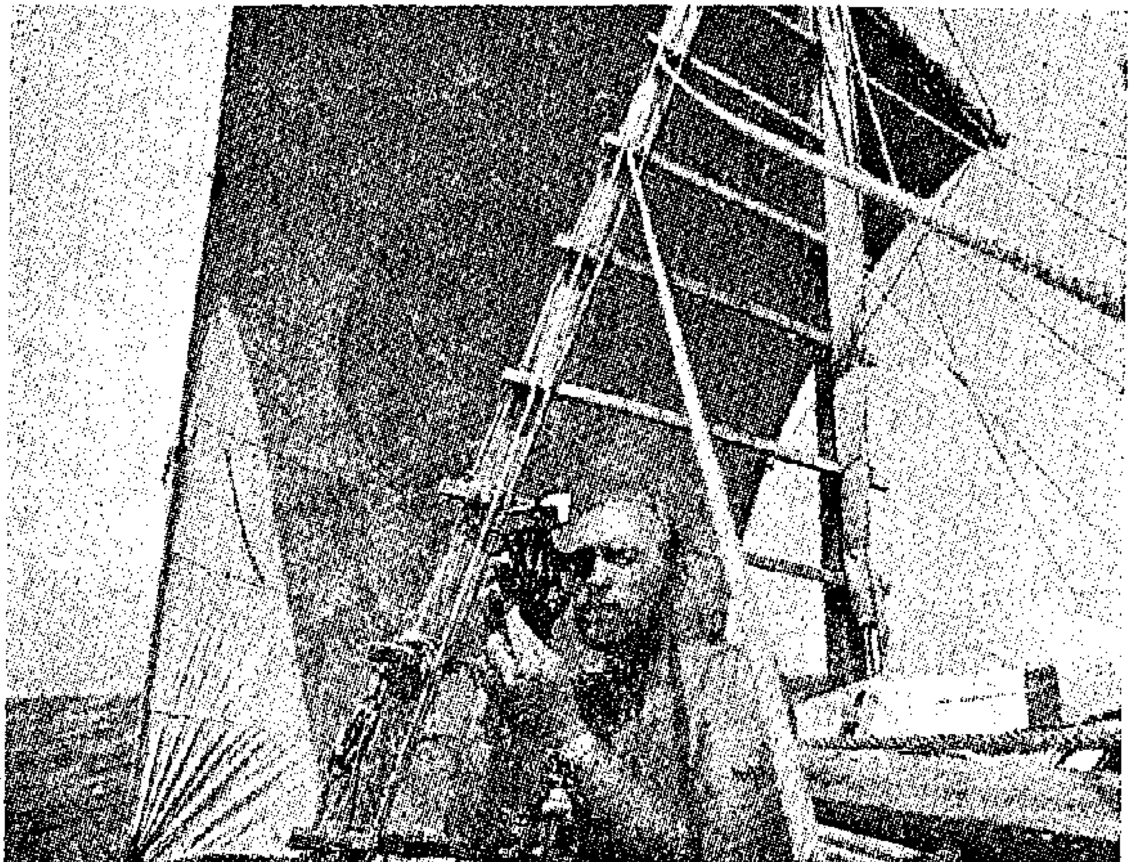
لم تهدأ ثائرة الريح طول اليوم فقررنا أن نحل الشراع أو نهبط به قليلا . ولكن الريح لم تمهلنا فطار الشراع ، فتعلقنا به جميعاً خوفاً عليه من الضياع أو الطيران فوق أمواج البحر العالية . وتشقق الصاري من أعلاه ، وتفككت الحبال الملفوفة حوله ، وتبعثرت أكوام البردي هنا وهناك . حتى خيل إلينا أن القارب على وشك أن يتفكك . ولعل الغريب أن أقوى شراع في العالم ، ما كان ليتحمل عنف هذه الريح العاتية بدون أن يتحطم الصاري . . . وبعد مجهود مضن استطعنا أن نجذب الشراع ، بوصة بوصة . وأثناء هذه المحاولة الجبارة فلت منا مجداف ، وسرعان ما احتوته الأمواج ، وقذفت به بعيداً عن القارب . وبعد أن استعدنا الشراع هدأ القارب وسار في طريقه المرسوم بعيداً عن الساحل .

ونظرت إلى كارلو وقلت : لقد أصبحنا من غير شراع ودفة . ولم يبق على هذا القارب شيء يستطيع أن ينفذ ما يصدر إليه من أوامر بشرية . . .

الطبيعة هي سيدة الموقف الآن تدير القارب حسبما تراه . . . وبمجرد أن نتوقف عن محاربتها فسوف نستريح ونمتع أنفسنا على قدر استطاعتنا . . .

وبدأنا ننظر حولنا . . . كل شئ هادىء . . . لا شراع ولا محرك ولا متاعب . . . وها نحن فوق قارب من البردى تتقاذفه أمواج المحيط وتياراته وتدفع به إلى الطريق الذى يحلو لها . . .

وزحف عبد الله على ركبته وجلس مسنداً ظهره إلى حائط المقصورة وجهاز الراديو الترانزستور على أذنه . أراد جورج أن يصطاد بعض السمك بينما تناول يورى برتقالة وراح يصنع لنفسه كأساً من الشراب . وأخذ كارلو يعبث بمحتويات السلال ليعثر على طعام مناسب واستلقى سانتياجو فى المقصورة يحصى القوارير التى كانت تحتوى على البلح والزيتون والبيض . . .



نورمان البحار الأمريكي يعلن أننا نتجه نحو كيب جوبي وهو ينظر خلال جهاز قياس الزاوية

لم يعثر صاحبنا جورج على سمكة واحدة وسط ذلك الجسم المائى العظيم ، لكنه اقترح علينا فكرة ممتازة لماذا لا نقيم شراعًا ؟ فمهما كان صغيراً فإنه سوف يدفع القارب. ونجحت الفكرة . وامتلأ الشراع بالهواء واتجهنا بالقارب نحو الجنوب الغربى ، ومرت خمس عشرة دقيقة بعد تركيب الشراع الجديد فى عصر اليوم الثانى عندما هبت ريح شديدة صفعت الشراع صفعة شديدة تلتها صفعة أخرى كاد يتحطم بعدها الصارى ، وفى الصدمة الثالثة تحطم الصارى وسقط على السطح كأنه قطع من مخالب وحش غاضب . . .

ومرت بقية اليوم بهدوء ونحن فى داخل المقصورة بينما الريح تزأر فى الخارج . ولم يقع نظرنا على سفينة واحدة . وتقاسمنا الحراسة الليلية ، ولم نكن لنخاف شيئًا غير الاصطدام بالسفن أو الشاطىء ما دمنا ندور حول الشاطئ الأفريقى . وبعد منتصف الليل بنصف ساعة فقط استيقظت مذعوراً وقد انكفأ فوقى كارلو ، وهو يهزنى بعنف ، وفى يده مصباح زيتى . وهمس الرجل فى أذنى بأن أضواء قد ظهرت على طول الأفق ، فقد جرفنا التيار جانبًا . فأسرعت خارجًا ، ورأيت أنواراً كثيرة .. فلا بد أنه شاطئ مراكش . ويبدو أننا كنا نقترب من الأنوار بسرعة خاطفة . . . وخرج الرجال الآخرون على الأثر ليروا ماذا حدث وكان علينا والحالة هذه أن نجدف بالقارب لإنقاذ أنفسنا من الاصطدام بالصخور . يبدو أننى وكارلو رأينا نوراً أخضر ظهر فجأة ثم تبعه نور أحمر وفهمنا على الأثر أن أسطولا مبعثراً من مراكب الصيد ذات القلع

الواحد تتجه نحونا . . . وعاد البحارة إلى داخل المقصورة بعد أن اطمأنوا ، وبعد قليل مرت أمامنا ثلاثة قوارب ، ومرق القارب الرابع بخفة وبذلك نجونا تماماً من احتمال اصطدام هذه القوارب بنا ، ثم اختفت من أمامنا فى الظلام . . .



جورج سوريال يقطع بسكينة قطعة من اللحم المجفف

وكان اليوم الرابع دافئاً وهادئاً أيضاً . وظهرت الشمس من بين طيات السحاب ، لم نر فيها بوضوح سلسلة من الجبال على البعد . وبرغم افتقارنا إلى الأجهزة التى تحدد مكاننا بالضبط وبرغم فشلنا فى الاتصال بميناء صافى ، فقد أكد لنا نورمان أننا لا بد سنعبر جزر كنارى ، وكنا

نجرى فى أخطر ممر مائى بين فورت فنتورا Fuerte Ventura وكيب جوبى . وأكد لنا كذلك سانتياجو الذى قضى شبابه فى جزر كنارى أن ميناء كيب جوبى Cape Juby كان بمثابة رعب قاتل[1] يعمل له البحارة كل حساب ، فالصخور المختفية فى الرمال كثيراً ما تبرز على هيئة لسان فى تيار المحيط الخطر عند ما يتجه الساحل الأفريقى نحو الجنوب . . .



تحطم إناء به بندق فسطا عليه القرد صافى

(١) يقع ميناء كيب جوبى أو « يوبى » على الساحل المغربى وكان الأسبان يسمونه « كابويوبى » . (الناشر)

كنا نجلس على كومة الشراع نأكل ، عندما سمعنا صرخة مدوية من عبد الله، بعد أن انتهى من طعامه واستعد للصلاة ثم ترامت إلى آذاننا هذه الكلمات : «خيول . . . خيول . . . لا، بل سيد قشطه». فنظرنا فى الحال إلى المكان الذى كان يشير إليه وبعد لحظة ظهر حوتان كبيران راحا ينظران بدورهما إلينا بعيون ناعسة ، ثم أطلقا نافورتين من الهواء والماء ، ولم ير عبد الله مثل هذه الوحوش فى بحيرة تشاد ، ورفع أحد الحوتين ذيله وكأنه يودعنا . . .

وفى الليل هبت الريح بعنف من جديد فتبادلنا الحراسة المزدوجة خوفًا من شواطئ « كيب جوبى » الرملية كما راقبنا الحبال بدقة تامة فلم يقطع منها حبل واحد ولم تفلت لفة من لفائف البردى من مكانها ، ولكن المقصورة بأكملها كانت منحرفة نحو الجانب الأيمن للقارب ، ولم يستطع واحد منا أن ينام على جانبه بدون أن يتدحرج ، أما البحارة الآخرون فكانوا ينامون كل أربعة فى صف واحد . . .

وظلت العاصفة تزمجر طوال الليل ، والأمواج ترتفع إلى خمسة عشر قدمًا . وفى صباح اليوم السابع بدأ « رع » فى حالة تفكك أو انهيار ، كما أن الرطوبة المنبعثة من البحر جعلت أعواد البردى تنتفخ وتصل إلى نقطة الانفجار . وكان من سوء حظ القارب أنه عانى فى هذه الأيام السبعة ما لم يعانه قارب آخر فى حياته البحرية . وكنا أكثر المخلوقات البشرية إعجابًا بهذا القارب الغريب الذى تحمل كل هذه المتاعب والمصاعب وتحدى العواصف والأعاصير ، وهو كومة من القش ... وعندما أعلن

نورمان أننا نتجه نحو الصخور كان علينا أن نختار بين أحد أمرين : أن ننشر الشراع فى مواجهة الريح الشمالية أو نذهب مباشرة فى اتجاه الأرض . وقررنا أن ننشر الشراع ونجحنا فى دفعه ووضع مجداف الدفة فى الماء . . .

وطرنا كسمكة طائرة فوق الأمواج بعيدين عن الأرض ، وبعد قليل سمعنا صوت طرقعة ، فقد انقسم المجداف القوى كأنه عود ثقاب . . . ولكننا برغم هذه المفاجأة استطعنا متكاتفين أن نحول القارب إلى مساره الصحيح بقية اليوم ، بدون أن يتحطم عود واحد من أعواد البردى أو تؤثر فيه العاصفة الهوجاء . . .

وفى اليوم السابع كانت السحب قد انتشرت فى السماء وفوق القارب «رع» . ومن بعيد لاحت السماء زرقاء اللون، فعرفنا أن جزر كنارى وراء هذه السحب ، واتخذ «رع» طريقه نحو السماء الزرقاء . . . اختفى الساحل الأفريقى تماماً من أمامنا ، لذلك قررنا أن نحتفل بالمناسبة ، فذبح عبد الله ثلاث دجاجات وكان اليوم الحادى والثلاثين من شهر مايو ، وقد قضى القارب فى الماء أربعة عشر يوماً بدون أن يحدث له أى خلل أو عطب ، بل على العكس كان قوياً لم يتحطم منه عود بردى واحد . وكنا قد أبحرنا لمدة أسبوع بعد أن تركنا صافى إلى (كيب جوبى) , أى أبعد من المسافة بين نهر النيل وبابيلوس Byblos فى المملكة الفينيقية . أو المسافة بين مصر وتركيا . وبذلك نكون قد أثبتنا أن المصريين كان فى استطاعتهم أن يمخروا عباب البحار والمحيطات بقواربهم المصنوعة من

نبات البردى فى أى وقت كان على سواحل آسيا الصغرى بلون معونة من قوارب مصنوعة من الخشب . . .

وفجأة سمعت من يقول : « بيوت بيضاء ! » فأسرعت لألقى نظرة ، فقد اقتربنا فعلاً من كيب چوبى . فى الوقت الذى كنا نحتفل فيه بنجاحنا كانت الأخطار كامنة تحتنا ، فقد مكثنا أسبوعاً كاملاً نصارع فيه من أجل الابتعاد عن الساحل ، وها نحن نقترب منه . . .

الباب التاسع

البحر يقوم بالمهمة

أصبحت جزر كنارى خلفنا . وفى ثمانية أيام كنا قد قطعنا نفس المسافة عبر بحر الشمال من النرويج إلى إنجلترا . والسفينة التى لا تفقد معركتها مع البحر فى مثل هذه الرحلة الطويلة يطلق عليها عادة « سفينة البحر التى لا تبارى » . وبرغم الدفة المحطمة ، والمجاديف المشقوقة ، والساحة المبتورة ، وبرغم وجود بحارة غير متمرنين ،أى غير معتادين ركوب البحر ، وبرغم قسوة العواصف والأنواء والأمواج العالية التى ترتفع كالطود الشامخ ، برغم ذلك كله فقد كان القارب « رع » خفيفاً نشيطاً مبتهجاً ...

فقد أبحرنا به فى أعالى البحار التى لا تشبه من قريب أو بعيد مياه النيل الهادئة . وعبرنا جزر كنارى بدون أن تلتقط عيوننا أى أثر للأرض .

والآن ، وقد تقوست السماء الزرقاء ، رأينا بوضوح بساط السحاب المحدود فوق الساحل الذهبى الأفريقى ، الذى أشار نحو المحيط الذى سوف نعبره . أما مكان جزر كنارى فقد حدده قطاع البراكين غير المنظورة التى ترتفع إلى اثنى عشر ألف قدم ،وقد دأبت على أن ترسل سيلا من الرطوبة إلى الأجواء العليا الباردة ، ثم تتركز فى سحب متعاقبة تحملها الرياح فوق البحر كأنها أشرطة من الدخان تنبعث من سفينة ضخمة .

أما عبد الله الذى لم يعرف جزراً غير تلك التى تطفو على سطح بحيرة تشاد ، فقد ارتعب عندما عرف أن هناك جزراً فى هذه البحار المائجة تعيش عليها مخلوقات بشرية . وأراد أن يعرف هل هم فى مثل لون بشرته أم بيض مثلنا . . . أما سانتياجو الذى عاش ردحًا من حياته فى جزر كنارى ، وهو أيضًا من علماء الأنثروبولوجيا – علم الإنسان – فقد تحدث إلينا طويلا عن الجوانشيين Guanches الغامضين الذين يعيشون على هذه الجزر عندما اكتشفها الأوربيون قبل أن تكتشف أمريكا . وكان بعض هذه القبائل الأصلية فى جزر كنارى سمر البشرة ، قصار القامة ، فى حين كان بعضهم الآخر فاتحى اللون طويلى القامة ، عيونهم زرقاء كزرقة البحر ، وشعورهم ذهبية ، ولهم أنوف قُنْو أو معقوفة . وفى إحدى اللوحات التى رسمت بالطباشير أو الپاستيل فى عام ١٥٩٠ ظهرت مجموعة من الجوانشيين بلحاهم الذهبية ، وشعورهم الطويلة المنسدلة فى موجات ناعمة على ظهورهم .

ويذكر سانتياجو أحد هؤلاء الجوانشيين وكان طالبًا معه فى جامعة أكسفورد وكأنه مومياء جلبت من جزر كنارى . . . وكان السكان الأصليون لجزر كنارى يجيدون التحنيط ، وتربية الجماجم ، تمامًا كالمصريين القدماء . وحقيقة الأمر أن الجوانشى كان يشبه الڤايكنج الإسكندناڤى ، أكثر من أى جنس آخر له صلة بالقارة الأفريقية . وقد أثار هذا الشبه جدلا كبيراً عن الاستعمار الاسكندناڤى لما قبل التاريخ . وقاد هذا النقاش الصاخب إلى احتمال أن تكون جزيرة كنارى هى قارة

أطلنطيس Atlantis المفقودة . ولكن التحنيط وتربنة الجماجم لم تكن معروفة فى أوربا القديمة ، لذلك ربط بعض المفكرين والعلماء الحضارات القديمة لشمال أفريقيا بحضارة الجوانشيين . . . أما أهل مراكش الذين يعرفون باسم البربر فقد أجبرهم العرب على الرحيل جنوبيًا حتى جبال أطلس . وكان ذلك منذ ألف عام مضى ،وكانوا جنسًا مختلطًا ، تمامًا كالجوانشيين ، بعضهم قصير القامة ، أسمر اللون ، وبعضهم طويل القامة ، أبيض اللون ، لهم عيون زرقاء ، صاخبة كزرقة البحر أيضًا . وهناك سلالات من هؤلاء البربر فى القرى المراكشية النائية أو المنعزلة حتى يومنا هذا . . .

تطلعنا إلى بساط السحب ، وإلى فوهة البركان الظاهر فى جزر كنارى ، وفى الجو الصافى ، كانت قمة البركان ترى بوضوح من الساحل المراكشى . ولم نكن فى حاجة للذهاب إلى إسكندناوة أو الذهاب إلى بلاد الجوانشيين ، ولا بد أنهم اختلطوا مع سكان أقرب قارة لهم ونجحوا فى عبور نفس الممر البحرى الذى نعبره نحن الآن على قارب من البوص أو الورق . . .

وكان غزو هؤلاء الجوانشيين ذا أثر ،فمن يكونون ؟ ولكن كيف جاءوا إلى هذه الجزر ؟ وعندما عثر عليهم الأوربيون بأجيال،قبل وصول كولمبس إلى أمريكا ، لم يتملكوا قوارب من أى نوع كانت ولا أطواف ولا مراكب . وبرغم ذلك فإن أشجاراً ضخمة كانت تنمو فى جزر كنارى ، وعلى ذلك لم ينقصهم الخشب . وكان الجوانشيون البيض

والسمر فلاحين ورعاة يربون الماشية، وقد تمكنوا من إحضار الخرفان معهم من أفريقيا إلى هذه الجزر النائية . ولكى يتركوا الساحل الأفريقى مع نسائهم وخرفانهم فلا بد أنهم كانوا بحارة أو صيادين وليسوا مجرد رعاة أغنام . . . إذن فلماذا نسى هؤلاء قوارب أجدادهم ؟ هل سبب ذلك أن أجدادهم لم يعرفوا أى نوع من القوارب غير قوارب البردى التى أطلقوا عليها اسم « ماديا » وهى قوارب البردى التى عاشت على الساحل الشمالى لمراكش حتى يومنا هذا ؟ . . .

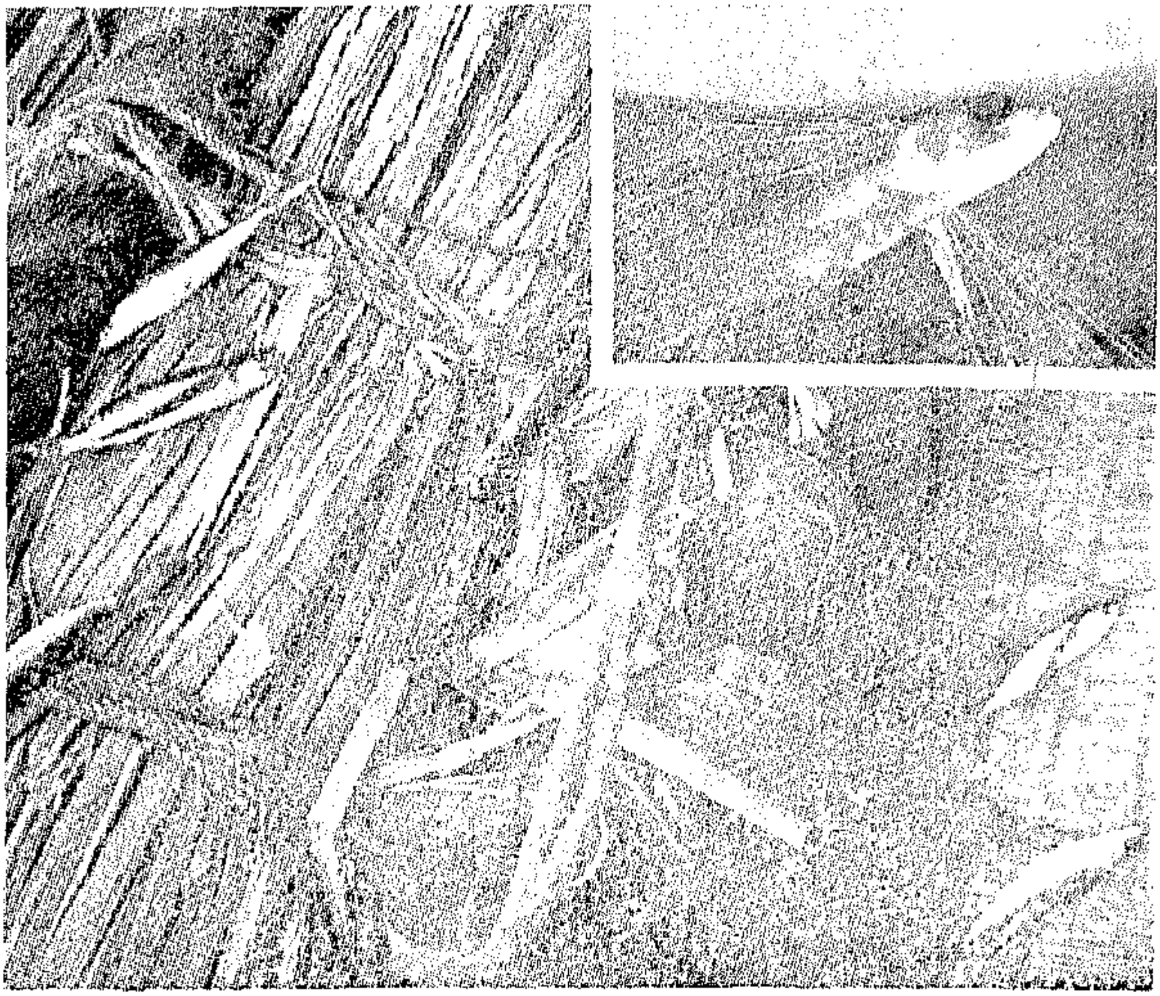
وفجأة بدأ القارب «رع » يزمجر ويغضب فنسينا الجوانشيين، وأسرعنا نحو الشراع الذى بدأ ينطوى . . . وكانت الريح لا تزال كما هى ، وبدأت مجموعة من الأمواج تنهمر على القارب وتغمره ، ولكن القارب الورقى الذهبى لم يعبأ بهذا السيل الجارف من المياه ، وراح يرفع نفسه فى عظمة وخيلاء ويسخر بالبحر من تحتنا . فالأمواج الشامخة تتحطم وتتسرب أو تفر إلى البحر من بين فتحات أعواد البردى الأفريقية القوية . . . وأصيب عبد الله بصداع وفقد شهيته ، فأرسله يورى إلى فراشه ، وجلسنا نأكل الفاكهة عندما صرخ صوت : « احذروا ! ! » وأسرعنا ننظر إلى صوت التحذير أو النذير ، فإذا بموجة عاتية تندفع نحونا فى سرعة وإصرار ، ولكنها تحطمت تحت حزم البردى وتبعتها أمواج أخرى لاقت نفس المصير . وعندما يتصرف البحر على هذا النحو بدون سبب نعرف على الأثر أننا دخلنا فى اتجاه تيار المحيط القوى القادم من البرتغال والذى يندفع بين جزر كنارى . وعلى ذلك فقد كنا نسير فى طريقنا الصحيح يرفعنا تيار

كنارى نفسه وهو يتجه نحو خليج المكسيك . . .

كان عبد الله غارقاً فى النوم ، فلم ير الحيتان الخمسة التى ظهرت أمامنا ، وسارت بحذاء القارب «رع» ، ثم اختفت بسرعة قبل أن يصورها كارلو – ثم طقطق المجداف الوحيد الباقى لنا وكان علينا أن نفعل شيئاً . . فهل نتجه نحو كيب فردى Cape Verde ونحصل على خشب قوى ؟ وكان الرد لا . . . لأن على القارب صارياً من الخشب المصرى القوى – فاستخدمناه برغم ثقله كمجداف . ورغم أن القمر كان يغمر البحر المائج ، إلا أن نفوسنا استكانت واطمأنت ، فقوة «رع» غير محدودة لا تستطيع الأمواج برغم علوها وقوتها أن تقهره . وكان البحر يكره الخشب لذلك يحطمه ، أما البردى فكان البحر يكن له كل ود وتقدير . وبعد مجهود مضن شاق استطعنا أن نرفع الصارى الخشبى المصرى إلى أعلى «رع» ونربطه بحبال سميكة لا تقوى الأمواج على اقتلاعها . وذهبنا إلى النوم بعد أن قام بعضنا بالحراسة خوفاً من الاصطدام بالسفن التى تمخر عباب المحيط فى الليل . . . ومكثنا ثلاثة أيام ونحن نبحر بدون مشاكل أصلحنا خلالها بعض ما ألم بالمجداف الخشبى من تصدعات .

كانت الريح تهب من الشمال ، محملة بالبرودة ، و«رع» يندفع بقوة نحو الغرب ، بسرعة ستين ميلا بحرياً فى كل أربع وعشرين ساعة ، أو بسرعة عقدتين ونصف عقدة فى الساعة . وبعد مرور أحد عشر يوماً قطعنا ٥٥٧ ميلا بحرياً ، أى أكثر من ألف كيلو متر .

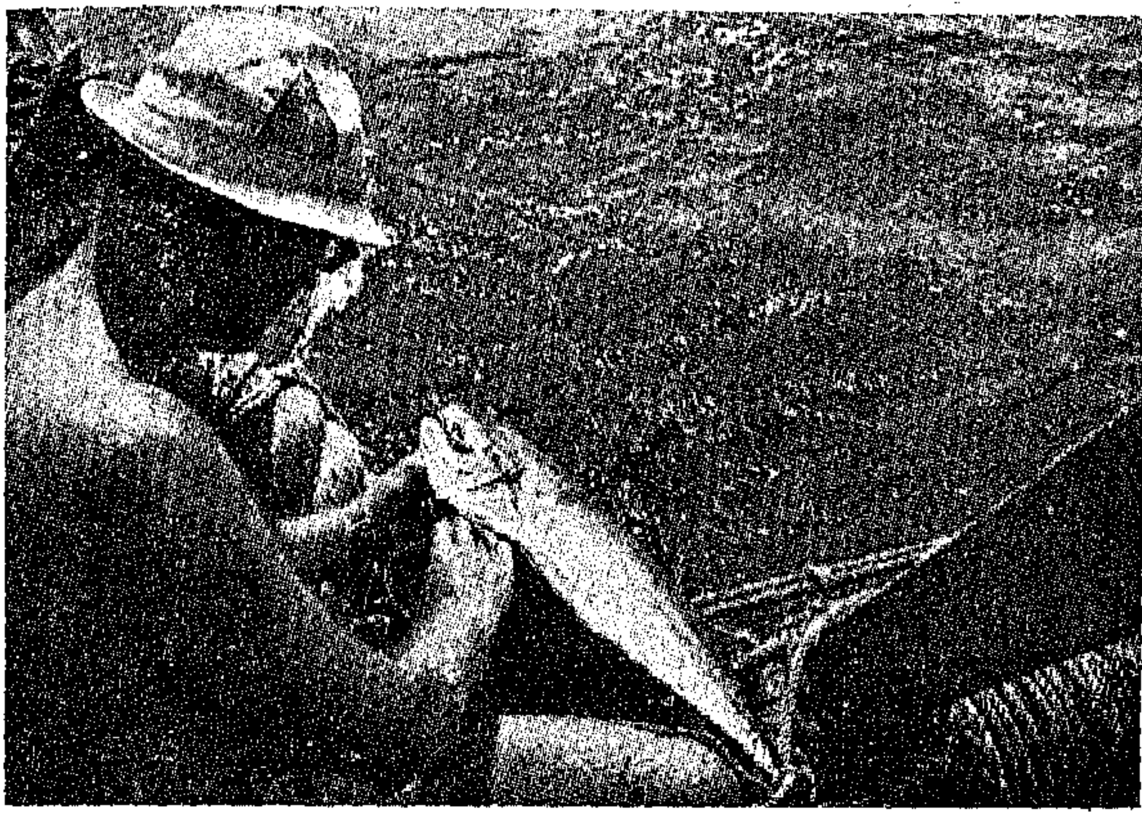
ولمدة يومين كانت البواخر تظهر بكثرة من حولنا . وذات مرة رأينا



الأسماك الطائرة وهى تسقط على القارب بكميات كبيرة

ثلاث سفن من عابرات المحيط الضخمة . إذن فلا بد أننا فى طريق الدائرة العظمى حول أفريقيا . . . وكان علينا أن نضع مصباح البرافين فى أعلى الصارى ، لكى لا يصطدم بنا شىء فى الليل . ولكن سرعان ما أصبح البحر خاليًا من الرحالة ، ولم يظهر أمامنا غير مدارس من الدرافيل ترقص من حولنا . واقترب بعضها منا بدرجة أننا كنا نربت على رءوسها .

ومرت أمامنا أسماك القمر الكبيرة ، ورأينا لأول مرة بعض الأسماك الطائرة وهى تطير كالرماح . وكانت السماء خالية من المخلوقات الحية . وبعد مرور وقت ظهرت أسراب من طيور النوّ .



ثورهايردال يمسك بسمكة من نوع « دورادو »

ومن عادة هذه الطيور أنها تنام على الماء . . .

أعجب ما كان فى أمر هذه الرحلة أن السماء فى الليل كانت مرصعة بالنجوم ، والكواكب ، والسدم ، والمجرات . والبحر من تحتنا مرصع بالحيوانات البحرية الدقيقة المنيرة – البلانكتون – التى تلمع كضوء النيون

من تحت البساط الأسود الناعم الذى نسبح فوقه ، وكأننا نسبح تحت سماء الليل . فوق مرآة أو كأن البحر مصنوع من الكريستال الصافى لا قرار له ولا قاع . . .

ولم يكن فى هذا الوجود غير القارب الذهبى وهو يتهادى على صفحة المحيط ، يسخر بالأمواج من حوله ،وشراعه المربع الضخم يحجب النجوم اللامعة . هذا القارب المصرى العظيم استطاع فى هذه الليلة أن يعود بالزمن عدة ألوف من السنين . إن مثل هذا القارب لم يعد يرى فى البحار المفتوحة اليوم . . . فقارب من البوص والبامبو والخشب والحبال يقوم بكل شىء ويندفع بإصرار نحو الطريق إلى أمريكا . . .

لم نكن نعيش فى عصر الذرة والصاروخ ، بل كنا نعيش فى وقت كانت فيه الكرة الأرضية كبيرة ومسطحة ومليئة بالبحار والقارات المجهولة . . .

وفى الرابع من شهر يونية بدأ البحر الصاخب يهدأ من حولنا . وفى صباح اليوم التالى استيقظنا لنشهد عالمًا جديداً . . . وزارنا خمسة حيتان كبيرة،وربما كانت نفس الحيتان التى زارتنا من قبل . وكانت رائعة رشيقة . . .

كان النهار جميلا ودافئًا فتشجع جورج وخلع ملابسه وغاص فى البحر واختفى تحت «رع»، ثم ظهر فغاص غيره بينما جلس عبد الله فى المقصورة هادئًا يفكر . . .

إذا لم تهب الريح فلن نصل إلى أمريكا مطلقًا،وبدلا من أن نقطع

ماثة كيلو متر فى اليوم انخفض ذلك إلى خمسين كليومتراً فقط . . .

ظل البحر هادئًا حتى اليوم التاسع من شهر يونية ، وكان ركاب «رع» ينامون معظم النهار . وأبدى نورمان بعض مخاوفه ، فالتيار يجرف القارب نحو الجنوب الغربى . وإذا لم تهب الرياح ، فسوف يقع القارب فريسة لتيارات الساحل فى موريتانيا والسنغال . وفى اليوم السادس من شهر يونية اتجهت نحونا عابرة ضخمة من عابرات المحيط ، ثم مرت بجوارنا فى طريقها إلى أوربا . وبعد ثلاثة أيام استيقظنا لنرى البحر ، وقد امتلأ بقطع من الأسفلت والأخشاب ، واختفى لون المحيط الأطلنطى



١٥ صندوقا من الخشب بها ملابس أفراد البعثة وحاجاتهم الشخصية

الأزرق الرائق الجميل ، وعامت حولنا الزجاجات الفارغة وكأننا فى ميناء . ولم أر شيئاً كهذا خلال المائة يوم التى قضيتها وأنا على ظهر الطوف «كون تيكى» — وأصبح واضحاً لنا أن الإنسان لوث هذا الجسم المائى العظيم . . .

وفى العاشر من يونية اشتد هبوب الريح وفى نفس اليوم ذبح عبد الله آخر دجاجة ، ولم يبق غير البطة . وعندما ألقينا بالقفص الذى كانت تعيش فيه مع الدجاج الصيَّاح لم يجرؤ واحد منا أن يذبحها ، فتركناها ، وأسميناها سندباد، وربطنا أحد ساقيها بحبل ، فى حين ظل القرد صافى محتفظاً بمكانه فى منطقة الكابينة . . .

وفى أثناء الليل اشتد هياج البحر، وكان من العسير أن يقف الإنسان على جسر القيادة ولا يرى شيئاً غير شراع منشور من فوقه مصباح زيتى . وبلغ بنا التعب أقصاه فى الليل ولا سيما فى أوقات الحراسة . وفى النهار كان القارب «رع» قد تفكك أكثر من ذى قبل،وأصبح الصارى غير ثابت فى مكانه. وفى القوارب المصرية القديمة كان الصاريان مربوطين فى فراغ ضحل بكتلة من الخشب موضوعة فوق قاعدة البردى وقد ثبت بقطعة من الخشب بجزئه الأفقى ، وربطت بإحكام إلى القاعدة،كما ربطت النهاية الأفقية بالجزء الأسفل من الصارى . أما فى القارب« رع» فقد تفككت هذه الحبال ، كما هدد الصارى بالقفز من مكانه ، فاضطررنا إلى ملء الفراغ فى القاعدة بقطع من الأخشاب ، ونجحنا آخر الأمر فى تثبيته .

كان البحر مليئاً بالحياة فى ذلك اليوم ، فالأسماك الطائرة تهطل

كالمطر من حولنا ، وأسماك القمر تظهر من قريب أو بعيد ، كبيرة دائرية الشكل ، ساكنة الحركة . وأعلن نورمان أننا انحرفنا نحو الجنوب ، وفى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة غاص الجانب الأيمن لرع فى الماء وأصبح نهبًا للأمواج . وفى صباح اليوم التالى كانت الريح الشمالية قد اشتدت حدتها . وحدث أن رأى يورى لأول مرة فقاعات زرقاء ،على وجه المياه فاحتواها بين يديه ولم يسبق له أن رأى « رجل الحرب البرتغالى » Portuguese Men-O'-War وهو الاسم العلمى لهذه الفقاعات الزرقاء ، وبعد لحظات كانت هذه الفقاعات الزرقاء تحصر يديه وذراعيه ، وهى ليست من الحيوانات الفردية بل مستعمرة كاملة من المخلوقات الدقيقة ، تعيش فى تكافل معقد لكل منها صفات خاصة وعمل خاص . والغريب أن فى المستعمرة الواحدة مجموعات من الصيادين والجنود الذين يدافعون عن أفرادها فيطلقون حامضًا حارقًا فى أجسام ضحايا وأعداء المستعمرة . وكثيراً ما تقتل هذه الفقاعات الزرقاء المخلوقات البشرية .

انتشرت الحروق الشديدة فى يدى يورى وسرى الحامض إلى جهازه العصبى وشلت عضلاته وبدأت تؤثر على قلبه . وبذل طبيب القارب «رع » مجهودات كبيرة لمدة أربع ساعات كاملة وهو يعالج نفسه . . .

وفى يوم ١٣ يونية كانت الرعود تزأر كالأسود الغاضبة وأرسل البحر أطنانًا من الأمواج فوقنا ، ورأينا منطقة الدفة وهى تغوص تدريجيًا تحت ضغط الجبال المائية . ولم يكن هناك ما نعمله ، بل كان علينا أن ننتظر حتى تنحسر هذه الأطنان من مجارى المياه على جانبى «رع » البطل الذى

عانى ما لم يعانه قارب آخر فى الوجود . وكان عبد الله برغم ذلك يؤكد أننا لن نغرق ما دامت الحبال قادرة على الصمود . . .

ومن ١٤ يونية إلى ١٧ يونية ظل البحر على حاله ، وبدأ جورج يشكو من آلام فى ظهره ، كما مرض عبد الله ولكنه عالج نفسه سريعاً . . . وشرع الجسر ينهار وكان علينا أن نقويه بالحبال . . .

ومرة أخرى بدأ الصارى يقفز من حذائه الخشبى و «رع» يرقص بين الأمواج ويصدر صوتاً خشناً لم يسبق أن سمعناه . والتوت الجدران ، والقاعدة ، والسقف ، واضطر جورج ويورى ونورمان أن يسبحوا تحت القارب ثم صعدوا إلى السطح ليخبرونا أن البردى من تحت الماء فى حالة جيدة وكان علينا أن نفعل شيئاً ... ثم انفصل مجداف الدفة ، وبعد معركة عنيفة استطعنا أن نعيده إلى مكانه . لو كان «رع» مصنوعاً من الخشب لتحطم وانشق نصفين . . .

كان لا بد أن نضع حداً لفيضان الماء ، فجمعنا كل البردى الذى ادخرناه للطوارئ وشرع عبد الله يقوى به لفات البردى . ولكن فوران المياه كان عظيماً ، وطار عبد الله أكثر من مرة إلى عرض البحر ، ولكنه عاد وهو يبتسم وحبل النجاة حول وسطه . . .

وحدث ما كنت أخشاه ، فكلما ارتفعنا بالسد اندفعت المياه ، ووجدت لها مكاناً على القارب حتى ذيله لأن قاعه كان قد امتص كميات كبيرة من الماء ، وغاص بدوره . فحاولنا إزالة الحائط الذى بناه عبد الله ، لكن المياه كانت قد ملأت صندوق أطواق النجاة فزاد ثقل القارب

واضطررنا إلى قطع الحبال لنفرج عن بعض قوارب النجاة فوق السطح حتى يرتفع القارب . . .

وفى يوم ١٧ يونية بلغت العاصفة ذروتها ، واتجهت الريح نحو الغرب وبدأ البحر الصاخب يهدأ بعد ثورته العارمة . ويبدو أننا عدنا مرة أخرى إلى التيار الرئيسى ،وأبلغنا نورمان أننا قطعنا ثمانين ميلا بحرياً أو ١٤٨ كيلومتراً خلال الأربع والعشرين ساعة السابقة . وخلال العاصفة الهوجاء قطعنا ٥٠٠ ميل بحرى من الساحل الغربى الأفريقى متجهين مباشرة إلى جزر كيب فردى غرب داكار، وكانت الرياح الشمالية والتيار يحملاننا فى خط مستقيم نحو مجموعة الجزر التى قد تظهر فى أى وقت . وقد أمدتنا هذه المخاطر بشعور عدم الارتياح والخوف من الاصطدام بالصخور .

كان يوم ١٨ يونية عاصفاً فجزر كيب فردى لا بد أن تكون أمامنا ، لكن الضباب الكثيف قد حجبها عنا . فمنذ أسبوعين عبرنا جزر كنارى ونحن على مقربة منها بدون أن نراها . أما اليوم فالمشكلة أكثر تعقيداً . فقد مكثنا فوق حزم البردى أربعة وعشرين يوماً ،ومع ذلك والبردى سابح فى ماء البحر لأكثر من شهر . وسبح «رع» أكثر من ألفى كيلومتر حول الساحل الشمالى الغربى لأفريقيا . أما الآن فإن الرحلة الحقيقية عبر المحيط الأطلنطى من قارة إلى قارة سوف تبدأ . فإذا كان المصريون القدماء قد أبحروا فعلا من مصب النهر كما أبحرنا من ميناء صافى ،فلا بد أنهم بلغوا نهر الدون فى روسيا أو فيما وراء جبل طارق . والبحر الأبيض المتوسط

ليس كبيراً بالدرجة التى يجهد فيها قارباً من البردى .

وفكرنا فى التخلص من قارب النجاة المصنوع من الكاوتشوك ، ودارت مناقشة حادة بيننا ،واستقر رأينا على أن نتركه لعدة احتمالات منها : الهبوط إليه فى حالة الطوارئ القصوى أو الاصطدام بسفينة أو بصخرة من الصخور ثم احتمال اشتعال النار فى «رع»، واحتمال آخر ربما يغرق القارب من تحتنا ، فبعد شهر واحد لا بد أن يكون قد امتص كميات كبيرة من الماء أو ربما يعطب، وأخيراً قد يحدث فى المحيط طوفان وعلى الأخص



أعضاء الرحلة فى أوقات راحتهم يشربون فى نخب نجاحها

ونحن نقترب من جزر الهند الغربية ، وبرغم أننا عاصرنا أكثر من عاصفة هوجاء ، ولكن إذا حدث طوفان كانت الكارثة ،وان نستطيع الهبوط إلى قارب النجاة المصنوع من الكاوتشوك . . .

ولكننا أعدنا التفكير ووازنا الأمر جيداً ثم أنزلنا القارب على سطح «رع» وقطعناه إلى شرائط ضيقة شددنا بها حزم البردى الغارقة فى الماء . وحدثت المعجزة وبدأت الدفة ترتفع بقدر ،استطعنا عن طريقه التحكم فى القارب وبدأت الأمواج تنحسر ولا تملأه من الداخل .

وفى اليوم التاسع عشر من يونية كان سطح «رع» قد جف وأصبح كبساط ناعم . . .

أشار سانتياجو إلى ضوء يشع من بعيد يتجه نحونا ،وكان الضوء لقارب يصدر إشارات سريعة لم نستطع قراءتها ،ويبدو أنها كانت تسأل عن شيء . . . فأرسلنا إلى القارب إشارات سريعة : «نعم . . . رع نعم رع» واقترب القارب منا وظننا أنه من قوارب السواحل فى كيب قردى ، ولكنه كان يندفع بسرعة ، وأخيراً جاء الرد «رحلة سعيدة يا رع» . . .

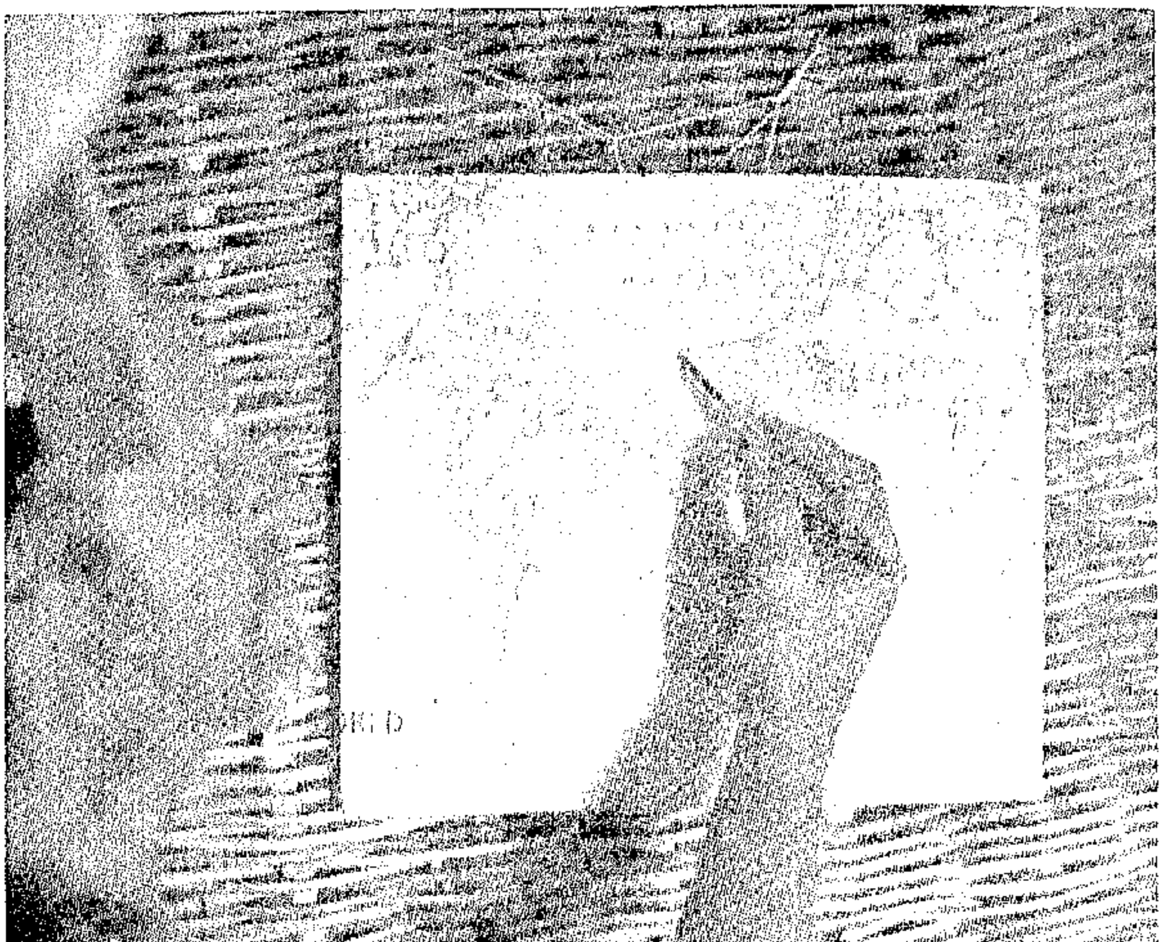
ثم استدارت السفينة واختفت فى ظلام الليل . . .

وبعد ساعتين سمعت طرقعة شديدة فقد تحطم مجداف الدفة ولم يصبح لدينا أى شيء ندير به القارب فصرخت لأوقظ كل إنسان . . . وصرخت الحبال بدورها وهطلت الأمطار فألقينا بالمرساة ثم هدأ كل شيء . . .

وشعرنا بأننا قد تركنا وحدنا فى هذا المحيط الكبير وغلفنا الظلام ،

ولم نعد نرى أى ضوء أو سفينة . وجاء دور يورى فى الحراسة فربت على كتفيه وقلت :

ــ حراسة سعيدة يا يورى . . . لن تصادفك مشاكل من أى نوع لأنه ليس لديك شيء تدير به دفة هذا القارب . . .



القلم يشير إلى المسافة التى قطعوها فى المحيط

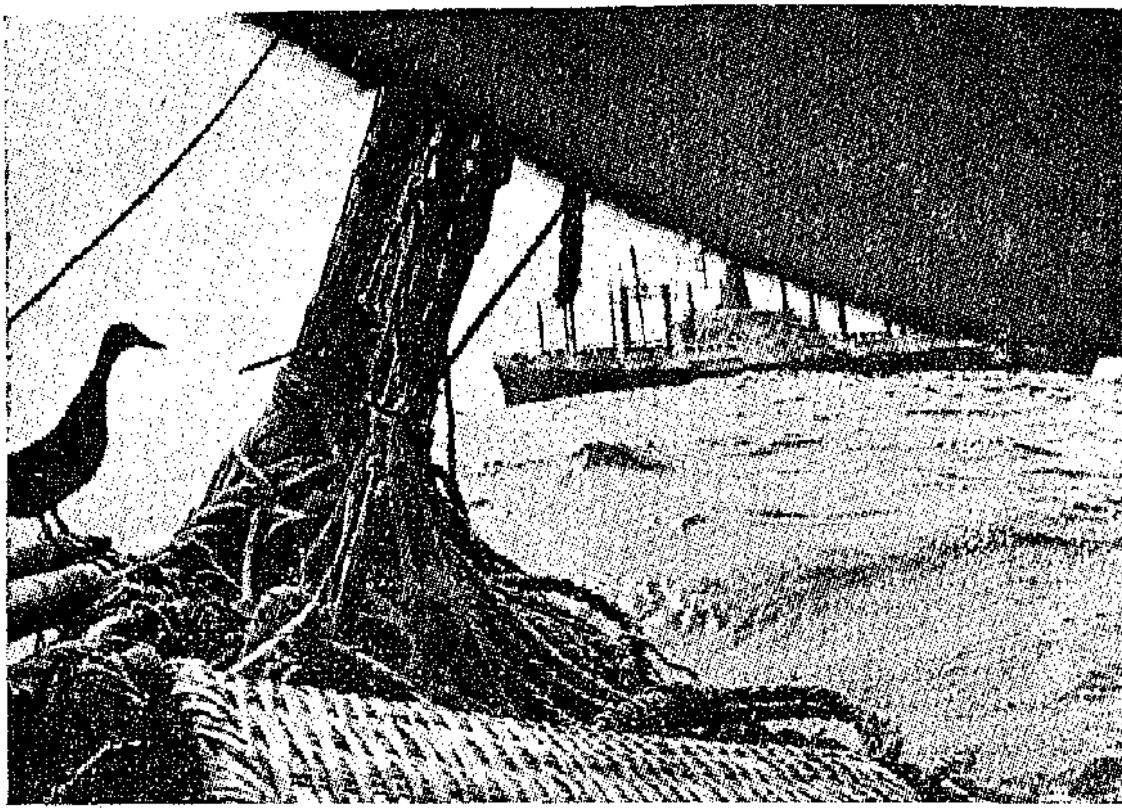
الباب العاشر

فى المياه الأمريكية

كنا نحتفل فوق القارب والبحر يبتسم من حولنا . فالشمس الاستوائية تسطع فوق سطح مقدمة السفينة ، والأطلنطى من تحتنا تعلو وتهبط أمواجه فى هدوء وروية . وفى داخل مقصورة البامبو كان المكان هادئًا مريحًا . . وعلى الحائط ظهرت خريطة زرقاء للمحيط الأطلنطى وعليها دوائر صغيرة مرسومة بالقلم الرصاص . وكانت آخر دائرة تكشف عن عبورنا خط الطول ٤٠ غربًا وأننا أصبحنا فى منتصف المحيط . . . ولعدة أيام كانت البرازيل قريبة منا لأننا كنا أكثر قربًا من أمريكا الجنوبية عن أفريقيا ، وبما أننا كنا نبحر مباشرة نحو الغرب فسوف نعبر أعرض مكان فى المحيط وتصبح جزر الهند الغربية أقرب مكان أمامنا . . . وظل قاربنا المصنوع من أعواد البردى يجرى على صفحة المحيط وشراعه منشور تدفعه الريح فى الاتجاه الصحيح من غير قيادة بسرعة لا تزيد على ستين ميلا بحريًا أو مائة كليو متر فى اليوم الواحد . ولمدة ستة أيام كاملة بعد أن عبرنا جزر فردى[1] على الساحل الغربى لأفريقيا ، وقضينا وقتًا عصيبًا فى السيطرة على القسم الخاص بدفة «رع» بمعاونة المجاديف المحطمة .

(١) تبعد حوالى ٣٢٠ ميلا عن الساحل الأفريقى .

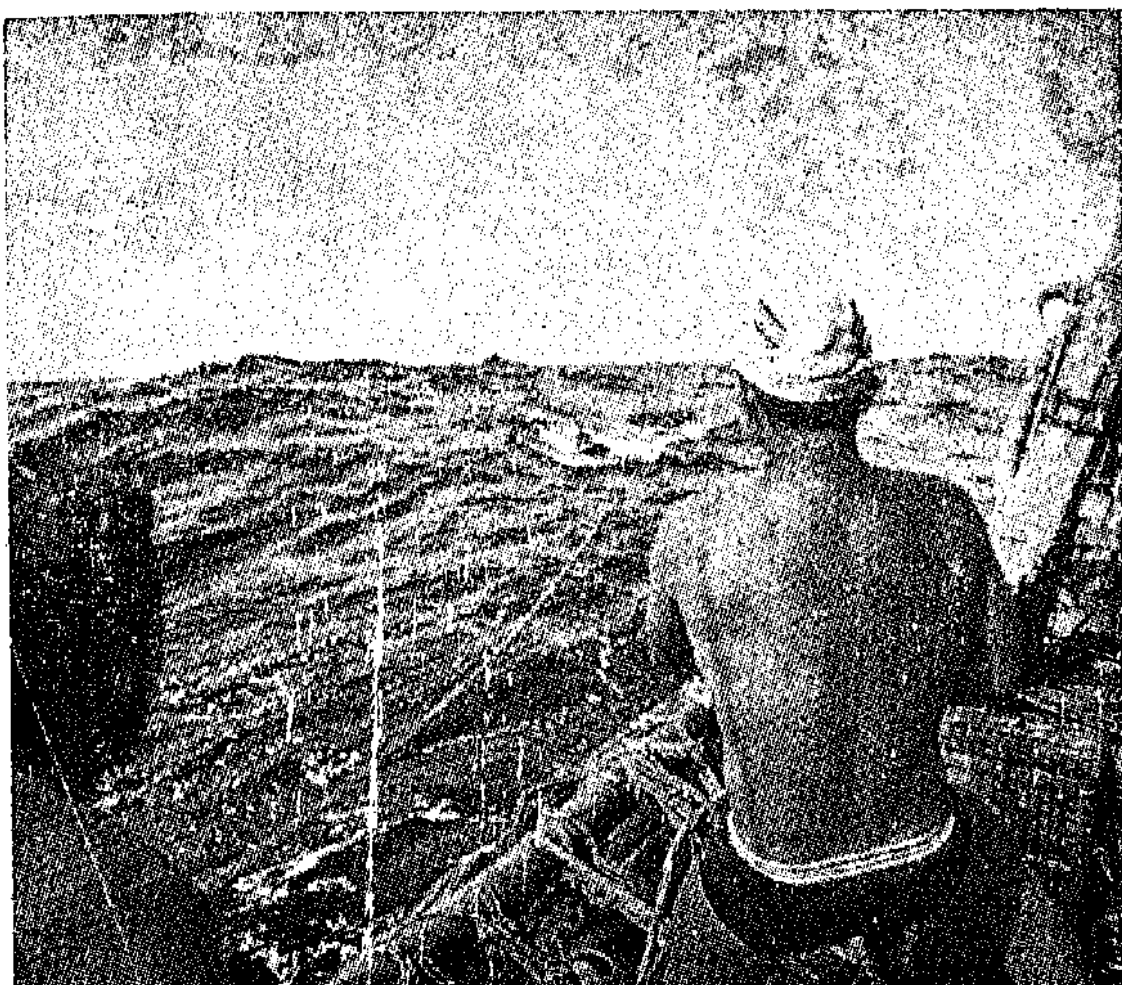
ولكن الأمواج هنا فى منتصف المحيط أصبحت أكثر تعاونًا ، وتصالحنا مع البحر وربطتنا به معاهدة صداقة . . .



البطة سندباد تتخذ لنفسها مكاناً استراتيجياً فوق القارب

وقضينا يومًا من أمتع أيام حياتنا فوق ذلك القارب الذهبى «رع» ابن الشمس ، واستلقينا على ظهورنا نمعن النظر فى النجوم اللامعة من فوقنا ونترك لأفكارنا العنان . . . وفى اجتماعنا هذا الودود دارت بيننا مناقشات عديدة ، فنحن نمثل مجموعة من الأمم المختلفة . . . تحدثنا عن الشيوعية والرأسمالية وحكومة الفرد والدكتاتورية . وهل نفضل الطعام على الحرية ؟ وهل حركة الهيبز فى الشرق والغرب أوجدها الشباب أو الآباء ؟ وهل ستموت هذه الحركة ، أو تزداد عنفًا وضراوة مع تقدم الحضارة ؟ وهل

الحضارة التى بناها آباؤنا ليلا ونهاراً ستقبلها الأجيال القادمة أو ترفضها ؟ فالمصريون السومريون وأهل المايا والإنكا بنوا الأهرامات ، وحنطوا الجثث وظنوا أنهم على الطريق السوى . ودافعوا عن أفكارهم بالقلاع والقوس والرمح ، وظننا نحن أنهم كانوا مخطيين فى أفكارهم عن هذه الحياة ، لذلك بنينا قذائف موجهة نووية وذهبنا إلى القمر . ونحمى سياستنا الآن بالقنابل الذرية والقذائف المضادة للقذائف الموجهة . ويجلس أبناؤنا فى مقاعد المحتجين على هذه التصرفات والأفكار ، فهم يعلقون تعاويذ



حمل من الفواكه لبحارة «رع» بعد أن ألقت به عابرة المحيط

هندية حول رقابهم ويطيلون شعورهم ويضربون على الجيتار وهم جالسون على الأرض ويتراجعون ويتقاعسون ويترحلون إلى ما وراء الشمس والقمر . . .

تحت النجوم وفوق لوح من البردى ينطلق بنا وهو يتهادى فوق أمواج المحيط ، كنا نتسامر ، سبعة أفراد يمثلون شعوباً مختلفة ، التحموا فى وحدة وتشابهوا فى إنسانيتهم بصرف النظر عن أنوفهم المعقوفة أو المستقيمة أو المفلطحة . . .

قررنا أن نذهب جميعاً لننام ويبقى واحد للحراسة . فقد مرت بنا أيام عصيبة ولاندرى ما الذى يخبئه لنا القدر . فعاصفة أخرى قد تكون مدمرة ، فمؤخر السفينة لم يعد هناك ليحمينا وقد نشرنا خيشاً فوق حائط ظهر القارب القصير والجانب الأيمن للمقصورة بعد أن تدفقت أطنان الماء من مكان الدفة وغمرت رقابنا ، ورءوسنا مستندة إلى الحائط الخلفى . ورحت أسترجع متاعب الأيام القليلة الماضية قبل أن ندلف إلى البحر الهادئ .

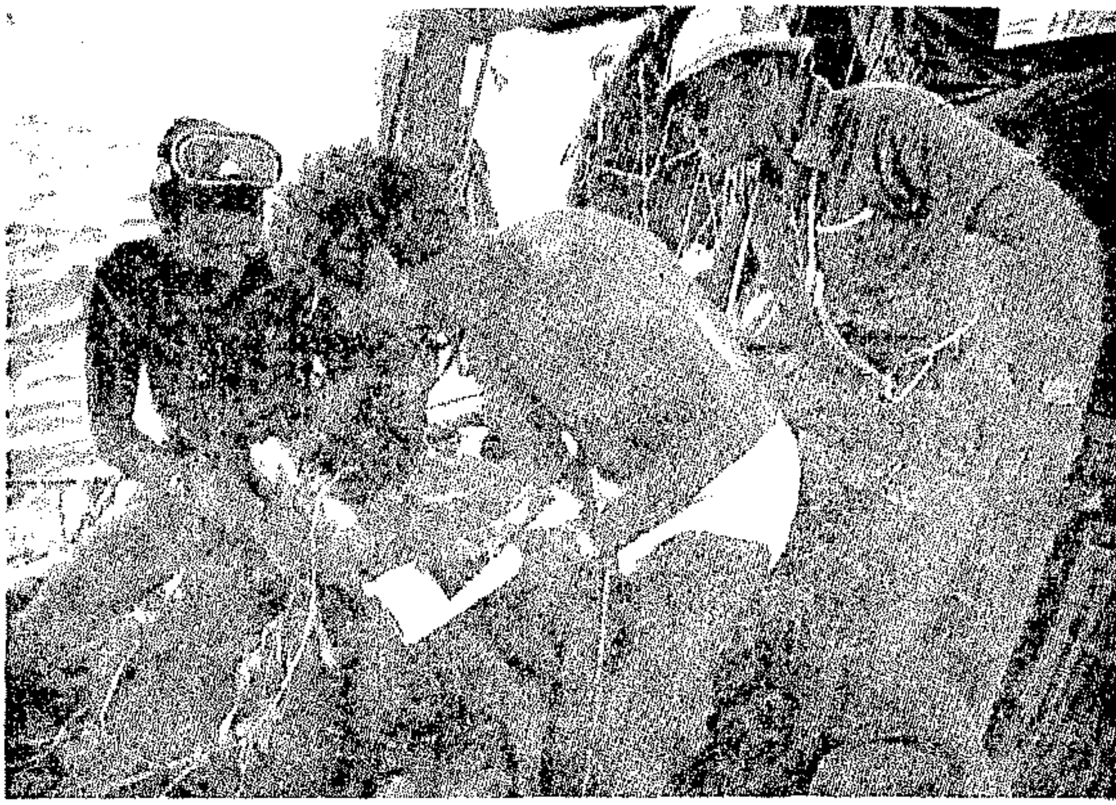
كانت مهمتنا بعد الليلة الأولى أن نحافظ على ملء الشراع بالهواء حتى لا يطوى ويضرب الصارى فى عنف فيحطمه . وكانت الأمواج شديدة الصخب لم تمكنا من النوم الهادئ . وكانت حركة القارب العنيفة تقذف بنا كالدمى ، ونحن منبطحون على الأرض نحاول أن ننام ، ومياه البحر تجرى فوق ظهورنا ووجوهنا ، فسرعان ما ندلف إلى زكائب النوم وسرعان ما نخرج منها خوفاً من البلل . وفى هذا الاضطراب تصدع برطوم السقف المعترض للقارب «رع» وتداعت الأعمدة التى ترفع الجسر

وهوى الأخير ، فأسرعنا نبحث عن الحبال بعد أن غمرت المياه رءوسنا ونجحنا فى إعادة الجسر إلى مكانه بعد ربطه جيداً بالحبال . . .

مرت بنا أيام قاسية بعد عبور جزر كيب فردى ، وفى لوح القارب كان يوم ٢٠ يونية من الأيام العصيبة التى اجتزناها بمشقة . كان اليوم الحادى والعشرون من يونية أيضاً من أسوأ ما رأينا من أيام ؛ فمن غير مجاديف استطعنا أن نقطع فى اليوم الواحد ٥٧ كليومتراً فى اتجاه أمريكا . وكانت هذه أدنى سرعة بلغناها . وفى الثانى والعشرين من يونية كانت عارضة الدفة تعوق سير القارب ، لذلك اضطر جورج أن يغوص تحتها وينشرها بالمنشار فى حين ظل ثلاثة منا فوق السطح وتقدمت بعض الدرافيل السوداء المنقطة باللون الأبيض لتلعب بجوار القارب حتى كدنا أن نلمسها . وفى الخامس والعشرين من شهر يونية أيضاً كان الجو غامضاً غريباً ، فقد كان بين برد شديد وحرارة أشد . . . وبين وقت وآخر كانت تهب موجة من الحرارة مشبعة برائحة الرمل الجاف ، ولو لم أكن متأكداً من مكانى فى المحيط لقلت إننا كنا على مقربة من ساحل الصحراء .

وفى هذه الليلة كان البحر متوعك المزاج فاضطررنا أن ننقل كل شىء من مكانه إلى مقدمة السفينة ، ومع ذلك كان «رع» يقذف بنفسه بين ضجيج الأمواج غير عابئ بمصيره وكأنه بساط سحرى . . .

وانبلج نهار جديد . . . بحر هادئ وشمس مشرقة والرياح التجارية تهب من الشمال الشرقى . وعندما تغير الجو ظهرت أول سمكة من أسماك



جورج بعد أن عاد بكيس الفاكهة ومعه سانتياجو ويورى

القرش متجهة نحونا واقتربت من ساقى جورج فسحبهما بسرعة فانحرفت سمكة القرش واختفت من أمامنا . . .

أما يوم ٢٨ يونية فكان من أبهج أيامنا ، فقد انصرف كل واحد منا إلى قضاء عمل خاص به . فجلس جورج يعلم عبد الله القراءة والكتابة باللغة العربية ، وجلس الآخرون يسجلون مذكراتهم ، أو يغسلون ملابسهم ، أو يصطادون السمك برماحهم . ثم سمعنا صرخة ألم فأسرعنا نحو الصوت فإذا به نورمان . . . رأيناه فى مقدمة السفينة وقد شل جسده فظننا أن

سمكة القرش التهمته . . . أسرعنا نحوه وجذبناه بعنف فوجدناه سليماً معافى ، ولكن نصفه السفلى كان متورداً ملتهباً ، فقد وقع المسكين فى حبائل سمكة من أسماك « رجال الحرب البرتغالية » وغاب نورمان عن وعيه عندما سحبناه سحباً إلى المقصورة حيث أعطيناه دواء مقوياً للقلب .

وفى الثلاثين من يونية دخلنا منطقة فى المحيط غارقة فى كتل من الزيت تسير فى نفس اتجاهنا ولكن الشراع كان قوياً والقارب يجرى بسرعة . وفى الليل بزغ القمر الفضى وانتشرت أشعته فوق القارب الذهبى وشراعه الملون . وكانت النجوم قد خبت فى الأفق الشرقى وقد انصرم شهر مايو وتبعه شهر يونية ، وها نحن ندلف إلى أول شهر يوليو ولا نزال فوق الماء ومعنا أطنان من المؤن اللازمة .

وفى أول شهر يوليو رأينا سفينة كبيرة ونحن نعبر الطريق بين الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا واقتربنا منها حتى اختفت عن أنظارنا وفجأة صاح جورج : إنهم عائدون . . .

وظهرت السفينة مرة أخرى وهى تتجه نحونا فوقفنا جميعاً ننتظر حتى إذا ما أصبحت قاب قوسين أو أدنى منا هتف نورمان : هل تريدون شيئاً ؟

فقال القبطان : بل هل أنتم تريدون شيئاً ؟ . . .

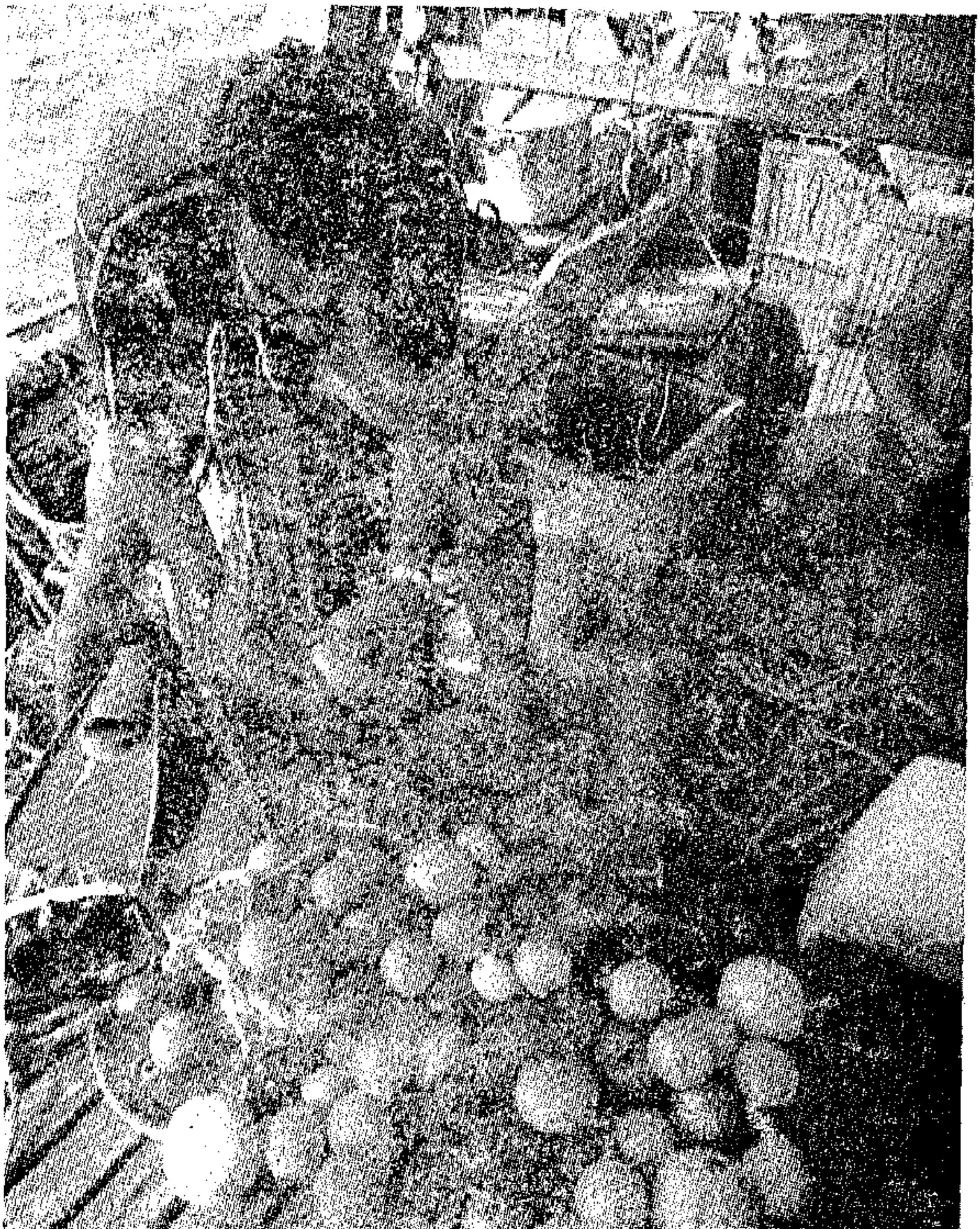
فصرخنا جميعاً كل بلغته : فواكه . . . فواكه ! !

ومع ذلك لم يعبأ « رع » بهتافنا أو بطلبنا واستمر فى طريقه مندفعاً والسفينة الضخمة تحاول اللحاق به . . . وابتسم القبطان وسرعان ما ألقى

فى البحر بحقيبة ضخمة ربطت بطوق نجاة . وفى الحال ارتدى جورج رداء البحر الخاص ليحميه من أسماك « رجال الحرب البرتغالية » وغاص فى اليم وعاد يجر الحقيبة الثمينة، لقد جاء بصيد وفير : ٣٩ برتقالة و ٣٧ تفاحة و ٣ ليمونات و ٤ أقطاف من العنب ومجموعة من الجرائد الأمريكية ، فلوحنا للقبطان والركاب بشكرنا وامتناننا وجلسنا نقتسم الغنيمة أو هدية عيد الميلاد . . . ولم ننس القرد صافى والبطة سندباد . . .

قضينا أياماً ممتعة فوق « رع » . فحزم البامبو كانت من نصيب عبدالله فقد قام بربطها ربطاً محكماً فى أثناء هذه الأيام المريحة الهادئة . كما كانت الحبال من نصيب كارلو الذى قام بإعدادها وربط الدفة بها . . . وكان إعجابنا شديداً بقوة احتمال « رع » وقدرته على الصمود هذا الزمن الطويل برغم نصائح الخبراء .

كان « رع » قارباً من الورق لم يتحطم فيه غير الأجزاء الخشبية ، وأثبت نبات البردى أنه أقوى مادة من مواد البناء وقوته فى البحار المفتوحة والمحيطات لم يدركها النظريون والخبراء . بل لم يعرفوا عنها شيئاً . وكان من الخطأ الاعتقاد السائد أن قوارب البردى القديمة كما رسمت أو نقشت فوق جدران المدافن فى مصر كانت مجرد قوارب بدائية . . . وأن قارب البردى المصرى ، وكذلك الطوف ، سبحا وطافا فوق المياه بقدرة خارقة ، حتى إذا كان قاع كل منهما مثقوباً . وكان كل من « رع » و « كون تيكى » طوفين لأنه لم يكن لهما هيكل . ومع ذلك فمقارنة « رع » بالطوف الطويل



حمل من الفاكهة والجرائد يبعثرها جورج أمامه

« كون تيكى » تماماً كمقارنة سيارة ذات محرك بعربة تجرها الخيول ، فالحصان يستطيع أن يجر العربة ، ولكن لكى تقود سيارة لا بد لك من معلم وترخيص . ولم يكن معنا معلم أو ترخيص . كل ما فى الأمر أننا رحلنا فوق قارب مصرى ولم نحلم مطلقاً أنه قارب خاص بل طوف بسيط لا يحتاج إلى خبرة ودراسة . . . حقيقة لقد صنعناه من أجود أنواع البردى ولكنه كان كالسيارة ، فإذا لم يتعلم الإنسان كيف يستخدم كل جزء منه فمن السهل أن يخرب فيه أشياء هامة قبل أن يكتشف بعد التجربة كيف يستطيع أن يجعل جميع أجزائه تعمل . وكنا فى الواقع نتعلم باستمرار من فشلنا ونجاحنا فى أثناء إدارتنا لهذا القارب الأسطورى الممتاز . . .

* * *

فى الرابع من شهر يوليو أيقظنى جورج ، وعلى وجهه تعبير قلق واضطراب ، فقد رأى مزاريب الماء تتدفق فى الأفق البعيد . وكانت الشرائط السوداء بين البحر والسماء تبدو مقلقة حقاً عندما نهضت شمس الصباح ، وكانت هناك أمطار وبعد قليل هطلت بغزارة فوق القارب ، ودوت الرعود فاستيقظ البحارة ، وخرج كل منهم ليغسل جسمه من الملح العالق به . . . وكانت القوارير طافحة بالماء فلم نملأها هذه المرة من مياه الأمطار . وظلت السماء تمطر طول اليوم ، وفى اليومين التاليين ، حتى أصبح القارب مبتلا وثقيلا . وغيرت الرياح التجارية من اتجاهها وبدأ « رع » وكأنه يسير على أطراف أصابعه بهدوء وسكون فهل كان هذا مجرد هدوء وسكون قبل هبوب العاصفة ؟ . . .

وفى الخامس من شهر يوليو رأى جورج المصرى قوس قزح لأول مرة فى حياته . وامتلأت السماء بأقواس قزح ، بينما تبخترنا فوق القش الجاف ، وأشعل نورمان المصباح الزيتى ، وصعد به أعلى الصارى . . . وكنا قد قطعنا ٢٢٥٠ ميلا أو ٤٠٠٩ كيلومترات ، أى عبرنا نصف المسافة ، وكان ذيل « رع » يعطلنا بعض الشىء فقد هبطت السرعة إلى أربعين ميلا فى اليوم الواحد .

وعدنا نتناقش من جديد عن البحارة البدائيين الذين وصلوا إلى أماكن بعيدة متفرقة فى العالم من ألوف السنين . وكانوا عادة يسيرون بجوار الشواطئ ، ولكن هذه السواحل كانت دائماً من أخطر الأماكن التى يبحر فيها الإنسان . وتكون العاصفة عادة أشد عنفاً وضراوة عند الساحل عنها فى داخل المحيط . وتدرج الحديث عن قوارب الورق ، وقدرتها على عبور البحار المفتوحة ، والمحيطات . وإذا أراد أى عالم أن يختبر عوداً من البردى فى معمله الخاص فسرعان ما يعطب عود البردى بعد مرور أسبوعين . لذلك جاءت نظريتهم التى تقول إن القارب لا بد أن يغرق بعد أسبوعين ، وهذا خطأ جسيم وقعوا فيه . . . وكان أجدر بهم أن يقوموا بالتجربة فى البحر ذاته . فقد مرت علينا سبعة أسابيع ونحن فى البحر فوق القارب الورقى « رع » المصنوع من نبات البردى ، وكان يحملنا ومعنا أطنان من البضاعة بدون أن يضجر . وقد كشفت التجربة عن أن بناة القوارب الورقية فى مصر وبيرو كانوا يعرفون تماماً أن أعواد البردى تمتص الماء خلال ما بها من شقوق أو من نهايات أطرافها

المقصوصة ، وليس عن طريق غلافها الليفي أو المتليف الذي . يغطي العود لذلك استخدموا فنًّا خاصًّا عند بنائهم لهذه القوارب الورقية ، وضغطوا نهاية كل عود بحيث لا يتسرب إليه الماء مطلقًا . . . ونتج عن ذلك أن البردي وقوارب البردي شيئان مختلفان تمام الاختلاف . قال عبد الله معلقًا : ما دامت الحبال قادرة على الاحتمال فإننا سنظل نطفو ، وإذا تهدلت فسوف يمتص القارب كميات من الماء وإذا تقطعت فسوف نغرق جميعًا . . .

قبل أن ينقضي شهران كنا قد اعتدنا على البيئة من حولنا . وكنا نشعر بأننا نعاصر هؤلاء الذين ابتدعوا هذه القوارب الورقية وملأوها بالقوارير ، والسلال ، والحبال ، والطعام ، والملح ، والعسل . . . ولا بد أن رجال البحر في العصور القديمة والوسطى اكتسبوا نفس الخبرة التي اكتسبناها في هذه الرحلة المثيرة . لم يكن هناك شيء جديد ؛ ولم يكن هناك شيء غريب . مشاكل عادية . وشعورنا بالقلق والراحة وقارب من البردي الأصفر يطفو على وجه المياه بين السماء والبحر . وفوق هذه الحزم من البردي كنا خارج الزمن . . . ليس فينا عالم الآن بل كنا جميعًا أجهزة وآلات في تجربة علمية تكييف نفسها . وبدأ الزمن يفقد مقاييسه تدريجيًّا ، وازدحم من حولنا أجدادنا ، واقتربت منا القرون البعيدة وتمزقت صورة الزمن . فالفايكنج كانوا هناك في الأفق البعيد في شمال الأطلنطي ، وكولمبس يندفع بمراكبه ، وفي نفس الطريق الذي نعبره . وبعد قليل أصبح بناة الأهرام ، أجداد جورج ، بجوارنا ، وفجأة قال

جورج : لو تحملت الدفة لاندفعت برع خلال قناة بناما عبر الباسيفيكى ، وإذا لم يصلح القارب هذه المرة فسوف أبنى قارباً جديداً وأبحر به من جديد . فقد أصبح من البديهى أن أجدادى كانوا أول من عبروا الأطلنطى على الأقل فى اتجاه واحد . . .

فقلت : ليس ذلك من البديهى يا جورج . . . أما البديهى فهو أنهم إذا كانوا قد حاولوا فلا بد أنهم قد نجحوا . فقارب البردى أكثر صلاحية للبحر من أى شىء آخر ، ولكن لم يكن المصريون وحدهم يمتلكون قوارب من الورق ، فقد استخدمت هذه القوارب من أحد أطراف العالم القديم المتحضر إلى الطرف الآخر ، من الفرات إلى الساحل الأطلنطى لمراكش . . .

قال جورج : إذن لماذا قلدنا رسوم المقابر المصرية القديمة ما دمنا لم نرد أن نقلد البحارة المصريين القدماء ؟

فقلت : لأن مصر وحدها كانت تحتفظ بصور عصرية للقوارب البردية بكامل تفاصيلها ودقائقها ، وشكراً للفراعنة وجو الصحراء الذى حفظ لنا هذه الكنوز ، فعرفنا تفاصيل الحياة اليومية المصرية منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة .

كان أحد الصناديق الستة عشر التى كنا ننام فوقها كل ليلة يحتوى على مجموعة من الكتب النادرة التى سجلت حضارات العالم المختلفة . وفى حضارة ما بين النهرين القديمة عثرنا على صورة نادرة من الصخور رسم عليها قارب مصنوع من نبات البردى فى معركة من المعارك البحرية .

وآخر كان يستخدم فى السلم أو بعد الحرب . . . وهذه كانت أنقاض مدينة (نينوى) Nineveh التى تبعد عن مصب نهر دجلة بثمانمائة كيلو متر وتبعد كذلك عن ميناء بابيلوس Byblos على البحر الأبيض المتوسط . بنحو سمائة كيلومتر . وكشفت هذه الآثار عن نوعين من قوارب البردى وحزم من نبات البردى ربطت بالطريقة المصرية ، وقد قوس مقدم السفينة وثنيت دفتها إلى أعلى . . . وقد ازدحمت القوارب بالناس ومن حولهم الأمواج تمثل المحيط ذاته ثم أسماك سابحة . . . وظهر قارب ثالث وهو يفر من المعركة البحرية وعليه بحارته يصلون للشمس . . .

هذه القوارب التى كانت تستخدم فى المعارك البحرية اختلفت كثيراً عن غيرها من القوارب التى ظهرت وراء أعواد البردى ، فهى مستقيمة غير منحنية فى المقدمة أو المؤخرة . ولولا وجود هذه الرسومات على جدران المقابر لما صدق إنسان وجود قوارب البردى فى مصر وقد اختفت تماماً كما اختفى نبات البردى . ولكن القوارب التى ظهرت فى دجلة والفرات ظهرت أيضاً فى بيرو برغم بعد المسافة بين البلدين. وبرغم أن الحضارات القديمة ذوت وانقرضت ، إلا أن بعض قوارب البردى ظهرت فى دائرة حول مصر وفى بلاد ما بين النهرين وإثيوبيا وأواسط أفريقيا وسردينا ومراكش وكذلك فى سائر المناطق الأمريكية ذات الحضارة القديمة وفى جزيرة إيستر . وها نحن أنفسنا ومعنا قرد وبطة فى طريقنا إلى أمريكا على قارب صنع فى أفريقيا . . .

وإذا كان المصريون القدماء لم يتعدوا جبل طارق بقواربهم فهل

كانت هناك شعوب أخرى عبرت ذلك المضيق إلى الأطلنطى ؟ . . .

نستطيع أن نرد على هذا السؤال بنعم . . . فالفينيقيون ظلوا لعدة آلاف من السنين أقرب جيران للمصريين فى شرق البحر الأبيض المتوسط وعبروا بصفة مستمرة مضيق جبل طارق ومنه إلى الساحل المفتوح لمراكش وتوغلوا إلى ما وراء صافى وكيب جوبى ومنها إلى جزيرة موجادور Mogador جنوبى صافى . وينقب علماء الآثار الآن بحثاً عن آثار للفينيقيين فى ساحل ريودى أورو Rio de Oro جنوبى مراكش . واكتشف رجال

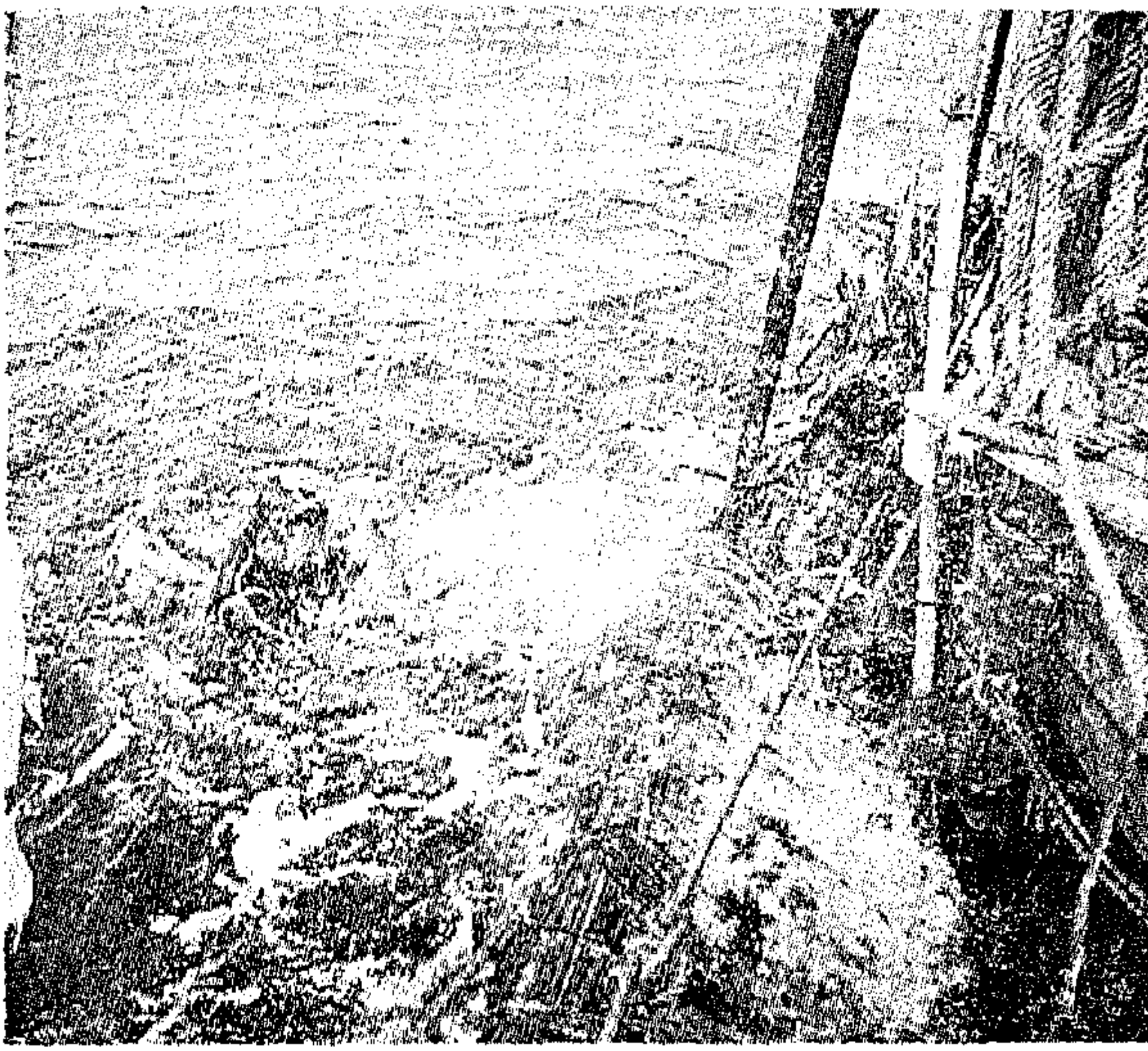


عبدالله جبرين يحاول ترميم القارب بعد أن صدعته الأمواج

الآثار أيضاً أن الفينيقيين كانت لهم قدم ثابتة بين الجوانشيين فى جزر كنارى . وأنهم كانوا يستخدمون هذه الجزر كمراكش أو نقط هامة لكى يعبروا منها إلى كيب جوبى وكيب باجادور Cape Bajador .

فى إحدى كتابات هيرودوت بعد زيارته لمصر قال إنه فى زمن الفرعون نكاو Necho الذى حكم مصر حوالى عام ٦٠٠ قبل الميلاد أرسل المصريون أسطولا من المراكب الفينيقية للدوران حول أفريقيا ، وأبحر هؤلاء البحارة من البحر الأحمر وعادوا عن طريق مضيق جبل طارق بعد ثلاث سنوات . وقالوا فى مذكراتهم إن الشمس كانت تشرق وهم مبحرون جنوباً من يسارهم فلما اتجهوا شمالا فى طريقهم إلى جبل طارق أصبحت تشرق من يمينهم . وبعد فترات طويلة من الزمان قامت إحدى البعثات البحرية الفينيقية بحملة كبيرة برئاسة هانو بغرض إقامة مستعمرات للتجارة خارج أو فيما وراء جبل طارق . وكانت البعثة تتكون من ستين قارباً ومزودة ببحارة وبخمسين مجدافاً وتوغلت فى الأطلنطى المجهول . وعبر الأسطول المستعمرة القديمة لمدينة الشمس الخالدة ورسا ست مرات على طول الساحل المراكشى ليحدد أمكنة المستعمرات الجديدة . وواصل الأسطول سيره على طول السواحل الخطرة حول كيب جوبى وعبر جزر كيب فردى ليبلغ أنهار الأدغال لغرب أفريقيا الاستوائية . ومن المعروف أن الفينيقيين تبادلوا التجارة مع قبائل غرب أفريقيا كما استخدموا القوافل التى كانت تعبر القارة لإحضار العاج والذهب والأسود والحيوانات الضارية التى كانت ترسل إلى مدن سوريا ومصر ومنها إلى جزر البحر

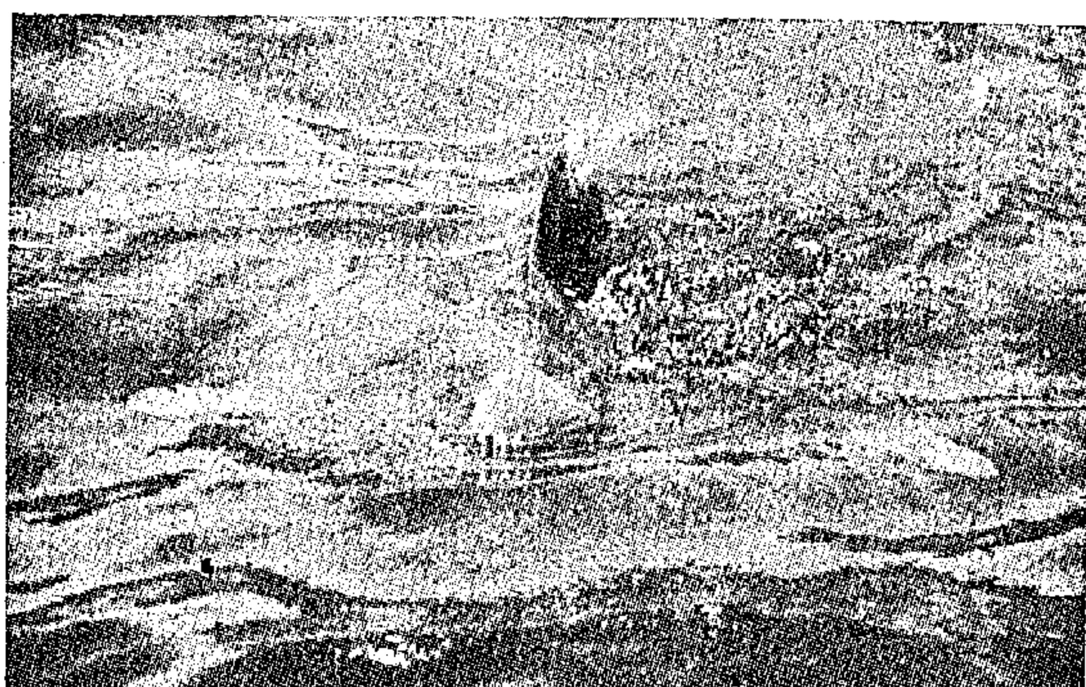
الأبيض المتوسط وساحل الأطلنطى لمراكش . . . فمن هم هؤلاء الفينيقيون الذين لا نعرف عنهم إلا الشيء القليل ومن الذى علمهم السفر فى البحار ؟ . . . ومن العسير الرد على هذه الأسئلة . . .



عبدالله وجورج يحيكان حزم البردى بالإبرة والحبال

يبدو أننا كنا قد اقتربنا كثيراً من ساحل أمريكا الجنوبية لأن طيور البحر أول من زارنا من الجانب الآخر . . . طيور استوائية غاية فى

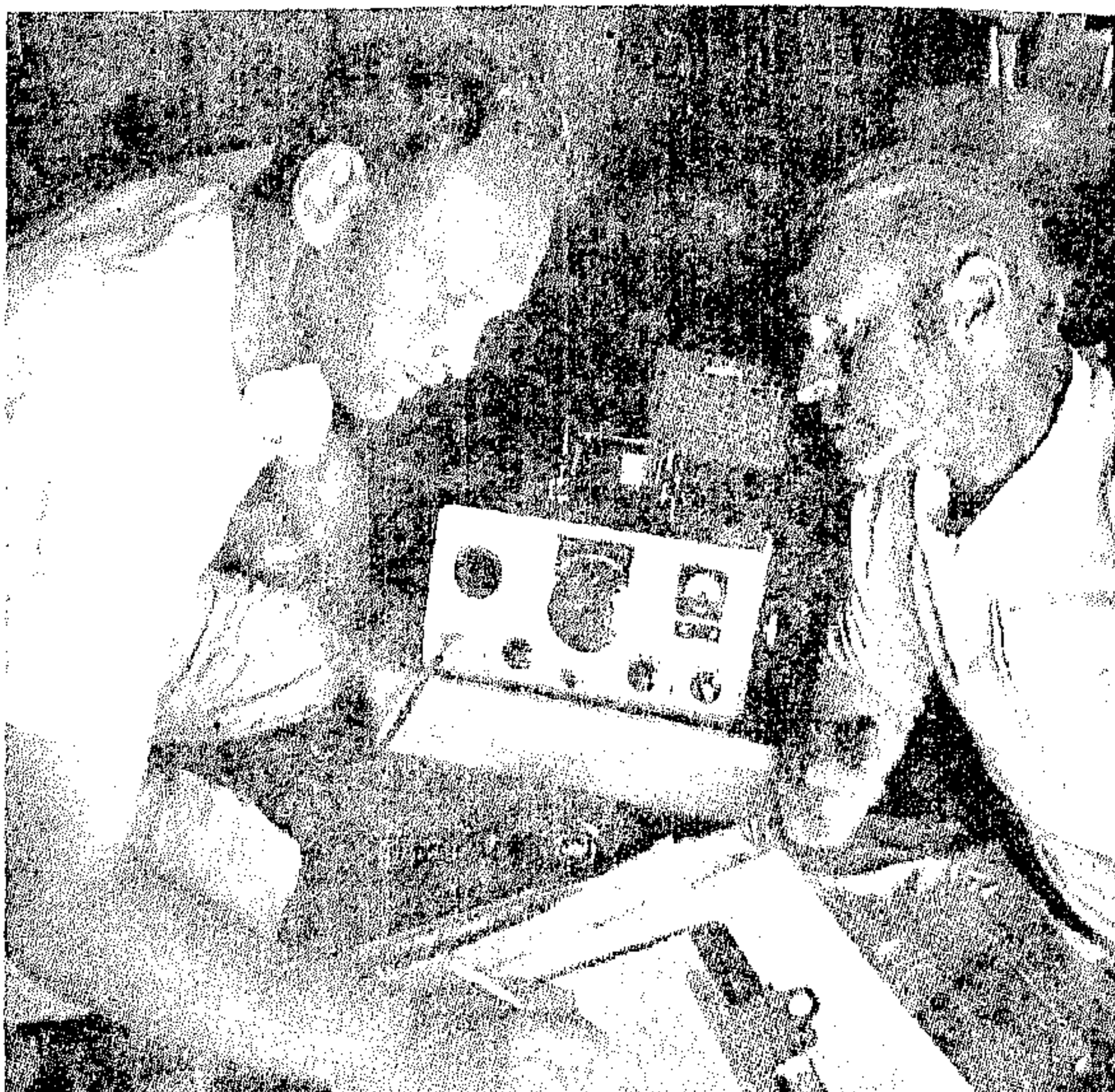
الجمال والرشاقة ، ريشها طويل تطير بنعومة فوق الصارى :
وهاجمنا قرش من الخلف وقام بهجوم عنيف على قارب النجاة ولم يكتف الوحش الأسود بذلك – وكان طوله يزيد عن ستة أقدام – بل أخذ يسبح بقوة ثم نهض وغاص تحت الأمواج ، وعندما استوى مع القارب « رع » عاودته وحشيته من جديد فغاص تحت القارب وأخذ ينهش بعض لفات البردى . وكان معنى ذلك تهديداً مباشراً للحبال . . . ومن سابق خبرتى « بكون تيكى » انحنيت فوق القارب وحاولت أن أمسك ذيل القرش الخشن الذى كان يشبه ورق السنفرة ثم رأيت جرحاً مفتوحًا فى ظهر السمكة وعن قرب سمكتين من أسماك القبطان تدوران حوله ، وفى لمح البصر



وهاجمنا قرش من الخلف وقام بهجوم عنيف على قارب النجاة

ألقى جورج رمحه فى جسم القرش وقاتل الوحش عدة لحظات ثم اختفى وفى ظهره رمح جورج. إلى أعماق المحيط . . .

بعد الأسبوع الأول من شهر يوليو بدأ شعورنا بالقلق يزداد لحظة بعد أخرى ، لأن موسم الأعاصير قد بدأ فى المنطقة التى ندلف إليها ، وقد قابل الرجال هذه الظاهرة بهدوء عميق . وفى اليوم الثامن بدأت العاصفة تهب من كل مكان ومرت بنا عدة أيام ، ونحن نواجه الأهوال ، وربطنا أنفسنا بالحبال حتى لا تقذفنا الأمواج إلى البحر ، وفى اليوم التاسع جاءنى جورج ليبلغنى أن الحبال الرئيسية قد تكومت على السطح ، وهبط على الخبر كالصاعقة ، فأسرعت فى قفزة واحدة نحو المكان فرأيت مشهداً لا يمكن أن أنساه . فقد انقسم القارب بالطول إلى قسمين ولم أر فى حياتى الأطلنطى بهذا الصفاء وهذا العمق ، وامتقع لون عبد الله وقال فى هدوء إنها النهاية لا محالة . فقد ذابت الحبال وحطمت السلسلة وسوف تتفكك الحبال جميعها فى مدى ساعة واحدة وفقد عبد الله كل أمل . فوقفت ووقف جورج بجوارى وقد شلت حركتنا تماماً . . . وأخيراً بدأنا نتحرك ، قفز جورج إلى اليم وبيده حبل سميك . وتحرك عبد الله وفى يده إبرة من الحديد . وحاولنا أن نحيك القارب الورقى . وسبح جورج تحت « رع » ومعه الحبل السميك ليربط به القارب ويجمع شمله . وبدأ عبد الله يخيط القارب ، وفى كل مرة كان جورج يضع الحبل فى عين الإبرة وهكذا . ومع ذلك ظل « رع » سابحاً لا يعبأ بشىء مما حدث له . وأبرق نورمان فى طلب النجدة وجاءه الرد أن السفينة إيفون سوف تقابلنا بعد أربعة أيام . . .



نورمان وهايردال يتصلان لاسلكيا بسفن الإنقاذ

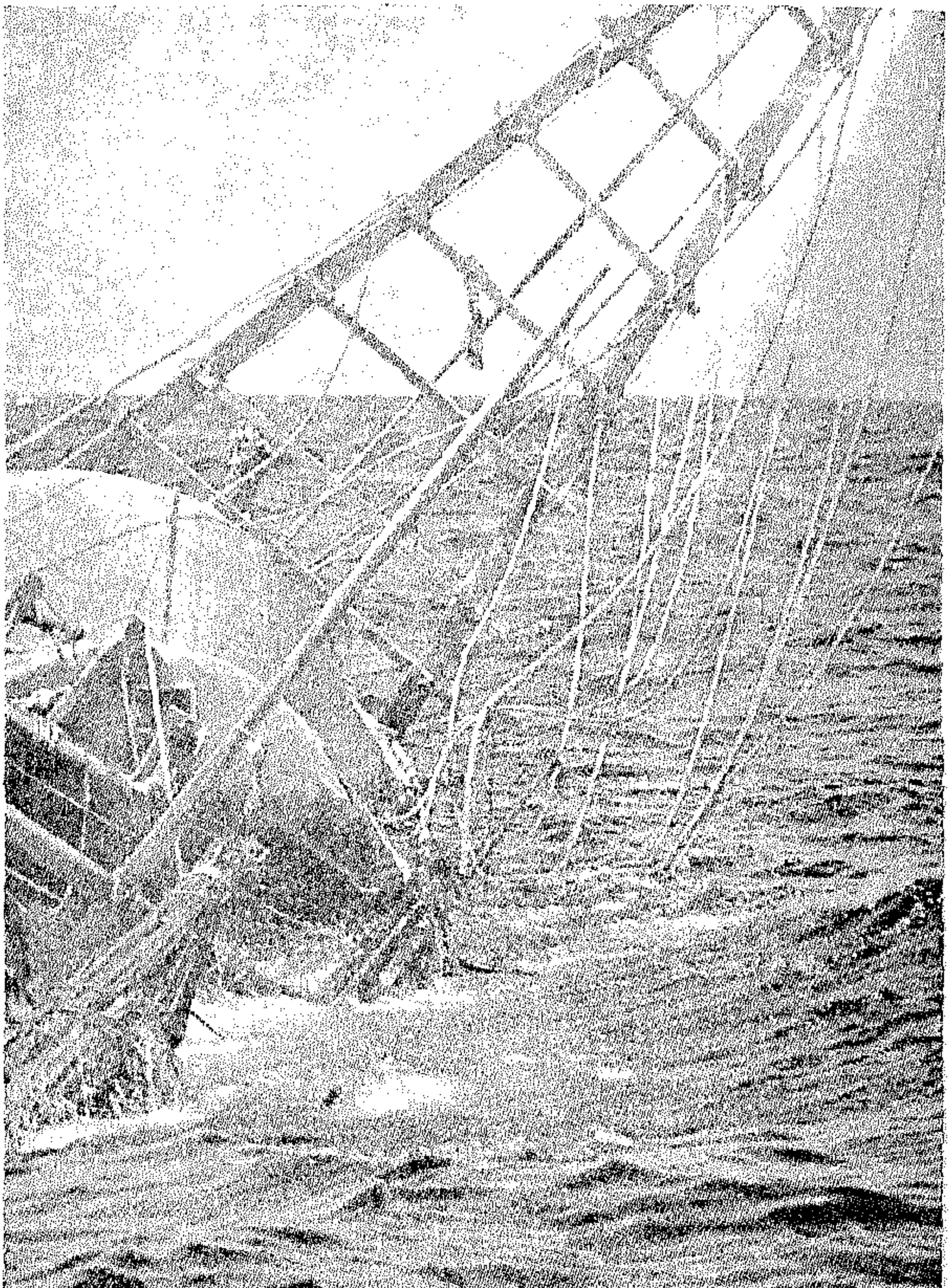
ومر يومان ، وفى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو هدأ البحر واستكان ولكن «رع» بدأ يصدر عدة أصوات غير مريحة من الجانب الذى حيكت فيه حزم البردى . وفى اليوم التالى اتجهت نحونا طيور الساحل لتزورنا . ومن اللاسلكى سمعنا صوت اليخت الذى يتجه نحونا وأنه سوف يتأخر بعض الوقت .

وأخيراً جاء اليخت فإذا به سفينة صيد أكل عليها الزمان وشرب، وتبادلنا مع البحارة بعض الإشارات ثم انصرف اليخت من حيث جاء ، وأصبحنا وحيدين فى المحيط مرة أخرى . وبدأت الأمطار تهطل من جديد وتشتد الرياح ، ونشطنا للعمل، فلم يبق أمامنا غير أيام ونصل إلى الشاطئ ، واهتز « رع » اهتزازاً ونهض البحر وفار واستمر الشراع المصرى مرفوع القامة لا يعبأ بالعاصفة وكان يبدو لنا وكأننا نمتطى صهوة وحش كاسر . . .

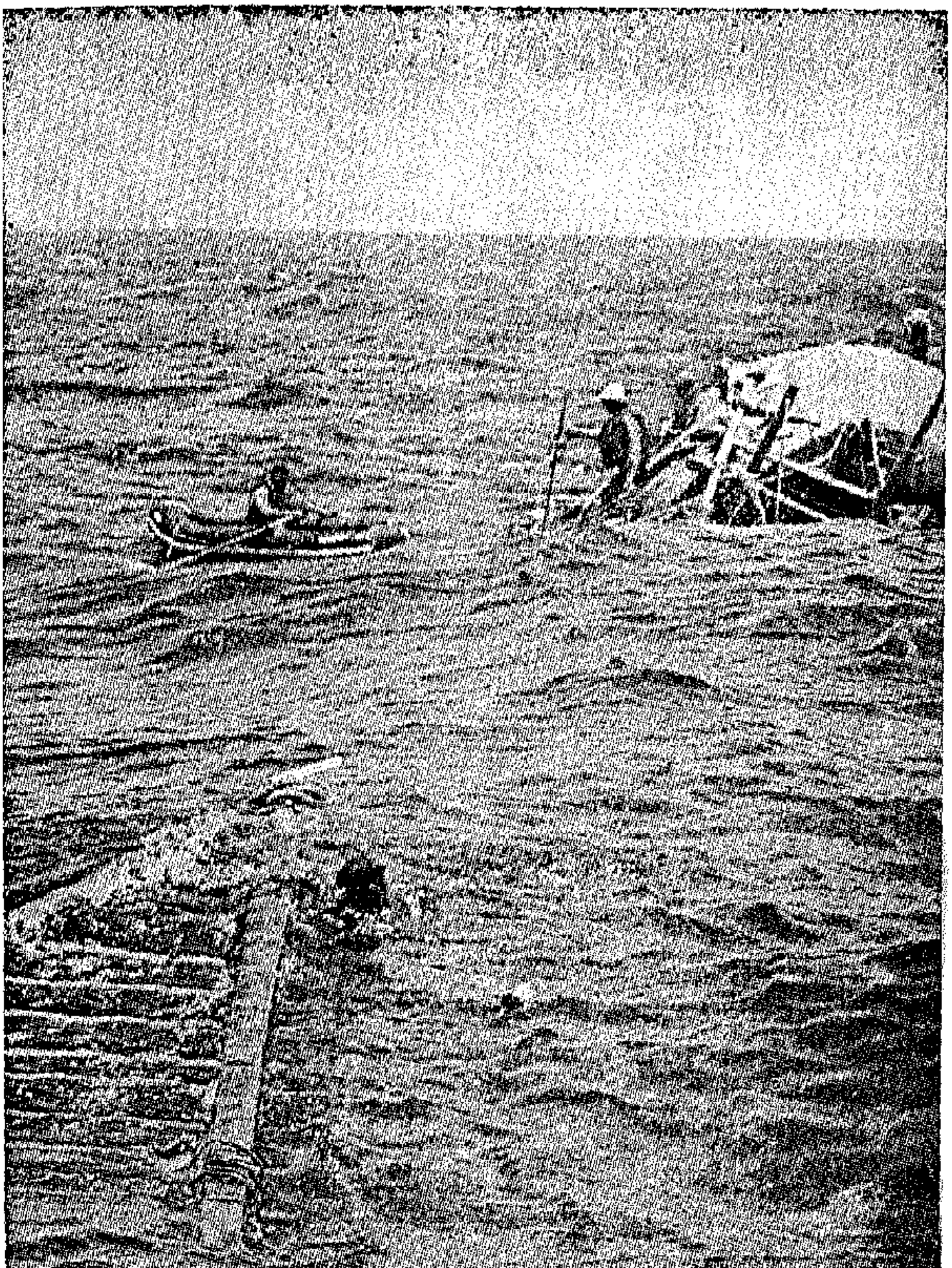
تلبد الجو وهطلت الأمطار « ورع » يسرع فى سيره وكأنه يقلل من شأن الأعاصير والأنواء ، وسقطت أطنان الماء بعنف على ظهر القارب وظل الحال على هذا المنوال لمدة ثلاثة أيام كاملة وتسابق «رع» مع البحر الغاضب وعاد جورج وعبد الله يحيكان حزم البردى من جديد . . .

وفى الرابع عشر من شهر يوليو اتصلنا باليخت شنندوه وهو يتجه شرق بربادوس Barbados وعرفنا أن العاصفة بلغتهم أيضاً وقد يصلنا فى بحر يوم أو يومين . وفى الواحدة صباحاً أعلن يورى أن الساحة قد تحطمت وأمر بأن يخرج كل إنسان من المقصورة أو من مكمنه . ومع ذلك فالشراع منشور ، ولكن القيادة أصبحت عسيرة . وفى الصباح اكتشفنا أن يورى كان يقود القارب بمجذاف عادى . . .

وفى اليوم الخامس عشر بلغت العاصفة ذروتها ، ولم يعد فى استطاعة الشراع أن يقاوم أكثر من ذلك فطويناه. ولمعت البروق وهطلت الأمطار، وبعد يوم كامل اتصلنا باليخت شنندوه فطلب إلينا القبطان أن نرسل



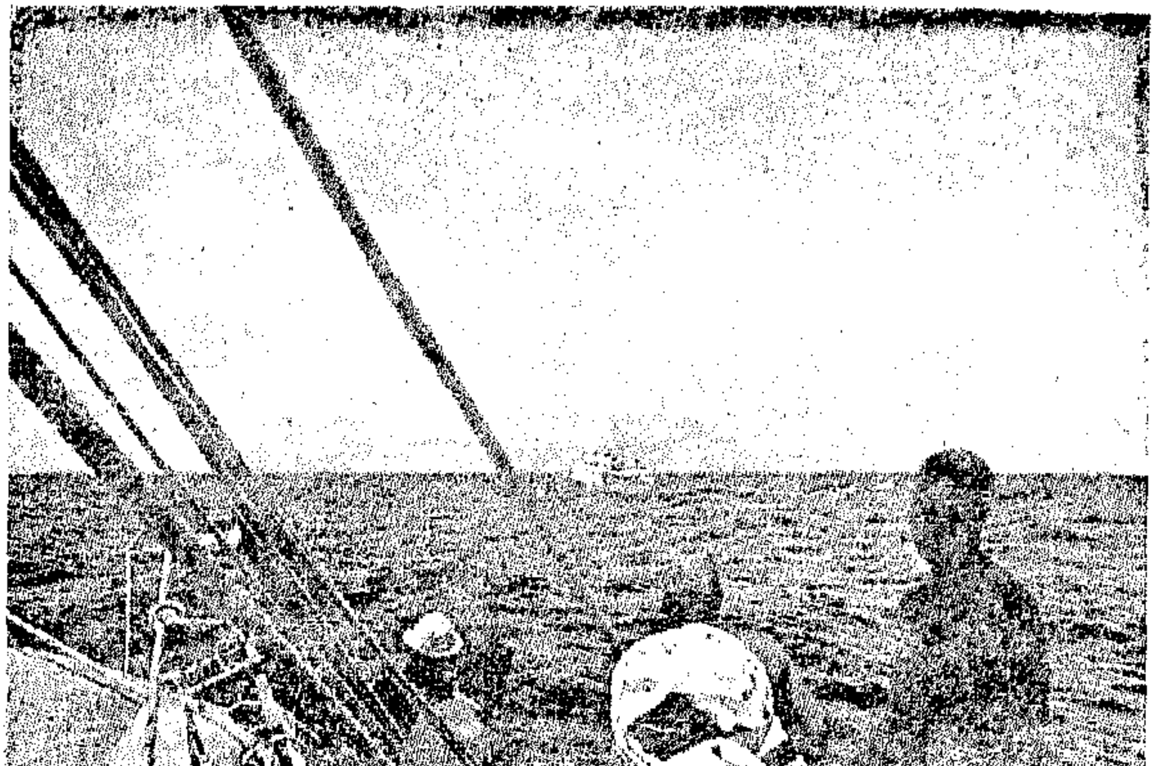
القارب رع يتحطم تماما وتفشل الرحلة الأولى



القارب رع وقد أنقلب على ظهره وجونج يسبح بجوار الصارى

إشارات بعد الظلام لتحدد مكاننا . وكانت الريح قد هدأت ولم يكن فى استطاعتنا أن نشعل صواريخ الإشارات ، فاتصلنا بالقارب مرة أخرى ، فأخبرنا بدوره أن نفس الشيء حدث لإشاراته المبتلة ، وكان من العسير علينا أن نعرف أو نحدد مكاننا بعد العاصفة . . .

وفى عصر يوم ١٦ يوليو كان الجو قد تحسن كثيراً ، فمكثنا نبحث عن اليخت فى كل اتجاه ، وأخيراً ظهر اليخت . أما كيف نجونا من العاصفة فوق



يخت أمريكى جاء ليصور آخر مراحل الرحلة

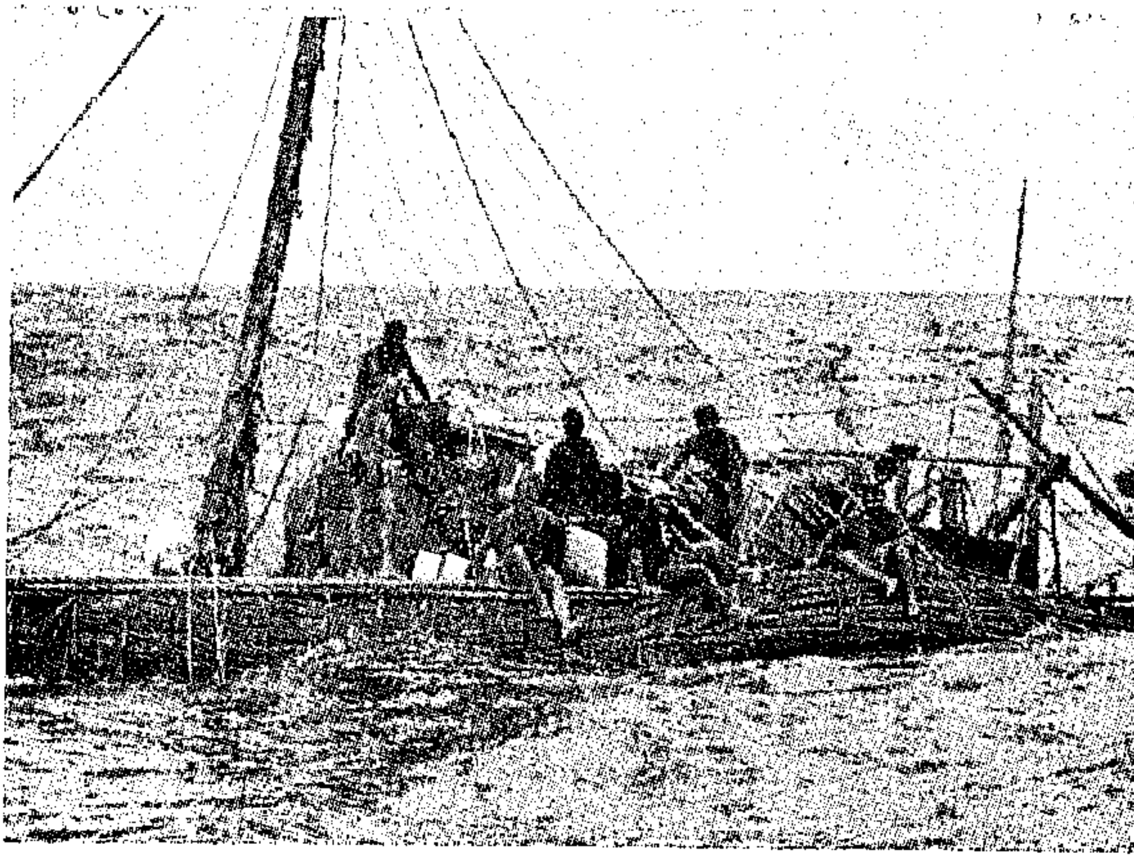
ما تبقى من القارب «رع» فقد كان الأمر من قبيل المعجزات، وطار طائر أسود فوق رءوسنا وظهرت أسماك القرش تقطع المياه من حول «رع» ويبدو أن القروش كانت تتبع اليخت من الجزر وكان القارب قد شرع يغوص تحت الماء إلى الأبد . ونزل قارب مصنوع من الكاوتشوك إلى الماء وانفرجت أسارير عبد الله عندما رأى رجلا فى مثل لونه يطل عليه من اليخت وحيّاه عبد الله بلغة بلاده «تشاد» ثم بالفرنسية وأخيراً بالعربية . وهبطنا بسرعة إلى القارب بعد أن قضينا ثمانية أسابيع فى «رع» .

وفى يومى ١٧و ١٨ يوليو نقلنا الأشياء الهامة إلى اليخت ، وشرعنا نربط أو نحيك حزم البردى بعضها ببعض ، وغاص جورج تحت «رع» وبدأنا نرى أسماك القرش، وقد أحاطت بالقاربين . وحاول قرش أن يلتهم جورج فأسرع الأخير وتعلق برع وكان القرش قد اقترب من ساقيه وكانت ساق جورج بها علامة عضة قرش سابقة فمنعته من النزول إلى الماء مرة أخرى .

أصبح القارب «رع» عبارة عن حزم من البردى تطفو فوق الماء لا شىء أكثر من ذلك . وناديت على الرجال أن يعودوا إلى «رع» ، وقلت إنه يبدو أن فى ذلك نهاية للتجربة ، فقد عشنا على ظهر القارب لمدة شهرين ، ومع ذلك فقد ظلت أعواد البردى طافية قطعنا خلالها ٥٠٠٠ كليومتر، وأثبت هذا أن القارب البردى يستطيع الإبحار فى المحيطات. لقد حصلنا على الجواب، وليس هناك من سبب لفقدان حياتنا . وكان مما قاله جورج وأنا أحاول أن أحصل من كل رجل على

رأيه فى مواصلة التجربة : هذا قارب مصرى وأنا أمثل مصر ولا بد أن أواصل التجربة ما دامت حزمة البردى تستطيع أن تحملنى فوق المياه .

ولكنى اتخذت قراراً مخالفاً كان وقعه شديد الأثر . . . لقد قررت ألا يقوم الرجال بمخاطرة أخرى ، وقد استبد بهم التعب وعانوا من الأهوال مالم يعانه إنسان من قبل . . . كان القرار لى وحدى . . .



بحارة السفينة « رع » قبل أن يتحطم القارب من اليسار إلى اليمين نورمان وجورج ويورى وعبد الله وثور وكارلو وسانتياجو

الباب الحادى عشر

ستة آلاف كيلومتر فوق قارب من الورق

استيقظت من نومى مضطربًا . . . تتقاذفنى الهواجس والأوهام . . . المياه من حولى، فهل كنت أحلم . وهل انتهت فعلا رحلة «رع» ؟ وهل كان ذلك حلمًا مزعجًا عندما غرقت مؤخرة «رع» فحطمنا الشراع ؟ . . . وهل كانت هذه مجرد أضغاث أحلام وأننا لم نترك بعد الحطام الغارق ؟ اختلط علىّ الأمر لحظة وأنا أحاول أن أتبين الحقيقة من بين هذه الأوهام . إن الرحلة فوق «رع» قد انتهت ... وكنت قد أقسمت ألا أحاول هذا الأمر ثانية . . . ولكن هاأنذا فى مقصورة مجدولة من الأغصان . . . ونفس الفتحة التى تطل على العالم الخارجى حيث تصطخب الأمواج العاتية تحاول أن تتطاول على سماء الليل . . . وهناك نفس الشراع المصرى كما هو لم يتغير ، منشور فوق الصارى القوى . وفى مؤخرة السفينة الذيل الرفيع لقارب البردى يرفع من فوقنا فى انحناءة رشيقة متعالية برغم أننا رأيناه يغوص بحسرة وألم فى البحر الصاخب . . . كنت متعبًا وذراعاى تؤلمانى . فجلست عندما جاء نورمان زاحفًا على ركبتيه وأضاء المصباح فى وجهى ثم سلطه على رأس به لحية حمراء ينام صاحبها فى زكيبة بجوارى وقال نورمان : جاء ميعاد دوريتكما يا ثور وكذلك أنت يا كارلو . . .

التقطت مصباحي الصغير وأنرته . . . وكان هناك الآخرون: كارلو، وسانتياجو، ويورى، وجورج، وبينهم رأيت وجهاً غريباً عنى . . . وجه رجل آسيوى شعره فاحم وكان صاحب ذلك الوجه هو « كى أوهارا » Kei Ohara من اليابان . ولكن كيف جاء على القارب «رع» ؟ طبعاً تذكرت . . . فنحن الآن على القارب الثانى . وكنت قد بدأت كل شيء من جديد . . . وكنا قد ابتعدنا عن القارة الأفريقية مرة أخرى . ولم نمر هذه المرة بكيب جوبى . ولم يكن عبد الله ذلك الواقف هناك عند الدفة والذى جاء ميعاد انتهاء نوبته . بل كان الرجل أفريقياً آخر لم أعرفه جيداً من البربر يدعى مدنى آية أوهانى Madani Ait Ouhanni . . .

وفوق الجسر كان البرد شديداً وأرانى مدنى كيف أدير مجداف الدفة للابتعاد عن الأرض من غير أن تطوى ريح الساحل الشراع العظيم . واتخذ كارلو مكانه لمراقبة الأنوار من الأرض والسفن . وشعرنا بالخطر يحدق بنا من كل جانب حتى استطعنا أن نخرج من الساحل الصخرى للصحراء ومن بين السفن العديدة التى تجرى هنا وهناك حول أفريقيا .

ولكن سبق أن فعلنا ذلك . . . وكانت هذه المرة إعادة جريئة لرحلتنا السابقة وكنا قد عبرنا كيب جوبى، وها نحن نبحر مع الريح مرة أخرى وفى مخاطرة جديدة . فلماذا لم نبدأ من وراء كيب جوبى هذه المرة ؟ ولماذا نحن على سطح «رع» الثانى ؟ ولماذا أعدت هذه المخاطرة مرة أخرى ؟ هل أستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة ؟

أجاب كارلو بدلا عنى : لا بد أن نقطع هذه الأميال القليلة الباقية

على باربادوس بعد أن وصلنا على « رع » الأول إلى نقطة الاقتراب .

لقد دفعنى كارلو وزملاؤه على إدارة العجلة من جديد لأننا كنا على قيد أميال للقضاء على شكوكنا ... كما كانت رغبتنا جامحة لاستطلاع ما إذا كان فى الإمكان حقاً أن نعبر المحيط على قارب ورقى مصنوع بطريقة أفضل ... بعد أن اكتسبنا خبرة واسعة ... لقد حدثت أشياء كثيرة فى أثناء المدة التى مضت بين إرساء «رع» الأول و «رع» الثانى ... فقد رأيت فى هذه الشهور العشرة التى تفصل بين الحادثتين العديد من قوارب البردى . . .

فى مستنقعات بحيرة أوريستانو Oristaho Marshes الواسعة نزلت مع كارلو مورى إلى أحد هذه القوارب التقليدية المصنوعة من نبات البردى لألقى نظرة على أبراج سردينيا . . . ما أكبر الشبه بين هذه الأبراج وأبراج المايا التى كانت تطل على الأهرامات ، وبداخلها لوحات دقيقة التفاصيل لبحارة بيض يحاربون رجالا داكنى البشرة على الشاطئ . فهل هناك حلقة مفقودة ؟ وهل بنى سادة مايا ومهندسوها المعماريون أبراجاً مثل تلك الأبراج المنتشرة فى سردينيا ؟ .

فى هذه المرة فكرنا فى بناء القارب « رع » فى مراكش أو ما يطلقون عليه هناك اسم (ماديا) أى قارب مصنوع من نبات البردى . وفى ميناء العرائش بالقرب من مصب نهر لوكاس[1] بدأنا العمل ، وبعد سفر يومين مع أحد البربر حاولنا العثور على آثار العربات التى اتجهت نحو

(١) Lucus Rives .

إحدى القرى النائية . وأخيراً عثرنا على الطريق بعد أن ترجلنا عن السيارة ورأينا أكواخاً وكهوفاً يرجع تاريخها إلى العصر الحجرى ، مسقفة بأعواد البردى . وفى هذه القرية البعيدة كان سكانها بيض البشرة زرق العيون وبها آخرون من الزنوج . . . وصنع انا بناة القوارب «رع» الثانى قوياً فتياً يتحمل السفر فى البحار والمحيطات لعدة أشهر . . .

فى هذه المرة كان «رع» الثانى أقوى من «رع» الأول . وفى هذه المرة أيضاً جئنا بأعواد البردى من منابع نهر النيل لأن نبات البردى فى مراكش لم يناسبنا ، ولم يستطع عبد الله أن يحضر موسى وعمر من تشاد لبناء القارب الجديد بسبب اضطراب الأحوال السياسية هناك . . . وفضلت أن يقوم ببناء القارب خبراء مراكش الذين يبنون عادة قوارب قوية على نمط قوارب البحر الأبيض المتوسط بمؤخرة ترتفع فى الهواء تماماً كالمقدمة . ولا يزال سكان أمريكا الجنوبية يبنون قواربهم بنفس الطريقة فى بوليفيا وبيرو ويتبعون نفس النظام الذى كان يستخدمه المصريون القدماء فى ربط القارب بالحبال ، بحيث يتكون جانب السفينة من حزمة واحدة وبطريقة تختلف تماماً عن بنائها فى بحيرة تشاد حيث يتكون جانب السفينة من عدد من الحزم مربوطة جنباً إلى جنب . . .

فى هذه المرة أحطنا عملية بناء القارب بسرية تامة حتى أتفرغ لكتابة تفاصيل رحلة «رع» الأول . وقام صديقى ماريو بوتشى بشحن اثنى عشر طناً من أعواد البردى إلى ميناء صافى تحت اسم مستعار « بامبو » حيث فرغت الشحنة واختفت فى الحال ووصل كذلك إلى مطار الدار

البيضاء Gasa Blanca أربعة من هنود إيمارا ، ومعهم مترجم بوليفى واختفوا كذلك فى هدوء . ومن مصر جاءنا قماش الشراع ووصلتنا مقصورة مجدولة من البوص أيضاً من إيطاليا . ووصلت مراكش أخشاب لصنع الصارى ، والمجاديف وكميات من الحبال بدون أن يلاحظها إنسان ولم يعرف أحد بخبر بناء « رع » الثانى غير عدد قليل جداً من الأصدقاء . . .

وفى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٩٧٠ ولد «رع» الثانى حيث تحرك ببطء شديد وكأنه طائر من الورق خرج من بيضته ، ودشنت السيدة عائشة زوجة حاكم صافى القارب «رع» الثانى ، وتناثر لبن الماعز فوق القارب الجاف قبل أن ينزلق إلى الماء. ودوت فى الأفق عاصفة حادة من التصفيق ، فقد ازدحم الميناء بألوف الناس جاءوا من كل مكان . . . وانزلق القارب إلى الماء فدوت عاصفة أخرى من التصفيق ، وفجأة هبت ريح عاتية أدارت القارب ثم دفعته دفعاً إلى صخرة عالية فتعالت الصرخات وأخفى الناس وجوههم بين أيديهم. واصطدم «رع» الثانى بالصخرة العاتية وتلقى ذيل «رع» الثانى الصدمة فانثنى كالريشة . . . وتحطمت القلوب، فقد أصيبت الدفة .. الجزء الذى لا بد أن يكون سليماً معافى هذه المرة ، واستدار هيكل القارب ورقص فوق قمم الأمواج ومنها إلى الصخور . . . ولم يستطع إنسان واحد أن يوقف القارب فى هذه الريح الصرصر العاتية ، وبدا أن التجربة قد انتهت قبل أن تبدأ . . . ولكن لا . . . فالذيل الذى انثنى من هول الصدمة استرد هيئته كأنه زنبرك . . . وارتد القارب ككرة من الكاوتشوك مرة ومرتين . لو كان قارباً من الخشب لتحطم وهوى إلى

القاع . أما «رع» الثانى فلم يخدش خدشاً واحداً . مجرد علامة بسيطة فوق أعواد البردى الذهبية . ثم استطاع قارب الإنزال أن يلتقط الحبل ويجذب «رع» الثانى الذى راح يرقص يميناً ويساراً فى العاصفة الهوجاء ...

لقد كان «رع» الثانى قوياً متماسكاً بدرجة مذهلة فلم يهبط بوصة واحدة فى البحر ، وكان «رع» الأول يسابق الريح كأنه ثعبان . أما «رع» الثانى فقد كان خشناً قوياً كأنه كرة سلة . وأعجب بحارة القارب بالتصميم الهندى الرائع الموروث .

كان الهنود الأربعة الذين بنوا رع الثانى هم : ديميتريو Demetrio وجوزيه José وبولينو Paulino والمترجم البوليفى سينيور زيبالوس Zeballos وكان طول القارب بعد الانتهاء من بنائه ٣٩ قدماً وعرضه ١٦ قدماً وسمكه ٦ أقدام . وطول المقصورة الرئيسية ١٣ قدماً وعرضها ٩ أقدام وتتسع لثمانية أشخاص . وكان أقصر من «رع» الأول بـ ١٠ أقدام . . .

فى هذه المرة غمس بناة القارب أطراف أعواد البردى فى القار حتى لا تمتص الماء ، وفكرت لماذا لا نطلى القارب كله بالقار ، وبذلك لا يهبط فى الماء إلا بقدر نصف بوصة فقط ؟ وربما كان المصريون يفعلون ذلك لأن جدران القوارب القديمة كان لونها أسود وليس أخضر أو أصفر . . .

وبعد انتهاء رحلة «رع» الأول كتب إلى كثير من رجال الدين يقولون إنه طبقاً لما جاء فى الإنجيل فقد كان فلك نوح مطلياً بالقار وأن أم النبى موسى عندما وضعته فى سلة وهو طفل صغير وألقت به إلى النهر استخدمت القار أيضاً فى طلاء السلة المصنوعة من أعواد البردى . ومع

ذلك فقد كانت هناك قوارب من البردى غير مطلية بالقار وكانت تطفو ما دامت الحبال تتحمل قوة التيار ... وفى «رع» الأول استخدمنا كميات هائلة من الحبال . أما الهنود الذين صنعوا «رع» الثانى فلم يستخدموا غير حبال رفيعة لفوها بطريقة حلزونية من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها . . .

اندفع بنا «رع» الثانى بسرعة يقفز فوق قمم الأمواج فى نشاط الفتى المراهق الجسور ، وفى اليوم الأول قطع ٩٥ ميلا بحرياً أو ١٧٧ كليو متراً ، وفى الليلة الأولى عبرنا جزيرة موجادور الصغيرة . وفى اليوم الثانى هبت علينا ريح عاتية من الصحراء فاضطررنا إلى توطئة الشراع حتى لا يتمزق مقدم السفينة إلى شرائط من البردى . وفى اليوم الثالث سكنت الريح واختفى الساحل فى الضباب تماماً . . . وفى اليوم الرابع كان الهدوء قد شمل البحر ، فقال البحارة : إن القارب يغوص بسرعة أربع بوصات فى اليوم الواحد ! . وكان هذا الحدث أو التجربة جديدة بالنسبة إلينا لأن شيئاً من هذا لم يحدث لرع الأول فماذا حدث ؟ . فهل لم تنجح حبال الهنود فى الضغط على أعواد البردى بما فيه الكفاية ؟ أو كان القارب من نوع آخر من البردى هذه المرة ؟

تراهن الرجال . . . هل سنعبر المحيط هذه المرة أم نفشل ؟ قال اثنان سوف نعبره وقال الستة الآخرون : إننا سنفشل لا محالة . . . ولم أدر من منهما كان على صواب . . . كنا نغوص بسرعة : وفى اليوم الرابع جاءنى جورج وعلامات القلق بادية عليه ، وقال إنه فكر مع سانتياجو وكارلو بضرورة التخلص من الأشياء التى لا لزوم لها بما فى ذلك جرار الماء ...

فهل كان خبراء البردى على حق هذه المرة ، وأن القارب لن يتحمل أكثر من أسبوعين فى البحر ؟ وكنا فى حقيقة الأمر قد تركنا القارب «رع» الثانى عشرة أيام فى ميناء صافى ليمتص الماء وغادرنا الميناء منذ أربعة أيام فقط وغاصت حزم البردى تحت الماء إلى نصفها ..

* * *

استقر رأينا على التخلص من قاربى النجاة ووضعنا رسالة فى زجاجة وربطناها بالقارب الكبير . . . وطار القاربان كيلّونين فى اتجاه الشاطئ . ثم ألقينا بزكائب البطاطس والأرز والذرة والدقيق وزكيبتين لم نعرف ماذا كان بهما . . . وكان الأفضل أن نجوع بدلا من أن نغرق . ألقينا بالحبوب التى تأكلها الدجاجات وقوارير ولفة كبيرة من الحبال ومطرقة وكتب ومجلات وجرائد ، فكل أوقية كان لها حسابها ، فأمامنا آلاف الأميال . . . والحقيقة أننا نغوص فلماذا ؟ حاولت أن أقنع نفسى ثم أقنع الآخرين بأن هذا الغوص سوف يتوقف . . . ومرت ثلاثة أيام أخرى وبدا الأمر كأننا لا نغوص ولكننا لا نتقدم كثيراً فحاولنا أن نستخدم المجاديف الثقيلة ولكن بدون فائدة . وانتهى الخطر . فقفزنا إلى البحر لنستمتع بالحياة فى هذا الهدوء الشامل . البطة مربوطة من ساقيها والقرد صافى يحاول أن يصل إلى سطح الماء ، وسبحنا تحت القارب «رع» حيث رأينا مدارس عديدة من الأسماك . وكان القارب يبدو رائعاً تحت الماء فى غاية القوة والمتانة . وكان الذيل قوياً ورشيقاً . وقال جورج ويورى إن حزم البردى رفعت نفسها قليلا فوق

سطح الماء . وربما كانا على صواب لأن الشمس الاستوائية قد امتصت الرطوبة من أعواد البردى أثناء الأيام الخمسة الأولى .

مكثنا أسبوعاً ونحن فى كسل وتراخ لا تهب الريح إلا نادراً من الشرق والغرب ، ثم بدأ الهواء يهب خفيفاً فى بادئ الأمر ، وفى كل مرة كنا ننزل فيها إلى البحر كنا نربط أجسامنا بحبال حتى لا يندفع عنا القارب ولا نستطيع اللحاق به .

وجاءت الرياح . . . فأسرعنا إلى المجاديف . . . وفى يوم ١٦ مايو خرج نورمان من المقصورة ومعه السكستنت – جهاز لقياس الزاوية – أو آلة للتحقق من مركز السفينة بالنسبة إلى خطوط الطول والعرض – ومعه كذلك ورقة وقلم وتنفس الصعداء وقال إننا نعبر كيب جوبى وهذه صخور الشاطئ أعداء «رع» الثانى الخطرة وقد تخطيناها وأصبحت خلفنا ، وأمامنا البحر الآن وقد فتح ذراعيه عن آخرهما لاحتوائنا . . .

كانت الحياة فوق قارب مصنوع من الورق أو من نبات البردى حلوة رائعة . وكم من مرة كانت طيور البحر تحط على أعلى الشراع أو مقدمة السفينة لتستريح وكذلك العصافير والبلابل الملونة والحمام ، وتشاركنا المراقبة فوق جسر القارب بعض الوقت قبل أن تستأنف رحلتها الطويلة عبر المحيط العريض . . . وأصبحنا حديقة حيوان عائمة ، فمدارس الأسماك من تحتنا والطيور فوق القارب بألوانها الزاهية تلتقط ما يلقى إليها من حبوب وتشرب الماء القراح فى ذلك المحيط الملحى . . . واستمر القارب فى سيره لا يلوى على شىء ، وعبر جزر كنارى بدون أن يحاول الوصول إلى الأرض ،

وبدأت الطيور التى استراحت فترات طويلة تتركنا إلى الشاطئ .

عندما جاءت الريح ارتفع «رع» الثانى قليلاً فوق الماء وبدأت سرعته تزداد من ستين ميلا إلى سبعين ثم إلى ثمانين ميلا فى اليوم الواحد وبذلك أسرع بنا إلى المحيط المفتوح .

ومرت الأيام سعيدة هانئة ، كنا نغنى فيها ونضحك ، لا شىء نرمه ... اشتركنا فى مناقشات عديدة بروح ملؤها المحبة والصراحة والسماحة . ومرت الأيام والليالى والأسابيع ، ومر شهر بأكله حتى ضقنا ذرعاً بهذا الهدوء . . . لم تكن الرحلة هذه المرة مثل الرحلة على القارب «رع» الأول ... لا إثارة ولا أشياء تتحطم ، وتتناثر ولا حبال تتمزق أو تنهار .

قطعنا ١٧٢٥ ميلا من نقطة البداية ، وكان علينا أن نقطع ١٥٢٥ ميلا فى مياه ملوثة بالزيت والأسماك النافقة. وفى اليوم التالى اشتدت الريح ، وفى اليوم الذى تلا ذلك ، أى يوم ١٨ يونية ، بدأ البحر يعلو والأمواج ترتفع كالطود الشامخ بشكل لم نره من قبل .كان الأمر مثيراً فى أوله ثم أصبح عادياً بعد مرور الوقت . وكان الشىء الأكثر إثارة وغرابة احتمال القارب ومواجهته لهذه الجبال من المياه . . . ووقفت وحدى فوق الجسر فى نوبة حراستى خلف المقصورة أحرك المجداف لنسير فى الطريق برغم ارتفاع الأمواج إلى خمسة وعشرين قدماً . واستطاع «رع» الثانى أن يمر من بين جبال الموج هذه بأناقة ورشاقة ولم نحصل منها إلا على رذاذ . . . ولكن حركة الأمواج الصاخبة المضطربة لم تتركنا وشأننا ، بل بدأت المياه تنهال على القارب كأفواه القرب وتحطم المجداف الرئيسى فألقينا بالمرساة ، وانقلب

البحر رأساً على عقب ، ونجحت فى تحريك مجداف الجانب الأيمن للسفينة عدة بوصات قليلة ، ومع ذلك ظلت الأمواج تضرب القارب كأنها مطارق . فاضطررنا إلى توطئة الشراع حتى لا تتمزق السفينة فهبط القارب فصرخ نورمان : « ارفعوا الشراع قبل أن تسيطر علينا الأمواج » . ومع ذلك كله فلم يتحطم عود واحد من أعواد البردى بل صمدت كألواح الخشب ، وعلمتنا هذه الحادثة أنه كان يجب أن نربط المجداف بحبال رفيعة . وكان هذا ما فعله قدماء المصريين ، ولكن هذه الملاحظة الدقيقة فاتتنا . . .

كان من العسير أن ننام فى هذه الليلة فقد أصبحنا مرة ثانية على سطح القارب « رع » الأول وأطنان الماء تتدفق على جوانب السفينة وجانبها الأيمن ، وكأن نهراً يجرى من فوقنا ثم يختفى ويعود إلى التدفق وهكذا . . .

وجاء يوم آخر لم يكن أفضل من سابقه ، وكنا منهكين تغطينا المياه الصاخبة ، فشرعنا نلقى بالقوارير المحطمة إلى الماء ، ونربط الأشياء ، ونحكم شدها بالحبال . وكانت الحبال الحلزونية الملفوفة حول البردى لا يزيد سمكها عن أربعة عشر ملّيمتراً ، ولم يسمح الهنود بأن تلف حزم البردى بحبال سميكة ، ومع ذلك فقد كنا نغوص بسرعة تحت جبال الماء المتساقطة علينا .

استطاع القارب أن يواجه الأمواج بشجاعة وأصبحنا فى وسط الأطلنطى على بعد ١٩٠٠ ميل من نقطة البداية ، وعلى بعد ١٣٥٠ ميلا من هدفنا . ومكثنا يومين كاملين نقاتل فى سبيل إنقاذ أرواحنا ومعداتنا ،

وظلت الأمواج ترتفع إلى خمسة وثلاثين قدماً . وبعد مجهود مضن استطعنا أن نحول مجداف الدفة نحو البحر ، ونتجه غرباً بسرعة تحت الشراع المطوى . وفى اليوم التالى رفعنا الشراع فارتفع القارب وازدادت سرعته إلى ثلاث عقد فقطعنا أكثر من مائة كيلومتر ، فى اليوم الواحد . وثبت يورى ستاراً سميكاً على جانب «رع» ليوقف فيضان الأمواج على السطح ونجحت التجربة .

ومرت الأيام والأسابيع ونحن فى صراع مع الأمواج، وبعد تحطيم المجداف بدأنا نوزع الماء على الركاب بقدر نصف لتر كل يوم . كما كان نصيب البطة سندباد والحمامة والقرد تماماً كنصيب الرجال . . . واحتج جورج على هذا التقسيم .

خطرت لنا فكرة ونحن فى نوبة الحراسة : إذا استطعنا أن نحرك الصارى إلى الأمام قليلا فمن السهل أن يقود نفسه مع الريح . . . ونفذنا الفكرة بعد عمل دام عدة ساعات ،وتحسنت القيادة فى الحال واتجه القارب «رع» الثانى غرباً بسرعة خيالية وتوقفت حكاية غوصه تحت الماء ، ثم قررنا نشر مقدمة السفينة فاستقام القارب فى سيره ، وبعد أيام قليلة أخرى قررنا نشر قمة المؤخرة أيضاً وذلك لتخفيف وزن القارب .

* * *

فى النصف الثانى من الشهر الثانى كنا نبحر بسرعة فى اتجاه بربادوس Barbados واتصلنا لاسلكياً بعائلاتنا ونقل إلينا المذياع أن قارب أبحاث سوف يزورنا فى الغد ... وفى يوم ٢٥ يونية هبطت على «رع» الثانى

فراشة كبيرة ، فهل أصبحنا قريبين من الأرض ؟ . . .

بلغنا المنطقة التي هجرنا فيها « رع » الأول بعد الأيام العصيبة التي قضيناها في صراع مع البحر . وفي نفس المكان تقابلنا مع عدد من أسماك القرش ، ولكنها في هذه المرة لم تعبأ برع الثاني .

وفي السادس والعشرين من شهر يونية بدأ البحر يثور مرة أخرى وهطلت الأمطار . وفي اليوم التالي اختفت الحمامة بعد أن حامت حول «رع» في دائرة . وكان معنى هذا أن الطوفان قد انتهى بعد أن فقد الفلك حمامته . . . وفي يوم ٢٨ يونية ارتفعت حرارة الماء درجتين ، وفي التاسع والعشرين تسلق القرد صافي الصاري وراح ينظر إلينا من هذا العلو الشاهق وفشلت جهودنا في إنزاله ، وعندما أحضرنا لعبته المفضلة ، ضفدعاً من الكاوتشوك ، هبط على الأثر ، ومن المقصورة صرخ نورمان فقد اتصل لاسلكياً بقارب الأبحاث الذي طلب إلينا إطلاق بعض الصواريخ للعثور علينا في البحر المائج .

بعد منتصف الليل أيقظني نورمان وهو يقول : أسرع لترى ماهناك ، فأسرعت ومن خلفي سانتياجو لأرى ما الخبر . . . وكان ما رأيته كأنه يوم يوم القيامة ، ففي الأفق البعيد في الشمال الغربي نهض قرص من البحر واتسع اتساعاً غريباً كأنه قرص من الألمنيوم أشد لمعاناً من طريق اللبانة ومستديراً استدارة كاملة . وكان هذا القرص يتجه نحونا عبر السماء . وكان القمر في الناحية العكسية ، فظننت في أول الأمر أنه انعكاس لحاجز من الرطوبة تنبعث من خلفه أنوار كاشفة أو ربما سحابة ذرية

سببها خطأ إنسانى ، أو ظاهرة من ظواهر الأضواء الشمالية . وغلب على ظنى أنها أجسام غريبة تهبط علينا من الفضاء الكونى . ثم فجأة توقف نمو هذا القرص الغريب وذاب فى الحال واختفى تماماً ووقفنا حائرين لا نستطيع أن نعلل هذه الظاهرة . . .

أطلقنا عدة صواريخ فى بهيم الليل وسمعنا بعدها صوت القارب . وفى اليوم التالى سمعنا أن الظاهرة التى رأيناها فى الليل شوهدت كذلك فى بربادوس ، فهل كانت مجموعة من الصواريخ أطلقت من كيب كيندى انفجرت واحترقت وهوت من الفضاء ؟ لم نعرف السر مطلقاً ، وقال البعض إنها أطباق طائرة لأننا كثيراً ما رأينا أضواء برتقالية صغيرة فى الشمال الغربى من الأفق فى الليالى الماضية . . . وفى فجر يوم جديد استطاع نورمان أن يحدد مكان قارب الأبحاث بأجهزته الدقيقة وراء الأمواج العالية . ومكثنا طول اليوم دون أن نعثر عليه ، حتى اقتربت الشمس من المغيب. وأخيراً اقترب منا القارب الضخم وعليه علم الأمم المتحدة وتبادلنا التحيات مع القبطان والبحارة وكان الظلام يقترب بجحافله ، وأخيراً تركنا القارب وحدنا بين الأمواج . . .

وفى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة بلغت سرعتنا ١٤٠ كيلو متراً ، وكان قارب الأبحاث يجد فى أثرنا ، وقدم لنا القبطان ما كان يلزمنا من معلومات وطعام ، وظل بجوارنا يومين كاملين ثم أسرع فى اتجاه بربادوس .

ومرة أخرى أصبحنا وحدنا فى المنطقة التى ولدت فيها أعاصير الأطلنطى ، وكان الجو غير مستقر ، وجدران الماء تهبط من السماء ،

وتغمر جوانب القارب . وقاومنا الأنواء وألقينا بالمرساة لإنقاذ الشراع وصادفتنا ريح طيبة ، وأسرع القارب فى الأيام الأخيرة من الرحلة يقطع ١٥١ كيلومتراً كل يوم . . .

وفى يوم ٨ يوليو وعلى بعد مائتى ميل من بربادوس أرسلت الحكومة قارباً سريعاً لتحمينا وكان على ظهره زوجتى إيفون وابنتى آنت .

ومرت ليلة ويوم كذلك والقارب لا يعثر علينا وظل البحث عنا دائراً لمدة ليلتين ويومين . . . وفى مساء اليوم الثانى وكنا قد أصبحنا على بعد مائة ميل من بربادوس عند ما رأينا القارب وعليه امرأتان تلوحان بقوة .

وفى اليوم الثانى عشر من شهر يوليو هبطت الطيور على القارب وفى تمام الساعة الثانية عشرة والربع ارتفعت أصوات الترحيب من بعيد ، فقد رأينا الأرض لأول مرة بعد رحلة طويلة شاقة وصرخ القرد ورفرفت البطة بجناحيها . وكان القارب «رع» أكثر جرأة وشجاعة وإقداماً وهو يتجه نحو الساحل . وأطلق القارب السريع صفارته ثم رأينا الأرض جميعاً . . .

لقد نجحت رحلتنا نجاحاً منقطع النظير وعندما تجمعنا حول المائدة لتناول طعام الغداء كان ذلك غداءنا الأخير . وبعد الظهر سمعنا صوت طائرة تتبعها طائرة أخرى وتقدمت نحونا القوارب وعليها أقارب البحارة .

لقد أنهينا رحلة « رع » الثانى وفى ميناء (بريد چتاون) Bridgetown طوينا الشراع العظيم . وكان الميناء مزدحماً بالألوف من الناس بعد أن قطعنا ٣٢٧٠ ميلا بحرياً أو ٦١٠٠ كيلو متر .

وقبل أن نرسو بالقارب « رع » الثانى تصافحنا نحن الثمانية وكان الفضل لهذا النصر العظيم يرجع إلى التعاون الوثيق بيننا . . . نحن أبناء القارات المختلفة ، وألقينا نظرة أخيرة على المحيط ، فها هو كما كان فى أيام كولمبس ، وكما كان فى العصر الذهبي لقبائل الكاسيوس وأيام الفينيقيين . . . المحيط الذى لا نهاية له . . .

وقفزنا إلى الشاطئ حفاة الأقدام . . .

واندفع تيار المحيط وحده بعد سبعة وخمسين يوماً قضيناها معه أو بعد ٥٧٠٠ سنة . . . فهل تغيرت الإنسانية ؟ الطبيعة لم تتغير والإنسان هو الطبيعة . . .

الخاتمة

أقدام جافة ، وشعر جاف – كل شيء أصبح جافًا . . . النوافذ مغلقة ، والأشجار الضخمة فى الخارج تتمايل مع عنف الرياح . ولكن الأوراق الموضوعة على مكتبى كانت ثابتة لا تتحرك ، وكذلك شعر رأسى . كل شيء هادئ ثابت . . . فأنا بخير . وقد عدت إلى غرفة مكتبى . وبين أغصان الشجر المتحركة كنت أرى المياه الزرقاء . . . مياه البحر الأبيض المتوسط ، الطريق لكل الحضارات الأولى ، وحلقة الاتصال بين القارات الثلاث التى تحيط به فيما عدا المنفذ الطبيعى الوحيد عند جبل طارق . وعلى سطح المياه رأيت قممًا بيضاء ، ولكن لكى أسمع صوت الأمواج كان لا بد أن أفتح النافذة . . .

كان شعورى بالعودة سالمًا إلى غرفة مكتبى غير مصدق . وقد رصت الكتب والمجلدات على الأرفف . الكتب مغلقة وكذلك النافذة . . . ونشرت خريطة كبيرة أمام النافذة التى تواجه البحر ، فكشفت عن المحيط الأطلنطى بالطريقة التى رسمها مهندسو الخرائط . . . محيط مسطح ضخم لا حياة فيه . يقسم عالمًا مثلثًا ، إلى قسمين : أفريقيا على اليمين وأمريكا على اليسار . . . الشمال إلى أعلى والجنوب إلى أسفل . وجلست أتأمل هذه الخريطة الغريبة والطريقة التى صممت بها الطبيعة القارتين

والمحيط الذى يبدو ساكناً كأنه صحراء لا يميزه غير اللون الأزرق لأن لون الأرض يكون عادة أصفر أو بنياً أو أخضر أو أبيض . . .

كان الإنسان يتوقف عند ذلك الخط الأزرق لأن عبور المحيط كان دائماً من الأمور الصعبة . وبعد أن تأملت هذا الجسم المائى العظيم بعض الوقت جذبت المحيط فالتفت الخريطة على نفسها . ورحت أنظر إلى البحر الأبيض وأمواجه تتحرك وفتحت النافذة أصغى إلى صوت الموج وهو ينكسر على رمال الشاطئ ، وتركت الهواء يعبث بالأوراق التى كانت ثابتة منذ قليل على مكتبى . . .

لو تكلم هذا البحر لسرد قصص الرحلات التى لم يسجلها التاريخ فى القرون الوسطى ، وقصص أبطالها الذين كانوا كالديناميت . . . أصحاب خيال واسع وذكاء خارق وشجاعة نادرة وكانوا أقوى من غيرهم يؤمنون بآلهتهم ويخلصون لها . . .

إن بحارة من مصر القديمة تركوا البحر الأحمر ليزوروا موانئ مملكة العراق وآسيا . ومن مصب نهر النيل عبروا شرق البحر الأبيض المتوسط ليجبوا الضرائب من الجزر البعيدة لحساب الفرعون . وشعب مصر ، وكذلك شعب العراق اتحدا وربطتهما معاهدات برغم أنهما كانا يتكلمان لغتين مختلفتين ويكتبان بطريقة مختلفة ، وأنجب كل منهما بحارة مدربين كالمهندسين المعماريين ورفعا شأن الحضارة ، وجعلاها تزدهر ازدهاراً وتصل إلى أقاصى الجزر التى تبعثرت فى الشمال والغرب . . .

إننا لا نعرف على وجه الدقة متى بدأ النفوذ المصرى يمتد إلى هذه

الجزر ، لأنها وقعت بعد ذلك فى أيدى الفينيقيين ونحن لا نعرف إلا النزر اليسير عن هؤلاء أيضاً وعن نوع القوارب التى بنوها فى أول الأمر ، فقوارب البردى كان يستخدمها جيرانهم فى الشرق والجنوب وحتى فى الغرب لأن النقوش القديمة فى كريت كشفت عن قوارب بردية على هيئة هلال عليها صوارى ومقصورات .

ومن المياه الفينيقية انتشرت الحضارة فيما وراء جبل طارق إلى ليكسس «Lixus» [1] على سبيل المثال حيث عاشت قوارب البوص . . . ولا يستطيع إنسان أن يقتفى أثر الطرق التى كانت تقطعها هذه القوارب الورقية أو يعيد بناء العلاقة بين هذه الحضارات المتباينة التى أثرت تأثيراً مباشراً على الحضارات المحلية الأولى ومارسها حكام مختلفون فى بيئات جغرافية متباينة . . .

من الذى يستطيع أن يعطى صورة واضحة للبحارة الذين جابوا البحار فى القرن الرابع قبل الميلاد ؟ . والذين كانوا يحملون جراراً من الذهب والعملات النحاسية لحوض البحر الأبيض المتوسط إلى جزيرة كورڤو Corvo فى الأزورس . وهى جزر قريبة من شمال أمريكا عنها إلى جبل طارق ؟ فهل كان هؤلاء البحارة يجرون وراء الثروات أم يفرون من بلادهم كلاجئين ؟ إن ألوفاً من السفن غادرت موانئ بلادها خلال هذه الأزمنة القديمة ولم يترك أصحابها وراءهم أى أثر مكتوب .

---

(١) هى ميناء العرائش المغربى على المحيط الأطلنطى وقد أطلق عليها الأسبان لا رأشا ، والفرنسيون : لاراش . (الناشر)

إن الفنانين الملكيين فى مصر القديمة سجلوا الحملة البحرية للملكة حتشبسوت فى مراكبها الخشبية التى أبحرت من البحر الأحمر إلى بونت . وعن طريق المصادفة وحدها سجل الجغرافى المعروف إيراتوسين المسافة بين سيلان ومصب نهر (الكنج) ، وذلك بحسابه عدد أيام الإبحار التى كانت تقطعها قوارب البردى ذات الأشرعة والحبال المصرية .

وعندما أبحر الأمير هانو خلال مضيق جبل طارق فى القرن الخامس قبل الميلاد ومعه ستون سفينة محملة بالبضائع وألوف الاستعماريين من الفينيقيين من الجنسين سجلت هذه الواقعة على عمود أثرى فى قرطاجنة اعترافًا بفضله . . .

ومع ذلك فالرسم الأثرى المحفور لا يبرز هانو كرائد من رواد البحار ، لأنه فى اليوم الرابع من رحلته فيما وراء جبل طارق وصل أسطوله إلى ليكسَس حيث استأجر بحارة محليين كانوا يعرفون الساحل معرفة أكيدة ، وكذلك أسماء الموانئ على طول امتداد الرحلة لثمانية وعشرين يومًا . . .

وكان هانو يحتفظ على سفنه بمؤن تكفى لمدة شهرين ولكنه استدار راجعًا عندما وصل أسطوله إلى ساحل أفريقيا الغربية الاستوائية ، وفسر الإغريق هذا الأثر فيما بعد ، على أنه يحدد تعداد ليكسس حيث أقام بينهم الأجانب طلبًا للصداقة والنصيحة . وكان هؤلاء الرحالة يجيدون استثمار العلاقات الطيبة حتى مع الشعوب البدائية المعادية . وطبقًا لسجلاتهم وقبل أن يجرأوا على ترك سفنهم كانوا يرسلون هدايا مغرية كعنوان للصداقة ويتركونها على الشاطئ لتلتقطها القبائل المحلية . . .

إن الفوائد البديهية للتعاون الدولى بالنسبة للرحلات إلى البلاد الغربية أو الأجنبية كان يؤمن بها رجال العصور القديمة بجانب المصريين والفينيقيين . لهذا السبب ارتبط المصريون والفينيقيون بأول رباط تاريخى سجل الدوران حول أفريقيا وذلك بقرنين تقريبًا قبل أن يعد هانو أسطوله من المهاجرين ، والذى أبحر به على الساحل الغربى الذى كان معروفًا وقتذاك . والحقيقة أن بعثة الفرعون نكاو التى أبحرت حول أفريقيا عام ٦٠٠ قبل الميلاد كانت مشروعًا مصريًا لسفن وبحارة من الفينيقيين ، ولم يرافق البعثة ملك أو فرعون خلال السنوات الثلاث ، لأنه لم يظهر أى أثر أو حفر على جدران قبر من القبور ، أو على عمود من الأعمدة الحجرية العملاقة . كل ما فى الأمر أن المؤرخ اليونانى هيرودوت ، سجل الواقعة قبل أن يطمس التاريخ معالمها . . .

ماذا كان نوع الحضارة التى بدأت تزدهر بين السكان البدائيين للغابات على الجانب الآخر من الأطلنطى ، إذا قدر لهذه البعثة المختلطة من الاستعماريين أن تصل إلى هناك ؟ . . .

مما لا شك فيه أن حضارة قوية قد نمت وتكونت هناك ، حقيقة أن سكان أمريكا لم يروا سفنًا خشبية قبل وصول كولمبس إليهم ، ولكن سكان مراكش ، وسكان حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفيما بين النهرين ، قد رأوا قوارب من البردى ، مثل تلك التى وجدت وعاشت فى أمريكا . . . لقد أجريت تجربة بناء قاربين اثنين فقط من هذه القوارب الورقية بمعاونة بعض سكان البحيرات ، ومع ذلك فقد قطع القاربان

زهاء ستة آلاف ميل فى أربعة أشهر . وفى الرحلة الثانية رسونا على شاطئ أمريكا . ولو كنا قد بنينا مائة قارب من قوارب البردى لتعلمنا مثل هانو كيف نبحر بها آمنين جيئة وذهاباً خلال كيب جوبى الخطر . ولكن فى الوقت نفسه كم من مرة كنا ستتعرض فيها إلى تحطيم الدفة ونرسوا فى أمريكا ؟

أغلقت النافذة وتناولت قلمى لأكتب . . .

ما زلت لا أعرف . . . وليس عندى نظرية محدودة ، ولكن قارب البردى يستطيع أن يمخر عباب الأطلنطى . وفى رأيى أن الرحلات القديمة التى تمت فى الماضى السحيق ، قد نجحت ولم تتحطم القوارب فى ليكسس ، أو جرفها التيار عن الطريق الصحيح ، وهى تكافح لكى لا تتحطم فى تيار كيب جوبى الخطر . . . فهل نجحنا فى الذهاب إلى أمريكا لأننا ركبنا مراكب مصنوعة من خشب أو لقدرتنا على قيادة قوارب مصنوعة من نبات البردى ؟

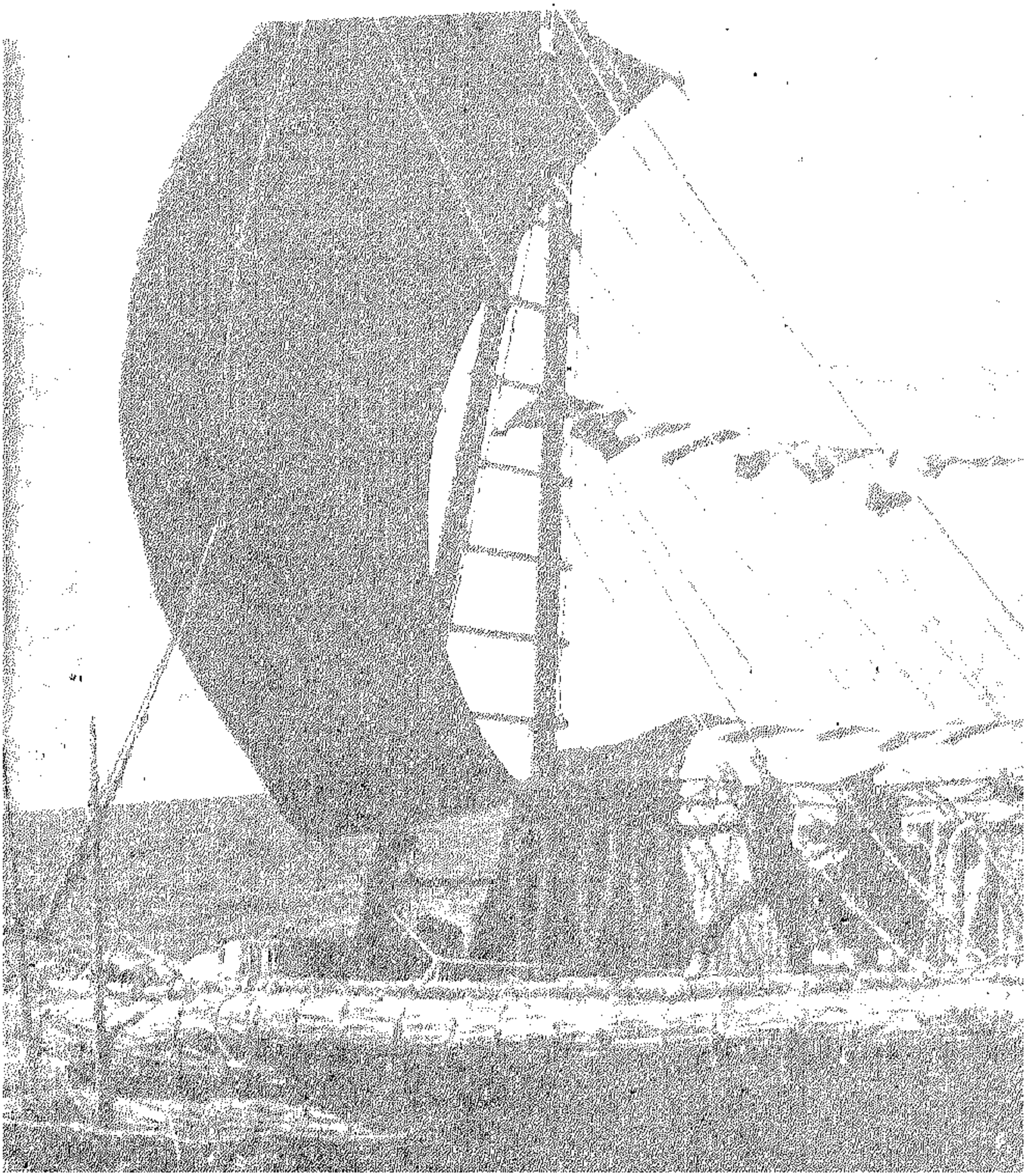
عندى نظرية . . . ربما لأننا أبحرنا فى المحيط وليس على خريطة من الورق . . .

تمت

فهرست الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٢/٢٥٦٢

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٢



اقرأ

علي أحمد باكثير

من فوق سبع سماوات



اقرأ

تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

على أحمد باكثير

من فوق سبع سماوات

٧ تمثيليات إسلامية

اقرأ ٣٦٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٣ - ١٥ يناير سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

من فوق سبع سماوات



١

في بيت أبي ذر الغفار الصحابي الزاهد
[يدخل عليه فتى شاب فيستقبله أبو ذر مرحبا]

ثعلبة : معذرة يا صاحب رسول الله إذ جئتك من غير سابق معرفة .
أبو ذر : لا بأس يافتى . . من تكون ؟
ثعلبة : أنا ثعلبة بن حاطب .
أبو ذر : من الأنصار ؟
ثعلبة : أجل . . من بني عمرو بن عوف .
أبو ذر : أهلا وسهلا . . اجلس . .
ثعلبة : أنا فتى مسكين يا أبا ذر وقد بلغني أنك تحب الصدقة فأحببت أن ينالني شيء من بِرِّك .
أبو ذر : (في استغراب) أنت فتى مسكين ؟ !
ثعلبة : إي والله يا أبا ذر لا أملك شروى نقير .
أبو ذر : ويحك يافتى ، إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، إنما

المسكين المتعفف اقرءوا إن شئتم: "لا يسألون الناس إلحافاً". وسمعته صلى الله عليه وسلم يقول: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس فى وجهه مُزْعة لحم».

ثعلبة : ويحك يا أبا ذر تريد أن تتنصل بهذا من عطائى.

أبوذر : كلا وإنما أردت نصيحتك. إنك شاب جلد تستطيع أن تعمل فتكسب من عملك.

ثعلبة : أى عمل أعمل ؟

أبوذر : اعمل أى شىء ولو أن تحتطب فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

ثعلبة : ياصاحب رسول الله امرأتى توشك أن تضع وما عندنا شىء وتوصينى أنت بالاحتطاب فى الجبل ؟!

أبوذر : امرأتك توشك أن تضع ؟

ثعلبة : ما كنت لأحضر إليك لولا ذلك.

أبوذر : [يغيب داخل البيت لحظة ثم يعود حاملا معه كيسين] ما عندى غير هذا الصاع من التمر وهذا

الصاع من الشعير فخذهما يا ثعلبة ولو كان عندى أكثر لأعطيتك .

ثعلبة : جزاك الله خيراً يا أبا ذر . إن فى هذا لبلاغًا لنا إلى حين .

٢

[فى بيت ثعلبة]

ثعلبة : (يضع الصاعين أمام زوجته زهيرة) زهيرة خذى هذا فاحفظيه ليوم وضعك .

زهيرة : ماذا تقول يا ثعلبة ؟ إنى بعد فى شهرى السادس .

ثعلبة : سيجىء شهرك التاسع وشيكًا فينفعك يومئذ ، إياك أن تصيبى منه شيئًا قبل يوم وضعك .

زهيرة : ربما نحتاج إليه قبل ذلك .

ثعلبة : كلا لا تمسيه إلا يوم وضعك .

زهيرة : فيم يا ثعلبة ؟

ثعلبة : لقد أعطانيه أبو ذر من أجل ذلك وما ينبغى لى أن أكذب على صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

زهيرة : إلى متى يا ثعلبة تسأل الناس؟ ألا ترى لك عملا خيراً من ذلك؟ ؟

ثعلبة : (غاضبـًا) اسكتى يا امرأة . لو كان أبوك غنيـًّا لأغنانى عن ذلك .

٣

[بيت أبى ذر]

أبو ذر : ما فعلت امرأتك يا ثعلبة ؟ هل وضعت ؟

ثعلبة : لا ياصاحب رسول الله . ما زلنا ننتظر وضعها . وقد تصدقت ببعض ما أخذته منك .

أبو ذر : تصدقت ؟

ثعلبة : نعم إنى أشتهى يا أبا ذر أن يكون لى مال كثير فأتصدق به .

أبو ذر : قد جعل الله لك مخرجـًا يا ثعلبة .

ثعلبة : كيف ؟

أبو ذر : تعدل بين الاثنين صدقة . وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة ، وتأمر بالمعروف صدقة ، وتمسك عن الشر صدقة ؛ هكذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثعلبة : لكنى يا أبا ذر أريد أن أتصدق بالمال على الفقراء والمساكين .

أبو ذر : يا هذا إنى أرى بك حرصاً شديداً على المال .

ثعلبة : لشدة حرصى على الصدقة يا أبا ذر.

أبو ذر : فاصبر حتى ييسر الله لك رزقاً .

ثعلبة : ماذا ترى لو ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته أن يدعو لى بالغنى ؟

أبو ذر : إن شئت أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأله أن يدعو لك بما هو خير من المال .

ثعلبة : لاشيء يعوزنى غير المال يا أبا ذر . أستطيع أن أصلى كما أشاء وأن أصوم كما أشاء وأن أسبح الله كما أشاء ولكنى لا أستطيع أن أتصدق بالمال على أحد .

٤

ثعلبة : (يرجع إلى بيته فرحاً) زهيرة ! زهيرة !

زهيرة : ما خطبك يا ثعلبة ؟

ثعلبة : أبشرى يا زهيرة فسأكون غنياً ويكون لى مال كثير .

زهيرة : من أين يا ثعلبة ؟

ثعلبة : من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

زهيرة : أعطاك النبى مالا ؟

ثعلبة : أعطانى ما هو خير من ذلك . أعطانى شيئاً لا ينفد أبداً .

زهيرة : دعا لك بالجنة ؟

ثعلبة : بالجنة ؟ دعا بالرزق . . بالغنى . . بالمال الكثير .

زهيرة : الحمد لله . ستنقطع إذن عن سؤال الناس .

ثعلبة : ويلك أنا الذى سأتصدق على الناس .

زهيرة : فابدأ صفحتك اليوم بخير . أخرج زكاة الفطر التى عليك .

ثعلبة : زكاة الفطر ؟

زهيرة : نحن فى آخر رمضان .

ثعلبة : ما عندنا شىء يا زهيرة .

زهيرة : بلى . عندنا صاع من التمر وصاع من الشعير .

ثعلبة : هذا أعددناه ليوم وضعك ولا يصح أن نكذب على أبى ذر !

زهيرة : ويلك . أبو ذر لا يرضى لك أن تمنع زكاة الفطر . وبعد فماذا تخاف ؟ أليس قد دعا لك النبى صلى الله عليه وسلم ؟

ثعلبة : إنى ما أصبحت غنياً بعد .

زهيرة : ويلك ألا تخشى أن تحبط دعوة النبى صلى الله عليه وسلم إذا أنت منعت الزكاة الواجبة عليك ؟

ثعلبة : (يصمت قليلا) صدقت يا زهيرة . . سأخرجها اليوم . . هاتى ما عندك أسرعى .

٥

أبو ذر : ماذا أصابك يا ثعلبة ؟ ما عدت أراك تصلى فى المسجد كدأبك .

ثعلبة : معذرة يا أبا ذر . . قد تركت بيتى الصغير بالمدينة واتخذت لى منزلا أوسع فى الضاحية .

أبو ذر : ويلك هلا اتخذت المنزل الأوسع فى ذات المدينة لتكون قريباً من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثعلبة : لا يمكننى ذلك يا أبا ذر فقد كثرت غنمى فأشفقت أن تضيق بها أزقة المدينة ويتضرر بها الناس ، ولكنى أشهد الجمعة وأحرص عليها كما ترى .

أبو ذر : غداً تضيق بغنمك مراعى المدينة فتقيم أبعد من الضاحية ولا تشهد حتى الجمعة .

ثعلبة : معاذ الله يا أبا ذر لن تفوتنى صلاة الجمعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً .

أبو ذر : ما أحسب يا ثعلبة إلا أنك ابتليت فانقطع عنى ولا تردد علىّ .

ثعلبة : (فى لهجة متعالية) ما خطبك يا أبا ذر ؟ أو قد

ثقل عليك أن تضيفنى عندك من الجمعة إلى الجمعة ؟

أبوذر : ويلك ليس بذاك .

ثعلبة : إن شئت جئتك بشىء من عندى عوض ما أصيبه من الطعام عندك فإنى اليوم بحمد الله غنى .

أبوذر : (غاضباً) قبحك الله . ما بى حاجة إلى غناك . اغرب من وجهى وإياك أن تعود إلىّ .

٦

[فى بيت ثعلبة يظهر على البيت مظاهر الغنى والثروة . ثعلبة يستقبل عامل الصدقة متأففاً] .

العامل : يا ثعلبة بن حاطب . إنى عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقات، وقد جئت لأخذ زكاة مالك .

ثعلبة : ما يدرينى أنك عامل رسول الله ؟

العامل : ويلك أأكذب أنا على رسول الله يا ثعلبة ؟

ثعلبة : أنا لا أعرفك .

العامل : هذا كتابه صلى الله عليه وسلم فاطلع عليه (يخرج له كتاباً فيطلعه عليه) .

ثعلبة : (يلين لهجته) لا تؤاخذنى يا أخى فمن الحق على أن أستثبت .

العامل : هلم إذن لتحصى مالك .

ثعلبة : انطلقوا أولا إلى الناس الذين ورائى ثم مروا بى .

العامل : قد فعلنا يا ثعلبة ولم يبق وراءك أحد .

ثعلبة : ما أدرى والله كيف تفرض هذه على المسلمين . ما هذه إلا أخت الجزية !

العامل : قبحك الله . ماذا قلت ؟

ثعلبة : ما قلت إلا خيراً .

العامل : والله لأبلغنها إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

ثعلبة : حذار أن تفعل .

العامل : والله لأفعلن يا منافق .

ثعلبة : إذن والله لأشهدن عليك عنده أنك حاولت أن تغل فى الصدقة فلما لم أوافقك على ذلك تقوّلت علىّ مالم أقل .

العامل : أتنسى أنه يوحى إليه وعسى أن ينزل الله فيك وحياً يتلى ؟

ثعلبة : (يلين لهجته) رويدك عندى لك ما هو خير من ذلك . تستّر علىّ وأستر أنا عليك .

العامل : (غاضباً) لحاك الله . ماذا عسى أن تستر عليّ ؟ اشهدْ عليّ عنده ما بدالك .

ثعلبة : ما أحسبك فى غنى عن هدية أقدمها لك ولعيالك .

العامل : وهذه ثانية . والله لأبلغنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك .

ثعلبة : (يحتضنه مظهر الفرح والإعجاب) بوركت ياأخى لقد أيقنت الساعة أنك رجل صدق وأمانة وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أحسن اختيارك .

العامل : (مستحقاً به) ويلك أتريد أن توهمنى بأنك كنت تختبرنى ؟

ثعلبة : أجلْ ما أردت إلا اختيارك .

العامل : هيهات يا ثعلبة .

ثعلبة : والله الذى لا إله إلا هو ما قصدت غير ذلك .

العامل : وهذه ثالثة يا منافق .

ثعلبة : (محتداً) ويلك هل شققت عن قلبى فعرفت ما أبطن ؟

العامل : هلم معى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل بين يديه كل ما تريد .

ثعلبة : اسبقنى إليه وسأوافيك على الإثر .

(يخرج العامل وتدخل زهيرة) .



زهيرة : ويحك ماذا فعلت يا ثعلبة ؟

ثعلبة : أكنت تسمعين حديثنا يا زهيرة ؟

زهيرة : من أوله إلى آخره . ويل لك اليوم من وقوف بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثعلبة : أيحاسبنى رسول الله على كلمة صغيرة ندّت من لسانى دون قصد ولا نية ؟

زهيرة : بل قصدتها يا ثعلبة . إنك لم تشكر نعمة الله عليك .

ثعلبة : إنى سأعطيهم من مالى ما يريدون فماذا يبقى لهم عندى ؟

زهيرة : انظر ما تقول يا ثعلبة . إنك لا تعطى رسول الله شيئاً من عندك ؛ هذا حق الله فى مالك .

ثعلبة : حق الله فى مالى أو حق رسول الله فى مالى قد أقررت به ولا اعتراض لى عليه . فماذا يريدون منى بعد ؟

زهيرة : أن تخلص لله ولرسوله يا ثعلبة .

ثعلبة : إنى والله لمخلص لله ولرسوله وللمسلمين .

زهيرة : ما كنت لتأتى هذا الذى أتيت اليوم لو كنت كما تزعم .

ثعلبة : أنت أيضاً علىّ يا زهيرة ؟

زهيرة : إنى مشفقة عليك يا ثعلبة .

ثعلبة : ماذا ترين ؟ أأذهب إلى رسول الله أم . . . . ؟

زهيرة : ويلك أفى ذلك خيار يا ثعلبة ؟ أتريد أن يبعث رسول الله من يسوقك سوقًا إليه ؟

ثعلبة : ماذا جنيت حتى أساق إليه ؟ إنى ما كفرت ولا بدلت .

زهيرة : فاسع إليه طائعًا مختاراً قبل أن يبحث فى طلبك . واعترف له بذنبك عسى أن يعفو عنك أو يستغفر الله لك .

ثعلبة : صدقت يا زهيرة إنه والله لرءوف رحيم .

٧

[فى منزل أبى ذر وقد حضر ثعلبة وزوجته زهيرة]

زهيرة : حنانك يا أبا ذر اشفع لزوجى ثعلبة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أبو ذر : أشفع له بعد ما نزلت فيه الآية : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدقنّ ولنكوننّ من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوْا وهم معرضون » ؟

زهيرة : ناشده يا أبا ذر أن يقبل صدقته .

ثعلبة : أجل ناشده يا أبا ذر أن يقبل صدقتى فإنها شيء جسيم .

أبو ذر : قد رفضها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلن يقبلها أبداً لشفاعة أحد .

زهيرة : إنه تائب يا أبا ذر والله يقبل التوبة عن عباده .

أبو ذر : لو علم الله فيه خيراً لقبل النبي صلى الله عليه وسلم توبته.

ثعلبة : فناشده إذن ألا يدعو على مالى فيمحقه .

أبو ذر : أسمعتيه يازهيرة ؟ إنه لا يخاف إلا على ماله .

ثعلبة : سبحان الله وأىّ امرئ لا يخاف على ماله ؟

زهيرة : تبّاً لك . قل إنك تائب نادم .

ثعلبة : أجل يا أبا ذر إنى تائب نادم .

أبو ذر : أين أنت من قوله جل شأنه : « فأعقبهم نفاقًا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » .

ثعلبة : كلا والله ما أنا بمنافق ولا كاذب .

أبو ذر : قاتلك الله. أنكذّب قول الله تعالى ونصدّق قولك ؟ قد شهد الله عليك بذلك من فوق سبع سماوات .

ثعلبة : (فى ارتياع وخوف) من فوق سبع سماوات ؟ من فوق سبع سماوات ؟ (ثم ينفجر مقهقهًا فى نوبة عصبية) هاها هاها ها . . من فوق سبع سماوات !

من فوق سبع سماوات ! أنا خير منك يا أبا ذر
قد ذكرني الله عز وجل من فوق سبع سماوات !

زهيرة : ياويلنا . . إنه جن يا أبا ذر .

ثعلبة : ويحك يا ثعلبة . قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه . من الذى قال ذلك ؟ أتعرفه يا أبا ذر ؟

أبو ذر : ويلك يا منافق . محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى قال لك ذلك .

زهيرة : قد التاث عقله يا أبا ذر فهو مجنون .

أبو ذر : بل هو شيطان . خذيه معك وأغربى به عنى .

ثعلبة : (يقهقه ثانية وزهيرة تدفعه ليخرج) من فوق سبع سماوات ! من فوق سبع سماوات ! (يخرجان)

أبو ذر : (يتمتم فى أسف وخشوع) لاحول ولا قوة إلا بالله. لا حول ولا قوة إلا بالله . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

« ستار »

هلك المتنطعون



١

[فى بيت سلمان الفارسى الصحابى الجليل . حجرة صغيرة متواضعة ليس بها من الرياش غير القليل ولكن يظهر عليها الترتيب والتنسيق . أريكة صغيرة واطئة تكاد تلامس الأرض .

ترى أميمة زوجة سلمان وهى تكنس الحجرة ولاتكاد تفرغ من ذلك حتى تسمع قرعاً على الباب]

أميمة : من ؟

صوت : أنا أم الدرداء .

أميمة : (تفتح الباب) أهلا وسهلا . مرحبًا بك يا أم الدرداء .

أم الدرداء : أظنك كنت تكنسين . أتمى عملك يا أم عبد الله .

أميمة : قد فرغت من الكنس يا أم الدرداء . اجلسى أنت على الرحب والسعة (تجلسان على الأريكة) .

أم الدرداء : كيف حالك يا أم عبد الله وكيف حال سلمان زوجك ؟

أميمة : بنعمة الله وعافيته . وكيف حال أبى الدرداء لعله بخير .

أم الدرداء : تسألينى عن ابى الدرداء . هو كحاله يا أختاه بخير .

أميمة : ما خطبك ؟ أليس كما تحبين ؟

أم الدرداء : بلى ، كما أحب وكما يحب لنفسه .

أميمة : كما يحب لنفسه وليس كما تحبين .

أم الدرداء : أستغفر الله يا أختى لم أقل ذلك .

أميمة : أردت ذلك ولم تقوليه .

أم الدرداء : كلا لست أشكو من أبى الدرداء أى شىء .

أميمة : بل فى نفسك شىء تكتمينه عنى . أنت لست راضية عن زوجك .

أم الدرداء : ويحك يا أم عبد الله من أين جاءك هذا الظن ؟

أميمة : من لحن قولك يا خيرة .

أم الدرداء : لتطب نفسك يا أميمة فإنى راضية راضية .

أميمة : فما بالك على هذه الهيئة ؟

أم الدرداء : ماذا تنكرين من هيئتى ؟

أميمة : شعرك أشعث غُبر مدهون ولا مرجّل .

أم الدرداء : كنت أرفو اليوم قميص أبى الدرداء فشغلنى عن إصلاح شعرى .

أميمة : ما أحسبه عرف الدهن منذ أيام . إن لم يكن عندك دهن فسأعطيك شيئاً من عندى .

أم الدرداء : بل عندى الدهن ولله الحمد . وعندى المشط كذلك ؛ سأدهن شعرى وأرجله لك حين أزورك يوماً آخر .

أميمة : لى أنا أم لأبى الدرداء ؟

أم الدرداء : لك أنت أولا ثم لأبى الدرداء .

أميمة : بل لأبى الدرداء ، أولاً ثم لى .

أم الدرداء : لا مشاحة يا أميمة . . كما تشاءين .

أميمة : (لا تريد أن تستسلم للجواب الذى تخلصت به أم الدرداء) وهذا الثوب ؟

أم الدرداء : ما باله ؟

أميمة : لا يعجبنى أن أراه عليك فما أنت بعانس ولا أيم .

أم الدرداء : بالله يا أميمة دعينى من هذا . أنا جئت لأأتنس بك لا لتنقدى ثوبى وشعرى .

أميمة : يا خيرة يا بنت أبى حدرد لا ينبغى لك أن تنسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما آخى بين المهاجرين والأنصار قد آخى بين زوجى وزوجك .

أم الدرداء : هذا أمر لا ينسى أبداً .

ميمة : فسلمان الفارسى وأبو الدرداء الخزرجى شىء واحد وأنا وأنت شىء واحد .

أم الدرداء : هذا حق .

أميمة : فما ينبغى لى أن ألبس ثوباً خيراً من ثوبك ولا أن أصلح من شعرى مالا تصلحين من شعرك .

أم الدرداء : لا عليك مني فى هذا الشأن يا أميمة فما عندى ميل إلى التزين والتجمل مثلك .

أميمة : أما والله لقد كنت فيا مضى من أملح نساء الأنصار وأجملهن شعراً وأفضلهن زينة وتطرية .

أم الدرداء : ذاك عهد مضى يا أم عبد الله وقد اختلف الحال اليوم .

أميمة : فيم يا أم الدرداء ؟

أم الدرداء : كان أبو الدرداء تاجراً من قبل فأصبح اليوم وقد لزم العبادة وترك التجارة !

أميمة : ما كان أبو الدرداء بموفق فى ذلك .

أم الدرداء : إنه يزعم أنهما لا يجتمعان : العبادة والتجارة .

أميمة : ماذا يمنع ؟ هذا سلمان ما زال حتى اليوم ينسج الخوص ويأكل من كسب يده ويرى ذلك من أفضل العمل .

أم الدرداء : يا أم عبد الله ألا تعلمين أن زوجك شىء آخر ؟ إنه رجل لا يشغله شىء عن شىء .

أميمة : لا ينبغى لك يا أم الدرداء أن تحذى حذو زوجك فتنسى ما ينبغى للمرأة المتزوجة من زينة .

أم الدرداء : لِمَ ينبغى على المرأة المتزوجة أن تتزين ؟ أليس لزوجها ؟

أميمة : بلى .

أم الدرداء : فزوجى أصبح لا يعنيه اليوم من زينتى شىء . لقد صار سواء عنده اليوم أن أتزين أو لا أتزين، وأن أتكحل أو لا أتكحل ، وأن أصلح شعرى أو لا أصلحه فلمن تريدين أن أتزين ؟ للشيطان ؟

أميمة : معاذ الله يا أم الدرداء كيف تقولين هذا ؟

أم الدرداء : ماذا أصنع لك ؟ أبيت إلا أن تحاوريني حتى أعلنت لك .

أميمة : نعم ما فعلت بالخيرة . قد كان ينبغى عليك أن تصارحيني بهذا الذى تجدين فى نفسك من أول الأمر .

أم الدرداء : ما خير ذلك يا أختى إلا أن ألقى همى على همك .

أميمة : لعلى أستطيع أن أصنع لك شيئًا .

أم الدرداء : ماذا بوسعك أن تصنعى لى ؟ تهديني ثوبًا آخر من ثيابك ؟

أميمة : إذا شئت يا أم الدرداء فإن عندى ما تحبين .

أم الدرداء : كلا يا أم عبد الله . احتفظى بثوبك خيراً لك . أتدرين ماذا صنع زوجى بذلك الثوب الذى أهديتنيه؟

أميمة : ماذا صنع به ؟

أم الدرداء : ما إن رآه ذات يوم عليّ حتى أمرنى أن أخلعه وأتصدق به على إحدى فقيرات أهله .

أميمة : غفر الله لأبى الدرداء . والله لأكلمنّ سلمان فى شأنه لينصحه .

أم الدرداء : كلا . إياك أن تفعلى يا أم عبد الله .

أميمة : أى بأس فى ذلك ؟

أم الدرداء : هذا سرّ بينى وبين زوجى لا ينبغى أن يعلم أنى بحت به لأحد .

أميمة : لن يعلم زوجك شيئًا . إن سلمان كما تعلمين لكيّس لبق .

أم الدرداء : كلا يا أختى . إنى بعدُ لأستحى من بعلك أكثر مما أستحى من بعلى .

أميمة : سلمان أخ لزوجك فهو بمنزلة أخيك .

أم الدرداء : حتى أخى ابن أبى وأمى أستحى منه فى مثل هذا الشأن .

أميمة : فاعلمى إذن أن سلمان قد عرف هذا السر الذى تكتمين .

أم الدرداء : ويلك ممن عرفه ؟

أميمة : منك أنت !

أم الدرداء : ماذا تقولين ؟

أميمة : إنه زاركم ذات يوم فأنكر هيئتك فسألك فقلت له: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا ؟

أم الدرداء : يا هنتاه ! حقًّا قلت له ذلك ولكنى ما قصدت هذا المعنى وإنما قلت ماقلته اعتذاراً له كراهية أن يكلف نفسه فيهدينا ثوبًا من عنده .

أميمة : مهما يكن من قصدك فقد فطن سلمان لحقيقة ما بك وإنه لكيّس فطين ، إنى والله لربما أكتم عنه الشىء فيكشفه لى كأنما يقرأ من كتاب .

أم الدرداء : وا حياءاه ! وا خجلتاه !

أميمة : هوّنى عليك فإن هو إلا أخ أمين .

٢

[فى بيت أبى الدرداء . حجرة تشبه الحجرة السابقة إلا أنها أكثر تواضعًا منها .

أبو الدراداء : (يستقبل سلمان الفارسى) مرحبًا بك يا أبا عبد الله يا سابق فارس]

سلمان : (فرحًا) سابق فارس ! بأبى هو وأمى إذ لقبنى بذلك .

أبو الدرداء : صلى الله عليه وسلم .

سلمان : لقد حضرت أنا وأهلى يا أبا الدرداء .

أبو الدرداء : ومرحبًا بأهلك يا أبا عبد الله .

سلمان : ستتغدى ونتعشى عندكم .

أبو الدرداء : على الرحب والسعة يا أخى أين هى امرأتك ؟

سلمان : قد سبقتنى إليكم . داخل الدار عند أهلك .

أبو الدرداء : عجبًا والله ما علمت .

سلمان : وأنّى لك أن تعلم وأنت مشغول يومك كله عن أهلك . وعسى أن تكون مشغولا عنهم ليلك كله كذلك .

أبو الدرداء : ويل بنت أبى حدرد . كان عليها أن تخبرنى (ينادى) أم الدرداء يا أم الدرداء !

أم الدرداء : (صوتها) لبيك يا أبا الدرداء !

أبو الدرداء : هذا سلمان أخى عندى .

أم الدرداء : مرحبًا به وأهلا . وهذه امرأة أخيك سلمان عندى .

أبو الدرداء : مرحبًا بها وأهلا . اصنعى لهما شيئًا يا خيرة ، فإنهما سيتغديان عندنا .

أم الدرداء : وسيتعشيان أيضًا .

أبو الدرداء : أجل أجل . . هيئى لهما ما عندك .

أم الدرداء : قد هيأت كل شىء .

أبو الدرداء : أحسنت ياخيرة . أحسن الله إليك .



٣

أبو الدرداء : هلم يا أباعبدالله فها قدأحضرت أم الدرداء الغداء.

سلمان : (ينظر إلى الصحفة أمامه على الخوان) ما شاء الله . لقد عنيت بنا أم الدرداء فهيأت لنا هذا الطعام الطيب .

أبو الدرداء : كل يا أخى هنيئاً مريئاً .

سلمان : وأنت ألا تجلس فتأكل ؟

أبو الدرداء : اعذرنى يا سلمان فإنى صائم .

سلمان : صائم ؟ أجىء أنا من بيتى لآكل عندك فتصوم ؟

أبو الدرداء : قد نويت الصوم يا أخى قبل أن تحضر .

سلمان : فأفطر الآن إذ حضرت .

أبو الدرداء : ألا تدعنى يا سلمان أتم صومى ؟ وسأجلس معك أحادثك على الطعام .

سلمان : أيصح هذا فى شرعتكم يا معشر العرب ؟

أبو الدرداء : بئس ما تقول يا أخى . إن الله قد أكرمنا بالإسلام فأغنانا عن شرعة العرب .

سلمان : وبئس ما تفعل أنت يا عويمر فإن الإسلام لا يرضى ذلك وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» . والله ما أنا بآكل حتى تأكل .

أبو الدرداء : فسآكل معك إذن يا سلمان . باسم الله .

سلمان : باسم الله .

(يأكل الاثنان من الصحفة)

٤

[أم الدرداء تتزين وتساعدها فى ذلك زوجة سلمان]

أم الدرداء : انظرى يا أختى . لقد جاء زوجك من صلاة العشاء ولما يجئ أبو الدرداء بعد .

أميمة : لعله آت فى الإثر .

أم الدرداء : والله ما هذا بحسن . يكون عنده الضيف فلا يسبق الضيف إلى البيت .

أميمة : اتركى ذلك لسلمان فإنه كفيل بتأديبه .

أم الدرداء : صدقت لقد أدبه اليوم فأحسن تأديبه .

أميمة : هيا أكملى الآن زينتك .

أم الدرداء : قد أكملتها . . ماذا تريدين بعد ؟

أميمة : هذا الطيب لم تمسّيه بعد . ضمخى به رأسك وما بين كتفيك .

٥

سلمان : (يدخل عليه أبو الدرداء من الخارج) معذرة يا أبا الدرداء إن سبقتك إلى بيتك .

أبو الدرداء : بل اعذرنى أنا يا أبا عبد الله إذ تأخرت عنك فى المسجد . البيت بيتك على كل حال .

سلمان : غفر الله لأم الدرداء . لقد أكثرت لنا فى العشاء حتى أسرع إلىّ النعاس .

أبو الدرداء : إن كنت تريد النوم فادخل إلى أهلك . فقد أعددنا لكما الحجرة الجوانية .

سلمان : وأنت يا أخى ألا تأوى إلى أهلك ؟

أبو الدرداء : ليس الآن . سأبقى هنا قليلا لأقوم بعض الليل .

سلمان : ويلك كيف يطيب لى ولأهلى النوم فى بيتك وأنت قائم تتهجد وامرأتك ساهرة تنتظرك .

أبو الدرداء : عجبًا لك اليوم يا سلمان ما خطبك ؟

سلمان : إن كنت تكره أن نبيت عندك فدعنا ننصرف إلى بيتنا .

أبو الدرداء : معاذ الله يا أخى . ادخل إلى أهلك وسأدخل إلى أهلى .

سلمان : بل ادخل أنت أولا وسأدخل بعدك .

أبو الدرداء : سمعًا يا أبا عبد الله .

سلمان : وإياك أن تقوم حتى أكون أنا الذى أوقظك من آخر الليل فنقوم معاً ونصلى معاً .

أبو الدرداء : (فى غيظ مكتوم) سمعاً يا سلمان !

٦

[بعد بضعة أيام فى المكان نفسه] .

أبو الدرداء : ما هذا الذى فعلت ياسلمان ؟ كيف تقيم فى بيتى وتحضر طعاماً من بيتك ؟

سلمان : قد صارت لنا ثلاثة أيام فى بيتك فلا ينبغى أن نبقى فى ضيافتك .

أبو الدرداء : كلا يا سلمان إما أن تقيما فى ضيافتنا أو تنصرفا إلى بيتكما .

سلمان : إذن فهلم أنت وأهلك فأقيما فى بيتنا بضعة أيام .

أبو الدرداء : ويحك ما يدعونا إلى ذلك ؟

سلمان : لنتعاون على البر والتقوى . نذهب إلى المسجد معاً ونعود إلى أهلنا معاً ونقوم من آخر الليل معاً .

أبو الدرداء : (محتداً) يا سلمان قد صبرت لك طويلا وقدآن لى أن أصارحك إنك لم تُعنّى على البر بل شغلتنى عنه . ما عدت أستطيع أن أصوم ولا أن أقوم منذ أقمتما عندنا أنت وأهلك .

سلمان : وقد آن لى أنا أيضاً أن أصارحك . إن كنت تبغى التقرب إلى الله بما تفعل فإن الله تعالى لا يتقرب إليه بإضاعة الحقوق التى عليك .

أبو الدرداء : أى حقوق أضعت ؟

سلمان : إن لربك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه .

أبو الدرداء : هذا حق . وما أرانى إلا معطياً كل ذى حق حقه .

سلمان : بل أضعت حق بدنك وحق أهلك .

أبو الدرداء : أفلهذا أقمت عندى هذه الأيام ؟

سلمان : أجل لأحملك على البر وأسير بك فى الجادة .

أبو الدرداء : هذا رأيك يا سلمان وأنا أرى خلاف رأيك .

سلمان : هلم إذن نحتكم إلى النبى صلى الله عليه وسلم لنرى أينا أهدى سبيلا .

أبو الدرداء : أنصفت يا سلمان فهلم .

٧

[فى بيت سلمان . أم الدرداء تزور أميمة فى هندام حسن]

أميمة : أهلا أهلا بك يا أم الدرداء . أراك اليوم على خير حال .

أم الدرداء : جزاك الله صالحة يا أختاه وجزى سلمان خيراً .
لقد صار أبو الدرداء خلقاً آخر !

أميمة : حديث النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى أصلحه !

أم الدرداء : أجل . . أصبح زوجى لا يكف عن ترديده فى
كل حين .

أميمة : هلك المتنطعون .

أم الدرداء : لا تختصرى الحديث يا أم عبد الله . لقد قال صلى الله
عليه وسلم لأبى الدرداء لما احتكم هو وسلمان إليه :
«لقد صدق سلمان .
سلمان أفقه منك يا أبا الدرداء . هلك المتنطعون !
هلك المتنطعون !» .

« ستار »

الأسير الكريم «خبيبُ بن عدي»



١

[فى بيت من بيوت سراة مكة]

[الصبى عامر يقبل مسرعاً إلى أمه الجالسة فى الحجرة]

عامر : (صوته قبل ظهوره فى الحجرة) يا أمَّهْ . . يا أمَّهْ .

جليلة : عامر . ما خطبك ؟

عامر : (يدخل لاهثًا) إن خالى عقبة قد جاء بأسير معه .

جليلة : أين يا عامر ؟

عامر : أدخله المربد فحبسه فيه . يقولون إنه من أصحاب محمد .

جليلة : من أصحاب محمد.. . ما الذى جاء به إلى خالك ؟

عامر : لا أدرى . (ينظر إلى جهة الباب) ها هو ذا خالى عقبة فاسأليه .

(يدخل عقبة بن الحارث)

جليلة : من هذا الذى جئت به يا عقبة ؟

عقبة : هذا قاتل أبينا يا جليلة . قاتل الحارث ببدر .

جليلة : خبيب بن عدى ؟

عقبة : أجل . . إنك لتعرفين اسمه يا أخيَّه .

جليلة : كيف لا وما من امرأة فى قريش أصيب لها أحد فى بدر

إلا اجتهدت أن تعرف اسم قاتله فحفظته عسى أن تنتقم يوماً منه .

عقبة : فها هو ذا قد جئت به إليك فانتقمى منه وعذبيه .

جليلة : أى والله لأشفين وحرّ صدرى منه . أمكنى منه يا عقبة فلأقطعنه بهذا المِشْقَص فلذة فلذة .

عقبة : كلا يا أختاه لا يحل لنا قتله الآن حتى تنقضى الأشهر الحرم . ولكن عذبيه عذاباً لايقضى عليه .

جليلة : كأنك جئت به لتحبسه عندنا حتى ينقضى هذا الشهر شهر الحرم .

عقبة : هو ذاك .

جليلة : خير . سيتاح لنا بذلك أن نَفْتَنّ فى تعذيبه .

عقبة : أجل . . افتنّى فى تعذيبه ما شئت . أريني براعتك يا جليلة ووفاءك لأبيك .

جليلة : ثق يا أخى أنى سأريه الويل أفانين . ولكن كيف تمكنت منه يا عقبة ؟

عقبة : كان محمد قد بعثه فيمن بعث إلى بنى هذيل ليعلموهم الإسلام فوثب بهم الهذليون وباعوهم إلينا .

جليلة : واشتريته أنت منهم ؟

عقبة : بخمسين من الإبل .

جليلة : خمسين من الإبل ؟ !

عقبة : استكثرتها ؟ والله لو طلبوا به مائة بعير لأعطيت . إنه دم أبينا الحارث يا جليلة .

جليلة : صدقت كل مال يشترى به دم أبينا فهو قليل .

عقبة : هاتى له شيئاً من الطعام يا جليلة .

جليلة : تريد أن تطعمه ؟ أتطعم قاتل أبينا يا عقبة ؟

عقبة : لابد من إطعامه حتى لا يموت قبل أن ننزل به العقاب الأشد . قد اتفقت أنا وصفوان بن أمية على ذلك .

جليلة : وما شأن صفوان بن أمية ؟

عقبة : إنه هو أيضاً اشترى منهم قاتل أبيه لينتقم منه .

جليلة : قاتل أمية بن خلف ؟

عقبة : نعم .

جليلة : وما اسم هذا القاتل ؟

عقبة : زيد بن الدَّثِنَة .

جليلة : دفع فيه صفوان خمسين من الإبل ؟

عقبة : نعم .

جليلة : إذن والله ليُثْرِينَّ الهذليون من ذلك .

عقبة : (يضحك) أجل . ليتركُنَّ تجارة الأنعام . ويتجرُنَّ فى أتباع محمد !! (يخرج)

جليلة : (لابنها الصبى) انزل بنا يا عامر إلى هذا الأسير لنضربه ونعذبه . خذ تلك العصا معك .

عامر : لكن يا أمه . .

جليلة : أليس برجليه القيد ؟

عامر : بلى يا أمه .

جليلة : فأى شيء تخشى منه ؟

عامر : لست أخشى شيئًا منه ولكنه لا يستحق الضرب . إنه رجل طيب .

جليلة : ويلك هذا قاتل جدك الحارث يا لكع .

عامر : ما أحسب مثل هذا الرجل يقتل أحداً يا أماه . لقد نظرت إليه من الباب فلما رآنى حيانى وابتسم .

جليلة : اسكت . لو سمعك خالك عقبة تقول هذا لأدبك فأوجعك . هيا خذ تلك العصا وانزل معى إلى المربد .
(يأخذ عامر العصا وهو كاره ويخرج خلف والدته)

٢

[فى المربد . . مكان ضيق مظلم له باب محكم]
[خبيب جالس على الأرض وفى رجليه القيد الثقيل وجليلة وابنها عامر يضربانه بالعصى]

خبيب : (يردد كلما ضرب ضربة) الحمد لله . . الحمد لله .

جليلة : (فى غيظ) ويلك . تُضْرَب وتقول الحمد لله . أهكذا أمركم صاحبكم محمد ؟

خبيب : أجل يا أخت بنى الحارث . إن نبينا صلى الله عليه وسلم أوصانا بالصبر على ما نلقى فى ديننا من مكروه .

جليلة : فدعه الآن ينفعك .

خبيب : إنه قد نفعنا وسينفعنا دائمًا يا أخت بنى الحارث .

جليلة : كيف ويلك ؟

خبيب : لقد وعدنا أن من يقتل منا فى سبيل الله فله الجنة .

جليلة : هيهات ما وعدكم إلا غروراً .

خبيب : يا أخت بنى الحارث لو قد سمعت من محمد كما سمعنا ما قلت هذا . أتحبين أن أسمعك شيئًا مما جاء به من عند الله ؟

جليلة : (تضربه) كلا لا أريد أن أسمع شيئًا .

خبيب : إذن يفوتك خير كثير .

جليلة : اسكت . والله لأضربنك حتى تكفر بصاحبك .

خبيب : هيهات . إنك لن تجنى من ضربى غير أن تكل يدك .

جليلة : (تضربه بقوة) اضرب يا عامر .

خبيب : وتكل يد صبيك هذا .

جليلة : لا شأن لك . اضرب يا عامر .

عامر : هأنذا أضربه يا أمه . (يضربه على كره) .

جليلة : اضربه بشدة . . بكل قوتك . (تمضى فى ضربه)

خبيب : الحمد لله . الحمد لله . الحمد لله . .

جليلة : امسك عن هذا القول ويلك !

خبيب : لو أمسكت عنه لأوجعني ضربك . إنه هو الذي يدرأ عني الوجع . ما بالك وقفت عن الضرب ؟ أو قد كلت يدك ؟ أريحيها قليلا ثم عاودي ما أنت فيه .

جليلة : (في غيظ) الساعة يأتي عقبة أخي فيضربك ويوجعك .

خبيب : أجل يا أم عامر . دعي أخاك يفعل ذلك فهو أقوى منك ومن هذا الصبي الذي دفعته إلى ضربي فأرهقته .

جليلة : (في غيظ) إني أعرف كيف أبلغ مأربي منك .

خبيب : أتريدين أن تعذبيني بعد ؟

جليلة : نعم .

خبيب : لكني أشفق عليك وعلى صبيك .

جليلة : لن أضربك بالعصا .

خبيب : أبالسيف ؟ إذن تطلقي سراحي يا أخت بني عامر .

جليلة : أطلق سراحك ؟

خبيب : وترسليني إلى الجنة .

جليلة : كلا سأترك قتلك لأخي عقبة ورجاله ولكني سأجيعك. سأجعلك تتلوى من الجوع

خبيب : تمنعين عني الطعام ؟

جليلة : والشراب .



عامر : لا حق لك يا أماه .
جليلة : اسكت أنت ، لا شأن لك .
عامر : إن خالى عقبة قد أمرك أن تطعميه .
جليلة : قلت لك اسكت .
عامر : إنه سيغضب منك إن فعلت .
جليلة : (نافدة الصبر) أتسكت يا هذا أم . . . ؟
خبيب : دعها تفعل ما بدالها يا بنى .
عامر : كلا إن خالى عقبة لا يريدك أن تموت .
خبيب : يريد أن يقتلنى بعدما تنقضى الأشهر الحرم ؟
عامر : نعم . كأنما كنت تسمع حديثه معنا .
خبيب : طب نفساً يا بنى . إن منعت أمك عنى الطعام والشراب فسيطعمنى ربى ويسقينى .
جليلة : أجل أرنا كيف يطعمك ربك ويسقيك .
خبيب : هل تؤمنين به إن فعل ؟
جليلة : كلا لن أؤمن بربك أبداً .
خبيب : ولو أطعمنى وسقانى ؟
جليلة : ولو أطعمك وسقاك .
خبيب : وأنت يا بنى ؟
جليلة : (تنهره) دع عنك الصبى ويلك . لا تحاول أن تخرجه من دين آبائه إلى دينك . هلم يا عامر . (تأخذ بيده

فتجره حتّى تخرج به معها من المربد وهو كاره إذ كان مأخوذاً بالأسير يريد أن يبقى عنده بعد) .

٣

عامر : (يجيء إلى المربد متلصصاً ويدخل رأسه من الباب) هل لى أن أدخل عندك أيها الأسير ؟

خبيب : (فى حنان) عامر . ادخل يابنى .

عامر : ولا تؤذينى أو تبطش بى ؟

خبيب : معاذ الله يا بنى . إنى لأعلم أن أمك هى التى دفعتك إلى ضربى وأنت كاره .

عامر : أجل إنها هى التى أكرهتنى . وقد قلت لها إنك رجل طيب فلم تصدقنى . خبرنى . أحقًّا قتلت أنت جدى الحارث بن عامر ؟

خبيب : نعم يا بنى . جدك أراد قتلى فقتلته .

عامر : وكنت تعرف أنه جدى ؟

خبيب : لا يا بنى . ما كنت أعرف أنه جدك .

(يدخل عامر حتى يقف قريباً من خبيب)

عامر : ما دمت لا تعرف أنه جدى فليس بينى وبينك شىء .

خبيب : أجل ليس بينى وبينك غير المودة والمعروف .

عامر : أنت تحبنى ؟

خبيب : أيّ والله يا عامر .

عامر : (يقدم له قعبًا من اللبن كان يخفيه تحت ثيابه) خذ فاشرب .

خبيب : لبن ؟

عامر : نعم . اشربه قبل أن يأتى أحد .

خبيب : من أين جئت به ؟

عامر : حلبته من الشاة التى عندنا .

خبيب : وأمك تعلم ؟

عامر : لا .

خبيب : لا حاجة لى به إذن .

عامر : لماذا ؟

خبيب : لا أريد أن تضربك أمك .

عامر : أنّى لها أن تعلم ؟

خبيب : ستحلب الشاة فتعرف .

عامر : سأقول لها إنى شربت اللبن .

خبيب : لن تصدقك يا عامر وستسألنى

عامر : إن سألتك فقل لها إنى ما جئتك بشىء .

خبيب : كلا لأخبرنها بالحقيقة إن سألتنى .

عامر : أنت إذن لا تحبنى .

خبيب : بلى يا عامر ولكن لا ينبغى أن تسرق ثم تكذب .

عامر : لكنك جوعان ولا أستطيع أن أدعك جوعان .

خبيب : كلا يا بنى ما أنا بجوعان .

عامر : لك اليوم ثلاثة أيام لم تذق شيئاً .

خبيب : إن الله يطعمنى ويسقينى يا عامر .

عامر : بل أنت تتجلد على الجوع والعطش كما تجلدت على الضرب .

خبيب : أتحب يا بنى أن أشرب هذا اللبن ؟

عامر : نعم . . اشربه من أجلى . أرجوك .

خبيب : اذهب إلى أمك أولا فاستأذنها .

عامر : كلا لن تأذن لى أبداً وستضربنى .

(يسمع حس قادم فيخفى عامر القعب) .

(تدخل جليلة) .

جليلة : ماذا تصنع هنا يا عامر ؟

عامر : لاشىء يا أمى . كنت أنظر إليه كيف يتلوى من الجوع .

جليلة : أرنى ما هذا الذى تخفيه تحت ثيابك ؟ قعباً من اللبن ؟ إذن فأنت تطعمه كل يوم يا لكع .

عامر : كلا يا أماه . إنه ما رضى أن يأخذ منى شيئاً .

جليلة : لأوجعنك ضرباً يا شقى . أعطنى القعب .

عامر : مريه يا أمى أن يشربه فقد أبى أن يقبله منى إلا بعد أن أستأذنك .

جليلة : أعطنى القعب .

عامر : (يناولها القعب) أعطيه أنتِ القعب فسيقبله منك .

جليلة : (تريق اللبن فى الأرض) الأرض أولى بهذا اللبن منه .

عامر : ما أقسى قلبك يا أماه .

جليلة : خبرنى يا هذا إلى متى تغرى ابنى هذا على السرقة من أجلك .

خبيب : سلى ابنك يخبرك .

عامر : كلا يا أمى أنا جئته باللبن من تلقاء نفسى . وقد رفض أن يقبله منى الإ بعد إذنك .

جليله : وعلَّمته أن يتواطأ معك على الكذب ؟

عامر : بل نهانى هو يا أمى عن الكذب .

جليلة : لقد كشفت اليوم خديعتك . استحوذت على عقل الصبى فجعلته يختلس لك الطعام كل يوم لتقول لنا بعد ذلك إن الله يطعمك ويسقيك !

عامر : والله يا أمى ما أحضرت له شيئاً إلا هذا القعب اليوم وقد أبى أن يقبله .

جليلة : لا تحاول أن تخدعنى يا لكع . كيف إذن استطاع أن يبقى ثلاثة أيام بغير طعام دون أن يظهر عليه شىء من الإعياء ؟

خبيب : قلت لك يا هذه إن الله يطعمنى ويسقينى .

جليلة : التمس غيرى ليصدق هذا الهراء .

خبيب : هل تريدين برهانًا على ذلك ؟

جليلة : نعم أرنى البرهان .

خبيب : (يتوجه بالدعاء إلى السماء فى خشوع ثم يقول) اللهم أرنا برهانًا من عندك يكون حجة لدينك ومصداقًا لنبيك .

عامر : (يصيح فى دهش) انظرى يا أماه .

خبيب : (يحمل فى يده قِطفًا من العنب) خذى يا أخت بنى عامر .

جليلة : ما هذا ؟

عامر : قِطْف من العنب !

جليلة : من أين جئت به ؟

خبيب : من عند الله .

جليلة : بل جاءك به هذا الصبى الشقى .

عامر : من أين لى به يا أماه ؟ وهل رأيت قط مثل هذا العنب فى مكة ؟

جليلة : صدقت . ما رأيت مثل هذا العنب الكبير قط . إنه سحر يا بنى .

خبيب : خذيه فكلى منه .

جليلة : كلا لا أريد أن تسحرنى .

خبيب : خذ يا عامر .

جليلة : (تجذب يد الصبي) كلا إنه يريد أن يسحرك يا بني . هلم بنا نبتعد عنه (تخرج به وهي تجره جراً) .

٤

[الصبي عامر يعود متسللا إلى المحبس]

عامر : لا تؤاخذني يا عم . ما استطعت أن أعود إليك أمس .

خبيب : أمك حبستك ؟

عامر : حبستني وضربتني .

خبيب : وتعود اليوم إليّ ؟

عامر : إني أحبك يا عم .

خبيب : وأنا أيضاً أحبك . ولكني أخشى عليك من عقوبة أمك .

عامر : لا تخف . إنها خرجت لتزور آل عبد الدار ولن تعود إلا آخر النهار .

خبيب : أهلا بك وسهلا يا عامر . اقعد يا بني .

عامر : (يقعد قريباً من خبيب) أين العنب الذي كان معك ؟

خبيب : أكلته يا عامر .

عامر : كله ؟

خبيب : كله يا بني .

عامر : كنت أشتهي أن أذوق منه .

خبيب : (يبتهل بالدعاء فإذا قِطف من العنب فى يده) خذ يا بنى .

عامر : عجبًا كيف جاء إليك ؟

خبيب : من عند الله . ربى يا عامر .

عامر : (يأكل من العنب) حلو جدًّا ياعم .ما ذقت مثله قط.

خبيب : كل يا بنى هنيئًا مريئًا .

عامر : (وهو يأكل) لكن هذا ليس موسم العنب فمن أين جاء به ربك ؟

خبيب : الله ربى على كل شىء قدير .

عامر : أهو رب محمد ؟

خبيب : أجل هو رب محمد . . ومحمد عبده ورسوله .

عامر : لكنى لا أحب محمداً يا عم .

خبيب : فيم يابنى ؟ إن محمداً لجدير أن تحبه .

عامر : يقولون إنه كفر بآلهتنا .

خبيب : لأنها آلهة باطلة وما ثَمَّ إلاّ إله واحد هو الله رب العالمين .

عامر : واللات والعزى ومناة وهبل .

خبيب : تلك أصنام صنعوها بأيديهم لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًّا.

عامر : لكن كيف تخلى عنك ربك . فتركك تقع فى أيدى الهذليين ؟

خبيب : كلا ما تخلى عنى ربى ولكنه ابتلانى ليجزينى إن صبرت .

عامر : هل لك أن تحكى لى قصة الرجل الذى حمته الزنابير ؟

خبيب : أوقد سمعت أنت عنها ؟

عامر : سمعت طرفًا منها وأريدها كاملة منك ألست كنت معه ؟

خبيب : بلى يا بنى . ذاك رئيسنا عاصم بن ثابت . مازال يقاتل بنى هذيل الذين غدروا بنا حتى قُتل . فأرادوا أن يحتزوا رأسه ليقدموه لامرأة فى مكة كان قد قَتَلَ لها ابنين فى بدر فجعلت لمن يأتيها برأسه مائة ناقة .

عامر : أنا أعرفها يا عم . أعرف تلك المرأة . هى سلافة من آل عبد الدار التى ذهبت أمى تزورها اليوم .

(يسمع حس قادمين فيخرج الصبى منطلقًا وهو مذعور) .

(تدخل جليلة وعقبة ومعها سلافة وعبد لها يحمل رأس رجل) .

سلافة : أهذا هو أسيركم ؟

جليلة : نعم .

سلافة : أتعرف يا هذا رأسُ مَنْ هذا ؟

خبيب : لعنة الله على بنى هذيل .

سلافة : أتعرف رأس مَنْ هذا ؟

خبيب : نعم رأس أخى وحبيبى .
سلافة : من هو ؟
خبيب : رجل صالح من أصحاب محمد .
سلافة : ما اسمه ؟
خبيب : ومن تكونين ؟
جليلة : ويلك هذه سلافة عقيلة بنى عبد الدار .
خبيب : التى قتل ابناها فى بدر ؟
عقبة : نعم وهذا رأس قاتلهما . أتعرفه ؟
سلافة : عاصم بن ثابت ابن أبى الأقلح .
خبيب : كم دفعت للهذليين ثمناً له ؟
سلافة : مائة ناقة .
خبيب : أزعموا لك أنه رأس عاصم ؟
سلافة : نعم .
خبيب : فقد كذبوك وخدعوك . ليس هذا برأس عاصم .
سلافة : بل كذبت أنت .
خبيب : ما يحملنى على الكذب يا امرأة ؟
سلافة : بلغك أنى سأشرب فى جمجمته الخمر فأشفقت على صاحبك من ذلك .
خبيب : إنه لرأس أخ كريم آخر لا يقل حبى له عن حبى لعاصم .
سلافة : من هو ؟ ما اسمه ؟

خبيب : عبد الله بن طارق كان معنا حين نزلنا إلى هذيل على العهد . فلما آنس منهم الغدر امتنع عليهم فقتلوه .

سلافة : وعاصم أين رأس عاصم ؟

خبيب : ما يدريني ؟ سلى السيل الذى احتمله . لقد أبر الله قسمه إذ عاهد الله ألا يمس مشركًا ولا يمسه مشرك ..

سلافة : ماذا ترى يا عقبة ؟ أتظنه صادقًا فيما زعم ؟

عقبة : ما أره إلا قد صدق .

سلافة : تبًّا لبنى هذيل . والله لأستردن منهم ما أخذوه .

عقبة : كيف يا سلافة ؟ سيزعمون لك أنه رأس عاصم .

سلافة : سأحتج عليهم بشهادة أسيرك هذا . وهو صاحبه وزميله .

عقبة : إنهم ذوو ألسنة حداد فسيكذبون شهادته عليهم بحجة أنه عدو لهم وهم له عدو .

سلافة : عجبًا أراك تدافع عنهم يا عقبة .

عقبة : كلا يا سلافة ولكنى لا أحب لك أن يأخذوا مالك ثم يسلقوك بألسنتهم ولن تجنى من دعواك غير العناء .

سلافة : أأتركهم وقد خدعونى وأعطونى غير الرأس الذى أريد ؟

عقبة : لو كان لهم سبيل إلى رأس عاصم لما ضنوا به عليك فليس بأثمن عندهم من هذا الرأس الذى أعطوك .

سلافة : قد كان عليهم أن يخبرونى بحقيقة الأمر .

عقبة : ما كنت لتعطيهم الجعل لو فعلوا .

سلافة : كيف يأخذون مني جُعْلا لا يستحقونه ؟

عقبة : إن لم يكن رأس عاصم فهو رأس واحد من رفاق عاصم ، وكلاهما من أصحاب محمد وهم جميعاً لنا عدو .

سلافة : لكني أريد رأس قاتل ولديّ مسافع وجلاس .

عقبة : لتشربي في قحفه الخمر ؟

سلافة : أجل لقد نذرت ذلك .

عقبة : فاشربي في قحف هذا الرأس الذي عندك . فما كان صاحبه ليعف عن قتل ولديك مسافع وجلاس لو كانا بإزائه ساعة القتال في بدر .

سلافة : كلا لا أستطيع أن أحمل نفسي على الشرب في جمجمة أحد غير عاصم . إني أتقزز من ذلك ولا ينفي عني التقزز غير شعوري بالانتقام من قاتل ولديّ .

عقبة : ألا يسرك يا سلافة أن تنتقمي من أصحاب محمد جميعاً ؟

سلافة : بلى ؟

عقبة : فاجعلي هذا الرأس كل ليلة لواحد منهم حتى تشر. في قحوفهم جميعاً .

٥

[عقبة يستقبل صفوان بن أمية وصفوان يقود زيد بن الدثنة وهو مغلول مقيد] .

عقبة : مرحبًا بك ياصفوان بن أمية . ماذا جاء بأسيرك معك ؟

صفوان : أريد أن أعرضه على أسيرك لأستيقن أنه زيد بن الدثنة .

عقبة : أشككت فيه أنت أيضًا .

صفوان : أجل . لا أثق بالهذليين بعد الذى فعلوه مع سلافة .

عقبة : وماذا يقول الأسير نفسه ؟ أينكر أنه زيد بن الدثنة ؟

صفوان : لا ينكر ولا يثبت . وإنما يردد . سبحان الله والحمد لله .

عقبة : إن أمر هؤلاء لعجيب . هلم بنا إلى المربد .

٦

[فى المربد . عقبة وصفوان وزيد بن الدثنة يقفون أمام خبيب]

زيد : (ينظر إلى خبيب) سبحان الله والحمد لله .

خبيب : سبحان الله والحمد لله .

زيد : إن هذا المشرك . (يشير إلى صفوان) يريد أن يتأكد هل باعه الهذليون قاتل أبيه أم باعوه غيره ؟

خبيب : وماذا قلت له أنت ؟

زيد : لم أشأ . أن أجيبه بلا أو نعم . وإنما كنت أسبح الله وأحمده .

خبيب : وما حملك على ذلك يا أخى ؟

زيد : لأزيده غيظًا ليعجّل بقتلى فألقى رفاق الذين استشهدوا قبلى فى الجنة .

خبيب : يرحمك الله يا أخى أما أنه لن يقتلك حتّى يعلم أنك زيد بن الدثنة قاتل أبيه أمية بن حلف .

زيد : (لصفوان) فاعلم يا هذا أنى زيد بن الدثنة الذى قتل أباك فى بدر فأرسله إلى النار .

عقبة : ها هو ذا قد اعترف لك .

صفوان : لكنى غير مطمئن إلى قوله الآن .

عقبة : كيف ؟

صفوان : لقد كنت أظنه يأبى الإفصاح خشية أن يقتل ، فإذا هو يأبى الإفصاح ليغيظنى فأعجل بقتله .

عقبة : فما يمنعك الآن من قتله .

صفوان : ما يدرينى لعله إنما زعم أنه زيد بن الدثنة لأعجل بقتله .

زيد : فألقى برفاقى الذين استشهدوا من قبلى فى الجنة .

صفوان : أسمعت ؟ إنه زعم زعمًا وهو كاذب فيما زعم .

زيد : كلا يا هذا إنا نحن معشر المسلمين لا نكذب ولا ينبغى لنا أن نكذب .

خبيب : إنما يكذب من يخاف ونحن لا نخاف أحداً إلا الله وحده .

صفوان : أتشهد يا هذا انه زيد بن الدثنة ؟

خبيب : كما أشهد أنى خبيب بن عدى .

زيد : هأنتذا قد سمعت شهادتى فهلم عجل بقتلى فإنى فى شوق إلى الجنة .

صفوان : كلا ما يدرينى لعله متواطئ معك .

زيد : فافعل إذن ما بدالك .

عقبة : ماذا أنت فاعل ياصفوان ؟

صفوان : والله لا أدرى ماذا أفعل . وددت لو أعلم يقيناً أنه قاتل أمية بن خلف .

زيد : هل تحب أن أصفه لك ؟

عقبة : أجل دعه يصف لك أباك فإن أصاب نعته أيقنت أنه هو الذى قتله .

زيد : إنى لأتمثله الآن أمامى . إذ أقبل نحوى يتعرج فى مشيته كأن إحدى رجليه أقصر من الأخرى .

عقبة : أما والله لقد صدق .

صفوان : على رسلك يا عقبة . (لزيد) صف لى ياهذا وجهه .

زيد : (يحلق فى وجه صفوان) . . . . . . ؟

صفوان : ويلك ما بالك تنظر هكذا إلىّ ؟

زيد : لأرى هل فيك مشابه منه ؟

صفوان : هيه . . .

زيد : ما رأيت ابناً أقل شبهاً بأبيه منك بأمية بن خلف . كان أحمر وأنت أبيض . وكان معقوف الأنف وأنت أقنى . وكان قصير العنق ضيق ما بين المنكبين ، وأنت طويل العنق واسع ما بين المنكبين .

صفوان : حسبك . حسبك . الآن طابت نفسى . لأقتلنك اليوم أشنع قتلة .

زيد : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

(صدق الله العظيم)

٧

[الصبي عامر عند خبيب فى المربد]

عامر : لكن ما قصة الزنابير ؟ أحقًّا كانت كبيرة جدًّا كل واحد منها فى حجم الحدأة ؟

خبيب : لا تصدقهم . إنها زنابير فى الحجم المعتاد طفقت تذب عن جسد عاصم وتلسع كل من يقترب منه إلى أن جاء السيل فاحتمله وذهب به حيث أراد الله .

عامر : يقولون إنه ساحر .

خبيب : لا تصدقهم يا عامر . بل هو رجل مؤمن شجاع دعا ربه دعوة فاستجابها له .

عامر : ماذا دعا ؟

خبيب : كان قد قاتلهم طول النهار فلما أيقن بالموت وخشي أن يمثلوا بجثته دعا ربه فقال : اللهم إنى حميت دينك صدر النهار فاحم جسدى آخره .

عامر : ما دام ربه يستجيب له فلماذا لم يَدْعُهُ أن ينقذه من القتل ؟

خبيب : إنه آثر أن يموت شهيداً فى سبيل الله ليدخله الله الجنة .

عامر : خبرنى ماذا فى الجنة يا عم ؟

خبيب : فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

عامر : هل أستطيع أنا أن أدخلها ؟

خبيب : نعم إذا آمنت بالله ورسوله وعملت عملا صالحاً .

عامر : (بعد صمت يسير) اسمع يا عم . . ليس فى البيت أحد فهل لك فى شىء أحضره لك ؟

خبيب : نعم أحضر لى موسى يا بنى .

عامر : موسى . . ماذا تصنع بها ؟

خبيب : إنهم سيقتلوننى غداً فأريد أن أستحد بها وأتطهر حتى ألقى ربى وأنا فى هيئة حسنة .

عامر : وأين تلقى ربك ؟

خبيب : فى الجنة إن شاء الله .

عامر : انتظر قليلا . . سأحضرها لك . (يخرج) .

٨

[نفس المنظر السابق خبيب يسوى شعر لحيته وشاربه بموسى فى يده . وبجانبه عامر يصغى إلى قصة يقصها عليه]

عامر : أجميل هو ؟

خبيب : جميل جدًّا وطيب جدًّا وشجاع جدًّا . آه لو رأيته صلى الله عليه وسلم . لأحببته يا عامر ولو رآك هو لأحبك .

(يسمع صوت جارية من الخارج وهى تصيح فى رعب)

الصوت : سيدتى . . سيدتى . . ابنك عامر قاعد عند الأسير وفى يده شفرة ماضية .

جليلة : (صوتها) فى يد من ؟

الجارية : (صوتها) فى يد الرجل .

جليلة : (صوتها) يا ويلتا سيثكلنى الولد كما أثكلنى الوالد .

انطلقى إلى سيدك عقبة فادعيه . (تدخل جليلة وهى مرعوبة) .

جليلة : ويلك ماذا تصنع بولدى ؟

خبيب : (يجذب عامراً إليه) قد أمكننى الله منكم مرة أخرى يا أخت بنى الحارث .

جليلة : كلا لا تفعل . حنانك إنه صبى صغير وليس لى غيره . أليس فى قلبك رحمة ؟

عامر : لا تخافى يا أمه . إنه إنما يمزح معك . إنه يحبنى يا أماه . يحبنى جدًّا . ولا يمكن أن يمسنى بسوء .

جليلة : هذا الذى كنت أخشاه . لقد طفق يتودد إليك ويلاطفك لتطمئن إليه وتقع فى قبضته فينقض عليك .

عامر : ينقض علىّ ؟

جليلة : كما فعل الساعة .

عامر : ماذا فعل يا أماه ؟ إنه لم يفعل شيئًا .

جليلة : ويلك أنت الآن فى قبضته . إن شاء جرحك وإن شاء ذبحك وشرب من دمك .

عامر : (يقهقه ضاحكا) . . . .

جليلة : وتضحك بعد يا لكع ؟

عامر : إنما أضحكنى تفجعك يا أماه فى غير شىء .

جليلة : يا أعمى ألا ترى الحديدة تلمع فى يده ؟

عامر : (ماضياً فى ضحكه) أنا الذى أحضرتها له يا أماه .

جليلة : ليذبحك بها ؟

عامر : بل ليصلح بها من حاله ويتجمل حتى يلقى ربه وهو فى هيئة حسنة . إنه سيلقى ربه فى الجنة يا أماه .

جليلة : ياويلتا أو قد صدقت كلامه وآمنت بما يقول ؟

عامر : صه . لا يسمعك خالى عقبة فها هو ذا قد أقبل .

(يدخل عقبة فزعاً) .

جليلة : أدركنى يا عقبة . أدركنى .

عقبة : ما الخطب ياجليلة ؟

جليلة : ألا ترى بعينك ؟ الصبى فى قبضته وفى يده الشفرة الماضية .

عقبة : ويل لك يا هذا أو قد أمرك محمد أن تذبح أطفال الناس ؟

خبيب : كذبت وخسئت . إن محمداً لنبى الهدى والرحمة وإنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق .

عقبة : فما بالك تمسك هذا الطفل وفى يدك الموسى ؟

خبيب : لأريكم أننى قادر عليه لو شئت ولكن دينى ينهانى عن ذلك وما كنت لأقتله ولو لم ينهنى دينى . اذهب يا بنى إلى أمك .

عامر : لا . . حتى أسمع بقية القصة .

جليلة : ويلك تعال يا شقى .

عامر : (ينظر إلى خاله فيرى الغضب الشديد فى وجهه) إنى خائف يا أماه .

جليلة : ميم يا لكع ؟

عامر : من خالى عقبة .

جليلة : ويلك إنما جاء خالك لينقذك من شر هذا الغريب .

عامر : كلا بل ليضربنى ويعزرنى . إنى أرى الغضب فى وجهه . انظرى إلى وجهه .

جليلة : إنما غضبه من هذا الغريب لا منك أنت .

عامر : بل منى أنا . أنا أعرف به منك .

جليلة : قل له يا عقبة إنك لن تضربه ولن تعاقبه .

عقبة : هلم يا عامر . فإنى لن أضربك .

جليلة : ها هو ذا قد أمنك .

عامر : كلا يا أمى حتى يحلف .

جليلة : احلف يا عقبة .

عقبة : (كاظماً غيظه وهو يتميز) والله لا أضربك ولا ترى منى إلا ما تحب . (يدنو الصبى من أمه فتحتضنه فى فرح وهى لا تكاد تصدق أنه حى بعد) .

٩

[عامر وجليلة يدخلان المربد كالمتسللين]

جليلة : انظر يا عامر لعل الجارية هناك تتنصت .

عامر : (يخرج منطلقاً ثم يعود) . . لا يا أماه لم تعد بعد من مشوارها .

خبيب : خيراً يا عامر ويا أم عامر . هل من حاجة فأقضيها لكما قبل أن يسوقونى إلى العراء ليقتلونى خارج الحرم ؟

عامر : نعم يا عم . . نريد منك أن تهرب من هنا فتنجو من أيديهم .

خبيب : وهذا القيد ؟

عامر : سنفكه عنك .

خبيب : (يبتسم ضاحكاً من قوله) أتسمعين يا أم عامر ماذا يقول ابنك ؟

عامر : إنى أتحدث عنها كما أتحدث عن نفسى .

خبيب : أحقاً ما يقول يا أم عامر ؟

جليلة : نعم وذلك قليل فى حقك يا خبيب .

عامر : فلنسرع يا أماه قبل أن يأتى أحد . أعطينى مفتاح القيد .

جليلة : (تعطيه المفتاح) خذ يا بنى .

خبيب : على رسلكما . أتعلمان ماذا أنتما صانعان ؟

جليلة : تخشى علينا من عقبة أخى ؟

خبيب : نعم .

عامر : سأزعم له أننى أنا الذى أطلقت سراحك ولا شأن لأمى بذلك .

خبيب : لكن المفتاح مع أمك .

عامر : سأزعم له أننى سرقت منها المفتاح .

خبيب : لكنى أخشى عليك أنت العقوبة .

عامر : سأتحملها يا عم من أجلك .

جليلة : إن هى إلا بضعة أسواط ستؤله يوماً أو يومين ثم يزول الألم .

خبيب : كلا يا أم عامر إنهم لن يصدقوا هذه الدعوى وسيلقون عليك التبعة .

جليلة : لا شأن لك بأخى عقبة . إنى أعرف كيف أقنعه .

خبيب : إن قدرت على أخيك فلن تقدرى على أهل مكة جميعاً فقد تواعدوا على الخروج غداً إلى التنعيم ليشهدوا قتلى هناك .

(يجهش عامر بالبكاء) .

جليلة : انظر . إن عامراً يبكى عليك . ألا ترحم دمعه ؟

خبيب : لا بأس . عما قليل سيرقأ دمعه .

جليلة : افعل ذلك من أجلى يا خبيب فإنى قد آمنت بدينك .

خبيب : (فرحًا) أحقًا يا أختاه ؟

جليلة : أى والله .

عامر : (يمسح الدمع عن عينيه) وأنا آمنت به قبلها .

خبيب : بوركت يا عامر وبوركت أمك . قولا الآن . أشهد أن لا إله إلا الله .

الاثنان : أشهد أن لا إله إلا الله .

خبيب : وأشهد أن محمداً رسول الله .

الاثنان : وأشهد أن محمداً رسول الله .

خبيب : (فرحًا يتطلق بشراً) الحمد لله أنتما الآن مسلمان .

جليلة : فدعنا نطلق سراحك ليصح إسلامنا .

خبيب : قد صح إسلامكما يا أختاه ولا حاجة إلى الإلقاء بأيديكما إلى ما تكرهان ، انصرفا الآن قبل أن يجيء أحد فيرى منكما ما يريبه .

(يخرجان وهما فى أسى شديد) .

١٠

[فى العراء خارج مكة وقد نصبت خشبة من جذوع النخل ليصلبوا خبيبًا عليها فى نشز مرتفع من الأرض . خبيب يسوقه عقبة واثنان آخران وخلفهم جليلة وعامر الصبى . ومن خارج المشهد تسمع أصوات الجمهور

من الخلق الذين خرجوا ليشهدوا صلب خبيب وقتله] .

خبيب : إن كنتم تريدون قتلى الساعة فدعونى أصلى ركعتين قبل أن تقتلونى .

أصوات : كلا لا تجيبوه إلى طلبه . اقتله يا عقبة . اقتله يا عقبة .

جليلة : مهلا يا عقبة . أجب هذا الرجل إلى طلبه . فمن حقه أن يجاب . (همهمة استنكار من الجمع) .

عقبة : ما خطبك يا أم عامر .

جليلة : إن له يداً عندى ياعقبة . كان فى وسعه أن يقتل عامراً ابنى فلم يفعل .

عامر : أجل يا خالى أجبه إلى طلبه .

عقبة : صل يا هذا ما شئت وأسرع .

خبيب : (يكبر للصلاة) الله أكبر . .

١١

خبيب : (يسلم من صلاته) السلام عليكم ورحمة الله . السلام عليكم ورحمة الله . (ينهض قائماً) .
والله لولا أن تحسبوا أن مابى من جزع لزدت . . هيا اقتلونى الساعة .

عقبة : هلم ارق هذه الخشبة .

خبيب : ويلكم أتريدون أن تصلبونى ؟

عقبة : نعم . . هل جزعت ؟

خبيب : يا هذا إنَّ المسلم لا يجزع من الشهادة .

(عقبة وصاحباه يشدونه إلى الخشبة بالحبال) .

خبيب : الحمد لله . . الحمد لله . . (يهم عقبة بقتله) .

أصوات : مهلاً يا عقبة . دعنا نسأله أولا . . أتحب يا هذا أن محمداً مكانك ؟

خبيب : لا والله ما أحب أن يؤذى محمد بشوكة فى قدمه .

أصوات : ارجع عن الإسلام لنخلى سبيلك ولا نقتلك .

خبيب : ساء ما قلتم يا جند الباطل . (يدعو) اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً . . ولا تُبقِ منهم أحداً .

عقبة : سمعتم ما يقول كيف يدعو عليكم ؟ إنى لن أقتله وحدى . . .هلموا كل من بيده رمح فليطعنه معى .

أصوات : أجل دعونا نتعاوره برماحنا من كل جانب .

خبيب : اللهم إنه ليس هنا أحد يبلّغ رسولك عنى السلام فبلغه أنت عنى السلام .

[تسمع حركة الرماح وهى تندق فى خبيب فنرى الصبى وأمه يشيحان بوجهيهما عن المنظر . وهما يذرفان الدمع وصوت خبيب من خلال الضوضاء والأصوات يقول : بلغه أنت يا ربى عنى السلام . . .]

« ستار »

زوجتان صالحتانؐ



١

[في بيت أم حكيم وعندها ابنة عمها الفاختة]

أم حكيم : إياك يابنت عمي أن تتبعيه حتى يشهد أولا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

فاختة : لعلي إن تبعته أن أعطف قلبه إلى الإسلام .

أم حكيم : كلا يا فاختة إنك إن تبعتيه فسيحاول هو أن يفتنك عن دينك .

فاختة : معاذ الله أن أفتن عن ديني ولو انطبقت السماء على الأرض .

أم حكيم : فالرأى إذن أن تصري على موقفك منه حتى يفيء إلى الحق ويدخل فيما دخل فيه الناس من دين الله .

فاختة : أخوف ما أخافه أن يرتحل عن البلد كما فعل عكرمة زوجك فلا يرجى له أن يفيء إلى الحق .

أم حكيم : ماذا يحمل صفوان على ذلك ؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينذر دمه كما نذر دم عكرمة .

(يدخل صفوان بن أمية دون استئذان)

أم حكيم : ماذا جاء بك يا صفوان ؟

صفوان : عجباً يا أم حكيم أهكذا تحيين زوج ابنة عمك ؟

أم حكيم : ما عدت زوجًا لها يا صفوان . إن الإسلام قد حال بينها وبينك .

صفوان : هبيني زائراً أفهكذا تحيين الزائر في بيتك ؟

أم حكيم : كلا ما أنت بزائر فنكرمك وإنما أنت شيطان تريد أن تحملها على الكفر بعد أن أكرمها الله بالإسلام .

صفوان : هل يجمل بك يا فاختة أن تدعى بنت عمك هذه تتطاول على ؟

أم حكيم : وما أنت يا صفوان بن أمية ؟

صفوان : أنا من المطعمين في قريش إن كنت تجهلين .

أم حكيم : قد أبطل الله مآثر الجاهلية وأذل كبرياءها فإن كنت تروم شرفًا فدونك الإسلام .

صفوان : ألا تتكلمين أنت يا فاختة فتسكتى بنت عمك ؟

أم حكيم : إنها لن تكلمك أبداً .

صفوان : فاختة !

أم حكيم : لقد أقسمت بالله لا تكلمك أبداً حتى تؤمن بالله ورسوله ه

صفوان : أحقًا يافاختة ؟

فاختة : (تومئ برأسها أن نعم دون كلام) . . . ؟

أم حكيم : ألم أقل لك ؟

صفوان : (محتداً) .يا هذه هلا اهتممت بزوجك خيراً لك ؟



أليس عكرمة أحق منى بوعظك هذا وإرشادك ؟

أم حكيم : وأين عكرمة منى ويلك ؟

صفوان : (ساخراً) لعله نجا بنفسه خوفاً منك أن تفتنيه عن دين آبائه !

أم حكيم : (فى صرامة) صفوان . ليس من المروءة أن تقول هذا عن صاحبك إنك تعلم لماذا نجا عكرمة بنفسه وهرب .

صفوان : لأن محمداً نذر دمه فيمن نذر .

أم حكيم : فلتقل فى عكرمة خيراً أو فلتصمت فأنت تعلم أنه رجل كريم .

صفوان : إن كنت تحبينه بعد فقد كان عليك أن تتبعيه حيثما ذهب .

أم حكيم : لو أعلم أين توجه لاقتفيت أثره .

صفوان : إنه توجه صوب اليمن !

أم حكيم : وكيف عرفت ؟

صفوان : أنا الذى جهزته يا أم حكيم .

أم حكيم : والله لأذهبن الساعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليأذن لى فى اللحاق به .

صفوان : ويلك إن علم محمد بوجهته ليرسلن فى طلبه حتى يظفر به فيقتله .

أم حكيم : ياصفوان إن محمداً أكرم من ذلك .

صفوان : ليتنى ما أخبرتك . لقد جنيت على صاحبى والله .

أم حكيم : قلت لك إن محمداً أكرم من ذلك .

صفوان : إن كنت تحبين زوجك حقًّا فلا تعرضيه للهوان والقتل .

أم حكيم : قد استأمنت له من محمد فأمّنه .

صفوان : أمّنه ؟ أمّن عكرمة بن أبى جهل .

أم حكيم : أجل لو كان أبو جهل نفسه حيًّا اليوم والتمس الأمان من محمد لأمّنه ، (لفاختة) أنا ماضية يا فاختة (تتهيأ للخروج) .

فاختة : خذينى معك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صفوان : ابقى قليلا معى يا فاختة .

فاختة : (تهم بالكلام ثم تتذكر يمينها فتلتفت إلى أم حكيم) هيا بنا يا أم حكيم .

(تخرج أم حكيم وفاختة) .

صفوان : (يتمتم) إلا أن أمراً حال بينى وبين فاختة لأمر كبير .

٢

[فى مكان ما على االطريق إلى اليمن] .

[أم حكيم تنظر فى وجوه أهل قافلة أناخت بذلك المكان كأنها تبحث عن عكرمة]

أم حكيم : (تلمح وجه عكرمة) عكرمة !

عكرمة : (ينهض إليها) أم حكيم ! (يتنحى بها بعيداً عن بقية القوم) ماذا جاء بك إلى هذا المكان القصى ؟

أم حكيم : السعى إليك يا عكرمة . ويحك أتظن أننى أستطيع العيش بغيرك ؟

عكرمة : لا حق لك أن تتجشمى هذه المشقة من أجلى . . من أجل رجل قدنذر دمه فليس له إلا الهرب إلى أقصى البلاد .

أم حكيم : إلى اليمن ؟

عكرمة : كيف علمت ؟ من ذا أخبرك ؟

أم حكيم : أخبرنى الذى أخبرنى .

عكرمة : صفوان بن أمية ؟

أم حكيم : نعم .

عكرمة : تبًّا له .

أم حكيم : بل تبًّا لك أنت . هل يجمل بك يا بن عمى أن ترحل هذا الرحيل الذى ربما لا تؤوب منه أبداً بدون أن تودع زوجتك التى تحبك ؟

عكرمة : ما حيلتى يا بنت العم ؟ لقد استولى محمد على مكة ونذر دمى فيمن نذر فلم أشأ أن أشركك فى مصير كنت وحدى صاحب التبعة فيه .

أم حكيم : بل كنت شريكتك فى ذلك يا عكرمة . أنسيت أننى خرجت معك يوم أحُد ؟

عكرمة : ذاك يا بنت عمي يوم كان لنا الحول والقوة .

أم حكيم : تباً لك . أو قد هان عليك أن تفارقني إلى غير لقاء ؟

عكرمة : لا ورب هذا البلد الذى استولى عليه محمد إن فراقك علىّ لشديد ولكن ماذا أصنع ؟ إنه قاتلى لو بقيت؛ ولخيرٌ لى أن أعيش بعيداً عنك عسى أن ألقاك يوماً ما من أن أقتل بين يديك فتلبسى الحداد علىّ .

أم حكيم : ويحك يا عكرمة ! ما كان ينبغى لك أن تيأس من عفو محمد فقد عفا عن كثير ممن كانوا أعداءه .

عكرمة : كلا ليس أحد منهم مثلى . لقد كنت أشد الناس أذية لمحمد وعداوة له وكان أبى عدوه الألد حتى لقبه محمد وأصحابه بأبى جهل .

أم حكيم : إنك ما زلت تنظر فى محمد رجلا من قريش انتصر على قومه فهو يعاقب من يشاء ويعفو عمن يشاء .

عكرمة : مهما يكن من شأنه فلا يعدو أن يكون كذلك .

أم حكيم : كلا يا عكرمة إنه نبى يوحى إليه وهدى للناس ورحمة .

عكرمة : قد علمت أنك صبأت يا أم حكيم .

أم حكيم : بل أسلمت وآمنت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ومصطفاه .

عكرمة : فمن الخير ألا تصلى حبالك بحبال رجل لا يؤمن كما آمنت .

أم حكيم : ويلك يا بن عمى ألمثلى تقول هذا القول ؟ ألم تكن تحبنى يا عكرمة ألم أكن أحبك ؟

عكرمة : بلى والله ومن أجل ذلك تركتك وما اخترت لنفسك من هذا الدين الجديد .

أم حكيم : لست والله أولى به منك يا عكرمة . أنت بما وهبت من عقل وحكمة أجدر أن تتبع الهدى وتدعونى أنا إليه . أنشدك الله يا بن عمى بما بيننا من مودة ورحمة ألم يلق فى روعك بَعْدُ ان محمداً على حق فيما دعا إليه وأنه يدعو إلى الخير والهدى والرشاد .

عكرمة : أما وقد حلّفتنى بأعز شيء عندى فوالله لأصدقنك الحديث . إنى لأعلم يا أم حكيم أن محمداً لكما وصفت.

أم حكيم : فما يمنعك أن تعلن ذلك له وتدخل فيما دخل فيه الناس ؟

عكرمة : بعدما أهدر دمى يا أم حكيم ؟

أم حكيم : أو هذا وحده هو الذى يمنعك ؟

عكرمة : نعم .

أم حكيم : فالحمد لله إذن . إنك عائد معى إلى محمد يا عكرمة .

عكرمة : ماذا تعنين ؟

أم حكيم : إنى جئتك يا بن عمى من عند أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس قد استأمنت لك منه .

عكرمة : ورضى أن يؤمننى ؟

أم حكيم : بل فرح يا عكرمة وتهلل وجهه .

عكرمة : إن يكن ما تقولين حقًّا فوالله ما يصدر هذا إلا عن نبي ؟

أم حكيم : فهلم يا عكرمة نسرع بالعودة .

٣

[فى مكة . صفوان بن أمية وفاختة]

صفوان : أتدرين يا فاختة أن حبك فى قلبي قد زاد فصار أضعاف ما كان ؟

فاختة : بعدما هداك الله للإسلام ؟

صفوان : أجل .

فاختة : فلتحب محمداً صلى الله عليه وسلم خيراً منى يا صفوان .

صفوان : والله إنى لأحبه . لقد شهدت حُنيناً وما فى الأرض أبغض إلىّ من محمد وانصرفت من حنين وما فى الأرض أحب إلىّ منه .

فاختة : (ممازحة) لأنه أجزل لك العطاء من غنائم هوازن ؟

صفوان : لا والله يا فاختة . إن المال لا قيمة له عندى كما تعلمين ولكن ما شهدت من شجاعته وثباته لما حمى الوطيس وانهزم عنه الناس فبقى وحده فى نفر قليل وهو يقول فى صوت قوى مطمئن : إلىّ أيها الناس ! إلىّ أيها الناس ! أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب . حتى

فاء المسلمون إليه فكرّوا على المشركين . حينئذ أيقنت يا فاختة أنه نبي مرسل من عند الله .

فاختة : الحمد لله يا صفوان إذ جمعنا على الهدى والحق .

صفوان : لولاك يا فاختة لما قدر لى أن أشهد حنينًا ولما خالط قلبى الإسلام فأنت يا حبيبتى صاحبة الفضل .

فاختة : بل الفضل لأم حكيم يا صفوان . هى التى شجعتنى على ذلك الموقف الذى وقفته منك . وأكدت لى أنك لا تلبث أن تنوء إلى الحق .

صفوان : لله درها من امرأة صدق .

فاختة : تُرى فى أى صقع من الأرض هى الآن ؟ لقد مضى على سفرها اليوم شهران ولم نسمع عنها شيئًا .

صفوان : إنها شُقة بعيدة يا فاختة .

فاختة : أخشى أن تكون قد ضلت الطريق أو لقيت فيه ما تكره .

صفوان : اطمئنى يا فاختة فإنى قد أوصيت بها رجالاً أعرفهم كانوا يقصدون اليمن .

فاختة : سمعت يا صفوان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اعتزم السفر قافلا إلى المدينة .

صفوان : أجل . بعد يومين أو ثلاثة فيما سمعت . استعدى يا فاختة فستنضم نحن إلى ركبه .

فاختة : ألا ننتظر أم حكيم وزوجها حتى يقدما إلى مكة .

صفوان : لا يا فاختة . خير لهما أن نسبقهما إلى المدينة لنهيئ لهما ما يجب .

٤

[فى المدينة المنورة بعد رجوع النبي إليها من فتح مكة وغزوة حنين]

صفوان : (يدخل بيته فى المدينة) أبشرى يا فاختة .

فاختة : أو قد رجعت من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

صفوان : نعم .

فاختة : حدثنى ما ذا فعل عكرمة فى المسجد وكيف لقيه النبي صلى الله عليه وسلم ؟

صفوان : أوجز لك أم أسهب ؟

فاختة : بل أسهب يا صفوان حتى كأننى أشهده معك .

صفوان : إنى لجالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إذ دخل عكرمة لائذاً بأم حكيم فوقف بعيداً وصاح : يا محمد هذه أخبرتنى أنك أمّنتنى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «صدقت أم حكيم إنك آمن» . فتقدم عكرمة وهو يقول : إذن فهاكها يا نبي الله كلمة أعلنها من قلب مخلص : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأنك عبده ورسوله .

فوثب النبي قائماً وهو يتهلل فرحاً واستنار وجهه كأنه القمر وقال : مرحباً بمن جاء مؤمناً مهاجراً .

فاختة : طوبى لعكرمة لقد لقي من تكرمة النبي ما لم يلقه أحد .

صفوان : انتظري . . ليس هذا كل ما هنالك .

فاختة : حدثني ماذا حدث بعد ؟

صفوان : لحظ النبي أن عكرمة ظل مطأطئاً رأسه من شدة الحياء فقال مطيباً خاطره: « يا عكرمة ما تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتك إياه » .

فاختة : (فى اهتمام بالغ) فماذا طلب عكرمة منه ؟

صفوان : قال عكرمة استغفر لى كل عداوة عاديتكها يا رسول الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو منطق تكلم به » .

فاختة : هذا حظ لعكرمة لا مزيد عليه .

صفوان : انتظري . . ليس هذا كل ما هناك .

فاختة : ماذا أيضاً ؟ حدثني !

صفوان : سمعت الحاضرين يتناجون فيما بينهم : هذا تأويل رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألتهم عنها فحدثوني أن النبي كان قد رأى فيما يرى النائم أنه دخل الجنة فرأى فيها عذقاً فأعجبه وسأل لمن هذا ؟ فقيل :لأبي جهل وأنهم تعجبوا لذلك فقال لهم : إن الجنة لا يدخلها

إلا نفس مؤمنة" فازدادوا عجباً . فلما جاء" عكرمة اليوم مسلماً أدركوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أول رؤياه بإسلام عكرمة .

فاختة : (كأنها تتذكر شيئاً) وأين هما الآن ؟ أين عكرمة وأم حكيم ؟ لماذا لم يحضرا معك ؟

صفوان : تركتهما واقفين مع أخيك خالد بن الوليد وعجلت إليك لأبشرك .

فاختة : لعلك دعوت خالداً للغداء معنا اليوم ؟

صفوان : بل سبقني أبو سليمان فدعا نفسه قبل أن أدعوه . (يقرع الباب) ها هم أولاء قد جاءوا . (يفتح صفوان الباب فيدخل عكرمة وأم حكيم وخالد بن الوليد) . (تتعانق فاختة وأم حكيم فى فرح كما يتعانق صفوان وعكرمة) .

خالد : (ينظر إليهم ضاحكاً) ويلكم تركتمونى دون ترحيب ولا تأهيل .

صفوان : معذرة يا أبا سليمان لقد شغلنا الفرح عن ذلك .

فاختة : (تحيى أخاها) مرحباً بك يا خالد . لا شك أنك فرح بما تم اليوم لعكرمة ابن عمك .

خالد : إى والله ما شهدت كاليوم سروراً وبهجة . هذا يوم من أيام مخزوم !

صفوان : لله در نسائكم يا بنى مخزوم . يسبقن أزواجهن إلى الإسلام ثم يجاهدن حتى يفيء أزواجهن إلى الإسلام !

خالد : الحمد لله (يلتفت إلى عكرمة) كيف تجد نفسك الآن يا عكرمة ؟

عكرمة : (فى تأثر شديد) ماذا أقول يا أبا سليمان ؟ أجدنى كأنما ولدت من جديد حين وضعت يدى فى يد خير الناس وأبر الناس وأكرم الناس .

« ستار »

الإمـــام الشجـــاع



١

سلار : ياسيدى السلطان هذا الشيخ ابن مخلوف قاضى المالكية يستأذن عليك .

السلطان : ماذا يريد منى ؟

سلار : يريد أن يكلمك فى أمر ابن تيمية .

السلطان : يالى من هؤلاء الفقهاء . يتغايرون كما تتغاير التيوس . ألا يترك ابن تيمية فى دمشق ؟ ماذا يعنيه من أمره ؟

سلار : هل آذن له ياسيدى السلطان ؟

السلطان : ائذن له يا سلار لنرى ما يقول .

(يدخل ابن مخلوف)

ابن مخلوف : السلام على سيدى السلطان ورحمة الله وبركاته .

السلطان : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . خيراً يا بن مخلوف .

ابن مخلوف : ماذا صنعت لنا يا سيدى السلطان فى أمر ابن تيمية .

السلطان : أما عندكم ما يشغلكم هنا فى مصر غير أمر ابن تيمية ؟ ما شأنكم به ؟ إنه فى الشام .

ابن مخلوف : الشام يا سيدى السلطان تحت حكمك فأنت مسئول عما ينشر فى الناس هناك من بدعة .

الناصر : أتحرضوننى على ذلك الجرىء الشجاع الذى قابل القائد

التترى قازان يوم أقبل بجموعه ليغزو البلاد ، فأنذره وتوعده حتى أقنعه بالانسحاب فانسحب ؟

ابن مخلوف : لكنه مبتدع ضال مضل .

السلطان : إنى لا أعرف ما بدعته وقصارى ما أعلمه أن أهل الشام يحبونه ويجلونه وهو أهل لذلك فقد حماهم يوم قازان وأنقذهم من شره .

ابن مخلوف : هذه رسائل شيوخ العلم بدمشق تفيض بالشكوى من بدعته وتجعل التبعة علينا نحن فى مصر إذ سكتنا عنه .

السلطان : إنما هؤلاء حاسدون وقد بلغنى أنهم لا يقدرون على مناظرته فأرادوا أن يستعدوا السلطان عليه . أفتحسده أنت أيضاً يا بن مخلوف ؟

ابن مخلوف : كلا لا ينبغى أن أحسده على ضلالته .

السلطان : ألا تخشى إن نحن أحضرناه إلى مصر أن يناظركم فيفحمكم .

ابن مخلوف : بل سنفحمه ونلزمه الحجة .

السلطان : حسناً . اكتب ياسلار إلى نائب السلطنة فى دمشق أن يرسل الشيخ تقى الدين ابن تيمية على البريد .

سلار : سمعاً يا سيدى السلطان .



٢

ابن تيمية : ماذا تقول يانائب السلطنة ؟ كيف يسوغ لى أن أهرب إلى مصر اليوم .

النائب : هكذا ورد كتاب مولاى السلطان الناصر يا بن تيمية .

ابن تيمية : أليس يعلم السلطان بأن خطر التتار قد عاد مرة أخرى يهدد البلد ؟

النائب : قد كتبت إليه بذلك .

ابن تيمية : أفأترك الشام فراراً من وجوههم لأناظر زيداً وعمراً فى مصر ؟ اكتب للسلطان أن يحضر هو بجيشه إلينا بدلا من أن يستدعينى لأرى تلك العمائم التى تعمل لغير وجه الله .

النائب : صدقت يا بن تيمية . . نحن بحاجة إلى بقائك هنا لتثبت قلوب الناس وتطمئنهم فقد بدأ الهلع يسرى فى القلوب والتتار بعيد بعد فكيف إذا اقتربت جموعهم ؟

ابن تيمية : اكتب للسلطان أن يسرع بجيشه وإلا فإنه مسئول يوم القيامة عما يراق من دماء المسلمين وينتهك من حرمهم . قل له إن ابن تيمية يقول ذلك .

النائب : حالا يا سيدى الإمام .

٣

[في الجامع الأموى بدمشق . . همهمة المصلين وهم يسلمون من الصلاة] : السلام عليكم ورحمة الله السلام عليكم ورحمة الله .

النائب : انظر يا بن تيمية . . هذا غريمك ابن الزملكانى يريد أن يخطب الناس .

ابن تيمية : لعله يريد أن يندب الناس للاستعداد لجهاد التتار .

ابن الزملكانى : أيها الناس يا معشر المسلمين اصغوا إلىّ يرحمكم الله . ها هى ذى الأنباء قد وردت ترى بأن جموع التتار قد أقبلت تطوى البلاد لتغزونا مرة أخرى . فأين ما وعدكم به تقى الدين أحمد بن تيمية إذ زعم لكم يوم قازان أنه أقنعه بالانسحاب وأنهم لن يعودوا لغزوكم مرة أخرى ؟

النائب : ويله ماذا يقول عنك يا بن تيمية ؟

ابن تيمية : دعه يتم حديثه .

ابن الزملكانى : لقد وثقتم بكلام ابن تيمية يومئذ فرفعتم مكانه ونسبتم إليه فضل إنقاذكم من شر التتار ، وأغضيتم من أجل ذلك عن البدع التى خالف فيها جمهور العلماء من أهل السنة. فهل أدركتم اليوم أنه إنما كان يخادعكم يومذاك ليتيح

لحلفائه التتار فرصة أنسب للاستيلاء على بلادكم والتحكم في رقابكم ؟

(همهمة سخط واستنكار) .

النائب : أردد عليه يا بن تيمية .

ابن تيمية : أيها الناس . قد سمعتم ما قال هذا الشيخ عني فاسمعوا الآن ما أقول . لقد ظننت حين قام ليخطب فيكم أنه سيندبكم للاستعداد لملاقاة التتار وجهادهم فإذا هو ينسى خطر التتار ولا يذكر غير شيء واحد هو عداوته لي ليحرضكم عليّ . وإني أدعوكم يا معشر المسلمين ألا يشغلكم عن التفكير في جهاد التتار شاغل ولا يصرفكم عنه صارف . إياكم أن يحملكم الهلع على مغادرة دياركم كما فعلتم فيما مضى فتعينوا بذلك أعداءكم على أنفسكم. بل رابطوا فيها واستعدوا وأعدوا وثقوا بأن الله سيحميكم منهم وينصركم عليهم . وإن سلطانكم الناصر أعزه الله لقادم بجيشه من مصر عما قريب فأبشروا واطمئنوا .

ابن الزملكاني : (صائحاً) يا معشر الناس لا تصدقوا هذا المبتدع فإنما يأمركم بالبقاء في دمشق لتكونوا عبيداً للتتار . إنه سيعرضكم لنكبة التتار وينجو بنفسه .

ابن تيمية : سامحك الله . اسمعوا يا عباد الله . إني والله لأقاتلنهم معكم ، ولأكونن في مقدمتكم ، لقد تعلمون أني ما ثقفت منذ

صغرى غير حمل الكتب والمحابر . غير أنى قد تعلمت حمل السيف منذ قريب فاصنعوا اليوم مثلى واحذوا جميعاً حذوى .

أصوات : نحن معك يا بن تيمية . اقتلوا ابن الزملكانى . اقتلوا هذا الفاسق .

ابن تيمية : (يصيح) كلا يا عباد الله إياكم أن تقتلوه . لا يحل لكم ذلك بل كلوا أمره إلى الله يتولى حسابه .

أصوات : إنه طعن فى حقك وشتمك .

ابن تيمية : قد عفوت عنه وجعلته فى حل منى .

٤

ابن تيمية : شكراً لله سعيك يا سيدى السلطان إذ أسرعت فلبيت الدعوة .

الناصر : بوركت يا بن تيمية ، والله إن الفضل فى ذلك لراجع إليك ولا تحسبنى غافلا عما فعلت لتشجيع الناس هنا وتثبيت قلوبهم .

ابن تيمية : إنما كنت أبشر الناس بأنك ستنجدهم بجيشك .

الناصر : آه لو يعلم العلماء المحرضون عليك عندنا فى مصر أى رجل أنت !

النائب : أدركنا يا سيدى السلطان .

السلطان : ماذا وراءك ؟

النائب : انتشر النامس اليوم أن هؤلاء التتار قوم مسلمون لايحل قتالهم .

ابن تيمية : هذه إشاعة روجها هؤلاء الباطنية المقيمون بيننا . إنهم لأشد عداوة لنا من التتار .

السلطان : يجب القضاء على هؤلاء الخونة .

ابن تيمية : ليس الآن يا سيدى السلطان . . حتى تفرغ أولا من قتال التتار .

السلطان : أنتركهم هكذا يخذّلون الناس وينشرون الفتنة فى صفوفهم ؟

ابن تيمية : اطمئن يا سيدى . . سأكفيكم أمرهم اليوم .. سأخطب فى الناس وأبين لهم وجه الحق .

٥

ابن تيمية : (يخطب) أيها الناس إنما أرجف بهذا عيون التتار بين ظهرانينا وجواسيسهم ليخذّلوكم عن قتالهم . إن هؤلاء التتار أقبلوا يسفكون دماء المسلمين وينتهكون محارمهم ويسلبون أموالهم، فأى إسلام هذا ؟ إياكم والشك بعد اليقين . . أيها الناس خذوها منى كلمة مجلجلة : لو رأيتمونى فى جانب التتار والمصحف فى عنقى فاقتلونى .

أيها الناس هذا جيش مصر قد جاء ليذب عنكم التتار ، فن العار أن تدعوه يقاتلهم وحده . لا يفر اليوم أحد من هذا البلد إلا سأله الله يوم القيامة عن فراره فأركسه فى نار جهنم . والذى نفسى بيده لئن صدقتموهم القتال لينصرنكم الله عليهم كما نصركم من قبل فى عين جالوت .

٦

[فى مصر] .

الناصر : ويحك يا بن مخلوف . أجئت تهنئنا بسلامة الوصول من الشام وانتصارنا على التتار . أم لتحرّضنى على ابن تيمية ؟

ابن مخلوف : إننا نحمد الله يا سيدى السلطان على ما أيدك به من النصر هناك وعلى ما أنعم به علينا من عودتك سالماً إلينا ، فن تمام الشكر لله أن نذكرك بأن تنقذ الناس من فتنة هذا المبتدع ابن تيمية كما أنقذتهم من فتنة التتار .

السلطان : ويلكم . . لو رأيتموه فى المعركة يقاتل التتار معنا هو وأخواه وأبناء عمومته ما قلتم هذا القول .

ابن مخلوف : هذه رسائل علماء الشام تستجير بنا من بدعته .

السلطان : إنهم يحسدونه على ما له من المكانة فى العامة .

ابن مخلوف : الله أعلم بسرائرهم . ولكنا نحن العلماء هنا بمصر لا نحسده على شىء وإنما نشفق أن يفتن الناس ببدعته

وتخشى أن تقع تبعة ذلك على مولانا السلطان .

السلطان : ليس أمامى إلا أن أدعوه للحضور إلى مصر لتناقشوه .

ابن مخلوف : حسبنا منك هذا يا مولاى السلطان .

٧

النائب : (فى دمشق) قد بلّغتك رغبة السلطان يا بن تيمية ، ولكنى لا أنصحك بالمسير إلى مصر .

ابن تيمية : لماذا ؟

النائب : العلماء هناك سيثيرون العامة عليك .

ابن تيمية : ولكن الناصر يعرفنى .

النائب : سيضطر السلطان إلى مطاوعتهم إرضاء للعامة إذا ثاروا عليك .

ابن تيمية : فإنى أريد أن أهدى أولئك العامة إلى سبيل الحق . ولعل الله قد هيأ لى هذا السبب لأقوم بواجبى فى هداية الناس هناك .

[فى مجلس القاضى ابن مخلوف] .

ابن تيمية : ما هذا يا بن مخلوف ؟ هذا مجلس قضاء . وليس مجلس مناظرة .

ابن مخلوف : أجل يا بن تيمية . لا حاجة بنا إلى مناظرتك .

أنت مبتدع ضال ، فعلينا أن نستتيبك فإن تبت خلينا سبيلك وإلا حبسناك لئلا تفتن الناس .

ابن تيمية : ويلك أنت تزعم أنني مبتدع وأنا أزعم أنك أنت المبتدع فاعقد لنا مجلساً نتناظر فيه أمام الناس فإن أقمت على الحجة رجعت فى الحق وإذا أقمتها عليك رجعت أنت .

ابن مخلوف : ويلك أتريد أن تفتن الناس هنا أيضاً .

ابن تيمية : بل أريد أن أهديهم .

ابن مخلوف : خذوه فاحبسوه .

٨

ابن تيمية : مرحباً بك ياسيدى السلطان . . جئت تزورنى فى الحبس .

السلطان : القاضى حكم بحبسك ولا أقدر أن أعارضه فأثير العامة . فهل لك أن أطلقك فتعود إلى الشام ؟

ابن تيمية : أما الآن فلا . سأبقى هنا فى مصر حتى أرى العامة وأهديهم .

السلطان : اسمع نصيحتى . . إنه ليعز علىّ أن تحبس .

ابن تيمية : إن أحبس فقد حبس من هو خير منى فى مثل ماحبست به.

السلطان : من ذا تعنى ؟

ابن تيمية : الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، ولقد كان يضرب

ويعذب فى الحبس، أما أنا فقد أوصيتهم أنت بالرفق بى ، فوالله ما هذا بحبس وإنه لمنزل خير من منزلى بدمشق .

٩

ابن تيمية : أدعوتنى يا سيدى السلطان ؟

السلطان : يا بن تيمية يا صديقى العزيز لقد عرضت نفسى لثورة الفقهاء ، إذ أخرجتك من الحبس فما باليت بغضبهم .

ابن تيمية : إنك مشكور على ذلك . فقد مكنتنى من تبيان الحق للناس فصاروا يحبوننى ويجلوننى وسيجزيك الله على ذلك خيراً ويثيبك .

السلطان : ولكنك تركت الفقهاء اليوم وعمدت إلى شيوخ الطريق تحمل عليهم وتندد بهم .

ابن تيمية : الفقهاء يا سيدى السلطان يتأولون ولكنهم على كتاب الله وسنة رسوله . أما أدعياء التصوف هؤلاء فدجالون يضلون العامة ويستولون على أموالهم باسم الدين ، فيجب على العلماء أن يكشفوا للناس أضاليلهم .

السلطان : هذا الشيخ نصر المنجى يحرض الناس عليك وأخشى أن . .

ابن تيمية : لا تخش شيئاً يا سيدى ، سأكشف للناس خداعه وتدليسه فينفضون عنه .

السلطان : كلاّ يا بن تيمية ، لا آمن أن تثير علينا فتنة هوجاء فى فى البلد . عدنى بأنك لن تتعرض لهؤلاء مرة أخرى .

ابن تيمية : هذا واجب فرضه الله علىّ فكيف تريد منى أن أعدك بتركه ؟

السلطان : اسمع يا تقى الدين ، اختر أحد أمرين إما الرجوع إلى دمشق وإما الحبس .

ابن تيمية : فإنى أختار الحبس .

السلطان : الحبس ؟

ابن تيمية : نعم فهو أقرب لى من دمشق .

السلطان : والله لقد حيرتنى . اذهب إذن حيث شئت فإنى غير مسئول عنك إذا أصابك أذى من قبل العامة .

ابن تيمية : الله حسبى ونعم الوكيل .

سلار : استرح الآن يا سيدى السلطان فقد تعبت من استقبال المهنئين من الكبراء والعلماء .

الناصر : أرأيت يا سلار كيف جاء هؤلاء المنافقون يهنئوننى اليوم ولعلهم صنعوا مثل هذا للجاشنكير إذ اغتصب مكانى أمس .

سلار : أجل يا سيدى السلطان إلا من عصم الله منهم وفى مقدمتهم ابن تيمية .

الناصر : نسيت أن أسألك عنه أين هو اليوم ؟

سلار : بالإسكندرية . نفاه إليها الجاشنكير بتحريض من الشيخ نصر المنبجى والقاضى ابن مخلوف وأشياعهما .

الناصر : ويلهم . . عبيد من غلب . والله إن قلامة ظفر ابن تيمية ليسوى عمائمهم . ابعث من يحضره إلينا معززاً مكرماً .

١٠

الناصر : هيهات يا بن تيمية قد بلغنى كل ما صنعت من أجلى .

ابن تيمية : كلا ما صنعت شيئاً من أجلك يا سيدى السلطان وإنما من أجل مصلحة الأمة والبلاد .

السلطان : فسيّان ذلك عندى . اسمع يا تقى الدين إنى قد أمرت بإحضار ابن مخلوف وأضرابه من حسادك لأحكمك فى أمرهم فاقترح ما تشاء من العقوبة لهم .

ابن تيمية : أمن أجل أنهم صانعوا عدوك الجاشنكير أمس وسلموا عليه ؟ سامحهم يا سيدى السلطان فإنما فعلوا ذلك خوفاً منه لا حبًّا له .

السلطان : بل لأنهم عادوك أنت وآذوك ؟

ابن تيمية : تريد أن تعاقبهم من أجلى ؟

السلطان : نعم .

ابن تيمية : لا تفعل فقد سامحتهم وجعلتهم فى حل منى . . وإنهم بعد لشيوخ العلم إن بطشت بهم فلن تجد مثلهم .

السلطان : والشيخ نصر المنبجى الذى حرض الجاشنكير على نفيك إلى الإسكندرية ؟

ابن تيمية : قد أسدى إلىّ هذا الشيخ معروفاً وفضلا .

السلطان : كيف ؟

ابن تيمية : أتاح لى الفرصة لهداية خلق كثير هناك إلى السنة بعد ما فتنتهم مخاريق الصوفية .

السلطان : لكنه قصد بنفيك إلى الإسكندرية أن يغتالك أتباعه فيها .

ابن تيمية : فقد أظفرنى الله بكثير منهم فجعلهم من أتباع السنة .

السلطان : والله لقد حيرتنى ياتقى الدين .

ابن تيمية : علام الحيرة يا سيدى السلطان والله يقول فى كتابه العزيز : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » .

١١

السلطان : أحقًّا يا بن تيمية أنك تنوى الرجوع إلى دمشق !

ابن تيمية : نعم يا سيدى السلطان .

السلطان : وجئت اليوم لتودعني ؟

ابن تيمية : كلا يا سيدى السلطان إنك ستمضى معى بجيشك . ألم تبلغكِ أنباء التتار على الحدود ؟

السلطان : ما أحسبهم يجرؤون مرة أخرى على التقدم .

ابن تيمية : إذا بلغهم أنك سرت بجشك إلى الشام فسيعدلون عن التقدم . . أما أن . .

السلطان : حسناً انطلق أنت قبلى وسنلحق بكِ .

ابن تيمية : كلا لا أسير إلا معك .

السلطان : ما أشد عنادك أتريد أن تفرض رأيك على ؟

ابن تيمية : معاذ الله ، وإنما أذكرك بما فرض الله عليك من رعاية مصلحة المسلمين إذ ولاك الله عليهم .

السلطان : بوركت يا بن تيمية . . سآمر الجيش غداً بالاستعداد للمسير .

١٢

السلطان : ما أدرى يا بن تيمية أخرج أهل دمشق لاستقبالى أم لاستقبالك أنت ؟

ابن تيمية : بل لاستقبال ضيفهم الكبير ، فما أنا إلاواحد من عامتهم .

السلطان : يحق لهم والله أن يفخروا بك فقل أن تنجب البلاد مثلك .

ابن تيمية : يا سيدى إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن .
السلطان : ألم أقل لك يابن تيمية إن التتار لن يجرؤوا على التقدم ؟
ابن تيمية : أدركوا أنك متيقظ فارتدوا إلى ديارهم .
السلطان : هل تعود معى إلى مصر أو تبقى ؟
ابن تيمية : بل سأبقى هنا بجوار والدتى العجوز فقد حزنها طول غيابى وإنى بعد لفى شوق أن أتفرغ للتأليف .
السلطان : أرجو ياشيخ ألاتثير الناس مرة أخرى بتآليفك وفتاويك . وهذا نائب السلطنة قد أمرته أن يجرى عليك ما يكفيك .
ابن تيمية : شكراً يا سيدى السلطان ، لست فى حاجة إلى رزقك فاجعله لغيرى ممن يستحقونه .

١٣

النائب : قد قلت لك يا سيدى الإمام إن العلماء سيكتبون إلى السلطان فى شأن الفتيا الجديدة التى أفتيتها .
ابن تيمية : ويلهم . . ألا يناقشونى فى ذلك بدلا من الكتابة إلى السلطان ، فما شأن السلطان فى ذلك ؟!
النائب : زعموا له أنك خالفت فى ذلك آراء الأئمة الأربعة والفقهاء جميعاً .
ابن تيمية : ما يضيرنى ذلك وقد أيدت فتواى بالأدلة والبراهين من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

النائب : لقد كتب إلىّ السلطان يأمرك بسحب هذه الفتيا .

ابن تيمية : (غاضباً) اكتب إليه أنى لا أسحب الفتيا لقول أحد إلا أن يقيم علىّ البرهان من الكتاب والسنة .

النائب : العلماء ثائرون عليك فى كل مكان . . فى الشام وفى مصر .

ابن تيمية : لو قام علىّ أهل الأرض جميعاً ما سحبت فتواى .

النائب : إذن فسأضطر إلى حبسك بالقلعة .

ابن تيمية : السلطان هو الذى أمرك بذلك ؟

النائب : نعم .

ابن تيمية : فافعل ما تؤمر .

النائب : يحزننى ذلك ياسيدى الإمام .

ابن تيمية : لا عليك . . متى تحب أن تأخذونى إلى القلعة ؟ الآن ؟

النائب : ابق الليلة عند أهلك حتى الغد . .

ابن تيمية : أمر السلطان مطاع .

النائب : هل تقترح علىّ شيئاً ؟

ابن تيمية : لا شىء إلا أن تأذنوا لأخى زين الدين أن يخدمنى ويتردد علىّ .

النائب : لك ذلك يا سيدى الإمام .

١٤

ابن تيمية : مرحباً بنائب السلطان . هل شاقك أن ترى سجن القلعة . كيف حال السلطان الناصر .

النائب : هو بخير ، وكيف أنت يا سيدى الإمام .

ابن تيمية : بحمد الله كما ترى . هنا العزلة والطمأنينة ولله الحمد .

النائب : سيدى الإمام . .

ابن تيمية : نعم .

النائب : هلا تسحب فتواك فى يمين الطلاق . . لتنقضى هذه المحنة ؟

ابن تيمية : ويلك ، ألم أقل لك إنى هنا فى نعمة لا فى محنة . أو تظن أنى كذبتك ؟

النائب : كلا ياسيدى ولكن . .

ابن تيمية : ولكن ماذا ؟

النائب : لدىَّ أمر من السلطان أخشى أن يزعجك سماعه .

ابن تيمية : قل ولا تخف .

النائب : لقد أمر السلطان بأن يحال بينك وبين هذه الكتب والأقلام والمحابر .

ابن تيمية : ماذا تقول ؟ أتفرقون بينى وبين أحب شىء إلىّ فى الحياة ؟ فيم أعيش إذن بعد ؟

النائب : هكذا أمر السلطان .
ابن تيمية : العلماء أشاروا عليه بذلك ؟
النائب : أجل .
ابن تيمية : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اليوم تبدأ المحنة !

١٥

ابن تيمية : (فى صوت ضعيف) زين الدين . حضرت يا زين الدين ؟ الحمد لله . هلم يا أخى . ادن منى .
زين الدين : كيف أنت اليوم يا أخى ؟
ابن تيمية : فى أحسن حال .
زين الدين : زال ذلك الوجع الذى تشكو منه ؟
ابن تيمية : عما قريب تزول أوجاعى كلها يا زين الدين . الحمد لله إذ حضرت خشيت أن تتخلف اليوم فترانى ولا أراك .
زين الدين : (يجهش باكياً) بل تعيش يا سيدى الإمام . إنك اليوم بخير .
ابن تيمية : أجل إنى بخير وكيف لا وأنا بعد لحظات ملاق ربى .
زين الدين : حسبهم الله . منعوا عنك الكتابة والتأليف عمداً ليقتلوك .
ابن تيمية : اصغ إلىّ يا زين الدين قبل أن يثقل لسانى فلا أستطيع الإفصاح . أبلغ الناس جميعاً أنى قد أحللت كل من عادانى وهو لا يعلم أنى على الحق ، وأحللت السلطان

الناصر من حبسه إياى وأحللت كل أحد مما بينى وبينه إلا من كان عدواً لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم . أوعيت قولى ؟

زين الدين : نعم يا أخى .

ابن تيمية : هذه وصيتى لك تبلغها للجميع .

زين الدين : سأفعل يا أخى .

ابن تيمية : آه . . ساعدنى يا بن أبى لأدير وجهى صوب القبلة . نعم هكذا . أحسنت . (بصوت متقطع) اللهم اغفرلى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . .

زين الدين : (فى تفجع) أحمد . أحمد . أخى . لا حول ولا قوة إلا بالله . إنا لله وإنا إليه راجعون .

« ستار »

الخاتم



[موكب الخليفة هارون الرشيد يسير]

صوت : (يرتفع من خلال الموكب) يا أمير المؤمنين . . يا أمير المؤمنين ،عندى وديعة لك .

الرشيد : افسحوا الطريق لهذا الرجل .

أصوات : افسحوا الطريق .. افسحوا الطريق .

الصوت : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

الرشيد : وعليك السلام . ماذا وراءك ؟

الصوت : عندى وديعة لك يا أمير المؤمنين .

الرشيد : وديعة ؟

الصوت : أجل . . هذا الخاتم يا أمير المؤمنين كلفت أن أسلمه إليك .

الرشيد : (فى صوت متهدج) ويلك من أين جئت بهذا الخاتم ؟

الصوت : من صاحبه يا أمير المؤمنين .

الرشيد : أتعرف صاحبه ؟

الصوت : نعم يا أمير المؤمنين . . هو الذى كلفنى بإيصاله إليك .

الرشيد : (لرجاله) أركبوا هذا الرجل معكم . وليمثل أمامى فى القصر .

أصوات : سمعاً يا أمير المؤمنين .

(الموكب يستأنف سيره)

* * *

[فى قصر الخليفة]

الرشيد : هلم ادن منى يا رجل .

الرجل : لبيك يا أمير المؤمنين .

الرشيد : ما اسمك ومن أين قدمت ؟

الرجل : أنا عبد الله بن الفرج قدمت من البصرة يا أمير المؤمنين .

الرشيد : تقول إنك تعرف صاحب الخاتم ؟

عبد الله : نعم . . هو أحمد السبتى .

الرشيد : أحمد السبتى ؟

عبد الله : نعم . . هكذا يدعونه هناك .

الرشيد : أين ؟

عبد الله : بالبصرة .

الرشيد : هو الآن بالبصرة ؟

عبد الله : كان يا أمير المؤمنين بالبصرة .

الرشيد : وأين هو الآن ؟

عبد الله : أطال الله بقاءك يا أمير المؤمنين . قد توفى إلى رحمة الله .

الرشيد : توفى ؟

عبد الله : نعم ، أعظم الله أجرك فيه يا أمير المؤمنين وأحسن عزاءك .
الرشيد : لكن صف لى نعته أولا يا بن الفرج .
عبد الله : شاب يا أمير المؤمنين فى حدود العشرين . . مديد القامة عريض المنكبين . أقنى الأنف . أشهل العينين .
الرشيد : ويلك ما بالك تحد النظر إلىّ ؟
عبد الله : معذرة يا أمير المؤمنين . لقد راعنى شبهه الكبير بك ولولا أنه خفيف اللحم لقلت إنه صورة منك .
الرشيد : حسبك يا هذا . . إنه هو . لا حول ولا قوة إلا بالله . إنا لله وإنا إليه راجعون . وهاً عليك يا أحمد . واهاً عليك إلى الأبد .
عبد الله : هو ابنك يا أمير المؤمنين ؟
الرشيد : نعم . . هو أول مولود لى وأكرمه علىّ . ألم يخبرك هو بذلك يا عبد الله ؟
عبد الله : لا يا أمير المؤمنين . . لم يخبرنى هو بذلك وإنما أخبرتنى الحاجة خديجة الحموية الذى كان مقيماً عندها .
الرشيد : ومن تكون هذه الحاجة ؟
عبد الله : امرأة تقية صالحة قد انقطعت فى منزلها للعبادة والنسك . وقد علمت أنه نشأ وتربى عندها منذ الصغر .
الرشيد : إنك لتعلم عنه الكثير . . حدثنى كل ما تعرف عنه . حدثنى كيف عرفته ؟

عبد الله : هل لك أن تعفيني يا أمير المؤمنين ؟
الرشيد : فيم .. ويلك ؟
عبد الله : أستحى يا أمير المؤمنين أن أقص عليك ذلك .
الرشيد : بل ارو لى قصته يا عبد الله فإن ذلك يهمنى .
عبد الله : هل تصدق يا أمير المؤمنين أنه كان بنّاء جصّاصاً يعمل فى منازل الناس بالأجرة ؟
الرشيد : (فى أسى) ويحه .. حدّث يا عبد الله . كيف عرفته ؟
عبد الله : احتجت يوماً يا أمير المؤمنين إلى رجل يرمّ لى شيئاً فى الدار ، فخرجت إلى ساحة البنائين والجصّاصين فوجدت شابّاً مصفر الوجه يحمل أدواته فى زنبيل كبير .

* * *

عبد الله : أنت جصّاص ؟
أحمد : نعم .
عبد الله : بكم تعمل عندى اليوم ؟
أحمد : بثلاثة دراهم .
عبد الله : هذا كثير . خذ لك درهمين .
أحمد : التمس غيرى أحسن الله إليك .
عبد الله : إنى أراك ضعيف الجسم .
أحمد : سترى عملى فيعجبك إن شاء الله .

عبد الله : هلم معى .

أحمد : على شريطة .

عبد الله : ما هى .

أحمد : إذا كان وقت الظهر وأذن المؤذن خرجت وصليت فى المسجد جماعة ثم رجعت وكذلك أفعل فى العصر .

عبد الله : لكن .

أحمد : لا تخف . . لن يشغلنى حق الله عن حقك .

عبد الله : قد قبلت شرطك فهلم معى . .

* * *

عبد الله : وانقضى النهار يا أمير المؤمنين فوجدته قد عمل ما يعدل عمل رجلين ، فأردت أن أزيده فى الأجر فأبى إلا أن يأخذ ما اشترط ، فوالله يا أمير المؤمنين لقد عجبت من أمره .

الرشيد : ثم ماذا يا عبد الله ؟

عبد الله : فصرت ألتمسه يا أمير المؤمنين كلما عنّت لى حاجة . ودللت أصحابى عليه ليعمل عندهم فيحمدونه إلىّ ويثنون على عمله . . إلى أن جاءنى ذات يوم ليعمل عندى وكان ذلك فى شهر رمضان فأنكرت ضعفه وشحوب وجهه .

* * *

عبد الله : أراك اليوم تعباً يا أحمد فانصرف الساعة يا بنى .

أحمد : كلا يا سيدى . . ليس بى شىء وإنما هذا من أثر الصيام .

عبد الله : بل تنصرف يا بنى .

أحمد : إذا كنت لا ترغب فى عملى فسأعمل عند غيرك . فإنى بحاجة إلى الأجر .

عبد الله : كلا لا تعمل اليوم البتة وسأعطيك أجرك كاملا .

أحمد : قد علمت يا سيدى أننى لا أقبل الصدقة .

* * *

عبد الله : فتركته يعمل يا أمير المؤمنين فلما كان الظهر تفقدته فوجدته جالساً يتفصد عرقاً وترتعش أوصاله .

عبد الله : ألم أقل لك يا بنى ألا تعمل اليوم ؟!

أحمد : هل لك يا سيدى أن تصنع معروفاً ؟ !

عبد الله : نعم .

أحمد : احملنى إلى منزلى بدرب الحسن البصرى عند الحاجة خديجة الحموية فإنى أخشى أن أموت قبل أن أراها .

عبد الله : فحملته على دابة وسقتها حتى بلغت به المنزل الذى يريد فتحامل على حتى دخلنا المنزل . فاستقبلتنا الحاجة خديجة الحموية فلما رأت ما به قادته إلى فراشه فأضجعته عليه .

الحاجة : ألم أقل لك يا بنى لا تعمل اليوم .

أحمد : لا بأس يا أماه . . لا أحب أن ألقى الله وأنا عاطل .

عبد الله : خذى يا سيلتى . هذا أجر ما عمل عندى اليوم .

أحمد : كم .

عبد الله : ثلاثة دراهم .

أحمد : كلا يا أماه لا تأخذى منه غير درهم ونصف . أجر نصف يوم جزاك الله خيراً يا عبد الله بن الفرج إذ أوصلتنى إلى دارى فهل لك فى معروف آخر تصنعه لى ؟

عبد الله : حبًّا وكرامة يا بنى .

أحمد : جزاك الله خيراً . . هذا رجل صالح أمين يا أماه وقد رأيت أن أعهد إليه بوصيتى إذا أذنت .

الحاجة : افعل يا بنى .

أحمد : أين الخاتم يا أماه ؟

الحاجة : هاهو ذا يا بنى .

أحمد : ادن منى يا عبد الله بن الفرج . إذا أنا مت فخذ هذا الخاتم معك إلى بغداد واجتهد أن تسلمه للخليفة هارون الرشيد .

عبد الله : هارون الرشيد ؟

أحمد : نعم . أيشق عليك ذلك ؟

عبد الله : لا ولكن كيف لى بالوصول إليه ؟

أحمد : انظر يوم يركب الخليفة فقف له فى موضع يراك فأره الخاتم فإنه سيدعو بك ويكرمك فإذا خلوت به فقل له يقرئك صاحب الخاتم السلام ويقول لك . . .

الرشيد : ويقول لك ماذا ؟

عبد الله : اعفنى يا أمير المؤمنين .

الرشيد : بل تقول . .

عبد الله : ويقول لك . ويحك لا تموتن على سكرتك هذه فإنك إذا مت على سكرتك هذه ندمت وطال ندمك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

* * *

زبيدة : يحزننى يا أمير المؤمنين أن تحزن كل هذا الحزن لموت ولدك .

الرشيد : دعينى يا زبيدة . . فو الله لو بكيته طول الأبد ما قضيت حق الحزن عليه . لقد كان يعمل جصّاصاً بالدرهم والدرهمين وعبيدي فى القصر يأكلون اللحم والحلوى .

زبيدة : هو الذى اختار لنفسه تلك العيشة فما ذنبك أنت ؟

الرشيد : وددت لو استمعت لنصحه يوم قدم علينا فى القصر .

زبيدة : أراد منك أن تسير سيرة عمر بن عبد العزيز فهل كان ذلك فى إمكانك ؟

الرشيد : كان علىّ أن أسايره وأتلطف معه ولكنى أغريت به

رجال القصر فامتنعوا عن الحديث معه ومنعوا الناس من الاتصال به حتى ضاق بذلك ذرعاً فهرب من القصر واختفى .

زبيدة : ما صنعت غير ما اقتضته مصلحتك ومصلحة الدولة أفكنت تاركه يقيم النكير عليك فى العلانية ويثير الناس عليك ؟

الرشيد : بل كنت تحرضيننى عليه خشية أن أجعل له ولاية العهد مكان ابنك .

زبيدة : يا أمير المؤمنين هل كنت ترى ناسكاً متشدداً مثله يصلح لولاية العهد ؟ إذن لجعل أول همه القضاء على ملك آل العباس ، وإذن لثار به بنو أبيك فقتلوه .

الرشيد : إنى راحل غداً إلى البصرة لأزور القبر الذى ضم رفاته وأترحم عليه . .

زبيدة : افعل يا أمير المؤمنين ، لعل ذلك يخفف عنك ما بك.

الرشيد : ولأزور أمه كذلك .

زبيدة : أمه ؟ ألم يخبرنا هو أنها قد ماتت ؟

الرشيد : اطمئنى يا زبيدة فإن الأم التى أنجبته والتى كنت تغارين منها قد ماتت ، وإنما أعنى تلك المرأة العجوز الصالحة التى ربته وتبنته .

زبيدة : بل تريد أن تلقاها فتعرف منها قصة أم أحمد حبيبة قلبك .

الرشيد : الله منكن ! تغار إحداكن من الضرة حتى بعد أن يواريها التراب !

زبيدة : هذه ليست كالضرائر الأخر يا هارون . . إنك لم تسلُ حبها ولا الحنين إليها قط .

الرشيد : (يتنهد تنهدة خافتة) آه .

* * *

الرشيد : أين قبره يا عبد الله بن الفرج .

عبد الله : من هنا يا أمير المؤمنين . . فى مقابر عبد الله بن مالك.

الرشيد : صه . لا تدعُنى هكذا . . لا أريد أحداً أن يعرف من أنا .

عبد الله : معذرة يا . .

الرشيد : هارون .

عبد الله : معذرة يا هارون فقد سهوت .

الرشيد : لا عليك . دلنى الآن على قبره . انظر ! إن يصدقنى قلبى فذاك قبره !

عبد الله : أجل هذا قبره وهذا قبر والدته وهذا الشاهد الذى عليه مكتوب فيه اسمه .

الرشيد : (يتلو بصوت يخنقه البكاء) هذا قبر الفقير إلى رحمة



الله . أحمد السبتى توفى يوم الأربعاء السابع عشر من شهر رمضان . .

* * *

عبد الله : لقد بكيت كثيراً على القبر .

الرشيد : هذا خير لى يا بن الفرج . لا أريد أن يغلبنى الجزع فى حضرة الحاجة خديجة الحموية . . أين منزلها . . ألم يزل بعيداً ؟

عبد الله : لا . . قد اقتربنا منه . هذا درب الحسن البصرى .

الرشيد : ويح أحمد ابنى . . كان يدرج فى هذا الحى .

* * *

الحاجة : مرحباً بك ادخل يا عبد الله بن الفرج . حمداً لله على السلامة . هل بلغت وصية ابنى ؟

عبد الله : نعم .

الحاجة : جزاك الله خيراً .

عبد الله : جئتك يا سيدتى بضيف معى .

الحاجة : مرحباً بك وبضيفك . مرحباً بك يا أمير المؤمنين . هل قدمت لزيارة قبر ابنك ؟

الرشيد : نعم يا سيدتى وقد زرته مع عبد الله بن الفرج .

الحاجة : وزرت القبر الذى بجانبه .

الرشيد : نعم زرت قبر أمينة رحمها الله .

الحاجة : رحمة الله عليهما . لقد كانا خير أم وخير ولد . لقد زهدا في الدنيا وابتغيا الدار الآخرة والدار الآخرة خير وأبقى .

الرشيد : الآن علمتُ يا سيدتي من أين اقتبس أحمد زهده وتقواه .

الحاجة : من والدته أمينة يا أمير المؤمنين . فقد كانت ناسكة زاهدة .

الرشيد : لعل لك يا سيدتي الحاجة أن تحدثيني كيف عرفت أمينة وكيف اتصلت أسبابها بأسبابك .

الحاجة : حبًّا وكرامة يا أمير المؤمنين فإن حديث أمينة لحبيب إلى نفسي وإن سيرتها لمن أجمل سير المؤمنات الصالحات . كان ذلك يا أمير المؤمنين منذ خمس وعشرين سنة . طرق بابي ذات ليلة ففتحته فإذا فتاة رائعة الجمال وعلى وجهها آثار الحزن .

أمينة : أأنت الحاجة خديجة الحموية ؟

الحاجة : نعم . ادخلي يا بنيتي . ادخلي . (يسمع غلق الباب)

الحاجة : من تكونين وماذا تريدين ؟

أمينة : أنا يا سيدتي امرأة هاربة من الدنيا وفي بطني جنين يريد أن يخرج إلى الدنيا فهل لك أن تؤويني عندك أقوم بخدمتك وأتأسى بصلاحك حتى أضع مولودي ؟

الحاجة : وأين أهلك يا بنيّتى ؟

أمينة : لم يعد لى أهل . كنت أعيش مع جدة لى فماتت .

الحاجة : هنا بالبصرة ؟

أمينة : لا ياسيدتى فى ناحية من ضواحى بغداد .

الحاجة : إذن فأنت غريبة ؟

أمينة : نعم .

الحاجة : ما اسمك يا بنيّتى .

أمينة : اسمى أمينة .

الحاجة : أنت يا أمينة على الرحب والسعة .

أمينة : جزاك الله خيراً يا سيدتى . سترين منى إن شاء الله ما يسرك .

الحاجة : وهكذا يا أمير المؤمنين نزلت عندى ، ولم ألبث أن أحببتها لتقواها وصلاحها واتخذتها بمنزلة ابنتى ثم وضعت غلامها فسميناه أحمد ، ولما أيفع عهدنا إلى أحد البنائين ليعلمه صناعة البناء وما كنت أعلم أنه ابن هارون الرشيد أمير المؤمنين .

الرشيد : كأنها لم تخبرك بقصتها كاملة ؟

الحاجة : لا يا أمير المؤمنين ، لم تخبرنى فى أول الأمر ولم أشأ أن أسألها لئلا أحرجها ، فقد ظننت — أستغفر الله — أنها ألمت بذنب فأرادت أن تتوب فقلت لنفسى : هذا أفضل

عمل عند الله ، وبقينا على ذلك إلى أن كان مرضها الذى ماتت فيه فدعتنى أنا وأحمد فجلسنا حول فراشها .

أمينة : لقد آن لى اليوم ياسيدتى أن أفضى إليك باسم والد أحمد ، وأنت يا أحمد يجب أن تعرف اليوم من أبوك قبل أن أموت .

الحاجة : استريحى يا أمينة . . لا تجهدى نفسك .

أمينة : لن تسمعى يا سيدتى إلا خيراً .

أحمد : لقد أخبرتنى يا أماه أن اسم أبى هارون وأنه تاجر من بغداد وأنه ذهب فى رحلة فلم يعد .

أمينة : أجل يا بنى . . إن اسمه هارون . وقد زعم لى حين تزوجنى أنه تاجر من بغداد ثم تبين لى بعد ذلك أنه ابن المهدى وأنه ولى الخلافة فتلك هى الرحلة التى لم يعد منها إلى . .

الحاجة : تعنين أنه هارون الرشيد أمير المؤمنين ؟

أمينة : نعم . . وهذا خاتمه الذى تركه عندى فاحفظيه عندك يا سيدتى حتى يبلغ أحمد مبلغ الرجال فإذا شاء أن يزور والده فليحمل إليه هذا الخاتم فإنه سيعرفه .

* * *

الحاجة : وتوفيت أمينة يا أمير المؤمنين وطفق أحمد يلح على أن آذن له ليرحل إليك فكنت أستأنيه حتى يبلغ مبلغ

الرجال إلى أن جاءنى ذات يوم .

أحمد : دعينى يا أماه أرحل إلى أبى فإنى اليوم رجل .

الحاجة : أخشى يا بنى ألا تعود إلىّ .

أحمد : بل أعرف ماذا تخشين يا أماه . إنك تخشين أن يفتننى ما عند أبى من الملك والدنيا فأنسى الله والدار الآخرة .

الحاجة : أجل يا بنى ، إنى أخشى عليك ذلك .

أحمد : اطمئنى يا أماه فإن ذلك لن يكون . إنما أريد أن أذهب إلى أبى لأعظه وأنصحه لعل الله ينفعه بموعظتى فيكون كالخليفة العادل الزاهد عمر بن عبد العزيز .

الحاجة : فلم يسعنى يا أمير المؤمنين إلا أن آذن له له ، فأعطيته الخاتم وزودته ببعض الزاد ورحل ثم كان منه عندك ما كان .

الرشيد : أجل ياسيدتى ، لقد أردت أن أجعل له ولاية العهد وأراد هو أن يحملنى على أن أسير سيرة عمر بن عبد العزيز ، أردت له الدنيا وأراد لى الآخرة ، ولما لم يجد عندنا ما أحب غادر القصر دون أن يودعنى وأرسلت فى طلبه فلم يعثر له على أثر حتى جاء عبد الله بن الفرج بخبره .

الحاجة : عاد إلىّ حينئذ يا أمير المؤمنين وأخبرنى بكل ما حدث .

الرشيد : ترى ماذا قال لك ؟

الحاجة : قال لى والدموع فى عينيه .

أحمد : إن أبى يا أماه لم يسمع لوعظى وإن رجال القصر كانوا

جميعًا إلبًا واحداً عليّ وليس فيهم من يرجو لله وقاراً .

الحاجة : هون عليك يابني . . إن هذا الذى ابتغيته ليس بالأمر الهين وقد أديت أنت ما عليك من النصيحة لأبيك .

أحمد : إني خائف عليه يا أماه من مشهد يوم عظيم ، ألا أستطيع يا أماه أن أصنع لأبي شيئًا ؟ ألا أستطيع أن أنفعه بشيء ؟

الحاجة : نعم تتقي الله يا بني وتعمل صالحًا وتدعو له .

الرشيد : يا ويحه ! لقد ظننت أنه ذهب حاقداً عليّ .

الحاجة : كلا يا أمير المؤمنين لقد كان يحبك حبا جمًّا . . كان يعمل نهاره ليتصدق بأجر ذلك على الفقراء والمساكين فإذا كان الليل قام يتهجد ويتعبد ولا يكف لسانه عن الاستغفار لله حتى ضعف جسمه فأشفقت عليه من ذلك يا أمير المؤمنين .

الحاجة : ويحك يا بني . . قد ضعف جسمك فانقطع عن العمل عند الناس فعندى بحمد الله ما يكفيني لنفقتي ونفقتك .

أحمد : ويحك يا أماه . إن الصدقة خير العمل وإن أفضل المال ما يكسبه المرء من عمل يده فدعيني أتصدق بأفضل المال لعل الله يغفر لأبي أمير المؤمنين .

الحاجة : لقد سألتني يا أمير المؤمنين فهل لي أن أسألك ؟

الرشيد : حبًّا وكرامة .

الحاجة : حدثني كيف تزوجت أمينة أم أحمد ؟ وكيف تخليت عنها حتى لجأت إلى هنا بالبصرة ، فقد علمت أنها كتمت هذا السر عني ولم أشأ أن أحرجها بالسؤال .

الرشيد : أجل سأحدثك يا سيدتي بما تحبين . كان ذلك في حياة المهدي أبي رحمة الله عليه وكنت فتى في السابعة عشرة وكنت مغرماً بركوب الخيل . فبينا أنا أتجول في إحدى ضواحي العاصمة إذ لمحتها أمام كوخها تحلب شاة لها فوقعتْ من نفسي واستسقيتُها فسقتني وأعجبني حياؤها وحديثها ، وجعلت أتردد عليها كل عشية فلم أزدد إلا حباً لها وإعجاباً بجميل خلقها ، فزعمت لها ولأهلها أني تاجر أتنقل في البلاد وتزوجتها سراً من أبي لأنه كان قد سمى لي زبيدة بنت عمي . وصرت أختلف إليها إلى أن تزوجت زبيدة ومات المهدي ووليت الخلافة من بعده فشغلني ذلك عنها زمناً حتى اشتقت إلى لقائها فسرت إليها متنكراً لأكشف لها حقيقة حالي وأدعوها إلى الإقامة في القصر .

أمينة : ويحك يا حبيبي ماذا قطعك عنا طوال هذه المدة ؟

الرشيد : لن أنقطع عنك بعد اليوم يا أمينة . ستقيمين معي في قصري ببغداد .

أمينة : أوقد اشتريت لك قصراً ببغداد ؟

الرشيد : ما اشتريته يا أمينة بل ورثته عن أبي .
أمينة : لا حول ولا قوة إلا بالله . أوقد توفى أبوك دون أن أعلم ؟
الرشيد : بل سمعتِ بوفاته يا أمينة .
أمينة : لا والله يا حبيبي . من أين لى ذلك وأنا لا أعرفه . ولا أعلم إلا أن اسمه محمد بن عبد الله .
الرشيد : ما من أحد فى البلاد إلا سمع بموته .
أمينة : ماذا تعنى يا هارون ؟
الرشيد : ألم تسمعى بوفاة المهدى أمير المؤمنين .
أمينة : بلى .
الرشيد : فهو أبى .
أمينة : أبوك ؟
الرشيد : نعم وأنا هارون الرشيد .
أمينة : (تشيجها باكية) .
الرشيد : ما بالك تبكين يا حبيبتى ؟ ألا يسرك أن يكون زوجك أمير المؤمنين ؟
أمينة : لا .
الرشيد : فيم يا أمينة ؟
أمينة : قد فقدتك يا هارون فلم تعد لى .
الرشيد : ماذا تعنين ؟
أمينة : أنت زوج زبيدة بنت جعفر .

الرشيد : وزوج أمينة قبل زبيدة .

أمينة : هيهات . هى ابنة عمك ومن نسبك وحسبك .

الرشيد : لكنك حبيبتى الأولى .

أمينة : هيهات يا هارون أن تصفو لى بعد اليوم .

الرشيد : لا حق لك يا أمينة أن تجحدى حبى لك .

أمينة : فأين تريد أن تنزلنى ؟

الرشيد : فى القصر عندى .

أمينة : لتضار زبيدة بى ؟

الرشيد : لا شأن لك بزبيدة فأنا أعرف كيف أرضيها .

أمينة : هيه . أدركت الساعة بعض نيتك .

الرشيد : ماذا تعنين ؟

أمينة : أنشدك الله يا هارون بحق الحب الذى نعمنا حيناً فى ظله إلا ما أخبرتنى فصَدَقْتَنى . هل تستطيع أن تجعل لى فى قصرك نفس المنزلة التى لزبيدة ابنة عمك ؟

الرشيد : . . . . ؟

أمينة : ما بالك لا تجيب ؟ أجب .

الرشيد : أما هذا فلا ، ولكنى سأنزلك .

أمينة : اسمع يا هارون . إنى تزوجتك دون أن أعلم أنك ابن المهدى أمير المؤمنين وإنما كنت أظنك من سواد الناس

ولو علمت أنك من بيت الخلافة ما تزوجتك ، فسرحني الآن سراحًا جميلا .

الرشيد : كلا لن أسرحك فإني أحبك .

أمينة : فأبقني حيث أنا وزرني حين تشاء .

الرشيد : لا يا أمينة لم يعد ذلك في إمكاني اليوم .

أمينة : بل تخشى زبيدة أن تعلم أن لك زوجة أخرى تختلف إليها .

الرشيد : ويلك قد أكثرت من ذكر زبيدة .

أمينة : أو يغضبك أن أذكرها ؟

الرشيد : لا غرو فهي ابنة عمي .

أمينة : فاهنأ بها إذن وطلقني .

الرشيد : كلا لن أطلقك وسأبعث من يحملك حملا إلى القصر .

أمينة : اذكر يا هارون أنني حرة ولستُ بأمة .

الرشيد : أنا أمير المؤمنين !

أمينة : وأنا لا أبالي !

* * *

الحاجة : وأرسلت إليها يا أمير المؤمنين ؟

الرشيد : كلا يا سيدتي . لقد ندمت على أني أغضبتها ، فرجعت إليها بعد أيام لأسترضيها وأعاود إقناعها بقبول ما اقترحت

فوجدت الكوخ خياليًا وأرسلت فى البحث عنها
فلم يقعوا لها على أثر .

الحاجة : وكنت تعلم أنها حامل ؟

الرشيد : نعم ، وكان ذلك ضاعف قلقى عليها وظلّت حسرة فى نفسى طوال هذه السنين .

الحاجة : يرحمها الله . كان حبها الشديد لك هو الذى دفعها إلى ما فعلت .

الرشيد : آه لو كنت أعلم أنها مقيمة عندك !

الحاجة : تلك مشيئة الله يا أمير المؤمنين ليقضى أمراً كان مفعولا .

« ستار »

حارس البستان



١

[خلاء فى خارج مدينة طرسوس فى القرن الثانى للهجرة . يظهر فى الخلفية (الباكجروند) بعض أسوار المدينة وحصونها]

[على الطريق الجادة يلتقى اثنان عليهما سيماء الزهاد ، كلاهما يحمل مزوده وأدواته ويتوكأ على عصا . أما أحدهما فخارج من المدينة راحل عنها ، وأما الآخر فداخل إليها . الأول إبراهيم بن أدهم والثانى شقيق البلخى] .

إبراهيم : السلام عليكم

شقيق : وعليكم السلام ورحمة الله (ينظر إليه) أغلب الظن أنك من أهل خراسان ؟

إبراهيم : نعم أنا من خراسان .

شقيق : أنا أيضاً من خراسان . من بلخ ، أتعرف بلخ ؟

إبراهيم : أنا من بلخ .

شقيق : (يعانقه بحرارة) أهلا وسهلا بأخى وابن بلدى ، سائح فى أرض الله ؟

إبراهيم : بل فقير ألتمس رزقاً .

شقيق : علام إذن لم تنزل بطرسوس ؟

إبراهيم : لم أستطيع أن أجد بها عملا يقيم صلبي فقررت الرحيل.

شقيق : إن لم تستطع أن تجد عملا فى طرسوس فلن تجده فى أى مكان آخر .

إبراهيم : أنت مقيم فى طرسوس ؟

شقيق : لا ، ولكن لى فيها أحبابًا وأصدقاء . إن شئت عدت إليها معى فدللتك على العمل الذى تنشده .

إبراهيم : شكر الله لك . أأنت أيضًا رحلت من خراسان فى طلب الرزق ؟

شقيق : الرزق يا أخى فى كل مكان حتى فى بلخ !

إبراهيم : (يبتسم ابتسامة خفية من لهجة الاعتداد بالنفس التى أحس بها فى كلام شقيق) ففيم إذن هاجرت ؟

شقيق : ألتمس الطريق .

إبراهيم : الطريق إلى الله ؟

شقيق : هو ذاك .

إبراهيم : فالله موجود فى كل مكان حتى فى بلخ !

شقيق : (يحس بالوخز) هذا حق ، ولكن الوصول إليه يحتاج إلى مجاهدة وسياحة من قبل الطالب .

إبراهيم : أنت إذن من المجاهدين السائحين ؟

شقيق : أرجو الله أن يتقبل ويوفق .

إبراهيم : سمعت من بعض الصالحين أن المرء إذا أخلص سريرته تقبل الله منه ووفقه .

شقيق : هذا حق . نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص .

إبراهيم : سمعت أيضاً يا أخى أن الله لن يرزقنا الإخلاص إلا إذا أخلصنا .

شقيق : هذا كلام نفيس . هيه ما أراك إلا من المريدين . أنت سائح مثلى تلتمس الطريق ؟

إبراهيم : أنا ماش فى الطريق .

شقيق : إن كان لى أن أنصحك يا أخى فإياك والغرور .

إبراهيم : الغرور أحياناً فى أن تظن بغيرك الغرور .

شقيق : منذ كم سرت فى الطريق ؟

إبراهيم : منذ سبع سنين .

شقيق : أنت إذن غير ملوم .

إبراهيم : وأنت منذ كم ؟

شقيق : منذ عشرين سنة وما زلت فى أول الطريق .

إبراهيم : يقول الله تعالى وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون .

شقيق : هل لى أن أسألك ؟

إبراهيم : تريد أن تمتحننى ؟

شقيق : إذا أذنت .

إبراهيم : افعل .

شقيق : ماذا ترى فى مقامى الشكر والصبر ؟

إبراهيم : هل لى أن أسمع رأيك أولا ؟

شقيق : إنا إن وجدنا شكرنا وإن لم نجد صبرنا .

إبراهيم : يا أخى هكذا كلاب بلخ إن وجدت شكرت وإن لم تجد صبرت .

شقيق : فماذا تقول أنت ؟

إبراهيم : إنا إن وجدنا آثرنا وإن لم نجد شكرنا .

شقيق : (فى طرب وفرح وقد زال ما كان يجده من الحرج فى أول الأمر) الله ! الله ! أنت الضالة التى أنشدها . الحمد لله إذ هدانى إليك . أنت إبراهيم ابن أدهم !

إبراهيم : (يتغير وجهه) وأنت شقيق البلخى .

شقيق : عجبًا . . كيف عرفت ؟

إبراهيم : كما عرفتنى أنت .

شقيق : كلا أنا لست مثلك يا بن أدهم . أنت رجل مشهور .

إبراهيم : قاتل الله اللسان . لا يؤتى المرء إلا من لسانه .

شقيق : اللسان أداة التسبيح يا بن أدهم .

إبراهيم : ما نفع تسبيح اللسان إذا لم يسبح القلب ؟

شقيق : الله ! الله ! ائذن لى يا سيدى أن ألازمك .

إبراهيم : بل ائذن لى يا سيدى أن أودعك .

شقيق : لِمَ يا سيدى ألأننى عرفتك ؟
إبراهيم : نعم .
شقيق : إنى أعاهدك يا سيدى أن أكتم سرك فلا يعرفك أحد .
إبراهيم : إنك تريد أن تلازمنى .
شقيق : لا . لن ألازمك . بحسبى أن أجتمع بك بين الفينة والفينة، فإنى أعرف أنك تنتقل من بلد إلى بلد هرباً من معرفة الناس لك .
إبراهيم : نعم .
شقيق : فسأكون لك عوناً على التخفى والتنكر فلا يعرفك أحد . هلم بنا إلى طرسوس . سأبحث لك فيها عن عمل يناسبك .
إبراهيم : ولا تدعونى باسمى ؟
شقيق : اقترح أى اسم لأدعوك به .
إبراهيم : ادعنى أبا إسماعيل الخراسانى .
شقيق : يا أبا إسماعيل أى نوع من الأعمال تختار ؟
إبراهيم : أى عمل ينأى بى عن الناس ولا يشغلنى عن ذكر الله .
شقيق : إنى أعرف صاحب بستان فى الضاحية فما ترى لو تعمل ناطوراً عنده فى البستان .
إبراهيم : عمل حسن . اذهب بى إليه .



٢

[فى البستان . بستان كبير . فى الخلفية يرى قصر صاحبه . كوخ صغير على باب البستان يقيم به الناطور (إبراهيم أدهم) وأمامه مصطبة يجلس عليها وهو يذكر الله]

[يظهر شقيق البلخى]

شقيق : كيف وجدت المكان يا أبا إسماعيل ؟

إبراهيم : جزيت خيراً يا شقيق . لقد أحسنت اختياره .

شقيق : إذن فائذن لى أن أنصرف .

إبراهيم : ألا تجلس قليلا . (يقدم كسرة خبز) شاركنى هذا الطعام .

شقيق : أنا على الشرط يا . . يا أبا إسماعيل (يخرج) .

إبراهيم : الحمد لله . الآن أستطيع أن أقيم هنا ما شاء الله أن أقيم (يبدأ فى أكل الخبز) (تظهر امرأة فقيرة على باب البستان) .

المرأة : عابرة سبيل يا سيدى . جائعة مستحقة أطعمنى مما أطعمك الله .

إبراهيم : خذى يا سيدتى . هذا رزقك أنت (يعطيها كسرة الخبز) .

المرأة : نصف رغيف . كل ما سخت به نفسك ؟

إبراهيم : ما عندى غيره . فاعذرى وسامحى .

المرأة : أعطنى شيئًا من الفاكهة .

إبراهيم : ما عندى يا سيدتى .

المرأة : وهذا البستان كله ؟

إبراهيم : هذا لصاحبه وليس لى . إنما أنا ناطور .

المرأة : أتخشى أن يحاسبك سيدك إذا قطعت لى تفاحة أو عنقود عنب ؟

إبراهيم : إذا عدت غداً فسأعطيك من الفاكهة بعد استئذان المالك .

المرأة : غداً ؟ لو أستطيع أن أنتظر إلى غد ما مددت يدى بالسؤال . أطفالى فى البيت يتضاغون من الجوع .

إبراهيم : طيب . انتظرى . (يغيب قليلا ثم يعود ومعه تفاحتان وعنقود من العنب فيناول ذلك المرأة) .

المرأة : جزيت خيراً . . لن يعلم بهذا أحد (تخرج) .

إبراهيم : (يتمتم) تفاحتان اثنتان وعنقود عنب . ما أظن ثمن ذلك يزيد على درهم واحد . فليأخذ منى درهمًا ونصف درهم على سبيل الاحتياط .

٣

[بعد أيام من حوادث المشهد السابق]

إبراهيم : (لمعتوق وكيل صاحبة البستان) خذ هذا يا سيدى .

معتوق : ما هذا يا أبا إسماعيل .

إبراهيم : ثمن رمانتين أخذتهما من البستان أمس .

معتوق : كل يوم تأخذ شيئاً من البستان وتعطيني به ثمناً ؟ والله لا أدرى أأنت ناطور عندنا أم تاجر ؟

إبراهيم : أنا يا سيدى ناطور .

معتوق : اسمع يا هذا . إن مالت نفسك إلى شيء من البستان فكله ولا حرج عليك .

إبراهيم : كلا يا سيدى إنى لا أستحل ذلك .

معتوق : قد أذنت لك .

إبراهيم : ما يدريني هل ترضى سيدتك مالكة البستان إذا علمت أو تسخط .

معتوق : ما شأنك بمالكة البستان ؟ أنا هنا مكانها .

إبراهيم : شكراً لك على كل حال ، لكن دعني وما اخترت لنفسى لو تكرمت .

معتوق : كما تحب يا أبا إسماعيل . اسمع الآن قبل أن أنسى . إن السيدة المالكة تنوى زيارة البستان اليوم ومعها

صديقاتها من علية القوم، فاجمع لها شيئاً من التفاح ومن العنب ومن الرمان .. تخير أجود ما فى البستان .

إبراهيم : سمعاً يا سيدى (يخرج) .

معتوق : (يتمتم) يظن أننى سأسلم هذه الدراهم للسيدة المالكة . ياله من أحمق، لكن من يدرى لعله يغتال لنفسه كثيراً من الفاكهة ويظهر لنا ورعه، هذا خديعة منه لئلا تنكشف خيانته . إنه كثير الصلاة كثير الذكر . لكن ألا يجوز أن تكون هذه حبائله ؟ حبائل الشيطان ؟

٤

[غرفة فى القصر الذى فى البستان]

[تجلس السيدة المالكة ومعها صديقتان لها حول مائدة وقد رفعت الصحاف وجاء دور الفاكهة فقدمت أطباق التفاح والعنب والرمان]

إحداهما : هذه الفاكهة من بستانك ؟

المالكة : نعم . لا يوجد فى طرسوس كلها أجود فاكهة من هذا البستان .

الثانية : (تأكل من تفاحة فتكف) وى ! هذه تفاحة حامضة !

المالكة : حامضة ؟

الأولى : (تأكل من عنقود عنب) والعنب أيضا حامض .

المالكة : حامض ؟

الأولى : ألا تصدقين ؟ ذوقى إن شئت .

الثانية : وذوقى هذه التفاحة .

المالكة : (تتذوق من التفاح والعنب فتثور غاضبة) قبح الله هذا الوكيل ! يقدم لنا الفاكهة التى لم تنضج ! (منادية) معتوق ! يا معتوق !

معتوق : (يدخل) لبيك يا سيدتى .

المالكة : لا لبى الله لك صوتاً . ما هذا الذى قدمت لضيوفى يا أحمق ؟ تفاح حامض وعنب حامض . قبحك الله . أتستأثر بالحلو وترمى لى ولضيوفى الحامض ؟

معتوق : معذرة يا مولاتى . الناطور هو الذى جمع الفاكهة .

المالكة : ويلك كيف تعتمد عليه فى أمر كهذا ؟ لماذا لم تتخير أنت بنفسك ؟

معتوق : ما خطر ببالى يا مولاتى أنه لا يحسن اختيار الفاكهة .

المالكة : أنت مسئول أيضاً عن اختيار هذا الناطور . ألست أنت الذى عينته ؟

معتوق : بلى يا مولاتى لما بلغنى من صلاحه واستقامته .

المالكة : ادعه لى الساعة .

معتوق : حالا يا مولاتى (يخرج منطلقاً) .

المالكة : (تتخير من الأطباق ما تراه جيداً فتقدمه لصديقتيها)

هذا حلو . كلى يا فاطمة . وأنت يا خديجة كلى من هذا العنقود .

(يدخل معتوق ومعه إبراهيم)

المالكة : أنت الذى جمعت لنا الفاكهة اليوم ؟

إبراهيم : (خجلا يتقى النظر نحو النسوة) نعم يا سيدتى .

المالكة : أقصدت أن تحرجنى أمام ضيوفى بتقديم هذا التفاح الحامض والعنب الحامض ؟

إبراهيم : معاذ الله يا سيدتى أن أقصد ذلك .

معتوق : ألم أؤكد عليك أن تتخير أجود ما فى البستان ؟

إبراهيم : بلى ، وقد ظننت أنى فعلت ، ولكن لعلى أخطأت .

المالكة : ويلك تعين ناطوراً لا يميز بين الحلو والحامض ؟

معتوق : يا مولاتى غير معقول أنه لا يميز بين الحلو والحامض . لقد صار له عندنا اليوم عام ونصف عام فلو كان طفلا صغيراً لميز .

إبراهيم : (مغلقه) أنا . أنا

المالكة : أنت ماذا ؟ تكلم .

إبراهيم : أنا لم أذق شيئاً مما فى البستان .

المالكة : طوال هذه المدة لم تذق شيئاً ؟ اضحكن معى وتعجبن من هذا الناطور (يقهقهن ضاحكات) .

معتوق : يا أبا إسماعيل لقد كنت أظنك صالحًا فما حملك على أن تكذب ؟

المالكة : وكذاب أيضًا ؟ أى ناطور هذا ؟

إبراهيم : أنا والله ما كذبت .

معتوق : هذه كذبة ثانية . يا مولاتى إنه كثيراً ما يطلب منى أن أقتطع من أجره الشهرى دراهم معدودة يزعم أنها ثمن ما استهلك لنفسه من فاكهة البستان فى بعض الأيام . فكيف يزعم الساعة أنه لم يذق شيئًا من البستان قط ؟

المالكة : ما تقول فى هذا أيها الناطور الورع ؟

إبراهيم : ياسيدتى أرجو أن تبحثوا لكم عن ناطور غيرى فإنى لم أعد أصلح لهذه المهنة .

النسوة : (يتضاحكن) مسكين ! إن كان لا يصلح ناطوراً فلأى شىء يصلح ؟

إبراهيم : سامحينى يا سيدتى فيما بدر منى دون قصد .

المالكة : اذهب يا معتوق فأعطه حسابه .

معتوق : تعالى معى يا أبا إسماعيل (يخرجان) .

٥

[شقيق البلخى ومعتوق أمام مصطبة إبراهيم وقد ظهر فى وجه شقيق الأسف والحزن]

معتوق : أقسم لك ما طردناه نحن ولكنه هو الذى استغنى .

شقيق : لا بد أنكم أحرجتموه .

معتوق : بل هو الذى أحرجنى أمام سيدتى . وأحرج سيدتى أمام ضيوفها والله لولا مكانه منك لكان لى معه شأن آخر .

شقيق : أنت تظن أنه كذبك حين قال إنه لم يذق شيئاً من البستان قط ؟

معتوق : لست أظن ظناً بل أوقن وأجزم .

شقيق : أنت لا تعرف هذا الرجل يا معتوق . لو كذب من فى الأرض جميعاً ما كذب هذا (تنظر المرأة الفقيرة على باب البستان وتتطلع إلى الرجلين) .

معتوق : ما خطبك ؟ ماذا تريدين يا امرأة ؟

المرأة : سأنتظر حتى يجىء .

معتوق : من ؟

المرأة : الناطور .

معتوق : ماذا تريدين منه ؟

المرأة : (فى حذر) لا شىء . . حتى يجىء هو .

شقيق : (بلطف) يا سيدتى قولى ما عندك ولا تخافى فأنا من أصدقاء الناطور .

معتوق : هل كان يعطيك من فاكهة البستان ؟

المرأة : نعم . جزاه الله خيراً . أين هو يا سيدى ؟

(يتبادل شقيق ومعتوق النظر)

معتوق : انتظرى قليلا (يغيب لحظة)

المرأة : (لشقيق) أين الناطور الطيب يا سيدى ؟

معتوق : (يعود بشىء من الفاكهة فيعطيه للمرأة) خذى .

المرأة : الناطور هو الذى أوصاك أن تعطينى ؟

معتوق : نعم .

المرأة : جزاه الله خيراً وجزاكما أنتما أيضـًا خيراً . سيفرح أطفالى اليتامى بهذه الفاكهة .

(تذهب)

شقيق : أرأيت يا صاحبى ، لقد فاتك خير كثير إذ تركته يرحل عنك . أتدرى من كان هذا الرجل ؟

معتوق : من ؟

شقيق : إبراهيم بن أدهم !

معتوق : (فاغراً فاه من الدهش) إبراهيم بن أدهم ؟

شفيق : نعم . نعم .

معتوق : لأبحث عنه فى المدينة وأعيدنه .

شفيق : هيهات . لا بد أنه قد ترك المدينة إلى مدينة أخرى .

معتوق : هلا أخبرتنى من الأول يا سيدى ؟

شفيق : او عرف أنك عرفته ما رضى أن يبقى عندك ساعة واحدة .

معتوق : وا أسفاه على كنز ما علمت به إلا حين ضاع !

« ستار »

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٥٠٠٥ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣



اقرأ

يوسف الشاروني

مطاردة منتصف الليل



اقرأ

تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

يوسف الشاروني

مطاردة منتصف الليل

اقرأ ٣٦٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٤ – فبراير سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

مطاردة منتصف الليل



١

كان ذلك عند هبوط المساء إلا قليلا ، حين كنت أبحث عن شيء أحك به جسدي ، وكانت الليفة هي حاجتي الحقيقية للخلاص مما أنا فيه ، وأنا أؤجل ذلك من يوم إلى يوم ، حتى أدركت أخيراً أن الأمر أصبح ضرورياً لا مفر منه . . .

ولقد صدق حدسي حين هبطت الطريق التي توسمت أنهم يبيعون فيها أمثال هذه الحاجات ، فقد عثرت أخيراً على الليفة الأخيرة في دكان بائع متآكل الأنف ،وكانت ليفة كبيرة في غير نفع ، فهي ممزقة كثيبة ومليئة بالثقوب كأنما أكلتها الفئران . . ولكنني لا أحب الجولان في الطرق ، وأخشى أن تثير كثرة السؤال شبهة حولي ، كما أني ما أحب أن أعود من رحلتي فارغ اليدين . . فدفعت الثمن في غير جدل ، ولاحظت البائع وهو يلفها لي في كثير من ورق الجرائد في عجلة وبغير كبير عناية ، ثم يمد قامته نحوي قليلا ويدسها تحت إبطي . .

فلما خرجت وسرت وجدتني — وعلى بعد خطوات قلائل — أمام واجهة زجاجية تزدحم خلفها أدوات مختلفة وكثيرة للزينة ، فبدا لي أن أقف لأسرح فيها البصر . . وكانت زجاجات العطور وألوان الصابون

وأرقام الأسعار تنتشر وتنتصب وتستلقى ، وإلى جانبي معطف من الفراء يطل منه وجه حسناء وتنبعث منه رائحة نفاذة ، وشاب يحادثها وهما يتصنعان تأمل العطور والصابون والأسعار ثم يلتفتان يمنة ويسرة كأنما فى حذر ، فلما دخلا الدكان أحسست أن شيئاً يشدنى بخيوط لزجة نحوه كأنه المادة الكريهة المتراكمة على جسدى . . ولم أدرك ذلك الشيء فى أول الأمر ، لكن حين استدرت لأعبر الطريق وسط زحمة السيارات والناس كنت قد امتلأت رغبة عنيفة فى الاختفاء ، فأسرعت نحو طريق يهدأ فيه النور قليلا وتهدأ فيه الحركة كثيراً ، ولما أصبحت على مبعدة من هذين الشخصين استدرت خلفى فجأة ، وكان الطريق يكاد يكون خالياً . إلا أنى كنت موقناً أن ثمة عينين لزجتين تنتظرانى فى مكان ما وتتعقبان طريقى لسبب ما . .

فانحنيت نحو أحد الشوارع الخلفية ، وكانت اللفافة تعوق حركتى وهى تحت إبطى ، فنقلتها إلى يدى اليمنى ؛ وهكذا أصبحت أكثر حرية . . ثم أصبحت أكثر انحناء وأسرع مشياً وأنا أخطو فى حذر إلى جانب المنازل الضيقة المعتمة ، باحثاً عن طريق للفرار . . غير أن طريقى الضيق سرعان ما أفضى بى إلى آخر متسع ، يضج بالنور الباهر والحركة والناس والعطور ، وينعكس الوهج على عينى ويملأ العطر أنفى ، وأحسست بجسدى يخوض فى قطع اللحم المتحركة المسرعة المتعطرة ، وأدركت أية سهولة يجدها فى مهمتهم من يقتفون أثرى حين ينتشرون فى هذه الزحمة الكبيرة المتسعة ، وهكذا أشرت إلى سيارة من

سيارات الأجرة ، فلما انحنى بها سائقها نحوى لحته يتردد قليلا ، وحين وقفت سيارته أمامى تماماً أخذ يتفحصنى بريبة وينظر إلى اللفافة فى يدى ، فأدركت أن ثمة ما يقلقه مثلى ، وثمة ما يقلقه منى ، وفكرت أن أفتحها له وأريه أن ما بداخلها ليس سوى ليفة مما يستحم بها الناس ، غير أنه لم يكن ثمة مجال للنقاش ، فلوحت له بحافظتى ، وفى لحة واحدة كنت قد أغلقت بابها على نفسى وجلست وحيداً وأمامى سائقى الأسود . . .

وكان عليه أن يتجه إلى مكان ما . . وكان هذا غريباً وضرورياً وصعباً للغاية . . فأين يمكن أن أختفى فى غير هذه السيارة ؟ ولكن السيارة كانت منخفضة للغاية وجسدى منحنياً فى داخلها كأنما للصلاة بغير أن أصلى . . وقد كرر السائق سؤاله عن الجهة التى أقصدها وهو يلمحنى فى مرآته التى أمامه منبعجاً إلى هذا الحد الفظيع فى سيارته الصغيرة الخانقة . . فلما عبرنا طريقين مزدحمين وتأهبنا للانحناء فى طريق ثالث أحسست السيارة ترتج فجأة كأنما تزلزلت الأرض تحتها ، وسمعت صوتاً مزعجاً ، صوتاً غير إنسانى ينبعث من أسفل سيارتى . .

ولمحت رأس السائق كأنما تتأرجح فى الهواء ، على حين اصطدم جانب السيارة بشدة فى ذراعى اليمنى حتى لقد حسبته قد أصبح كتلة خالصة من دم متجمد ، فلما أطللت من زجاج النافذة المرضوض وجدت ما يشبه بقايا رجل كأنما أجبر على أن يزحف بنصفه الأسفل تحت عجلات السيارة ، والدم ينزف من ذراعه اليمنى ، والقوم يتجمعون ويتفرجون وينزعجون . .

وخيل إلى أن ذراعى أنا أيضاً — وبغير حق — تقطر دماً . . . فأمسكتها بيدى الأخرى وأنا أضغط اللفافة بينهما . وكان علىّ أن أجد مخرجا ، وأنا أنظر فى عينى سائقى ، وهو مشغول بالإجابة عن غضب الجماهير التى تزاحمت حتى أصبح مجرد انتسابى إلى السيارة شيئا خطراً للغاية . . وهكذا كان على أن أتخلى عن سائقى فى هذه اللحظة الحرجة من حياته لئلا يكتشفنى أحد الذين يتعقبوننى ويجدون الفرصة ملائمة لهم ، فيشركوننى فى اتهام لا يد لى فيه .. وهكذا حملت لفافتى وتسللت من السيارة وأنا أحس ارتجاجها فى ذراعى حيًّا ومؤلماً وفظيعاً للغاية . . .

وتركت سائقى وحيداً وله فى عنقى بضعة قروش لم أدفعها له ، واتجاه لم أخبره عنه ، ومعونة ما قدمتها له ، ونظرات الذعر فى عينيه لا تمحى من عينى . .

وكان على ألا أستسلم وألا أسلم أبداً لمطاردى .. لهذا عندما وجدتنى أمام باب للسينما ، وفى مقابل الجمهور المزدحم تماماً ، عرجت ناحية النافذة الحديدية المربعة ، حيث جلست عجوز مصبوغة بالألوان تقضم أظافرها وتتأملها فى سرعة وقلق ، فانحنيت واشتريت منها تذكرة بغير أن أعرف أى الأفلام سأرى ولا من ذا الذى سيجلس على المقعد التالى بجوارى . . وحين انحنيت وأنا داخل من الباب المنخفض لمحت قاطع التذاكر يهمس شيئاً فى أذن زميله ، ولا ريب أن اللفافة أثارت شيئاً من ريبة فى نفسيهما ، مما أحزننى حزنا شديداً ، لأنى كنت واثقاً أنه

إذا قدر لأحد ممن يقتفون أثرى أن يسألهما عنى ، فلا شك أنهما يستطيعان تذكرى ويدلانه على رقم مقعدى . .

وكان الفيلم قد بدأ وأنا داخل على أطراف أصابعى ، والأشياء تبرز قليلا قليلا من العماء التام الذى واجهنى حين دخولى .

وحين أصبحت أكثر ألفة مع العتمة تحت سقف القاعة يكاد ينحنى فوق الناس وقد ازدحموا ازدحاما لا مثيل له كأنهم مذعورون يلجأون من غارة . . . وقد حشرت بين رجلين عن يمينى يتحدثان بصوت خفيض كأنما يقلقهما أمر ، وأحدهما دائم التمخط ، وسيدة عن يسارى تحك ذراعها وهى تهمس شيئاً فى أذن زوجها على ما يبدو ، مما أغرانى لحظة أن أحك أنا أيضا ظهرى الملبد بالعرق ، ولكنى ما كنت أجرؤ على ذلك لئلا ألفت الأنظار وأبعث الاشمئزاز من حولى . . وكان فى همسهما شىء من كآبة كأنما انتزع ابن منهما أمس . . أما وجودى المفاجئ فيبدو أنه قد أثار حولى شيئاً من التأفف لأننى أحدثت شيئاً من ضجة وقطعت عليهم صمتهم وإنصاتهم كأنما أزيز الطائرات فوقهم . . ولا شك أن الجالس خلفى كان سيىء الحظ تماماً ، فقد سمعته يبدى بعض التبرم ، ويهمهم بكلام غير مفهوم راجياً أن يصلنى منه شىء ، فقد كان يبدو أنه قصير القامة وعليه أن يميل إن يميناً وإن يساراً إذا حرص ألا يفوته انتحار أحد أبطال القصة ، ولقد انتحر البطل فعلا ، ولكنه لم يكن البطل الرئيسى بطبيعة الأمر ، والواقع أن هذا كان البداية فقط . . وكان مقعدى منبعجاً إلى الأمام قليلا بحيث أكاد أنكفئ على وجهى ، فى

أحد جانبيه انخفاض شديد . . وحين حاولت أن أعدل من جلستى المضنية سرت طقطقات فى المقعد وانتشرت حتى آذت القوم من حولى ، وأحسستها تسرى فى أسنانى فآثرت أن أظل ساكنًا لا ألتفت يمنة أو يسرة منحنيًا إلى الأمام متشبثًا حتى النهاية بمسندى مقعدى . . وبينما كانت السيدة تحك فخذها بأظافرها الطويلة المصبوغة وبصوت خشن مسموع كان البطل الحقيقى يطبع قبلة على شفتى حسناء تصاحبها موسيقى عاطفية حالمة . . وفجأة وعلى الشاشة ، بدا ضجيج موسيقى كتفجر القنابل . . والسيدة إلى جانبى ما تنفك تحك ساقها اليمنى ، ثم تمسك منديلا تجفف به دمعتين ، فلا ريب أن البطل كان يستحق كثيراً من الرثاء ، بحيث لم أستطع أنا أيضًا أن أمنع عن نفسى إحساسًا فجائيًّا بالكآبة . . فلما لمحت زوجها يشاركها دموعها أدركت أن شيئًا هنا — مريراً وكئيبًا — يمس حياتهما .

غير أن هذا لم يكن كل شىء ، فقد كانت النهاية السعيدة مقبلة بلا ريب ، فبرغم هذا الخطر الحقيقى الماثل ، وبرغم هذه الكآبة الضرورية الفجائية ، كان يملؤنى إيمان أستمده من كثرة الأفلام التى رأيتها من قبل وهو أن هذا ليس إلا السبيل إلى الإحساس بالنصر الحقيقى السعيد . . وهكذا سرعان ما انشرحت الأسارير — التى اكتأبت مدى ثمانين ثانية كاملة — ثم ضجت القاعة بتصفيق متقطع أجوف ، وقهقهات منبعثة من أماكن بعيدة ومجهولة ، والرجل ماض يحدث صديقه حديثاً هامًّا أكثر أهمية مما كان عليه من قبل ، بحيث مال تمامًا على أذنه وأصبح

بخفيضاً ومتصلا وجدياً . . .

وكان يبدو أن البطل يبحث الآن عن حسنائه ليقبلها القبلة التقليدية الختامية على ما أعتقد ، أو لعله سيبدأ معها دوراً جديداً من أدوار القصة غير أن صوت الأظافر الخشن عن يسارى وحركة الرجل القصير القامة من خلفى ، وتوقعى وجود شخص أو أشخاص حولى ممن يبحثون عنى ، وتمخط الرجل عن يمينى ، ثم مقعدى المنحنى المتكسر كأنما سيهبط بى نحو الأرض فى أية لحظة ، جعل المدة التى عشتها فى هذا المكان كافية تماماً . . والعتمة والأنفاس الحارة والصمت والتوقع .. جعلت مغادرتى لهذا المكان حاجة ضرورية وجدية للغاية . .

٢

فلما خرجت أهرول قبل أن تفرز السينما جمهورها ، كانت الطرق قد ازدادت إظلاماً ، والناس يمشون فى حذر فرادى بجوار الحوائط كأنهم سيلتقون بفاجع عند نهاية الطريق ، أو هم يتدحرجون على حافة الأرصفة تماماً كأنما يعدون خطواتهم ، وقد وجدتنى أسير خلف رجل أعرج وأنا أعد خطواتى أيضاً كأنما أقيس بها الطريق ، وكان الأعرج يهرول وقد جذبنى خلفه وفى دائرته ، بحيث حرصت — وبغير أن أحرص — على أن أبقى المسافة بيننا بلا زيادة ولا نقصان ، فاضطررت أن أهرول مثله ، ولما تنبهت إلى ذلك أشعت الاضطراب عامداً فى سيرى ، وأسرعت قليلا فى خطوى ، فقد خشيت أن يحسب الرجل أنى أتبعه

وما كنت أحب أن أعرضه لمثل هذا الإحساس المحير الخانق ، فعبرته ومضيت أسير أمامه حتى أثبت له حسن نيتى ، وأن الأمر كان مجرد مصادفة خالصة وليس ثمة خطة مبيتة على الإطلاق ، وهكذا رضيت لحظة عن نفسى لأنى قد أكون أزحت عنه إحساساً لا شك أنه لازمه لحظة ، فهأنذا الآن أسير أمامه وها هو ذا يخب ورائى مرتفعاً ومنخفضاً باستمرار وها هى ذى المسافة بيننا تبتعد حتى لنكاد نفترق .

وكانت اللفافة ما تزال فى يدى ، وقد ضمرت وتهلهل بعض ورقها لقبضتى المتشبثة بها ، إلا أنها أصبحت مبعثاً حقيقياً للريبة والخطر ، فإن أحداً لا يمكن أن يدرك أبداً — وعلى وجه يقينى — ما بداخلها ، فهى تثير للسائرين معى شتى الظنون ، حتى لقد فكرت أكثر من مرة أن أتخلى عنها وألقى بها فى أقرب زاوية ، إلا أن ذلك كان أكثر خطراً بالنسبة لى : لئلا تستحيل ريبة العابرين إلى يقين ، ويدركون أن شيئاً خطراً وفظيعاً حقاً بها ، مما يسبب لى مضايقات لا نهاية لها ، وكنت أكافح كفاحاً هائلا حتى أقتنع أخيراً ، لحظات معدودات ، بأن أحداً لا يهتم بما فى يدى ، وهكذا كنت بين شعورين متناقضين يتبادلانى الواحد بعد الآخر ، كأنهما يدان متوحشتان تلطمانى على وجهى بالتناوب ، فكنت أرى الناس ينظرون — ولا ينظرون — إلى اللفافة .

وكلما انزلقت فى شوارع أكثر إظلاماً ، كنت أسمع بين حين وآخر قهقهات وهمسات تنبعث من زوايا ومنحنيات مجهولة . .

وكنت أخشى دائماً أن يصلهم وقع أقدامى فيحسبونى سأفاجئهم

لاستجوابهم ، فأفسد عليهم — وبمجرد هذا الشك الذى يصيبهم — لحظة من حياتهم . ولهذا كنت أتعمد أن أضرب بقدمى الأرض بصوت واضح مسموع ، حتى أعطيهم المهلة الكافية لتدبير أمورهم . ولكن ما إن بدا لى أحدب متآ كل الوجه ، يدخن « سيجاراً » على مهل وبطء عند بدء الطريق المفضى إلى الميدان التالى ، حتى وجدتنى أنكمش وأسرع وأخفف من وقع أقدامى ، حتى لقد نظر إلى فى ارتياب ، وصعّد بصره نحوى ، مما زاد شكى أنه قد يكون فى أثرى أو فى أثر آخرين . فما هو ذا شخص لا يخاف وقع أقدام فى الليل ، وفى مثل هذه المدينة المتسعة الكئيبة ، ويدخن سيجاره بهدوء ، وينظر إلىّ فاحصاً ، حتى إذا ما استقر بصره على اللفافة أحسست أننى أحمل فى يدى خطيئة ملموسة وحقيقة يستطيع — إذا شاء — أن يدينى بها . وهكذا عشت ثلاثين ثانية فقط شخصاً يقتفى الناس . ثم سرعان ما أصبحت موضوع ذلك الاقتفاء .

وكان علىّ أن أجتاز ميداناً صغيراً قبل أن أصل إلى الطريق النهائى . . فسلكت جانباً كانت قد نصبت فيه مراجيح قلائل متفرقة ومهجورة غمرها صمت ووجوم . ورأيت على ضوء المصابيح الخافتة ظلى الطويل ينعكس على أرض الميدان المغطى بالحشائش الجافة والتراب ، حتى يصل إلى ما وراء المراجيح . وثمة عابرون قلائل يتهامسون ويتلفتون ، والأشجار الساكنة تلقى ظلالها كأنما فى تراخ وملل . ولم يكن أمامى أن أختار ، فقد كانت الظلمة هى ملجئى الوحيد . الظلمة التى يغور فى نهايتها منزلى قابعاً ومستكيناً للفجيعة التالية . . فمضيت أتدحرج وأصوات

القوم تتقهقر من أذنى شيئاً فشيئاً أمام نباح الكلاب المخشوشن الجاف وهو يرتفع وينداح ، وكان هذا علامة على اقترابي من منزلى . فلما سمعت صوت الكلب الأسود الضخم على السطح التالى لمنزلى ينطلق أجوف منخوباً فى الظلمة أدركت أنني وجهاً لوجه أمام باب بيتى . وتراءى إلى سمعى وقع أقدام بعيدة ، فلما تلفت لمحت ما يشبه الظل المتكور البعيد ، ما إن رآنى حتى انحنى نحو الأرض كأنما يبحث عن شيء مجهول فتفرست أبحث لعل أحداً يتصنع التنزه حول جدران بيتى ، أو لعل الظل أن يقتربُ متصنعاً السؤال عن طريق أجهله .

وكنت أعلم أن خادمتى « نور » لا بد أن تكون قد نامت منذ زمن بعيد ، فها هى ذى قد أطفأت أنوار المنزل جميعه ، وهى ما تعودت منى المجئ فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولولا مرضها لكانت قد ذهبت واشترت الليفة بنفسها ، وكنت أحب ألا أزعجها ، وكنت أدرك أنى سأزعجها ، وذلك عند محاولتى فتح الباب فى مثل هذه الساعة من الليل ، فهى — مثلى — رقيقة حساسة ، تتوجس خيفة من كل طارق فى الليل ، فهى لن تسمع الحركة الحذرة للمفتاح فى الباب حتى تهب مذعورة من نومها .

ويزدحم رأسها بخليط رائع — أنا آلفه تماماً — من الأوهام والحقائق ، وستكون الحركة الخافتة الحذرة هى أقرب إلى حركة الغريب المتلصص منها إلى حركة صاحب البيت المطمئن ، وستعانى لحظة انتظار واستسلام هائلة كالقضاء ، لهذا بدا لى أن أدخل البيت فى حركة مسموعة

مطمئنة . غير أن هذا أيضاً لم يكن أقل خطراً من المحاولة السابقة . وفكرت أخيراً ألا أدخل على الإطلاق وأنه من الخير لى ولها أن أفضل البقاء خارج بيتى ، غير أن هذا التفكير لم يستمر أكثر من عشرين ثانية . فقد كانت هناك قلقلات بطيئة خفية تشرئب فى الليل حولى ، لا يخفيها تماماً نباح الكلب الأسود الضخم وانقياد بقية الكلاب له ، فلا أنا أعرف مكانها بوضوح ولا هى تختفى تحت ستار هذا العواء المتصل المستديم . وكان نباح الكلب قد ارتفع واتجه نحوى — ومعه جوقة الكلاب الأخرى — متصلا مؤلماً عن ذى قبل ، بحيث لا بد وأن يثير ريبة السكان فى وجود غريب يتلصص قريباً من بيوتهم .. وهكذا اتضح لى أن محاولة البقاء خارجاً إن هى إلا محاولة خيالية ليس من سبيل إلى تنفيذها . لهذا جمعت أطراف شجاعتى وأولجت مفتاحى فى الباب فانفتح على الأثر ، ودخلت وأنا أتلمس الضوء بيد وأقفل الباب بيد ، فى بطء وإنصات.

وأنصت . . فسمعت مواء قطتى ممطوطاً ومبحوحاً كأنه نواح . فقلت لا شك أنها جوعانة ، وأن خادمتى المريضة السمراء ذات العين الواحدة قد نامت بغير أن تطعمها لما ألم بها من تعب هذا النهار .

فما إن أضأت النور حتى وضعت اللفافة على المنضدة ، وأسرعت أنزع الورق ، ورقة ورقة ، بغير أن أصل إلا إلى فراغ ! فلا شك أن الليفة — وا أسفاه — قد سقطت منى فى أثناء هذه المطاردة المضنية . . وفكرت أين يمكن أن تكون قد سقطت . فى السيارة أم فى السينما أم فى الطريق حين نظر الأحدب فى ريبة نحوى ؟ ولم أستطع أن أفهم شيئاً ،

وما كان يمكن لى أن أتذكر أو أفهم . . لقد كنت أحس بكتلتها داخل الورق حين اشتريتها وكذلك حين وقفتى أمام الواجهة الزجاجية . . لكن متى بدأت أفقد الإحساس بكتلتها ؟ ليس ثمة سبيل إلى معرفة ذلك أبداً ، وسيظل هذا اللغز مجهولاً إلى الأبد . .

لقد كنت أمنى النفس بحمام رائع هذه الليلة ، حتى أتخلص من هذا العرق الذى يتسرب متلكئاً فوق جسدى ، ويزحف فى خطوط متعرجة من منابع تنضح باستمرار وبلا انقطاع ، وحتى أنام — لأول مرة منذ ليال — فى سعادة عميقة . . فأنا شخص عندما ينسكب فوقه الماء المتدفق أحس إحساسات عظيمة رائعة ، وأقوم بمشروعات ضخمة وحقيقية ، وتتفتح أمامى كل معانى الحياة المقدسة ، وأتشبث بالأرض وبالإنسان ، وأحس أننى كائن عظيم وسعيد . . فهنا ، وفى الحمام ، أدع الماء ينهمر فوقى حتى يتشربه شعرى وعيناى وكل مسام بدنى ، ويظل يعلو فى داخلى إحساس سماوى يرتفع شيئاً فشيئاً وأنا أصيح وأغنى وأقفز ، حتى أصل إلى قمة فيها تقترن العظمة بالسعادة كأنما لأول مرة ولآخر مرة . . . وكانت هذه هى حاجتى الحقيقية إلى الليفة فى حياتى . .

فألقيت نظرة جد آسفة على هذا الورق الكثير الفارغ الراقد فوق المنضدة بلا منفعة ، وعلى هذا الجهد الضائع الذى بذلته مخلصاً طوال هذه المرحلة الشاقة المضنية . . وأدركت أننى أمام قوى تسلبنى كل شىء وتفقدنى فى عراكى معها كل شىء ، حتى الليفة التى كنت أحلم بما ستنعم علىّ من حمام رائع وسعادة مطهرة . . وأدركت أننى فى معركة غير

شريفة ، ولكن عليّ ألا أيأس ، ولا ألقى أسلحتى أبداً ، وأن أستعد للدفاع عن نفسى ، وأن أدرك الخطر المقبل .

وكان مواء القطة ما يزال ينوح فى جنبات البيت ، ولم أكن أعرف أين يمكن أن يكون طعامها ، فذهبت نحو « نور » علها تكون مستلقية متيقظة متعبة ، ولكنى وجدتها نائمة ، نوماً عميقاً وبلا قلق ، فلما صرت أكثر اقتراباً منها لأتأكد من ذلك ، لفحتنى أنفاسها المنتظمة على وجهها ، وثمة عرق كريه — أكثر كرهاً من عرقى — فابتعدت عنها . . ثم اتجهت إلى المطبخ أبحث للقطة عن طعام . .

وانحدرت نحو المطبخ أتلمس الضوء ، فلما أضأته ، لمحت على المنضدة طبقاً فيه ما يشبه الجبن وخطوطاً هندسية من النمل تذهب وتجىء منها وإليها ، فأشعت الاضطراب فى هذه الخطوط بنفخة من فمى حتى أبعدتها عن الطبق قليلا ثم قلت : ها هو ذا قد وجدت لك أيتها القطة المسكينة ما تتبلغين به فتواصلين إطعام صغارك حتى الصباح . . غير أنى لاحظت أن قطعة الجبن تموج بالدود خلالها وحواليها وينتشر منها ويقفز فى اتجاهات مختلفة لا معقولة . . وحاولت عبثاً أن أغرى بها القطة فلا شك أنها تعرف مكانها وتأنف الاقتراب منها ، وها هى ذى تعاود المواء وتتشمم زوايا المطبخ وأثداؤها المدلاة تكاد تلمس الأرض . .

فلما خرجت من المطبخ أدركت أن نوافذ بيتى لا تزال مفتوحة وكنت قد لاحظت ذلك منذ دخولى ، وكانت النوافذ المفتوحة تثير فىّ قلقاً خافتاً ظللت أقاومه وأقاومه حتى اتضح واتضح ، فقد كانت

النوافذ منخفضة بحيث يمكن للعابر فى ظلمة الطريق أن يرانى وأنا مغمور فى النور من غير أن أراه . .

وكانت بها قضبان حديدية تمنع اللصوص ، وشباك سلكية تمنع الحشرات التى قد تسعى خارجاً فى الليل ، ولكنها — ما دامت مفتوحة — تبيح للنظرات الخارجية أن تنفذ إلى داخل بيتى حين يغمر النور تتأمل ما فيه من أثاث وما فيه من حركات وهمسات . . وكانت نافذة الردهة أمامى مفتوحة على مصراعيها وخيل لى — وربما بغير حق — أن ثمة خيالا قد مر ، فأسرعت أطفئ النور حتى يخفينى عنه الظلام وتضل عنى عيناه ، فلما انطفأ النور رأيت الطريق الآن من خلف نافذتى الحديدية مغموراً فى ضوء لاهو بالعتمة ولا هو بالنور ، وكان كل شىء ساكناً كأنما الحركة التى سمعتها قد ربضت تتحفز حتى أضىء النور من جديد . . وكافحت كفاحاً هائلا وحقيقيا وأنا أتجه نحو مفتاح النور لأضىء الردهة من جديد ، ولكن الكلب كان دائب النباح ، والقلقلات تنبعث من خلف نافذتى ، حتى مرت دقيقة ولعلها عشرون ، وكانت هذه نهاية طاقتى الإنسانية ، فاتجهت نحو النافذة وأغلقت بحذر نصفها الخشبى على أن أخفى جسدى فى المكان الذى يحميه هذا النصف من الغرفة ، وكافحت من جديد وأنا أوجه نظرى ما بين حين وآخر إلى النصف المفتوح فإذا حولت بصرى عنه أرهفت أذنى نحوه . . .

ومرت ثلاثون ثانية ثم قمت أغلق نصفها الآخر وأنا أنصت لما عسى أن يكون خلفها متسائلا عما إذا كان هنالك من رأى حركاتى وهواجسى .

وما إذا لم يكن قد ارتاب فيّ لمجرد هذه الحركات وهذه الهواجس . . لقد أغلقت الآن النافذة ووضعت بيني وبينه حاجزاً يمنعه من العمل في الظلام والتستر فيه ، فإذا كان ثمة من يتتبعني فليطرق الباب وليواجهني في نور بيتي وليحدد لي شكله وصوته ومهمته فهذا خير من تحركه في الظلمة خارج بيتي كأنه هاجس شيطاني أعرفه ولا أعرفه كأنه قريب جداً مني وبعيد جداً عني ، كأنه موجود ولا موجود . . وهنالك ذلك الكلب الأسود الضخم يعلو نباحه ويشتد كأنما هناك من يزمعون اقتحام بيتي في كل لحظة أو كأنما هناك آلاف المارة الغرباء يسعون ذهاباً وجيئة في حارتنا المتواضعة هذه الليلة . .

٣

وسمعت طرقاً ناعماً على الباب كأنه وقع حوافر الدواب في ليالي الحصاد ، أو كأنه تساقط المطر في أوائل الخريف أو كأنه تكسر أحطاب جافة تحت أرجل حيوان ، فوجف قلبي ، فقد كان هذا هو ما توقعته تماماً . ثم عاد الطرق من جديد شديداً متعالياً ومغموراً في الظلام كأنه أحجار يلقيها أطفال على شجرة النخيل أو كأنه أظافر كلب تبحث عن عظمة بين التراب ، أو كأنه الريح تصفق حطام منزل خرب . . وعاد الطرق يشتد حتى اهتزت له جدران المنزل وتململت « نور » في فراشها ، فأدركت أنه يجب ألا أتأخر أكثر من ذلك ، وأن الطارق يريدني جدياً أن أسرع إليه فليس عليّ إلا أن أفتح الباب ثم أكون على أهبة الاستعداد . .

فلما فتحت الباب وجدتنى أمام ذلك الأحدب البشع الذى سبقته فى الطريق منذ لحظات ثم برز وراءه من الظلمة شخص أنيق الهندام رائع الوجه حتى لقد حسبته فى أول الأمر حسناء يصحبها الأحدب ، وكانا يرتديان ثياب السهرة السوداء . . ودخلا بلا استئذان وانحرفا ناحية المخدع ، فهما — كما يبدو — يعرفان الطريق . . وكان الطرق قد أزعج « نور » فرأيتها تفتح عينيها ، إلا أنها ما لمحت الأحدب بوجهه المتآكل حتى أغلقت أجفانها من جديد ، وشدت على وجهها الغطاء بحيث ظهرت أصابع قدميها ، فلما حاولت الدخول وقف الرشيق إلى جانبى يمنعنى ويقول لى موضحاً أن تحقيقاً سيجرى معى وبشأنى فى هذه الليلة وهما يبحثان الآن عن أدلة الاتهام . .

واتجه الأحدب نحو الدولاب يقلب فيه ملابسى ، ثم اتجه نحو صندوق فى زاوية سفلية منه قد علاه التراب وكنت قد نسيت ماذا وضعت فيه . . فلما اقترب منه أخذ ينفض عنه التراب . . وتذكرت ما به وعرانى وجوم ثم ضحكة خافتة أنبئ عليها الرشيق بنظرة منه . . ورأيته يفض الرسائل القديمة يقرؤها واحدة واحدة ، وكنت قد حرصت أن أضعها بعيداً — حتى عن نفسى — فى مثل هذا المكان ، حتى كدت أنسى أمرها تماماً ، ولو أنى تذكرتها أخيراً لأحرقتها فيما أحرقت من صور وذكريات ما كنت لأطمئن إلى عدم وصول كائن إليها . . وهكذا قدر لى أن أرى رجلا أحدب متآكل الوجه يقرأ قبل منتصف الليل أعز ذكرياتى ويفض

الأسرار التي تكوّن مقومات حياتي والتي ذخر بها شبابي ، والتي حرصت على أن تستمد قداستها من علاقتها الصامتة القائمة بينها وبين نفسي . . وكأن الأحدب يبحث حيناً في دقة .. ثم يبدو أن نباح الكلب المستمر يضايقه فتضيق عيناه وينظر نحوى ثم يعاود القراءة من جديد ، وكان عجزى هو أنى لم أستطع أن أشاركه ولا أن أفهم التيارات الخفية التي تعتمل فيه وهو يقرأ رسالاتي القديمة العزيزة ، ثم اتجه نحو « نور » — بعدما أدرك عبث قراءته — وتأمل فيها قليلا ، وخشيت أن تصاب المسكينة بسوء ، فقد أزاح الغطاء عنها ، ولا ريب أن المسكينة كانت تقشعر الآن ، فقد انحنى — حتى أصبح منبعجاً كنصف الكرة — وأدركت أى فزع يتملكها ، وأنا ما أستطيع إنقاذها ، فعلى قيد ذراع منى يقف الشاب الأنيق ومعه ما يشبه مسدساً فى يده ، وأنا حريص على حياتى بل أنا حريص ألا أصاب بجرح أو بألم سخيف ، كأن يكون لكمة مثلا . . ولكنى تساءلت فى هذه اللحظة ما إذا لم يكن حرصى على حياتى بهذه الصورة يفقدنيها ، وكان ذلك عندما انحنى الأحدب يقبل « نور » ويحتضنها ، قبلة حقيقية لا شك فيها هذه المرة ، برغم الرائحة الكريهة النفاذة ، وبرغم ما رآه بوضوح من جحوظ إحدى العينين جحوظاً بشعاً مشوهاً تفقده كل شهية نحوها . . .

فلما انتهى من هذه المداعبات المريبة ، أخذ يعدل من ياقته البيضاء ثم أخرج ما يشبه المذكرة ودوّن ما يشبه الملاحظات ، ثم

مضى يقلب تحت السرير ، ورأيته يخرج نصلا ذا حدين ويغوص به فى الوسادة حيث كانت المريضة « نور » راقدة ، ومضى يعبث بقطع القطن المتلبدة وينثرها أمام عينيه ثم ينفخ فيها وهو يتأمل محاولاتها الفاشلة للصعود . ثم يبعثر بقيتها على الأرض . . فلما أبديت شيئاً من اشمئزازى ألقى به فى وجهى .

وخرج من المخدع وأنا أتبعه مع حارسه الأنيق ، حتى وصلنا إلى باب المطبخ ، فمنعت كذلك من الدخول ، واكتفيت بأن أقف بحيث أستطيع أن أرقب كل شىء ، فلقد ذهب الأحدب يقلب بطرف سبابته فى القطعة التى كانت جبناً واستحالت — منذ الأمس على وجه التقريب — إلى مجموعة من دود ، وكان النمل قد عاد إليها من جديد . . ثم مضى يقلب فى القمامة ، وبها فضلات من طعام وبقايا خبز جافة وأوراق متسخة يحاول أن يقرأها بعينيه الكايلتين ، ولاحظ القطة وهى تموء فنظر إليها بارتياب فى أول الأمر وإلى أثدائها المدلاة ، وتتبعها وهى تتشمم زوايا المطبخ ، ثم ما لبث أن انصرف عنها وقام يقيس عرض المنضدة ، وهو دائب يدون ملاحظاته الهامة الدقيقة ، ويرفع يده اليمنى نحو أذنه اليمنى كأنما يطرد بها الذباب كلما تنبه إلى عواء الكلب المتصل فى الظلمة الخارجية . .

ثم خرج من المطبخ ليعد نوافذ المنزل واحدة واحدة ، وأبوابه ، ثم بدا لى أنه يعد قطع البلاط فى كل غرفة ، ولو أنى ما تأكدت من ذلك أبداً فقد أغفلوا ذكر ذلك فى التحقيق . . وكان هذا هو كل

ما يحتويه منزلى : غرفه للنوم ومطبخ للطعام وردهة فيما بينهما . . فلما أوشكا على الخروج لمحا الأوراق الفارغة منثورة وممزقة فوق المنضدة بالردهة، وكانت لا تزال بها بقايا العرق من آثار قبضتى التى تشبثت بها طوال هذه الليلة ، وقد أثارت هذه الأوراق اهتمامهما البالغ ، فأدناها الأحدب من أنفه ثم أدناها إلى أنف زميله يتشممها معه ، فلما لم يقنعا بذلك أخذا يقرآنها بعناية ، وما لبثا أن وضعاها فى ظرف كبير ونظيف ثم رأيتهما يتنحيان ويتهامسان ، كل منهما يهمس بدوره كأن ثمة مؤلفاً وضع لهما حواراً وهما يشيران إلى ما وضعاه بالظرف ، وقد عددت المرات التى تكلم فيها كل منهما فوجدتها اثنتى عشرة مرة ، فقد همس الأحدب فى أذن الرشيق اثنتى عشرة مرة وهمس الرشيق رداً على الأحدب اثنتى عشرة مرة . . ثم دون كل فى مذكراته ما يشبه الملخص العام وما يشبه الرأى النهائى فى الأمر . . وانتزعانى من بيتى ، ثم اقتادانى إلى الخارج حيث ظلمة الظلمات . .

٤

وكانت غرفة التحقيق – بعكس ما كانت السينما – مرتفعة الباب شديدة النظافة ، قوية الإضاءة ، خالية صامتة كأنما تنتظرنى . . وقد دفعنى الرجلان إلى الداخل بغير أن يدخلا ، ولم أجد مقعداً واحداً فاضطررت أن أجلس القرفصاء على الأرض متأملا ظلى المطمئن إلى جانبى . . وجعلت أنتظر .. كان ثمة منضدة مستطيلة ومرتفعة

ونظيفة جداً أمامى وليس عليها شىء على الإطلاق ، ومن خلفها ستارة مزركشة يغلب عليها اللون الرمادى كالتى يضعونها فى بعض الهياكل ، ثم أربع زوايا وسقف وأرض خشبية كلها نظيفة ومضاءة ومعنى بها عناية فائقة . . ومضيت أنتظر وأرقب ما عسى أن تكون الحركة التالية . .

وسمعت صوتاً ينادينى ، فاستدرت أبحث عمن يكون مصدره ، لكنه كان يبدو آتياً من خلف جدار ، أو من خلف الستارة على وجه التحديد . . وهكذا أدركت أنى لن أرى وجه محققى ، ولكنى عرفته برغم هذا الجدار المصطنع القائم بيننا ، فلا شك أنه كان صوت ذلك الشاب الرشيق الذى كان يحرسنى ، على حين بدا لى أن الأحدب يقوم الآن بدور ثانوى هو دور الكاتب ، فقد سمعت حفيف القلم أكثر من مرة وهو يحاول اللحاق بى حتى لا يفوته شىء مما أجيب .. وكان واضحاً أن المحقق يعرف كل شىء عن حياتى ، فقد مضى يلقى أسئلة كثيرة وسريعة ومتلاحقة ، على أن أجيب عنها جميعاً بلا تردد ولا غموض .. وقد بدا لى أكثر من مرة أن أفاجئه بمعرفتى له ، أو على الأقل أن أطرد — فيما بينى وبين نفسى ؛ سلطته — وأنتزع من قلبى الإيمان بقدرته التامة على اتهامى وعقابى ، وبهذا وحده أستطيع أن أضع بينى وبينه حجاباً حقيقياً وكثيفاً لا يستطيع أن ينفذ من خلاله إلى ما يجد من أسرار فى حياتى . . كان ضعفى أمامه وخوفى منه وإيمانى بقدرته وحرارة الغربة المعذبة هى التى تساعده على الحصول

مني على كل ما يريد . . سألنى عن اسمى وعن وظيفتى وعن أقربائى ، وسمعت الأحدب يكتب جميع الإجابات في سرعة فائقة ، ثم عاد يسألنى عن سبب اختيارى لهذا المسكن فى هذه الحارة ، وعن سبب وجود هذه الخادم بهذا الاسم فى منزلى وما إذا كان لى بها علاقة .. ثم عاد يسألنى : ما الذى كنت تحمله معك مساء اليوم ؟ وأجبته : ليفة مما يغتسل بها الناس .. فقهقه قهقهة مدوية وسألنى : أين اختفت إذن ؟ أجبته ؛ لقد ضاعت منى فى أثناء الطريق .. قال : إذن فها أنت تعرف .. ثم زاد ضحكه رعباً ودوياً ، كما يبدو أن الأحدب رمى قلمه واستلقى على قفاه ليشترك معه فى الضحك . . ثم سألنى عن معنى الكلام الذى كان مكتوباً فوق ورق الجرائد ، وعن لون مخدعى الأزرق ، ولماذا أخذت سيارة الأجرة ثم هربت منها ؟ ولماذا شاهدت ذلك الفيلم بالذات وجلست بين السيدة والرجلين ؟ ولماذا انحنيت على أرض الطريق ؟ وماذا التقطت إذ ذاك ؟ وهذا أمر لا أذكر أنى فعلته هذا المساء إلا أنى لم أستطع أن أنكر احتمال ذلك ، بل وتصديقه ، فقد كان يبدو أنه يعرف أشياء أجهلها أنا عن نفسى وهو لا يريد حقائق فهو يعرفها ، لكنه كان يريد أن يحصل على اعتراف ، وهكذا بت على استعداد لأن أؤيده على اقتراف أعمال بمجرد ذكرها لى .. فمضى يسألنى عن القط الذى كان عوء ، والجبن والدود والكلب الذى يملكه جارنا والخطوات التى كنت أقيس بها الطريق ، ولماذا لا أدخن ولماذا لم أستطع الزواج ولماذا لا تستطيع الاختلاف إلا إلى

مقهى واحد ؟ . . كان يطلب منى تفسيراً لأشياء لا أجد لها تفسيراً ، وكان هذا عجزاً حقيقياً منى فقد توهمت أنى هيأت نفسى بكل ما أملك من دفاع ، لكن سرعان ما يثبت لى خطئى الفاحش وأنى مجرد أعزل من كل شيء أمام هذا السيل المنهمر من الأسئلة الدقيقة التى تخصنى تماماً والتى كان يجب أن أعرف إجاباتها جميعاً . . كان المحقق يضعنى موضع المسئولية من كل ذلك ، وإنى لمسئول عنه جميعاً . .

وحين انقطع حفيف القلم أدركت أن التحقيق قد انتهى ، وعلى أن أخلى المكان فقمت أتجه نحو حارسى الذى كان ينتظرنى فى الظلمة الخارجية ، متذكراً كيف كنت فى جبن أتحايل على التهرب من الإجابة الصحيحة ، لأنه كان يبدو لى أنه لم تكن ثمة إجابة لكثير من هذه الأسئلة .. لهذا أدركت أنى قصرت تقصيراً شديداً ، تقصيراً يكاد يدنينى من العدم . . فى استطاعة هذا المحقق أن يلصق التهمة بى ، ولهذا أعددت عن نفسى هذا الدفاع .

فغداً سيجلسون لمحاكمتى ، وسيلقون على التهمة وإن أدعهم يستمرون . . سأدافع عن نفسى ، وسأجعلهم يدركون أن شيئاً مما فعلوه لم يكن ليفاجئنى . . سأخبرهم كيف نشأ لدى ذلك شيئاً فشيئاً وأنا أعبر طرقات هذه المدينة المزدحمة فى طريقى الى عملى صباحاً وفى طريقى إلى مقهاى مساء وفى طريقى إلى منزلى صباحاً ومساء . . سأقول لهم إن زحمة الطريق كانت تضايقنى ، وحتى

المقهى الذى اخترته لأن به شيئاً من هدأة ، كان أحياناً ما يزدحم فى بعض الأماسى ، فينعكس ضجيج الناس ووهج النور فى عيونهم وفى رائحة دخانهم ، فيصيبنى انقباض ويأس شديدان . . لقد كانت المسألة فى أول أمرها مجرد رغبة فى الهدوء ، ثم أصبح شبه إحساس بالخوف وبلزوجة فى أجساد الناس وكلماتهم ونظراتهم . . وأخيراً أدركت وأنا أعبر شوارع هذه المدينة أن هناك من يتبعنى وسط الزحمة ، وكان هذا أبعد مما وصلت إليه مخاوفى ، فأنا رجل مسالم لا أصدقاء لى ولا زوج ولا أطفال ، فلماذا يتعقبنى شخص أو أشخاص وأنا سائر فى هذه الزحمة الكريهة ؟ وهكذا نشأت لدى رغبتى المستمرة فى الانكماش والتضاؤل ، حتى أصبحت كأنى فأر فى مصيدة عليه أن يتجه إن يميناً وإن شمالا حتى يدمى وجهه وينهك عبثاً قواه . .

لقد كان كل أملى فى الحياة هو أن أعيش فى هدوء ، بعيداً عن كل صخب وضجيج ، ملتصقاً بعمل هادئ لا مجال فيه للمغامرة والمقامرة ، وظيفة ذات أجر ثابت ، حيث تتبلور كل آمالى أن يزداد أجرى جنيهاً أو جنيهين كل بضع سنين ، لهذا نفضت يدى من الحب وتحاشيت الزواج ، وتجنبت أسرتى منذ زمن بعيد ، وحاولت أن أختار مسكناً هادئاً وخادمة مطيعة فى منعزل عن الناس ، ومضيت أدير شئون حياتى بأقل قلق مستطاع ، لكن ها قد ذهبت كل محاولاتى أدراج الرياح ، وبالرغم من كل هذه المحاولات فقد وجدت أخيراً من يتتبعنى فى شوارع المدينة وأزقتها ، ومن يعرف كل أسرار حياتى ،

ومن يحاول أن يسد على كل منافذ الخلاص ، ويتدخل فيما حرصت أن أخفيه عن كل إنسان . . حتى وضعت أخيراً فى مكان مظلم تذهب فيه الخفافيش وتجىء طولا وعرضاً وصعوداً وهبوطاً . .

سأعلن على الجميع أنى ما أردت يوماً أن أكون بطلا ولا رجلا مشهوراً ، وسيكون شهودى على ذلك هم أولئك الذين شاهدونى لآخر مرة فى هذا المساء ، وسأستشهد بالبائع المتآكل الأنف ، وبالحسناء والشاب الذى يحادثها كأنما فى حذر ، وبالسائق المذعور والمصاب الذى وطأته العجلات ، وبقاطعة التذاكر والسيدة التى تحك جسدها فى كآبة إلى جانبى ، وبالذين كانوا يتهامسون ، وبالذين كانوا يتلفتون ويتآمرون . . ثم أستشهد بخادمتى « نور » وبالقط الذى يموء وبالكلب الذى ينبح وبلون غرفتى الأزرق ، فكل هؤلاء معى ، وهم يدركون أن كل ما أردته هو أن أكون مطمئناً — ولا أقول سعيداً . . ولقد كانت طريقتى اليوم إلى ذلك هو ليفة أحك بها جسدى المتلبد ، وسأحلف بنوافذ بيتى السبع — التى دوّن عددها الأحدب — وبحق البطل الذى انتصر على الشاشة ، أننى حين اشتريت هذه الليفة ما كنت أدرك ما يترتب على ذلك من خطورة بالغة ومعركة مضنية . . سأشهد هؤلاء أمام الناس مكرراً أنى ما أردت أن أصبح عظيماً ولا زعيماً . . ولا غنياً . بل مواطناً تطمئن أقدامه للخطوة التالية . . وأنا أعلم أن هذا هو موطن الضعف الوحيد فى دفاعى ولكنى سأدافع عن نفسى حتى نهاية النهاية . .

فبراير ١٩٥٢

لمحات من حياة

«موجود عبد الموجود»

وملاحظتان



« الحاضر وقت مصلوب فوق الوقتين ، لأن
الماضى حدد مصير المستقبل وهو محاصر بينهما ،
لا يستطيع الفكاك من أيهما »

انطفأت الشمعتان : البنت وأمها ، زوجتى وعشيقتى ، لم يبق إلا المداس .

أنا مدرس فلسفة ، كنت طالب فلسفة ، منذ مدة طويلة. ولكن فلنبدأ القصة من آخرها .

أنا فى الغرفة وحدى ، غرفة واحدة وحيدة فوق سطح فسيح ينشر فيه السكان ملابسهم المغسولة على حبال امتدت بطوله فى غير نظام ، تتقاطع حيناً وتتوازى حيناً فتصنع المثلثات والمربعات . ليس فى غرفتى أثاث كثير : مقعد أجلس على قاعدته وأعلق « بدلتى » على مسنده ، منضدة للكتابة والأكل ، « كنبة » كان يجلس عليها ضيوفى نهاراً وأنام عليها ليلا ، كوب أشرب فيه أحياناً وأضع فيه أزهار البازلاء التى أحبها أحياناً . كل شىء مزدوج الفائدة فى غرفتى ، حتى الصحيفة التى يلقيها البائع كل صباح تحت عقب الباب أتتبع منها أخبار اتهامى ثم أجعل منها مفرشاً لمنضدتى . ولكن فلنبدأ القصة من آخرها .

يا رعبى من الليل ، يا لكآبة الليل ، ليس الليل فى أوائله ، مشكلتى مع الليل فى أواخره ، فأنا أهرب من خوفى فى أوائل الليل ، إذ يهبط على نوم ثقيل بعد تناول طعام العشاء مباشرة مهما كان خفيفاً ، كأنما تناولت مخدراً أكيد المفعول . غير أنى ما ألبث أن أكتشف أنى كنت ضحية خدعة سمجة ، إذ أصحو فزعاً فى الثالثة أو الرابعة صباحاً حيث يصبح صمت الليل أعلى من ضجيج النهار : نباح كلب ، نقيق ضفدع ، دقات ساعة ، أشياء تنكسر ، أقدام تدب ، وتوقع شر يوشك أن يقع ولا يقع لكنه سيقع . ويطوف بى هاجس أن ضع حدًّا وحلاً لما أنت فيه ، افتح نوافذ غرفتك — عندما يزدحم النهار بنور الشمس وتزدحم الساحة بخلق الله — لتعلن جريمتك . بل الأفضل أن أتسلل بلا ضجة إلى مركز الشرطة لأعترف . لكن بماذا عساى أن أعترف ، هل أعترف بأنى لست واثقاً على وجه يقينى أبداً بما أعترف ؟ لكن هل تراهم ينتظرون حتى أذهب بنفسى ، لعلهم قادمون ، وإلا فلماذا ينبح كلب وتدب قدم . ياالهول الأرق والقلق . الفجر خلاصى من عذابى ، صياح ديك ، شقشقة عصفور ، وينزاح كابوس الظلمة .

فى صباح يوم ما ، منذ زمن غائر فى الزمن ، كنت أهبط السلم فى طريقى إلى كليتى ، عندما ترامت إلى أنفى رائحة عفنة . ظننت أول الأمر أنها تنبعث من قط أو كلب ميت أو ربما من فأر ألقاه أطفال العمارة فى بئر السلم . غير أن اختفاء الشيخة مديحة منذ



أيام أثار ريبتى ، وهى التى كانت تملأ العمارة والحارة والحى كله حيوية وضجيجاً . عدت أصعد درجات السلم التى كنت قد هبطتها لأطرق باب شقتها ، غير أن أحداً لم يستجب لطرقاتى . عبثاً حاولت أن أدرك الحقيقة من خلال الباب المغلق : وضعت عينى فلم أر شيئاً ، أرهفت أذنى فلم أسمع شيئاً . أنفى فقط استطاع أن يلتقط رائحة أقرب إلى رائحة الجريمة . قررت أن أسرع إلى مركز الشرطة لأطلعهم على مخاوفى ، فقد كانت تربطنى بالشيخة مديحة – قبل أن تستشيخ منذ أسابيع – أكثر من صلة .

حين صارحتها أن عيون الناس مفتوحة ولا معنى من إلصاق تهمة نحن منها براء ، كان جوابها ضحكة كأنما قلت نكتة :

– لماذا لا تتزوج ؟

– ما زلت طالباً .

– ولا تملك نفقات زواج ؟

– ولا وقع اختيارى على عروس .

– العروس أمامك ، ونفقات الزواج مكفولة ، والمسكن مهيأ .

هكذا عرضت على الزواج لكن بابنتها . هذا رد مفحم على تقولات الناس ، هذا تفسير لا يخطر على بال إبليس نفسه لسر الزيارات المتبادلة ، وهو إزالة نهائية لمخاوفى . ما على إلا أن أهبط من غرفتى العلوية إلى شقتها زوجاً لابنتها أمام الناس وعشيقاً لها أمام الشيطان . يا للفراش الآثم ، يا لضحيتنا المسكينة ، يا للمجنونة تكتسحنى وتكتسح ابنتها أمام نزواتها .

وأنا سعيد بالعصفورين أردد نشيدى الفلسفى : أنا خائف إذن أنا موجود .

فى طريق عودتى مع الشرطة ، كان ثمة أمل أن تكون مخاوفى مجرد وهم ، فنجد الباب مفتوحاً والشيخة مديحة واقفة تصد الشرطة عن الدخول ، فوقوع أمر سيئ للشيخة مديحة سيسبب لى متاعب لا نهاية لها ، وسيوجه الاتهام أول ما يوجه إلىّ .

عندما استدعيت أمام المحقق كنت أرتجف رهبة . سردت موجز علاقتى بالشيخة مديحة منكراً ومستنكراً أية صلة آثمة لى بها . وكان بعض الشهود الفضوليين قد أطلعوا المحقق على احتمالات من هذا القبيل. اعترفت أنى دفعت لها ديناً علىّ ظهر الخميس .

— أى دين ؟

— دين اقترضته منها يوم زواجى بابنتها .

— كم أعطيتهـــا ؟

— جنيهين قسطاً أول .

أما معركتى معها فلم أشر إلى شىء منها . قطعة من مداس ابنتها كانت تستلقى بلونها الأحمر الباهت أمامنا على مكتب التحقيق . سألنى فجأة عن بقيتها ، أنكرت معرفتى بشىء عن مصيرها . لو ضيق علىّ لاعترفت على الفور ، فأنا لا أجيد الكذب ، هذه إحدى رذائلى ، ما أخفيه بلسانى تشى به انفعالاتى .

ولقد وقع ما كنت أخشاه : فالباب لا يزال مغلقاً ، وقد تجمع

الجيران أطفالا وسيدات أمامه يتشممون الحدث . وعندما اقتحم رجال الشرطة الشقة وجدوا بقايا الشيخة مديحة على فراشها تنبعث منها رائحة تزكم الأنوف . فهبط قلبي وتخلخت ركبتاى ، وشملنى دوار عنيف . غير أنى تماسكت ، لحت الجميع وقد سدوا أنوفهم بمناديلهم أو أصابعهم ففعلت مثلما يفعلون ، وتساءلت مثلما يتساءلون : أترى فى الأمر جريمة ، وإذا كانت هناك جريمة فن هم المتهمون ومن هم الشهود ، وهل ترانى سأكون شاهداً أو متهماً . وإذا اتهمت فإلى أى حد يصل اتهامى . هل تراه يصل إلى حد إدانتى ؟

فى الصيف السابق ، فى بداية العام الرابع والأخير لدراستى ، أقبلت مع سمسار أبحث عن غرفة تؤوينى . فى أول عام كنت كالتائه فى زحام القاهرة ، أقمت مع ابن عمى ، أتوكأ عليه وأنا أستكشف خفايا المدينة الكبيرة وأتعثر فى منحنياتها ، مزوداً بنصائح أبى ودعوات أمى وما يقتطعانه من قوتهما وقوت إخوتى . اكتشفت أن لهجتى ومخارج الحروف من فى تعرينى أمام زملائى وزميلاتى القاهريين . واكتشفت — لدهشتى — أن هؤلاء الزملاء والزميلات يتحركون معاً ببساطة وبلا حرج . تمنيت أن أفعل مثلما يفعلون . كان ينقصنى شيئان : موهبة أو دربة ، وقليل من المال . فانزويت وانطويت .

فى الصيف السابق تزوج ابن عمى ، عدت من قريتى فوجدت عروسه الحلوة القاهرية الصغيرة تحتل الشقة بأثاث لامع براق ، وقد كومت سريرى ومقعدى ومكتبى وكتبى فى ركن منزو . فخرجت

أبحث عن مكان يؤويني حتى عثرت على غرفتي .

في الصيف السابق اكتشفت أني من خلال ثقب الباب أستطيع أن أستعرض نساء العمارة المتواضعة وهن ينشرن الغسيل : ملابسهن وملابس أزواجهن وأطفالهن . في صباح كل جمعة كانت مديحة تنشر غسيلها . لاحظت أنها لا تنشر إلا ملابس نسائية ، ليس بينها ملابس رجال أو أطفال . كانت هذه هي معرفتي الثانية بها ، معرفتي الأولى كانت يوم اتفقت معها — وفي شقتها — على تأجير غرفتي . يومها لاحظت أنها في الأربعين وابنتها إلى جانبها في العشرين . لكن حين أقبلت تسألني عن غسيل لها مفقود بدت في الثلاثين . كانت تمضغ اللادن وتلفحني برائحة عطرة نفاذة ، ثوبها بسيط وإن كانت ألوانه زاهية ، ليس فيه تكلف الحشمة ولا خروج عليها ، كلماتها قلائل في جرأة وفي أدب ، ومع ذلك أحسست أن هناك دعوة خفية منها موجهة إليّ تنبعث من عطرها ولادنها وثوبها ومن جرأتها المؤدبة . في الليل — وأنا ما بين اليقظة والنوم — رأيتها تخطر أمامي على حين توارت زميلات تعودت أن أستعرضهن كلما انتابني أرق ذات ليلة .

في المرة التالية أطالت الوقوف في حين كانت ابنتها زينب تجمع الغسيل . استفسرت عما يضايقني فشكرتها ، وإن كنت بدأت أفكر فيما يضايقني أو قد ينقصني . تجربتي في القرية والبندر أولا ، ثم مع زملائي وزميلاتي في الكلية ، علمتني أن أتهيب الناس وأخشاهم ، لكني لا أتعلم . حاجتي إلى الآخرين تدفعني نحوهم ، وتشككي فيهم يدفعني عنهم .

زينب لم تكن في حيوية أمها ولا جاذبيتها ، وإن كان شبابها يفيض حلاوة هادئة . لاحظت أنها تغادر منزلها وتعود في فترات مختلفة من اليوم ، أحياناً ظهراً ، وأحياناً مساء ، وأحياناً تخرج ليلاً ولا تعود إلا صباحاً ، مما لم أستطع له تفسيراً : غير أني علمت فيما بعد أنها تعمل ممرضة في مستشفى . أمها قالت متبسطة في الحديث معي : لست أخشى عليها لا من المرضى ولا من الأصحاء أطباء كانوا أم ممرضين . فهي — مثل المرحوم أبيها — عواطفها هادئة ، أقصد جامدة خامدة . تصور أنها اجتازت مرحلة المراهقة كأنها جبل من الثلج . زوجها سيطمئن على شرفه تماماً دون أدنى مجهود من جانبه هئ . . هئ . هئ . . زينب ورثت أيضاً شكلها — كما ورثت طباعها — عن المرحوم والدها . منذ عشر سنوات مات وترك لي البنت وهذه العمارة نصيبي في الميراث والدنيا .

تصرفات البنت المتحفظة بدت لي كأنها احتجاج صامت على مرح الأم وانطلاقها ، لكن الإنسان المستأنس فيها يتحول إلى حيوان شرس إذا سمعت كلمة سوء عن أمها . سمعت صوتها يعلو أول مرة مع إحدى الساكنات وأنا أصعد السلم في طريقي إلى غرفتي فلم أصدق ما سمعت وما رأيت . حين علمت السبب تحققت مخاوفي . كانت تدافع عن سمعة أمها ، وتدافع — ويا للمفاجأة — عن سمعتي . سمعتها تلوك اسمي لأول مرة على لسانها فبدا كأنه اسمي وليس اسمي : موجود عبد الموجود .

إذن بدءوا يتقولون ، ولعلهم يتنبأون، فليس فى الأمر بعد شىء مما يظنون ، وأرجو ألا يكون . على أية حال هذا ما كنت أتوقعه وما كنت أخشاه ، ولقد صح توقعى ووقع ما أخشاه . حذرتها فما استمعت لتحذير ، جرأتها تخيفنى وتغرينى ، تقصينى وتدنينى . تهمة لها أساس وبلا أساس . زارتنى فى غرفتى ، زيارة بدت غير مقصودة ، وأنا أعلم أنها لا يمكن إلا أن تكون مقصودة . كانت فى الفجر قبل أن يطرق السطح طارق . . لكن مالى أخلى نفسى من المسئولية وكأنى طوردت ووقعت دون أن أسعى إلى ذلك سعياً أخفى من سعيها وأدق . فقد سبقتها ومررت بها أسألها عن رسائل قد تكون وصلت من البلد ، لكنى وجدت زينب بدلا منها . أجابتنى فى كلمات مقتضبة إن شيئاً لم يصل . غير أنى عاودت الكرة حين حل أول الشهر ، لا لأدفع الإيجار — فالنقود لم تصل بعد — بل لأعتذر لها عن عدم دفعه ، وأنا أرجو دعوتها وأخشاها . أخشى ما يتلو الدعوة من دعوات ، وما يتلو الدعوة من تقولات . وحين أعلنت لها أن عيون الناس مفتوحة ولا معنى من إلصاق تهمة نحن منها براء كان جوابها ضحكة كأنما قلت نكتة .

يا لهيبة الجسد النسائى ، أنا تلميذ قروى فى مدرسة البندر فى أول درس فى أول يوم . أنا طالب قادم من الأقاليم فى جامعة القاهرة فى أول لحظة فى أول يوم . على أن أعيش الإقدام والإحجام ، أن تعلم وأن أعتاد ، أن أكتسب شيئاً وأن تظل كامنة فىّ أشياء ،

كانت معلمتى قديرة خبيرة تستأنس الحيوان البرى الوجل . أسمع طرقات على الباب ، تفسد متعتنا ، لا أجد إلا الريح ، نواصل ما انقطع ، وأنا منزلق فى الكهوف السحرية ، أخفى خوفى فى مصدر خوفى .

البيت يطل على الساحة ، الساحة فيها مولد ، المولد فيه سبعون ألف إنسان ، لكل إنسان سبعون ألف يد ، بكل يد سبعون ألف مداس ، بكل مداس سبعون ألف شمعة . وهم يتمايلون وينشدون : عملنا المحظور ، وقع المقدور ، أنت الغفور .

فى ليلة الزفاف نقلت كتبى من الغرفة العلوية إلى شقة العروس ، واحتفظت بأثاثى المزدوج الفائدة فى الغرفة . قدمت لعروسى بضع هدايا متواضعة : زجاجة عطر وثوب ومداس قطيفى أحمر . المداس أرخصها وهو الذى نال — وياالدهشتى — إعجاباً كبيراً . احتضنته وقبلته ، والآن أدركت أية نبوءة مشئومة كان يحملها إعجابك ياعروسى . أما والدى فقد خشيت أن أبلغه .

للغرفة باب ، للباب ثقب ، للثقب مفتاح . كانت حريصة تغلق الباب وراءها بالمفتاح ، وكنت أكثر حرصاً فأبقى المفتاح فى الثقب يسده ويسد من ورائه عين زينب إذا أرادت تلصصاً . أين المهرب من عيون الناس . أغلقنا عيون الغرباء لنفتح عيون زينب .

زينب تعودت أن تحمل معها نسخة من مفتاح البيت لاختلاف مواعيد عملها . بعد الزواج استمرت على ما تعودت عليه حتى لا نوقظ

شكوكها "وهى التى وصلتها همسات الناس . ترك المفتاح ، مفتاح باب البيت معها ، خط دفاعنا الأول . ترك المفتاح ، مفتاح باب الغرفة فى ثقبه ، خط دفاعنا الثانى . نقط الضعف واضحة فى الدفاعين : من الأول تستطيع أن تتسلل ، من الثانى تستطيع أن تفجأ وتفجع .

المداس وجدناه عند باب الغرفة ، وعويل النساء وصراخ الأطفال فى أسفل الحارة . واللذة الآثمة تحشرجت ، والذعر . . إذن فقد ثقبت الباب بأذنيها ، رأت بهما ما حجبناه عن عينيها . فى التحقيق تبين أن زينب ألقت بنفسها من فوق السور ، سور السطح ، السطح الذى به غرفتى ، حافية القدمين ، جاحظة العينين . ولول الغرباء المزدحمون : هذا من هول الصدمة ، صدمة الوقوع من أعلى إلى أسفل .

سر المداس لم يعرفه أحد غيرى ومديحة . حاولت أن أضعه فى قدمى عروسى وهى جثة نودعها القبر ، غير أن أمها — وقد برقت عيناها بلمعان مخيف — أبت إلا أن تحتفظ به لنفسها . عندما أقبلت المعزيات مساء وجدنها تضم المداس إلى صدرها وتقبله .

فى اليوم التالى طردتنى من شقتها . كنت أنوى الانسحاب إلى غرفتى العلوية دون انتظار أية إشارة منها . عنفها روعنى وحجتها أدهشتنى :

— زوجتك ماتت وبقاؤك فى شقتى خلوة محرمة .

حسبت أنى أتلكأ فصاحت :

— أخرج بالحسنى وإلا استدعيت الشرطة .

وكما أنزلنى الخوف أصعدنى الخوف .

تعودت أن أمزق أوراقى أولا بأول ، خطابات والدى ، صورة المرحومتين زينب ووالدتها مديحة ، مذكرات أساتذتى ، حتى كتبى الدراسية والدفاتر التى أعد فيها دروسى لألقيها على طلبتى تخلصت منها ، فقد يكون فيها ما يدينى وأنا لا أدرى . غير أنى عثرت بمحض المصادفة على محاولة شعرية فلسفية أفلتت من التمزيق مع أنها تستحق الدمار ، لأنى أولا لا أعرف شيئاً عن أوزان الشعر ، ولأنها ثانياً لا تدل على أية موهبة . وأعتقد أنها لهذا السبب كانت المحاولة الأولى والأخيرة . أما تاريخ كتابتها فلا أذكره . على أية حال سأمزقها بل سأحرقها لتلحق بما سبقها .

فى ليالى المولد خرجت مديحة ، منفوشة الشعر ، مرقعة الجلباب ، حافية القدمين . فى كل يد وضعت مداساً ، فى كل مداس وضعت شمعة ، بكل شمعة أشعلت شعلة . ومضت تهمهم بكلام لا هو بالهمس ولا هو بالصياح : عملنا الآثام وعينك لا تنام ، فانتقمت يا رب الأنام شر انتقام . ثم تصرخ : رأيتكم . . . ضبطتكم . . . أنت وهو .

الغموض على شفا الوضوح ، السر يوشك أن يصبح فضيحة . كلما ولجت الحارة ، كلما صعدت العمارة ، قدمت قدماً وأخرت أخرى . انفض المولد والشيخة مديحة لا تزال تجوب الشوارع . فوق رأسها صينية ، فى الصينية المداسان ، فى المداسين الشمعتان ، بالشمعتين شعلتان . والناس فريقان : فريق كلما رأوها يتعجبون ويعجبون ، ويتهيبون ويتبركون . وفريق كلما رأونى — وبدون أن يرونى — يتقولون ويتهامسون .

مخاوف تركزت الآن فى المداسين ، فى لونهما الأحمر وملمسهما

القطيفى وما تبقى فيهما من رائحة القدمين وأصابع القدمين . رأيتهما فى منامى يتحركان — كأن إنسيًّا يضعهما فى قدميه — ويتجولان بحرية على جدران غرفتى ، وكلما بلغا سقفها سقطا فوق رأسى فأنفضهما بعيداً وأنا أنتفض خوفًا ليعاودا رحلتهما . استيقظت مفزوعًا لأكتشف أن البول احتبس فى مثانتى .

لو انتزعتهما لانتزعت سرى من هذه المرأة المجنونة ، تهددنى كلماتها كل يوم بما يفضح دون أن يفصح . هممت أكثر من مرة — عندما كان يتصادف لقاؤنا وأنا أخوض غبار الحارة صيفًا وأتدحرج على زلقها شتاء — أن أهجم عليها لأنتزعهما منها ، لكنى كنت أخاف خوفى ، فيصبح الغموض واضحًا والسر فاضحًا . لو كانت تتركهما فى شقتها لحظة لتسللت إليها وسرقتهما ، لكنها ما كانت تخرج إلا بهما ولا تعود إلا بهما .

ذات مساء طرقت بابها ، عندما لمحتنى جحظت عيناها وصوتها كالفحيح : إياك أن تقترب . . أنا أعرف لماذا جئت .

ثم أسرعت إلى كنبتها الممتدة فى الصالة حيث يرقد المداسان ، واختطفتهما واحتضنتهما وأنا أتصنع الهدوء ، محاولا أن أجعلها تهدأ بدورها وهى تسمع إجابتى :

— جئت أعلن تنازلى عن نصيبى فى الميراث .

— كذاب .

— وأعلن أنى عثرت على غرفة أخرى .

بوغتت لحظة ، ثم لوحت بالمداس وهى تقول :

— لن تهرب من عين الله .

أعادت المداس إلى حضنها وهى تحرص على أن تظل المسافة ثابتة بينى وبينها على حين كنت أقوم بدراسة الموقف وأنا أواصل حديثى :

— وجئت أسدد جزءاً مما علىّ من دين لك .

— ديونك كثيرة وأنت مفلس .

مددت يدى بالنقود ، فمدت يداً تتناولها بها وتشبثت الأخرى بفردتى المداس ، هذه فرصتى ، هذا المداس سرى وعدوى ، خوفى وهمى ، أنا الذى اشتريته وأنا الذى أهديته فهو منى وإلىّ . لماذا إذن يستولى عليه غيرى يهددنى به ويفضحنى .. دفعتنى فى صدرى بيد واستماتت بقبضتها الأخرى على المداسين . طالما قبلت هاتين اليدين رخصتين بضتين طريتين ، والآن نبتت لإحداهما مخالب لبؤة تدافع عن شبلها ، والأخرى لمحت ظهرها قريباً من عينى نافر العروق كأنما أراه من خلال مجهر ، قريباً من فمى حتى أغرانى أن أعضه بل أقضمه . لكن يبدو ألاّ سبيل إلى انتزاع كنزها المسحور من مجرد معركة محلية مع اليدين ولا سيما أن صراخها يوشك أن يفسد خطتى . اضرب الرأس تتراخ اليدان . هل مضت ثانية ؟ هل مضت ثانيتان ؟ المداس فى يدى ، سرى معى . أقفلت بابها خلفى وهرولت إلى غرفتى . كنت واثقاً أن أحداً لم يرنى لا على السلم ولا على السطح . وها هو ذا المداس الملعون أمامى أتأمله جيداً لأستوثق من وجوده معى . لكنني اكتشفت — ويا لهول ما اكتشفت — أن وجوده

كله لم يكن معى . كانت هناك قطعة صغيرة منه ـ من المداس الأيمن ومن الخلف من جهة الكعب على وجه التحديد ـ قد انتزعت حديثاً منه بلا رحمة . لا شك أننى أرغمت على تركها ـ دون أن أتنبه ـ فى قبضتها وأنا أهرول خائفاً فرحاً من شقتها ، حاسباً أن انتصارى عليها كان كاملا ، وأننى سلبتها نهائياً سلاحها ضدى . ولكن هاهى ذى ما تزال تحتفظ فى إغفاءتها بجزء من الكل الذى حسبته معى .

لمسته فبدا أقل نعومة، فبعض وبره قد نحل ، شممته فإذا برائحته الآن رائحة شمع ذائب أو محترق مختلط بعبق بخور أو عطور . لم يكن هناك وقت للتردد أو الاختيار ، علىّ الآن أن أتخلص من بقايا هذا العدو الملعون قبل أن تستيقظ المجنونة من نوبتها وتدهمنى مطالبة بما لا حق لها فيه . ولئن كان المداس فى يدها عدوًّا خطراً ، فهو الآن فى يدى عدو أخطر .

فى أثناء مرضى ظهرت فردتا المداس الحمراوان تطاردانى على جدران غرفتى من جديد . مرة فى الفجر وأخرى قبل حلول المساء . وبرغم أنى رأيتهما بوضوح شديد فى المرتين حتى إنى تأكدت من القطعة المنزوعة من الفردة اليمنى من الخلف ومن جهة الكعب تماماً ، إلا أننى أدركت أن هذا قد يكون من تأثير الحمى ، مجرد هذيان ، وعلىّ أن أتشبث بواقع غرفتى : جدرانها وبلاطها وسقفها ، المنضدة والكنبة والمقعد وكوب الماء . فقد خشيت أن أفقد صلتى بهذا العالم فلا أعود إليه أبداً .

يومها اكتشفت أنى اخترت السرطان مرضاً أخيف به نفسى وأخاف

منه على أحبائى . وكان اختيارى لهذا المرض لميزات ينفرد بها من دون جميع الأمراض . فهو يكاد يكون الداء الوحيد الذى لم يكتشف له الطب سبباً ولا علاجاً حتى اليوم ، وهو يصيب جميع الأعمار ، ويتسلل إلى الجسم فى أى مكان ، فكل ألم ، بل مجرد اضطراب بلا ألم ، قد يكون إنذاراً بطلائع هذا الداء الخبيث . أما آلامه — فى معظم حالاته — فهى أفظع الآلام وأهولها .

يومها تضاعف إحساسى بوحدتى ، يومها اكتشفت اكتشافين : أولهما أنى لا أهاب الموت ، وثانيهما أن عدم تهيب الموت لا يعنى — كما كنت أتصور — عدم تهيب ما قبل الموت . فلقد تضاعف خوفى من الألم ومن الحاجة ومن كرامتى أن تهان ، ولقد تماثلت يومها للشفاء سريعاً إلا أن شبح المرض لا يزال يرعبنى ، ويرعبنى منه أن يقودنى إلى عالم الأوهام والهذيان .

يومها اكتشفت أن مخاوفى امتدت لتشمل كل جوانب حياتى : خوف من أن يقعدنى مرض لا قيام منه ، أن يموت والدى أو والدتى ، أن يكتب عنى ناظرى أو مفتشى تقريراً سيئاً .

بعد تماثلى للشفاء اكتشفت أن الوهم فى مخاوفى تجاوز الواقع ، مرضت وشفيت ، تعرض والدى لحادث ثأر فى البلد ومنه نجا ، لم يسئ إلىّ ناظر ولا مفتش ، ومنذ أطلق المحقق سراحى منذ مدة طويلة ، ما استراب فىّ إنسان ولا استوقفنى ولا استجوبنى محقق . إذن فلأنفض الخوف ولأتحرك واثقاً مطمئناً ، يومها جرؤت وقمت بزيارة زميل فى بيته ،

وتناولت عشائى فى أرقى مطاعم المدينة ، وعند عودتى إلى غرفتى جرؤت وفتحت نوافذها ونزعت المفتاح من ثقب الباب ، واستغرقت — لأول مرة منذ سنوات طويلة — فى نوم عميق بلا أرق ولا قلق، يداعبنى ضوء القمر وينعشنى نسيم الليل .

غير أنه حدث بعد تماثلى للشفاء بحوالى أسبوع أن وصلتنى برقية تعلننى نبأ وفاة والدى فجأة وبلا مقدمات ، لحظتها أصابنى ندم عميق، أدركت أن خوفى عليه كان يحميه ، وأننى آثرت طمأنينتى وتخليت عن حمايته ، فأتحت للموت فرصته الذهبية ، غافلنى واختطفه منى ، هكذا عوقبت على طمأنينتى، ويومها أدركت أن مكافأتى على خوفى ألا يتحقق شىء مما أخاف منه ، فإذا تحقق كان وقعه أبسط بكثير مما ضخمته التوقعات والأوهام .

من يومها إذا اطمأننت خفت وإذا خفت اطمأننت ، إذا اطمأننت تشاءمت وإذا خفت احتميت وحميت . من يومها يقلقنى ألا أجد ما يقلقنى .

عندما ضربتها على رأسها وقعت وسط الصالة. عندما دخلت مع الشرطة كانت جثتها المتعفنة متكورة فوق الكنبة . النقود التى أخذتها منى ظهر الخميس لم تكن فى قبضتها ولا مبعثرة على الأرض . بعد أيام جاء تقرير الطبيب الشرعى يقرر أن الوفاة وقعت صباح الجمعة . من يومها وأنا أتحرك ما بين وسط الصالة والكنبة ، وما بين ظهر الخميس وصباح الجمعة . هذا مكانى وهذا زمانى .

لو ارتاب المحقق فى كلماتى لحظة واحدة لسردت عليه كل شيء، ولتركته يحدد بنفسه – على ضوء ما أمده به من وقائع – مدى اتهامى ومدى براءتى ، لكنى تركت كل شيء معلقاً فوق رأسى ، لا أنا برئ ولا أنا مدان . وهكذا أصبح يخيفنى ما يخفينى .

حين أختلف مع زميل أو رئيس لا أجرؤ على أن أدع الخلاف يمتد إلى نهايته فيصبح شجاراً أو قطيعة ، فمن يدرينى ، لعله اطلع بطريقة ما على سرى المقيت ، فيهتك فى لحظة ما بناه جدار الخوف يوماً بعد يوم ، ويهدم فوق رأسى ما حصنت به نفسى عشرات السنوات ، وينزع عنى وجهى المستعار الذى أفرزته كمحار القوقع . . كغطاء السلحفاة خلال تعاقب الليل والنهار ، وتوالى الثوانى والدقائق ، فيذيع أننى موضع شبهة لا شبهة فيها . لهذا ماألبث أن أتراجع قبل أن أوقظ شكوكه فينبش ماضى ليصيبنى فى مقتل . ما أزال أذكر الرعب الذى انتابنى حين اختلفت مع زميل ذات يوم ، ثم علمت أن له قريباً كان يسكن فى حارة الشيخة مديحة ، فمع أنه لم يشر أية إشارة فى أثناء خلافى معه إلى قضيتى ، ومع أنى اصطلحت معه فى اليوم التالى ، إلا أننى سعيت للنقل من تلك المدينة فى اليوم نفسه الذى تم فيه الصلح ، ولم أهدأ حتى نجح مسعاى .

يومها أدركت مدى ما وصل إليه ازدواج شخصيتى بسبب قضيتى ، وهو ازدواج بدت طلائعه السرطانية ذات لحظة مجهولة من تاريخ حياتى ، لعله يوم أخفيت نطقى الريفى عن زملائى القاهريين ، ولعله كان قد تمكن منى يوم هبطت من غرفتى إلى شقة الشيخة مديحة ، ولا شك أنه كان

قد استشرى يوم وقفت أمام المحقق فذكرت له نصف الوقائع وأخفيت وأنكرت نصفها الآخر ، وهأنذا اليوم أجدنى ضحية صراع مرير بين رأى لا أفعله وفعل لا أراه ، وخجل أكثر مرارة لأنى أظهر غير ما أبطن .

عندما زارتنى إحدى قريباتى ذات مساء ، وهى مطلقة تأمل فى الزواج منى (وكنت أفكر — قبل زواجها وطلاقها — فى الزواج منها) كانت تكشف عن مفاتنها فى دعوة سافرة لا غموض فيها حتى توهجت رغبتى ، غير أنى قبل أن أقطع نهاية الشوط إليها كان التوهج قد خمد وهى تنظر إلىّ — كما كنت أنظر إلى نفسى — فى حيرة وتساؤل . فقد بدا لى أنه لا يشغلنى عنها شاغل . وأننى سعيد بأن ألقى مثل هذا الاهتمام والتقدير من أنثى مشتهاة ، فلا أقل من أن أبادلها تقديراً بتقدير . أما هى فقد عالجت الموقف بلباقة فائقة فلم تبد أنها كانت تتوقع أكثر من هذا التقارب العاطفى الذى بدا فى الهمسات واللمسات ، غير أنى حين خلوت إلى نفسى أدركت أنه لا بد وأن تكون مديحة وزينب ومداسهما والذين يصرخون ويهمسون ويشيرون والمحقق . كل هؤلاء لا بد أنهم ترسبوا فى الطبقات الجيولوجية من أعماقى يمارسون من هناك — ودون ملل — طقوس إخصائى السحرية لأحرم من نشوة البذر وفرحة الحصاد . فتأكد لدى ما سبق أن أدركته : أن ما أرغب فيه لا أحققه وما أحققه لا أرغب فيه ، وبين الرغبة التى لا تتحقق والتحقق الذى لا أرغب فيه يسقط وجودى .

أما أخوف ما أخافه فهو نجاحى أو تفوقى . فى العام الماضى نجح

جميع طلبتي في جميع السنوات التي أقوم بالتدريس فيها . ولقد سعدت لتلاميذي ولنفسي ، غير أني ما لبثت أن اكتشفت أني ارتكبت جريمة كبرى ، عدها زملائي اعتداء شخصياً عليهم ، أقرباؤهم إليّ قبل غربائهم عني . لعلهم خشوا أن يقبل عليّ تلاميذهم يتلقون مني دروساً خاصة فأحرمهم من دخل إضافيّ لهم ، مع أني لا أعطي هذه الدروس إلا لأسباب ملحة وبطريقة غير منتظمة ومجاناً ، وكان هذا أيضاً مما يثيرهم . أرسلوا شكاوى إلى ناظر المدرسة ومدير المنطقة التعليمية ووزير التربية يتهمونني فيها بأنني أعطيت لتلاميذي أسئلة الامتحان قبل الامتحان. وعندما حقق معي تبين أني لست واضع الامتحان ولا علم لي بأسئلته . غير أن ما كنت أخشاه حقاً أن يحدق أحدهم في كثافات ماضيّ فيكتشف تهمتي في قضيتي فيقضي على قضاء مبرماً . من يومها تعلمت أنني يجب أن أظل في الظل ، وألا أكشف عن حماسي أو إخلاصي ما دمت لا أستطيع التخلي عنهما ، وأن أتمنى أن يرسب من تلاميذي تلميذ أو تلميذان إذا أردت أن أكون بمنجاة . غير أني أدركت يومها أيضاً — ولحزني الشديد — أن قضيتي ليست رهن إرادتي ، فقد ينجح كل تلاميذي على غير رغبتي ، فتبعث من جديد تهمتي . ومن يومها لم أعد أميز الخطأ من الصواب ، فقد أدركت أن غيري هو الذي يقرر لي — ودون أن أستطيع التنبؤ أبداً — ما أستحقه من ثواب أو عقاب .

عندما سمح لي المحقق بالانصراف لم أصدقه ، كانت نظراته كلها ريبة ... سيوهمني بالحرية ليحصل من تصرفاتي وحركاتي على ما يدينني ،

ولكن فلأكن أحرص منه ألف مرة ولا أحقق له ما يريد .

بقايا المداس ألقيتها — فى ليل ذلك الخميس وبعد أن حشوته بالحجارة— فى قاع المجرى القريب. قد يطفو فى أية لحظة فيطفو اتهامى، أو لعل صياداً ينتشله فيفتح محضر التحقيق من جديد لتثبت القرائن أن عنقى يستحق حبل المشنقة بغض النظر عن الحقيقة التى لا يعرفها أحد ولا حتى أنا .

ولقد حاولت أن أقتل هذه اللحظة من حياتى بمختلف الطرق ، لكننى اكتشفت أخيراً أننى لا أقتل إلا نفسى . اكتشفت مثلا أن معارفى فى تلك اللحظة يكونون جزءاً منها جيراناً كانوا أو أصدقاء أو أقرباء — مثل ابن عمى الذى كلف نفسه ووكل محامياً عنى فى أثناء التحقيق — فعزمت على تجنبهم نهائيًّا، فيعدوننى. ميتاً أو أعدهم ميتين ولقد نجحت فيما بدأت به لكنى فوجئت بما انتهيت إليه . فكلما تجنبت جاراً أوقريباً أو صديقاً أحسست أن جزءاً من وجودى تساقط ، حتى لا أكاد أتعرف اليوم على نفسى . معنى هذا أنى كلما حاولت الفرار فررت من نفسى دون أن أفر من مطاردى ، ودليلى على ذلك أنى نجحت سنوات طويلة فى تجنب كل من شاهد أوسمع هذه القضية فى حياتى ، غير أنى قابلت منذ أيام — ويا للرعب — محقق القديم ، ويبدو أنه أصبح قاضياً كبيراً سميناً . كان يجلس بأناقته وعطره فى صالون القطار أمامى . عندما لمحنى صاح بفرحة : هل من جديد فى قضية الشيخة مديحة ؟ حاولت أن أتوهم وأوهم الآخرين أن الحديث ليس

موجهاً إلىّ . غير أن نظراته كانت واضحة فاضحة لا سبيل إلى الفرار منها . فى هذه اللحظة اكتشفت أن وجودى مسجل على وجهى برغم ما نبت لى من شارب وما ابيض من شعيرات وما ارتسم من تجاعيد . همست بإيجاز شديد (تجنباً للفضيحة) : لا أعرف.

استطرد وكأنه يغنى :

— المهم الأدلة ، لا قيمة لما أنكرته فى أثناء التحقيق ولا حتى بما يمكن أن تعترف به . الاعتراف قد يكون منتزعاً ، وقد يكون بدافع التضحية إنقاذاً لشخص آخر . المتهم نفسه قد لا يستطيع أن يحدد بدقة — إذا أراد — ما ارتكبه وما لم يرتكبه . لهذا كان المحامى أهم من المتهم نفسه فى مصير أية قضية . المحامى يثبت أو ينفى الأدلة برغم أن المتهم هو شاهد نفسه الأول . المهم ...

فأكملت معه مردداً كأنما نحن فى جوقه :

— ... الأدلة .

جرؤت فسألته متخابثاً :

— إذن فهم لايزالون فى انتظار .. الأدلة .

أجابنى مستطرداً غناءه :

— ملفك باق ، وإن تغير المحقق والقاضى .

فى انتظار أية إضافة ، مهما امتد الزمان ونأت المسافة .

كنت أعلم إجابته قبل أن ينطق بها ، فقط كنت كمن يريد أن يتأكد من شىء يعرفه ، ومع ذلك فإن إجابته أرعبتنى ، لهذا — ولئلا

يغنى من جديد — قررت ألا أتقدم إليه بأى استفسار آخر ، لكنه أصر على مواصلة استجوابى : وإلى أين بإذن الله : فكرت لحظة أن أخفى ذلك عنه فأخفى جزءاً منى عنه ، لكننى خشيت أن تكون محطته بعد محطتى فيكتشف كذبى مما يؤدى بى إلى تهلكة محققة . لهذا لم يسعنى إلا الاعتراف بحقيقة وجهتى . بعد ذلك حاولت أن أتجنب الحديث معه غير أنه كان يرعبنى من حين لآخر بسؤال له علاقة — أو لا علاقة له — بقضيتى .

هجرت أصدقائى القدامى واستبدلت بهم صديقاً واحداً وحيداً يقف جداراً بينى وبين ماضى أحتمى به وأختفى فيه . غير أنى اكتشفت ذات يوم أنه يعرف محققى القديم ، فهو قريبه وجاره ، وقد يذكر اسمى أمامه على لسانه عرضاً كما ذكر اسمه أمامى فيسرد عليه قصتى محطماً ما حاولت أن أحتمى منه به ، وهكذا وقعت فيما حاولت الفرار منه ، فلولا صداقتى له ما كان محتملا أن يفلت لسانه باسمى . من يومها أدركت أنه بقدر ما يتعدد أصدقائى تتعدد احتمالات اتهامى ، فلست أدرى أيهم على صلة بمحققى القديم ، ولا أيهم موضع شبهة قديمة — مثلى — أو حديثة ، فيعرضنى — كما أعرضه — لمزيد من الشبهات . مما جعلنى أومن أن لا سبيل إلى الخلاص من أن تكون حياتى معاناتى ، ومجرد وجودى جوهر مأساتى .

وكان أعظم ما أربكنى حين رأى صديقى أن يكرمنى فقررت مقاطعته . فلقد دعانى ذات يوم إلى وليمة فى بيته ، وخلال حديثه فهمت

أن محققي القديم من بين مدعويه . وبينما كنت أرتجف هلعاً كان صديقي لا بد يظن أنني شديد الترحيب بما يتيحه لي من فرصة للتعرف على رجال ذوي نفوذ ، والتمتع بمشاهدة سيدات جميلات أنيقات ، وآنسات مرحات رشيقات ، أسكر بعبقهن وأنتشي بضحكاتهن . لهذا لم يفطن صديقي – وما كان يمكن له أن يفطن أبداً – إلى ما بدا على وجهي من كآبة سحيقة لا قرار لعمقها . ولشدة اضطرابي لم تواتني لباقة أو شجاعة للاعتذار . غير أني في موعد الحفل قلت لنفسي لابد أنك الآن مريض لا تستطيع تلبية دعوة صديقك . وهكذا قبعت في غرفتي مصمماً على أن أتجنب صديقي ما استطعت حتى لا يعرضني – عن طيب خاطر – لمأزق أشد خطورة . وإذا كنت قد نجحت في الإفلات هذه المرة فمن يدريني أنني مستطيعه في المرة القادمة . ولابد أن صديقي لم يجد تفسيراً لتصرفي مما أوقعه في الحيرة تماماً وربما لزمن طويل .

ذات يوم كنت أشرح درساً في علم النفس عندما فاجأني طالب يسألني : الحنين إلى رحم الأم أو الرغبة في العودة إلى المرحلة الجنينية (الصفحة الحادية والستون من الكتاب المقرر) دفاع عن النفس أم قضاء عليها ؟ ولئن تعودت أن أرتاب فيما يلقيه علي بعض الطلبة الخبثاء من أسئلة ، غير أن هذا السؤال – على غير العادة – أثار حزني العميق حتى كدت أبكي ولا سيما أنني لم أكن قد هيأت نفسي للإجابة عنه .

عندما جاء مفتشي ليكتب عني تقريره كان يضحك في ثقة . أعدت عليه سؤال الطالب :

— الحنين إلى رحم الأم ، دفاع عن النفس أم قضاء عليها ؟

اكتسى وجهه بالكآبة فجأة وهمس :

— انظر يا ابنى ، إنه دفاع عن النفس ، ينتهى بالقضاء عليها .

كان مفتشاً متعاطفاً متفهماً ، يختلف عن بقية المفتشين والنظار الذين عملت معهم ، لعله يتكلم من تجربة عاشها وليس من سطور فى الكتاب المقرر ، لهذا لم أهتم بما يكون قد كتبه فى التقرير عنى .

والآن ها هو ذا الليل يقبل فأشد رتاج نوافذى جيداً ، وأسد ثقب بابى بمفتاحه كما سددته قديماً . لا أتعلم ولا أعدل ، وأنام القرفصاء كما ينام الجنين فى بطن أمه ، ويا رعبى من الليل ، ومن كآبة الليل ، وياالهول الأرق والقلق فى غرفتى .

هى حصنى وهى مصيدتى ، أعرفها الآن بحواسى جميعها : ألوان جدرانها ونوافذها وبلاطها ، ما زال ثابتاً منها وما تغير . أركانها العنكبوتية تجاه السقف وأركانها الترابية تجاه الأرض . رائحتها عندما تظل مغلقة زمناً طويلا ، وعندما أطهو فيها طعامى ، وعندما أفتح دورة المياه الملحقة بها . حتى جدرانها السفلية أعرف مذاقها وملمسها : ملحية هشة بيضاء . ترق يوماً بعد يوم حتى ليفزعنى أن أجدها ذات صباح قد تآكلت تماماً ، فتنهار كل خططى من أساسها . أما أصواتها فإنى آلفها تماماً : أصوات خفية حذرة ، يرعبنى منها أن تنبعث من أماكن مجهولة ، تطمئننى محاولة تحديدها ، لعلها فأر يقضم بقايا طعام فى صفيحة القمامة ، أو لعله صرصار يمرح ويلهو فى دورة المياه .

وثمة أصوات أخرى بعيدة أو قريبة ، فوقها أو تحتها ، تتضخم فى هدأة الليل وظلمته ، قطان يتناجيان أو يتشاجنان، كلب ينبح ، قدم تدب ، أشياء تتكسر . وكما ألفت غرفتى فهى لابد قد ألفتنى بدورها ... دقات قلبى حين تعلو حتى لتشبه دقات طبل وحين تخفت حتى لتوشك أن تتوقف ، تنفسى حين يسرع وحين يبطئ ، وهى شاهدى على أرقى وقلقى ، وعلى أنى أدخلها عائداً من عملى فلا أغادرها إلا صباح اليوم التالى ، وعلى أنى لا أزور ولا أزار .

وهكذا — وفى سبيل الاحتفاظ بحريتى — صادرت حريتى ، فاعتقلت نفسى بنفسى ، عسانى أوفر جهد اعتقالى ، وشعارى بيدى أفضل من أن يكون بيد غيرى بل بقبضته ولكمته . .

ملاحظة :

قرأت بحكم دراستى — ومن باب الهواية أحياناً — بعض القصص. أما تعاملى مع الكتابة فمقصور على ما كان يطلبه منى الأساتذة ، وما كنت أكتبه من خطابات لوالدى رحمة الله عليه الآن . وفى مرحلة الدراسة الثانوية كنت أكتب موضوعات إنشائية مسجوعة فأحصل على درجات طيبة . لا أزال أذكر أول موضوع إنشائى من هذا النوع ، كان فى وصف حريق ، وكانت بدايته على ما أذكر على النحو التالى :

« فى ليلة اشتد حرها ، وعدم نورها ، سمعت أصوات استغاثة عالية من منازل دانية ، فخرجت وأنا مذعور ، وليس معى نور ، لا أعرف

ما الحادث وما سبب الكارث ، وإذا شرارة نار ، قد اشتعلت فى إحدى الديار ، فجعلته هو والأرض سواء ، بعد أن كان متصلا بعنان السماء .. » .

هذا إلى جانب قصيدتى الوحيدة الناقصة الوزن والموهبة . تلك هى كل خبرتى بعالم الكتابة ، لهذا فإنى وإن كنت صاحب القصة فلست كاتبها . كاتبها هو صاحب التوقيع فى نهاية هذه السطور ، فلست من الغباء بحيث أسجل على نفسى كلمات – وإن كان يمكن أن تدل على براءتى فهى يمكن أن تدل على إدانتى . لهذا أخفيت عمرى وعنوانى ، أما اسمى ومهنتى فقد زيفتهما . تلك منافذ شخصيتى سددتها كما سددت الثقب بالمفتاح قديماً . لست هاوى قصص ولا طالب مجد ، كل ما من شأنه أن يعلن عنى أتوجس منه ، قد يكون قرينة ضدى تضاف إلى سجلى ، فى الحفلات المدرسية يذهلنى زملاء يتسابقون إلى استعراض ذواتهم خطابة أو إشرافاً على نشاط تلاميذهم ، فأشير نحوهم مشفقاً : ها هم يقدمون الدليل ضد أنفسهم بأنفسهم ، هاهم يدينون أنفسهم بأنفسهم. لهذا أتعمد الجلوس فى الصفوف الخلفية ، وحين يأتى المصورون أحرص على أن أخفى وجهى خلف الجالس أو الجالسة أمامي ، حتى لا يسجل وجودى ويصبح دليلا ضدى يوما ما . غير أنى حين اطلعت على إحدى هذه الصور ، وجدتنى أخفيت وجهى بطريقة لا خفاء فيها ، بحيث إن كل من يراها يكتشف ما حاولت ألا يكتشفه ، فأدركت أنه إذا كان وجهى يعرضنى للاتهام فإن إخفاءه يعرضنى لاتهام أشد . لهذا اعتكفت بعيداً

يجد لنا سكناً . أما العمل فكان محلا صغيراً للبقالة . أما السكن فكان غرفة ، جمعتنا أنا وأبي وأمي وأختي الصغيرة سعدية وبقايا ما حملناه من كتب وأثاث . الغرفة طابق نصفه فوق الأرض ونصفه تحت الأرض ، نوافذه ضيقة ذات قضبان كأنها زنزانات ، تصلها بقايا ضوء الشمس ولا تصلها الشمس ، فكأن نهارنا غروب طويل ، وما يحمل الغروب من رطوبة لا دفء فيها .

فى هذا المكان تتلاصق الغرف ، فى الغرف تتلاصق أجساد الرجال وأجساد النساء كلما جمعتهم عتمة الليل فيتوالدون كالأرانب . وتتصادم الأهواء فيعلو الشجار ، وتتلامس الرغبات فيشتعل الجنس ، الصياح هو اللغة الوحيدة التى يعترف بها سكان هذا الطابق ، صياح لا يهم أن يكون فيه كلمات ، كأنما هناك مسافات بعيدة بين الرجل وزوجه ، وبين الابن وأبيه ، وبين السيدة وجاراتها .

ويبدو أن صاحب البناء — توفيراً لنقوده — قد جعل سقف طابقنا منخفضاً للغاية ، بحيث لابد أن ينحنى كل من يريد الدخول ، الأطفال وحدهم يستطيعون دخوله منتصبى القامة . فكنت ترى الرجال والنساء يزعقون ويضحكون ويتحركون وهم منحنون كأنهم أقواس أو أنصاف دوائر ، لهذا كانوا بمجرد دخولهم وانحناءتهم يرون أول ما يرون أقدامهم والأرض التى تحت أقدامهم . النوم هو فرصتهم الوحيدة لاعتدال قاماتهم من جديد . ومع ذلك فقد كانوا يفضلون — طلباً للدفء فى الشتاء — أن يحتفظوا بتقوسهم حتى فى أثناء النوم ، ولقد كان ذلك صعباً



علينا أول الأمر بسبب سمنتنا ، غير أننا ما لبثنا أن تعودناه . وكان فى الغرفة سرير ينام عليه والدى وأمى ، أما أنا وأختى فكنا ننام على حصير فوق الأرض ..

أمى ولدت ست مرات ، مات منهم أربعة ، ثلاثة قبل أن يتموا العام وواحدة قبل أن تتم العامين ، وبقيت أنا وأختى سعدية ، فى المرة السابعة ماتت أمى . حدث لها نزيف لم تعرف الداية كيف تجابه تحديه . بدأ ذلكِ فى المساء وانتهى فى الصباح ، ليلتها لم ينم جيراننا . فى الليل قدمت الجارات كل ما يستطعن من عطف وعون ... كلمة تشجيع ، قطعة قماش ، تأوهات ، طشت ، ملاية سرير ، صرخات . فى الصباح عندما علم الرجال أن الأمر قضى قدموا ما أمكنهم تدبيره من مال ليقرضوا أبى ما يستعين به على تكاليف الموت . الرجال الذين حملوا خشبتها تعبوا لبدانتها المفرطة ، قيل إنها كانت سبباً فى التعجيل بموتها ، بكاها أبى وبكتها أختى وبكيتها . بعدها بشهر كانت هناك عروس فى غرفتنا تحتل فى السرير مكان أمى .

لم تكن عواطف غريبة عنا . كانت من سكان إحدى الغرف المجاورة ، ثم انتقلت مع أسرتها إلى غرفة أقل أجراً بطابق آخر بحى مجاور . كانت فى العشرين ، وكان أبى يومها قد أشرف على الخمسين وبالرغم من أنى تقبلتها أول الأمر فى شىء من التحفظ إلا أنها حاولت أن تكون لطيفة معى ومع أختى ، كما أن حلاوتها أذابت كل مقاومة من جانبى ، فما مرت بضعة أسابيع حتى أقنعتنا أنه ما كان لغرفتنا

أن تستمر الحياة فيها بدونها . كما أننا قد عانينا خلال الشهر الذى أعقب وفاة أمى من اضطراب الأمور فى غرفتنا . كانت الجارات يغسلن لنا ملابسنا ، وأبى يشترى لنا الطعام من السوق ، أما الغرفة فتراكمت فيها الأوساخ . فلما أقبلت عواطف انتظم كل شىء من جديد، بل بدت الغرفة أكثر انتظاماً مما كانت عليه أيام أمى .

فى ذلك الوقت حصلت على الشهادة الإعدادية . حاول أبى أن يلحقنى بإحدى المدارس الصناعية الثانوية. قيل لنا فى كل مكان إنه لا مكان. مجموع درجاتى أقل من أن يسمح لى بمزاحمة غيرى . كل الفصول فى كل المدارس ازدحمت بمن استطاعوا أن يحصلوا على مجموع أكبر .

سمع أبى أن معهداً رياضياً ما تزال فيه بعض الأماكن الخالية ، لا يشترط فيمن يقبلهم مجموع الدرجات . سكرتير المعهد ما إن رآنى – ورأى والدى أيضاً – حتى أفهمنا عبث محاولتنا .

قال لأبى وهو يتأمل سمنتى باسماً :

– ليس لدينا إلا مكان واحد ، وابنك يحتاج إلى مكانين .

– لكن تمريناتكم قد تجعله يخلى مكاناً لآخر .

– بل عليه أن يقوم أولا بتدريبات ، فالنحافة شفيع الداخلين إلى معهدنا .

عدت أجر سمنتى خجلا منها ، كأننى أزحف أو أحبو . ثدياى كثديى امرأة ، كضرعى بقرة حلوب فى كوم غراب ، لحم بطنى كله

ثنيات ، إليتاى متهدلتان ، وثمة عرق لزج هلامى ينضح متلكئاً من كل ثنية ترهل .

انضممت لفورى إلى أحد النوادى فى مقابل اشتراك متواضع ، حيث أخذت أقوم بتدريبات شاقة ، عندما نحف جسمى كان موعد القبول قد انتهى ، أدركت أن طريق المدارس أغلق أمامى ، وعلىّ أن أبحث عن عمل .

أراد والدى أن يوفر على نفسه مهمة البحث عن عمل لى ، ورأى أن يلحقنى بمحل بقالته ، طرد العامل الذى كان يستخدمه ، اتهمه بمغالطته فى حساب الزبائن ، فلا مكان لكلينا .

فى أوائل كل شهر كان الناس يتزاحمون على البقالة ، بطاقات التموين وقد لوثتها يد ، والنقود وقد لوثتها اليد الأخرى ، فإذا اختفى صنف من السوق وتسامع الناس أن بقالة عبد الرسول بها بقايا منه تضاربوا وتدافعوا فى سبيل الحصول على الكمية كلها إن أمكن ، وينفد ما لدينا والناس ما يزالون يتضاربون .

كانت مهمتى فى ذلك الوقت أن أدفعهم بعيداً عن دكاننا حتى لا تنقلب بضاعتنا فوق رؤوسهم أو تمتد إليها فى خفية يد سارق .

علاقتى بوالدى كانت علاقة إعجاب وتهيب أكثر مما هى علاقة محبة ، كنت أعجب بشجاعته وأتهيبه لقسوته . كان قد هجر زعاماته الدينية ، فبقالته تأكل وقته صباح مساء . أحياناً كان يضطبنى أقرأ أو أكتب أغنية فيسخر منى قائلا : لماذا لم تفلح فى المدارس إذن ..

لماذا لا تأكل عيشك كما يأكله أهلك ؟ .. ومع ذلك أرسلت للإذاعة أغنية بعد أخرى دون أن أتلقى جواباً . كنت أحاول أن أكتب فى خفية عنه أغانى مثل تلك التى يكتبونها عن الحب والعذاب ، لكنها كانت أيضاً تعبر عن عاطفة مشبوبة بدأت تشتعل فى دمائى .

فى الليل عندما تجمعنا غرفتنا ، بعد أن تخفت الأضواء فى الغرف المجاورة ، وتخفت معها حدة الصيحات حتى تتحول إلى ما يشبه الهمسات بدأت أتنبه إلى أمور جديدة . كنت أسمع – وأنا ما بين اليقظة النوم – حركات وأصواتاً مريبة حيث يستلقى أبى وعروسه . أخذت أتنبه شيئاً فشيئاً إلى ما يحدث فى عالمهما وأنا أستقبله بمزيج من حب الاستطلاع والاشمئزاز واللذة .

فى الصيف فضلت النوم خارج الغرفة ، فى الردهة التى تطل عليها بقية الغرف ، فى الشتاء لم أحتمل البرد . عندما اكتمل العام ولدت عواطف طفلها الأول ، ولدته فى الظهيرة .

سخونة الشمس تلسع رأسى ، رأسى دب فيه الصلع ، حرارة الجو أذابت نضارة النساء ، تبخرت عطورهن ، فاحت رائحة العرق من تحت أباطهن ، لم يقبل أوتوبيس ثالث ، أسأل واحداً بجوارى عن الساعة فيجيب وهو ينفخ : الساعة مليون . سيدة تنقل طفلها من كتفها اليمنى إلى اليسرى ، ومن اليسرى إلى اليمنى كل دقيقتين بانتظام . عجوز يرفع عينيه ويحدق فى قرص الشمس ثم يسألنى عن رقم الأوتوبيس المقبل . ومن حين لآخر يخرج شخص عن الموقف

ــ متوكلا على الله ــ يرفع يده ويزعق : تاكسى . ويفتح باب التاكسى ..

في محل البقالة رفع أبي السكين يهم بضربي .

ــ ماذا تفعل يا ابن الكلب ، ماتزال تؤلف أغانى الغرام ، هل هذه آخر تربيتى ، أردتك أن تكون شيخ طريقة ، فلا تصبح إلا شيخ فساد .

تدخل الزبائن : اتركه يا معلم .. من أجل خاطرى .. كل الأولاد هكذا ..

ــ اتركونى أؤدبه.. المجرم .. حتى هنا لا تفلح ..

أفلت من أيدى الناس المتشابكة ، اختطفوا السكين من يده ، صفعنى على خدى أمامهم ، تهاوت بعض قطع الصابون . فكرت أن أقذف رأسه بواحدة منها . لم تكن المرة الأولى ، صممت أن تكون الأخيرة .

لم تكن الأخيرة . العثور على عمل آخر يستغرق وقتاً . أخيراً قادنى صديق إلى شركة النقل الداخلى . وقفت أمام الموظف المختص بقبول الطلبات ، تذكرت وقفتى أمام سكرتير المعهد الرياضى ، لم تعجبه هو أيضاً بدانتى ، الكثير منها ذاب الآن ، قال الرجل :

ــ سياراتنا مزدحمة ، أقصد شديدة الزحام ، لا تنقص أمثالك .. كيف تستطيع أن تنزلق بينهم . نريد محصلين مثل أعواد القصب ، وأنت .. أقرب إلى الفيل أو الدرفيل .. كه كه كه .

ضحكت مع الرجل حتى لا أبدو سميناً وسمجاً ، استأنف كلامه :

ـ شركتنا تحب الزحمة ، كلما ازدحمت أوتوبيساتنا زادت إيراداتها ، نحن نكافئ محصلينا .. ثمانية قروش جائزة إذا وصل الإيراد إلى عشرة جنيهات ، أربعة قروش عن كل جنيه بعد ذلك . جسمك سيحرمك من الجائزة والمكافأة .

استعطفته :

ـ أعدك ، سأضغط جسمي .

ـ لماذا تأكل كثيراً .. وفر يا أخى لغيرك .. كه كه كه

ـ كه كه كه .. تحسبنى مليونيراً .. أعدك لن آكل بعد اليوم .

ـ سأقبل أوراقك .. المهم أن تقنع الممتحنين يوم اختبار كشف الهيئة .

عدت إلى النادى الذى يبيع النحافة ، هناك وجدت عشرات غيرى كل منهم يقوم بتمرينات شاقة أملا فى أن يضغط جسمه قليلا فيحصل على مكان فى مدرسة أو مصلحة . التدريب كأنه تعذيب ، كان علىّ أن أنحنى وأعتدل ، أجلس وأقف وأتمدد ، أرفع يداً وأخفض أخرى ، أنبعج يميناً ويساراً ، أتقوس أماماً وخلفاً ، كأننى فى حلقة ذكر ، حتى ينضح عرقى غزيراً وألهث ككلب يعدو من وحش يزعجه .

أقللت من شرب الماء ، حرمت نفسى من نومة القيلولة ، اقتصرت على تناول وجبة واحدة فى اليوم . جسدى كحصان عمدتنا الجامح ، أروضه بل أذله عساه أن يقودنى وسط الزحمة .

ومع أننى لم أصل إلى شكل عود القصب أبداً إلا أننى أقنعت

ممتحنى يوم جلست أمامهم . غنيت لهم بعض ما ألفت بعد أن استعرت ألحان غيرى، ضحك أحدهم ، ابتسم الآخر ، هذا أول تقدير لأغانى ، وهكذا أصبحت محصلا بشركة النقل الداخلى .

فى زحام الأوتوبيس ظننت أنى فى إحدى غرف طابقنا الأرضى . السقف منخفض كسقف غرفتنا ، الناس يزدحمون على هيئة أقواس وأنصاف دوائر كما يزدحمون فى طابقنا . أجسام الرجال وأجسام النساء تنضغط فيتوهج الجنس ، الداخلون والخارجون يتصادمون ، يدوس بعضهم بعضاً فيعلو الشجار . يركز الواحد منهم كل تفكيره على مقعد قد يخلو ، هذا الاحتمال يصبح أهم ما يشغل فكره فى العالم كأنما عليه يتوقف مصيره .

– تسمحى يا هانم أفوت .

– تفضل .. من منعك .

– أنت أمامى .. كيف أتفضل ؟

– فاكر نفسك فى الهيلتون ... نحن فى أتوبيس .

– الحق على .

– فاكر نفسه فى الهيلتون ، قال تسمحى قال .

– لا يعجبها أن يتفاداها الرجل ، الحق عليه فعلا .

– ربما لها مزاج .

ها ها ها .. هو هو هو ..

ـ آه قدمى .

ـ إذا كنا نعانى من الزحمة الآن على هذا النحو ، ماذا يفعل أولادنا إذن .

ـ هذه حكمة عدم زواجى .

ـ بل حكمة الزحمة ، تعالج نفسها بنفسها ، تضايق الخلق فلا ينجبون .

ـ هذا أفضل من الأوبئة والمجاعات والحروب .

ـ الزحمة حرب ... كلما نظرت إلى أطفالى أشفقت على مستقبلهم .

ـ بعد بضع سنوات لن يجد الناس مكاناً على الأرض إلا واقفين متلاصقين .

ـ النكتة أن الزحمة نتيجة التقدم الطبى ، وتغلغل الأطباء فى الريف ، نعمة ولدت نقمة ، من يصدق ؟

ـ آه رأسى اصطدم بالسقف .

فى الدرجة الثانية صوت نسائى يقول فى غضب وحزم :

ـ تسمح تبعد .

ـ الزحمة لا تعجبك .. خذى تاكسى .

ـ أنت قليل الأدب .

ـ ما قليل الأدب غيرك .

ـ يا جماعة كلها دقيقتان .. صبركم .

— وحدوا الله يا جدعان .

بقيت دقيقتان على موعد نوبتى ، سينتظرنى أوتوبيسى حتى يزدحم بالراكبين فيزعقون على مفتش الحركة ، ويخصمون أجر يوم . لم أعد أحتمل الوقوف . مفاصلى تلتهب .

ذات صباح شكا أبى من مفاصله ، من ركبته اليمنى على وجه التحديد . فى المساء عاد يشكو من ركبته الأخرى ومن سخونة فى جسده . كان يتصبب عرقاً كرائحة الخل . ابتلع قرص أسبيرين ونام . فى الصباح رفض أن يستريح . قلت له : استرح يا أبى ، ستذهب عواطف إلى البقالة . برقت عيناه كالوحش وصاح : أنا أعلم ، تريد أن ترثنى وأنا حى .

— بل صدقنى أريدك أن تستريح .. أنا خائف عليك . خرجت فى الصباح ومفصل يؤلمك ، عدت فى المساء بمفصلين ..

قام يحاول الهجوم على وهو ثائر يصيح : تريد أن تبيع الدكان لتشترى به ورقاً وأقلاماً ، أنا أعرفك . عواطف لن تخرج من هنا .

سكان الغرف المجاورة أقبلوا — كعادتهم — حباً فى الاستطلاع ووساطة فى الخير . فضوا ما بيننا .

ذهب إلى عمله ، قوياً كالوحش ، مستعداً أن يقاوم الموت . فجأة رقد ، لا يحتمل أحداً أن يلمس جزءاً من جسده . تورمت مفاصله انتفخت بالماء ، قال الطبيب إن المرض وصل القلب . هزه السعال والتقيؤ . كلما سعل أحس أحشاءه تتمزق فتتمزق معه روحى . ونظرات

الرعب فى عينيه لا تمحى من عينى .

فى الليل بعد أن دفناه ، بعد أن انفض مجلس المعزين والمعزيات ، بعد أن بكت أختى سعدية وعادت إلى بيت زوجها ، بعد أن بكى إخوتى من عواطف وناموا ، كانت عواطف ماتزال تبكى . لم أستطع أن أذرف دمعة واحدة ، على حين ارتفع فى داخلى نشيج صامت يقطر مرارة .

أدركت أننى ورثت أبى حقاً ، الأفواه الصغيرة التى تركها لى ، بقايا كتبه وبضاعته ، دكانه وعواطف أيضاً . حاولت أن أسكنها ، أن أعزيها وأنا فى حاجة إلى من يعزينى . ثياب الحداد السوداء كشفت عن بياض بشرتها ، لم أتنبه من قبل إلى بياض بشرتها على هذا النحو الناصع ولا إلى نعومته الحريرية .

فى الليل التالية لموت أبى اكتشفت أن أنفها جميل ، أدركت أن الأنف مسئول عن جمال الوجه أو قبحه ، الأنف مركز الوجه ، إذا كان ضخماً أو طويلا أو أفطس ألقى بظلال قبحه على ما يحيط به . أنفها دقيق أشاع الحلاوة فيما حوله .. فى شفتيها ، فى ذقنها ، فى عينيها حتى تمنيت أن أقبله ، أن أقبل فقط طرف أنفها ، كتبت هذا فى الأغنية.

فى الليل حلمت أنى أحمل أبى وهو يئن من آلامه ، كان ثقيلا لبدانته ، وكنت أنا قد أصبحت نحيفاً . وقعت وأوقعته معى على الأرض . سمعت أنينه وهو يصيح فى حزن : لماذا توقعنى .. يا جبار يا قاسى . فى تلك اللحظة كنت أذوب حناناً وعطفاً عليه ، وأنا أرى آلامه

تتضاعف بسببي . صحوت مترعجاً لأرى عواطف راقدة فى سرير أبى تتنفس فى هدوء وقد تعرى جزء منها أكثر بياضاً ونعومة مما اكتشفته أمس ، فاقتربت أغطيه فى حنان وأنا أحس الدفء يشع منها .

فى الليالى التالية تعمدت ألا أعود مبكراً ، لا أعود إلا بعد أن تكون عواطف قد نامت . طلبت أن تكون نوبتى ليلية ، كنت أفضل هذه النوبات حيث يخف الزحام قليلا .

فى ليلة الأربعين كان على أن أكون بجانب عواطف أستقبل المعزين ، فى تلك الليلة اكتشفت صوتها ، كيف لم أكتشفه إلا الليلة ، نطقها المتكسر كأنه نداء ، فيه بحة كأنه رغبة ، ليلتها لم أنم بعيداً عنها ، لم يفصل بينى وبينها إخوتى ، بل نمت تحت سريرها مباشرة . كان هذا فى أول الليل . غير أنه حدث فى منتصفه أن وجدت نفسى أرقد حيث أبى كان يرقد . فى تلك اللحظة اكتشفت قدميها . اكتشفت أصابع قدميها ، اكتشفت أظافر أصابع قدميها . كنا مجنونين رغبة . ثم غفت فغفوت .

وجدت نفسى فى المولد ، المولد فى أوتوبيس ، ثمة موكب يتجه نحوى ، يقترب منى ، احتشد فيه الناس وهم يذكرون ويكبرون حاملين أعلامهم ومشاعلهم وطبولهم يتقدمهم أبى على حصان كبير من الحلوى لابساً طرطوراً شاهراً سيفه ، حوافر حصانه تطرؤنى وسيفه يضربنى ، من خلفه يتدافع الناس كما يتدافعون لأخذ تموينهم من البقالة ، كما يتدافعون لركوب الأوتوبيس قبل أن ينزل ركابه .. يتدافعون

ويدوسونى وأنا أصرخ ولا صوت يخرج، فقد امتلأ فى بالتراب . كنت أنضغط تحت حوافرهم وهم يدوسون مفاصل جسدى مفصلا مفصلا ، حتى ضاع دفتر التذاكر وتبعثرت نقود محفظتى ، وأنا أتشبث عبثاً ببقاياها .. آه سيطردونى من عملى . لم يبق بينى وبين موعد نوبتى غير ثلث دقيقة . أحذيتهم وأقدامهم ماتزال آثارها داخل مفاصلى، داخل ركبتى اليمنى على وجه التحديد ماتزال آثار ضربة من سيف أبى ... جسمى يغمره عرق رائحته كرائحة الخل . سيزحف المرض على قلبى .

أنا فتحى عبد الرسول ، محصل وشاعر وعاشق ، نحن فى الغرفة جميعاً ، ابنها الأكبر بدأ يتنبه . يصحو فى الليل كأنما يريد أن يشرب من القلة، ينظر نحونا، أنا قد ابتعدت ، لعله يريدها له، أشك فى نواياه.

– ماذا تفعل يا سعيد .

– إيه .. أشرب .

– تشرب .

وتصحو عواطف وهى تقول :

– الدنيا ليل .. الحيطان لها آذان ... أخزوا الشيطان .

– لكن ما علاقة هذا الولد بك .

– تقصد ابنى سعيد .. هل أنت مجنون .

– لست مجنوناً .. لماذا يقوم كل ليلة .

– يريد أن يشرب أو يتبول .

– بل أعرف ماذا يريد .

صفعت سعيد على وجهه ، صرخت أمه ، استيقظ الجيران ، عواطف تصرخ :

— ابعدوا عنى المجنون ، ابعدوا عنى المجنون .

فى الفجر لمحت والدى فى ركن الغرفة يرتدى بذلة مفتش فى شركتنا وقد جلس متربعاً وهو يتمايل يميناً ويساراً ، المانوفستو بيده ينشد منه :

آه يا جبار يا قاسى .. أنا أبوك يا ناسى .

ظل يردد نشيده كأنه فى حلقة ذكر حتى تذكرت الفاتحة ، رددتها اختفى . غير أنه عاد فيما بعد . كان لا يعود إلا فى الفجر أولا ، ثم تعددت زياراته فى كل وقت .

فى زحام الأوتوبيس عادوتنى نوبات الكآبة والنهيب وأنا منحن أقطع التذاكر حتى لأفقد كل رغبة فى الحياة ، لا أحتفظ إلا بالقليل الضرورى لاستمرارها . أفقد شهيتى للطعام والنوم كما أفقد عواطفى نحو عواطف بل قدرتى على تأليف الأغانى .

— تذكرتك يا هانم .

— دقيقة .. آه كيس نقودى ، كيسي ، أين كيسى .

— نشله النشالون ... نشالون .. لون .

— أوقف الأوتوبيس .

— عندنا مواعيد .

— فتش الركاب .

— ولد صغير كان يقف بجوارها ، قفز من محطتين سابقتين .

ــ كان فيه كثير ؟

ــ عوضك على الله يا هانم .

السيدة تلعن الزحمة على حين يتحسس كل راكب جيبه .

ــ أنت دفعت كم ؟

ــ خمسة قروش .

ــ وأخذت الباقى كم .

ــ تسعة قروش .

ــ هل هذا باقى مبلغك .

ــ هل أعرف ثمن التذكرة فى أوتوبيسكم .

ها ها ها ... هى هى هى ... هو هو هو ...

أريد أن أشم رائحة الخضرة، أن أتنفس ضوء القمر وهو ينتشر على حقول غطتها عيدان الذرة . لم أعد أشم إلا رائحة العرق والأنفاس . فى الليل يختنق ضوء القمر تحت زحمة البيوت ، طردوا القمر من المدينة . هذا كان فى الأغنية .

أشرفت عواطف على محل البقالة . كانت تخرج فى الصباح ولا تعود إلا فى الليل . فاجأتها أكثر من مرة لعل زبوناً يغازلها . الزحام اشتد على البقالة عن ذى قبل . وجدت سعيداً يساعدها بعد عودته من المدرسة . لم تعطنى نصيبى مما تربحه ، أريد أن أقضم أنفها . وجه أبى يقف بينى وبينه .

ماذا يفعل هذا الولد عندك ؟

ـ يساعدنى كما كنت تساعد أباك .

ـ بل يأكل نصيبى .

ـ نصيبك يأكله إخوتك .

ـ إذن آكل أنفك .

ـ يكفيك أجرك .

ـ يكفينى طرف أنفك .

ـ ليس لك نصيب .

ـ أنفك نصيبى .

ـ آه ... ماذا تفعل .

هجمت عليها ، التفت أصابعى بشعرها ، التصقت به ، تشبثت به ، حاولت أن أرفع وجهها لأقضم أنفها ، فوجئت بطعم الدم . لسانى يلعقه . لمحت ـ من خلال المعركة ـ أنفها الجريح ، غير أنى لم أفلح فى انتزاع قطعة منه ، ولا حتى مجرد قطعة صغيرة صغيرة . خمشت وجهى بأظافرها وهى تولول . ضربت رأسها فى حائط الدكان . تجمع الناس ثم تزاحموا كما يتزاحمون فى الأتوبيس ، ضغطونى بينهم . قلت لهم إنها لا تريد أن تدفع ثمن تذكرتها ، يجب أن تنزل فى المحطة التالية .. أين تذاكركم ، أنا أعرفكم ، كلكم تحتمون فى الزحمة حتى لا تدفعوا .. لكنى أميز جيداً بين الوجه الذى دفع والقفا الذى لم يدفع .

دفعتنا الزحمة إلى مركز الشرطة ، قالت لهم إنى مجنون واستشهدت بأنفها المقضوم . طلبت حمايتها منى والكشف على عقلى . كتب الشاويش

المحضر ، فى المحضر كتب اسمى وعنوانى وعمرى وعملى .

من يومها أدركت أنهم قد يقبلون فى أية لحظة ، ليلبسونى قميص الكتاف ثم يأخذوننى .

منذ زمن بعيد كنت أسير متكوراً مادام على أن أنحنى كالقوس داخل غرفتى ، وكالقوس داخل أتوبيسات شركتنا ، فقد وفرت على نفسى جهد الاعتدال ما بين المكانين ، ووجدت فى هذا التكور ما قد يخفينى عن أعينهم .

كنت أحاول الاختفاء عنهم وأستعد فى الوقت نفسه لاستقبالهم . فى كل مرة أتسلم أجرى أقول : هذا آخر أجر لك قبل أن ينقلوك ، فى كل مرة أحلق شعر رأسى أو ذقنى أقول : هذه آخر مرة تحلق فيها قبل أن يأخذوك ، فى كل مرة أستحم فيها أقول : هذه آخر مرة تستحم فيها قبل أن يلبسوك قميص المجانين .

ــ تذاكر .

ــ مصلحة .

ــ تسمح .

ويخرج الرجل بطاقة تثبت أنه خارج من مستشفى الأمراض العقلية ، أسأله لماذا لا يريد أن يدفع ، يضحك قائلا :

ــ يا سلام ... نحن واحد .

هى هى هى ... هو هو هو .. أنا فتحى عبد الرسول ، محصل وشاعر وعاشق ومجنون ، ألفت أغنية عن الزحمة ، طبيبى لا يصدق أنى مؤلفها .

نشرة الأخبار



كانت حارتنا الصغيرة تضج بخليط الأصوات المتنافسة، فقد كان فيها – حتى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثين من مساء ذلك اليوم– منزل من طبقتين ، بكل طبقة شقتان . وكان فتحى عبد الحميد طلاء الأثاث بالمغربلين قد أقام حفلة عرسه على سطح ذلك المنزل ووضع مكبراً للصوت تلعلع منه الأغانى والمونولوجات ، وقد استحال سطح المنزل إلى شعلة مزينة بالأنوار الملونة مما أضاء حارتنا على غير عادتها ، وأضفى عليها بهجة وأنساً لم تعرفها منذ زمن بعيد ، فانتشرت الأضواء والظلال بنسب متفاوتة فى زوايا حارتنا وفى مرتفعاتها ومنخفضاتها كما تسلق الضوء والظل جدران منازلنا .

وفى الطبقة السفلى أقامت جمعية الأسرار الكونية حفل تأبين لرئيسها السابق المرحوم محمد مفتاح محمد طبلية ، وقد جلس المقرئ أمام مكبر آخر يقرأ ما تيسر من آى الذكر الحكيم . أما فى المقلى التى يقصدها أطفال حارتنا لشراء اللب والحمص فكانت أم سيد قد فتحت مذياعها ليذيع نشرة الأخبار بأعلى صوت كأنما هى وجميع سكان الحارة قد أوشكوا أن يصابوا بالصمم..

وكانت العروس ابنة عم العريس ، لهذا فمنذ الصباح الباكر بدأ الأقارب يفدون إلى المنزل . وما إن بلغت الساعة الثامنة والنصف مساء حتى كان سطح «العمارة» وإحدى شقتى الطبقة الثانية بها يموجان بالخلق

الكثير . وكان الرجال يدخلون الشقة حيث كان الشيخ حسانين مبروك مأذون الحى يكتب عقد القران . فتلا الأحاديث النبوية عن الزواج ، وذكر الحديث الشريف : « تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة» ثم طلب منديلا من العريس وضعه على يده ويد صهره والد العروس ، وتلا عليهما الصيغة الشرعية لعقد الزواج ، ثم بدأ يحرر قسائم الزواج فأعطى العريس القلم حيث وقع عليها ثم أخذه منه وقدمه لوالد العروس ليوقع هو الآخر .

وكان كل ما يرتديه العريس فى هذه الليلة جديداً ، ملابسه الداخلية والخارجية على السواء ، وكان يضع قدميه فى جورب وحذاء جديدين ، غير أن الحذاء — لسوء الحظ — كان حذاء ضيقاً ، وكان يضع قدميه فيه منذ ساعات ، بيد أنه كلما مر الوقت ازداد إحساسه بالألم ولاسيما أصابع قدمه اليمنى ، وعندما كان يوقع قسائم العقد الثلاث كان الألم قد بدأ ينتقل من أطراف هذه القدم إلى بقية جسمه وروحه وهو يفكر فى طريقة يتخلص بها من هذا الألم الفظيع الذى يفسد عليه البهجة فى ليلة العمر .

أما النسوة فكن يصعدن إلى السطح حيث تستقبلهن فرقة العوالم ، والعروس فى الكوشة وحولها صديقاتها العذارى . وقد جذب نظرها — فجأة وعلى الرغم منها — شهاب مندفع يسقط مشتعلا بين السماء والأرض فابتعدت لحظة — بل هنيهة من اللحظة — عن ضجة العرس الخارجية وعن هواجس نفسها الداخلية مما هى مقبلة عليه فى ليلتها تلك ، وعبرت

ببصرها سريعاً صفحة السماء الصافية ونجومها المتناثرة لترتد من جديد إلى ما كانت فيه .

وفى اللحظة نفسها – وأمامها على السطح – كانت الراقصة زوايد ترقص أمام مائتى سيدة ورجل وطفل ، وبدلة الرقص تغطى نصف جسدها لتكشف عن النصف الآخر . وكل جزء من لحمها – ومن بدلة الرقص – يهتز كأنه قطعة منفصلة .. والمتفرجون يهتزون .. والسطح يهتز .. تحت وطأة جسدها .. ووطأة قدميها .. ووطأة التصفيق المنتظم .. يذيعه مكبر الصوت ليعلن إعجاب الجمهور ومشاركته ، على حين كان مقرئ جمعية الأسرار الإلهية يتلو الآية الكريمة .. « وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » . أما راديو أم سيد فكان يذيع ملخصاً لأنباء النشرة وفى أوله ، إنه تم بنجاح إطلاق أول قمر صناعى يدور حول الأرض فى ساعة وخمس وثلاثين دقيقة ، ويقطع المسافة من موسكو إلى نيويورك فى ست عشرة دقيقة ..

وصعدت الست أم خليل الساكنة بالشقة الأخرى بالطبقة الثانية لتعلن أمراً خطيراً لم يأبه له أحد ، فقد أبلغت أم العريس أن الأتربة تنهال عليها من سقف غرفتها وتخشى أن يحدث مكروه للمنزل وساكنيه ومدعويه . لكن الحاجة فاطمة والدة العريس استنكرت هذا التحذير . فالست أم خليل كثيرة الكلام طويلة اللسان ، لم يدعها أحد لحضور العرس لسلاطة لسانها الذى أطلقته فى العريس والعروس معاً ، وهى حاقدة تريد أن تخيف المدعوين وتفسد الليلة بهذا الكلام الفارغ ، فتركتها

تصرخ حتى غادرت المكان .

وكان أهل حارتنا يعرفون أن صاحب المنزل قد سبق أن نبه إلى ما نبهت إليه أم خليل ، وكان ذلك منذ شهور . ولكنهم ظنوها حيلة يريد بها أن يخرج سكانه ليؤجره لآخرين بإيجار أفضل ، ويومها انبرت له أم خليل ثائرة لهذا الطلب ، وأصرت ألا تترك شقتها حتى لو ترك الآخرون المنزل ، وأقسمت بالله ثلاثاً أنها لن تغادره إلا إذا تهدم فوق رأسها لتشيع منه إلى المقبرة .

وهبطت أم خليل إلى شقتها الصغيرة لتوقظ زوجها وابنها ، لكن زوجها لم يأبه هو الآخر بتحذيرها ، وتمتم وهو بين النوم واليقظة : بلا كلام فارغ يا وليه ، يقع إيه ! ويتهد إيه ! أنت نسيتى حلفانك ، سيبينى أنام وأرتاح » . وكان ابنه خليل — وهو فى الثالثة من عمره — ينام بجواره ، فاقترب منه واحتضنه .

والواقع أن أم خليل كانت سيدة شجاعة ، فلاشك أن تحذيرها لأصحاب العرس بالرغم مما بينها وبينهم من جفاء، وبالرغم من قسمها الذى ارتبطت به أمامهم كان يحتاج إلى شجاعة . لكن عدم اكتراثهم لتحذيرها جعلها تشك فيما ساورها من قلق ، وتغلبت عليها من جديد حجج تدعوها إلى البقاء ، فإلى أين تذهب إن خرجت هى وزجها وابنها فى هذا الوقت من الليل ، وأين يجدون شقة من غرفتين كاملتين غير دورة المياه — بثمانين قرشاً فى الشهر ، إيجار قديم قبل الحرب ؟ وعندما ذهبت إلى المكان الذى كانت الأتربة تتساقط منه لتحسم

ترددها وجدت أنها الآن أقل تساقطاً . لهذا قررت أن تذهب إلى أم سيد صاحبة المقلى تستشيرها فيما تفعل ، فهى صديقتها الوحيدة فى حارتنا .

وعندما اقتربت من المقلى كان الراديو يذيع أن شاباً أمريكياً احتج على الحكومة السوفييتية لاعتدائها على حقوقه المشروعة فى الفضاء الجوى الذى يملكه ، وكان هذا الشاب قد احتفل بتسجيل دولته « سلستيا » فى مكتب شيكاغو . ثم أعلن المذيع فى خبر آخر أن موسم انهيار المنازل فى مصر يبدأ عادة بعد موسم الفيضان ، لأن مياهه تتسرب تحت الأرض تأكل من جدران المنازل عاماً بعد عام حتى تستسلم وتنهار ، وفى تقدير المسئولين أن المنازل المهددة بالسقوط فى القاهرة وحدها تبلغ حوالى اثنين وأربعين ألف منزل .

أما مقرئ جمعية الأسرار الكونية فكان يستريح قليلا ليستأنف تلاوته من جديد . .

وفى الشقة المواجهة ، كان شلبى شلباية — العامل بمصلحة التنظيم والذى بلغ الثانية والعشرين أمس وتزوج منذ أربعة أشهر — فقد قرر ألا يبيت فى منزله الليلة ، فقد كانت زوجه الحامل فى ثلاثة أشهر ، غاضبة منه لأنه لا يعطيها ما يكفيها لمصروف المنزل . فتركته وقصدت منزل والدها . وكان ينوى الذهاب إليها الليلة ليصالحها ويقضى الليل معها — فقد تركته منذ يومين — ثم يعودان إلى منزلهما غداً فهو يوم عطلة رسمية . غير أنه أجل الموعد إلى اليوم التالى رغبة منه فى الاشتراك فى العرس . ولكنه — وقبل أن يوغل الليل — وجد نفسه مرهقاً بسبب عمله

بالمصلحة ، ففكر أن ينام ولو ساعة واحدة تعيد إليه نشاطه ، فإذا به يستغرق فى سبات عميق .

وفى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثين شوهدت أفاريز النوافذ فى المنزل الممتلئ بالضوء والضجيج وهى تتحرك وتتزحزح ، والجدران وهى تتمايل وتتشقق ، على حين تحطم زجاج إحدى نوافذه الغربية ، وانطلقت فجأة صرخات علت وطغت على جميع إذاعات حارتنا وترنحت الأنوار الملونة ثم ما لبثت أن تلاشت ، وهرب الأطفال الذين كانوا قد تجمعوا أمام باب المنزل يشاركون فى العرس من الشارع بعيونهم وآذانهم ، وأطلت النسوة من نوافذهن ، وخرج المأذون وخرج العريس وهو يعرج ، وخرج والد العروس من غرفتهم يستطلعون الأمر . وإذا بالمدعوين يتدافعون على درجات السلم وهم يتصايحون ، « ياساتر يارب ، البيت وقع ، يا ساتر » وأطل العريس نحو كوشة العروس فإذا بها قد اختفت مع المدعوات ومع الرقصة والفرقة الموسيقية وأصبح المنزل مشطوراً قسمين ، قسم انهار وهو الذى به دورات المياه وقسم ظل سليماً وهو الذى يجاور السلم .

وتلاشت إذاعة العرس وإذاعة التأبين ، أما صاحبة المقلى فهرولت مع أم خليل تستطلع جلية الأمر وسط الغبار الذى زاد عتمة الليل كثافة ، فنسيت — فيما نسيت — مذياعها مفتوحاً مايزال يذيع بصوته المرتفع نشرة الأخبار ويقول إن رئيس وزراء الهند أعلن أننا انتقلنا من العصر الحجرى إلى عصر الكواكب والفضاء ، على حين أعلن أحد

أندية الإعلانات فى دويتريت أنه بدأ فى دراسة وسائل الإعلان فى الفضاء .

وأصبح لحارتنا فى دقائق — وفى الساعة الثامنة والدقيقة السادسة والثلاثين على وجه التحديد — أهمية كبيرة . فقد انقلب مائتا مهنئ — على الأقل — على خمسين مؤبناً ، وربما تجاورت جثتا الراقصة والشيخ المقرئ . وهذا — فى حد ذاته — خبر عظيم لصحف الصباح ، من شأنه أن يجعل لحارتنا شهرة ما كانت تحلم بها ، كما أنه فرصة لا تعوض لأقسام الإعلان بشركات التأمين وهو إلى جانب ذلك حدث يجذب إليه رجال البوليس والإسعاف والمطافئ والتنظيم وأقارب الذين إختفوا تحت الأنقاض ما بين قتيل ومصاب وفزع ينتظر النجدة .. والندابات اللاتى يتشممن رائحة الموت وينجذبن إليها ، عدا المتطفلين ومحبي الاستطلاع .

وارتفع صوت أم خليل مولولا وهى تقص قصة التراب الذى رأته يتساقط ، وقصة إنذارها لزوجها ولأهل العريس ، وتشبه نفسها بسيدنا نوح عليه السلام ، ثم تعود تعزى نفسها بأن زوجها إن كان قد مات تحت الأنقاض فقد لقى ربه شهيداً ونظيفاً « ساعة العشا شايفاه عال وآخر صحة ، دخل دورة الميه وصلى العشا ، ودخل نام ، وهيه النومة » .

وفى لحظات أذابت مأساة أم خليل ما قام بينها وبين أهل حارتنا منذ سنين ، فأقبلوا عليها يعللونها بالصبر عسى أن يكون زوجها وابنها من الناجين ، لكنها واصلت صرخاتها وهى تؤكد لهم أنها رأت بالأمس

حلماً ينبئها بكل ما وقع ، ولم تكن تعتقد أنه سيتحقق على هذا النحو السريع . لقد رأت فيما يرى النائم رجلا غريباً طويلا يرتدى ما يشبه العباءة البيضاء يدخل شقتها دون استئذان ثم يصطحب معه زوجها وابنها وهى تسأله وتسألهما إلى أين هم ذاهبون فلا تسمع رداً وإن كانت تعتقد أنهم سيتحدثون فى أمر ما ولسبب ما على عتبة الباب ، ولكن الدقائق مرت دون أن يعودوا فأطلت من باب شقتها فلم تجد شيئاً حتى درج السلم فانتابتها نوبة بكاء إلى أن استيقظت مذعورة لتجد ابنها وزوجها بجوارها ، وانحنت نحوهما لتتيقن أنها كانت تحلم حقاً ، وعندما تحققت تنفسهما المنتظم ارتاح قلبها وإن كان مايزال به آثار غم . ولكى يتم المقدور لم تربط بين تساقط الأتربة وما رأته فى حلمها أمس وإلا كانت أصرت على خروجهما ولو بالشتيمة والضرب .

وحاولت أم سيد عبثاً أن تبعد أم خليل عن البناء المنهار وأن تصطحبها معها إلى المقلى حتى تجلس على المقعد الوحيد به لتستريح . وكانت أم سيد تبيع إلى جانب اللب والحمص والفول السودانى زجاجات الكازوزة وعلب السجائر كلما أقبل ضيوف محترمون فى حارتنا . وفى الساعة الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين شوهدت وهى تهرول راجعة إلى مقلاها . ولعلها خشيت أن يستغل أحدهم فرصة الزحام وتمتد يده إلى شىء ، لكنها وجدت هناك رجال البوليس الذين انتشروا فى حارتنا ينتظرونها ليشتروا منها كازوزتها وسجائرها . ويبدو أنها لاحظت ارتفاع صوت مذياعها فخفضته على حين كان المذيع يقول : إن بوليس النجدة فى الهند تلقى رسالة من القمر الصناعى

ثم فيما يشبه الهمس أن البوليس عثر فى الإسكندرية على ثلاثة وأربعين لفافة من الحشيش ماركة « القمر الروسى » ، وفى أمريكا نجح خبراء الألعاب فى اختراع قمر صناعى للأطفال .

وفى الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين كانت الولولات قد زادت فى حارتنا ، كان هناك من يبكى لأن له عشرين قريباً تحت الأنقاض ، على حين جثم مجهول فوق الأرض ينبش بأظافره ، وكانت جارتنا بخاطرهم تبكى لأنها اقترضت عقداً ذهبياً تتحلى به أمام المدعوات ، وبالرغم من أنها نجت إلا أن العقد ضاع منها وسط الضجة والزحمة ، وكانت هناك من جاءت بقميص نومها تبكى وتتوسل بإلحاح لأحد رجال المطافئ أن يبحث عن قريب لها قبل أن يلفظ أنفاسه . وكان والد العروس يبكى ابنته ولديه وزوجه وأولاد أخيه وعمه وهو يقول : « أنا رجل فقير ، مهر ابنتى ثلاثون جنيهاً ، وكان معى خمسة جنيهات وأعطيت الحاجة فاطمة المبلغ كله ولا أعلم : هل عاشت أو ماتت ؟ وهل المهر الذى معها ضاع أو ما يزال موجوداً ؟ وكان العريس يبكى ، وهو يقول كالمجنون : « حطوا إيدى فى إيد عروستى وزفونى معها ، هى لم تمت ، كانت لسه قاعدة جنبى فى الكوشة ياناس » ، ثم يقول : « إن كل معدات الفرح التى أحضرها هذا الصباح قد دفنت تحت الأنقاض ، خمس عشرة زجاجة شربات وخمسين علبة ملبس ومائة جنيه نقوط ، غير الأثاث الذى تفنن فى طلائه لتعجب به عروسه ، وكانت هناك حسناء ــ من غير حارتنا ــ تبكى لأنها أتت مع أخيها الصغير بغير استئذان والدها ، وقد فقدت أخاها الآن

ولا تعرف كيف تعود ؟ .

أما أم سيد فكانت مبيعاتها من السجائر والكازوزة قد زادت زيادة كبيرة هذه الليلة ، على حين كان مذياعها ما يزال يهمس أن المنجم شيلو أنطونيو طمأن الناس أنه لن يكون للقمر الصناعى أى تأثير سماوى على مقاديرهم . كما زعمت السيدة سبسليا كيون أنها استطاعت فى أثناء نومها سماع الإشارات التى يرسلها القمر الصناعى بدبابيس الشعر الخاصة بها ، على حين صرح أحد شيوخ الأزهر أن إطلاق القمر الصناعى لا يعد تحديًا لقدرة الخالق .

وكنا نتساءل : ماذا عسى أن يكون قد حدث لشلبى شلباية العامل بمصلحة التنظيم ولأعضاء جمعية الأسرار الكونية ومقرتهم ، فلم يظهر منهم أحد ليخبر أهل حارتنا بما حل بهم ؟ ولكننا كنا أكثر تلهفًا لأن نشاهد جثة العروس أو جثة الراقصة كأنما هى رغبة دفينة فى أن نعذب أنفسنا ونحن نواجهها بهذا التناقض البشع الموجود بين لحظة وأخرى . وكان رجال المطافئ قد بدءوا يخرجون أشلاء ملتصقة بقطع من زجاج المرايا وزجاجات الشربات ويكشفون عن مزيج اللحم والعظام مختلطًا بحطام الصناديق والأطباق والدم والتراب .

ولكن كان أول ما أخرجه رجال المطافئ فى حالة سليمة ، هو جثتا أبو خليل وابنه ، وعلى ضوء كشافاتهم رأينا المنظر المؤلم ، الأب يحتضن ابنه كأنما ليحميه ويفديه ، فحاط جسده بإحدى ذراعيه وحاط رأسه بيده الأخرى فى حنان ، فى حين ارتفعت ولولة أم خليل على جميع الولولات

الأخرى ، وكان مما يزيد فى مصيبتها أنها ضربت بالأمس ابنها « خليل » لأنه رفض أن يتعشى زيتوناً ، ولما تدخل أبو خليل ــ رحمة الله عليهما ــ ليمنعها من ضرب ابنها شتمته بأقذر الشتائم ، ولم يسلم من لسانها أبوه ولا جده ولا أجداد أجداده ، ووجد ضميرها الآن فرصة لا تعوض لتعذيبها ، فراح ينتقم منها مضخماً تصرفاتها مضروبة فيما لا نهاية له من المرات ، وهى لا تجد طريقة تتخلص بها من هذا العذاب الفظيع سوى أن تهيل فوق رأسها من تراب المنزل الذى تهدم ، وهى تعترف بأعلى صوتها أمام حارتنا بما فعلت ، على حين كان أحد الخبثاء يقول : لعلها بادرت بمعاقبة نفسها بنفسها قبل أن يعاقبها أهل الحارة قائلين : « انظروا لقد قتلتهم ونجت هى » .

فى هذه اللحظة كانت أم سيد قد قررت أن تسكت الإذاعة ، فاقتربت من مذياعها لتطفئه فى حين كان المذيع يعلن أن أسقف كنتربرى صرح الليلة أنه لم يعد هناك مستحيل فى عالم صنع قمراً صناعياً . ثم جاء فى ختام النشرة أن عشرين شخصاً من سكان غينيا الجديدة توفوا اليوم بسبب إصابتهم بمرض الضحك . وقد بلغ عدد المصابين فى المستشفى هناك سبعين مريضاً ، حتى الآن ، وهم يضحكون ليلاً ونهاراً ، حتى يلاقوا مصيرهم !

١٩٦٠

العشاق الخمسة



فى إحدى الأماسى جلس يتلو عليهم من شعره الغنائى الحلو ، فلما انتهى منه قال :

— إنه لا يمكنك أن تعرف قلب المرأة ، فواحدة قد تكون ملحة بحبك ثم تنصرف إلى صديقك تحدثه كلما رأتك مقبلا ، وأخرى لا تبادلك عاطفة ولا عطفـًا ، ثم تظهر اهتمامها بك كلما هممت منصرفـًا ، وثالثة قد تكون ذهبية الشعر ناعسة الطرف هشة الأعضاء ولها قلب ظامئ إلى الحب والتحطيم والندم . . .

ثم سعل سعالا يوشك أن يكون مرضًا ، واستأذن فى الانصراف وابتلعه الصمت والظلام . . . ولم يعد إليهم من يومها ، منذ عشرة شهور ، منذ أخبروهم أن العلة اشتدت عليه . . .

ولقد أبلغوهم منذ أسبوع واحد أن حامداً قد مات . . .

ذلك أنه فى منتصف القرن العشرين بعد الميلاد ، كان يعيش فى مصر جيل من الشباب ، شاهدوا الماضى ينطفئ وراءهم ، وشاهدوا المستقبل لغيرهم ، ولم تستطع أقدامهم أن تثبت فى الحاضر . . . وكان هذا الجيل يقرأ الأدب على ضوء مصابيح بترولية ، ويتابع دراساته وهو يستمع إلى ضجيج المذياع فى أقرب مقهى . . . وكانوا يبحثون عبثـًا عن الفرح ، فمن حولهم تنتشر الأوبئة والأوجاع ، كما كان يشقيهم قلق وحرمان ، وهم يكافحون فى بطولة حتى تتحطم أعصابهم وتمزق الوحدة أحشاءهم ، فيفقدوا الثقة فى

أنفسهم وفى العالم . . . ومن هذا الجيل كانت مصر تتطلع إلى القادة الذين سينقذونها من الانحلال والتأخر ومن كل ضروب الشقاء الذى تعانيه . . .

ولقد رأيتهم تلك الليلة ، رأيتهم بنفسى بعد أن عبرت مع صديق منهم ذلك الزقاق القصير الرطب المؤدى إليهم وهو يشير إلى الدكاكين التى يجدون فيها وسائل معيشتهم ، فهناك « مكوجى الأمراء » يتعهد ثيابهم بالغسيل والكى ، وهناك « صالون السعادة » ، « يتعهد شعورهم بالقص والحلق ، وهناك « مطعم الحرية » ، يتناولون فيه طعامهم أحيانًا ، و « بقالة الأمانة » ، يجدون فيهم حاجتهم من السجائر والبن والسكر والشاى ، ثم « مقهى الوطنية » يجلسون فيه ولا سيما فى أيام الصيف ... وكان الزقاق ينتهى بباب خشبى كبير ، دفعناه فأحدث صريراً مسموعًا ، ثم صعدنا درجات السلم الخشبى المرتفع الطويل وأنا أتوكأ على عصاى ، وكأنما أشياء خفية تتكسر دائمًا تحت أقدامنا . . . خمس طبقات صعدناها حتى وصلنا إلى غرفة فى أعلى البناء . . . وكانت القاهرة قد استنشقت فى ذلك اليوم عبير الشتاء المتفتح لأول مرة ، وخلفت الشمس بعد مغيبها نوراً إلهيًا ناصعًا غمر الأفق الغربى زمنًا غير قصير ، وبدا القمر فى الشرق متدثراً يخطر بين سحبه الناعمة المترفة البيضاء ، وأخذ النسيم البارد يلفح أسطح المنازل ، ويغمر فى عنفوانه الشاب هذه الغرفة ذات السر الكبير ، ماضيًا فى رحلته الليلية خلال المدن والقرى والصحارى والبحار . . .

ولقد رأيتهم جميعًا والوجوم يختلط بروح التهكم فى وجوههم وساعة

الجامعة تدق قريباً منا تسع دقات ، وهناك سرير وسط الغرفة ، وأرفف متشبثة بجدرانها مرصوصة فوقها كتب فى الفن والفلسفة والأدب ، ومنضدة ملطخة عليها أدوات مبعثرة للرسم ، ولوحات قلائل معلقة فوق الجدران . . . وفى الركن الغربى مصباح بترولى يرتجف ، رأيت على ضوئه صورة رائعة كأنما تنبعث من حلم فرعونى قديم ، حيث إيزيس العذراء جالسة ترضع من ثديها الناضج البكر ابنها الصقر حورس ، وفى شعرها وعينيها لمحات من نور الله ، وكانوا يكادون ينتهون من طعام لم أتبين منه إلا بقايا الخبز ثم رائحة الذرة المشوية .

ويبدو أن روح الشاعر كانت قد تسربت فى مطلع هذا الشتاء إلى شمسه الغاربة وقمره المتدثر ، ثم اطمأنت إلى هذه الغرفة فى ذلك الهزيع من الليل ، وكانت الآن قد تسللت إلى قلوبهم وانتشرت على وجوههم وغمرت لوحة إيزيس الجائعة تحت المصباح المرتجف ، وهم يتحادثون ويتناقشون . . .

وفجأة لمحت فى يد صديقى صورة لفتاة حسناء ربما كانت فى العشرين من عمرها ، فرفعت بصرى إلى صورة العذراء التى قيل لى إن صاحبها أتم رسمها بالأمس فقط ، محاولا أن أدرك أية صلة كامنة بينهما . . .

وانتهى الطعام ، وساعة الجامعة تدق عشر دقات ، والبحث قد تشعب بحيث شمل نقاشاً حول المذاهب والقيم . . . وفى مصر كان بعض شباب الجيل يحاول ما استطاع أن يتعرف على زعماء الفن والفكر فى العالم ، وأن يصل إليه ضجيج الحضارة التى تنهار . . . وذلك فى نفس الوقت الذى كانت فيه القنبلة الذرية قد اخترعت ، والأدوية المهدئة للأعصاب

قد انتشرت ، والبشرية كأنما تعانى المخاض . . .

كانوا يحسون أنه يجمعهم جيل واحد ورعب واحد وأمل واحد ، ويضمهم كذلك شخص واحد . . . هو تلك المرأة التى أقبلت صورتها فى هذا المزيج من الليل تشيع بعض الطمأنينة فى أرواحهم القلقة الأسيانة . . .

وكانت سلوى فتاة من إحدى محافظات الوجه البحرى ، أقبلت إلى القاهرة كى تنتظم فى جامعتها ، وهى تحمل معها جسداً فى التاسعة عشرة يزدحم خيالات وأوهاماً ، وتتدفق منه روح بكر شاعرية . . . وكانت قد جربت مواهبها المتفتحة فى بيئتها الصغيرة المحدودة ، فأدركت إلى أى حد تستطيع برقتها وإرادتها أن تشيع المرح والطموح فيمن حولها . . .

وفى الجامعة تعرفت بحامد ، وما لبث أن قدمها لزملائه . . . وكانوا فى ذلك الحين لا يزالون يجربون إمكانياتهم ويختبرون قواهم الكامنة ، فهم جميعاً يرسمون وينحتون ويقرضون الشعر ويعزفون الموسيقى . . . وكان لقاؤهم فى أكثر الأحايين عارضاً تفرضه عليهم هذه المشاركة العامة فى السعى الحثيث إلى اكتشاف ذواتهم . . . فلما أقبلت سلوى ، بروحها المتوثبة الخلاقة وظرفها ولباقتها ، وجسدها النحيف المتيقظ ، أخذوا ينتظمون جميعهم ، ويجد كل واحد منهم نفسه فى يسر وسهولة ، ويسرى فى جسده شىء خفى من الرعشة والسرور ، وهو يكشف شيئاً فشيئاً — وفيما بينه وبين نفسه — عن السر العظيم الدفين الذى لا يبوح به لأحد حتى سلوى نفسها . . وبرغم أن كلا منهم أيقن أنها تحبه دون الباقين ، إلا أنه لا يحب أن يفسد على الآخرين متعتهم ، ولا على نفسه هذه الرفقة التى يجد فيها السعادة



والغبطة والرضا ، فيقنع أن يحبها وأن تحبه دون حاجة إلى هذه الرعاية الخاصة التي قد تلفت الأنظار وتفسد الأمور . . .

وهكذا وجد أحدهم أنه رسامها ، ووجد آخر أنه عازفها ، ووجد حامد أنه شاعرها ، وظن صديقي أنه مثالها ، وأخيراً أقبل خامسهم — وكان أصغرهم — ورأى أن يفلسف هذا جميعه ، وتخصص كل فى دراسته واستقر فى معهده ، وأصبح مجالهم الخاص لا يسمح لإنسان أن يتنفس بينهم بلا موهبة ولو كانت مدعاة . . . حتى هي مضت تجرب إمكانياتها فإذا بها تقرض الشعر . . . وكان هذا تشجيعاً كافياً لأن يكون الشاعر أول من ينقض هذه المعاهدة الصامتة فيذيع حبه على الآخرين ، تساعده على ذلك وسيلته فى التعبير ، على حين يحرص الآخرون على إخفاء ما يعتلج فى صدورهم ، يتلمسونه فيما يبدعونه من فن فى رفق هو أقرب إلى التلميح ، ويشيعونه فيما يعبرون عنه بغير أن يبرزوه ولا أن يفصحوا عنه . . .

فى ذلك الوقت كان شباب الجيل ينتشرون فى مدن مصر ، ما بين المقاهى يقتلون الوقت وبين الطرقات الكبيرة يتسكعون وراء الفتيات ، وقد ربط بينهم إحساس بالشقاء والفزع ، وتأرجح ما بين اليأس الكبير والأمل الأكبر .

وكان الشيب يدب فى أفوادهم والشيخوخة تشيع فى أرواحهم وهم لا يزالون فى شرخ الشباب . . . وشباب الفلاحين فى قرى مصر وريفها يذوون ويتساقطون فى الأرض . . . فى أرضهم . . . بل فى أرضنا الخصبة السوداء . . .

وأحدهم ، ممن فيه شهوة الفكرة أقوى من شهوة الجسد ، مضى يقول :

— وأعجبنا منها جرأتها فى وقت كانت فيه فتيات الشرق قد نزعن حجابهن ولم يتحررن منه بعد .

وآخر ممن فيه شهوة اللفظ أقوى من شهوتى الفكرة والجسد رفع رأسه قائلا :

— وأعجبنا منها قدرتها على الإرادة والاختيار فى وقت كنا نرى فيه المرأة ما تزال تتقدم إلى الرجل إذعانـًا واستسلامـًا لا إرادة وإعطاء . . .

وقاموا برحلات معـًا يشاهدون فيها آثار القاهرة وضواحيها وتلالها ، واشتركوا جميعهم فى ضروب من النشاط الثقافى والفنى والسياسى ، وأخذ ماضيهم يزدحم بالذكريات ... وكثيراً ما كان يقوم بينهم خلاف أو شجار ، ثم تهل عليهم سلوى بقامتها النحيفة ورقبتها الطويلة ، فيتحول الصياح إلى همس ، والهمس إلى صمت ، وهى — كالغزال — تحنى لهم فى أدب جم رقبتها الرفيعة الملساء ، فيردون عليها تحيتها وهم يلمحون فى عينيها ذلك الوميض الدافئ ، فتنبعث فى قلوبهم رغبة خرساء لا تلمح هى منها إلا رقة تنتشر على محياهم وحماسة تنتشر فى حركاتهم ، حتى إذا تفرق شملهم ، وخلوا إلى ما يبدعون ، وجدوا فى طريقة أدائه ما يعطيهم الجرأة على أن يعترفوا إليه قليلا وأن يصارحوا أنفسهم كثيراً بما يختلج فى أرواحهم ، فإذا مضوا قليلا فى إبداعهم ، توقفوا لحظة وخشوا ألا يصل الإفصاح أو التعبير إلى نهايته ، وكثيراً ما كانوا يشكون فى قوة وصدق وقيمة ما يمارسون ، فلا يلبثون أن يدعوه أو يؤجلوه . . . .

أما حامد فما أذاع حبه عليهم حتى انتشر الارتياح بينهم ، وشاعت

للغبطة فى صدورهم، ووجدوا فى ذلك حجة ضد ما تتهمهم به أنفسهم من إشفاق وتهيب . . . وانتابهم إحساس نبيل سعيد وهم يشجعونه على أن يبوح لها بوسيلة ما عما يكنه من عاطفة نحوها ، ثم يدفعونه ويلحون عليه، حتى استطاعوا فى إحدى ليالى الشتاء الباردة وأمام جمرات المدفأة أن ينتزعوا منه قسماً على أن يفصح لها ، وفى ليلة أخرى جلسوا يحتسون من الشاى ما غلوه للمرة الثالثة وهو يعاهدهم على أن يدرج خطوة نحوها .

ثم يصبح الصبح ويقبل الضحى ويوغل النهار وهو متهيب يرجو الإفصاح ويخشاه ، مدركاً أن الاعتراف أمامهم — وفى شعره — هو التعبير ، وأن الاعتراف أمامها هو الفعل، ومكتفياً بالتعبير دون الفعل وبالمعاناة إلا معاناة الحصول— وتمضى الأيام وما أدى بهم اعترافه لهم إلا أن يلور أمامهم جانب الرغبة فيهم ،فأوهن كل سعى فى نفوسهم ، ووجدوا ما يبررون به عدولهم عما يحاولونه ويوجسون منه ألا يبلغوه . . .

— ومضت سنتان ونحن نحيا هذه الحياة ، ثم حدث شىء لم يكن فى الحسبان . . .

وكان هذا الحديث شرحاً، موجهاً إلىّ ، والغرفة قد امتلأت بدخان اللفائف حتى أخذت الأشياء والوجوه تبدو من خلال ضباب شفاف ، وساعة الجامعة تدق إحدى عشرة دقة ، والمطر يهطل فى الخارج بغزارة ، ويتسرب بعضه من سقف الغرفة سائلا على الجدران فى تلكؤ ، والعذراء إيزيس لا تزال ترتجف ، ولا تحسب أن هذا تعبير شاعرى ، بل أرجوك أن تصدق أنها كانت حقاً ترتجف ، واللهب يرتجف ، وجميعنا

ترتجف . . . وصديقي – الذي يبدو أنه لم يمر بهم منذ زمن – يقول :

– سمعت أنها أنجبت طفلا . . .

– بل طفلا وطفلا . . .

– وكان زوجها مريضاً . . .

– والآن صحيح معافى . . .

– وهل تراها أحرقت أشعارها ؟

– مثلما أحرقها حامد . . .

– وهل تراها أحبت حامداً حقًّا ؟

– بل هو أحبها حقًّا . . .

– لكنه لم يبح لها بشيء فى غير شعره ؟

– مثلما لم تبح له بشيء حتى فى شعرها . . .

وقال أحدهم يتم شرحه لى :

– فذات صباح أقبلت تخبرنا أنها ستزف عما قريب إلى أستاذ لها ، وتدعونا إلى حضور يوم الزفاف . . .

– ومن يومها سعل حامد وظل يسعل ثلاثة أعوام حتى مات . . .

وكان صاحب هذه الجملة الأخيرة قد نطق بها فى انفعال وتأثر كأنما يؤكد قيام هذه الصلة التى يشير إليها من طرف خفى بين رحيل سلوى عنهم وموت شاعرهم . . . ثم صاح – كأنما تنبه أخيراً – وقال :

لماذا تسردون هذه القصة ؟ لقد أعدتموها من قبل مئات المرات ، هيا نقدم شيئاً خيراً من هذا لضيفنا حمدى . . .

وأشار إلىّ ، وأمسك عصاى يتأملها كأنما يدبر مؤامرة . . . وعاد يقول :

— وأين ماء الصودا ؟ لقد قبضت بالأمس أجر أحد الدروس ، وعندى الليلة لكم زجاجتان . . .

وكان جالساً على بساط فوق الأرض ، فانحنى قليلا متكئاً على ذراعه اليمنى ، ثم مد يده اليسرى تحت أحد الرفوف وأخرج زجاجتين . . . وطفح البشر على جميع الوجوه ، فمنذ رحل صديقهم عنهم إلى المصحة وهم لم يقيموا احتفالا . . .

وكان أحدهم جالساً على منضدة الرسم يعبث ببعض الأدوات التى أزاحها عنها ، وآخر جالساً فوق السرير يشاركه فيه صاحبه ، وأنا جالس فوق مقعد كان من الخيزران يوماً ما . . .

. . . وبدأ أحدهم قصة لم يتمها لأنه نسى ما بدأه ، وقام أكثرهم ثملا يخطب فوق المنضدة فقاطعه صديقى وأجلسه ، ثم أصبحت المشكلة الرئيسية هى كيف دخل السرير من الباب ، واستنتج أحدهم أنه لا بد أن يكون السرير قد نشأ صغيراً فى هذه الغرفة ، ثم ظل ينمو حتى أصبح بهذا الحجم ، لكنهم استسخفوا هذا الحل مما أغضب صاحبه غضباً شديداً ، وهنا تدخل صديقى وعرض حلا آخر ، ذلك أن تكون قطع السرير قد أدخلت من الباب مفككة ثم ركبت أجزاؤها داخل هذه الغرفة ، غير أن هذا الحل الجديد ضاع بين الضجيج لأن أكثرهم ثملا وقف على المنضدة يريد أن يخطب من جديد . . .

ولمحت وجهاً يصيح ضاحكاً فى وجه آخر ويقول :

ـــ وأنت متى تفسخ خطبتك التى عقدتها منذ ثلاثة أعوام ؟

ـــ بل ستحتفلون معى بعد أسبوع بعقد الزواج، ولولا وفاة صديقنا لربما كان الليلة احتفالنا هذا . . .

ـــ بل لعله لولا وفاة صديقنا لما انتويت ذلك أبداً، ولولا زواج سلوى لما كانت خطبتك أبداً . . .

وتحرك نحوى صاحب الوجه الثالث يصيح ثملا :

ـــ فما اعتزم الخطبة هذا العربيد إلا يوم أبلغوه زواجها، وما يعتزم الزواج إلا يوم أبلغوه وفاة صديقه . . .

وضحكوا وتشاجروا ، ثم ضحكوا وغضبوا ، ثم ضحكوا وضحكوا . . وتلك لوحة إيزيس الندية وما انتشر حولها من لوحات قلائل فى جميعها إفصاح وعبور، وهذا أحدهم يتهيأ للاحتفال بزواجه بعد أسبوع ، ولئن كانت خطبة هذا العربيد الماضية نوعاً من الانتحار الذى يدفع إليه اليأس، فلقد بدا أن زواجه الحاضر هو نوع من الخلاص الذى يفديه الألم . . .

ولقد غادرنا الغرفة نحن الخمسة جميعاً ، حين انتصف الليل إلا قليلا ، وبقايا المطر تساقط رذاذاً رقيقاً ، ولا هدف لنا سوى الاندفاع ـــ ربما حتى يتبلج الفجر ـــ فى طرقات خالية باردة متسعة معتمة ، يتصل بعضها ببعض فلا تفضى إلى شىء . . .

وكانت جميع الدكاكين قد أغلقت ولم يبق إلا المقهى وصاحبه يهم بإغلاقه، والسماء توشك أن تصفو مما تلبد بها من غيوم فى أول الليل،

والقمر يبدو هادئًا صامتًا في منتصف الطريق بين الأرض والسماء ، وطرقات المدينة تمتد كأنها الأبد ، وتلتمع في أرضها المبتلة أضواء المصابيح المنتصبة في يقظة وسكون ، ويختلج فيها نسيم ندى تشيع فيه عذوبة حبلى بالحركة والحياة ، وهم يحسون في هذه الحرية الليلية الساكنة اللامتناهية أنهم يسعون كل شيء ولا شيء يسعهم ، فانطلقوا يترنمون ويصخبون ، ثم يتناقشون ويتهامسون ، ثم يضحكون ويضحكون . . .

غير أني كنت أحس أنهم يفعلون ذلك لآخر مرة في حياتهم . وكنت أدرك أن وفاة صديقهم أرعبتهم ، غير أني كنت أدرك أيضًا أن الألم هنا هو بدء الطريق . . . فأنا أعلم أن المأساة ليست سوى جانب من جوانب الحديث ، بل أنا أعلم أكثر من هذا : أن كل مأساة تحمل معها عنصر خلاصها ، وأن النور يضيء في الظلمة . . .

في ذلك الوقت كانت قد اكتشفت طريقة لمعالجة شلل الأطفال ، وكان قد ابتكر أسلوب جديد لحفظ المعادن والآلات من الصدأ ، واخترعت آلة تحل مائة ألف مسألة في دقيقة واحدة ، وتوصل العلماء إلى أخرى تقيس ما يكون ثخانته أقل من الشعرة البشرية بثلثمائة ضعف ، واكتشف قطب مغناطيسي آخر في شمال الكرة الأرضية ، وأجريت تجارب لإعادة الحياة بعد الموت ، وكان حكم الإعدام قد ألغي في بعض جهات العالم . . .

سبتمبر ١٩٥٠

الوبَـاء



كانت فى الثلاثين من عمرها ، وهو عمر بدأ منه عظماء كثيرون رسالتهم . . . إذن فقد زلت عندما كانت فى العشرين من عمرها ، عندما كانت قد غادرت سن المراهقة وأصبحت ذات إرادة وذات جمال . . . وكانت من أسرة من الطبقة الوسطى ، حيث الحدث الجنسى مرتبط بالخطيئة والله والجحيم ، ولما كان الخلاص الوحيد من الجريمة أمامها هو أن تظل مجرمة بقية حياتها ، فقد فرت لتقع فى يد سيدة تدير متجراً للأشلاء البضة يقصده المحرومون والمعوزون . . . غير أن أخلاق الطبقة الوسطى كانت قد تركت ضميراً عالقاً بها ، ظل يزعجها فى الليل وفى النهار . . .

وقد مرت الأيام ومرت الشهور ومرت السنون وضميرها لا يزال عالقاً بها . . . واعتادت هذا اللون من الحياة الصريحة العارية المستخفة ، ورأت من حولها لا يهزأن بشىء مثلما يهزأن بكل من يحاول إقناعهن بفساد حياتهن.. ومع ذلك فقد ظلت تحس أن هذه مرحلة مؤقتة من تجربة حياتها وعليها أن تمر بها ثم تنفصل عنها إلى الأبد . . . وكان هذا حقاً غريباً وشاذاً . . .

وقد بدا الأمر هكذا . . . كان مندوبو هيئة الأمم المتحدة يهاجمون بعضهم بعضاً ، وفى باريس عقد أكبر مؤتمر دولى فى تاريخ السحر ، حيث نجح مندوبو أربع عشرة دولة فى خداع بعضهم بعضا ، فكان الماء يتحول إلى خمر ، وكانت تبدو فى الهواء النقود والسجائر وكرات البلياردو وآلات الكمان ، وكانت المناديل الحريرية تربط نفسها فى عقد

على حين تمر العصى السحرية فى الأجسام . . .

وفجأة ظهر الوباء . . . بدأ أولا بعشرة أشخاص كأنما هو رسالة عظيم : توفى طالب فى الجامعة وسيدة حبلى وطفلان وخمسة فلاحين وصبى عبيط أعرج ... وكان هؤلاء هم شهداء الرسالة الجديدة ، بموتهم حملوا الخلاص إلى بقية الشعب . . . ظلوا يتقيأون ويتبرزون برازاً سائلا أبيض كالأرز حتى جفت أمعاؤهم وتثلجت أطرافهم . . . وقد ظن أول الأمر أن وفاتهم بالأعراض الواحدة نتيجة للمصادفة الخالصة أو هى حوادث تسمم متشابهة ، لكن سرعان ما كشف الطبيب المختص عن الحقيقة التى روعت ملايين السكان . . .

وفى الصباح قيل لتلاميذ المدارس أن يعودوا إلى منازلهم . . . وصدر أمر بإغلاق الأسواق ، فحملت كل فلاحة دجاجاتها ، وشد الفلاحون رباط بهائمهم الهزيلة المعروضة للبيع وأقفل الجميع إلى قراهم . . . وكف المثقفون عن جدالهم حول معنى الحياة وعدلوا عن رغبتهم فى الموت ، وتملكهم تشبث مجنون بالأرض ، وانفضت الموالد ، وسارعت الحكومة إلى منع الاجتماعات العامة ، وخلت دور السينما من روادها ، وأقفرت المطاعم والمقاهى ، وأغلقت الحمامات ومحال بيع البوظة . . . وأصبح كل فرد ما بين يأس وأمل ، يأس أن يصيبه المرض هو دون باقى الناس ، وأمل أن يصيب باقى الناس دونه هو . . . ورأى بعض المتدينين أنه أمر أعمار فى لوح القدر ، ليس الوباء سوى وسيلة إليها . . .

فلما انحدرت شمس ذلك اليوم كانت صحف المساء قد أعلنت أنه

صدر الأمر بوقف الحج هذا العام . . . وهكذا رفض الله محاولتها . . .

كانت تعتزم فى كل عام أن تحج لتكفر عن حياتها الملوثة ، وتعود تعرض بضاعة غير جسدها ، غير أنها كانت تعدل فى كل مرة ، وفى هذا العام صامت رمضان ، وقررت السفر ، وأعدت الجواز واشترت التذاكر ، وسافر من قبلها فوج وفوج . . . وعند ما أوشك أن يقوم حاجز كبير بينها وبين ماضيها ، أدركت أن الله رفض نقودها ومحاولتها .

وفى اليوم التالى ذكرت الصحف أن الإصابات تسع وعشرون والوفيات سبع ، وفى اليوم الثالث كانت الإصابات أربعًا وتسعين والوفيات إحدى عشرة ، وفى اليوم الرابع كانت الإصابات مائة وخمسين والوفيات سبعًا وعشرين ، وفى اليوم الخامس هرب أحد الملوثين من قريته إلى عاصمة القطر الثانية مخبأ فى برميل بسيارة نقل تنقل البضائع ، فما إن وصل إلى هناك حتى ارتمى يتلوى . . .

وهكذا أفلت الزمام وأعلن أن القطر كله منطقة موبوءة . . . وبدأت المعركة الجبارة بين الناس وعدو صغير منتشر فى الأطعمة والأجساد ، لكنه لا يرى ، مما مده بقدرة خارقة على إرعاب الناس وإزعاجهم . . .

ومنذ أكثر من ألف عام جاء فى « ذيل الروضتين لأبى شامة المقدسى الدمشقى » أنه لم يزد نيل مصر واشتد الغلاء والوباء حتى مات أكثر الناس جوعًا وأكل بعضهم بعضًا . . .

وفى الوقت الذى كان الناس يتزاحمون فيه حول مكاتب الصحة يطلبون اللقاح الواقى ، كانت نعمات تستعد للعودة مع أفواج الذين لم يقدر لهم أن

بروا بيت الله الحرام هذا العام . . . لكن أحداً غيرى لم يكن يعلم شيئاً عن معنى الحج فى حياة هذه المرأة ، ولا كان ثمة آخر يدرك أن هذه المحاولة إن هى إلا رغبة بلورتها سنوات عشر من الذهب والقذارة والدم . . .

وفى ضحى اليوم السابع من الشهر الأول للوباء حاول رجل بدين أن يركب أحد القطارات المتجهة إلى العاصمة ، فرأى فيه زحمة الناس وتكالبهم على نحولم يسبق له مثيل ، وأدرك أنه لايمكنه أن يجد مكاناً لشخص واحد فضلا عن أنه يحتل مكان شخص ونصف شخص . . .

وعندئذ وضع أصبعه فى فمه ، ورآه الجميع يتقيأ فهرولوا فى ذعر هامسين أولا ، ثم صائحين :

— مصاب . . . مصاب . . .

ولم يكن فيهم بخيل واحد يحرص على مقعده ، ولا قديس يبقى إلى جانب الرجل . . . بل تدافعوا جميعهم إلى العربة وأخلوها كلها له . . . أما البدين فجلس واضعاً يده على بطنه كلما بدا له من العربة الأخرى وجه فضولى ينظر ليتحقق أنه ما يزال على قيد الحياة . . . فلما وصل المسافرون الجبناء إلى المحط النهائى هرولوا إلى الضابط المختص ينتقمون من هذا الذى أزعجهم وأخذ منهم مقاعدهم ويبدون له أعمق الإشفاق وأعمق الرثاء، غير أن البدين سرعان ما خيب إشفاقهم حين أفهم الضابط أنه استغل مقتضى الحال كوسيلة لإيجاد مقعد له ، فما كان من كرم الناس إلا أن وهبوه عربة كاملة . . .

وهكذا شمل الرعب الجميع . . .

فى ذلك الوقت كنت أنا قد أشرفت على الثالثة والعشرين ، حين كان

العالم قد أصبح مهدداً بالقنابل الذرية ، وثمة مذابح فى الهند ومجزرة فى اليونان لا تنتهى ، أما مؤتمر السحرة فكان قد انفض . . .

فى ذلك الوقت كانت الليمونة تباع بمليمين . . . ثم نشرت إحدى الصحف أن عصير الليمون الحمضى يقى من المرض . . . وسرعان ما ارتفع سعر الليمونة إلى خمسة مليمات ، ثم إلى سبعة مليمات ، ثم إلى عشرة مليمات ، وأخيراً نفد الليمون من كل مكان وقطف وهو لما يزل أخضر على شجيراته ، وبعد أن كوم كل فى منزله كومة من الليمون عادت إحدى الصحف ونشرت أنه قد اتضح عدم دقة هذه المعلومات ، وسرعان ما عاد الليمون إلى الظهور . . .

وأنا لم أتحدث بعد عن نفسى . . . وهذا أمر لا شك متكلف ، فلئن كان من الأنانية أو الفردية أن تجعل نفسك محور الحديث فإنه من غير الطبيعى ألا تذكر نفسك أبداً . . .

هذا إلى أنى كنت صديق نعمات ، بل لعلى أكون حبيبها المفضل . . . فحين زرتها لأول مرة مع صديق لى أعطيتها كل ما كان معى من نقود فانعت فى أول الأمر وأبت أن تأخذ إلا أجرها ، لكننى أصررت أن تقبل ما أعطيتها ، ويبدو أنها تأثرت بذلك كثيراً مما يرجح أنها لم تلق من قبل مثل هذا التعبير عن الامتنان ... أما أنا فلم أبادلها حبها ذلك أنى متعلق بفتاة أخرى فتاة لست أقابلها ولن أتزوجها ولا أحبها ولكننى متعلق بها . . .

فمنذ السادسة عشرة من عمرى حتى العشرين كنا نتبادل الحب أو هكذا كنا نظن ، أربع سنوات كاملة كأنها مدة أمضيتها فى وظيفة ما . . . ثم حدثت أزمة ، أزمة سخيفة أبعدتها عنى ، لكنها لا تزال باقية فى حياتى

مسيطرة عليها ، تحطم لى كل محاولة أن أعيش سعيداً . . .

ومنذ ذلك الوقت وأنا أعرف نعمات ، قامت لى بأعظم خدمة فى الوجود ، فهناك عندها أردت أن أنسى ولو أنى ما نسيت ! !

وكانت تعلنى بين حين وآخر برغبتها فى الانصراف عن هذا اللون من الحياة (وهو مالا تقوله أبداً لأحد غيرى) ، ثم أراها تتردد وتعدل . . . ولما كانت تربط هذه الرغبة بالسفر إلى بيت الله الحرام ، فإننى ما دهشت حين أخبرتنى ذات مساء بما أزمعت عليه من سفر ، تعود بعده لتجد عملا بين جيش العمال والعاملات الذى أخذ يملأ المصانع الناشئة هنا وهناك . . .

وفكرت أن أتزوجها ، لكن منعتنى إنعام (وهى الفتاة التى كنت أحبها ، وأنت تلحظ قرب اسمها من اسم نعمات) ، إذ زارتنى فى الحلم ، وكانت رقيقة معى كل الرقة ، لطيفة معى كل اللطف ، قبلتنى قبلتين : إحداهما فى جبهتى ، والأخرى على شفتى ، وأذنت لى — برغم الفرقة التى بيننا — أن أحتضنها قليلا فأحس بدفئها . . . وبرغم أنى عندما صحوت حاولت أن أنفذ ما كنت قد اعتزمته ، إلا أن الأثر العاطفى الذى خلفه الحلم كان قوياً للغاية : بحيث إنى عندما نمت الليلة التالية تمنيت أن أحلم حلماً آخر . . .

وفى الطرق والأزقة والحارات كان رجال الشرطة يطاردون الباعة المتجولين ويقلبون لهم الفطائر والبلح والترمس والحلوى وفصائل الذباب تتطاير أمامهم ، فيهرول الباعة ويختفون عن الأنظار من حارة إلى حارة ، حتى إذا غادر المكان رجال الشرطة عادوا وافترشوا الأرض كما كانوا يفعلون

وعاد الذباب معهم من جديد .

وفى فجر اليوم الرابع عشر من الشهر الأول للوباء بدأت الطائرات بإلقاء الغازات على الأماكن المزدحمة بالذباب ، وفى ضحى ذلك اليوم كان ثلاثون فى المائة منه قد اختنق وبقيته تترنح وتعانى سكرات الموت ، فلما كان الغروب أعلن أن إبادته قد تمت . . .

ولشد ما دهشت حين رأيتنى أمام نعمات . . . وكان مبعث الدهشة هو أنى سبقتها إلى الحج بخيالى . . . فبرغم أنى لم أحج أبداً — وربما لن يتاح لى ذلك — إلا أننى استطعت أن أتخيلها بين هذه الزحمة من الحجاج وأتخيل هذا الأثر العظيم الذى يمكن أن يحدثه فى امرأة مثلها ما تفعله وما تراه وما تفكر فيه هناك . . . غير أنى وجدتها أمامى فجأة ، فى الوقت نفسه الذى كنت أتخيلها فيه على سطح الباخرة ، وفى نفس الوقت الذى كنت أتأمل فيه معنى الحياة ومعنى الموت ... وكان ذلك يوم عيد ميلادى ، يوم أتممت الثالثة والعشرين ، فرأيت أن أحتفل به مع نعمات . . .

وفى القرى كان الفقراء يحملون موتاهم على الجمال ، ثم يذهبون بهم إلى الجبل كى يدفنوهم . . . لكن المشيعين — كالموتى — لا يعودون ، يبتعلهم الجبل بعد ما يتقيأون ويتبرزون بضع ساعات ... وعندما تمر بقية الأحياء فى أحياء القرية الضيقة ويلمحون علامة على أحد الأبواب المغلقة يدركون أن الوباء قد غزا هذا المكان ولامكان فيه للإنسان . . .

وكان المساء قد اقترب . قلت لها :

— تعالى نكفر عن ذنوبنا ، هيا نطهرها . . .

قالت :

— كيف ؟ . . .

وتذكرت طريق الحج وأماكنه المقدسة الرهيبة . . . قلت :

نمشي على جسر من جسور النيل . . .

فحملقت عجباً . . . كانت تعلم أن مصيرنا الذى نحياه أقوى من أن تنتزعنا منه مشية على النيل ، إنه ليس مستقلا عن الأرض ، فمن هذه الأرض تنبعث قيود وعلاقات تجذبنا دائماً نحو مصيرنا الذى نحياه ونحاول الفرار منه . . . وهى تعرض والناس يشترون، حتى إذا عشنا لحظة معاً نسينا قصة البيع والشراء ، هى ترضى هنا أنبل عواطفها التى تئدها أمام بيتها ، وأنا أحاول أن أنسى ما لا يمكن نسيانه . .

وأنت إذا مررت بهؤلاء النسوة فى أحد أحيائهن وهن منتشرات فيه كالذباب لم تشهد غير الاستهتار الذى يزعجك كإنسان مهذب ، فإذا اقتربت منهن وجدت أن الأمر لا يعدو نوعاً من التجارة الجادة التى لا هزل فيها ، فإذا اقتربت أكثر من إحداهن عرفت تاريخاً مؤلماً يخلق فى صلتك بها نوعاً من الحنان الذى يشيع بعضاً من روح الإنسانية فى نظرتك إليها . . .

قالت إنها تشعر ببعض التوعك ... وكنا نسير فى طريق من المدينة شبه مهجور ... وقالت إنها تخاف ، ووضعت يدها على بطنها وما لبثت أن تقيأت ...

لا تنزعج ، سأطمئنك ، لم يكن ما أصابها سوى تقيؤ هستيرى ... نوع من العدوى التى لا تمس الجسد لكنها تصيب الروح . وكان هذا كافياً

لإلفات نظر رجل الشرطة ، وكان كافياً لأن يولى هارباً فلا يعود إلا ومعه ضجة من الشرطة والممرضين . . .

وزعمت أنها أختى أو زوجى (لست أذكر تماماً) ، وهكذا وجدنا أنفسنا فى غرفة متسعة بها فراش على الأرض قيل لنا إنها المعزل ريثما يعدون لنا مكاناً فى المستشفى القريب . . . وكنا وحدنا . . .

ولم يأتنا طبيب . . . وكان من المتوقع أن يفصلوا بيننا ، فهى مريضة وأنا ملوث ، وهى امرأة وأنا رجل . . . لكن لم يجرؤ أحد على أن يقترب منا ، فقط سمعنا أحدهم يصيح قائلا إن إصابتين حدثتا الليلة بالمدينة : إحداهما حيث كنا والأخرى بمستشفى المجاذيب ! !

وكنت أحسبنى فى ذلك الوقت ماوثاً ، وكنت أحس أننى قوى بما أحمل من مرض ، إننى أخيف بمرضى كل هؤلاء الأصحاء ، أستطيع أن أقترب منهم فأنشر العدوى بينهم وتتساقط جثثهم كأوراق الخريف . . . وكانت هى وحدها التى لا تخاف ، لأنها المريضة الوحيدة إلى جانبى ، ولأنها تحبنى . . .

ويبدو أننى نمت وقتاً غير قصير ، فعندما فتحت عينى كانت الظلمة تغمرنا ، وكنت قد أخذت أتساءل عن قيمة اللحظات التى نعيشها ولاسيما إذا كان الإنسان قد انفصل عن المرأة التى ربط وجوده بوجودها . . . وفكرت أن أقوم وأفتح الباب وأنبه الواقف به إلى هذه الحقيقة . . . لكننى أدركت أننى ملوث ، وأنه لن يسمح لى أحد أن أقترب منه لئلا يأخذ منى العدوى ويموت ، فلن يلبث أن يهرب إذا رآنى ، وحسناً يفعل . . .

وأردت أن أتأملها ، فأشعلت عود ثقاب أضاء وجهها لحظة ، وتراقصت الظلال على جدران الغرفة الخيالية المتسعة . . . كانت مستيقظة ، وهى مستلقية إلى جانبى فى ثوبها القاتم الشفاف ، وكانت قد تحسنت كثيراً وعصبت رأسها بمنديل حريرى أزرق ولمحت على وجهى علامات كآبة ، وانطفأ النور وعدنا نتنفس فى الظلام . . . وكان إيمانها بالحياة قد ساعدها على أن تدرك أنها ليست مريضة ، وكنت قد أشرت إليها من قبل أنه قد يكون مجرد تقيؤ هستيرى . . . وكانت الآن قد تأكدت من صحة ما أقول ، فسمعتها تقول ضاحكة :

ــ لماذا أنت واجم يا أحمد ، هل أصابك الوباء أنت أيضًا ؟ . . .

ــ بل أنا مكتئب لأننى أقضى ليلة ميلادى هنا . . .

ــ بل هيا نحتفل به ! . . .

ــ كيف ؟ .

ــ بأن أدغدغك فتضحك ! .

وانفجرت فى قهقهة عالية ، وفجأة صمت . . .

فى ذلك الوقت كان العالم يستعد لحرب جديدة بغير أن يحاول التخلص من آثار الحرب الأخيرة ، وكان كثير من المفكرين قد اقتنعوا بأن الحياة لا مغزى لها ، وكان الفقراء والبغايا يزحمون العالم ، على حين انتشر الوباء يزحف وينشر الموت والرعب بين الجماهير فى كل مكان . . .

وكان هذا هو سر قوتى ، فلى القدرة أن أستمر فى قهقهة عالية ، ولى القدرة أن أصمت فجأة فى أى وقت .

أكتوبر ١٩٥٠

القيظ



القيظ

محمود شاب مثقف ، وهذه لعنة كافية فى هذا العصر . . . فهو شغوف بأن يخلق الصعاب زاعماً أنه سيتغلب عليها ، فمثلا ، عندما صحا صباح هذا اليوم تخيل أن تدخينه للسجائر أصبح عادة سخيفة تسيطر عليه ، وهو يحب أن يكون حرًّا ، فالحرية عنده لا تكون أحياناً إلا محاولة الإفلات من عادة كتدخين السجائر . . . ولهذا قرر أن يمتنع عنها منذ اليوم . . . وهو لا يدرى لماذا اختار هذا اليوم بالذات من هذا الفصل من العام . . . فهو يزعم أنه لولا هذا القيظ الملعون الذى غمر النهار كله منذ الفجر ، وجثم على أنفاس المدينة ومنازلها الضيقة المزدحمة ، لاستطاع أن ينتصر فى معركته التى خلقها ، غير أن شدة الحر سببت له صداعاً شديداً ، وأضعفت قليلا من هذه الرغبة فى إقامة أى نوع من المقاومة . . وهكذا عدل عن محاولته بعد ساعة واحدة من قراره ، ظل فى كل دقيقة من دقائقها يذكر أنه لن يدخن ، لن يدخن . . . حتى تضخمت أمامه كل الأشياء ، ورقصت الحروف التى كان يقرؤها ، وسال العرق فى خفة على جبهته ، وأمسك بالسيجارة فأشعلها ، ثم ذهب فى شبه غيبوبة نشوانة . . . لكن هذا لا يحدث للمثقفين فقط ، بل هو يحدث لكثيرين ممن يتنبهون فجأة فيجدون عادة قد سيطرت عليهم ، وبذا يقررون أن يقيموا معركة بينها وبينهم ، وما من سبب إلا أن يثبتوا أمام أنفسهم أنهم أمام قوى لا يخضعون

لها ، وهم يجدون فى هذا مرانًا لذيذاً لإرادتهم ، غير أنهم يدركون بعد ساعة واحدة ، أو ربما بعد شهور أنهم خلقوا معركة كى يثبتوا فيها هزيمتهم على أنهم يحتفظون على أية حال بذكرى ذلك الصراع ، ويقصونه حين تتقدم بهم السنون ، فهو قد دام ساعة أو ثلاثة عشر يومًا أو سبعة شهور وهكذا .

وفى الضحى كان الطريق المهجور يتعذب من الظمأ . . . وفى زاوية من زواياه برز شاب يجفف عرقه وهو يتجه نحو بائع السجائر . . . وفى المساء كان عليه أن يقابل « إلهام » — وهو اسم جميل بلا شك — ويخبرها أنه سيخطبها ، غير أنه سيعلق خطبتها على شرط عليها أن تنفذه .

وفى المدينة كان الثلج قد نفد ، فكنت لا تستطيع الحصول على شىء مثلج إلا بثمن مرتفع ، وكانت أعمدة الترام النحاسية لا يمكن لمسها ... بينما اكتظت الفتيات — وهن يمسحن عرقهن ومساحيقهن — محشورات بين رجال ثارت غرائزهم ، وفى الطريق كان السائرون يتجمعون كالذئاب حول بائعى الغازوزة وعصير الفواكه والقصب يجففون عرقهم ويلهثون كالكلاب . . .

أما أمه فكانت قد نسيت أن تغلى اللبن ففسد ، وأخته تعانى مغصًا ، على حين وقفت حمارة فجأة وسط الطريق المهجور وأفسحت ما بين قدميها الخلفيتين ، ثم روت قليلا هذه الأرض المعذبة ... وراجت إشاعة فى المدينة مؤداها أن العالم كله أصبح شراً ، فرأى الله أن يوفر على نفسه عملية نقل الناس إلى الجحيم بأن جعل من الأرض نفسها جحيمًا . . .

على أية حال ، كانت فى حياته ثلاث فتيات ، احتللن بؤرة حياته

الواحدة بعد الأخرى كعربات القطار . . . أما على هامش حياته فكان عدد أكثر قليلا ، وهو لا يفصل بين الحب والشهوة . . . ذلك الفصل الذى شاع بين شباب العصر وفسره علماء النفس بأنه تعلق بالألم . . . فكل من كان محمود يحب روحها فهو يحب جسدها كذلك . . . غير أن هؤلاء اللاتى يضعهن على هامش حياته قد أحب منهن أجسادهن دون التعلق بأرواحهن . . . ومن الغريب – فى رأيه – أن الفتيات الثلاث بخلن عليه بأرواحهن وأجسادهن فى حين بذلت له الأخريات ما أراد بغير ما مقابل إلا اللذة العابرة . . . وكان هذا ما يدهشه ويحيره فى حياته حقاً . . .

وقد اضطر أصحاب الموتى فى المدينة أن يعجلوا بدفن أحبائهم الموتى فى هذا اليوم قبل أن تزكمهم رائحتهم النتنة . . . وعندما جاءت الظهيرة كانت الحال العامة تروى ظمأ زبائنها بماء يكاد يغلى لأن المياه الباردة أتى عليها رواد الضحى . . . ورجال الحريق كانوا على استعداد لتلقى أى نبأ ، وقد ازدحمت الحمامات وارتفعت فيها الأسعار ، وأعلن الراديو أن المدينة لم تعان مثل هذا القيظ منذ أكثر من نصف قرن . . .

وكان على محمود أن ينتظر حتى المساء . . . ولن يخلصه من ملل الانتظار والحرارة إلا التدخين . . . وكان القيظ فظيعاً حقاً ، فعندما أرسل غلامه الصغير كى يشترى له السجائر ، عاد يزعق . . . فقد كان حافى القدمين ، وأرض الطريق قد اكتست بالجمر . . . فاضطر أن يخرج بنفسه إلى الطريق المهجور ، وهو يحس أنه يسير وسط أتون ، وأن ثمة دوامات نارية تنبعث من أسفل ومن فوق ومن شمال ومن يمين ومن

الوراء ومن الأمام ومن هنا وهناك ومن كل مكان . . . لكنه واصل سيره بشجاعة حتى وصل إلى بائع السجائر .

وكان بائع السجائر شاباً صغيراً ضاعت إحدى عينيه فى حادث ما — ربما أقصه عليك فى قصة أخرى — فوضع عليها زجاجة لنظارة سوداء ربطها إلى أذنيه بقطعتين من قماش ، وترك العين الأخرى تتمتع بحريتها ، وكانت هذه الطريقة — فى رأيه — كفيلة بأن تخفى عاهته أمام الخادمات اللائى يأتين بقباقيبهن ليشترين منه السجائر لأسيادهن ، غير أن هذا لم يكن رأيى ، فقد كان من المؤكد أن جميع الذين عبروا عليه لأول وهلة ، يدركون أن خلف هذه الزجاجة السمراء شيئاً مخجلا لصاحبه . . .

وكان اسم بائع السجائر أيضاً محمود . . . وكان محمود — بائع السجائر — قد رأى محمود المثقف — آتياً من زاوية الطريق وعرف أنه يقصده ، فأبعد الجريدة من أمام عينه — السليمة طبعاً — وقد جمع منها محصولا لا بأس به ، ظل عالقاً منه بذهنه شيئان : النظام الجديد للتجنيد الإجبارى فى مصر ، والحرب العالمية الثالثة . . . وكان ككل الذين حوله — يهتم بالموقف العام كى يرى أين هو منه ، وقد ربط ربطاً آلياً بين التجنيد والحرب ، ففزع بعض الشىء ، ولو أنه اطمأن إلى أنه لن يجند بسبب عينه « الفاسدة بالطبع هذه المرة » .

غير أن محمود كان يبتسم ، وكان يفكر فيما يفكر فيه محمود نفسه ، وكان مثار الابتسامة على شفتيه فكرة فلسفية ... ذلك أن التجنيد والحرب سيخلصانه من أشياء كثيرة متعفنة فى نفسه ، وسيغيران من حياته الخاملة الرتيبة . . .

واقترب محمود من دكان محمود ، وظل يسير وسط اللفح واللهيب فى الطريق المترب ، حتى رأى نفسه مقبلا نحو نفسه فى المرآة التى علقها أمام دكانه . . .

كان محمود البائع سيعقد خطبته الليلة . . . والواقع أنه كان ينوى الزواج إلا أنه لم يوفق فى العثور على مسكن بأجر مناسب بسبب أزمة المساكن . . . وقد رأى أن يدعو محمود ، لعل الدعوة كانت للإخبار فحسب . . . قال له :

ــ ستأتى الليلة يا محمود بك ؟

ــ وكان محمود (بك) مشغولا يتطلع باحثًا عن سيجارته المفضلة ، فالتفت إلى محمود ، وقال :

ــ لأحضر كتب الكتاب ؟

ــ بل مجرد خطبة فى الساعة الثامنة من مساء اليوم .

ــ ولن تعلق خطبتك على شرط معين ؟

ــ ماذا ؟ . . آه . . ما أكثر الشروط والاشتراطات يا سيدى فى هذه الأمور وهى من جانب أهلها أكثر مما هى من جانبى .

ــ وهل عندك اليوم تبغ بدلا من اللفائف ؟

ــ نعم يا سيدى ، بلا شك ، هاك .

فقاطعه محمود :

ــ ما هذه الحرارة ؟ لقد قال المذيع إننا لم نعرف مثل هذا منذ حوالى ستين عامًا . . .

وعبرت عليهما موجة من اللهيب ، ثم غمرت الطريق كله ، واستقرت بعض اللحظة ، ومحمود يعرض على محمود أصناف التبغ . . .

ولم يكن في إمكان محمود أن يلحظ نفسه في المرآة المعلقة وهو يبتعد شيئاً فشيئاً عن نفسه .

وفي مساء ذلك اليوم رئي محمود وهو يدخن غليونه في مشرب مارلي بشارع قصر النيل أمام مكتبة كتان .

كان قد تحرج من رفض الدعوة فوعده بالحضور . . . وكان يدرك أنه في مثل هذه الساعة تماماً سيذهب ليفقد فتاته إلهام .

ولسنا نعرف ما هو اسم عروس بائعنا محمود ، وليس من المستبعد أن تكون إلهام كذلك ، ولكن لا تتسرع وتظن أن هناك حيلة قصصية تجعل من إلهام عروس البائع هي نفس إلهام الفتاة الثالثة في حياة محمود شابنا المثقف ، فوجود الهوات بين هذه الفئات تجعل حدوث هذه المصادفات أمراً نادر الحدوث . . . ولماذا نذهب في الاستدلال في حين نرى الواقع يقول لنا إنه في الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم كانت هناك فتاتان ، إحداهما تزف أو تخطب إلى محمود في حارة المغربلين رقم ٣ حيث أضيئت الكلوبات فأضافت إلى الحر حرارة ، والأخرى تجلس مع محمود وهو يدخن غليونه في مشرب مارلي .

لم يكن محمود واثقاً من نفسه إلى هذا الحد الذى به يعلق خطبته لفتاة على شرط تنفذه هي أولا . . . فهو يدرك أنه ليس أسهل من فقده الفتيات ، فلقد فقد من قبل فتاة وفتاة غير أنه كان يحس أن حياته اليوم قد وصلت

إلى مأزق ، وكان هذا هو الذى يقويه ويجعلنا نتوهم أنه واثق من نفسه كل الثقة ، بينما هو لا يملك ما يضمن به شيئاً . . . ثقة أساسها الاستهتار . . . وهى إن نفذت هذا الشرط فلربما نجا من المأزق ، فإن لم تنفذه فإما أن يظل يحيا حياته المنحرفة المظلمة الكئيبة ، وإما أن يتزوجها فيرتبط بها ارتباطاً سخيفاً من نوع ارتباطه باللفائف والتبغ ، حيث يقيم معركة بينه وبينها من حين لآخر كى يجرب شخصيته ويمتحن إرادته . . . إذن لم يكن يرى الحرية – مثلما يراها بائع السجائر وأمثاله – فى الارتباط بعادة يحبها ويألفها . . . وإذن لم يكن بينهما ما يمكن أن نسميه بالحب.. بل هو نوع من العملية الحسابية التى قام بها محمود وحده ورأى أن يشمل فيها إلهام أو يدعها إلى الأبد .

ولم يكن هناك غيرهما فى المكان عدا أصحاب المشرب وخدمه . . . وطلبا شراباً مثلجاً ثم شراباً ساخناً ثم آخر مثلجاً . . . ونضح العرق من وجهيهما وملابسهما وهما يتحدثان حديثاً فيه الضحكات حيناً وفيه الإرهاق أكثر الأحايين .

أما سكان المدينة فكانوا قد اكتظوا رجالا ونساء فى دور السينما التى تعرض قصصها وضجيج موسيقاها فى الهواء الطلق ، وعندما ارتفعت درجة الحرارة بحيث سجل مقياسها أربعين درجة أصبح يخشى ازديادها فيتعرض بذلك خمسمائة على الأقل من سكان المدينة للموت بضربة الشمس . . . وفى الساعة الثامنة والنصف أذاع المذيع للمرة الثالثة تقرير مصلحة الطبيعيات ، ويقول إن درجة الحرارة تستمر أربعاً وعشرين ساعة ثم فى فجر

اليوم التالى يعتدل الجو .

ولن أوهم القارئ بأنى لا أعرف ما دار بينهما من حديث ، بل إنى لأدرك الآن مبلغ الرغبة فى تعرف كنه هذا الحديث . ولكنى أخلص إذا قلت إنه حديث ليس من المستبعد أن يبدو تافهاً سخيفاً ، فما أكثر ما يجعل الآخرون سعادتهم تتوقف على شروط تبدو لنا من وجهة نظرنا تافهة سخيفة، وفى مجرد سردها إملال ومضايقة لنا . . . أليس من الأفضل أن تجعله أنت أى شرط يمكنه أن ينال من تقديرك بحيث يصبح أهلا لخلق مأزق إذا لم يتم تنفيذه ؟

على أية حال لقد رفضت إلهام هذا الشرط ، برغم أنها لا تمانع — إن لم تكن ترغب — فى الزواج من محمود ، فقد كان هذا الشرط يحتاج منها إلى أن تبذل قليلا من الجهد ، وهى ترى ألا تبذل أكثر مما بذلته فى سنواتها العشرين الماضيات . . . كان يطلب منها أن تكافح بعض الشىء لكى تصبح أكثر نضوجاً وثقافة ، وهو مطلب غامض لا معنى له لديها . . . وما كان ليطلبه إلا مثقف مثل محمود ، فهو يرى أنهما بهذا فقط يستطيعان أن يعيشا معاً خيراً مما يعيش سيد مع خادمة . . . أما إلهام فقد شكت فيما إذا كان محمود جاداً فى علاقته القصيرة الماضية بها ، وجاداً فيما يطلبه منها الآن . . . كان كل منهما حرا مستقلا عن الآخر ، لم يعرفا بعد الحرية التى لا تحيا إلا فى الضرورة . . . عندما يصبح كل منهما ضرورة للآخر .

وخرجا وذراعه ملتصقة بذراعها ، والعرق ينضح كثيراً من جسده وأقل



قليلا من جسدها ، كان يمكنه أن يتزوجها ، وكان يمكنه أن يدعها ، غير أن العقبة التى خلقها من أجل أن يحصل على إلهام لم يستطع التغلب عليها .

وهو يمكنه الآن أن يستمر يحيا حياته الممزقة الكئيبة ، وهو يمكنه أن يرتبط بها ارتباطاً أسخف من ارتباطه بلفائف الدخان . . . وحاول عبثاً أن ينام . . . كانت غرفته شديدة الحر ليست أقل لهيباً ، فالقيظ يندلع فى كل مكان ، وعب كل ما فى المنزل من مياه باردة حتى سبح فى بحر من العرق فاضطر أن يخلع كل ملابسه وينام عرياناً . . . ومع ذلك فقد ظل ساهراً وهو يذكر أنه عد فى تلك الليلة مائة نجم فقدها فجأة فبدأ يعد من جديد .

وفى الصباح التالى أخذ الجو يعتدل . . . فبدا يغفو قليلا قليلا ، أما محمود ففتح دكانه ومضى يرقب العابرين .

أغسطس ١٩٥٠

زيطة، صانع العاهات



مهداة إلى الأستاذ نجيب محفوظ
صاحب زقاق المدق

صنع يصنع فهو صانع ، وصنع المصنع السيارات ، وصنعت المصانع القنابل ، فهى صناعة ، وهى مصنوعة ، وعم كامل يصنع البسبوسة ، وحسنية الفرانة وزوجها جعدة يصنعان الخبز ، وكانت الست أم حميدة الخاطبة تصنع العائلات ، وصنع المسيح المعجزات ، وصنع زيطة العاهات . . .

وتوفى زيطة فى السجن منذ أيام ، ورأيت أن أتقدم بالتماس إلى الجهات المختصة مطالبـًا بأن يصنعوا له تمثالا ويقيموه على رأس زقاق المدق ، راجيـًا أن يفصل حضرات المختصين كل الفصل بين ذلك العمل الإضافى الذى أدى به إلى السجن وأخذ الجزاء عليه ، وبين هذا العمل البطولى الذى وقف زيطة حياته عليه ، والفهم الرائع لمعنى العاهة الذى كان يدركه بحلسه وعبقريته ، وكيف استطاع وحده أن يواجه مدينة صاخبة ضاجة وأن يلبى لها فى إخلاص حاجة ملحة ضرورية . . .

فقد قبض ليل أحد الأيام — ومنذ سنتين — على زيطة وصديقه الملقب بالدكتور بوشى لاتهامهما بسرقة جثث الأموات ، وشاع فى الزقاق أنهما كانا يسرقان طقم الأسنان الذهبى من جثة المرحوم عبد الحميد الطالبى الذى كان بائعـًا للدقيق بالمبيضة ، فلما سمعت بذلك الست سنية عفيفى ،

وهي جالسة تشرب القهوة التي صنعتها لنفسها بنفسها ، رمت بطقم أسنانها الذهبي الذي سبق أن صنعه لها الدكتور بوشي ، ثم صرخت وولولت حتى أغمي عليها ، ومنذ ذلك الحين اختفى زيطة وصديقه من حياة الزقاق وانقطع كل منهما عن صناعته ، ومع ذلك فلم تكن سرقة جثث الأموات هي العمل الرئيسي لزيطة ، بل هو عمل إضافي اضطر أخيراً أن يقوم به إلى جانب الصناعة التي وقف عليها حياته . . .

ولقد ولد زيطة لأبوين يصطنعان الشحاذة ، وكان ذلك أول العلامات الدالة على تأهبه للصناعة التي تفرغ لها فيما بعد . . . وكان مجيئه — كمجيء أي صانع عظيم — بعد انتظار وترقب وحاجة . . . فقد كان والده في حاجة إلى ابن تحمله الأم في أثناء تجوالها لتثير العطف وتستدر الإحسان وحسن الصنيع ، وقد انتظرا طويلا حتى اضطرا أن يكتريا طفلا ، فما أقبل زيطة إلى هذا العالم ، حتى وفر عليهما ثمن الاكتراء ، فكان فرحة عظيمة لهما ، كما كان خلاصاً للكثيرين فيما بعد . . .

وفي التراب نشأ زيطة ، وفي التراب عاش ، كانت أمه تتركه يزحف بحرية يرعى بين القاذورات والحشرات ، يتذوق الوحل ويختبر مواطئ الأقدام . . . كانت نفايات البقدونس وقشر الطماطم والهوام السابحة في المياه الراكدة هي عالمه الجمالي المنقطع النظير ، وكان يحس في التصاقه بالطين لذة يتصنع الآخرون الجزع منها ، والتقزز من مواجهتها . . . وقد هيأت له هذه القذارة فرصة الابتعاد عن الناس فيما بعد ، متفرغاً لتأملاته ومتفكراً فيما ألقي عليه من مهام ، فقد كانت رائحته الكريهة تنفيه عن

الناس ، وكانت قذارته تجنبيه فضولهم وتحديقهم فيه ، لا يصانعونه ولا يصانعهم ، وهم متحصنون بأنفسهم من أنفسهم بروائحهم العطرية وأناقتهم المصطنعة ، إذا فكروا فى الانتحار فكروا فيه بغير أن يجرؤوا عليه ، لا يدركون المعنى المخلص للعاهة ولا القيمة المطهرة للتشويه . . .

ولسنا نعرف كثيراً عن حياته أيام صباه فهذا الجزء من تاريخه غامض ومجهول أكثره لدينا ، وكل ما نعرفه مما بلغنا من أخبار أنه كان يعمل فى « سرك » متجول حيث تدرب على فن « الماكياج » ، وأصبحت له فيه يد صناع . . . وحيث يمكننا أن نستنتج أنه لا بد أن يكون قد تعرف بذلك على جوانب كثيرة وصناعات متعددة فى الحياة . وهكذا أعدته ولادته وطفولته وأيام صباه للصناعة التى ألقى على عاتقه أن يأخذ بها فيما بعد . . .

فى هذه الأثناء كان زعماء العالم يصنعون الحقد والكره فى القلوب ويصنعون القنابل والطائرات فى المصانع ، ثم مزجوا الجميع معاً وصنعوا منه حريقاً عالمياً كبيراً . . . وفى الشوارع الفخمة فى المدينة كانت صناعة التجميل قد انتشرت ، تصنع السمنة للنحاف والنحافة للسمان وتزيل الشعر وحب الشباب وتبرز الأرداف وتكور الأثداء ، وانتشرت الصالونات تسوى الأذن المنكمشة وتصغر المفرطحة ، وتعدل الأنف المنحنى وتدقق الشفتين الغليظتين ، وتعيد الصبا إلى « شمطاوات » الطبقة « الراقية » وفى الغرب كانت قد ظهرت مدارس تعبر عن المشوه وزعماؤها ينشرون الدعوة فيلبيها تلاميذ مخلصون يبرزون فى الجانب الميت قرف الإنسانية وفزعها . . .

ولقد حدث ذات صباح أن نشرت جميع الجرائد أخباراً عريضة

تلقتها بالبرق عن طفلين ولد أحدهما بالهند والآخر بأستراليا ، وكان الأول بلا ذراعين ولا قدمين وتوفى بعد دقائق من ولادته ، أما الآخر فعليه شعر ماعز وله ذيل قصير وقد ولد ميتاً . . . فما أقبل مساء ذلك اليوم حتى كان زيطة قد أشرف على زقاق المدق ، وقد أعد العدة لصناعته ، فحمل معه أدواته ومهماته ، واختار الخرابة القائمة أمام الفرن مكانه يمارس فيه عمله ، لا يفهم التشويه مجرد معنى جمالى فى الجامد أو الميت بل هو معنى نابض حى سيأتيه من أجله المجهولون والمخفقون متسللين من مشارق المدينة ومغاربها ، ثم يغادرونه رسلا وحواريين له فى مختلف الأحياء والزوايا . . .

وفى الطرق والميادين ، وفى الموالد والأعياد ، وقرب المساجد والكنائس وفى المقاهى والمقابر . . . كان المتصدقون والمحسنون يطالبون سائليهم بما يؤهلهم للشفقة والإحسان وكانوا ينظرون شذراً — كما ينظر أصحاب الشركات ومديرو المصانع إلى طالب لا مؤهل له — كلما وجدوا واحداً منهم صحيح الجسم معافى ، فى عينيه النور وفى لسانه الذلاقة ، وفى جسده الامتلاء . . . كانوا أشخاصاً عمليين ، لا يريدون أن ينفقوا أموالهم بلا عاهات تستدرهم ، ولا أن يبعثروها على غير مستحقيها ، كانوا يريدون عمياً وعرجاً وبلهاً كى يغدقوا عليهم مما يغدقونه على عشيقاتهم وهم يتطلبون العاهة فيهم تطلبهم الذلة والحاجة فى عشيقاتهم . . .

وهكذا أخذ يفد على زيطة أصدقاؤه الجدد وصنائعه فى المستقبل . . . إنهم منتشرون الآن فى كل مكان ، فى الأزقة والحارات ، وفى طرقات المدينة

الواسعة وميادينها ، معترفون له بالفضل والثناء ، وكل منهم يذكر جيداً هذه اللحظة من حياته التى أقبل فيها على زيطة وهو عاطل لا صناعة له ، يقوده فى جنح الليل صديق أو دليل ، فتداعبه الرائحة الرطبة التى يواجهه بها الزقاق ، ثم الأصوات والأضواء المتسربة من أعلى أحد المنازل حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة صاحب المقهى ، وفوهة الفرن متقدة كأنها شهوة أو مقت ، ثم الخرابة المعتمة الرهيبة كأنها كهف ساحر أو جنى ، والرائحة الكريهة المنبعثة من أرجاء المكان كأنها احتجاج أموات أو معذبين ، وضوء المصباح البترولى المرتعش يحيل الظلال إلى رموز ، والأدوات الموضوعة على الرف ما بين زجاجات وآلات وضمادات ، وزيطة مختف مع العتمة فى جلبابه الأسود القذر لا يدل عليه إلا عينان تبرقان ، وصوت ساخر طاغ ، ونار خافتة تنبعث من بقايا سيجارة ما بين يده وفمه . . .

كانوا يأتونه صحاحاً ، وكانت صحتهم تقف عثرة فى سبيل حياتهم كما تقف أخلاقيات شاب يافع ، كانوا يمدون أيديهم فيردها لهم الناس فارغة ، وكانوا يطالبون بحقهم فى الحياة فيأباها عليهم الآخرون ، فيقبلون على زيطة ثم يغادرونه ، عمياناً وكسحاناً وأحداباً وكسعاناً ومبتورى الأذرع أو الأرجل وبذلك يهبهم حقهم فى الحياة ، وما يبرر لهم اصطناع صناعتهم .

وهكذا كان الليل هو المجال الذى يتحرك فيه زيطة ، كان الليل هو مملكته التى يسيطر على ما فيها من حركات وهمسات ورغبات ، وكان صنع العاهة يربط صاحبها به كما تربط المعجزة المريض بمنقذه . . . فما ينتصف

الليل وتسرى المدأة فيه حتى يبدأ زيطة عمله ، فيجول فى حى الحسين العامر ماراً برعيته من الكتل البشرية المتكورة فى هذه الزاوية أو على ذلك الطوار كأنها بقايا هزيمة ، فيلتقى فى ميدان الحسين بكسيح إلى جانبه ما يشبه صندوقاً ذا عجلات أربع ، فيركله ثم يسأله عن حال كساحه ويستوى الرجل واقفاً على قدميه ثم يعطيه مليماً . . . يوميته . . . فإذا انعطف صوب الباب الأخضر التقى بأعمى ذى ذراع مبتورة تعود أن يبرزها للمارين كأنها بقايا شمع جمد فيوقظه ليأخذ منه المليم ، فإذا بلغ القبو القديم التقى بأعمى آخر قد انتشرت على صدره وفخذيه قروح تعود أن يعرضها على المارين كأنها تقيؤ دموى ، وهو يغط الآن فى نومه هادئاً مستريحاً ، فيركله ويسأله عن قروحه ، فيفتح « الأعمى » عينيه ويعطيه المليم ، وعند الجامع الكبير يلتقى بالأحدب الذى تعود أن يسب الناس ويشتمهم إذا ردوه خائباً كأنما لم يقنعهم الفرق بين حدبه واستواء قاماتهم ، وفى ذلك الوقت يكون أكثر تكوراً وأكثر سواداً وأكثر هدوءاً وقد انكفأ على وجهه وعقد يديه كأنما يصلى فما يحس بالخطوات المقتربة حتى يرفع يده بالمليم فيأخذه منه زيطة فى صمت ويمضى ، ثم يدور حول المسجد مارا بصنائعه واحداً بعد الآخر ، ثم يبتاع رغيفاً وتبغاً وجبناً أو حلاوة ، ثم يعود إلى خرابته حيث يستأنف دوراً آخر من أدوار عمله . . .

وكان شأنه — شأن كل صانع عظيم — يرضى حاجة خاصة فى الوقت الذى يرضى حاجة عامة . . . فهو يتعيش ويصنع لغيره سبل العيش . . . فلسنا نزعم أنه اختار هذا النوع من الصناعة إشفاقاً على الإنسانية وبراً

بها ، لقد كان يرضى باختياره ذاك حاجة دفينة إلى القسوة فى مجتمع قسا حتى لتذوق التراب . . . وكان يرضى كذلك حاجة فى الآخرين يفيدونها مما تضطرب به نفسه من رغبة . . . كان للرجل عذاباته ووحدته ووحشيته ، وكان سماعه تأوهات الرجل الذى يهرس له ذراعه أو يبتر له رجله يثير فيه لذة حيوانية هائلة . . . ولكن فلنذكر دائماً — باعتراف وإجلال بالغين — أنه ما كان يضع لذته فوق المصلحة العامة . . .

فقد حدث فى أحد الأيام أن دخل مزبلته بعد رحلته الليلية ، فوجد عملاقاً قوياً فى انتظاره ، وصفه زيطة بأنه « بغل بلا زيادة ولا نقصان » وكان الرجل يقول فى خور : « حظى أسود وعقلى وسخ » ، وأدرك زيطة أن صحة هذا « البغل » مثار للحنق وعقبة كأداء فى سبيل حياته ، ولكنه كظم شوقه إلى تهشيم رأسه وتقطيع لحمه ، واكتفى بأن يعلمه فن العته وإن لم ينقصه منه شىء — كما قال صانع العاهات — ويحفظه بعض مدائح الرسول . كما أدرك ذات مرة — وهو يبصق على الأرض ويمسح شفتيه بكم جلبابه الأسود أمام متسول مهيب الطلعة — أن العاهة قد تكون وقاراً به يستطيع الشخص أن يحصل على وجوده فى المجتمع ، كما تكون الذراع المقطوعة وملاحة البغى وشهادة الطالب ونفاق السياسى وكما تكون الألقاب والثروات . . .

وكان لزيطة أحلامه البهيمية مثلما لى ولكم . . . وكانت أحلامه تتركز حول حسنية الفرانة صاحبة الخرابة التى يستأجرها منها ، والتى كانت تصنع الخبز . . . وكانت حسنية مكتنزة ذات لحم كثير وبنيان عملاق ،

يتمنى زيطة لو تحتاج إليه يوماً كما يحتاج إليه الكثيرون . . . ولقد راودها عن نفسها أكثر من مرة – ورأسه تزدحم بأخيلة محمومة – فما كان يلقى منها إلا القسوة والزجر ، ولم تكن حسنية فى حاجة إلى صانع العاهات يشوه عليها حياتها الزوجية لأنه كان لها فى هذه الحياة ما يغنيها عن معونته ، فهى ما تنفك تضرب زوجها جعدة كلما حرق رغيفاً أو سرق آخر ، وهو يستلذ قسوتها وهى تستلذ بكاءه وصياحه ، فلا يلبثان أن يقتربا معاً فى عاطفة مشبوبة ، وشيئاً فشيئاً ، نحو لحظة من لحظات صفائهما الخالص . . . فلا عجب أن استغنيا عن زيطة كما استغنى عنه بقية سكان الزقاق لأنهما استطاعا أن يصنعا بأنفسهما ما يربط حياتهما معاً ، وما يضمن لهما اللذة والاستمرار ، فما لبث أن قنع صاحب العاهات بأن يراقبهما من خلال مزبلته وهما مستمران فى شجارهما المنتهى إلى صفاء وهو مسترسل فى الأحلام والعذابات . . .

ومن قبل كانت صناعة المطاحن البخارية قد نافست طواحين الهواء ، وكانت صناعة المذياع قد نافست الشاعر الذى يروى أخبار الزناتى والهلالى ، وكانت صناعة القنابل قد أخذت تنافس زيطة فى صناعته ، فقد كان إنتاجه فردياً وإن كانت فيه مهارة الفنان وهوايته ، أما تصنيع العاهات فكان على نطاق الجملة . . . ومع ذلك فلم يكن هذا معناه بالضبط الاستغناء الكامل عن خدمات زيطة ، لأن مصر لم تصب أولا كثيراً بمثل تلك الغارة التى شهدها زيطة ذات يوم ، ولأن حاجة مجتمعنا إلى صناعة التشويه هى حاجة ملحة وضرورية ، بعضها تشويه محطم كالذى تصنعه لنا الحرب والغارات ،

وبعضها تشويه خلاق كالذى يصنعه زيطة ، فالشحاذ يأتيه — على حد قوله — وهو لا يساوى مليماً ، فإذا غادره فقد ساوى ثقله ذهباً . . . لهذا كانت لديه عقيدة راسخة لا تتزلزل — كان يقوم عليها إيمانه بصناعته — ذلك أن الناس فى حاجة دائمة إليه ، فلا يعدم الليل أن يفرز له شخصاً من هذه الزاوية أو تلك . . . ومع ذلك فقد اضطر أخيراً أن يقوم بعمل إضافى ، حيث يذهب مع صديقه الملقب بالدكتور بوشى بين ليلة وأخرى لانتزاع بضع أسنان ذهبية أو فضية من جثة هذا المرحوم أو ذاك حتى قبض عليهما أخيراً ، وحوكم زيطة من أجل عمل لم يكرس له جهوده ، وكان مجرد مهمة عرضية فى حياته . . .

وكنا نحن منتشرين فى الموالد والأفراح أو جالسين نلهو فى المقاهى والحانات ، فإذا تدحرج علينا أعمى أو مفأفئ أو كسيح خالجتنا ريبة فى استمرار سلامتنا ، وساورنا قلق على اتصال طمأنينتنا . وكنا ندفع عنا تلك الريبة وذاك القلق بمليم أو قرش فى يد سائلنا . . . كان يشيع فى نفوسنا إدراك عام لمعنى الزمن المتقلب ، وللطمأنينة التى لا وجود لها ، ونحن أكسل من أن نحاول النفاذ إلى مواطن أصدقائنا وعشيقاتنا وشحاذينا ، وكان زيطة يدرك هذا الضعف فينا فيوفر علينا ما يطلبه ذلك من مجهود لا قبل لنا ببذله فكان يبرز لنا فى يد مبتورة أو رجل مشلولة أو عته أو بله آخر صورة من صور المأساة التى يمكن أن ننحدر إليها ، والتى نجد أسبابها ونحس أصولها فى أرواحنا ومجتمعنا . . .

ومنذ ألفين من السنين أقبل المسيح إلى العالم ، ومضى ذلك الإنسان الإلهى

يشفى المرضى والعمى والعرج فيهبهم بذلك حياة جديدة حتى سمى صانع المعجزات . . . ولما جاء القرن العشرون أقبل زيطة إلى هذا العالم يصنع المرضى والعمى والعرج ليهبهم بذلك حياة جديدة حتى لقد سمى صانع العاهات . . . وقد يحدث أن يأتى اليوم الذى تنتشر فيه صوره فى المعابد والمخادع ، وتباع تماثيله فى الحوانيت والموالد ، وتؤلف الكتب عن أعماله وحياته ، ولهذا تدركون تواضع ما نطالب به من صنع تمثال صغير يقام له الآن على رأس زقاق المدق . . . كما تدركون أهمية ذلك الطلب تبجيلا لما قام به واعترافاً بفضله على كل من صنع له صناعة وتمييزاً له عن غيره ممن يشيعون التخريب المحطم والتشويه الذى لا طائل وراءه فتصنع لهم تماثيل عالية ومرتفعة . . .

كما أنصح كذلك بالاهتمام بأمر خرابته التى أمضى فيها حياته لعلها تصبح ذات يوم أثراً تقصده الوفود من كل أقطار الأرض . . . فلقد كان زيطة صانعاً ، وكانت له صنعة وصنيعته منتشرون اليوم فى كل مكان فلا أقل من أن نرد إليه بعض صنيعه . . .

يونيو ١٩٤٩

مصرع «عباس الحلو»



مهداة أيضاً إلى الأستاذ نجيب محفوظ
صاحب زقاق المدق

حضرات القضاة ، حضرات المستشارين . .

لقد قرر المحقق الذى صرح بدفن جثة عباس الحلو أنه مات نتيجة اللكمات والركلات والزجاجات التى تطايرت عليه من الجنود الإنجليز بحانة النصر ، ولم يكن فى مقدور المحقق أنه يوجه التهمة إلى أحد ، أولا لكثرة الذين اشتركوا فى ضرب عباس الحلو وازدحام الحانة بهم ساعة وقوع الحادث ، وثانياً لأنه ما كان لأحد ينال من جنود الحليفة وهم فى نشوة انتصارهم بهذه الحرب العالمية الثانية . . وربما لو أتيحت للمحقق الفرصة كما تتاح له فى القضايا الأخرى لما استطاع أن يتعرف على متهم بالذات . . وهكذا ضاع الفتى هدراً كما صرح بذلك صديقه حسين كرشه ابن المعلم كرشه صاحب المقهى الواقع على رأس زقاق المدق . . .

وبرغم عدم اختصاصى فى القانون ، إلا أننى رأيت أن أقحم نفسى وأقوم بتحقيق هذه القضية لحسابى الخاص ، فقد أولعت حديثاً بمثل هذه القضايا ، وربما كان عدم اختصاصى القانونى يبيح لى حرية التفكير والاتهام مما لا يتاح للمحقق المحترف .

لقد جاء فى تقرير المحقق أن عباساً الحلو لم يقتل مع التعمد أو سبق

الإصرار ، وأن الطبيب الشرعى قد فحص الجثة فلم يتعرف إلا على شج فى الرأس وجرح كبير فى العنق نتجا عن استعمال زجاجات متكسرة، ثم كدم فى الجانب الأيسر وآخر فى أسفل العمود الفقرى، وقرر أن سبب الوفاة كثرة ما نزف منه من دماء ، وقد حدثت إثر هبوط شديد فى القلب ، أما القاتل فقد نعته التقرير بكلمة « مجهول » .

لهذا رأينا أن نهمل هذا التقرير الرسمى ونبحث عن آثار أخرى عسى أن نستدل منها على السبب الذى أدى إلى مصرعه ، ونحن نعلم أن مهمتنا شاقة وقد نتهم أبرياء وقد نغفل آخرين . ومع ذلك فقد آثرنا المخاطرة لما بين أيدينا من أدلة قد يتهمنا الكثيرون بأننا أسأنا استعمالها وبالغنا فى تأويلها إلا أنها على أية حال تلقى ضوءاً على المأساة خيراً مما يلقيه هذا التقرير .

ولا شك أنكم ستعلمون مقدار الصعوبة التى واجهتنا حين تدركون أن عدد المتهمين قد كان من الكثرة بحيث امتد فشمل — على سبيل الاحتياط — العصر بأسره . ولقد وجدنا أن خير وسيلة نضمن بها عثورنا على المتهم هى أن نوجه الاتهام إلى العصر كله ، وهذا ليس من اختراعنا ولا هو شطط منا ، فأنتم تعلمون أنه عندما تقع جريمة — فى حفلة مثلا — فأول ما يفعله رجل البوليس هو أن يوجه التهمة إلى الجميع وليس إلى أحد . وبهذا المعنى شمل اتهامنا هؤلاء الجنود الذين أصابوه بالزجاجات إصابات قاتلة فى رأسه وعنقه ، وهؤلاء الذين اشتركوا فى صنع هذه الزجاجات ، وهؤلاء اللواتى ولدن أولئك الجنود ،



وشمل اتهامنا هؤلاء الأقربين الذين كانوا يعرفونه ويرافقونه ، حتى هؤلاء الزعماء العالميين الذين قادوا الحرب ووضعوا الجنود فى الحانة ليلة الحادث . إنه يبدو أيها السادة أن مصرع عباس الحلو وهو شاب فى الثالثة والعشرين وكان يعمل حلاقاً فى زقاق المدق بمدينة القاهرة ، إن هو إلا جريمة اقترفها عصر . .

وأنتم تضحكون بلاشك من جدوى هذا الاتهام ، فهو يتناول لفظاً مجرداً ، ولا يتعلق بأفراد معينين نستطيع أن نبصرهم ونلمسهم ونكرههم وأن تقتص منهم « العدالة » التى تحرصون عليها دائماً . . ولكنكم تدركون كذلك أن كثيرين غير عباس الحلو قد ماتوا أيضاً بسبب العصر ، قتلتهم روح الحرب التى ازدحم بها العصر ، بعضهم غرق فى البحر وأكلتهم الأسماك ، وبعضهم صعقتهم الغارات ودفنتهم تحت الأنقاض ، وبعضهم قتل وجهاً لوجه أمام أخيه الإنسان ، بعضهم جن وبعضهم تشوه وبعضهم ترمل أو تثكل أو تيتم ، وبعضهم مات مثل عباس الحلو بسبب حادث غرامى فى حانة من حانات اللهو وفى بلد لم يذق من أهوال الحرب ما ذاقته بلاد أخرى ، وفى كل حالة من هذه الحالات كان القتلة مجهولين ، وكانت العدالة التى تحرصون عليها أيها السادة تقف دائماً « معصوبة العينين » . ومع ذلك فسنتمشى طبقاً لتقاليدكم ونوجه الاتهام أولا إلى أشخاص معينين ، ولكنكم ستدركون معنا فى النهاية وبسبب توزع المسئولية على الكثيرين جداً أنه اتهام قليل الجدوى .

ولما كان يتضح فى معظم القصص البوليسية أن المتهم هو الذى كان أبعد الناس عن الشبهات أول الأمر ، كأن يكون صديقاً أو حبيباً ، فإننا استفدنا من هذه الخبرة السابقة ووجهنا الاتهام مباشرة إلى فتاته حميدة وصديقه حسين كرشه . . ولقد صدقت فراستنا ووفرت علينا كثيراً من المشاق التى كنا معرضين لها . . فقد ثبت لدينا أنه ما كان لعباس الحلو أن يغادر صالونه بالزقاق يوماً لولا وجود هذين الشخصين فى حياته . . كان يود لو ظل فى زقاقه هادئاً قانعاً بهذه الغيبوبة الحالمة التى يحيا فيها الزقاق ، فهو زقاق صغير معتم مقفل ، ومنزو وفى حى من أحياء المدينة العظيمة الصاخبة ، تنبعث فى أرجائه رائحة خدرة مهلكة ، ويرى دائماً على رأسه عم كامل بائع البسبوسة بعذبته القصيرة وجسده المترهل السمين . . لا يفيق إلا لحظات فى الصباح عندما يقبل تلاميذ المدرسة الأولية يدسون فى كفه البضة الملاليم ثم يعود إلى إغفاءته المستديمة ، وأمامه المعلم كرشه صاحب المقهى يتناول « فصاً » كل بضع ساعات ليتصل له ذهوله الحالم المستديم . .

لقد كانت حياة الحلو بطيئة متكررة ، لا يمل اتصالها الرتيب ولا يتطلع إلى تعديلها أو تحويرها . . كان عالمه لا ينفسح خلف الزقاق ولا رجاء لديه إلا فى حياة هادئة فى حدود دخله المتواضع فى ظلال حميدة وفى ظلال عيونها وأنفاسها . . وكان راضياً قانعاً ، محتملا لو تقسو عليه الأيام يوماً ، منشرحاً لو منحته لحظة من هناءتها ، لا يعشق إلا رائحة الزقاق وترابه ، ويقلقه أن يجد نفسه فى شوارع ماتنفك

تتسع وما تنفك تصطخب وما تنفك تزدحم . . ومع ذلك فقد كان يبدو أن هناك جانباً من حياته يتمرد فى خفاء على هذه الدعة وهذه الطمأنينة اللتين لا يطمح الحلو إلى سواهما ، جانباً مجنوناً يرجوه ويخشاه، تعبر عنه صداقته لحسين كرشه وتمسكه بهذه الصداقة . . كان هذا الصديق يقلقه حيناً ما ، ويشيع فى نفسه لوناً من الريبة فى قيمة حياته هذه التى يحياها ، وفى المعنى الحقيقى لقيمه التى يتمسك بها والتى تستمد دعائمها من رائحة الزقاق وعتمته ، كان كلما وقعت عيناه على حسين أحس أنه إزاء جزء من هذه الطرق الفسيحة المزدحمة حيث قيمه تنهار وشخصيته تضؤل وتضؤل وسط الزحمة المصطخبة . . كان صديقه يفتح عينيه على عالم آخر مزدحم بالمطامع والمطامح وصاخب بالتشاجر والتنافس فى سبيل الظفر بالقوة والمال .

وفى هذه الزحمة الوهاجة المضيئة فقد فتاته حميدة . . ظل صديقه يلح عليه كى يرحل ، أن يترك هذه الغيبوبة الحالمة وينطلق ليشارك فى السباق المرهق العام . . وظل يزعق فيه : سافر سافر سافر» ماذا أكلت ، ماذا شربت ، ماذا لبست ، ماذا رأيت» وما كان لزعقاته أن تقلقه إلا قليلا ثم سرعان ما تخبو ، لولا أن حميدة كانت هناك ، وكان هو يحبها ، وكان فى حبه لها شىء غريب عن طبيعته ، كان صوتها الأجش ما ينفك يعلو بين حين وآخر فيخرج بالزقاق عن طبيعته ، وكانت ما تنفك تتشاجر مع الرجال ومع النساء ومع أمها فتزلزل الزقاق وتوقظه من سباته المستديم بضع لحظات ، وكان الحلو يحبها ويرجو أن

تشاركه حياته ، ولكنه ما كان يدرك فداحة الثمن الذى وجب عليه أن يدفعه ، حقاً لقد أدرك أنه سيدفع ثم يعود ويستأنف حياة الدعة والهدوء . كانت هناك صداقة غريبة ولكنها طاغية ، وكان هناك حب قوى لكنه طموح ، فرضى أن يحمل نفسه ما يكره ، وأن يغترب عن طبيعته قليلا . لكنه ما إن سافر حتى وجدت حميدة أن مشاريعه تضمحل ، وأصبح حب الحلو لها فكرة لا حقيقة لها ، مجرد أمل باهت لا تستطيع هى أن تقبض عليه وتعتصره بين يديها ، وأصبح طموحها معلقاً بمصير ذى غياهب مجهولة ، مما أعطاها القدرة على أن تغادر الزقاق ملبية أول نداء رأت أنه يحقق لها طموحها فى سرعة وقوة ووضوح. وهكذا شارك حسين وشاركت حميدة فى حياكة هذه المؤامرة التى انتهت بمصرع عباس الحلو ، الواحد بصداقته الطموح والأخرى بما أثارته فيه من حب خلاق .

وقبل ذلك ، ومنذ ست سنوات كان هتلر قد أعلن الحرب على إنجلترا ثم على الروسيا وبذلك كان مصير الملايين من البشر قد تقرر فيما تسمونه . . « القدر » كان قد تقرر أن يموت هذا غريقاً وأن تثكل هذه وتترمل تلك . وأن تصبح حميدة عاهرة ويموت خطيبها عباس الحلو مقتولا وهو لما يزل فى الثالثة والعشرين ، فصراع العصر لم يعد يقتصر على هؤلاء الذين يريدونه ويعلنونه ويشاركون فيه ، بل هو يمتد إلى الآخرين الذين لا يدلون برأى فى المعركة ويحاولون عبثاً أن يتجنبوا لفح الصراع ، وهكذا يشارك كل بما يملك أو يستطيع ، فشاركت حميدة

بجسدها وشارك عباس الحلو بمصيره .

والواقع أن عباس الحلو كان يدرك هذا المعنى من قبل إدراكاً واضحاً — برغم أنه لم يفلسفه — كلما انطلقت صفارات الإنذار وسمع أزيز الطائرات وقصف المدافع فوق رأسه . . كان يحس أن الحدث العام قد وصل الآن إلى مخدعه ، وقطع عليه هدأته وراحته ، وعطل له آماله وهواجسه كي يشارك هو والآخرون بعضهم بعضاً فى ترقبهم وانتظارهم وفى خوفهم وإنصاتهم . . هكذا أدراك أن الحدث العام جزء جوهرى من حياته الخاصة ، وأن الجميع يشاركون فى هذا النذير المنتشر فوق رءوسهم وقد مد أطرافه الممسوخة الجزعة إلى قلوبهم وخواطرهم ، وكان أحياناً ما يخشى أن يضطر إلى المشاركة فى هذا الصراع بذراع له أو ساقٍ ، لكنه ما كان يحسب أبداً أنه سيشارك فيه بحبه وسعادته أولا ، ثم بمصيره كله فى النهاية بعد أن تكون الحرب قد انتهت فصمتت المدافع فى الميادين واطمأنت القلوب فى الأوطان .

وهنا نستطيع أن نضيف إلى قائمة الاتهام شخصاً لم يشارك فى المأساة بصداقته أو حبه أو قيادته صراعاً عالمياً ، بل بمجرد سعيه إلى مصلحته الخاصة ، وربما يفرضه عليه عمله . . لم يعرف الحلو يوماً ولم يعرفه الحلو إلا شبحاً مقيتاً نغص عليه حياته وعقدها وأشاع الفوضى فيما استقر عليه من رأى ، ولم يحدث أن تقابلا أبداً ، ومع ذلك فقد كان لفرج إبراهيم أهميته الكبرى فى المؤامرة ، وكان عمله أن يهيئ الفتيات أمثال حميدة لمصاحبة جنود الحلفاء ، فما إن سافر الحلو إلى التل

الكبير ليعمل في جيوش الحليفة — كي يعود ويفتح صالوناً بالموسكى تحقيقاً لأطماع حميدة وتسليماً لصرخات صديقه — حتى تغير كل شيء .

في هذه الأثناء كان هناك جنديان إنجليزيان يعودان من ميدان القتال . . ومنذ ست سنوات أقبلا على باخرة إلى مصر . . وكان يدركان أنهما سيحاربان في الميدان وقد يقتلان وقد يقتلان ، وادعى أحدهما وهو مخمور أمام أصدقائه ذات مرة — ومنذ زمن بعيد — أنه قد جاء في مهمة سرية في الشرق الأوسط ، فضحك السامعون إذ ذاك وضجوا ، ولكن لم يجل بخاطر أحدهما أنه سيشارك يوماً في مصرع الحلو في حانة من حانات القاهرة ، وكانا الآن عائدين إلى القاهرة من ميدان القتال وقد قتلا عدداً من الألمان والطليان وظنا أنه بقي عليهما الانتظار حتى يعودا إلى وطنهما ، ولكن ثمة مهمة واحدة بسيطة كان عليهما أن يؤدياها في الشرق الأوسط في يوم قريب ثم يرحلا عنه في اليوم التالي إلى الأبد .

أما فرج إبراهيم فقد كان بالنسبة لحميدة في أول الأمر مجرد « عينين » عينين متفرستين وسط زحمة من الناس في حفل انتخابي أقيم أمام الزقاق ، كان مجرد عينين تدعوان حميدة وتثيران ما تهيأ في جسدها من رغبة وطموح وميل إلى المغامرة والانطلاق . . ولقد لبت حميدة ذلك النداء ، وفي الضوء الوهاج الذي بهر به فرج إبراهيم عينيها بدا لها الحلو قزماً ضئيلاً والحياة معه سخرية كبيرة ؛ وبدا لها

فرج إبراهيم شخصاً بيديه مفاتيح عالم متسع كبير يحقق لها ما تبتغيه من تميز وتفرد على بقية صديقاتها اللواتى لا يحلمن جميعهن إلا بمصير واحد متكرر حيث يلف النسيان والعدم ظلالهما عليهن وهن يخدمن أزواجهن ويرضعن أطفالهن ويسمعن بقية العمر شتائم أولئك وهؤلاء . كان الرجل يسعى فى سبيل عمله وكان الحلو مجرد اعتراض صغير مجهول فى هذا السبيل شد ما سهلت إزالته بلا تهيب ولا تردد . وهكذا اختفت حميدة من الزقاق ، وكانت تحسب أن فرج إبراهيم يهيم بها ، وكانت هذه هى وسيلته فى اجتذاب هذا اللون من النساء ، فلما أدركت الحقيقة ، لم تكره حياتها الجديدة ، ولكنها كرهت هذه الخدعة فأضمرت فى قلبها السوء والانتقام .

وفى باريس ، ومنذ عشر سنوات ، كان ثمة عمال يصنعون الزجاجات الفارغة ، وفى ليون ، ومنذ تسع سنوات ، كان ثمة آخرون يملأون بالنبيذ هذه الزجاجات . . ورحلت هذه الزجاجات وصدر بعضها للغرب وصدر بعضها للشرق ، وتدحرجت بضع زجاجات من يد تاجر إلى يد آخر وعددها يقل ويقل حتى استقر بعضها فى شارع من شوارع القاهرة . . وقبيل مصرع الحلو بيومين كانت إحدى هذه الزجاجات قد استقرت على رف من رفوف حانة النصر وفى متناول أحد الجنود .

ولقد عاد الحلو من التل الكبير فوجد كل شىء معداً لمصرعه ، ولقد عثرنا على محاولات قامت لإحباط هذه المؤامرة ، وأهمها تلك المحاولة

التى قامت فى اللحظة الأخيرة ، ولكنها كانت محاولة فردية لم يكن لها تأثير كبير على جرى الأحداث . . فى زقاق المدق ، وفى ليلة الحادث ، كان السيد رضوان الحسينى ينوى أن يقوم بالحج ، سمعه الحلو وهو ينصح الحاضرين قبل سفره بالشجاعة والصبر وألا يضعفوا أمام اليأس والغضب ، لكن هذا الصوت الهادئ قد ضاع وسط الضجيج الهائل الذى كانت نفس الحلو تصطخب خلاله فى تلك الليلة ، حقاً لقد تردد قليلا ، لكنه ما كان يمكنه أن يعود إلى طبيعته الأولى .

ولقد عثرنا مع القتيل ليلة الحادث على علبة بها عقد ذهبى مركب من سلسلة وقلب رقيق ودلت تحرياتنا على أن الحلو قد باور فى هذا العقد عواطفه وجسد آماله وارتبط به ارتباطاً أكثر واقعية فى حركته نحو حميدة . . وعلمنا أيضاً أنه حين قابلها فيما بعد ووجدها تزين رأسها بهلال ماسى وتزين أذنيها بقرط لؤلؤى أحس الحقارة والاحتقار وهو يتأمل أمامها عقده فى ذهول حتى لكأنما بريقه الذهبى الذى كان ينعكس على وجهه يشيع فيه قلقاً صاخباً عربيداً . وبهذا كان وجود الهلال والقرط عليها ووجود العقد الذهبى فى جيبه حتى ليلة مصرعه عاملا قوياً قد استطاع أن يغذى فيه بحق قوى الكراهية والغضب ، واستطعنا بتحرياتنا أن نتعرف على الصائغ الذى قام للحلو بصنع ذلك العقد ، وهو غير الصائغ الذى باع لحميدة الهلال والقرط ولو أنهما يسكنان فى حى واحد ، وكان كل منهما يكاد يواجه دكان الآخر .

كان قد لقى حميدة وأشعلت فيه نار النقمة من الرجل الذى سلبه سعادته : وتواعدت معه على أن يلقاه يوم الأحد ليقتص منه . . ومع ذلك فإن الحدث لم يقع يوم الأحد أبداً ، فقد كان لقاء الأحد مدبراً ويعرفه إنسانان هما حميدة والحلو ، أما مصرعه فقد ذهب الجميع ليشاركوا فيه من غير أن يدبره أو يعلم به أحد . . وهكذا تمت الأمور بأسرع مما دبرها الفتى والفتاة . . فعندما هبط الليل الذى شهد هذا الحدث الكئيب ، وقبل يوم الأحد بأيام كان الحلو يسير مع صديقه حسين ليعرفه بطريق الحانة التى سيلقى بها غريمه فى الميعاد المضروب ، ولكن كل شخص كان قد أعد الآن دوره : صديق ملحاح ، وفتاة منحته أملا أهاب به الخروج عن طبيعته ثم تركته يتمزق فى الطريق إليها ، وثالث يسعى فى سبيل عمله للحصول على قوته ، وصائغ صنع عقداً ذهبيـاً ، وزعماء قادوا الحرب ويستريحون الآن قليلا ، والمساء والحانة والذين صنعوا الزجاجة والذين عبؤوها والذين تاجروا عبر البحار والخادم الذى يضعها فوق الرف والجنديان الراحلان غداً أحدهما يسقيها من كأس فى يده والآخر يضع ساقيها على حجره وآخرون وآخرون حفوا بهم وهم يشربون ويعربدون . .

فى هذه اللحظة حصل عباس الحلو على قمة تحرره ، وزايله فجأة تهيبه وتردده ، وأحس أنه يقوم الآن بمغامرة حياته ، وهى مغامرة لا يعرف لأول مرة نتائجها ولا يحسب فيها خطواته . . ومن قبل كان قد غادر الزقاق على أن يعود ، أما الآن فقد كان يغادر الزقاق فقط ،

لايهمه أن يعود ، أو يذهب إلى الأبد . . كان يحس أن هناك تحولا حاسماً وملموساً يحدث الآن فى حياته كلها ، فاندفع يضرب حميدة بزجاجة من زجاجات الجعة الفارغة، ورأى الدم ينزف منها ويغمر وجهها حتى يحجبه عنه . . وبهت الآخرون لحظة ، لكنهم سرعان ما رفضوا أن يأذنوا له بأن يعترض بحريته الجديدة طرق حياتهم ولهوهم ، حتى صديقه حسين كرشه الذى طالما غذى فيه جانب التمرد والجنون قد وقف الآن ذاهلا خارج الحانة ، وهو يحس بأن كل نصائحه وكل مغامراته لتضؤل الآن أمام هذه اللحظة التى حصل عليها الحلو فى حياته ، ولقد حصل عليها فى الوقت الذى كان يتلقى اللكمات والركلات فتحرر وأشاع معه فى الحانة حرية لا يحصل عليها السكارى بخمرهم بل هى تحتاج إلى صحو شديد ، فأيقظهم ليحررهم معه لحظة ثم دفع الثمن . . وسرعان ما كان فى خدمة اللحظة حشد من القوانين بعضها رياضى يتعلق بحركة الأجسام وثقلها ومقاومتها للضغط ، وبعضها كيمائى مثل التأكسد فى الرئتين ، وبعضها فسيولوجى مثل محاولات الدم للتخثر ونقص الكرات البيضاء والحمراء وهبوط القلب ، وبعضها إنسانى عاطفى . كانت هناك شهوات ظمأى وكانت هنالك عاطفة جريحة وسفن فى البحر وقبلات فى المخادع ونظرات عابرة فى الطريق وأشخاص يحجون وأشخاص يتمردون وحب ومقت وقوانين وزمن وأزمنة . . وفى لمح البصر أدى كل مهمته ، وتصادمت العواطف والأهواء كما تتصادم الشهب فى سماء ليل حالك فيندلع حريق كبير لحظة ثم يخبو . . وأنا وأنتم أيها القضاة

والسامعون موجودون نشارك فى حشد المهازل والمآسى ، بعلمنا أو جهلنا ، بحركة أو كلمة أو نظرة ، ونحن نسعى فى سبيل عواطفنا وأعمالنا ، فيطرب شخص ويمرض آخر ويصرع ثالث ، وقفص الاتهام خال لا أحد فيه .

كنا جميعاً موجودين ليلة ذلك الحادث ، ونحن نتحرك حركاتنا فيقوم على أكتافنا تاريخ الإنسان ولم نفعل شيئاً فى سبيله ، وحرمناه حقه فى التحرر لئلا يحررنا معه ، واحتمينا بجهلنا وفضائلنا السابقة والمقبلة فتركناه ، ونحن نتنفس معه عصراً واحداً ، ونتناول معاً خبزاً ربما صنع فى مخبز واحد أو من قمح حقل واحد . . كان كل منا يعبر طريقه فى الحياة ، تختلف مدى أطماعنا ومدى قدراتنا ، وكان طريق عباس الحلو قد تعرج بين هذه الطرق حتى ضاق عليه الخناق ، شيئاً فشيئاً . . وقتلته اللكمات والركلات والزجاجات ، وفحص الطبيب الجثة وكتب المحقق التقرير ، وخط أمام القاتل بخط واضح ظاهر كلمة : « مجهول ».

ديسمبر ١٩٤٨

سياحة البطل



مؤمن عبد السلام عيد ، استطاع أن يحصل على وظيفة كاتب بمصنع للدخان بمرتب شهرى قدره أربعة عشر جنيها ، كما خطب إلى نفسه أخيراً فتاة استطاع إقناعها بأن تشاركه حياته ، واسمها — على سبيل المعرفة — عنايات . لكنه ما لبث أن قال : وما فائدة الوظيفة وما فائدة الخطيبة إذا لم يكن لى بيت ؟ . .

لهذا فى صباح كل يوم من أيام الجمعة ، يوم عطلته الأسبوعية ، يقوم كأنه ذاهب إلى عمله اليومى ، يقوم كأنه يؤدى واجبه الدينى ، يقوم كأن أمامه رحلة طويلة شاقة . .

ونظر إلى الرجل الذى شاركه غرفته هذه الليلة . كان شخيره لا يزال يعلو وينخفض ، ورائحة الريف تنبعث من ثيابه ، وصياح الدجاج ورائحته تنتشر فى المكان . فى مساء الأمس أقبل هذا الرجل يحمل أقفاصاً من الدجاج ، حين كان النعاس قد أخذ يتسلل إلى عينيه ، وحين كان المكان قد هدأ إلا من صوت الأرانب التى يربيها صاحب الفندق وهى تقفز فى الظلمة وتحت السرير من حين لآخر . . ثم جمعتهما الغربة والوحشة والظلمة المغرية الخبيثة ، فمضى يدلى باعتراف كامل عن تاريخ حياته ، وكيف تدرج حتى أصبح اليوم تاجراً للدجاج ، وها هو ذا قد أقبل بهذه الأقفاص جميعها يرجو أن يبيعها فى سوق المدينة صباح اليوم .

وأمام باب الفندق كانت هناك نصف دائرة تنحنى نحوه ، تتكون من زجاجات الكازوزة المقلوبة ، قد دفنت منها رءوسها فى التراب وبقيت بقية أجسادها متساندة منحشرة بعضها إلى بعض على هيئة نصف دائرة تنحنى نحو طرفى الباب .

وكان صاحب الفندق يقصد بذلك — فيما يظن — إلى زركشة المدخل العام وجذب أنظار العابرين . وكان هذا هو — على ما نعلم — جهده الوحيد الذى بذله للإعلان عن فندقه العظيم .

وعبر نهاية الحارة ، وفكر لحظة أن يقف عند مطعمه المفضل ليتناول شيئاً يستعين به على رحلته الطويلة المقبلة خلال أزقة المدينة وشوارعها ، لكن لم تكن له شهية على الإطلاق . وكان المطر قد هطل غزيراً فى تلك الليلة وتبقت منه الآن برك وأوحال مضى أطفال الحارة يتسابقون فى خوضها فتفاداهم وهو يواصل سيره . . فقد كان يعرف اليوم إلى أين يتجه ولو فى الساعات الأولى من النهار ، كان عليه أن يمر بمنزل صديقه صلاح ليدله على مسكن متواضع عساه يروقه وتروقه عروض صاحبه . وكان مطلبه — كما يبدو من إخفاقه المتتالى — عسيراً للغاية ، فهو لا يريد سوى مسكن متواضع بأجر متواضع ، مسكن به يؤدى غرائزه الأولى : غرفة نوم وأخرى للاستقبال ومطبخ للطعام ومرحاض ، وكان هذا — فيما يبدو — عسيراً للغاية .

فما إن وصل إلى منزل صاحبه وعلا الدرج المعتم المتكسر ، حتى طرق الباب طرقاً خافتاً متوالياً ، فقد كان يبدو وكأنما النعاس لا يزال

يملأ جنبات البيت ، وحين أعاد الطرق من جديد ، أعلى صوتاً وأكثر جرأة ، ترامى إلى سمعه وقع أقدام مقبلة . فلما فتح الباب وجد نفسه أمام الزوجة الشابة وهى لما تزل فى قميصها الليلى ، وكتفاها تبدوان مستديرتين ناعمتين . ولما لمحته تراجعت إلى الوراء قليلا ، وصاحت معتذرة : لاتؤاخذنى ، ظننتك بائع اللبن . ثم أذنت له فى الدخول .

ولقد رأى صديقه جالساً فى الردهة يتناول إفطاره . وبدا له أنه شخص متطفل يزعج الناس فى بيوتهم فى مثل هذا الوقت المبكر وفى يوم راحتهم الأسبوعية ، لكن ما كان له أن يتردد ، فاندفع وصاحبه يصيح به : تفضل يا مؤمن ، فأنت لم تأكل بعد بلا شك . وأحس أن شهيته تتفتح الآن حقاً ، ولكنه ادعى أنه أفطر ، وتمتم متشكراً ، وهرول متجهاً نحو غرفة الاستقبال ، ولكن صديقه صاح من جديد يريده أن يجلس معه ويشاركه الحديث . وهكذا جلس أمامه ، وهو يود لو لو ينتهى من طعامه سريعاً ، فوجوده فى مثل هذا الوقت قد قيد حركات الزوجة قليلا بلا شك ، ولعله أزعجها حين رآها وهى لما تنفض عنها النعاس ، وهناك البيت الذى يود لو يحصل عليه سريعاً . ولكن إلحاح صديقك يامؤمن وهدوءه وعدم اكتراثه لما بدا عليك من خجل ، لم يدع لك مجالا للاعتراض ولا لإبداء شىء مما يعتريك .

— هل لك يا مؤمن فى سيجارة ، ما أخبار عملك يا مؤمن ، هل لك يا مؤمن فى قدح من الشاى ؟ . وكانت الشمس تنفذ من خلال النافذة ، وصلاح يتناول القدح ويقدمه لى ثم يقذف بعلبة سجائره .

وكان على أن أرضيه فأطيع ، فأنا اليوم فى حاجة حقيقية إليه ، وهو وحده الذى يمكن أن يكون واسطة بينى وبين صاحب البيت الذى نقصده . وحدثنى عن عملى ، وحدثته عن طفله ، وشرب قدحه من الشاى وشربت قدحى من الشاى ، وتناول قدحاً آخر ودخنت سيجارة أخرى ، وقام يتحرك وشعاع الشمس يزداد اقتراباً منى ، وهو يغسل وجهه ، وهو يختفى عنى ، وأنا وحدى فى الردهة ، وزوجه تعبر أمام وجهى ، وأنا أشتهى النساء وأشتهى حبيبتى ، عارية بضة ، وغرفة النوم وغرفة الاستقبال ، والمطبخ والمرحاض ، وصديقى قد ارتدى بذلته ، وأنا أود لو أستعجله ، وهو يختفى عنى قليلا ليداعب طفله ويودع زوجه ، وأنا فى حاجة حقيقية إليه ، حتى جرؤت أخيراً أن أصيح فيه قائلا :

ــ لقد آن لنا أن نخرج !

ــ ولم العجلة يا صديقى وأمامنا نهار كامل ؟

ــ ولكنى لا أريد أن تضيع منا عبثاً دقيقة من دقائق هذا النهار .

ــ لا تخف ، لا تخف ، فإن زوجى تعد لنا القهوة ، فإذا شربناها خرجنا توًّا . . .

ــ لكننا شربنا الشاى ؟

ــ ما رأيك فى سيجارة أخرى ؟

فلما تناولا القهوة ، خرجا إلى الطريق ، فإلى طريق آخر فثالث . طريق بعد طريق . طرق بعضها موحل . وكان عليهما أن يخوضا ، وكان

عليهما أن ينفضا الوحل وأن يستنشقا الوحل ، ومؤمن يتكئ على ذراع صديقه بين حين وآخر ، يتأمل رأسه أحياناً وعينيه أحياناً .

كانت بينهما صداقة طويلة عنيفة ، فهو يكرهه وهو يحبه ، وكانا يحسان فى هذه اللحظة أنهما قد استنفدا كل شىء بينهما : تحدثا فى كل موضوع ، وعاشا كل انفعال ، وما يزال كل منهما فى حاجة إلى الآخر . وسارا صامتين ، يعبران بقايا الوحل ، ويتفاديان دوائر الماء الضحلة ، ومؤمن يبحث عن معنى يتألق فى نفسه أو خبر يثير من اهتمامهما أو أمل يصنعانه معاً ، فقد كان صمتهما الآن محرجاً للغاية ، كأنما فيه حكم على ما يشوب علاقتهما من شيخوخة تحتاج إلى التجديد . وكان مشروعهما الذى يهدفان إليه الآن قد أدخل شيئاً من الجدة على علاقتهما ، وأحيا الرابطة التى بينهما . ولمحه مؤمن يتفرس فيه كأنما ليؤنبه على صمته ، وأدرك أن صديقه ينوى ويمهد للحديث ، وكان يود لو يحادثه ، فعاونه على محاولته بأن تهيأ بوجهه لما عساه أن يقول ، وقد صدق توقعه حين رآه يهمس :

— فيم تفكر ؟

— لا شىء . .

— بل تفكر فى شىء . .

أفكر فى شىء ، بل أنا أفكر فى أشياء كثيرة ، غير مجرد العلاقة التى بيننا ، وأنا أعلم أنه يصر أن أحدثه ، وكان على — وأنا أعبر بقايا الوحل — أن أختار له موضوعاً ما ، فأجبته :

— فى البيت الذى نحن ذاهبون لرؤيته . .

ـ بل تفكر فى شىء آخر .

ـ بل هذا ما كنت أفكر فيه .

ـ بل فى شىء آخر . .

وهكذا حدث ما كان يخشاه ، فها هو ذا يحاول أن ينتزع شيئاً منه ، شيئاً من أعمق أعماقه ، يخفيه هو عن نفسه ، شيئاً غامضاً لا يعرفه وربما لا يريد أن يعرفه ، وهو يعد موضوع المسكن تافهاً لا يرضيه ، وعليه أن يختار له موضوعاً يقنعه أنه محور تفكيره . وكان قد قرر ألا يذكر له كثيراً عما بينه وبين خطيبته عنايات . فيكفيه أن يعرف أمر العلاقة العامة ، أما التفاصيل فهى شىء خاص به ، وكان يعلم أنه كثيراً ما أغراه بالحديث عنها ، ولكن فى كل مرة يعود من عنده وهو يحس أنه قد امتلكه فلم يعد له سر خاص ، وقد سلبه بطريقة تهلكه تماماً . فلما لاحظ صمته همس فى رقة : وكيف حال عناياتك ؟

وابتسم مؤمن وتملكه إغراء أن يحدثه عنها طويلا طويلا ، لكنه كان يقاوم وهو يواصل هجومه :

ـ هل قابلتها بالأمس ؟

ـ نعم ، هى على خير حال وتبلغك تحياتها . .

نعم هى تبلغك تحياتها ، وهو خبر ليس مختلقاً ، إلا أنى ما ذكرته لك يا صلاح إلا عساه أن يرضى غرورك ، راجياً أن تعدل عن مواصلة الحديث فى هذا الموضوع ، لكن هذه الوسائل ما كانت لتجدى معك ، فعلى إذن أن أندفع فى الحديث ، وأن أذيع آخر الأخبار ، التى كنت

قد قررت — كما قررت فى مرات كثيرة سابقة — أن تظل ملكى أنا وحدى .

* * *

وفى النهاية وصلا إلى زقاق ، والزقاق ينتهى ببناء ، والبناء ضخم جديد لا يتفق والزقاق . وحين رأى مؤمن صديقه يتجه نحوه ، لم يصدق ذلك أول الأمر ، ثم قال لعله ذاهب يستفسر عن شىء . فلما أصبحا وجهاً لوجه أمام بوابه النوبى الضخم ، أحس شيئاً من الإشفاق والتهيب وهمس فى أذن صاحبه :

— هل المسكن الذى نبحث عنه موجود فى مثل هذا البناء ؟

— بلا شك ، وإلا فما معنى هذه الرحلة الطويلة كلها ؟

— لكن مساكن هذا البناء من النوع الذى يعلنون عنه فى الصحف.

— لكن هناك مكاناً أعتقد أنه يلائمك . . ألا ترى هذا الطابق الأرضى ؟

— بل هو تحت الأرض .

— بل هو خير من مسكنى الذى أوشك أن يتداعى .

لكن هذا المسكن تحت الأرض ، ومسكنك يوشك أن يتداعى ، والبواب يقبل نحونا ، وصديقى يحدثه وأنا أتفرس فى سمرته ، وفى النقوش المحفورة على خديه ، فعلى كل وجنة أرى شكلا هندسياً لخطين متوازيين ، وهو ذو ثقة عظيمة فى نفسه، إنه يحس بأهميته وإننا الآن نعتمد عليه وعلى كل حركة وكلمة منه . وغاب لحظة ، ثم عاد

وبيده مفتاح من النحاس الأصفر مربوط إلى قطعة من الدوبار مع كمية هائلة من المفاتيح المختلفة الألوان والأحجام . وتقدمنا ونحن ننخفض خلفه بضع درجات . ثم وقف وتنحنح وبصق . وأدار المفتاح فى الباب . وكان علينا أن ننحنى قليلا جداً ونحن نعبر الباب حتى لانصطدم بأعلاه .وكانت رائحة الطلاء لا تزال تفوح من جنبات الجدران . وكانت الغرف ضيقة ومنخفضة ومعتمة ورطبة ولكنها نظيفة جداً ، مهيأة أكثر مما أرجو ، فها هى ذى غرفة الاستقبال ، وها هى ذى غرفة النوم ، ومطبخ ومرحاض ، وهنالك أيضاً ردهة وحمام . كانت فيه الكهربا تمتد خلاله أنابيب المياه وكان يكسو أرضه البلاط ، وبنوافذه زجاج عليه طلاء أبيض كثيف يحول بيننا وبين أقدام العابرين فى الطريق وبين نظراتهم إذا شاءوا الانحناء ، وهناك أسلاك دقيقة الفسحات وقضبان حديدية بين الزجاج والأسلاك . وكان البلاط فى بعض الغرف مزخرفاً ، وكانت الجدران فى بعض الغرف مزركشة ، وثمة صدى لوقع أقدامنا على بقايا الرمل هنا وهناك . وصديقى يتمتم : رائع رائع ما رأيك ، رائع ، وأنا أفكر فى ضيق الغرف ، فى عدد النوافذ ، فى زواجى القريب ، فى صديقى ، فى المطر ، فى إلحاحه ، فى خطيبتى ، فى صاحب هذا البناء ، فى مصنع الدخان ، فى الأجر الذى عساه أن يطلبه ، وصديقى يتمتم : رائع رائع . . فلما رأى صمتى ، اغتنم فرصة ابتعاد البواب — وأحسبه قد ذهب يبول فى مرحاض بيتى الجديد — وصاح :

ــ الأمر لا يحتاج إلى تردد .

ــ انتظر حتى نرى كم يطلب أجراً .

ــ دائماً تعلق أمورك على شرط ، هل أعجبك البيت ؟

وظهر البواب من جديد ، فصمتا وكأنهما منشغلان بشيء آخر . . وقف البواب وقد عقد يديه كأنما ينتظر أمراً ، وكأنما لمح ما على وجهيهما من إشفاق وتهيب . وكان إحساسه بأهميته فى هذه اللحظة قد ازداد ، فتفرس فيهما لحظة واحدة لكنها ما كانت لتغيب عن أنظارهما، وكأنما شاب نظرته شيء من الريبة فيهما ، قال عليهما كأنما يوشك أن يدلى بسر خطير وهمس :

ــ هل تنويان أن تؤجرا هذا المكان ؟

ــ نعم نحن نفكر فى ذلك .

ــ وهل ستؤجرانه معاً ؟

ــ بل سيؤجره واحد منا ، صديقى هذا .

ــ وكم يستطيع أن يدفع ؟

ــ بل كم يطلب صاحب هذا المسكن المعتم الرطب .

ــ إذا كان منخفضاً معتماً رطباً ، فاتركاه وعودا بعد يومين لن تجدا غرفة واحدة خالية فى هذا البناء كله .

ــ قلت لك كم يطلب ؟

ــ لست أعرف على وجه التحديد ، لكنكما تجدانه الآن جالساً بمقهى الأزهار بميدان الحرية ، ويحسن ألا تقابلاه مباشرة .

فقالا فى صوت واحد : ولماذا ؟

ـ لأنه من الخير أن يكون بينكما وبينه وسيط فيؤجر لكما المسكن بأجر معتدل .

ـ لكننا لا نعرف أحداً من أصدقائه .

وجلس البواب على مقعده الخشبي ، خارج البوابة العظيمة ، تجاه السلم الرخامى . والساكنون الجدد يصعدون ، والساكنون الجدد يهبطون ، وهو يرفع عينيه من حين لآخر ليتم حديثه ، وهما يصدقان كل كلمة مما يقول .

* * *

وكان المقهى يحتل زاوية عند التقاء الميدان بأحد الطرق المتفرعة عنه . ومساحو الأحذية منتشرون على طول الرصيف يلتقطون الداخلين كلما لمحوا حذاءه موحلا أو شبه موحل . وكانت أبواب المقهى زجاجية ، قد طليت عوارضها الخشبية بطلاء حديث أصفر ، وعليها لافتات تحذر الداخلين من التلوث . فاقتربا من أحد هذه الأبواب يرقبان الجالسين .

كان رواد المقهى من سن واحدة تقريباً ، يكادون يرتدون زياً متماثلا كأنهم تلاميذ فى مدرسة ، وكان أكثرهم لا يسير باعتدال ، بعضهم كأنما قدماه صناعيتان ، وبعضهم يخب كأنما له قدم أطول من الأخرى ، وبعضهم يفسح ما بين رجليه كأنما به شيء من كساح أو كأنما هنالك مسامير داخل حذائه . وبرغم اختلاف السن واختلاف الزى بينهما وبينهم إلا أنهما شعرا أنه من الواجب عليهما أن يعرجا قليلا فى مشيتهما حتى لا يلفتا الأنظار . أما القائمون بالخدمة فكانوا يملكون أقداماً

سليمة صحيحة ، وكان الرواد جميعهم — بلا استثناء — يلعبون الشطرنج ويحتسون القهوة ويدخنون ، وكأنما قد قسموا أنفسهم إلى فرق وأعلنوا السباق ، كل يريد أن يصرع أخاه . . كانوا منهمكين فى اللعب ، وثمة صمت منتشر فى المكان كأنما هو رواسب حوار عميق وغريب قائم بين كل اثنين قد اشتد التنافس بينهما . والداخلون يعرجون ، والخارجون يعرجون ، والخدم يذهبون ، والخدم يجيئون ، وهما يتفرسان فيهم عساهما يختاران الشخص الذى يتوسمان حاجتهما فيه .

وكانا قد تسللا داخل المقهى ، ودنا من ناحيتهما خادم أسمر بيده كوب ماء ، فلما وضعه أمام أحد الجالسين وقفل راجعاً اقتربا منه ليستوقفاه ، وتفرس مؤمن فى وجهه فإذا به نوبى أيضاً وعلى وجهه نفس الشكل الهندسى . . خطان متوازيان غائران فى وجنتيه . وبرغم أنهما كانا يعرجان قليلا فى مشيتهما إلا أنه أدرك على الفور أنهما غريبان ، وحين أخذ صلاح يسأله لمح مؤمن فى عينى الرجل البريق نفسه ، بريق الإحساس بالأهمية كأنما هو ليس مجرد خادم بينهما وبين الذى يطلبانه . . ولقد أخبرهما أن « البك » ليس موجوداً ولو أنه كان هنالك منذ لحظات إلا أن صديقه يونس بك لا يزال يجلس ويعرف أين يمكن أن يكون .

إذن فالرجل ليس هنا ، ويونس بك هنا ، ونهار كامل ، بل أسبوع آخر يوشك أن يضيع عبثاً ، وخطيبتى عنايات تدفعنى وصديقى صلاح يدفعنى ، والفندق ذو الأرانب يدفعنى ، ورحلتى هذا النهار

ووجودى فى هذا المكان وخطواتى التالية ، كل ذلك لا يدع لى مجالا للاختيار ، فعلى إذن أن أواصل كفاحى بقية النهار .

ودلهما الخادم على رجل فى نحو الأربعين ، رأسه تلمع « وعويناته » تلمع وبذلته السوداء تلمع وحذاؤه يلمع ، من رأسه إلى قدميه . . كان ينبعث منه بريق كأنما يبدو من خلال مرآة ، وكان مهذباً للغاية ، فقد كان يضع ساقاً على ساق فلما رآهما أنزل ساقه إلى جانب الأخرى ، وأذن لهما بالجلوس ، وسارع ينادى الخادم كى يقدم لهما شيئاً ، ولاحظا رقعة الشطرنج أمامه ، وكانت القطع السوداء فى جانب فى حين اصطفت القطع البيضاء فى الجانب الآخر ، وكان يبدو من وضع القطع أن اللعب قد بدأ حديثاً . وقد أدرك مؤمن فى الحال ما طرأ على فكر صديقه ، فصلاح يود لو يجلس أمام يونس بك ويلاعبه الآن ، ولا بأس أن يستمر اللعب ساعة وساعات إلى آخر النهار . عساهما يستطيعان أن يكسباه إلى جانبهما . فلماذا لا يكون يونس بك واسطة بينهما وبين صاحب المسكن ، وكان صلاح يجيد لعبة الشطرنج ، أما مؤمن فهو لا يزال يتعلم المشاركة فى هذا اللون من الصراع . وقد حدث ما توقعه مؤمن ، فإن صديقه صلاح لم يفاتح يونس بك فى المهمة التى أقبلا من أجلها ، بل كأنما سعى إليه خصيصاً لكى يلاعبه الشطرنج ، وبدأ يكشف له عن سعة معلوماته ولكى يوضح له أنه برغم عدم إصابته بالعرج كأكثرية الباقين ، إلا أنه لا يقل عنهم فى اللعب مهارة ، وكأنما كانت كلمة الشطرنج هى كلمة السر بينهما ، فما لبث أن صاح

فيه يونس بك قائلا :

ــ لقد جئت إذن فى وقتك المناسب أيها الرجل ، فلقد غادرنى صديق منذ لحظات ، وكنت حائراً فيما يمكن أن أفعله الآن .

وجلسا وجهاً لوجه ، وبدأ التحمس على وجه صلاح ، وأصر على أن يبدأ صف القطع من جديد بعكس يونس بك الذى كان يود لو يبدأ اللعب من حيث توقف . وكان من المحتمل أن يطرأ على ذهن صلاح فكرة خبيثة ذلك ألا يتحمس كل هذا التحمس وألا يخلص له كل هذا الإخلاص ، بل يقدم هزيمته للرجل على سبيل الرشوة ، لكنه فى الواقع قد اندفع لا يتنبه لشىء من ذلك على حين كان مؤمن يرقب عقربى الساعة المثبتة فى أعلى الحائط أمامه .

وفى الساعة الحادية عشرة كان قد مات أول بيدق أبيض ، وفى الحادية عشرة وثلاث دقائق مات أول بيدق أسود ، ولا بد أن كلامنهما قد ضحى ببيدق من عنده ليستر وراء ذلك هجوماً بعيداً . وفى الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق كانت قد ماتت ثلاثة بيادق أخرى سوداء وثلاثة أخرى بيضاء ، وفى الساعة الواحدة مات رخ الملك الأبيض وحصان الملك الأسود ، وفى الساعة الثانية تذكر مؤمن أنه لم يتناول طعاماً من الصباح حتى تلك اللحظة . وفى الساعة الثالثة والنصف كان رواد المقهى قد أخذوا ينصرفون ، وفى الرابعة كان الرذاذ يطرق زجاج المقهى فى الخارج ثم انقطع ، وفى الخامسة كان فيل أسود قد مات ، وفى السادسة إلا عشر دقائق قال يونس بك (كش ملك) وفى السادسة تماماً كانت

المعركة قد وصلت لحظتها الحاسمة وكأنما لم يعد الصراع أمام مؤمن مجرد قطع سوداء وقطع بيضاء ، وفى السادسة وعشر دقائق مات رخ أسود ، وفى السابعة إلا ربع كان مؤمن يجتر أشياء كثيرة عجيبة حول حياته وطفولته ورئيسه ومستقبله وفتاته ومسكنه ، أفكار يعيدها مرة بعد أخرى بلا نهاية في دائرة مغلقة على نفسها كأنما يقضم أظافره ، وفى السابعة إلا خمس دقائق كان المقهى قد ازدحم بالرواد من جديد ، وفى السابعة تماماً قال صلاح « كش ملك » وفى السابعة والربع كان مؤمن يشرب فنجان القهوة السابع ويدخن السيجارة العشرين ، وفى السابعة والنصف إلا سبع دقائق مات الوزير الأبيض وبعدها بخمس دقائق مات الوزير الأسود مما بين أنهما موشكان على نهاية هذا الصراع .

وفى السابعة والنصف تماماً لم يبق من القطع السوداء إلا الملك وأربعة بيادق على حين تبقى من القطع البيضاء بيدقان وحصانان ورخ الملك ، وبهذا أصبحت نهاية الملك الأسود معروفة ومحتومة ، فبعد ثلاث نقلات سيموت لا محالة ، وبهذا أصبح صراع الأسود مع الأبيض صراعاً لا جدوى من ورائه .

وبدا على الرجل أنه لا يقبل الهزيمة ، وأنه يود أن يبدأ من جديد ، وهما يحاولان إيجاد طريقة للخلاص ، حين شاهدا يونس بك يرفع بصره نحو رجل مقبل ضخم الجثة يسير على مسندين ، فلا بد أن ساقيه صناعيتان ، ولما أصبح أكثر اقتراباً وقف يونس بك باحترام شديد ، مما اضطرهما أن يقفا معه – وبنفس الاحترام – بدورهما ، وأقبل الرجل

الضخم محيياً يونس بك ، وقدمهما إليه يونس بك بغير أن يقدمه لهما ولا أن يذكر اسمه ، فيبدو أن الرجل كان من الشهرة بحيث افترض فيهما يونس بك أنهما لابد يعرفانه من قبل ، وقد لحاساعته الذهبية وسلسلته التى تهبط من جيب داخلى ، وعرفا فيه صاحب المسكن الذى جاءا يطلبانه ، وظل الرجل واقفاً بضع دقائق فظلوا واقفين معه ، فلما جلس ومرت نحو نصف دقيقة أذن يونس بك لنفسه أن يجلس وأن يجلس معه مؤمن وصلاح ، وسمعاهما يتهكمان فى الحديث .

— وماذا قال محاميك ؟

— ليس أمامه إلا أن يرفع الأمر إلى القضاء .

— إذن فلم يترك الرجل المسكن ولا يريد مغادرة المكان .

— بل لا يزال يصر ويرجو .

— آه قصة زوجته وأطفاله ، والرصيف والسماء .

— وقصة المال الذى سيأتيه ولا يأتيه !

— والوسطاء الذين يرسلهم وراءك فى كل زمان ومكان !

وهنا انحنى الرجل الضخم وهمس فى أذن يونس بك .

— أظنهما وسيطين .

— بل يريدانى وسيطاً بينك وبينهما .

قالها يونس بك ضاحكاً ، لكنه ما لبث أن دهش حين أخذنا نوضح الأمر ، وكنا متحمسين للغاية ، فليس هناك مجال للخوف أو الخجل ، حدثه صديقى عن وظيفتى وحدثته عن مرتبى ، حدثه عن اسمى وحدثته

عن اسم خطيبتي ، حدثه عن حبي وحدثته عن زواجي ، حدثه عن الفندق الذي ترعى به الأرانب وحدثه عن أصدقائي وأحلامي ، والرجل يستمع إلينا ، وأنا مدرك أنه قد يطردني ذات يوم من مسكني الذي لن أملكه ، حين يكون لي زوجة وأطفال ولا مأوى لهم بعد ذلك إلا الرصيف والسماء .

— وكم تريد أن تدفع ؟

— خمسة جنيهات .

— بل سبعة جنيهات .

— ولكن هذا نصف مرتبي .

— ولكن المسكن سيظل خالياً ولن يؤجر لك بهذا الأجر

وفي الساعة الثامنة وخمس دقائق أعلن يونس بك أنه يريد نفس هذا المكان مخزناً لبعض بضائعه . وعند ذلك أدرك صلاح أنه كأنما أخطأ بانتصاره ، وأنه سلك إلى نفسية هذا الرجل طريقاً عكسيًّا فأبعده عنه بقدر ما كان يريد أن يقربه إليه .

وبينما هما خارجان ، التفت صلاح إلى مؤمن وقال هازئاً :

— لقد بدا عليه الغضب كأنما أخطأت بانتصاري ، كأنما ليس من حقي أن أنتصر .

* * *

ولقد هبط المساء الآن والسماء توشك أن تمطر من جديد ، وعليك أن تعود يا مؤمن إلى الفندق ، حيث تجس كأنما أنت قادم من سفر

وكأنما أنت على أهبة سفر جديد ، ستجد زجاجات الكازوزة المقلوبة ، وترى صاحب الفندق وهو ما يزال يبصق ومن حوله الأرانب تقفز . . وستدخل غرفتك وتضيء النور لتشم بقايا رائحة الدجاج وترى من عساه يشاركك غرفتك هذه الليلة ، ثم تجمعكما الغربة الموحشة والظلمة المغرية الخبيثة ، وتحصل على اعتراف جديد .

بل ستعترف أنت الليلة لزميلك الجديد ، ستروى له كيف كافحت حتى أصبحت كاتباً بمصنع الدخان ، وكيف كافحت حتى تعرفت على عنايات ، وخطبتها إلى نفسك ، ثم تخبره أنه لا بيت لك ، قل له إن بيتك فى المقهى ، وفى الطرقات ، وفى سينما المدينة حيث يعرضون عليك منازل فخمة ، وبيوتاً رحبة واسعة ذات حدائق وذات أثاث بلورى ، لها غرف كثيرة ، وأبواب ، ونوافذ ، وفيها أطفال وفيها حفلات ، قل له إنهم يهدمون فى المدينة كل منزل منخفض ويخططون كل أرض فضاء ، ثم ترتفع منازل ضخمة عالية رائعة الهندسة متعددة الحجرات كقصور التيه ذات نوافذ كثيرة وشرفات كثيرة وأبواب مغلقة كلها فى وجهك .

فإذا صحا الصباح ستذهب إلى عملك حيث تلتقى بصديقك صلاح ، ثم تنحنى ظهراً على منزل خطيبتك حيث دعتك لتناول الغذاء ، لا تنتظر هذه المرة للأسبوع المقبل ، فلتواصل بحثك غداً وبعد غد وبعد غد . اغتنم كل فرصة وكل دقيقة . اقرأ إعلانات الجرائد جميعها وسر بطرقات المدينة جميعها واسأل من تعرفه وتعرف على من لا تعرفه ،

واجمع حولك كل من لا بيت له . فأنت بطل من أبطال هذا القرن ، لأنك استطعت الحصول على وظيفة ، والحصول على حب ، ولابد لك – وللآخرين – من الحصول على بيت .

نوفمبر ١٩٥١

محتويات الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٥٠٦/١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣



اقرأ

محمد عفيفي

التفاحة والجمجمة



اقرأ

تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

محمد عفيفي

التفاحة والجمجمة

اقرأ ٣٦٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٥ – مارس سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

الفصل الأول

أعتقد أن الوقت قد حان لكى أدون قصتى ، قصة الأحداث المضحكة والفاجعة التى وقعت لى فى تلك الجزيرة الفذة ، وإن كنت أشك فى إمكان وصولها — قصتى — إلى أى إنسان ، لأننى بعد أن أكتبها لن أقدمها إلى الناشر كما يفعل سائر كتاب القصص ، بل سوف أضع الأوراق فى كيس من النايلون ، ثم أضع الكيس فى جرة بدائية تشبه القلة ، ثم أسد تلك القلة سداً محكماً ، وذلك توطئة لإلقاء القلة نفسها فى البحر العريض لتحملها أمواجه إلى حيث يشاء القدر . هذا بالطبع إذا أتيح لى أن أتم كتابة القصة نفسها قبل أن يفنى القلم الرصاص الذى أكتبها به ، وقبل أن ينفد الورق الذى أدونها عليه ، فهل تصدق أننى أكتبها على الظهور البيضاء لعدد من الشيكات القديمة ؟ وبعد أن تمتلىء الظهور سوف أواصل الكتابة على الوجوه بين السطور المطبوعة التى تقول : ادفعوا لحامله مبلغاً وقدره ! وبعد ذلك سوف أكتب على كعوب الشيكات ثم على غلاف الدفتر ، تلك العملية التى تلزمنى أن أوجز فى بعض الأحيان أشد الإيجاز ، وهو ما سأفعله من فورى بصدد غرق السفينة التى كنت فوقها .

فى جوف الليل والناس نيام ، انفجار رهيب زلزل أركان السفينة ، ثم هرج ومرج وصراخ وعواء ، وعشرات من الناس يقفزون إلى البحر بالبيجامات والجلاليب وبعضهم نصف عرايا . لكننى لم أكن قط من الناس الذين يفقدون عقولهم ساعة الخطر . كنت وقتها — بسبب الحر — نائماً وحتى بالملابس الداخلية ، فأسرعت بارتداء بنطلون البيجامة .

إذا كان لا بد أن أغادر السفينة ـ قلت لنفسى ـ فجدير بى أن أغادرها بكرامتى . سواء كنت سأموت وأقابل الله أو أعيش وأقابل الناس ، فلماذا لا أكون فى الملابس اللائقة ؟ بالبنطلون والفانلة ذات الحمالات خرجت إلى سطح السفينة التى مالت على جنبها وأوشكت أن تغرق ، فوقفت لحظة أنظر إلى البحر الذى امتلأ بناس بعضهم يسبح وبعضهم يصرخ وبعضهم يغطس ويقب . لكننى لم ألق بنفسى بينهم ، طول عمرى أحب الوحدة حتى عندما أغرق . لذلك قصدت إلى ناحية بعيدة عن الناس واعتليت سور السفينة ، وناظراً إلى السماء حيث يسطع القمر أخذت شهيقاً عميقاً ثم ألقيت بنفسى فى الماء . وهناك فقط تذكرت أمراً كان يجب أن أتذكره من قبل ، وهو أننى لا أعرف السباحة .

لحظة من الفزع الأسود حين تذكرت هذه الحقيقة وأنا أرتطم بالماء ، ثم وأنا أغطس تحته توطئة لأن أقب ، وأغطس مرة ثانية وأقب ، عالماً أنه ما هى إلا عدة غطسات مماثلة ثم أغطس لكيلا أقب أبداً . الماء سوف يتسلل إلى صدرى ويخنقنى ، ثم يهبط بى إلى القاع الغامض الرهيب ، وسط آلاف من الأسماك والكابوريات التى تصفق فرحاً بهذه الوليمة الفاخرة . خيالات مزعجة قطعاً ولكنها لم تنجح هى الأخرى فى أن تفقدنى صفاء ذهنى . من ناحية تذكرت الاسم العلمى لهذه الميتة وهو الاسفكسيا ، ومن ناحية أخرى تذكرت المثل الذى يتحدث عن تعلق الغريق بالقشة فبدأت أضرب بذراعى هنا وهناك باحثاً عن القشة المذكورة . عدة ضربات طائشة ثم وقعت يدى اليمنى على جسم غريب سرعان ما تشبثت به تشبث الشعرانة ــ إذا سمحت لى بهذا التشبيه ــ بجلد الحصان . ما هو هذا الجسم لم أعرف للوهلة الأولى ، لكننى عرفت فى الوهلة الثانية أنه نوع من القماش . وهو قماش ملتصق بجسم بشرى ، وبناء عليه فهو ثوب يرتديه صاحب ذلك الجسم . وهو فيما يبدو واسع مبحبح ، إذن فهو إما جلابية على جسم رجل وإما فستان على جسم

سيدة . وبما أنه ناعم كالحرير فأغلب الظن أنه فستان .

فبينما أنا أتخبط بين تلك الأفكار إذ أحسست يداً تمسك يدى وتحاول أن تنزعها عن الثوب ، لكن هى مين ؟ فلما يئست اليد من انتزاع يدى أحسست بها تهجم على رأسى ، تمسك شعرى بقوة وتجذبني منه إلى أعلى . فبرزت على سطح الماء وأنا ألهث وأسعل ، وصوت أنثى قرع أذنى وهى تصرخ قائلة : « امسك الخشبة ! امسك الخشبة ! » .

خشبة كبيرة طافية بادرت إلى التعلق بها ، بجانب الأنثى التى كانت تتعلق بها قبلى ، والتى لا أدرى من أين حصلت عليها .

ـ عايز تغرقنى معاك ؟ (صرخت فىّ غاضبة) .

فأجبتها بموجة من السعال الذى به أطرد ما تسلل إلى صدرى من الماء : « أصلى (قلت وسط شهقاتى) معرفش أعوم » .

ـ يا فرحتى !

واصطدمت قدمى بقدمها تحت الماء فأسرعت بإبعادها تحشماً منى ، إذ كنت دائماً جنتلماناً . ورأيتها ترفع يدها إلى شعرها الذى ألصقه الماء بعينيها وكان شعراً ذهبياً ، أزاحته عن عينين واسعتين لمحتا فى ضوء القمر بنور بين أزرق وأخضر . حسناء رائعة الحسن وأكاد أقسم إننى أعرفها . نعم أعرفها ، رأيتها فى السفينة كثيراً بصحبة شاب طويل وسيم أسمر . . آه ! عرفتها . هى الممثلة السينمائية عزيزة فهمى الشهيرة بزازا .

ـ حضرتك (سألتها مستوثقاً) زازا ؟

ـ أيوه يا سيدى (أجابتنى بنبرة ساخرة) وسيادتك ؟

ـ أحمد عبد الغفار ، مهندس سفن .

ـ تشرفنا (أجابت ساخرة) لازم انت اللى بانى السفينة دى !

فقهقهت ، طالما قرأت فى الصحف عن ذكاء زازا وحبها للتريقة . كذلك قرأت عن كثرة عشاقها من كل صنف ولون ، وحسدتهم

وتمنيت – عالمًا أنني أتمنى المستحيل – أن أجدني واحداً منهم . وها هو ذا الغرق لم يمنعها من شقاوة الكلام ، فترى هل يمنعها أيضاً من سائر ضروب الشقاوة ؟

– أنا نسيت أقول لك متشكر .

– يا سيدى العفو . ده واجب علينا !

واعتمدت بذراعيها على الخشبة واشرأبت إلى أعلى لتأخذ نفسًا عميقًا ، وكانت ذراعاها العاريتان بلون اللبن الحليب . إذن لم أتشبث

– حين تشبثت – بفستان وإنما بقميص نوم .

– الحمد لله ان الدنيا صيف (قالت زازا) .

– والقمر طالع كمان (نبهتها) .

قرص مستدير فضى ينظر إلينا بلا اكتراث ، أناس يغرقون فى البحر – يقول لنفسه – مالى أنا ؟

– عارفة احنا عاملين زى إيه ؟ (سألتها) .

فلم تجب ، فأجبت نفسى : « زى نملتين بيغرقوا فى كباية ميه ! »

– دى مفروض أنها نكتة ؟ – لأ ، دى فلسفة .

– طب خلى فلسفتك لروحك ، واضرب برجليك علشان الخشبة تمشى .

– إنتى عندك فكرة الخشبة دى رايحة على فين ؟

– بايخة !

فقهقهت ثانيًا وأحسست أننى سعيد .

– أنا مبسوط منك جداً (أخطرتها) لأنك موش خايفة .

– انت خايف ؟

– ابداً ، أنا حاسس انى السندباد البحرى رايح مغامرة عجيبة . وعلى فكرة أنا سعيد جداً بأنى غرقت معاكى انتى !

فلم تجب . وسمعت صوت اصطكاك أسنانها ، مسكينة بدأت تبرد .

ـ تسمحي لى ؟ (قلت لها وأنا أحيط كتفيها بذراعى) .
حاولت أن تتخلص لكننى تشبثت بها .
ـ ده إجراء طبي محض ، (شرحت لها مطمئناً) .
وتوخيت فعلا أن تكون ضمتى لها ضمة طبية ، حضن رسمي لا يرمى إلى شيء سوى توزيع الحرارة بيننا بما يكفل لها الدفء وفقاً للقانون الثانى للديناميكا الحرارية . لم أسمح لها بأن تشعر بالثورة التى بدأت تزمجر فى أعماقى وقد أحاطت ذراعى بذلك الكيان الرائع . شفتاى قريبتان من خدها لكننى لن أحاول تقبيلها ، جنتلمان مثلى يستغل أنثى غارقة ؟ ومن عنقها الفاتن كان ينبعث عطر مسكر لم تفلح مياه البحر فى إزالته .

ـ شانيل ؟ (سألتها) .   ـ أربيج ، (أجابتنى) .
وسرنى أنها تبتسم ، وناظراً إلى « بروفيلها » الفاخر أدركت أننى واقع فى حبها لا محالة ـ إن لم أكن قد وقعت فعلا . لحظات من السعادة الغامرة وأنا أنهل من عطرها وأنظر إلى القمر الفضى الذى بدأ ينحدر بسرعة نحو الأفق ، فى حين بدأ يشيع فى السماء نور آخر هو نور الفجر المقترب .

ـ دفيت (قالت وهى تتخلص من ذراعى) .
ـ بسرعة كده ؟ (سألتها لائماً) .
فلم تجب ، ولا أدرى لماذا اتجه ذهنى إلى الشاب الأسمر الذى كان يصاحبها فى السفينة : « مين الجدع اللى كان معاكى فى المركب ده ؟ »
ـ وده يهمك فى إيه ؟ (سألتنى فى برود) .
ـ مجرد فضول ، هو سر ؟   ـ ح يكون مين ؟ واحد .
ـ مالوش اسم ؟   ـ اسمه توتو ! (قالت ضاحكة) .
ـ توتو ؟ !   ـ سامع ؟ ! (هتفت فجأة) .
ـ سامع إيه ؟   ـ سمعت صوت طائر !

فأنصت وفعلا سمعت صرخة طائر رفرف بالقرب منا .

– نبقى قريبين م الأرض (هتفت فرحة) دايمًا أشوف كده فى الأفلام !

ورحت أتلفت حولى باحثًا عن الأرض ، لكننى لم أر شيئًا فى ضوء الفجر الذى ما زال شاحبًا . كل شىء صامت حولنا ، أصمت بحر عاينته فى حياتى . وكان القمر قد انحدر إلى الأفق وغاص نصفه فى الماء ، شاحبًا يغرق فى البحر مثلنا .

– يا رب ! (قالت زازا فى ابتهال) يا رب !

دقائق من اللهفة اللاهثة ثم بدأ النور ينتشر فى السماء ويكسوها بلون أبيض جليل ، فالتفتنا خلفنا جهة الشرق ننتظر شروق الشمس . قوس صغير أحمر بلون الدم برز عند الأفق ، مثل شفة مخضبة بالروج لامرأة أسطورية . ثم صار القوس نصف كرة أحمر ، ثم كرة كبيرة حمراء ، بالون خرافى رائع ، بطيخة هائلة نزع عنها قشرها . لا عجب أن القدماء عبدوها ، الشمس الخالدة التى تهبهم النور والدفء .

وعدنا نتلفت حولنا فسرعان ما هتفنا معا فى فرح وحشى : أرض ! أرض قريبة لا يفصلنا عنها إلا دقائق من السباحة السريعة ، فما أسرع ما كنا نضرب الماء بأرجلنا المحمومة . دقائق من الكفاح ومن اللهفة المجنونة ثم ملمس الأرض تحت أقدامنا العارية ، أجمل ملمس فى الدنيا لو كنت تدرى ما هو الغرق . عليها تواثبنا وسط المياه الضحلة كأننا نرقص ، فلما صار الماء بارتفاع الركبة بدأنا نتعثر فيه ونترنح توطئة لأن نرتمى على الأرض ونحن نلهث ونلهث . أصابعى العشرة غرستها فى الرمال الرطبة الناعمة ، كبشتها وعصرتها فى شوق أليم . الأرض العزيزة ، أمنا الأرض .

وزازا أراحت خدها على الرمال وهى تلهث ، شيئًا فشيئًا أخذت أنفاسها تهدأ . عيناها التقت بعينى فى نظرة طويلة صامتة ، نظرة التفاهم

العميق بين اثنين ذاقا سويا طعم الموت والحياة . ودفء جميل نحسه فى جسمينا تحت أشعة الشمس التى تتسلق السماء من خلفنا . إذا كانت الأرض أمنا فالشمس أبونا ، بأشعتها فوق البنفسجية غرست بذرتنا فى أمنا الأرض .

ـ موش غريبة (سألتُ صاحبتى) أن الشمس مؤنثة فى اللغة العربية ؟

فتقلصت زاوية فمها اليسرى ، راحت تحدق فىّ حيناً ثم تصعبت ، مجنون يحدثها فى هذا الظرف عن فقه اللغة ؟ . .

ثم رأيت تباشير النوم فى عينيها ، ذبلت أجفانها وتقاربت ، وإلى هذه اللحظة لم أعرف هل هما ـ عيناها ـ زرقاوان أو خضراوان . فمددت يدى برفق وجذبت بها يدها المودعة على الرمال ، أدنيتها من شفتى وقبلتها فى حنان وامتنان . وأجفانى أنا الآخر ثقلت وانطبقت ، ما هى إلا لحظة حتى راح كلانا فى سبات عميق .



الفصل الثانى

صَحَوت ولا أدرى كم من الزمن نمت ، ساعتين بالراحة بدليل الشمس التى ارتفعت فى السماء ، شمس الضحى الشابة الساطعة . شمس ساخنة لكنها لذيذة ، ونسمة لطيفة تهب من البحر الصامت . . أين زازا ؟.

تلفت يمينًا وشمالا فرأيت شاطئًا رمليًّا يمتد قليلا ثم ينعطف ويستدير كأننى جالس على رأس جزيرة . ثم نظرت ورائى فرأيت جذعًا هائلا لشجرة مقطوعة وراقدة على الأرض ، كتلة ضخمة من الخشب نزعت عنها كافة الغصون والأوراق ، وبجانب الجذع على الرمال أداة صخرية مسننة تشبه المنشار ، وفوقه طرف قميص حريمى وردى اللون ، قميص زازا الذى لا بد أنها نشرته هناك لكى يجف ، فأين هى بدونه ؟

— زازا (ناديت مستطلعًا) .

— خليك عندك ! (أتانى صوتها من وراء جذع الشجرة محذرآ) إوع تيجى هنا ! أنا بانشف هدومى .

فحدثتنى النفس الشقية — مع ضربة قلب جامحة — بأن أنهض لأفاجئها . . لكننى قلت لنفسى « عيب ياواد » !

— كويس إنك صحيت (قال لى صوتها) عشان تمسك لى المراية !

ومن فوق جذع الشجرة برز رأس زازا دون سائر جسمها ، وكان فى يدها مشط تسرح به شعرها الذى كان بلون الذهب .

— ما تيجى !

فنهضت وقصدت إلى جذع الشجرة ، نظرت عبره إلى عينيها فاكتشفت أنهما لاخضراوان ولا زرقاوان . مزيج نادر من اللونين ، كأنى أنظر فى بحيرة عميقة صافية . وأنف سوى مدبب كأنما نحت من العاج ، وشفتان ورديتان دسمتان طوبى لمن التقت بهما شفتاه . ومن وراء الجذع مدت بالمرآة الصغيرة ذراعاً بيضاء عارية ، فتناولتها وثبتها على الجذع أمام عينيها . وهنا تنبهت إلى أن هناك شيئاً غريباً . . فسألتها فى دهشة :

— جبتى المراية دى منين ؟! — مرايتى ! (قالت ببساطة) .

— والمشط ؟ — مشطى !

— جايباهم معاكى م المركب ؟

— طبعاً ! أنا مجنونة أنط فى البحر من غير مراية ومشط ؟ !

وتركت المشط لكى ترشق فى شعرها بنسة ، وابتسمت فارتسمت على خدها غمازتان رائعتان .

— وبنس كمان ؟! (سألتها) . — وقلم روج !

— وازاى ماغرقوش ؟ — جايباهم فى كيس نايلون!

— والله عال ، ماكنتى تجيبى التسريحة نفسها !

— ما تهزش المراية !

وانتهت من تسريح شعرها فانخفضت وراء الشجرة واختفت ، ثم ارتفعت وفى يدها قلم الروج الذى راحت تطلى به شفتيها .

— تصور أن الجزيرة دى كلها ما تجيش فدان ؟ (قالت زازا) .

— جزيرة ؟ ! إحنا فى جزيرة ؟

فلم تجب من فورها ، مشغولة بلحس شفتها السفلى . وقالت أخيراً :

— آه مافيهاش مخلوق غيرنا . — ياخبر اسود .

— اسود ليه ؟

— قصدى أبيض ، غلطت فى اللون . وحدنا خالص ؟

— إحنا وشوية ميتين ! — ميتين ؟ !

— آه ، ميتين من زمان قوى . ما فيش غير عضمهم ويظهر كان فيهم واحدة ست .

— وعرفتى منين أنها ست ؟

— لقيت غويشتها ، حتى آهيه !

ولوحت لى بساعدها الأيسر الذى تحيط به غويشة بيضاء من العاج .

— تلبسى غويشة واحدة ميتة ؟ !

— بأقول لك ميتة من زمان قوى ، وماتهزش المراية كده !

فتصعبت ولم أدر ماذا أقول لهذه الأنثى اللامعقولة . وسرح بصرى عنها إلى الجزيرة حولنا ، كانت فعلا لا يمكن أن تزيد عن فدان . رقعة أرض مستديرة يحيط بها البحر من كل الجهات ، لا أثر للحياة فيها إلا شجرة بعيدة وكوخ من الخشب .

— وحتى العشة دى ؟ — آه ، فاضية .

وكانت قد أتمت زينتها فسحبت قميصها واختفت به وراء جذع الشجرة ، ذراعاها ارتفعتا وهى تدخلهما فى القميص . ثم نهضت ودارت حول جذع الشجرة ، برزت أمامى فى القميص الوردى الشفاف ، باسمة تسير على مهل وقد عقدت يديها وراء ظهرها ، منظر كان محتوماً أن يبدو أثره على وجهى .

— ما لك فاتح بقك كده ؟ ! (سألتنى بخبث) .

فأقفلت المذكور وأنا أبتلع ريقى . وسألتها : « ممكن أعرف ، كنتى خايفه أشوفك من غير القميص ده ليه ؟ ! » . فضحكت وسوت بيدها شعرها ، ومن يدها الأخرى تدلى كيس النايلون الذى يحتوى على أدوات الزينة . وقالت بمرح : « تعال بقى اما أفرجاك على الميتين » !

وسارت ، فسرت وراءها متعثراً فى نبضات قلبى ، أمامى فيما يبدو مستقبل رائع إلى درجة أنه رهيب .

— ألذ تفاح عمرى ذقته (قالت وهى تشير إلى الشجرة) .

كتلة رائعة من الخضرة المزينة ببقع التفاح الأحمر ، كأنها شجرة الكريسماس . والشجرة بجانب الكوخ الخشبى الذى كان بابه مفتوحاً ، من خلاله رأيت ما يشبه سريراً واطئا من الخشب ، وبعض الأوعية المنحوتة من الخشب . وبالقرب من الكوخ عين مياه ، وبجوارها تلك الجرة التى حدثتك عنها من قبل . . فسألتها : « دى ميه حلوة » ؟

— زى العسل !

— غريبة أن جزيرة صغيرة كده فيها ميه حلوة .

— ليه ؟ — وغريبة كمان إن التفاح يطرح فى الصيف .

— إنت كل حاجة عندك غريبة ؟ يمكن تفاح صيفى !

ودرنا حول الكوخ ورأيت العظام التى تحدثت عنها زازا ، وأبرز ما فيها جمجمة كبيرة مقلوبة على وجهها . وحولها تنتشر تشكيلة غريبة من العظام ، عظمة ساق طويلة وأخرى قصيرة ، وجزء من قفص صدرى ، وعظمتان قد تكونان من الذراع ، وعدد من الأصابع . عسير على الإنسان أن يحاول تركيبها فى شخص واحد ، فلا بد أنه كان يوجد فى هذه الجزيرة أكثر من شخص ماتوا وتبعثرت على مر الزمان عظامهم . . وقالت زازا فى إشفاق : « نفسى أعدل الجمجمة المقلوبة دى » !

— ليه بقى ؟

— موش عجبانى مناخيرها اللى فى الرمل !

— هى الجمجمة ح تتنفس ؟

وانحنت زازا ومدت إلى الجمجمة يداً مترددة ، ثم قلبتها بسرعة لكى تواجهنا بابتسامة الموت الرهيبة ، ومكان العينين فجوتان تنبعث منهما رائحة الفناء . . فقلت : « يا ساتر يا رب ! أعوذ بالله » !



ــ أعمل بها إيه ؟ تسمح تناولنى تفاحة ؟

فنهضت ومددت يدى إلى تفاحة كبيرة حمراء تتدلى من الغصن نفسه مع تفاحة صغيرة خضراء . . فسألتنى زازا وهى تمضغ : « بقى لك أد إيه ما حلقتش دقنك » ؟

ــ دقنى ؟ ــ آه ، طويلة قوى .

فرفعت يدى لأتحسس لحيتى ، ولشد ما كانت دهشتى عندما لمست تلك الغابة الكثيفة من الشعر . . فهتفت : « موش معقول ! دنا لسه حالقها امبارح ! »

ــ امبارح ؟ دى بتاعة جمعة على الأقل . شوف ؟

وناولتنى المرآة التى نظرت فيها فهالنى ما رأيت ، اللحية النامية والشعر الطويل المنكوش والمنظر الذى يسم البدن . فصرخت : « الحقينى بالمشط ! » . . فناولتنى إياه ، ورحت أعمله فى شعرى وأنا أعجب كيف طال بهذه السرعة المذهلة . وقالت زازا : « وضوافرك عايزة تتقص ، إنت مهمل فى روحك قوى » . . فنظرت إلى أظافرى ، وهالنى أن أجدها هى الأخرى أشبه بالمخالب . فهتفت فى ارتباك : « والله لسه قاصصها من يومين » !

ــ طب ناولنى كمان تفاحة .

فنهضت لأقطف التفاحة لكننى لم أقطفها ، ووقفت أنظر إلى الشجرة فى ذهول ، متسائلا : « الشجرة دى رخره مجنونة ! »

ــ بتخرف تقول إيه ؟

ــ تصورى أن التفاحة اللى كانت صغيرة وخضرة بقت كبيرة وحمرة ؟ !

وحكيت لها الحكاية فهزت كتفها ساخرة : « لازم شفت تفاحة تانية » .

ــ أبدا والله ، هى بعينها . ــ طب بلاش دوشة وناولها لى .

فناولتها إياها ، راحت تأكل منها وهى ترمقنى فى استنكار : « إنت دايمًا كده » ؟

ــ دايمًا إيه ؟

ــ دايمًا تاعب نفسك ؟ تشوف حاجات غريبة وتقول كلام غريب ؟ حتى فى البحر تقول لى إن الشمس أبصر إيه مؤنثة ؟ انت إيه !

وابتسمت أجمل ابتسامة بين أجمل غمازتين ، فأدركت فجأة أننى مجنون حقًا حتى أضيع الوقت فى الكلام الفارغ . وتناولت زازا الجرة الشبيهة بالقلة ، رفعتها لتشرب منها وخيوط الماء تسيل على عنقها الأبيض وتتسلل إلى صدرها . منذ حين ــ حيث نمنا على الرمال ــ تناولت يدها وقبلتها فلم تعترض ، يجب فعلا أن أكف عن ملاحظاتى وأفكارى الغريبة . وسألتها : « عارفة إحنا عاملين زى إيه » ؟

ــ إيه ؟ ــ زى اتنين فى صورة كاريكاتير . . المركب اللى غرقت ، والجزيرة الصغيرة فى وسط البحر ، وولد وبنت وحدهم . . فابتسمت زازا ورفعت يدها لتمسح الماء عن عنقها ، ثم أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة وراحت تنظر إلى طويلا ، ما زالت تبتسم . متكئة براحتيها على الرمال ، رأسها مال على كتفها وهى تنظر إلى وتبتسم ، عيناها بحيرتان صافيتان فيهما نظرة نداء . فركعت بجانبها خافق القلب ، أدنيت وجهى من وجهها وملأت صدرى من عبيرها . وسألتها هامسًا : « قلتى شانيل » ؟ . . فأجابتنى باسمة : « قلت أربيج » ، . . فطبعت قبلة صغيرة على شعرها . لم تعترض . فمددت يداً مرتعدة ألمس بها كتفها العاجية ، ويداً ثانية إلى الكتف الأخرى ، هممت بأن أضمها إلى صدرى لكننى لم أفعل . كيف أفعل وقد وقع بصرى فجأة على ذلك المنظر الغريب ، منظر الرأس البشرية التى أطلت فى حذر من وراء الكوخ القريب متلصصة علينا ؟

الفصل الثالث

أوهمني الفزع للوهلة الأولى أنه عفريت يسكن الجزيرة ، أو أنه صاحب الجمجمة وقد دبت فيه الحياة فجأة ، ثم اتضح لى أنه لا هذا ولا ذاك . إذ برز من وراء الكوخ فعرفت فيه الشاب الأسمر الذى كان مصاحبًا لزازا على السفينة ، « توتو » إذا ارتضينا هذا الاسم لشاب طويل عريض برنزى اللون ، مفتول العضل فى رشاقة تؤهله لبطولة كمال الأجسام . وجهه وسيم وشعره أسود فاحم ، والماء يقطر من جسمه بما يدل على أنه قد خرج لتوه من البحر . لباسه الوحيد مايوه عادى أسود ، فهل كان ينام بالمايوه ساعة غرق السفينة ، أم تراه قد ارتداه لزوم سباحة المسافات الطويلة ليجمع بين الغرق والرياضة ؟ لاشك أنه وغد إذ اختار هذه اللحظة ليطلع لى من البحر ، أنا الذى كنت على وشك أن أطبع قبلتى الأولى على خد زازا . فلعلك تعذرنى إذا أحسست بالبغض الشديد له ، وأسفت من أعماق على أننى لا أملك مسدسًا أقتله به ! . .
لكن شعور زازا كان مختلفًا عن شعورى ، ما كادت تلتفت وتراه حتى نهضت كالمجنونة تجرى نحوه ، هاتفة فى فرح : « توتو ! توتو ! توتو ! » . . وألقت ذراعيها حول عنقه وتعلقت به تقبله : « أنا افتكرتك غرقت يا توتو ، سلامتك ياحبيبى » ! . . فراح يطبطب على ظهرها مطمئنا إياها على سلامته ، ومن فوق كتفها انفغر فمه عن ابتسامة عريضة لمعت خلالها أسنان قوية بيضاء : « تزاتزا ! تزاتزا ! تزاتزا » !

هذا كل ما علق به على ترحيبها به ، بصوت تينور عميق يوحى بالثقة بالنفس . . فسألته : « إنت لسه طالع م البحر دلوقت » ؟

— تزاتزا . (أجابها) . — لازم تعبان قوى يا مسكين .

— تزاتزا ! — ما تقعد ترتاح ؟
— تزاتزا ! أهذه هى الكلمة الوحيدة التى يعرفها ذلك الوغد ؟
— تعال أما أعرفكو ببعض (قالت له زازا) .
وجذبته نحوى وأقبل يصافحنى ، دقيقة كاملة وهو يعصر يدى يكاد يفعصها ، ويهز ذراعى يكاد يخلعها ، ويبتسم طبعًا . . فسألت زازا : « هو ما بيعرفش يتكلم » ؟
— بيعرف طبعًا ، بس لغة معرفهاش . — هو جنسيته إيه ؟
— ما قالليش ، وأنا يهمنى إيه من جنسيته ؟
وطبطبت على صدره ، فقال « تزاتزا » ، كأنه عروسة من عرائس الأطفال التى تضغط عليها فتقول « ماما » ! . . فسألتها : « جربتى تكلميه إنجليزى » ؟

— وفرنساوى ، مافيش فايدة .
— إمال عرفتى منين أن اسمه توتو ؟
— أنا اللى سميته كده ! — يعنى مابتتكلموش خالص !
— ونتكلم ليه ؟ — بتحبيه كتيمى ؟
— لو تعرفه زيى كنت تلاقى مفيش لزوم للكلام ! أجيب لك تفاحة يا توتو ؟
ومدت يدها إلى الشجرة فقطفت له تفاحة لم تأخذ منه — والله — سوى قضمة واحدة . وفى دقيقة لا غير كان قد التهم سبع تفاحات دون أن يبصق منها بذرة . ثم رأى الجرة فرفعها إلى فمه وراح يجرع ، لم يتركها إلا خالية . ثم تكرع ومد يده ليقطف التفاحة الثامنة .
— ياعينى (قالت زازا) ، ده جعان بشكل !
— بالسم إن شاء الله ! (قلت أنا) .
وبينا هو يرفع يده نحو التفاحة التاسعة لاحظت للمرة الأولى أن فى معصمه ساعة ، فسرعان ما كنت أقترب منه . .

— قولى له يوريني ساعته ، (قلت لزازا) .

— هات إيدك ياتوتو .

وناولتني معصمه لكي أنظر فى ساعته ، ويبدو أنها كانت هى الأخرى وتر بروف ولذلك لم تتوقف ، ولكنها كانت تدور بنفس سرعة ساعتى . عقرب الثوانى يجرى بسرعة كالمكوك ، وعقرب الدقائق يلهث وراءه لكي يلاحقه .

— شايفة ساعته ؟ هى كمان اتجننت !

فنظرت إليها ولم تزد على أن هزت كتفها كما فعلت من قبل .

— خسرت زى ساعتك (قالت فى استخفاف) .

— وفيه حاجة تانية غريبة ، ساعته مضبوطة على ساعتى ، الاتنين ستة ونص وخمسة . بص كده ياسى توتو ؟

وأدنيت الساعة من عينيه فراح يحملق إليها حيناً فى بلاهة ثم ابتسم .

— تزاتزا ! (قال توتو) .

— موش شايف فيها حاجة غريبة ؟ (سألته فى غيظ) .

فنظر إلى زازا حائراً . فقالت له « ماتاخدش بالك منه ، أصله تعبان شوية . تيجى أفرجك على الجزيرة ؟

وجذبته من ذراعه فلم ينجذب ، بل جلس على الأرض ودعاها إلى الجلوس بجانبه فجلست ، ذراعه امتدت وأحاطت بكتفها فلم تعترض ، بل مدت بوزها — السافلة — إلى خده الأسمر وقبلته .

— إيه قلة الحيا دى ؟ ! (صرخت فيها ثائراً) .

— شيء بارد ! (أجابتني وهى تنظر إلى من فوق لتحت) ، إنت مالك ؟

— يعنى إيه أنا مالى ؟ !

— أنت جوزى ؟ أبويا ؟ لك حقوق على ؟ !

— لأ ، (أجبتها فى كبرياء) ، بس من شوية كنت أنا اللى بابوسك !

فلم تجبنى ، وابتسمت له وقبلته ثانياً . فلعلك تعذرنى إذا بدأت أغلى من جديد ، كل خلية فى جسمى تهيب بى أن أهجم عليه وألقى به إلى البحر الذى طلع منه ، لكننى كنت دائماً حكيماً . نظرت إلى طوله وعرضه وعضلاته وأدركت أن الهجوم على ثور كهذا لا يخرج عن كونه عملية انتحارية محضة . ويبدو أن الوغد قرأ خواطرى ، إذ فتح جيباً فى المايوه وأخرج منه خنجراً لا معاً من النحاس الأصفر ، بسط راحة يده وراح يسنه عليها وهو يرمقنى بابتسامة صفراء . خنجر جميل مزين بالنقوش ، حلية تصلح للمتاحف لكنها تصلح للقتل أيضاً . فاكتفيت — أنا الحكيم — بأن نظرت إليه فى ازدراء ثم أوليته ظهرى وواجهت البحر .

— قوم أفرجك ع الجزيرة قوم ، (أتانى صوت زازا) .

يبدو أنها قد خشيت وقوع الصدام بيننا فآثرت أن تسحبه من هنا ، ترى هل خافت على ؟ والتفت لأراهما ينهضان ويبتعدان وهى تتأبط ذراعه ، تابعتهما بنظرة تقطر مرارة وحسداً . ضاعت منى زازا ، اللقمة الطرية اللذيذة خطفها الوغد من فمى خطفاً . . حزيناً جريحاً جلست تحت شجرة التفاح ، لكن الحزن — مثل الخوف والغضب — لم يكن من شأنه قط أن يفقدنى صفاء ذهنى . رفعت بصرى إلى الشجرة وقلت لنفسى يجب أن أكتشف سرها . سوف أثبت عينى على هذه التفاحة الصغيرة الخضراء ، ولا أرفعها عنها حتى أستوثق من أنها لن تتحول — كما خيل إلى من قبل — إلى تفاحة كبيرة حمراء . فاستلقيت على ظهرى عاقداً يدى تحت رأسى ، ورحت أرقب التفاحة . هى ما زالت صغيرة خضراء لم يطرأ عليها تغيير ، لكن شيئاً طرأ على أنا . وجدتنى أتثاءب وقد حل بى تعب مفاجىء ، وجفونى ثقلت وبدا من أمرى أننى سأنام . أليس غريباً أن يدهمنى النوم وأنا الذى صحوت من ساعتين على الأكثر ؟ بصعوبة شديدة نزعت يدى من تحت رأسى ومددتها إلى التفاحة ، بظفرى أحدثت بها شقاً صغيراً أعلمها به ، ثم تثاءبت واستسلمت للنوم .

الفصل الرابع

صحوت وفى أنفى رائحة نار ودخان وشىء يشوى ، ومن خلال عين نعسانة رأيت كومة من الأخشاب المشتعلة وفوقها عدد من الأسماك التى يقلبها توتو بسن خنجره اللامع . فلما أحس بنظراتى إليه بادلنى إياها وهو — عليه اللعنة — يبتسم . فجلست أتلفت حولى وأنظر إلى الشمس التى مالت إلى الأفق الغربى ، نمت إذن قرابة ساعتين . وبالنظر إلى ساعة يدى وجدتها ما برحت تدور كالمجنونة ، وقفز عقرب الساعات فجأة ليسجل الساعة الثانية عشرة !

جذبنى صوت زازا وهى مقبلة من ناحية البئر بالجرة التى ملأتها ، تهتز فى يدها وهى تسير فتتساقط قطرات الماء على الرمال .

— السمك ده منين ؟ (سألتها مستفسراً) .

— البركة فى توتو ! (قالت فى فخر) .

— تزاتزا ! (قال المذكور) . — هو اللى اصطاده ؟

— وهو اللى ولع النار ربنا يخليه !

وشرحت لى كيف وقف فى البحر ساعة يصيد بخنجره هذا السمك ، ثم انتزع قطعة من جذع الشجرة المقطوع وراح يحكها بالخنجر حتى اشتعلت ، ثم جلس ليعد هذه الوليمة الفاخرة .

— كل ده وحضرتك نايم تشخر ! (اختتمت كلامها ساخرة) .

فزغرت لها ولم أجب ، فى حين جلست هى رافعة مرآتها الصغيرة أمام وجهها .

— ده كل اللى عمله وأنا نايم ؟ (سألتها فى ريبة) .

— اللاه ! هتفت متجاهلة ، ريحة السمك حلوة بشكل !

وكانت رائحته شهية حقًا ، ترى هل يجود اللعين على بسمكة ؟
— باقول لك الراجل ده كله فوايد، قالت زازا، مش كده ياتوتو ؟
— تزاتزا ! أجابها باسمًا .
— ناكل سمك ونحلى بتفاح ، (أضافت) ، فيه حاجة ألذ من كده ؟

وذكرت التفاحة التى علمتها فرفعت بصرى إليها ، وما توقعت أن أراه رأيته . التفاحة الصغيرة الخضراء قد تحولت خلال نومى إلى تفاحة كبيرة حمراء ، وعلى قشرتها نفس الشق الذى أحدثته بظفرى . وبالتداعى نظرت إلى أظافرى فتأكدت أنها طالت بدرجة مذهلة . قلت لها : « تسمحى لى بالمراية » ؟

فناولتنى إياها ورفعتها أمام وجهى فكدت أصعق . لحيتى غابة كثيفة ، وشعرى متهدل كأننى لم أحلقه منذ شهور ، وفيه نسبة من الشيب لا أذكر أنها كانت هناك من قبل ، أكاد أقسم وأنا أتأمل وجهى إننى قد كبرت سنتين . (قلت لها وأنا أعطيها المرآة) : « خدى ! اوعى تخلينى أبص فيها تانى ! »

ونظرت إلى توتو فلاحظت أمراً فاتنى ، لحيته هو الآخر قد نمت مع أنه لم يكن فيها — حين برز من البحر — شعرة واحدة . كانت الساعتان كافيتين لكى تطول لحيته ، كما وقع لى فى أول ساعتين لى فى الجزيرة .
— زازا (قلت لها يائسًا) الجزيرة دى مسحورة !
— والله ؟ (سألتنى فى سخرية) — والله مسحورة ! بصى لدقنى وشعرى وضوافرى ، وبصى لدقنه وشعره وضوافره !

فنقلت النظر بيننا حينا ثم هزت كتفها .
— كل الدقون وكل الشعور وكل الضوافر دايمًا تطول .
— بالسرعة دى ؟ فقلبت شفتها فى غير احتفال . فقلت : « طب والتفاحة دى » ؟

وحكيت لها حكاية التفاحة التى علمتها فلم تثرها بدورها .

— لازم علمت تفاحة كبيرة وانت مش واخد بالك .

فيئست من إقناعها ، ونظرت إلى ساعتى لكى أرى عقرب الساعات وهو يقفز من الثانية عشرة إلى الواحدة .

— يا حلاوة ! هتفت زازا ، السمك استوى .

وتركت المرآة وخفت إلى السمك الذى بدأ توتو يغرس فيه سن الخنجر ليرفعه من على النار ، ويودعه على فرشة من ورق الشجر كان قد أعدها لذلك . فمدت زازا يدها إلى السمك ثم جذبتها سريعاً وهى تطرقع أصابعها متأوهة ، فى حين أطبق الوغد على أكبر الأسماك وراح يمزقها بسهولة كأنها خارجة من الثلاجة .

— ماتيجى تاكل (قالت زازا) مستنى عزومة ؟

فهززت رأسى ناظراً إليها فى كبرياء .

— موش أنا اللى أبيع كرامتى بأكلة سمك ! — إنت حر ، توفر .

لكن توتو لم يفهم المسألة على أنها كرامة ، إذ رأيته ينتقى سمكة كبيرة ويضعها وحدها فى ناحية ، مشيراً إليها وإلىّ بمامعناه أنها سمكتى آكلها حين أجوع ، فأصارحك القول بأنها كانت لفتة جعلتنى أبدأ فى مراجعة مشاعرى نحوه . هو عمل واجتهد وتعب وأنا نائم ، فماذا يجبره الآن أن يختصنى بهذه السمكة الكبيرة ؟ فرحت أرقبه وهو يلتهم السمك وخيل إلى أننى لم أعد أبغضه ، بل خيل إلىّ مدى لحظة أننى قد بدأت أميل إليه . ما ذنبه إذا كان قد عرف زازا قبل أن أعرفها أنا ؟

— أما سمك ! (هتفت زازا وهى تمضغ) .

لكننى لن آكل سمكتى الآن ، سأنتظر حتى أنفرد ثم آكلها ، دقائق قليلة وكان توتو قد أتى على السمكة الثانية فنهض وقصد البحر ليغسل يديه ، ثم قصد إلى شجرة التفاح وبدأ يقطف وينهش . عسى أن تكون هذه الشجرة مطابقة لفكرتى عنها فى سرعة النماء وإلا فما هو إلا يوم آخر ونجد أنفسنا بلا تفاح ، ويصبح اعتمادنا كاملا على السمك

الذى يصطاده هو . فلما رآنى أراقبه تبسم ثم تجشأ ، ثم جلس على الأرض مسنداً ظهره إلى جذع الشجرة . ثم انفغر فه كالكهف وهو يتثاءب ، ورأيت عينيه حمراوين خلال جفونه التى بدأت تثقل ، فى حين مال رأسه على صدره مرتين . ثم مال هو نفسه على جنبه واستلقى على الأرض ، ورأيته يمد يده إلى جيبه ليتحسس الخنجر ، توطئة لأن ينقلب على الجنب الآخر ليجعل الخنجر محصوراً بينه وبين الأرض ، ما زال الخبيث يشك فى نواياى . وما هى إلا لحظة حتى رددت شخيره أرجاء الجزيرة ، فلن يكون عجيباً لو أنه لفت إلينا أسماع سفينة عابرة .

— انت ح تأكل سمكتك ولا آكلها أنا ؟ (سألتنى زازا منذرة) .

— لا ياشيخة ! والنبى ؟

وهجمت على السمكة أنهشها لحماً وجلداً وتقريباً شوكاً .

— أمال كرامتك راحت فين ؟ (سألتنى ساخرة) .

— السمك ما يتعارضش مع الكرامة لما يكون مشوى ! (قلت لها وأنا أنهش) . فضحكت زازا وأسعدتنى ضحكتها . وبينما أمضغ وأبلع رأيتها تنظر إلى طويلا وهى تبتسم .

— انت منغاظ قوى من توتو ؟ (سألتنى بعد حين باسمة) .

— ده وقت يطلع لى فيه ابن الإيه ؟ ! (سألتها وأنا أخرج شوكة من أسنانى) .

— معلهش (قالت زازا بمكر) أنا أصالحكم على بعض .

ثم تثاءبت ورفعت ذراعيها تتمطى .

— آخ ! الأكل خلى النوم يكبس على .

وتثاءبت ثانية وانطرحت على جنبها ، ضمت ركبتيها إلى بطنها وعقدت ذراعيها على صدرها ، تكورت كقطعة صغيرة نائمة .

فما هى إلا دقيقة حتى انتظمت أنفاسها وانفغر فمها فى بلاهة النوم .

فلآكل سمكتى ، آه لو كان معها رغيف وحبة ملح وصحن طرشى !

الفصل الخامس

انتهيت من السمكة فاتجهت عيني إلى زازا النائمة وراحت تتفسح هناك ، الكيان الرائع الذى كان يمكن أن أحوزه لولا ذلك الوغد النائم تحت الشجرة . زازا تتنفس فيرتفع القميص الوردى على صدرها ثم يهبط فى إيقاع فاتن ، وشعرها المبعثر على الرمال خيوط من ذهب . والشمس وراءها قد انحدرت نحو الأفق البعيد وصبغته بحمرة الشفق ، التقى الشفق بقميص زازا فى مزيج من الحمرة الخالدة .

المرآة ملقاة بجانبها لكننى لن أقربها ، صورتى التى رأيتها فيها شىء لا يطاق . لماذا تطرأ تلك التغييرات على أنا ونوتو ، فى حين تظل زازا كعهدها ؟ لماذا لم يطل شعرها أو أظافرها مثلنا ؟ إنى أريد أن أرتب أفكارى ، وهى لن تترتب طالما أنا أنظر إلى زازا النائمة ، فلأقم من هنا .

قمت أتمشى فى الجزيرة وأفكر . أتكون هذه الجزيرة — تساءلت — مسحورة حقاً كما قلت لزازا ؟ فمتى كانت توجد الجزر المسحورة خارج حواديت ألف ليلة ؟ ومع ذلك فالساعات فيها تجرى بسرعة فذة كأنها تسابق الزمن ، واللحى والشعر والأظافر تنمو بجنون ، والتفاحة الصغيرة الخضراء تصبح فى ساعتين كبيرة حمراء . كل شىء يجرى بسرعة مذهلة ، فهل يمكن أن يكون لهذه الجزيرة — لسبب ما — زمنها الخاص بها وحدها ؟ أشياء كهذه قرأت عن احتمال حدوثها فى كوكب آخر غير كوكبنا ؟ فهل يمكن أن يختلف زمن جزيرة واحدة عن زمن سائر الجزر فى كوكب واحد ؟

وصلت فى تجوالى إلى جذع الشجرة الراقد على الأرض وبجانبه المنشار الصخرى . أناس عاشوا هنا وقطعوا هذه الشجرة ، فلماذا

قطعوها ؟ وعلى السطح العلوى للجذع آثار لأدوات بدائية عملت فيه بالحفر والنحت ، فماذا كان أولئك الناس يقصدون ؟ هل كانوا — مثلا — يحاولون تفريغ جذع الشجرة وتحويله إلى زورق كبير ؟ إذا كان هذا هدفهم فلماذا بدأت عمليات النحت ثم توقفت ؟

واتجه ذهنى إلى العظام وراء الكوخ فسرعان ما كنت أقصد نحوها ، شيء ما فى قبحها الرهيب يجذبنى إليها . وهناك واجهتنى الجمجمة وقد انفغر فمها بابتسامة الموت المفزعة . ترى من كان صاحب تلك الجمجمة ، وهل هو الذى وقف يوماً يعمل بتلك الأدوات الصخرية فى جذع الشجرة ؟ وما هذا الشق فى أعلى الجمجمة ؟ هل تلقى الرجل قبل أن يموت ضربة قاتلة ؟ رعدة سرت فى بدنى فابتعدت عن المكان ، وقصدت إلى موضعى الأول ورحت أرقب الرجل والمرأة النائمين . هنا لحم ودم وحياة ، خاصة تحت هذا القميص الوردى . أمعقول أن الغويشة التى أخذتها زازا كانت لأنثى مليئة بالحياة مثلها ، رفعت بالغويشة يدها لكى تسوى شعرها وفى عينيها نظرة نداء ؟ ألا ما أتعس تلك الأنثى لو أنها لم تستمتع بكل لحظة من حياتها .

نزعت عينى عن زازا وصوبتها إلى اللعين توتو حيث ينام تحت الشجرة وسط زوبعة من الشخير ، ترى ماجنسيته ومن أى بلد جاء ؟ بسهولة جداً يمكن أن يكون هندياً من آسيا ، وبسهولة جداً يمكن أن يكون هندياً من أمريكا ، وربما كان مغولياً أو سلافياً أو حتى آرياً مولداً ، من الممكن أن يكون أى شيء . ومهما كان من أمره فنحن رجلان ومعنا أنثى واحدة . أنا الآن لا أكرهه ولكنه لا يثق بى ، الرجل للرجل إما صديق محبوب وإما منافس مرهوب ، والله لأقول هذه الحكمة لزازا . فجدير بى أن أجعله يحبنى أو يرهبنى ، أو على الأقل يحترمنى . يجب أن أحوز صداقته ولو عن طريق المغامرة . كان قد انقلب على الجنب الآخر الذى يكشف عن جيب المايوه حيث يوجد الخنجر ، فمه مفتوح

فى بلاهة وهو يغط ، فماذا لو قصدت إليه فانتزعت الخنجر من جيبه ؟ هى مغامرة خطيرة بلا شك ، لو انتبه إلىّ لكان فى ذلك نهايتى . سيظن أننى أريد أن أقتله ، ويكون معذوراً إذا هو سبق إلى قتلى . مغامرة رهيبة ، معركتى مع هذا العملاق الأسمر ، لكنها ضرورية . على أطراف أصابعى تسللت نحوه ، أكاد أسمع بأذنى دقات قلبى . وفى الطريق توقفت على صوت سمعته لكنه لم يكن إلا صوت زازا وهى تحلم . خطوتين أخيرتين وأشرفت على الرجل النائم ، ما أعجز الرجل حين ينام . جثوت فى حذر بجانبه ، ومددت إلى جيب المايوه يداً ترتعد . جسمى كله يرتعد من إحساس المغامرة ، المهندس المسكين الذى لم يعرف المغامرة إلا على الورق . ثم دسست إصبعين متوترين فى جيب المايوه ، وعرق بارد تصبب على وجهى . بالإصبعين قبضت على سن الخنجر وسحبته برفق ، كاد قلبى يتوقف عندما رأيت الرجل يتحرك . تفزز فجأة وزمجر ، ورأيت الموت فى عينيه المقفلتين . كان فيما يبدو يحلم ، ترى أى أحلام عجيبة تدور فى تلك الدماغ الغامضة ؟ تفزز ثانياً ثم سكن ، وعادت أصابعى إلى سن الخنجر ، جذبته برفق حتى أخرجته من جيب المايوه ، ووقفت به وأنا ألهث . بالخنجر أقف بجانب الرجل النائم ، سيد الموقف وما لك زمام الأمور . بضربة واحدة أستطيع أن أقتله وتصبح زازا والجزيرة كلها لى . ضربة واحدة ويتحول هذا الجسم النابض إلى جثة هامدة ، وعدة أيام أخرى ويصبح فى الجزيرة هيكل جديد .

أفكار ألوكها وأنا أعرف أنها مضحكة ، لست أنا الذى يقتل الرجل نائماً كان أو صاحياً . لم أستطع أن أبغضه فهل أستطيع أن أقتله ؟ لكننى سعيد بنجاحى فى المغامرة ، فرحة أصبيانية ترقص فى صدرى . لماذا لا أقص أظافرى طالما أن الخنجر فى يدى ؟ قصصتها ثم خطر لى أن أحلق لحيتى وعند ذلك عرفت فائدة الصابون . أمكننى أن

أشذبها فحسب ، أما حلقها فمستحيل . ولماذا أحلقها وسوف يصبح لمنافسي بعد حين لحية مثلها ؟ إني لأنظر إليه فيخيل إلى أنها تنمو تحت بصري ، مثل التفاحة المتدلية من الشجرة فوق رأسه . فرشقت الخنجر فى الأرض على مقربة من الرجل النائم ، وعدت لأجلس فى موضعى الأول أمام زازا . هى تنقلب على جنبها ، تفتحتا ونظرتا إلى الرمال ، ثم حادت ببصرها إلىّ . ثم استوت جالسة تستوعب الدنيا ، وبسطت ذراعيها تتمطى .

ـ أنا نمت كتير ؟ (سألتنى متثائبة) . ـ موش قوى .

ـ وانت قاعد هنا من كتير ؟ ـ برضه مش قوى .

ـ طب هات لى أشرب .

فقصدت إلى الجرة وفى طريقى مررت بالخنجر المرشوق فى الأرض . ثم عدت فوجدت عينيها مصوبتين إلى الخنجر ، تنقل النظر بينى وبينه فى دهشة .

ـ إيه اللى طلع الخنجر ده ؟ (سألتنى) .

ـ أنا ، (أجبتها فى بساطة) .

ـ ليه ؟ ـ فابتسمت فى غموض وناولتها الجرة ، لكنها لم تشرب .

ـ ليه ؟ (سألت ملحة) .

ـ علشان أقص ضوافرى ، قلت باستخفاف وأنا أجلس بجانبها .

فراحت تتفرس فىّ حيناً ، تنقل النظر بينى وبين الخنجر وصاحبه النائم ، تقلب فى ذهنها مختلف الاحتمالات .

ـ أنت شخص غريب ، (قالت لى حين فهمت) .

فعربدت الفرحة فى صدرى أكثر من قبل ، رأيت فى عينى زازا نظرة احترام ، عرفتنى على حقيقتى أو على الأقل كما يجب أن أكون . لست ذكياً وشجاعاً فحسب ، وإنما نبيل أيضاً . أسلب غريمى سلاحه ثم

أرده إليه ، جنتلمان فى البر والبحر وكل مكان .

— كلت السمكة ؟ سألتنى وهى تتلفت حولها .

— آه .

— اخص عليك ، (قالت فى دلع) ، موش كنت تخلى لى حتة ؟

— حقك على ، (قلت لها) ، كنت جعان قوى .

ورفعت الجرة وشربت ، خيوط الماء سالت من جديد على عنقها وتسللت إلى صدرها .

فلما أنزلت الجرة مددت إصبعًا إلى عنقها العاجى أمسح الماء ، نظرت فى استسلام وابتسمت .

— انت حلقت دقنك كمان ؟

ومدت يدها تتحسس وجهى ، فجذبت يدها إلى شفتى وقبلتها . ونظرة حنان سبحت فى بحيرة عينيها ، فأدنيت شفتى من وجنتها وطبعت قبلة مرتعدة . « أحبك يازازا » ، (قلت لها) ، « أحبك » ، وهممت بأن أطبع قبلة ثانية فابتعدت قائلة : « توتو صحى » !

فتابعت نظرتها لأراه جالسًا يدعك عينيه من النوم ويتثاءب ، ثم امتدت يده بحركة لا شعورية إلى جيب المايوه . لم يكن الخنجر هناك طبعًا ، وهو ما يفسر نظرة الفزع التى ارتسمت فى عينيه . ثم وقع بصره على الخنجر المرشوق فى الأرض ، حملق إليه فى ذهول ثم نقل بصره إلىّ أنا ، ثم إلىّ الخنجر ثم إلى كأنه لا يصدق عينيه . وبسرعة خطفه من الأرض وراح يتأمله محاولا أن يستوعب الموقف . فلما نظر إلى فى المرة التالية تبسمت له ، فظل يرمقنى مدى حين فى دهشة ثم ابتسم . ثم وقف وهم بأن يضع الخنجر فى جيبه لكنه عدل ، ألقى الخنجر ورشقه فى الأرض كما كان .

— تزاتزا ! (قال بلا مناسبة وهو يبتسم) .

ونظرت إلى زازا فوجدتها هى الأخرى تبتسم ، ثم تحولت ابتسامتها

إلى ضحكة فرح ، موجة سعادة غمرتنا كلنا فجأة . وقصد توتو إلى البحر ليغرف الماء براحتيه ويغسل به وجهه ، ثم قصد إلى شجرة التفاح فقطف ثلاث تفاحات ، اثنتان منهما قذف بهما إلينا وهو يتبسم . ثم أولانا ظهره وابتعد ، عملاق برنزى جميل مرسوم على الأفق الأحمر . إلى جذع الشجرة المقطوع ذهب ، دار حوله واختفى . ثم ارتفع صوته بأغنية غريبة ، بصوت تينور عميق مطرب ، فالتفت إلى زازا وابتسمت . ضوء الشفق الأحمر يصبغ وجهها بسحر عجيب ، فضممتها إلى وقبلتها ثلاث قبلات . فإنى لأهم بالقبلة الرابعة إذ انقطعت أغنية توتو فجأة وصدرت منه صرخة نشاز ، فنظرت لكى أراه واقفاً يلوح بذراعيه إلى البحر ويصرخ . وفى البحر كان شيء يتحرك ، نعم شيء يتحرك فى البحر . فوثبت زازا لترى ماذا هناك ، فى حين أقعدتنى عن الوقوف خيبة أمل قاتلة . صرخت « ياعالم ! ياهوه ! هو أنا كل ماجى أبوسك يطلع لى م البحر غريق ؟ ! » فضحكت زازا ونكشت بيدها شعرى ، ثم انطلقت تجرى إلى البحر .



الفصل السادس

كان منظراً غريباً حقاً ، ذلك الذى رأيناه يقترب منا فى ضوء الشمس الغاربة . رجل جالس — متربع — على ما يشبه خشبة كبيرة طافية ، والخشبة تنزلق على الماء وحدها بدون أن يبذل الرجل أى مجهود . فلما اقتربت منا أدركنا ما الذى يحركها ، عندما سمعنا صوت يد تضرب الماء ووقع بصرنا على الرجل الذى يسبح خلف الخشبة ويدفعها إلى الأمام . فلما اقتربت أكثر سمعنا صوته وهو يلهث وينهج ويعتل كشيال يصعد السلم بحمل ثقيل .

— شد حيلك ياكرشة ! قال الرجل الجالس مستحثاً ، خلاص فاضل خطوتين .

فلما صار الراكب قبيل الشاطئ بخطوة أدلى الرجل الجالس ساقيه من فوق الخشبة ونزل فى الماء ، شامراً إلى أعلى ذيل جلبابه الأبيض الفضفاض ، ثم خرج إلى الشاطئ فترك الجلباب يتدلى ورفع يديه إلى السماء .

— الحمد لله رب العالمين ! الحمد لله رب العالمين ! ألف حمد وألف شكر لك يارب ، ألف حمد وألف شكر . الحمد لله رب العالمين !

رجل طويل عريض أبيض يناهز الأربعين ، فى وجهه مسحة من المهابة رغم زراية منظره العام فى الجلباب نصف المبتل . وبينما وقف يردد أدعيته كان الرجل الآخر قد خرج من الماء وتهالك على الأرض وهو يلهث ، وكان هو الآخر يلبس جلباباً من قماش رخيص مخطط . أسمر اللون قصير ، إلا أنه عريض الكتفين سميك الرقبة كأنها رقبة ثور . جبهته ضيقة مائلة إلى الوراء ، وصدغان عريضتان وشفتان

غليظتان ، وبلاهة عامة فى وجهه الأسمر الجلف . ثم كف الرجل الآخر عن الأدعية وصوب عينيه إلينا ، راح ينقل بيننا نظرات مسترية مع اختصاص لزازا بنظرة أطول نوعاً .

ــ سلامو عليكم ، (قال لنا بصوت غليظ تشوبه بحة) .

فرددنا السلام .

ــ حضراتكو من أهل البلد دى ؟

فشرحت له مالا يعرف من أمر البلد ، كيف أنها جزيرة لا بلد ، وكيف أننا كنا مثله فى الباخرة التى غرقت . ثم عرفته بنفسى وعرفنى بنفسه ، الحاج طلبة حسنين من ذوى الأملاك .

ــ وسيادته ؟ سألنى الحاج طلبة مشيراً إلى توتو .

ــ ده واحد غرقان زى حالاتنا ، (أجبته) ، ما بيعرفش عربى واسمه توتو .

ــ طوطو ؟ ! هتف المدعو كرشه ، إلا طوطو دى !

وكان صوته غليظاً قبيحاً ككل شىء فيه .

ــ يعنى ماهوش مسلم ؟ (سألنى الحاج مواصلا اهتمامه بتوتو) .

ــ والله معرفش ، لغاية دلوقت ماشفتوش بيصلى !

فابتسمت زازا وسرنى أننى تسببت فى ابتسامتها .

ــ والهانم جماعتك ؟ (سألنى الحاج) .

سؤال محرج كما ترى ولذلك تظاهرت بأننى لم أسمع .

ــ أفندم ؟ (تساءلت) . ــ باقول الهانم جماعتك ؟

ــ أ . . أيوه ، (أجبته بعد لحظة تردد) .

ونظرت إلى زازا فخيل إلى أننى رأيت فى عينيها نظرة اعتراض ، والحقيقة أننى لا أدرى لماذا قلت أيوه . ربما كان ذلك لأننى أردت أن أعطيها مركزاً اجتماعياً يحميها من تطفل الأغراب ، وربما لأننى وجدتها فرصة صالحة لاكتساب حق رسمى فى التبسط معها علناً .

ـ طيب يا أخى موش تلبسها حاجة تسترها ؟ سألنى الحاج طلبه فى لهجة لوم يشوبه ازدراء .
ـ والله كنت أحب ألبسها ، أجبته ساخراً ، بس أصلنا نسينا نجيب معانا دولاب الهدوم !
فزغر لى الحاج ثم وقف حيناً يفكر .
ـ كرشة ! (قال أخيراً) ، إقلع جلابيتك !
فالتفت الآخر إليه فى دهشة حيث جلس على الأرض .
ـ هه ؟ تساءل فى بلاهة . ـ بأقول اقلع جلابيتك .
ـ جلابيطى ؟ ـ آه ، عشان الست تلبسها .
فتردد كرشه لحظة ثم نهض ليخلع الجلباب ، كشف عن صدر عار غزير الشعر كصدر الغوريلا ، وعن كتل غليظة من العضلات المكدسة على ذراعيه وكتفيه كأنه ممن « يشيلون» الحديد . والحمد لله أنه كان يلبس تحت الجلباب سروالا أسود ذكرنى بسراويل أهل الإسكندرية .
ـ أما الجلابية تنشف خلى الست تلبسها ، قال لى بلهجة الأمر وهو يناولنى الجلباب .
ـ أنا ألبس الجلابية دى ؟ ! صرخت زازا فى استنكار .
فلم يجبها الحاج إلا بنظرة قاسية أسكتتها .
ـ أيوه يازازا ، (قلت لها أنا بلهجة حزم زوجية) ، موش أحسن ماتبى عريانة كده ؟
فزغرت لى ولم تقل شيئاً .
ـ مافيش هنا حاجة تتاكل ؟ (تساءل كرشة فجأة) .
فأشرت إلى شجرة التفاح ، فقصد إليها بسرعة وهو يدب على الأرض وقد تدلت ذراعاه كالغوريلا . أما الحاج طلبة فتربع على الأرض وشرع يخرج محتويات جيوبه . أخرج أول ما أخرج سبحة من الكهرمان

وضعها بجانبه على الرمال ، فقلت فى نفسى هذا والله رجل ورع يستحق الاحترام . ثم أخرج شيئاً تبينت أنه دفتر صغير من نوع ما .

— كل حاجة اتبلت ، قال الحاج طلبة متأففاً ، حتى دفتر الشيكات .

دفتر شيكات ؟ إنه إذن يستحق الاحترام جداً . ثم أخرج الشيء الثالث الذى عرفت منه أننى لن أستطيع أبدا أن أفيه حقه الكامل من الاحترام — أخرج مسدساً كبيراً أسود فتحه وسحب منه مشط الرصاص ليفحصه ، ثم رد المشط إلى المسدس ورفع فوهته إلى أعلى . طراخ ! رددت الجزيرة دوى الرصاصة التى أطلقها ، فشهقت زازا فى ذعر وتوترت عضلات توتو الذى وقف يرقب المشهد فى صمت .

— الحمد لله ماخسرش م الميه ، (قال الحاج طلبة) .

— إنت ديماً شايل مسدس فى جيبك ياحاج ؟ (سألته بسخرية مستترة) .

— شغلنا عايز كده ، أجابنى باقتضاب ، ما تعرفش القبلة فين ؟ فأشرت إلى الشمس التى غاصت فى الماء عند الأفق ، وبمراجعة الجهات الأصلية عرفنا أين توجد القبلة . فانتظر الحاج حتى اختفى قرص الشمس ثم رد السبحة والدفتر والمسدس إلى جيبه ووقف ينوى الصلاة . طويل عريض مهيب فى جلبابه الأبيض ، فخور فى صلاته أكثر منه خاشعاً . أشرت إلى زازا وانتحينا جانباً ، وتبعنا توتو معتبراً نفسه من نفس الشلة .

— أنا قلت إنك مراتى لأنى . . .

— لأنك سافل ! (قاطعتنى بسرعة) .

. . . فشرحت لها فائدة الأمر فى حمايتها من هؤلاء الأغراب ، لكنها لم تقتنع .

— حد قال لك إنى محتاجة لحماية ؟ وإذا كان ضرورى حماية ، ليه ما قلتش إنى مرات توتو ؟ أنت أعقل ولا هو ؟

ـ هو أعنى لكن أنا لى لسان . (فسكتت مفحمة) .

ـ والله لما يعمل إيه مانا لابسة الجلابية دى ! قالت بعد حين فى عناد .

لكنها كانت تعرف أنها سوف تلبسها . . الحاج طلبة كما شعرت زازا وشعرت معها قد قرر أن يفرض نفسه زعيماً على جماعتنا الصغيرة ؛ لسبب ما يشعر الرجل أن عنده من المسوغات ما يرشحه بالبداهة لتلك الوظيفة .

ـ ما فيش حبة ميه ؟ أتانا صوت الحاج وقد انتهى من الصلاة .

فانتقلنا إلى حيث توجد عين المياه ، رفع الحاج الجرة إلى فمه وراح يجرع منها ويمصمص الماء بصوت غلب على ضجة كرشة الذى ما برح يقرش التفاح .

ـ ناولنى تفاحة يا كرشة ، (قال الحاج بعد أن شرب) .

فأحضر له كرشة ثلاث تفاحات .

ـ أما طفاح يا حاج ! لوظ والله ، لوظ !

وبينما الحاج يأكل نظر إلى الكوخ وبدا أنه يفكر .

ـ العشة دى تساعنا كلنا ؟ (سألنى بأمل) .

ـ يا ريت يا حاج ، (أجبته بأسف) ، دى يا دوب سايعانى أنا ومراتى .

فسكت الحاج مفحماً .

ـ على كل حال الدنيا دفا ، (قلت له مهوناً) . فلم يجب .

ـ وبرضه نقدر نتبادلها ، (أضفت) ، إحنا ليلة وانتو ليلة . فلم يجب .

ـ إلا طبعاً إذا كنت تحب تاخدها لوحدك ! (أضفت ساخراً) .

ـ ودى تيجى يا أستاذ ؟ (أجابنى مستنكراً) ، ألست تنام بره ونا يا راجل أنام جوه ؟ فوجهت إلى زازا نظرة ذات معنى .

— الحاج يعرف إنجليزى ؟ (سألته فهز رأسه بالنفى) .

— عرفنى فايدة الجواز ؟ (قلت لزازا بالإنجليزية) .

فلم تعلق ورأيت كرشة يزغر لى .

— النبي عربي يا أسطاز ! (شخط فىّ من بعيد) .

فنظرت إليه بازدراء ولم أعلق . وأخرج الحاج سبحته وراح يداعب حباتها متمتماً ، وكرشة واصل التهام التفاح حتى بدأت أخاف على المحصول . لكنى لم أقل له شيئاً . ثور كهذا ليس من الحكمة أن تقال له الأشياء .

— (تزاتزا ! قال توتو لزازا باسماً) .

— تظاظا ؟ ! (قلده كرشه مستهزئاً) نكطة قوى الراجل ده !

وخيمت على الجزيرة عتمة المساء ، لم يخفف منها إلا قرص القمر الشاحب الذى برز عند الأفق الشرقى ، والذى ما برح شحوبه أن تحول إلى لون فضى جميل يرتعش على ماء البحر . فأدركت أن الساعة قد حانت ونهضت متثائباً كمن كبس عليه النوم .

— يالله بينا يازازا ، قلت بالبساطة الزوجية المناسبة .

وسحبتها من ذراعها فترددت لحظة ثم انقادت . جذبتها وقصدنا إلى الكوخ على مهل ، زوج وزوجته يتجهان إلى بيتهما ، ما الغرابة فى ذلك ؟ لكن قلبي كان يدق كالطبل بين ضلوعي ، على إيقاعه المجنون ترقص فى صدرى فرحة وحشية معربدة . أرأيت فى حياتك رجلا يقتنص لنفسه هذه العروس الرائعة بتلك السهولة المعجزة ؟

الفصل السابع

ما كدت أنفرد بزازا فى الكوخ حتى أخليت سبيل الضحكة المكتومة فى صدرى ، رحت أضحك وأضرب بكفى على فخذى من شدة الطرب ، بصوت منخفض بالطبع كيلا يصل إلى سمع الآخرين فى الخارج .

— والله العظيم إنك سافل ! (قالت زازا بغيظ) ، أسفل راجل عمرى شفته !

لكن صوتها كان يدل على أننى لست سافلا إلى هذا الحد ، وعلى أن غضبها ليس أصيلا . ورأيتها تجلس على السرير الخشبى الواطئ ، وشعاع من القمر تسلل من كوة فى أعلى العشة وأنار وجهها . فذهبت وجلست بجانبها .

— إبعد عنى ! (قالت لى ببقية من الغيظ) .

فابتعدت قائلا لنفسى على مهلك ، أمامنا الليلة كلها .

— والله لما يموت مانا لابسة الجلابية دى !

فشرحت لها مالا تعرف عن أهل الورع والتقوى ، كيف أنهم لا يتذوقون الجمال بنفس الطريقة التى نتذوقه بها نحن . شعاع النور الذى ينبعث من قميصها الوردى ويسحرنى ، لا يمكن لرجل مثل الحاج طلبة أن يرى فيه سوى شعلة من نار جهنم ترتعد فى يد إبليس .

— انتى عاوزة الراجل كل ما يبص لك يتنقض وضوه ؟!

فلم تجب زازا مباشرة ، كانت تفكر .

— دمه تقيل ! قالت أخيرا فى تقزز .

وتفكرت لحظة أخرى ثم ابتسمت .

— ومع ذلك تعرف إن فيه حاجة جذابة كده ؟!

— لا ياشيخة ! (قلت لها بغيظ) ، ما تقولى لى بالمرة إن كرشة راخر فيه حاجة جذابة .

— طب وانت يعنى بتقول فيها ؟ (قالت ضاحكة) ، كل راجل وفيه حاجة ! ثم تصعبت وهبت واقفة تتأفف .

— ياباى ! السرير ده ناشف بشكل ! دى الأرض أريح .

وكان هذا صحيحاً ، ولحسن الحظ كان الكوخ بلا أرضية من خشب أو غيره ، مجرد جدران أقيمت حول مساحة من رمال الجزيرة الناعمة .

— ما فيش شك أن الأرض أريح ، (قالت زازا وهى تجلس على الأرض فى شعاع القمر) .

فجلست بجانبها باسماً . — تسمح تدير وشك للحيطة وتنام ؟

— أدير وشى للحيطة ليه يا أبلا ، أنا عملت حاجة ؟

فابتسمت زازا ، وعندما تبتسم زازا أحس كأن الشمس قد طلعت بعد يوم مطير . أجمل ابتسامة على أجمل شفتين بين أجمل غمازتين ، ونور الجنة يرقص فى عينها .

— أحبك يا زازا ، قلت لها بصدق .

— حبك برص ! (أجابت فى غضب مصطنع) .

وتناولت يدها فلم تعترض ، رفعتها إلى شفتى وقبلتها وقلت لها أحبك من جديد . فى عينها تراءت نظرة حنان غمرتنى بسعادة رهيبة ، فأدنيت شفتى من وجهها ثم توقفت .

— خايف أبوسك يطلع لنا م البحر غريق تانى ! ضحكت وفرصت خدى .

— ساعات يبقى دمك خفيف .

— ستات كتير قالوا لى كده ، (أجبتها) وهممت بالقبلة فأوقفتنى

طرقة مفاجئة على الباب .

ــ ياأستاذ أحمد ! أتانى صوت الحاج طلبة من الخارج ، افتح يا أستاذ أحمد !

ــ الله يخرب بيتك ! (قلت وأنا أغلى) ، ده وقته ياجرم ؟
ووراء الباب وجدت الحاج طلبة وبجانبه كرشة .

ــ أى خدمة ؟ سألته ببرود .

ــ لا مؤاخذة يا أستاذ بس أصلى آه . . هاه . . هاه . . هاتشى !
أبعدت وجهى عن طريق العطسة فى اللحظة المناسبة .

ــ أصلى يظهر خدت برد من مية البحر ، قال الحاج .

ــ طب وأنا اعمل إيه ؟ سألته بنفس البرود .

ــ طعمل إيه يعنى إيه ؟ زمجر فىّ كرشة ، تبيطه معاك فى الضفا !

ــ أبيت مراتى مع راجل غريب ؟ أجبته بغلظة .

فعطس الحاج ثانيًا وثالثًا ، وبين عطساته يعتذر لى عن هذا الاقتحام الذى لم يكن يحب أن يبدر منه لولا الظروف اللعينة . هو ضعيف الصدر ـ شرح لى ـ بسبب إصابته منذ شهور بالتهاب رئوى حاد ، فلو لم يعتكف بهذا الزكام الطارئ لتعرض للموت برداً .

ــ إن شالله اللى يكرهك يا رب ! (قال كرشة وهو يحملق إلى بعينين جاحظتين . وأشار الحاج إلى السرير الخشبي الواطئ قائلا إنه من الممكن وضعه على جنبه ليقسم العشة إلى قسمين ، كما أنه من الممكن تعليق جلباب كرشة فوقه ليكون بمثابة ستار بيننا .

ــ وعلى كل حال الأمر أمرك ، (قال الحاج فى النهاية) .

ــ الأمر أمره يعنى إيه ، جأر كرشة ، هو بيت أبوه ؟ بانيه ولا شاريه ؟ ــ من فضلك بلاش قلة أدب ! (قلت له بحدة) .

ــ لا ياشيخ ! زأر كرشة وهو يقتحم الكوخ .
جبينه وضعه على جبينى وأنفه على أنفى وراح ينفخ بتهديداته فى فمى .

— انت فاهم نفصلك إيه ياأسطاز ؟ ده الحاج طلبه اللى بيكلمك ! ده لولا ظوقه كان رماك بره ونام مطرحلك . أنا طجرمة صحيح !
— سيبه ياكرشة (قال له الحاج طلبة) .
— والله العظيم الواحد يوضبه ! قال كرشة وهو يبتعد عنى .
— زازا ، قلت لها بحزم ، يا الله بينا من هنا .
وجذبتها وغادرنا العشة فجذبنى الحاج طلبه من حمالة فانلتى .
— على فين يا أستاذ ؟
— نبات بره ، قلت له ببرود ، مالناش حتة هنا .
— ودى تيجى يا أستاذ ؟ بقى معقول اطرد راجل ومراته من بيتهم ؟ والله ما يمكن أبداً .
— أما تخف إن شاء الله نبقى نرجع بيتنا .
— والله ما يمكن أبداً ، ياسلام ؟ أنا اللى أبات بره وزى ماتيجى .
— لأ ، احنا اللى حنبات بره ، يالله يازازا .
هو يجذبنى وأنا أجذبه فى مباراة فى الكرم والمروءة ، وأخيراً نفخ الحاج طلبة فى استسلام .
— ياسلام ياأستاذ أحمد ، لو كنتش عنيد كده !
وعطس من جديد ثم أخرج من جيبه دفتر الشيكات .
— مادام ح تباتوا برة (قال لى وهو يفتح الدفتر) ، أنا ح آخد العشة بالإيجار .
فظننت أنه يمزح لكنه كان جاداً ، إذ فتش فى جيبه حتى عثر على قلم من الرصاص ، ثم تهيأ لكتابة الشيك .
— عشرين جنيه فى الشهر كويس ؟
— خليهم تلاتين ، (أجبته متهكما) .
— تلاتين ! زمجر فى غيظ ، لا هو انا بأجر فيللا مفروشة ؟ دى عشة فاضية كحيانة !

— ما تزعلش ، قلت ضاحكًا ، هات اللى تجيبه .
فهم بالكتابة ثم بدا عليه التردد .
— ومع ذلك موش ح ازعلك ، خليهم تلاتين ! أجرة ما شحططتك م البيت .
وشرع يكتب الشيك .
— هو على بنك إيه ؟ (سألته) . — الأهلى .
فألتفت إلى زازا .
— هو البنك الأهلى فاتح فرع هنا يازازا ؟
فضحكت زازا لكن الحاج لم يضحك .
— هو احنا ح نقعد هنا على طول يا أستاذ ؟ (قال لى فى غيظ) ، ضرورى ح تفوت مراكب وتأخذنا . وناولنى الشيك .
— ويمكن تيجى مركب بعد يوم ولا اتنين ، أضاف بلهجة مازحة ، تبقى خدت إيجار شهر على يومين . حلال عليك ياعم ، تصبحوا على خير . ودخل فأغلق الباب عليه .

— آل يبيطوا الحاج بره ! (برطم كرشة وهو يحرقنى بنظراته) .
فسحبت زازا وابتعدنا ، قصدنا إلى جذع الشجرة وجلسنا وراءه ننظر إلى البحر الذى يلمع فى ضوء القمر . لكننى لم أجد فى نفسى أية ذرة من الشاعرية ، كرهت كلا من البحر والقمر . وفجأة سمعت زازا تضحك .

— فيه إيه يضحك ؟ سألتها فى غيظ .
— إنت ! (أجابتنى وسط ضحكها) ، لو كان كرشة مسكك كان فعصك فعص !
فسكت فى غيظ بينما أنهت هى ضحكها .
— وريني الشيك كده ؟ فناولتها إياه .
— ده ع البنك الأهلى صحيح .

— هه ! نفخت ساخرا ، وايش عرفنا إن له رصيد ؟
— إنت وبختك بقى .

وطوت الشيك ودسته فى صدر فانلتى ، وأنا أواصل صمتى الكئيب .

— يا أخى فرفش بقى ! قالت زازا بعد حين ، ولا اقوم أدور على نوتو ؟

فرأيت أن أفرفش ، ماذا تجدى الكآبة وما حدث قد حدث ؟ فابتسمت لأستدرج الفرفشة ، ومددت ذراعا أحطت به كتف زازا وطبعت قبلة على خدها . فإننى لموشك على أن أطبع الثانية إذ أتانى صوت كرشة الغليظ .

— عيب كده يا اسطاز !؛ قال كرشة الذى برز فجأة من وراء الجذع ، انت موش لوحدك .

وأمامى وقف نافشاً عضلاته الغليظة وسط غابة من شعر الغوريلا .

— إنت قدامك رجالة يا أسطاز !

فى تحد سافر يحملق فى وجهى ، ويتمنى أن أرد على تحرشه فتكون فرصته للفتك بى . مكتوب على ألا ألتق فى هذه الجزيرة اللعينة إلا بالعمالقة والفتوات .

— إنت جاى تقف جنبنا وتقول لى عيب ؟ (سألته بلهجة أردتها أن تكون لهجة غضب فطلعت لهجة عتاب) .

— أنا حر اقف مطرح ما يعجبنى .

وكنت أعرف أنه حر حقاً ، عضلات الحرية تصرخ فى كل سنتى من جسمه .

— قومى بينا يا زازا (قلت لها وأنا أنهض) .

نهضنا وقصدنا إلى شجرة التفاح فجلسنا تحتها ، ما هى إلا لحظة حتى رأينا كرشة يأتى ويجلس بالقرب منا . فى حقد بالغ نظرت إليه ، وفى استخفاف مهين رد نظرتى بعينين تهدلت عليهما جفونه الغليظة المنفرة .

— أما والله ! (قالت زازا وهى تفلت ضحكة) .

وفى تلك اللحظة ظهر توتو ، أقبل فجلس أمامنا صامتًا . كرشة نظر إليه فى كراهية ولم يقل شيئًا ، أحد منا لم يقل شيئًا . ثم تنخم كرشة وبصق واستلقى على جنبه متهيئًا للنوم ، ما هى إلا دقيقة حتى رددت شخيره القبيح أرجاء الجزيرة .

— تزاتزا ! (قال توتو وهو يبتسم) .

فأجابته زازا بابتسامة ، ورحت أنا أنقل بصرى بين الاثنين لحظة ثم نهضت فى صمت . « على فين » سألتنى زازا بنبرة استهزاء .

فلم أجبها . كنت أشعر بالمهانة وأريد أن أخلو لنفسى . قصدت إلى ما وراء الكوخ حيث توجد العظام ، جلست بالقرب منها ألوك أحزانى . أمامى ترقد الجمجمة صامتة صابرة خالدة ، فى ضوء القمر تصوب إلى ابتسامة لا أدرى لماذا خيل إلى أنها ساخرة .



الفصل الثامن

من شدة همى وغمى لم أحاول عندما كبس النوم على أن أبتعد عن العظام بل نمت بينها ، وصحوت بعد حين فوجدتنى أضع يدى على الجمجمة فى حنان ، كأننى مرسوم فى صورة سيريالية . لكن لماذا صحوت بهذه السرعة ؟ يخيل إلى أن هناك ضجة غريبة أيقظتنى . نعم هناك ضجة بالقرب منى ، صوت أنفاس مضطربة وزمجرة وحشية وتلاطم أجسام عارية فيما يشبه المعركة . فنهضت على عجل ودرت حول الكوخ لكى أكتشف أنها معركة فعلا ، بين توتو والثور الآخر كرشة . كان الأخير حين وصلت مطوقاً خصر توتو بذراعى أخطبوط كأنه يريد أن يعصره ، فى حين كان توتو مطبقاً بيديه على عنق كرشة لكى يخنقه . فلما أدرك كرشة أنه سيختنق ترك خصر توتو ورفع يده إلى وجهه لكى يدخل إصبعاً فى كل من عينيه . فأخلى توتو سبيل عنق كرشة وأمسك بشعره ليشده منه إلى الوراء ، وفى الوقت نفسه صوب إلى بطنه لكمة عنيفة لو أصابت جبلا لهدته ، فانثنى كرشة نصفين من الألم . لكنه لم يسقط ، بل هجم برأسه على توتو فنطحه فى بطنه نطحة جعلته هو ينثنى نصفين ، ثم طارت قبضة كرشة إلى وجه توتو بلكمة سفلية علوية ألقت به على الأرض . فإنه ليهم بالانقضاض عليه إذ طارت ساق توتو إلى وجه كرشة برفصة ولا رفصة البغل ألقته هو الآخر على الأرض . وهناك التحم الاثنان وراحا يتمرغان على الرمال ، فم كل منهم ملتصق بكتف الآخر بما فهمت منه أنه يعضه .

لم أكن قد انتبهت إلى أن هناك متفرجا آخر على المباراة هو زازا ، إذ وقفت عن قرب وهى تعض إصبعها وترتعد . فقصدت إليها لأطمئنها .

— يظهر أنهم بيتخانقوا (قلت لها باسمًا) .
— بيتخانقوا ؟ ! صاحت زازا فى فزع ، دول ح يموتوا بعض !
— محتمل (وافقتها) ، وأرجو أن القتيل يكون كرشة .
— وأنت واقف كده ليه ؟ موش تروح تفض الخناقة ؟
— أنا ؟ ! (هتفت فى ذعر) .
— إمال أنا ؟ — يا بنتى صلى ع النبى ، دنا خايف اتعور م الفرجة !
— طيب روح ساعد توتو . — موش شايف أنه محتاج لأى مساعدة .
— بقى بذمتك أنت راجل ؟ — أنا طول عمرى عندى مبدأ ، أخبرتها ، إنى أحتفظ برجولتى لحاجات أنفع من الخناق !

فسكتت وهى ترمقنى فى ازدراء ، و عدنا نتفرج على المباراة . كان الرجلان قد وقفا من جديد وعادا إلى الوضع الأول ، كل منهما يمسك برقبة الآخر محاولا أن يخنقه . وفى تلك اللحظة سمعت صرير باب الكوخ ، وبرز الحاج وهو يدعك عينيه من أثر النوم . راح يربش حينًا نحو المتعاركين ، فلما اكتشف حقيقة الموقف أخرج المسدس من جيبه وقصد إليهما بسرعة . دار بالمسدس حتى صار وراء توتو ثم رفعه وأهوى به على رأسه بضربة شديدة ، فسرعان ما رأيت توتو يترنح ويسقط على الأرض . فلم يرحمه كرشة ، بل انقض عليه وركب فوقه مطبقًا بيديه على رقبته لكى يكمل عليه .

— سيبه يا كرشة ! (صرخ الحاج) .
لكنه لم يتركه ، فأسرع الحاج إليه وشده من شعره .
— إنت مجنون ؟ عاوز تعمل لنا جناية ؟

فنهض كرشة وراح يتفحص الأرض حوله وهو يلهث كالثور المجنون ، ثم انحنى والتقط شيئًا تبينت أنه خنجر توتو الذى لا بد أنه حاول استعماله فى بداية المعركة وفشل .

— ودينى أفتح كرشه ! زأر كرشة وهو يلوح بالخنجر فوق بطن توتو . — هات الخنجر ده ! (أمره الحاج) ، هات باقول لك .

فناوله كرشة الخنجر ، وكانت عينه وارمة من أثر رفصة توتو ، ووجهه كله — مثل وجه توتو — قد أصبح شوارع .

— إيه الحكاية ؟ سأله الحاج مستفسراً .

— كله م المقطف ده ! (قال كرشة وهو يشير ناحيتى) .

نظرت خلفى أتلمس شخصاً آخر يقف هناك لكننى لم أجد أحداً ، ليس فى الجهة أى مقطف آخر . وشرع كرشة يحكى الحكاية ، كيف أنه صحا من النوم ليأكل تفاحة ويشرب ماء ، فإنه ليسير إذ لمح أبشع منظر يمكن أن يراه الإنسان ، منظر توتو وهو يضم زازا إلى صدره ويقبلها فى ضوء القمر .

— وصيادته نايم زى البرش ! أضاف مشيراً إلى من جديد .

هو نايم والتانى ناظل فيها بوص !

فراح الحاج طلبة ينقل النظر بين زازا وبينى .

— صحيح الكلام ده يا هانم ؟ (سألها أخيراً) . فتنمرت زازا

— صحيح ولا موش صحيح انت مالك ؟ صرخت فى وجهه

— بقى كده ؟ — آه كده .

— وإيه رأى سيادتكم ؟ (قال ملتفتا إلى) .

عند ذلك أدركت أننى يجب أن أصحح الوضع وأرد الأمور إلى نصابها : الكرامة .

— بقى صلى ع النبى يا حاج ، (قلت له) ، أنا كذبت عليك لما قلت إن زازا مراتى . أنا لا جوزها ولا هى مراتى ، آه .

فانفغر فم الحاج وجحظت عيناه .

— لا انت جوزها ولا هى مراتك ؟ (سألنى بدهشة بالغة) . — آه .

— وواخدها جوه تبات معاها ليه ؟ سألنى فى ذهول .



ــ ما تلدقش ، (أجبته ببساطة) . فواصل الحاج حملقته إلى .
ــ تبقى ندل ! (قال لى فجأة) . ــ لا ياحاج ، ماتطولش لسانك.
ــ لا ياشيخ ! تستغفلنى وتستكردنى وتقول لى ما تطولش لسانك ؟ إنت فاكرنا إيه يا أستاذ . . . قوادين ولا إيه ؟
ــ أنا عارف انها كانت باردة منى ، (قلت معترفًا) ، إنما الحكاية انتهت . من هنا ورايح زازا حرة فى نفسها ، تتصرف على كيفها .
فسكت الحاج مفكراً . ــ إنتى يا بت! (صرخ فى زازا فجأة) .
ــ بت فى عينك ! (صرخت هى فيه) .
فراح يحملق إليها بعين تطلق شرراً ، وفجأة رفع يده وأهوى على وجهها بقلم شديد . ــ لمى لسانك يا ...! ! (جأر الحاج فى وجهها) .
واضعة يدها مكان الصفعة رأيت الدموع تترقرق فى عينيها ، ذقنها ترتعد كطفل صغير يبكى .
ــ أما سماجة صحيح ! (هتفت أنا فى حنق) ، تمد يدك على واحدة ست ؟ هى مراتك ؟ تقرب لك إيه عشان . . .
ولم أكمل كلامى بسبب أننى وجدتنى فجأة جالسًا على الأرض ، على أثر لكمة شديدة فى صدرى من قبضة كرشة .
ــ ماتطولش لسانك على الحاج يالوح !
ورفع قدمه يهدد برفصى فسكت ، وأبصرت زازا تجرى نحو الكوخ وهى تبكى ، دخلت وصفقت الباب وراءها . وواصل الحاج الغاضب صياحه بصوته الذى زاد الغضب من بحته .
ــ ودينى وأيمانى إن شفت واحد منكو هوب عليها مافى غير دهه !
ولوح بالمسلس أمام وجهى ، ومشيراً به إلى توتو الذى مازال نائمًا .
ــ ودينى لأربيكو ياولاد الكلب ! أضاف الحاج وهو يولينى ظهره ويبتعد . لكنه توقف وقد ذكر شيئًا .
ــ هات منه الشيك ! (صاح الحاج يكلم كرشة) :

وقبل أن يصل كرشة كنت قد أخرجت المذكور من عبى .

ــ هاط جطلك البلا ! (قال كرشة وهو ينتش الشبك من يدى) .

وقصد به إلى الحاج الذى مزقه ونثره على الأرض ، ثم ابتعد ووراءه كلبه كرشة . والتفت لأرى توتو وقد بدأ ينتبه ، استوى جالساً وراح يهز رأسه ليفيق ، ثم رفع يده يتحسس ما فى وجهه من جراح .

ــ كان ضرورى م البوس الليلة دى ياسى زفت ؟ ! (قلت له بغيظ) . فلم يبتسم توتو ، لأول مرة واجهنى بوجه عابس . ثم نهض فى صمت واتجه إلى البحر ، انحنى ليغرف الماء براحتيه ويغسل به وجهه . قبيل الغروب رأيته يفعل ذلك ، قبل أن يجلس لينشد أغنيته الغامضة الجميلة . راحت عليك ياتوتو ، ياأيها التمثال البرونزى الجميل . ويبدو أنها راحت على أنا الآخر وعلى زازا . فنهضت وجلست وراء الكوخ بين العظام ، تبادلت نظرة طويلة مع الجمجمة التى تأكدت أن ابتسامتها كانت ساخرة .



الفصل التاسع

صحوت فى الصباح جائعًا فقصدت إلى شجرة التفاح ، وجدت الحاج متربعًا تحتها والسبحة فى يده ، دفتر الشيكات منشور بجانبه فى الشمس لكى يجف . باب الكوخ مقفل على زازا التى يبدو أنها خاصمتنا ، وكرشة يتسكع فى آخر الجزيرة عند البحر ، وتوتو غير ظاهر ، لا بد أنه فى مكانه المختار وراء جذع الشجرة .

مررت بالحاج متجاهلا إياه ، ومددت يدى إلى الشجرة لأقطف التفاحة . بالرغم من كل ما التهمه كرشة من التفاح مازالت الشجرة محملة بتفاح جديد بين أحمر وأخضر .

— صباح الخير ، (قال لى الحاج فجأة) . فتظاهرت بأننى لم أسمع .

— صباح الخير يا أستاذ ! (قال ملحًا) .

— صباح الفل يا سيدى ، (أجبته بتريقة) .

وهممت بأن أبتعد بالتفاحة فنادانى : « يا أستاذ ! تسمح بكلمة » ؟

— أفندم ؟ ؟ (سألته ببرود) . فابتسم الحاج .

— أنا عارف أنك زعلان منى لكن حقك على ياسيدى .

فلم أجب ، اكتفيت بأن نظرت إليه فى كبرياء .

— إنت غلطت فى حقى ، (أضاف) ، وأنا غلطت فى حقك والمسامح كريم . وشرح لى كيف أنه كان مضطرب الأعصاب بسبب حادث الغرق ، وكيف أنه لا يصدق حتى هذه اللحظة أنه قد كتبت له النجاة ، بالإضافة إلى أننى قد ضاعفت من اضطراب أعصابه بالفصل الذى عملته فيه أنا وزازا ، إلى آخر هذا النوع من الكلام .

— خلاص يا سيدى ، (قلت له لأريحه) ، اللى فات مات .

وهممت بأن أبتعد فاستوقفني .
ـ إلا بحق يا أستاذ ، هو شوك السمك ده جه منين ؟
فابتسمت فى سخرية . « من السمك اللى كلناه امبارح » .
ـ والسمك جه منين ؟ ـ م البحر .
ـ ما انا فاهم أنه من البحر ، (قال محاولا كتمان غيظه) ، لكن مين اللى اصطاده ؟ ـ توتو . فسكت الحاج لحظة مفكراً .
ـ اصطاده بإيه ؟ ـ بالخنجر بتاعه .
فتفكر الحاج لحظة أخرى ـ كرشة ! (صاح مناديًا) ، كرشة !
فالتفت كرشة نحونا ورأى إشارة الحاج فأقبل مسرعاً ، غوريلا شنيعة المنظر تدب على الرمال نحونا . ـ ماتنزل يا كرشة تصطادلنا سمكتين ؟
ـ صمكتين ؟ واصطادهم بإيه ؟ ـ بالخنجر ده .
وأخرج الخنجر من جيبه . ـ خنجر ؟ هو الخنجر يصطاد صمك ؟
ـ آه . الراجل ده بيصطاد بيه ، إنت أقل منه ؟
ـ عمرى ما صمعت إن الصمك ينصاد بخنجر ! ـ روح جرب .
ـ أروح . . (قال وهو يهز كتفيه فى غباء) .
وتناول كرشة الخنجر واتجه إلى البحر . وصرير باب الكوخ وبرزت زازا بقميصها الوردى ، وقع بصرها علينا فانقلب وجهها ، وراح الحاج طلبه يتفحصها بنظرة غاضبة .
ـ مالبستيش الجلابية ليه ؟ (سألها الحاج بحدة) .
فلم تجبه زازا ، نظرت إليه فى ازدراء من فوق لتحت .
ـ ما تردى على ! فأصرت على الصمت والازدراء .
ـ أنا السه متوضى ! (صرخ الحاج) ، عايزة تدنلك عريانة خليكى جوه العشة .
فراحت تزغر له حيناً ثم بصقت ودخلت صافقة الباب خلفها .
وأسرعت أصابع الحاج تداعب حبات السبحة ، واشتغلت شفتاه بالدمدمة . كانت لحيته قد تضاعف طولها ، فرفعت يدى إلى لحيتى

التى حدث لها الشيء نفسه .

ــ ما حسستش على دقنك النهارده ياحاج ؟ (قلت له) .

فرفع يده إلى لحيته وسرعان ما بدت عليه دهشة يمازجها الخوف .

ــ وبصيت لضوافرك ؟

فرفع أظافره يتأملها بعين تضاعف ما فيها من الحيرة والخوف ، فسرنى المنظر حتى ضحكت . ــ بتضحك ليه ؟ (سألنى) .

ــ لا ولا حاجة . ــ ليه صحيح ؟ (سألنى بضعف) انت مخبى على حاجة ؟

ــ لا ، بس حبيت أديلك فكرة عن الجزيرة دى !

وخطر لى أن أحكى له عن التفاح لكننى أمسكت ، حسبه اليوم هذه الجرعة من المعلومات . وكان الخوف ما زال مرتسما فى عينيه اللتين راح يجيلهما حوله وهو يتشمم الهواء .

ــ يمكن الجو هنا فيه حاجة بطالة ؟ (سألنى فى ارتباك) .

ــ الله أعلم .

فصمت وزادت سرعة كل من أصابعه وشفتيه ، يستعيذ بالخالق من شر ما خلق .

ــ ما فيش فايضة ، (قال كرشة وقد وصل فجأة) ، ولا صمكة راضية تنصاد . فصوب الحاج إليه نظرة ازدراء .

ــ ما انت طول عمرك حمار ! (قال بغيظ) .

ــ ياحاج طلبة هو إيه . . حد صمع إن الصمك ينصاد بخنجر ؟

ــ واشمعنى هو صاده ؟

ــ اكمنه ابن . . ! (قال كرشة شارحاً) .

فسكت الحاج على مضض ، ودقيقة من التفكير ثم التفت إلى بابتسامة سخيفة .

ـ ماتخلى أخينا ده يصطاد لنا سمكتين ؟ (قال برقة غير لائقة عليه) .

ـ حلوة دى ! (أجبته ساخراً) ، امبارح ترقعوه علقة والنهارده عايزينه يصطاد لكو سمك ؟

فالتمعت فى عينه نظرة غيظ لكنه كبحها .

ـ كلمه يمكن يرضى ، (قال مغرياً) ، نراضيه بقرشين .

ـ إنت معاك فلوس ياحاج ؟ ـ أكتب له شيك .

ـ والله معرفش إذا كان توتو يفهم فى الشيكات ولا لأ .

ـ وشيك عشان إيه ؟ (جأر كرشة معترضاً) ، هو موش ح يطفح معانا ؟

ـ أيوه لكن ح يشتغل (قال الحاج بلهجة إباء) ومادام ح يشتغل لازم ياخد أجرته . . . ثم التفت إلى بظرف زائد .

ـ قوم كلمه والنبى ياسى أحمد !

سى أحمد ! وبالأمس ـ قبل أن يجوع الوغد ـ كنت ندلا . وتناول الحاج دفتر الشيكات وبدأ يكتب .

ـ عشرة جنيه كويسين ؟ (سألنى) .

ـ عشرة جنيه ! (قال كرشة محتجاً) دول يجيبو طرناطة صمك ! فتفكر الحاج لحظة و وقال بلهجة سخاء . ـ طب والله لادى له عشرة !

وكتب الشيك وناوله لى فنهضت قاصداً به إلى توتو ، أنا الآخر جعت واشتهيت السمك .

ـ تاخد ده وتصطاد لنا سمكتين ؟

فرفع إلى نظرة بلهاء من حيث جلس مستنداً إلى جذع الشجرة ، وأحسست أنا الآخر أن سؤالى بالغ السخافة .

ـ عاوزين ناكل يابنى (قلت له مناشداً) جعنا .

وأشرت إلى البحر وإلى فمى وإلى بطنى الخاوية ، فلم يزد الوغد

عن أن هز رأسه وابتسم . أدركت بعد حين أننى أنفخ فى قربة مقطوعة .

ــ أما ابن . . . . صحيح ! (قال الحاج فى غيظ حين عرف نتيجة مسعاى) . ثم التفت إلى بنظرة يمتزج فيها الرجاء بالخجل .

ــ ما تكلم اسمها إيه (قال مشيراً برأسه نحو الكوخ) .

ــ زازا ؟ ــ آه ، يمكن تقدر تقنعه !

فواجهته بابتسامة صفراء ، صفراء إلى الدرجة التى جعلته يغض النظر .

ــ بقى بعد ما ضربتها امبارح (قلت له ساخراً) عايزها النهارده تتوسط لك ؟

ــ وهى موش ح تاكل معانا ؟ (سألنى فى غيظ) ، وهو أنا ح اشغلها ببلاش ؟ هى رخره ح ادفع لها قرشين .

فأدركت أنها فرصة لكى أرى مشهداً لطيفاً .

ــ زازا ! (صحت منادياً) ، زازا ! فلم ينفتح باب الكوخ .

ــ زازا ! أعدت النداء ، تعالى عايزينك فى كلمة .

فانفتح الباب عن زازا ، واضعة يدها على خصرها تنظر إلينا متحدية .

ــ ممكن تيجى لحظة ؟ (صحت أكلمها) الحاج عايز منك حاجة .

فوقفت حيناً ترمقنا فى ازدراء ، ثم بدأت تتقدم منا متقصعة ويدها ما برحت على خصرها . نمرة متحفزة تقترب منا ، روح التحدى تتناثر من كل هزة فى كل جزء من جسمها تحت القميص الوردى . الحاج ثبت بصره عليها لحظة ثم أشاح عنها بوجه مكفهر .

ــ أفندم ؟ (سألتنا فى برود حين وصلت)

ــ الحكاية وما فيها ، (أخطرتها باقتضاب) ، إننا جعنا وعايزين توتو يصطاد سمك .

ــ طب وانا مالى ؟ (قالت أخيراً) شأنى إيه أنا ؟

وأصبحت أنا سيد الموقف . فرح وحشى جرفنى ، وإحساس مخيف بالقوة والسلطان .

ـ ما حدش يقرب منى ! صرخت فيهم جميعاً ، ابعدوا عنى !

يدى اليمنى تصوب المسدس واليسرى تشهر الخنجر ، تراجعت خطوتين لكى أكون على مسافة مأمونة منهم .

ـ جرى إيه ياسى أحمد ؟ (سألنى الحاج بلهجة عتاب) هو المسدس ده بتاعك ؟

ـ دلوقت بقى بتاعى ! (صرخت فيه وأنا أتراجع خطوة أخرى) .

ـ ياراجل ماتقولش كده (قال بابتسامة صفراء) ناولنى المسدس ناول ! وبسط يده واقترب منى خطوة .

ـ خليك عندك ! صرخت وأنا أبتعد خطوة .

لكنه ما برح يقترب منى .

ـ ياراجل اعقل (قال لى بنفس الابتسامة) بلاش صغرنة !

وتقدم خطوة أخرى شجعت كرشة فبدأ هو الآخر يتقدم . الحاج طلبة باسط يده يبتسم وكرشة جاحظ العينين متدلى الفك ، كلاهما يقتربان منى ببطء كأنهما لا يبصران السلاحين اللذين فى يدى ، أو كأنهما يعرفان أننى لن أستخدمهما .

ـ ابعدوا عنى لا ضرب ! (صرخت بصوت مبحوح) .

لكن صوتى لم يعجبنى ، وعرق بارد تصبب على جبينى ، فيبدو أننى لن أستخدم أسلحتى فعلا . رصاصة واحدة يمكنها أن تردى واحداً منهما وترهب الآخر لكننى فيما يبدو لن أطلقها . لم أطلق رصاصة واحدة فى حياتى ، لم أقتل ذبابة فكيف أقتل الآن إنساناً ؟ المسدس والخنجر فى يدى وأنا الذى أتقهقر أمامهما ، أمام الحاج الباسم والغوريلا اللاهثة . وكما يحدث لكثير من الناس الذين يسيرون إلى الوراء تعثرت قدمى فى شىء ما على الأرض فإذا بى أترنح وأسقط على ظهرى . وفى

غمضة عين شعرت بشيء ثقيل يرتمى فوق ، لم يكن صعباً أن أميز فيه جثة كرشة . بيده اليسرى سحب المسدس من يدى ، وبيده اليمنى سحب الخنجر ، ثم استوى جالساً على بطنى وهو يزغر لى صامتاً . لم أعرف سر صمته إلا بعد لحظة ، عندما غمرت وجهى البصقة التى كان يحوشها فى فمه .

— أفتح كرشه ياحاج ؟ ! (قال المذكور حيث جلس فوق) .

— لا سيبه ، قال الحاج باسماً ، ده راجل طيب ! فبدا الأسف على وجه كرشة . « والله نفسى أوضبه ، » (قال وهو ينهض عنى)

المسدس عاد إلى يد الحاج طلبة والخنجر عاد إلى يد كرشة ، كلاهما بدآ يزحفان نحو توتو .

— إنزل اصطاد يابن الكلب ! قال الحاج لتوتو وهو يشير إلى البحر ، إرمى له الخنجر ع الأرض يا كرشة !

فتردد كرشة لحظة ثم ألقى بالخنجر بالقرب من توتو .

— قولى له ينزل يصطاد (قال الحاج لزازا) ودينى إن مانزل لاسيح دمه ! . . تناولت زازا الخنجر بسرعة وقدمته إلى توتو .

— انزل والنبى ياتوتو (قالت له راجية وهى تطبطب على ظهره) عشان خاطرى يا توتو !

فتناول توتو الخنجر ، تقبضت يده عليه كما تقبضت كافة عضلاته، فرفع الحاج المسدس وبدأ يضغط على الزناد .

— انزل يا توتو ! صرخت زازا فى يأس ، أبوس إيدك انزل ! فظل توتو يحملق لحظة إلى فوهة المسدس وقد بدا عليه الخوف ، ومالبث أن أولانا ظهره واتجه إلى البحر فى صمت .

— أقف اتفرج عليه علشان تتعلم منه ، (قال طلبة لكرشة) .

وانتبهت أنا إلى أننى مازلت جالساً على الأرض فنهضت وأنا أمسح عن وجهى بصقة كرشة . والتفت الحاج إلى ، رمانى بنظرة قاسية

وهم بأن يقول شيئاً ثم عدل . والمسدس وضعه فى جيبه وقصد إلى جذع الشجرة فجلس بجانبه ليرقب الصيد . وأنا نظرت إلى زازا التى راحت تنقل بين الجميع نظرات حائرة .

ــ متأسف يازازا، قلت لها بالإنجليزية، يظهر انى مقدرش اقتل أبداً.

فراحت ترمقنى بما خيل إلى أنه نظرة احتقار .

ــ على كل حال كتر خيرك انك أنقذت حياته (قالت أخيراً) .

النبى عربى ياحضراط ! أخبرنا كرشة . (فسكتنا) .

فى أقل من ساعة كان توتو قد صاد - بعددنا - خمس سمكات ، ثم أعد الوقود وأشعل النار وجلس يشويها حتى نضجت .

ــ شيل السمك ده ياكرشة ! قال الحاج ، وديه لى هناك تحت الشجرة .

فحمل كرشة السمك وسط نظراتنا المندهشة واتجه به إلى شجرة التفاح ، أما الحاج طلبة فأخرج دفتر الشيكات والقلم وكتب شيكا .

ــ السمك ده يادوبك على أد غدايا (قال لزازا) ، عاوزين تاكلوا خلوه يصطاد تانى . وآدى شيك بخمسة جنيه اديه لمى زفت ! آه ، أنا أحب آكل بفلوسى .

لم تمد زازا يدها نحو الشيك ، وقفت تحرق الحاج بنظرة ازدراء . فألقى الحاج بالشيك على الأرض وانقلب نحو شجرة التفاح .

ــ شوف ابن الكلب ! (قالت لى زازا) ، شوف السافل !

فوجدتنى فجأة أضحك وأضرب كفاً على كف ، ثم وجدت أنه لا مناسبة للضحك فكففت .

ــ مكسوفة أقول لتوتو يصطاد تانى (قالت زازا) .

ــ والله لكى حق ، أجبتها باستسلام .

ــ تزاتزا ! قال توتو فجأة وهو يبتسم .

وبسرعة راح يجرى بالخنجر نحو البحر ، عاود الصيد من جديد .

الفصل العاشر

صاد توتو ثلاث سمكات تشاركنا فيها هو وزازا وأنا ، أكلت سمكتي من فرط الجوع حتى ذيلها . والحاج طلبة كما فهمت أكل في الغداء سمكتين وأعطى كرشة واحدة ، واحتفظ باثنتين للعشاء . زازا أكلت واعتكفت في العشة ، وتوتو لاذ بمحله المختار وراء جذع الشجرة ، أما أنا فذهبت لأنام حيث تنام الجمجمة . نمت وصحوت عدة مرات ، في كل صباح أضيف علامة جديدة على جذع الشجرة ، صارت العلامات كلها سبع علامات . وبالخنجر أهذب لحيتي أيضاً ، وأقص أظافري التي تصر على أن تتحول في اليوم الواحد إلى مخالب . ثم ينتقل الخنجر إلى توتو الذي صار كل يوم ينزل للصيد من نفسه ، جانب من السمك يأخذه الحاج وكرشة في مقابل شيك ، والباقي أتشارك فيه مع توتو وزازا . فإذا جلسنا مع زازا فعين الحاج طلبة دائماً علينا ، أو كرشة يحوم حولنا من بعيد ، لكي يستوثقا من أنه لا يوجد في جزيرتنا حب . ونسيت أن أخبرك أن زازا قد اضطرت إلى ارتداء جلباب كرشة ، وذلك بعد مشاجرة بينها وبين الحاج كادت تنتهي كالمشاجرة السابقة بالضرب . قصرت ذيل الجلباب لكي يناسبها وحولت الكم الطويل إلى كم قصير ، والجزء الذي قصته من الذيل صنعت منه حزاماً ربطته حول خصرها . بالرغم من فكاهة منظرها لم تزل شهية فاتنة .

— والله عال يا كرشة (قال المذكور متصعبا) عشط وشفط جلابيطك فسطان ! ورفعت زازا ذراعها لكي تهرش تحت إبطها .

— والنبي الجلابية دي ماهي خالصة (قالت وهي تهرش بشدة) ، يا ريتني جيت معايا دي دي. تي ! . . وظللت مدة على خصام مع

الحاج طلبة ، أتحاشاه ويتحاشانى ولا نتبادل حتى تحية الصباح .
ثم بدأ هو بإعادة العلاقات .
ـ اللى مافيه مركب واحدة فاتت (قال لى فى غيظ) ولا جنس مركب توحد الله !

ورفع يده يتحسس لحيته المتدلية ، إذ كان لا يهذبها كثيراً . سرح بصره فى أرجاء البحر يبحث عن سفينة ، البحر العريض الصامت صمت القبور ، والأفق المستدير الذى يحاصرنا من كل ناحية كطوق من حديد .
ـ إنت موش بتقول أنك مهندس مراكب ؟ (سألنى فجأة)
ـ أظن قلت حاجة زى كده ، أجبته بجفاء .
فتجاهل جفائى وسكت لحظة يفكر .
ـ طب ما تبنى لنا مركب ! قال بتردد كأنه هو نفسه يستسخف الاقتراح .
ـ بس كده ؟ (أجبته بتهكم) بكره الصبح تكون المركب جاهزة !
ـ أنا موش باهزر (قال وهو يحاول كتمان غيظه) أنا باتكلم جد.
ـ طيب ممكن ولا مؤخذة تدينى فكرة أبنيها بإيه ؟
فأشار إلى جذع الشجرة المقطوع .
ـ شوية هندسة ويبقى مركب (أخبرنى) . رجل غويط (قلت فى نفسى) خطرت له نفس الفكرة التى خطرت لى مرة وأنا أهذب لحيتى ، لكن أين الأدوات التى تحول الجذع إلى مركب ؟
ـ فين عدة الشغل ؟ (سألته) ـ الخنجر والمنشار وشوية صبر!
تماماً كما خطر لى مرة وأنا أقص أظافرى ، وغد ماكر .
ـ شوية صبر ياحاج ؟ ! (سألته لائماً) .
ـ طولة البال تهد الجبال ، واحنا اربع رجالة طول وعرض !

ثم ضيق عينيه ورمقني بنظرة خبيثة .

ـ تاخد كام وتبنيها ؟ (سألني بلهجة كريهة) .

فرأيت أن أفكر قبل أن أجيب . هى فكرة لا تخلو من الوجاهة لمن يريد أن يغادر الجزيرة ، ومن منا لا يريد مغادرتها ـ على الأقل بعد وصول سيادة الحاج وكلبه كرشة ؟ فإذا تم تحويل الجذع إلى زورق ونجحنا فى الخروج به إلى البحر العريض ، أليس من المحتمل أن نصل إلى أرض آهلة بالسكان ؟ وإذا نجحنا فى ذلك فلماذا لا أكون قد خرجت من هذه المحنة بمبلغ دسم ينفعنى فى مستقبل حياتى ؟ إننى فى جميع الحالات لن أخسر شيئاً . فتنحنحت قبل أن أتكلم .

ـ ألف كويس ياحاج ؟ (سألته ببساطة) .

ـ ألف ! (هتف الحاج) ، ألف إيه ؟

ـ ألف جنيه طبعاً (قلت بهدوء) .

ـ ألف جنيه ! (زجر الحاج) هى نهيبة يا أستاذ ؟ !

فرشقت إبهامى فى حمالة الفانلة .

ـ موش عاجل شوف لك مهندس غيرى ، أنا تسعرتى كده (أجبته بكبرياء وأنا أنصرف عنه) .

وعلامة ثامنة وتاسعة رسمتها على جذع شجرة التفاح ، صارت هناك عشر علامات . وزازا أقبلت لتقطف تفاحة ، ثم جلست على الأرض تأكلها وقد شرد بصرها إلى البحر .

ـ احنا لازم نشوف لنا حل ، (قالت أخيراً) ، شوف لازم يعنى إيه ؟ ـ حل لإيه ؟ (سألتها باسماً) .

ـ للعيشة الهباب دى ! ـ عندك فكرة ؟

ـ المصيبة ان ما عنديش ، إنت اللى عامل لى فليسوف .

ـ تنفع بإيه الفلسفة قدام مسدس وخنجر وغوريلا ؟

ـ أنا عارفة ليه ما غرقوش ؟ كانت ساعة نحس يوم ما طلعوا !

أي والله ، كانت شفتاى على شفتيها ، وكان توتو ينشد أغنية جميلة فى ضوء الشفق الأحمر .

— جبنا سيرة القط ! (قالت زازا) .

إذ أقبل الحاج طلبة علينا وراح ينقل بيننا نظرة فاحصة ليتأكد من أننا لانحب بعضنا ، ثم مد لى يده بورقة تبينت أنها شيك .

— خد يا سيدى ولا تزعل (قال بسخاء) ، آدى شيك بخمسميت جنيه . فنفخت ساخراً :

— ياحاج طلبة أنا موش بتاع فصال ، (أفهمته) ، أنا عمرى ماخدت مقاولة بأقل من ألف. فرمقنى بغيظ يحاول أن يداريه بابتسامة صفراء .

— ياراجل ماتبقاش طماع ! هو انت موش ح تركب معانا فيها ؟

فرفعت يدى لأقفل الموضوع : — أرجوك ياحاج ، ما تضيعش وقتك ووقتى .

وأوليته ظهرى فجذبنى من حمالة الفانلة .

— طب خليهم سبعمية ، (قال مساومًا) — ألف يعنى ألف .

— طب تمنمية . — ٩٩٩ لأ ، أجبته بحزم .

فملأ صدره بالهواء ونفخ ، ثم مزق الشيك الذى فى يده وشرع يكتب شيكاً آخر .

— ياساتر ، دنت صعب بشكل ! (قال وهو يناولنى الشيك الجديد بالألف) .

تناولته ببساطة لكى لا يكتشف فرحتى بمبلغ لم أقبضه قط فى حياتى ، طويته ودسسته فى عبى . وكانت زازا تتابع حديثنا بعينين واسعتين .

— ألف جنيه بتوع إيه ! (تساءلت فى دهشة) إنت ح تعمل إيه ؟ فرشقت إبهامى من جديد فى حمالة الفانلة

ـــ ح ابنى مركب (قلت لها ببساطة وأنا أتجه نحو جذع الشجرة فى خيلاء .

لكننى كنت أشعر أن فرحتى بالصفقة ليست خالصة ، وخزة من الشك تفسدها على . فمن أدرانى ـــ كما تساءلت مرة قبل ذلك ـــ أن شيكات الحاج طلبة لها رصيد هناك ؟



الفصل الحادى عشر

لم يكن إغراء توتو بالعمل صعبًا ، كان دائمًا يحب العمل . وكان سريع الفهم لما أكلفه به ، بعكس كرشة الذى كان لا يفهم الشيء إلا بعد أن يعاد عليه مرات . وعلى أى حال لم أكلفهما بالكثير ، لا شيء غير الحك فى ظهر الجذع بالخنجر والأداة الصخرية الأخرى ، تلك العملية التى نرجو أن تؤدى على مر الزمن إلى تفريغ الجذع من الداخل وتحويله إلى زورق .

— موش ترسم لهم علامات على الخشب ؟ سألنى الحاج .

— لسه بدرى ، أجبته بإيجاز علمى .

لم أكن مجنونًا حتى أرسم لهم خطوط العملية كلها وأكشف عن أوراقى مرة واحدة . أنا الآن مهم لأننى مسئول عن بناء المركب ، ولكى أحتفظ بهذه الأهمية يجب أن أقدم تعليماتى بالعَطارة .

— اشمعنى سى طوطو يشتغل بالخنجر وأنا بالهبابة دى ؟ (تساءل كرشة) .

فجعلتهما يتناوبان استخدام الخنجر . « وانتو إن شاء الله ح تقعدوا تتفرجوا عليهم ؟ ! (تساءلت زازا ساخرة منى ومن الحاج طلبة) .

— إزاى بقى ؟ (قال الحاج معترضًا) لازم كلنا نشتغل .

وتناول الخنجر من كرشة وراح يعمل نحو ربع ساعة ، لم يتوقف إلا عندما تذكر فجأة أنه يجب أن يتوضأ ويصلى الظهر .

— خد يا باشمهندس ، (قال وهو يناولنى الخنجر) .

فرحت أشتغل بدورى نحو ربع ساعة ، لم أتوقف أنا الآخر إلا عندما خطرت لى فكرة هندسية تحتاج منى إلى ساعة من الحسابات على الورق .

« والنبي تاعبين نفسكو ع الفاضى » ! قالت زازا وهى ترقب العمل .

ــ والله انا برضك يا قول كده : (وافقها كرشة) .

وكانت عملية خرافية حقاً ، محاولة تفريغ الشجرة بخنجر وقطعة صخر . والشمس قطعت رحلتها عبر السماء ومالت للغروب ولم يحدث فى الجذع أكثر من بعض الخدوش الشبيهة بما كان فيه من البداية .

ــ الصبر يا جماعة ، الصبر ! (قال الحاج طلبة حيث جلس يسبح بعد صلاة المغرب) . وتحشينا مثلما تغدينا بالتفاح فقط ، لم يوافق الحاج على تضييع وقت توتو فى صيد السمك وشيه .

ــ آهه يوم سمك ويوم تفاح ، قال الحاج بعد أن صلى العشاء .

وبحلول الظلام كان ضرورياً أن يتوقف العمل ، الليلة ليست مقمرة والنار التى أشعلناها لم تكن كافية . خمستنا جلسنا حول النار فى صمت ، وهج النار يلقى على وجوهنا ظلالا متراقصة .

ــ مطهيأ لى الدنيا برضت شوية (قال كرشة وهو يدعك بيده صدر الغوريلا) . وكان الجو قد تغير فعلا عن ذى قبل ، لم يعد جو الصيف الذى يستحب فيه نوم الخلاء . عشر علامات رسمتها على الشجرة ، أيمكن أن تكون كافية لانتهاء الصيف الذى لم يبدأ إلا منذ شهر واحد ؟

ــ تفتكر الشغلانة دى تاخد لها أد إيه ياباشمهندس ؟ (سألنى الحاج طلبة) ــ شهرين . . تلاتة . . أربعة . .

ــ قول خمصة سطة صبعة ! (قال كرشة) .

ــ قول تمانية تسعة عشرة ! (قالت زازا ضاحكة) .

ثم نهضت متهيئة للانصراف .

ــ تصبحوا على خير ياحضرات ! قالت وهى تبتعد .

تبتعد وهى تترنم بأغنية إنجليزية ، تلك الأغنية التى تبينت بعد قليل أنها ليست أغنية ، إنما هى كلمات عادية لحنتها زازا موجهة إياها

إلى شخص يعرف الإنجليزية .

ـ ألا يمكنك (ترنمت) بعد أن يناموا (ترنمت) أن تأتى إلى الكوخ قليلا ؟

فكاد قلبي ـ وقد فهمت ـ يقفز من حلقى ، فمن غيرى يعرف الإنجليزية حتى توجه إليه هذا النداء ؟ وابتعدت زازا وهى تترنم على إيقاع من دقات قلبي ، ستة عيون غيرى راقبتها وهى تتراقص نحو الكوخ فى جلباب كرشة .

ـ عاوزين ننام علشان نصحى للشغل بدرى (قال الحاج طلبة حين أقفل باب الكوخ على زازا) .

ـ آهه ده عز العقل ! أجبته وأنا أنطرح على الأرض . .

وانطرح الحاج هو الآخر غير ناس أن يحكم ثنى جلبابه على جيبه ، وكرشة نام على ظهره كالقتيل . أما توتو فتركنا ومضى إلى ما وراء جذع الشجرة . فأغلقت عينى متظاهراً بأنى سأنام ، كأن رجلا يستطيع أن ينام وفى صدره هذا القلب المجنون . عقدت يدى تحت رأسى ورحت أحاول ترتيب أفكارى المحمومة . هل ألبى النداء وأذهب إلى زازا ؟ إنى أعرف أننى سألبيه حتماً ، كيف بالله عليك لا أفعل ؟ لكن أليس جديراً بى أن أفكر فى العواقب ؟ رصاصة تستقر فى صدرى أو خنجر يغوص فى بطنى ، أو على الأقل علقة حامية تحطم ضلوعى ؟ لكنهم من ناحية أخرى لا يستطيعون اليوم إيذائى بشدة ، أنا المهندس الذى فى يده خلاصهم . لا أظن أن أحداً سيقتلنى أو حتى يضربنى ، سيكتفون فى أغلب الظن بتهزيئى ، فمن الذى لا يغامر بالتهزئ تلبية لأغنية زازا ؟ ؟ من لا يفعل ذلك فلا شك أنه مهزأ من الأصل .

ارتفع غطيط كرشة فازداد خفقان قلبي ، وازداد أكثر عندما أجابه شخير الحاج طلبة . لكننى لم أنهض من فورى ، انتظرت حتى يغرقا فى النوم . نعم أنا المهندس الذى سيخرجهم من هنا ، جدير بى

أن أستمتع ببعض الامتيازات . بأى حق يتحكم فى الحاج طلبة ويعلمنى مبادئ السلوك ؟ الشيك الذى أعطاه لى هو أجرى عن العمل ، ما حريتى فلا أذكر أننى بعتها لأحد .

غرق الرجلان فى النوم فنهضت بحذر شديد ، جثوت على يدى وركبتى ورحت أزحف نحو الكوخ . فى الظلام أسعى نحو الكوخ كالحيوان ، أليس غريباً أن يسعى الرجل إلى الحب وهو يسير على أربع — خاصة وهو رجل مهندس ؟ فلما بلغت باب الكوخ لم أطرقه وإنما نقرت عليه بأظافرى ، سرعان ما انفتح بصرير خافت .

— إنت فين ؟ (أتانى صوت زازا) .

— أنا اهه ! (أجبتها هامساً من حيث جثوت) .

— ومالك ماشى كده ؟ (سألتنى فى دهشة حين رأتنى) .

— هس ! (قلت لها محذراً) .

ودفعت الباب برأسى ودخلت ، مصراً لسبب لا أدريه على مواصلة السير على أربع . فلما أقفلت زازا الباب نهضت كالمحموم أتلمسها فى الظلام .

— إنت . . — هس ! (قاطعتها من جديد) بلاش كلام ليسمعونا !

وألقيت ذراعى حولها وضممتها إلى صدرى ، بقوة نهلت من عطرها فى شراهة رجل عطشان ظمآن صديان وقعت يده ، بعد يأس ، على شوب بيرة مثلجة . وسمعت من تلاحق أنفاس زازا ما دلنى على أنها لا تختلف عنى كثيراً . لحظة من النشوة ما كان أمتعها ، وما كان للأسف أقصرها . إذ شعرت بشىء يرتطم بظهرى حيث وقفت ، باب الكوخ الذى انفتح فجأة بعنف مع صوت الحاج طلبة .

— والله عال ياباشمهندس ! والله عال قوى ، عال قوى قوى !

فالتفت لأواجهه هو وكرشة ، كرهتهما كما لم أكره أحداً من قبل .

وكان كرهى مشوبـًا بثورة مدمرة ، قررت فجأة أن أطالب بحريتى .
— هو إيه اللى والله عال ؟ ! (صرخت فى وجهه) إنت مالك ومالى ؟ ! بأى حق تدخل علينا ؟ حاشر نفسك بينا ليه . .
— لا ياشيخ ! (جأر الحاج طلبة) ، ولك عين تتكلم كمان ؟ إنت فاكرنا إيه يا أستاذ ؟ فاكرنا قوادين والا إيه ؟
ومن صوته عرفت أنه لن يقبل ثورتى ، فرأيت أن أحاول حل المشكلة بالمنطق البارد — إذا كان المنطق البارد يمكن أن يحل شيئـًا .
فنفخت كل الهواء الذى فى صدرى وخرجت من الكوخ .
— بقى صلى ع النبى ياحاج (قلت له بأهدأ صوت عندى) أنا باحب زازا وعايز اتجوزها ، عندك مانع ؟
فسكت لحظة يستوعب كلامى .
— تتجوزها ؟ (سألنى بعد حين) تتجوزها ازاى بقى ؟
— زى كل الناس ما بتتجوز ؟
— وفين المأذون اللى يجوزها لك ؟
— هى الدنيا طول عمرها فيها مأذون ؟ الجواز ورقة نكتبها وانت وكرشة اتنين شهود ! فأفحم الحاج لحظة ، لكنه لم ييأس .
— واحنا نعرف منين انه جواز بحق وحقيق ؟ ما يمكن الحكاية كلها نصب . — باقول لك تكتب عقد .
فسكت الحاج طلبة ، ثم رفع يده ليهرش رأسه وهو يفكر .
— إن جيت للحق (قال أخيراً) البت دى عايزه حد يلمها . . !
— بس ما تقولش بت ! (قالت زازا) .
— لكن تفتكر انك تقدر تلمها ياباشمهندس ؟ سألنى الحاج بابتسامة كريهة — مقدرش ليه ، صغير ؟
— افرض أن الطور اللى هناك ده (قال مشيراً إلى جذع الشجرة حيث يوجد توتو) جه اتهجم عليها تانى) ، ح تقدر سيادتك تحوشه ؟

— ياسيدى ابقى حوشه انت !
— حاجة لطيفة قوى ! سيادتك تتجوز وأنا اشتغل لك غفير ؟
— على كل حال ما تحملش هم . أما يتهجم عليها ابقى اتصرف.
— وافرض انه قتلك ؟ — فى ستين داهية !
— والمركب يا أستاذ ؟ مين يبنى المركب ياباشمهندس ؟ إنت فاكر ان حياتك ملكك انت بس ؟

فأدركت أننا نتجادل فى الهواء .
— ما هو شوف بقى ياحاج (قلت بحزم) إما إنى اتجوزها وإما إنى موش عامل لكو المركب . قلت إيه بقى ؟
— لا ياشيخ ! زجر الحاج ، والشيك اللى ف جيبك يا أستاذ ؟
— اتفضل (قلت وأنا أخرج الشيك من عبى) بلّه واشرب ميته !
فما كدت أقولها حتى وجدت نفسى جالساً على الأرض ، على أثر زغد فى صدرى من يد كرشة . يبدو أننى سأقضى نصف وقتى فى هذه الجزيرة مبروشاً على الأرض .
— ما تطولش لسانك على الحاج !
— سيبه ياكرشة ، قال الحاج ، قوم يا باشمهندس .
ومد يده يساعدنى على النهوض وبدأ يتكلم بهدوء .
— شوف ياسى أحمد (قال الحاج طلبة) احنا متفقين على إن البت دى لازم تتلم ، موش كده برضه ؟ — وباقول لك المهمّ موش راضى .
— ما تضحكش على نفسك ، موش انت اللى تقدر تلمها ! فبدأت أفهم .
— ما تحطها على بلاطة وتريحنا يا حاج ، (قلت له ساخراً) .
— يعنى إيه ؟ (سألنى) — يعنى قول انك انت عاوز تتجوزها .
فسكت حيناً يتفكر ، ثم تفشت فى وجهه بسمة حياء أبله .
— وحد يتأوصل لست زازا ؟ ! قال وهو يغض البصر .

فرنت من زازا ضحكة صغيرة .
— ثم انت ح تتجوزك على إيه ؟ استرسل الحاج طلبة ، ماهيتك كام فى الشهر ؟ عشرين تلاتين جنيه ؟ الست زازا عايزه راجل مقتدر . راجل ملو هدومه ، يلبسها ويغنغها ويعيشها عيشة ملوك ، ولا انا غلطان يا ست زازا ؟

فلم تجب زازا من فورها ؛ راحت تنقل النظر بيننا حينا ثم بدأت تضحك . فى جلباب كرشة رأيت جسمها يترجرج من شدة الضحك حتى تهالكت على ركبتيها ، ورفعت يديها إلى وجهها لتستر بهما ضحكها . فلما رفعتهما بعد حين كان وجهها مبللا بالدموع .
— ماهو شوفوا اما اقول لكم (قالت بصوت متهدج) اتفقوا مع بعض وشوفوا لى عريس ! أنا عايزه اتجوز وخلاص !
وبسرعة انطلقت تجرى نحو الكوخ ، دخلت وصفقت الباب خلفها .
— جالك كلامى ياباشمهندس ؟ (قال طلبة) البت عايزه راجل يلمها !

فأحسست فجأة أننى أريد أن أبكى .
— طب والله العظيم مانا عامل لكو المركب ! (هتفت بصوت تخنقه الدموع) . فصوب الحاج إلى نظرة طويلة قاسية .
— طب إيه رأيك انك ح تعملها ؟ (قال لى بهدوء) .
— لأ مش عاملها ! (قلت متحديا) . — لأ ح تعملها .
— لأموش عاملها ! وهنا تدخل كرشة .
— الله انت لمض كده ليه ؟ الحاج قال لك ح طعملها يعنى ح طعملها ، آه ! . . وزغد جديد فوجدتنى مبروشا على الأرض . يبدو أننى سأعملها !

الفصل الثاني عشر

لم يكتف الحاج طلبة – في الصباح – بأن يتروج زازا بدلا مني ، وإنما طالبني بأن أشهد على الزواج مع كرشة .

– سبحان الله ! قلت له في مرارة ، بقى تخطف الولية مني وعايزني اشهد على جوازكم ؟ فلم يجب الحاج .

– ح طشهض (أخطرني كرشة)،يعني ح طشهض! فشهضت ! !

وبينما أخذ الحاج يد زازا في يده ليقرأ الفاتحة رأيت صدرها يهتز بضحكة مكتومة وقد تورد وجهها حياء . لم يتورد وجهها عندما قبلتها أو عندما قبلها توتو ، فالخجل فيما يبدو لا يصيبها إلا من العقود الرسمية . عقد الزواج كتبه الحاج على ظهر شيك سوف تجده بين هذه الأوراق إن هي وصلتك ، وعلى العقد وقع الحاج ووقعت زازا ووقعت أنا ، وكرشة بل إصبعه بريقه وبصم . ثم طوى الحاج عقده وأودعه في جيبه مع السبحة والمسدس ودفتر الشيكات .

– مبروك ياحاج ، (قال كرشة) مبروك ياسط ظاظا !

– الله يبارك فيك يا كرشة (أجابه الحاج) ومن هنا ورايح موش عايزك تقول ست زازا . هي اسمها الحقيقي إيه ؟

– عظيظة ! – خلاص ، تبقى تقول ست عزيزة .

– مبروك ياست عزيزة (قلت ساخراً) . – يالله ياعزيزة اجري ع البيت (قال لها الحاج بلهجة الزوج الذي أصبح فجأة قواماً) .

فاهتز صدر زازا بضحكة صغيرة ثم نهضت متجهة إلى الكوخ ، لم تنس قبل إقفال الباب أن تلتفت نحوي وتخرج لسانها .

— عقبال البكارى ياحاج ! (قال كرشة) . فتجاهل الحاج كلمته .

— إحنا ليه قاعدين من غير شغل ؟ (تساءل الحاج طلبة مشيراً إلى جذع الشجرة) .

— ح نشتغل فى يوم فرحك يا حاج ؟ (قال كرشة معترضاً) أنا با قول نأخذ النهارده أجاظة . . فتفكر الحاج لحظة .

— زى بعضه يا سيدى (قال متساهلا) ، خدوا النهارده أجازة .

وتفكر لحظة أخرى ثم أشار إلى توتو الذى راح يتسكع بعيداً .

— وخلى الجدع ده يصطاد لنا سمكتين . — وجب ياحاج .

وسكت الحاج طلبة حينا ثم تثاءب وتنحنح ، ثم بسط ذراعيه يتمطع ، وأخرج السبحة ونهض متثاقلا ، بدأ يتحرك نحو الكوخ على مهل . ببطء وتؤدة يسير ، طويلا عريضاً حافياً يداعب حبات السبحة المتدلية من يده ، آل يعنى رايح يسبح ! أنا وكرشة تابعناه وهو يبتعد بنظرات تقطر حسداً ، لأول مرة تشاركت مع كرشة فى شعور واحد . فبينما راقبت الحاج متجهاً إلى الكوخ ساورنى مع الحسد شعور آخر غريب ، شعور بالراحة لأننى لست أنا الذى يتجه إلى ذلك الكوخ ! لم يكن فى إمكانى أن أحتمل على ظهرى هذه النظرات الحاسدة ، كأن الحاج كان مصيباً حين قال أننى لا أستطيع أن أحمى زازا . هو وحده الذى — بالمسدس وبعضلات كرشة — يستطيع أن يحميها ، إذا صح أنه من الممكن لزازا — أو من اللازم — أن تحمى .

— هع ! (قال كرشة حين دخل الحاج وأقفل الباب) ، أما حكاية ياولاض !

وبفم مفشوخ بابتسامة كريهة ، وجفون متهدلة على عيون الغوريلا ، راح يحدق فى الباب الذى أغلق على الحاج وزازا . وشعور غريب آخر دهمنى فجأة ، أننى لست أكره كرشة كما يجب أن أكرهه . هو ضربنى وأذلنى وقد يضربنى ويذلنى فى أية لحظة ، ومع ذلك لا أكرهه . بل

يخيل إلى أنه كان من الممكن لو تغيرت الظروف أن أحتمل شيئاً من الميل إليه .

— صلامات يا اسطاز ! (قال فجأة بلهجة تريقة) إنت آنصتنا قوى !

— الله يآنصك ! (أجبته بنفس اللهجة رافعاً يدى إلى جبينى بالسلام) .

— طب والنبى انط راجل طيب ، (أضاف كرشة مستهزئاً) .

— ده بس من أصلك . — هع ! (تقصع كرشة) هع !

فرحت أتفرج عليه حيناً لكى أستوعبه : — إيه ؟ (سألنى) بتشبه على ؟

— ممكن أسألك سؤال ؟ (قلت له بهدوء) . — إسأل إحنا ورانا حاجة ؟

— إنت ولا مؤاخذة مالكش غية فى الدنيا غير ضرب الناس ؟

فلم يجب من فوره ، راح يتفحصنى من تحت جفونه المتهدلة بنظرة مستريبة . — يعنى إيه بقى ؟ سألنى أخيراً .

— يعنى من يوم ما شرفت هنا ، شرحت له ، ما شفتكش بتعمل حاجة غير يا تضربنى يا تضرب توتو . إحنا أذيناك فى حاجة ؟

— يعنى إيه ، انتو موش بتظعلوا الحاج ؟ أجابنى بنبرة تحرش .

— زعلناه فى إيه ؟ ؟ (سألته ببرود) . — يا صلام ، كل ده وما زعلطوهش ؟

فأصررت على برودى : — كل ده يبقى إيه ؟

فأخذ كرشة يفكر ، نحواً من دقيقة يبحث عن تهمة يلصقها بنا .

— ناظلين بوص فى البت قدامه ، هى دى شوية ؟

— طب وهو دخله إيه ؟ هى مراته ولا بنته ؟.

— الحاج ما بيحبش المصخرة ،(أجابنى) ولا أنا احبها كمان ، آه!

— والجوازة دى موش مسخرة ؟ إشمعنى هو اتجوزها ؟؟ ليه ما اتجوزهاش أنا ؟

— عشان ما تعرفش تلمها . فتريثت لحظة .

— طب وانت ؟ (سألته) إنت ما تعرفش تلمها ليه ما تتجوزهاش انت ؟ فسكت لحظة مفحماً .

— وأنا إيش أوصلنى للحاج يا اسطاز ؟ (قال بعد حين) الحاج ده مربينى من صغرى . جابنى م الشارع وعملنى بنى آدم . أنا لحم كطافى من خيره يا اسطاز . وكانت لهجته قد أصبحت عدائية سافرة نصحتنى بأن أكف ، لكننى يجب أن أكمل مهمتى :

— لكن هى مستظرفاك انت (قلت مغامراً) مرة قالت لى إنها شايفة فيك حاجة جذابة !

فارتفعت جفون كرشة بينما تدلى فكه الأسفل ، وتركزت عينه على الكوخ وقد طفحت على وجهه ابتسامة حقيرة .

— هع ! (قال كرشة أخيراً وهو ينهض) أما نروح نصطاد الغدا !

وتركنى واتجه نحو توتو ، من بعيد رأيته يلقى له بالخنجر ويشير إلى البحر ، فتناول توتو الخنجر ونزل للصيد بالطاعة التى اعتاد عليها فى العهد الأخير . وأنا قصدت إلى شجرة التفاح ورسمت عليها بالمنشار الصخرى علامة جديدة .

الفصل الثالث عشر

خمس علامات جديدة وأصبح عندنا مشروع زورق حقيق . بالخنجر والمنشار الصخرى أعملنا النحت والكحت فى جذع الشجرة حتى ظهر لنا تجويف عميق يبشر بالخير . أنا وتوتو وكرشة نعمل والوغد طلبة لابد فى الكوخ يلعق العسل ، فإذا خرج من الكوخ فذلك لكى يستحم فى البحر ويصلى ، ثم يعود وهو يحمل نصيبه ونصيب زازا من السمك الذى صاده توتو . مرة واحدة أقبل ليلقى نظرة على الزورق ، رأى التجويف الكبير فبدا عليه السرور .

— بارك الله فيكم ، (قال لنا مهنئاً) ، شدوا حيلكو يا جدعان !

ولكى يكافئنا على نشاطنا أخرج دفتر الشيكات وكتب لكل منا شيكاً بخمسين جنيهاً . غير أنه بدا وكأنه فقد ذلك الاهتمام الشديد بسير العمل فى الزورق ، لم يعد يتطلع بشوق بالغ إلى مغادرة الجزيرة . ولكى يهذب لحيته وشعره وأظافره بالخنجر تسبب فى تعطيل العمل أكثر من ساعة . وكانت اللحية التى يهذبها قد أصبحت نصف بيضاء ، وأكاد أقسم أنه لم تكن فى وجهه منذ أيام تلك الغضون والكراميش .

— إوعوا حد يروح ناحية العشة (قال لنا مرة) الست بتستحمى وراها !

فاتجهت عيوننا إلى العشة تريد أن تخترقها إلى ما وراءها ، ثم ظهرت زازا فى جلباب كرشة وهى تعصر القميص الوردى الذى غسلته ، ثم ضربت به الهواء ونشرته على غصن من شجرة التفاح وهى تغنى .

— إوعى تقول ممنوع الحب (زقزقت زازا) إوعى تزعل م اللى يحب . كل شيء ممنوع فى الدنيا إلا الحب ، إلا الحب !

وبينما غنت راحت تهز رأسها الفاتن على إيقاع النغم .

— عزيزة ! (ناداها الحاج زاجراً) بلاش غنا وادخلى العشة !

زوج حمش أطاعته زازا وعادت إلى الكوخ . هى فى الكوخ معظم الوقت ، ليس عند الحاج طلبة نساء يغادرون البيت ويتسرمحن أمام الأغراب بلا لزوم . فلما رأى أنظارنا لا تترك القميص المعلق إلا لكى تعود إليه ، ذهب فنزعه عن الشجرة واختفى به فى الكوخ . حتى قميص زازا يعتبره الحاج حراماً علينا .

— تزاتزا ! تزاتزا ! تزاتزا ! هكذا راح توتو يردد بغير شعور وهو يعمل الخنجر فى لحاء الشجرة. قال له كرشة ، : « هو إيه ياخويا اللى تظاتظا تظاتظا ! ماتشطغل وانت صاكت » !

فسكت توتو . وعلامتان جديدتان على شجرة التفاح وبدأنا ترتعد من البرد ليلا . فى هذا الجو الجديد لم يعد من السهل علينا أن ننام عراة فى الخلاء ، النار التى نشعلها تزودنا بشىء من الدفء ثم لا تلبث أن تنطفىء فنبرد .

— اتفرج يا سيدى ، (قلت لكرشة متأففاً) هو نايم دفيان واحنا بنتكتك . فلم يجب كرشه من فوره ، كان يفكر .

— عارف أنا ح اعمل إيه ؟ قال بعد حين ، ح أقول له يرجع لى جلابيطى .

— طب وأنا وتوتو ؟ (سألته) فأجابنى ببصقة على الأرض .

* * *

— والست تمشى عريانه ؟ (قال الحاج فى غيظ عندما طالب كرشة بجلبابه فى اليوم التالى) .

— ياحاج خليها جوه البيت (برطم كرشة) أنا باباط طول الليل أطكطك !

— هو يطكطك (قلت للحاج) وأنا وتوتو نرد عليه .

فسكت الحاج مفحمًا .

ــ ممكن ولا مؤاخذة أعرف انت لابس تحت الجلابية دى إيه ؟ (سألته بعد لحظة) . فوخزنى بنظرة حادة .

ــ يعنى إيه ؟ (سألنى بغيظ) .

ــ يعنى باقول ما دام انت نايم جوه دفيان ، تبقى تسلفنى جلابيتك بالليل !

ــ والله عال ! (قال الحاج وهو يضرب كفًّا بكف) واحد عاوز جلابية الست والتانى عاوز جلابيتى !

ــ ما هو انت يا حاج لو تجرب البياط برة كنت تعظرنا (قال كرشة) .

ــ وما تنساش يا حاج (قلت أنا) إننا لازم نحافظ على صحتنا. إذا عيينا مين اللى يعمل المركب ؟

فسكت الحاج لحظة مفكراً ، ثم ابتعد عنا دون أن يجيب . لكنه بالليل نادى كرشة إلى الكوخ ، ومن خلال الباب المواريب ناوله الجلبابين .

ــ ربنا ما يحرمنا منك يا حاج (قال كرشة داعيًا) .

هو لبس جلبابه وأنا لبست جلباب الحاج طلبة .

ــ والله عال يا كرشة (قال المذكور) عشت ولبصت بنص كم !

وكان منظره نكتة حقًّا فى ذلك الجلباب الذى حولته زازا فستانًا ، مثل منظرى أنا فى جلباب الحاج الفضفاض الذى يتهدل حولى على الأرض . لكنه أدفأنى أثناء النوم ، إذ تهت فيه كأننى أنام فى خيمة . فتذكرت توتو الذى يبيت بالمايوه وراء جذع الشجرة ورثيت له ، ربما تناوبت معه ارتداء الجلباب إذا اشتد البرد عن ذلك . لكن اشتداد البرد صنع فى العكس ، جعلنى أنسى كل شىء عن توتو . بل إننى طالبت الحاج ذات صباح بأن يترك لى جلبابه خلال النهار أيضًا .

ــ لا ياشيخ ! (جأر الحاج فى وجهى) والنبى صحيح ! ماتاخد

القائلة وملحقاتها ! — ما هو أصل يا حاج . . . .
— لا أصل ولا فصل ، دنا لو مشيت وراك ح تقلعني عريان !
إقلع الجلابية ياباشمهندس ! ! فخلعتها . . .
— وعلى فكرة الست ابتدت تبرد بالليل ، (قال الحاج لكرشة منذراً) ، يعنى ما نتش واخد الجلابية الليلة .
— يا نهار اصوض ! (جعر كرشة) دنا اموط م البرض يا حاج .
— إنت راجل وتستحمل لكن هى ست (قال الحاج بحزم) .
وطلب الخنجر لكى يهذب لحيته التى كاد الشيب أن يشملها كلها ، وسط طائفة جديدة من الغضون والتجاعيد . لكننا عملنا فى ذلك اليوم كما لم نعمل فى أى يوم آخر ، العمل من ناحية بشيع الدفء فى أجسامنا العارية ، ومن ناحية أخرى يقربنا من يوم الخلاص . كرهنا الحياة فى هذه الجزيرة اللعينة حيث لا غذاء ولا كساء ولا نساء .

وزازا أيضاً تبين أنها كرهت حياتها .

— دى ما بقتش عيشة ! (أتانا صياحها من الكوخ المقفل) إنت ح تدفنى بالحيا ؟ ! فلا ندرى بماذا أجاب الحاج طلبة .
— أنا طهقت خلاص ! (عاد صوتها الصارخ) إعتقنى يا أخى !
فلم ندر برضه بماذا أجابها .
— طب والله مانا قاعدة لك ! ح اخرج يعنى ح اخرج !

وانفتح باب الكوخ بعنف وخرجت منه زازا ، يد الحاج حاولت أن تستوقفها ففشلت . خرجت زازا مسرعة والحاج وراءها ، فلما أوشك على اللحاق بها بدأت تجرى ، والحاج يلهث وراءها ولا يستطيع أن يمسكها . — كرشة ! (صاح الحاج منادياً) ، إمسك البت دى !
فناولنى كرشة الخنجر وانطلق يعدو ، غوريلا قبيحة تطارد الغزال الشارد . ووقعت زازا بين ذراعيه ، خيل إلى أنه احتجزها هناك لحظة زائدة عن الحاجة . ثم جذبها من يدها وقصد بها إلى الحاج طلبة الذى

أهوى على وجهها بصفعة قوية .

ـــ أنا ما حدش يضربني ! (صرخت زازا بصوت مختنق) موش عايزه اقعد معاك ! زهقت من خلقتك ! طلقني وريحني منك !

فناولها الحاج صفعة ثانية وجذبها داخل الكوخ وهي تبكي .

ـــ تزاتزا ! تزاتزا ! (زمجر توتو بغير شعور وهو ينظر إلى الكوخ بمرارة) .

علامة جديدة على جذع الشجرة وخرجت زازا من الكوخ تصرخ في فزع . ـــ إلحقوا الحاج ! الحقوا الحاج !

فأسرعنا إلى الكوخ لكي نجده ملقى على الأرض وهو يتلوى من الألم ويزمجر كحيوان جريح . ـــ ماله يازازا ! (سألتها) .

ـــ موش عارفة . مرة واحدة بصيت لقيته بيقول يا بطني ، وراح واقع من طوله . ـــ مالك ياحاج ؟ (قال له كرشة) ، صلامتك .

لكن الحاج لم يجبه ، راح يجيل بينه وبيني نظرة زائغة وهو يتأوه .

ـــ هاتي له يشرب (قلت لزازا) .

فلما سقيناه أخذ يسعل ويسعل ، فاحترنا هل الوجع في بطنه أو صدره أو في الاثنين معاً . هناك رقد يلهث ويجيل في السقف نظرة تائهة ، ثم ثقلت جفونه وبدا أنه سينام . وقبل أن ينام رأيت يده تمتد إلى جيبه لكي تحكم إقفاله على المحتويات الثمينة .

ـــ سخن زي النار ! (قالت زازا وهي تتحسس جبينه) .

ونزعت قطعة من ذيل قميصها ، بلتها بالماء ووضعتها على جبينه بصفة كمادة . فلما تأكدنا من أنه قد نام غادرنا الكوخ وعدنا إلى العمل .

ـــ لا حول الله يارب ، قال كرشة متوجعاً ، صحيح المؤمن منصاب .

قلم أعلق ، رحت أبحث في المركب وأنا أقول لنفسي ماذا لو مات الحاج طلبة ؟ لست أخاف عليه بالطبع ـــ فليمت في ستين داهية ـــ وإنما أخاف من الموقف الذي سيعقب وفاته . المسدس المحشو بالرصاص ، من الذي يرثه من الحاج وكيف يستخدمه ؟ الحق يقال أن الحاج لم

يستعمل مسدسه حتى هذه اللحظة إلا فى حفظ النظام ؛ فماذا يحدث إذا وقع السلاح الخطير فى يد وحش ككرشة أو مأفون كتوتو ؟ وقطعت زازا خواطرى ، إذ خرجت من الكوخ وأنت ترقب العمل فى صمت .

— سبتيه ليه يا ست ظاظا ؟ (قال لها كرشة معاتبا) .

— ح اعمل له إيه ؟ آهه نايم . فسكت كرشة ، ونظرت زازا إلىّ .

— على الله يموت ! (قالت لى بالإنجليزية) .

— والله موش متأكد ، (أجبتها بنفس اللغة) .

وهممت بأن أروى لها خواطرى عن المسدس ، لكن كرشة منعنى .

— النبى عربى يا أسطاز ! قال وهو يضربنى كتفًا كاد يوقعنى .

فسكت صاغراً . لكنه اضطر بعد حين إلى أن يبتعد عنا إلى ما وراء الكوخ لحاجة عرضت له فوجدت فرصتى للكلام . رويت لها خواطرى عن المسدس ، تلك الخواطر التى لم يكن من العسير على امرأة ذكية مثل زازا أن تقتنع بوجاهتها .

— طب العمل ؟ سألتنى حائرة . — موش عارف (أجبتها متردداً فى مصارحتها بالفكرة التى تراودنى) .

— تيجيش اسرق منه المسدس وهو نايم وارميه فى البحر ؟ (قالت هامسة بعد لحظة) . فتفكرت فى الأمر .

— لأ (قلت لها) ، المسدس ضرورى لحفظ النظام . من غيره ح ينزلوا ضرب ف بعض بالخنجر .

فسكتت مقتنعة ، وعند ذلك غامرت بإطلاعها على فكرتى .

— إيه رأيك تسرق الرصاص من المسدس ؟ فاتسعت عيناها .

— أسرق الرصاص ؟ سألتنى فى دهشة .

— آه ، هو المسدس له قيمة من غير الرصاص .

— طبعا لأ . — الحاج بيفتح المسدس يشوفه فاضى ولا مليان ؟

ـ لأ . ـ خلاص ، إسرق الرصاص .

وشرحت لها كيف أن المسدس الفاضى سيظل صالحاً لحفظ النظام مثل المسدس الملآن طالما أن أحداً لا يعرف من الأمر شيئاً ، وفى الوقت نفسه لن يستطيع الحاج طلبة أن يستخدمه فى القتل إذا سولت له نفسه ذلك . فإذا ما تمكن كرشة أو توتو من اختطاف المسدس من الحاج ـ بسبب موته أو اشتداد المرض عليه ـ فإنما يكون قد اختطف سلاحاً لا قيمة له .

ـ طب والنبى فكرة ! (قالت زازا بسرور) تعرف إنك لئيم قوى ؟ . . فاكتفيت بابتسامة صغيرة وأنا أسبل جفون التواضع ، واضطررنا إلى قطع الكلام بسبب عودة كرشة .

وبينما انشغل المذكور بالنحت تبادلت وزازا عبر جذع الشجرة نظرة تفاهم عميق ، فى عينيها رأيت نظرة احترام وتقدير أطربتنى . ثم خفق قلبى وغمرتنى نشوة بالغة ، عندما رأيتها تزم شفتيها وتمدهما نحوى فى شكل قبلة صامتة ، حبيبتى زازا .

انتهينا من العمل فى المساء فرحنا نعود الحاج طلبة ، وجدناه كما تركناه نائماً يلهث بصوت كالحشرجة . كلمته فلم يسمعنى ، وجسست جبينه فوجدته ما زال يلسع ، أسخن حاج جسسته فى حياتى !

ـ لا حول الله يارب (قال كرشة وهو يضرب كفاً بكف) ، صحيح يا عالم المؤمن منصاب . . سمعت منه تلك الكلمة مائة مرة خلال النهار ، ليته كان هو الآخر مؤمنا .

ـ تاخد الجلابية دى ؟ (سألتنى زازا مشيرة إلى جلباب كرشة الذى ترتديه) موش معقول نقلع الحاج الليلة .

ـ طب ماخدهاش اناليه ؟ (نعَرَ كرشة) ، هى موش جلابيطى ؟

فراحت زازا تلسعه حيناً بنظراتها ثم ابتسمت فجأة .

ـ لك حق يا كرشة ، قالت له بظرف غريب ، خد جلابيتك ،

إنت أولى بيها يا غلبان ! . . وخلعت الجلباب عن القميص الوردى ، تلقفه كرشة منها فى فرح .

— ربنا ما يحرمنا منك ياسط ظاظا ، ربنا يشفى لك الحاج يارب .

وبينما اختفى رأسه فى الجلباب وهو يلبسه واجهتنى زازا بأعذب ابتساماتها ، أسبلت جفونها فى دلع وزمت شفتيها ، أهدتنى قبلة صامتة كقبلة الصباح . كأننى أفقت من تلك القبلة ، كأنها لم تعشش فى دماغى من الصباح إلى المساء . فلما غادرنا الكوخ كنت أرتعد ، كما ارتعدت طول النهار كلما ذكرت تلك القبلة. لأنها ستكون الليلة وحدها تقريباً مع ذلك الرجل الغائب عن الوعى ، فهل أسمعك تقول أنه عمل غير أخلاقى ؟ ربما ، فهل كان عملا أخلاقياً من الحاج طلبة أن ينتزع زازا منى ويستأثر بها دونى ؟ وإزاء تلك الرعدة الجامحة التى شملتنى ، كيف تتوقع منى حاسة أخلاقية مرهفة ؟ فلما انفردت بكرشة فى الخارج رأيته يرفع صدر الجلباب إلى أنفه لينهل من رائحة الجسم الذى كان فيه من قبل . — الله ياولاض ، الصفا حلو !

وفرك كرشة كفيه ثم تثاءب وتمطع ، وتمدد على ظهره لينام .

— موش ح طنام يا باشمهندس ؟ — دنا نمت تقريباً ، قلت وأنا أتصنع التثاؤب .

وعاقدا يدى تحت رأسى حيث تمددت رحت أنظر إلى النجوم اللامعة فى السماء المظلمة ، ترتر لا مع على فستان سهرة أسود ، يرتعد مثل ملايين الخلايا المرتعدة فى جسمى أنا . حبيبتى أسبلت جفونها فى نداء ، زمت شفتيها وأهدتنى قبلتين . زازا تنادينى لأنها تريدنى ، زازا الجميلة العزيزة ، زازتى أنا . وشخير كرشة شق سكون الليل ، رن فى أذنى فى تلك الليلة موسيقياً منغماً ، كآلة نحاسية فى مقطوعة لسترافنسكى . نام الحمار كالقتيل ولم يشعر بشىء مما يحتدم فى صدرى ، لم يخطر له أننى قد أجترئ على اقتحام بيت الحاج المريض . لأنه لم ير القبلتين

ولا رأى كيف أسبلت زازتى جفنيها . فليهنأ برائحتها الجميلة فى جلبابه ، ولأنهض أنا إلى الجميلة نفسها . وكانت الجميلة فى انتظارى ، فتحت الباب بعد نقرة واحدة . فى الظلام لم أرها لكننى شممتها ، ومددت يدى لمست يدها .

— أنا سرقت الرصاص ! قالت هامسة .

— والله ؟ هممست فى فرح ، فين هو ؟

— رميته فى البحر ! — إيه ! أنا موش قلت . .

— هس ! قاطعتنى بيد وضعتها على شفتى ، بعدين الحاج يصحى !

فأنصت لحظة إلى أنفاسه الثقيلة المنتظمة ثم نسيت كل شىء إلا زازا ، ضممتها إلى صدرى بقوة وقلت لها أحبك . وخزة فى الضمير مازجت حبى ، لكن ليس للحاج طلبة أن يلوم إلا نفسه ، انتزع منى زازا بعد أن كانت زازتى أنا .

— ضميرك موش بيأنبك ؟ (سألتها هامساً) .

— حد قال له يتجوزنى ؟ (أجابت ببساطة) .

وضمتنى إليها وهى تلهث ، غبنا للمرة الأولى فى عناق طويل .

الفصل الرابع عشر

لم أضع الماء على يدى طوال اليوم التالى ، حرام أن تضيع منهما رائحة زازا . واشتغلت فى الزورق بحماس وأنا أصفر مائة لحن . — إنط مفرفش قوى النهارده (قال لى كرشة بحسد) .

فأجبته بأغنية وأنا أترقص : « إوعى تزعل م اللى يحب » . . « كل شيء ممنوع فى الدنيا ، (اشتركت زازا) ، إلا الحب ، إلا الحب . !

— بتغنى يا ست عظيظة والحاج عيان ؟ (قال كرشة لائماً) .

— الحقيقة مالكيش حق أبدا ياست عزيزة ! (عقبت على كلامه ساخراً) . . . ترى هل أجد الليلة فرصة لمعاودة المغامرة ؟ يكون موقفاً طريفاً حقاً لو حاول الحاج طلبة أن يقتلنى بالمسدس الفاضى . ألا ليت الخنجر لم يكن ضرورياً للصيد والنحت ، إذن لتحايلت على سرقته هو الآخر . عند ذلك يمكننى وتوتو — بالعضلات وحدها — أن نصمد أمام طلبة وكلبه كرشة .

— والله خسارة ترمى الرصاص فى البحر ، قلت لزازا بالإنجليزية .
— قلنا النبى عربى يا أسطاز ! (قال كرشة وضربنى كتفاً) .
وفجأة رأيت زازا تحيط صدرها بذراعيها وترتعد .
— الدنيا ساقعة ! هتفت متأففة .

إذ هبت فى تلك اللحظة نسمة باردة نفذت فى عظامى أنا الآخر ، خيل إلى أنها نزوة عابرة من هواء البحر . لكنها لم تكن كذلك ، نسمة أخرى تبعتها أسقع منها ثم بدت النسمات تتحول إلى رياح سافرة . رياح شديدة تهاجمنا من كل ناحية ، وفى البحر ظهرت الأمواج لأول

مرة ، أمواج تفور وترتفع وتلتوى ثم تنقلب على الشاطئ بقسوة . « موش معقول أبداً ! (هتفت زازا) ، مرة واحدة كده » ؟ . فأجابتها الرياح بهبة شديدة أطارت ذيل قميصها عند رأسها ، مشهدهم كرشة مثلما همني) .

— أحب العواصف ! (قلت لزازا مداعباً) .

فراحت تضحك وتضغط القميص على فخذيها كيلا يطير ثانياً . غيوم كثيفة سوداء برزت هناك عند الأفق ، بسرعة تزحف عبر السماء مدفوعة برياح مجنونة ، ما هي إلا دقيقة حتى حجبت الشمس وحبست الكون فى شبه خيمة قاتمة كئيبة . فلما صارت الغيوم فوق رؤوسنا لا أفهم كيف توقفت فجأة كأنها كانت تبحث عنا وما خرجت إلا من أجلنا . وفى لحظة واحدة فتحت السماء أدشاشها ووجدنا أنفسنا تحت سيل غزير من المطر ، أغزر مطر نزل فى أى يوم على دماغى . فسرعان ما كنا نجرى نحو الكوخ وقد وضعنا أيدينا فوق رؤوسنا ، نتصايح أثناء الجرى ونضحك كالعيال .

أقفلنا علينا باب الكوخ ووقفنا نرتعد ، نحواً من خمس دقائق قبل أن أذكر أمراً خطيراً جعلنى أفتح الباب ثانيـاً .

— إلحقوا المركب ! صرخت بجنون .

إذ كان قد حدث لها ما توقعت ، وصلت للأمواج الهائجة إلى جذع الشجرة وبدأت تلطمه بعنف ، فأخذ يتقلقل ويتمايل ويوشك أن ينسحب إلى البحر مع الأمواج العائدة . فانطلقت وتوتو وكرشة نجرى إليه ، تعاونا على دفعه ودحرجته بعيداً عن الشاطئ ولم نتركه إلا بالقرب من الكوخ نفسه . — الحمد لله أنك افتكرته ، (قالت زازا) .

— لازم واحد فينا يفكر (أجبتها بالأنفة المناسبة) .

ودوى الرعد وعصفت الريح واهتز الكوخ اهتزازا .

— صبحانك يارب (قال كرشة) دى القيامة قامط !

ـــ ده موش بعيد الجزيرة نفسها تغرق زى المركب ! (قالت زازا) .
ـــ وماله ؟ (سألتها باسمًا) ما تجيش تنقذينى تانى ؟

ساعة بحالها والعاصفة تزمجر وتعربد حولنا ، ثم أخذت تهدأ . شيئًا فشيئًا لانت الريح وبدأ صوت المطر يخف على أخشاب الكوخ ففتحنا الباب ونظرنا ، رأينا الماء وقد أكل نصف الجزيرة بالراحة ، مياه ترجرج حولنا من كل ناحية وقد كساها الزبد الأبيض كأنها تغلى . والغيوم السوداء تبتعد فى السماء مواصلة رحلتها المشئومة جهة الجنوب . ثم طلعت الشمس علينا ، أحسست كأن زازا تبسمت .

شيئًا فشيئًا تنسحب المياه إلى موطنها الأصلى ، تترك وراءها رمالا مبتلة تبقلل . لكن طلوع الشمس لم يخفف من حدة البرد ، وقفنا نرتعد كأننا فى ثلاجة .

ـــ شوفوا الشجرة ! هتفت زازا مشيرة إلى شجرة التفاح .

غسلتها مياه المطر وجعلتها خضراء زاهية ، أخضر وأزهى شجرة رأيتها فى حياتى . والحمد لله أن العاصفة لم تسقط أكثر من نصف تفاحها ، وماذا لو أسقطته كله ؟ لعلها أسقطته وطرحت الشجرة غيره وهو يسقط .

ـــ يانهار اسود ! (هتفت زازا ثانية وهى تشير إلى الأفق الشمالى) .

فتابعت إشارتها لكى أرى ذلك الفوج من السحب الكثيفة السوداء ، بسرعة تزحف نحونا على طبول رعد جديد . يبدو أن الطبيعة لم تفرغ من أمرنا بعد .

ـــ أستغفر الله العظيم يارب (قال كرشة) إحنا لسه لحقنا ننشف ؟

بسرعة مذهلة أقبلت الغيوم نحونا ، وكالغيوم السابقة توقفت فوق رؤوسنا . فنظرنا لنرى سحابة بيضاء تنفصل عن كتلة الغيوم السوداء ، بخار كثيف أبيض يتلوى ويهبط نحو الأرض . هو البرد كما اكتشفنا بعد لحظات ، ثلوج بيضاء كالقطن المندوف بدأت تتساقط حولنا ،

خفيفة أول الأمر ثم غزيرة ، سرعان ما غطت أرض الجزيرة كلها ببساط أبيض . فأسرعنا إلى الكوخ نحتمى به ، ومن خلال الباب الموارب رحت أرقب المنظر . البرد الذى يتساقط ويتراكم على الجزيرة ، وشجرة التفاح التى أصبحت كرة كبيرة بيضاء .

— ما تقفل الباب ده يا باشمهندس ، (قال كرشة متأففاً) .

فأقفلته ووقفت أفرك كفى . ولما فتحناه بعد ساعة لنأخذ فكرة عن الموقف لم نجد الجزيرة التى نعرفها ، وإنما وجدنا بدلاً منها كتلة من الثلوج البيضاء .

— طب واحنا بقى ح نبات الليلة دى ازاى ؟ (تساءل كرشة) .

— نبات هنا طبعاً (أجبته ببساطة) .

— نبات مع الحاج وست ظاظا ؟ (قال مستنكراً) .

— أمال يعنى تموتوا فى التلج برة ؟ (قالت زازا) .

وتبادلت وإياها نظرة وابتسامة ، قلبى يحدثنى بأنها ليلة تنطوى على كثير من الاحتمالات .

فى الظلام تكدسنا جميعاً داخل الكوخ ونحن نرتعد كأطفال صغار خائفين ، ولكى نخفف من البرد القارس أشعلنا ناراً صغيرة فى ركن من الكوخ والتفقنا حولها . أصابعنا تتلاقى ونحن نمد أيدينا إلى الشعلة الراقصة ، سعداء بدفئها وحتى بلسعتها .

— اللاه ! (هتفت زازا) نار حلوة بشكل !

وراحت تسخن يديها وتمسح بهما خديها وأذنيها وعنقها ، فرحة الأطفال ترقص فى عينيها .

— موش ناقصنا غير وقة أبو فروة (اقترحت أنا) .

— قول وقة صمك ! (تدخل كرشة) . — تزاتزا ! قال توتو باسماً .

— الجدع ده ح يفقع مرارطى (قال كرشة) .

— حقنا نوطى صوتنا شوية عشان ما نقلقش الحاج (قلت لهم) .

فلو أن الحاج طلبة نام نومة الأمس لكان ذلك أحسن ، وليت كرشة تسطله النار فينام هو الآخر نومة الأمس . أما أنا فسأكون قطعاً آخر النائمين . — مصكين ؟ يا حاج طلبة (قال كرشةوهو يتصعب)

— والمصيبة إن ما فيش عندنا ولا قرص اسبرين (قلت له) .

— بس إياك ما يكونش مرض معدى ، (قالت زازا) .

— هى غالباً نزلة شعبية (قلت لها) ، موش سامعة صوت نفسه ؟ وتقلب الحاج طلبة وبدرت منه أنة .

— عاوظ حاجة ياحاج ؟ (سأله كرشة) .فلم يجبه الحاج إلا بأنة أخرى .

— لكن احنا ح ننام ازاى بقى ؟ (تساءلت زازا فجأة) .

فأسرع كرشة بتقديم الإجابة التى يبدو أنه كان قد حضرها .

— حضرطلك طبعاً تنامى جنب جوظك ، واحنا نطلقح مطرح ما حنا قاعدين ! . . هو يرى فيما يبدو أنه بمرض الحاج طلبة قد أصبح رئيساً بالنيابة ينظم أمرنا كما يشاء . « واتفضلى حضرطلك بقى عشان ننام » (أضاف مشيراً إلى ناحية الحاج وهو يتثاءب) .

فتثاءبت زازا بدورها ونهضت ، لكنه كان تثاؤباً ظاهر الاصطناع . وقبل أن تفارق النار سخنت يديها ومسحت وجهها ، ثم انتقلت إلى جوار زوجها . . « هه (قالت وهى تستلقى) تصبحوا على خير » .

استلقت على جنبها وأولتنا ظهرها ، تكورت على نفسها كقطة صغيرة ، فاتنة شهية حيث تاهت فى جلباب كرشة . كذلك استلقى توتو على جنبه دون أن يغمض عينيه ، مسنداً رأسه على ساعده ونظرة فى عينيه ترمم نحو زازا خطاً مستقيماً . أما كرشة فأسند رأسه إلى الحائط ، وسرحت إلى السقف من خـــلال جفونه المتهدلة نظرة بلهاء . بذراعى الغوريلا استند على الأرض حيث اضطجع ؛ أنفاس ثقيلة تتردد من صدره المغطى بالشعر والعضلات ، منظر بشع حقاً . . . « ما بطنامش ليه ياباشمهنضس ؟ (سألنى فجأة) .

« وانت ما بطنامش ليه ؟ » .

— أنا حر يا أسطاز (أخطرني) . — ربنا يديم عليك الحرية !

واستلقيت على جنبي وغطيت عيني بساعدي ، تاركاً لهما ثغرة صغيرة أرقب الموقف من خلالها . عين كرشة تركزت علي كأنما يريد أن يستوثق من أمري ، ثم حادت إلى توتو الذي انتظمت أنفاسه وبدا من أمره أنه نام . ثم تحولت عين كرشة إلى زازا ، بعد أن مرت بي لتتأكد من أنني لا أراه . نظرة طويلة إلى زازا من خلال جفونه المتهدلة ، وفك الغوريلا تدلى وكاد يلامس صدره . نظرة طويلة ثقيلة لزجة حقيرة ، أحقر نظرة رأيتها . وأخيراً تنهد كرشة وتصعب ، ومسح وجهه براحته وهو يتثاءب بفم ولا فم سيد قشطة . ثم نقل بيني وبين توتو نظرة فاحصة ، بعين حمراء متعبة ، عين كلب الحراسة الذي كبس عليه النوم . ويبدو أنه اطمأن إلى الموقف فانزلق إلى الأمام ليتمدد على ظهره ، ما هي إلا دقيقة حتى ارتفع شخيره مذكراً إياي بالعاصفة . شخير كرشة وغطيط توتو ، مع فحيح الحاج طلبة وحشرجته ، مزيج من الأصوات لو سمعه أحد من الخارج لظن أن الكوخ يحتوى على وابور طحين . فرفعت ساعدي عن رأسي بحذر ، ثم رفعت رأسي نفسها ونظرت إلى كرشة ، رأيت فمه مفتوحاً تتصاعد منه الأبخرة كفوهة بركان . فاستويت جالساً واستندت إلى الحائط ، عيني استقرت حيث يجب يجب أن تستقر عند زازا . أقرب ما تكونين إلي يا حبيبتي وأبعد ما تكونين أيضاً . لن يتاح الليلة أن تكون مثل ليلة الأمس ، تلك الليالي لا تتاح للمرء كثيراً . تقلبت زازا كأنما أيقظتها نظرتي ، لكنها لم تكن نائمة . رفعت هي الأخرى رأسها وتلفتت ، ثم جلست وواجهتني بابتسامة عريضة صاحية . كانت مثلي تنتظر ، فأي شيء ياحبيبتي يمكننا الليلة أن ننتظره ؟ وجهها فاتن على ضوء الشعلة الراقصة ، ورفعت إلى شفتيها إصبعاً رشيقة قبلتها ثم لوحت بها نحوي . فحذوت حذوها ، أرسلت

لها على الهواء قبلة مماثلة . هي ما برحت تبتسم ، كالشمس بعد العاصفة تلك ابتسامة زازا . أمجنونة هي لكي توجه إلى تلك النظرة المنادية ؟ وسط ثلاثة وحوش تريد مني أن أنهض وأقصد إليها ؟ فإذا كانت تريد ذلك فلماذا لا تدعوني إليها بإشارة ؟ تريد مني أن أثبت رجولتي من تلقاء نفسي ؟ العضلات والشعر الكثيف ترتفع وتنخفض على صدر الغوريلا ، يجب أن أعبر فوق ساقيه الممدودتين لكي أصل إلى المرأة الباسمة . صراع عنيف دار في نفسي المحمومة ، بين مغناطيس الابتسامة ودواعي الحذر من الغوريلا التي قد تصحو في أية لحظة . فوجدتني فجأة أرتعد ، بقوة أرتعد وأمد يدي إلى النار أصطليها . لكن علاجي لم يكن لدى النار ، لن أجد دفئي إلا عند زازا . وزازتي ما برحت تبتسم ، أسبلت جفنيها بين الظلال الراقصة على وجهها . فوجدتني أنهض وأنا أرتعد ، ترنحت فاستندت على الحائط . ورفعت قدمي اليمنى بحذر شديد لأضعها على الأرض عبر الساقين الممدودتين ، رأيت في سروال كرشة ثقباً صغيراً . ثم نقلت قدمي اليسرى وصرت في الناحية الأخرى من الغوريلا النائمة ، فرحت أسير على أطراف أصابعي نحو زازا ، ثلاث خطوات وصرت عندها . جثوت على ركبتي ورحت أنظر في عينيها لا هشاً ، نظرة حنان سبحت في بحيرة عينيها . فمددت يدي إلى كتفها ، أجفل كتفها من برودة يدي . — إرجع ليسمعونا (قالت هامسة) .

لكنني لم أكن لأرجع ، بردان يبتعد عن النار ؟ فضممتها إلى وقبلتها ، للجسور وحده تفتح أبواب السعادة . لحظة من الدفء ثم زمجرة مفاجئة خلفي مصحوبة بشتمة بذيئة ، وفي كتفي اليسرى من الخلف غاص نصل بارد مسنون .

الفصل الخامس عشر

رائحة الرمل فى أنفى كرائحة الدماء وإن كنت لا أذكر أننى شممت أى دماء ، لماذا أنا نائم على بطنى ووجهى فى الرمل ؟ رمل العجمى ناعم جدًا وأبيض ، حمام شمس ثم غدوة سمك فى كازينو المكس . أو فى أبى قير مع زجاجة بيرة ساقعة . أو فى تافرنا مع كوز رتسينا وطاجن لسان عصفور . لكن بعض الناس يشربون بوظة ، وفى المسامط يأكلون كرشة . أنقلب على ظهرى يوجعنى كتفى ، خلينى على وجهى ، والجمجمة كانت مقلوبة فعدلتها زازا . تزاتزا ، كانت تلك ليلة خالدة ، وحدنا مع الرجل المريض . متمدداً على ظهرى هبطت زازا برأسها وقبلتنى . ثم رفعت رأسها لتنظر إلى ، ثم هبطت فقبلتنى من جديد . كأننى ماء وهى طائر يشرب منى . من الطيور ما يمنع صيده مثل أبى قردان ، لأنه يأكل الدود الذى سوف يأكلنا . يا حبيبى سخن زى النار ، هل سمعت صوتًا أو أنا مريض أهذى ؟ بعض الناس يهذون ولا يعرفون أنهم يهذون ، لكننى لست من ذلك النوع . أنا أهذى وأعرف أننى أهذى ، أنا أهذى إذن أنا مريض . كرشة طعننى من الخلف فى كتفى ، الخنجر يصيد السمك لكنه يقتل أيضًا . الصحة تاج على رؤوس الأصحاء يلمع فى الشمس ويغيظ المرضى . والشمس مؤنثة بعكس القمر . مونلايت سوناتا وكروتزر أيضًا ، وتولستوى كانت له لحية كثيفة كالحاج طلبة . فتك بفلاحة روسية تحت شجرة البرتقال وكتب البعث . برتقال كثير فى روسيا ولكن ليس بقدر ما فى فلسطين . أرض الأنبياء حيث صلب المسيح أو شبه لهم . من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها ، لا بد أن كرشة بلا خطيئة . الزنا كان فاحشة وساء سبيلا ، فلعلك قبلتها .



أو عانقتها أو فاخذتها . يا خسارة فاتتنى الجنة . لاحور ولا ولدان ولا نهر نبيذ ، وكان لسان العصفور حادقاً نوعاً . وسيجارتى أسقط ولعتها فستان سيدة عابرة ، زغر لى زوجها وكان بشنب . حضرتك تتجوزها وأنا أعمل لك غفير ؟ فاكرنا إيه يا أستاذ ، قوادين ؟ وقال الرجل النحيف يلزم خدمة يا بيه ؟ وامرأة سمراء خلعت فستانها بسرعة كفلاح يخلع جلبابه لينزل الترعة . وعلى السكة الزراعية حقل ذرة ، من بين العيدان المتكاثفة أطلت فوهة موزر . ليت زازا لم تلق الرصاص فى البحر ، كأنه كان ينفعنى . كان الوغد ساكتاً لأنه يحوش بصقة ، وكان يمكن يومها أن يطعنى لولا الحاج طلبة . ومع ذلك ختنه مع زازا ، وقالت زازا حد قال له يتجوزنى ؟ فى التبت تتزوج المرأة عدة رجال ، والتبت هضبة كم هى عالية . وقمة إيفرست كم هى باردة . واقفاً على الثلوج تنزلق قدمى وأهوى من القمة العالية ، أهوى . لكننى لا أرتطم بالأرض ، أنحدر نحوها برفق حتى استقر على الرمال . وفى الرمال رائحة الدماء ، دمائى أنا . هل سمعت أحداً يقول أن عندى غرغرينة ؟ اسمها جانجرين ولكنهم لا يعلمون . لكن فى دمى كرات كثيرة بيضاء سوف تأكلها . لحسابى تأكلها ياترى أو لحسابها ؟ كل الأجسام العضوية تحب الأكل ولذلك قال شوبنهور أن الحياة شر . لكن هذا لا يهم بالطبع مادام الكون آخذاً فى التمدد خصوصاً وهو فى الوقت نفسه آخذ فى الانكماش. فقاعة صابون كبيرة حمراء تطير كالبالون فى ضوء الشفق الأحمر بلون دمى . بلون التفاحة التى تنمو مع كل دورة عقرب . لماذا أجد فى فمى طعم التفاح ؟ أمى ما تت فمن ذا الذى يسقينى وأنا مريض ؟ وسألتها مرة هو الحب حرام يا نينة ؟ قالت كلا إذا كان شريفاً . وأمى كانت فلاحة مثل أبى ، فخلعت جلبابى يوماً ونزلت إلى الترعة . فلاحة عجوز مرت على السكة الزراعية تحمل حطباً كثيراً . وبجانب الزراعية غابة من عيدان الذرة . الذرة العويجة والبنادق الموزر ورائحة الدم فى أنفى . لماذا لا تعدلنى زازا

كما عدلت الجمجمة ؟ إن كان هذا لأن الشمس مؤنثة . . .

* * *

لعلك استنتجت من واقعة كتابتى لهذه السطور أننى لم أمت ، وأن الحمى التى أصابتنى بسبب الطعنة لم تكن من النوع القاتل — القاتل لى أنا على الأقل . كم من الزمن رقدت أهذى ، وماذا حدث فى الجزيرة طوال تلك المدة ، كل هذه أشياء عرفتها فيما بعد من زازا عندما عاودنى الوعى . لذلك أكتفى بأن ألخصها لك على عهدة زازا لا عهدتى أنا ، واثقاً من أن زازا لم تبذل أى محاولة لتشويه الحقيقة — لماذا تفعل ؟ ما كدت أتلقى طعنة كرشة فى ظهرى — روت زازا — حتى صرخت بقوة وسقطت على الأرض مغشياً علىّ ، صرختى أيقظت توتو الذى وثب فى اللحظة المناسبة لكى يمنع كرشة من توجيه طعنته الثانية إلىّ ، تلك الطعنة التى تؤكد زازا أنها كانت لا محالة قاضية علىّ . وبينما أنا ملقى على الأرض دارت بين توتو وكرشة معركة عنيفة ، كل منهما يحاول أن يحصل على الخنجر لنفسه . ثم رفصة طائشة من قدم كرشة أصابت الحاج طلبة فى جنبه فهب من النوم مذعوراً . فلما تبين ما يدور حوله قام متحاملا على نفسه ومد يده إلى جيبه ليخرج المسدس ، لكن زازا أسرعت إليه لتمنعه ؛ لا يجوز لأحد كما أوصيتها أن يكتشف سر المسدس الفاضى . فلما رآها تعترض طريقه صفعها صفعة شديدة ألقت بها أرضاً ، وكاد يخرج المسدس لولا نوبة السعال الشديد التى اعترته فجأة . راح يسعل ويسعل وفجأة ترنح وانكفأ على وجهه والزبد يسيل من فمه . . — إلحقوا الحاج ! إلحق يا كرشة ! صرخت زازا .

فالتفت كرشة إلى الحاج الساقط وكف عن العراك ، ولم يعترض على ذلك توتو الذى لم يطلب العراك أصلا . فلما خفت نوبة السعال واستطاع الحاج أن يسترد أنفاسه وقف كرشة يتفحصنى حيث رقدت فاقد الرشد ، يده تداعب الخنجر المعلق فى حزامه كأنه يفكر فى ضربى

من جديد . ثم غير فكره لا تدرى زازا لماذا ، والتفت إلى توتو صارخاً فيه إطلع بره يا ابن الكلب ! فلما تردد توتو فى الخروج لوح له كرشة بالخنجر مهدداً ، ومد يده إلى الباب ففتحه بقوة ، تلك الحركة التى كانت كلها بركة . إذ أنه ما كاد يفتح الباب حتى حدث آخر شىء كان يتوقعه ، طن من الثلوج على الأقل تدفق فجأة من الباب الذى انفتح ، هوى فوق كل من كرشة وتوتو ودفنهما تحته . فما برحا يجاهدان حتى خرجا ، وقضيا ساعة يحاولان كسح ذلك الثلج إلى الخارج . لكنها كانت محاولة عديمة النفع ، كلما دفعوا إلى الخارج كمية من الثلج دخلت بدلها كمية أكبر . وحتى الخروج من الكوخ أصبح متعذراً لانسداد الباب بأكداس الثلوج . فكفا عن المحاولة ووقفا يلهثان ، صارت الدنيا برد موت . فأشعلوا ناراً ثانية بجانب الحاج وكانت ليلة . من شدة البرد لم يغمض لها جفن ، شأنها فى ذلك شأن توتو وكرشة . إذ جلس الرجلان حول النار يتبادلان نظرات التربص ، كل منهما تتدلى رأسه على صدره فيسارع برفعها مجفلا ، وحشان يتوقع كل منهما أن يروح الآخر فى النوم فيثب عليه ويبطش به . وهكذا عاشوا يومين كاملين ، مهددين بالموت برداً وجوعاً ، فكيف يخرجون من الكوخ للحصول على التفاح أو السمك ؟ وفجأة شعروا بالشمس تشرق فى الخارج ، وبدأ الثلج يذوب شيئاً فشيئاً . الثلج يتحول إلى ماء يسيل على أرضى الكوخ ويهدد بالغرق كلا منى ومن الحاج الذى يرقد على الأرض مثلى . فحمل كرشة سيده وأرقده على السرير الخشبى ، أما أنا فتولت زازا وتوتو كسح الماء بعيداً عنى . ولما كانت أرض الكوخ لحسن الحظ منحدرة بعض الشىء إلى الخارج فقد أخذت المياه تصرف نفسها ، سرعان ما انحسرت عن الكوخ توطئة لانحسارها عن الجزيرة كلها . فخرجوا إلى الشمس كالمجانين يلتمسون الدفء والتفاح والسمك . يومان آخران وبدأ الحاج طلبة يتماثل الشفاء ويتساءل عن سر ما حدث .

ـ تصور يا حاج (قال كرشة) إنى أصحى م النوم ألاقى ابن ال . . ده بيبوصها ؟

ـ والله ياحاج ماحصل ! (هتفت زازا بحرارة) والله ماحصل ! ده كرشة كان بيحلم !

واستخدمت كل ذكائها فى تدبير الكذبة المناسبة ، وكل مهارتها التمثيلية فى إدخال الكذبة على الحاج . إذ روت له كيف أنه ـ الحاج طلبة ـ أخذ فجأة يئن ويتوجع ، لم يسمعه أحد سواى أنا فخففت إليه . جثوت بجانبه أسأله مالك يا حاج ، سلامتك ! فبينما أنا جاث هناك إذ استيقظ كرشة فجأة ، وبسبب كل من صحوه المفاجئ والظلام رأى المسألة بالمقلوب ، ظن أننى هناك بسبب زازا لا بسبب زوجها المريض ، فبادر بدون أن يتحقق من الأمر إلى توجيه طعنته الشريرة إلى .

ـ والله يا حاج شفته بيبوصها ! (قال كرشة يائساً) والله كان بيبوصها ! ـ والله كذاب ! والله ما حصل !

ومن عيون زازا طفرت الدموع ، دموع الزوجة التى يتهمونها فى شرفها زوراً وبهتاناً . والحاج طلبة يستمع إلى الطرفين وهو ينفخ من الغيظ ، ولا يعرف من يصدق منهما .

ـ ده يتجرأ ويقرب منى ف وسط تلت رجالة ؟ ! (قالت زازا فى ازدراء وهى تشير إلى حيث رقدت فاقد الرشد) ده جبان يخاف من خياله ! ـ والله العظيم طلاطة شفطه بيبوصها ! (قال كرشة متمسكاً) .

ـ إخرس يا مجرم ! أنا بتاعة كده ؟ طب والله العظيم يا حاج لو صدقته لا أنت جوزى ولا أعرفك ! آل بيبوسنى آل .

وبصقت على الأرض وانصرفت غاضبة تبرطم .

ـ مثلت لك الدور ده يا بنى تمثيل ! (تحكى لى زازا) والله العظيم الآخر كنت حاصدق نفسى !

كل هذا وأنا ملقى على الأرض ساخناً كالنار محموماً أهذى . وكانت زازا قد عمدت بعد انفضاض معركة توتو وكرشة إلى تضميد جرحى لإيقاف النزيف بقطعة من ذيل قميصها الوردى ، وذلك بعد أن كبست الجرح بالشىء الوحيد المتاح لها هو الثلج . فلما ذابت الثلوج وتمكنوا من مغادرة الكوخ بدأت تحضر الماء لتسكبه فى فمى ، وتحايلت على عصر التفاح وإضافته إلى الماء . لم يحاول الحاج منعها من تمريضى لأنه مال فى النهاية إلى تصديق قصتها أو هكذا أظهر ، كما أن إسعاف المريض وإغاثة المنكوب أمر تقضى به الأخلاق ، والضرب فى الميت — كما قال مرة — حرام . كذلك حرص الحاج على حياتى بسبب المركب ، فمن يصنعها لهم إذا أنا مت ؟ فلما طال مرضى رأى الحاج أن يجرب مواهبه الهندسية ، راح يأمر توتو وكرشة وهما يشتغلان .

— إكحت هنا ! إنحت هنا ! لأ موش هنا ! نعم هنا شوية . دوس هنا كمان !

وهكذا حتى تم تفريغ جذع الشجرة وبدأ يتحول إلى ما يشبه المركب فراحوا يعملون الأدوات فى جوانبها من الخارج لكى تستريح وتصلح لاعتلاء الماء . ثم نظر الحاج إلى نتيجة عمله ذات صباح وقال خلاص يا جدعان ! بينما تعاون توتو وكرشة على دفع المركب إلى الماء وقف الحاج يتلو ما حضره من الأدعية والصلوات المناسبة للمواقف البحرية .

— أما كنت فرجة يا بنى ! (تحكى لى زازا ضاحكة) ، والله ولا والت ديزنى !

إذ ركب الرجال الثلاثة فى المركب وساروا بها خطوتين ، ثم فوجئوا بها تميل إلى اليمين وتوشك أن تنقلب ، فمالوا جهة اليسار حتى يعدلوها . لكنها لم تعتدل ، مالت معهم إلى اليسار حتى كادت تنقلب ، فمالوا يميناً فمالت يميناً ، ومالوا يساراً فمالت يساراً . أينما مالوا تمل معهم .

وأخيراً قررت أن تميل جداً ، فإذا بالرجال الثلاثة فى الماء وهى فوقهم .
فقلبوها واعتلوها من جديد ، خمس مرات يعيدون التجربة ويحظون بنفس النتيجة . كلما ركبوها قلبتهم فى البحر ، هم يريدون أن يركبوها وهى تريد أن تركبهم . وزازا واقفة على الشاطئ تتفرج وتكاد تموت من الضحك ، حتى أنها زعلت عندما يئسوا من التجربة وأقلعوا عنها .

— كان لا زم يعنى تضربه يا بن الكلب ؟ ! صرخ الحاج فى كرشة وهو يغلى من الغيظ . — هه ؟ قال كرشة فى بلاهة .

— المهندس اللى ح يبنى لنا المركب (شرح له الحاج) ، تضربه ليه ؟ راجل سمعنى بانازع وجاى يطمن على تضربه ليه يابن الكلب ؟

— وشرفك يا حاج كان بيبوصها ! وضينى وأيمانى كان .

— إخرس ياطور ! موش عايز اسمع الكلمة دى تانى . جتك البلا ف غباوتك وزناخة مخك ؟

فانصرف كرشة يضرب أخماساً بأسداس ، ومن تلك اللحظة صار همهم الوحيد هو انتظار شفائى ، حتى إن الحاج كان يدعو لى بنفسه بعد كل صلاة .

— توتا توتا فرغت الحدوتة (قالت زازا فى النهاية باسمة) حلوة ولا ملتوتة ؟ فلم أجبها لفورى ، رحت أنظر إليها طويلا ، طويلا «جداً رحت أنظر إليها . . — زازا (قلت لها أخيراً) . ههم ؟ (سألتنى) . أحبك » ، أجبتها .



الفصل السادس عشر

كان يخيل إلى حيث رقدت أنني سأخرج لأجد كل شيء متغيراً ، لكن أبداً . خرجت فوجدت كل شيء على حاله ، شجرة التفاح التي تتوسط الجزيرة مثقلة الغصون بالتفاح الأحمر والأخضر ، وبئر المياه والجرة بجانبها ، والبحر الذي عاد صامتاً كما كان ، والأفق المستدير الذي يحصر المياه حولنا من كل ناحية . لكنني اكتشفت اختفاء الجمجمة والعظام ، جرفتها الأمواج في أثناء العاصفة . فلو كنت ممن يهتمون بتلك الأمور لقلت أنه فأل حسن ، لكن شعوري كان عكس ذلك . افتقدت تلك الجمجمة التي تعلمت أن أحبها .

شيء واحد تغير في الجزيرة وهو وجوه سكانها ، إذ نظرت إليهم فكأنما فارقتهم منذ سنوات . الكراميش في وجه الحاج طلبة أصبحت أخاديد ، ومن لحيته وشعره كاد يختفي كل أثر للشعر الأسود . في عشرة أيام أصبح الحاج عجوزاً ، وكاد الشيء الشيء نفسه يحدث لتوتو وكرشة . إلا زازا التي يبدو أنها لا تتغير أبداً .

ــ ألف حمد لله على سلامتك يا باشمهندس (قال لي الحاج طلبة بشوق وهو يقبلني على خدي الأيمن) . في وجهه عليه اللعنة رائحة من زازا .

ــ والله ما تعرف كنت مخضوض عليك أد إيه ! (أضاف وهو يقبلني على خدي الأيسر) .

طبعاً تنخض عليّ يا وغد ، ألست أنا الذي في يده خلاصك ؟

ــ صدق اللي قال ادى العيش لخبازه ، (قال وهو يقودني نحو جذع الشجرة) المتلسة برضه لها أهلها .

وكانت المركب مقلوبة فتعاونوا على عدلها ، نظرت إليها ورفعت حاجب السخرية الأيسر . — دى (سألتهم) مركب ؟

فقالوا آه . قلت « أنا باحسبها موتوسيكل » !

فتضاحك الحاج طلبة ، وابتسم كل من توتو وزازا .

— موطوسيكل ؟ إلا موطوسيكل دى ! (قال كرشة) .

فتلفت حولى متظاهراً بالبحث عن مصدر الصوت .

— أنا سمعت حد بيقول حاجة ؟ (تساءلت بازدراء) .

— إسكت يا كرشة (قال له الحاج) .

فوقفت — أنا المهندس المنتظر — أجيل بينهم نظرات ساخرة لا سعة حراقة .

— إنتو طبعاً منتظرين إنى أصلح لكم الـ .. الـ.. المركب دى ، موش كده برضه ؟

— طبعاً يا باشمهندس ، فيه مين غيرك ؟ (قال الحاج فى تواضع لا بأس به) .

— عشان اصلحها لى شوية شروط .

فسكتوا فى انتباه ، عيونهم تطوقنى فى لهفة .

— أولا (قلت ثم سكت لكى أزيد من لهفتهم) لازم البأف ده يجى يبوس إيدى ويستسمحنى .

وأشرت ناحية كرشة الذى راح يتلفت حوله فلم يجد فى الناحية أى بأف سواه . — بأف ؟ أنا بأف يا باشمهنضس ؟

— تستاهل يا كرشة (قال له الحاج طلبه) وزى ما ضربته لازم تستسمحه . — أصطصمحه ؟ !

— وتبوس إيده زى ما قال (أضاف الحاج بحزم) .

— أنا ابوص إيده ؟ ! (قال كرشة فى ذهول) .

— آه ، موش كنت ح تقتله ؟ موش عارف انه يقدر يوديك

محكمة الجنايات ؟ . . فراح كرشة يحملق فى وقد انفغر فمه ، بينما بسطت نحوه ظهر يدى لكى يقبلها ، مسبل الجفون أنظر إلى الناحية الأخرى فى كبرياء .

— بوس ! (قال الحاج آمراً) . فتصعب كرشة وضرب كفاً بكف .

— اصطغفر الله العظيم يا رب (قال بمرارة) ، عشت يا كرشة وبصت الإيضين ! وتناول يدى فطبع عليها قبلة لزجة مقززة شائكة كأنها عضة لا قبلة .

— اسمحوا لى بقى بشوية مية (قلت للحاج) .

— هات له مية يا كرشة .

وبينما أحضر الجرة ظللت باسطاً يدى أبعد ما تكون عن جسمى ، توطئة لأن أسكب عليها من الجرة لأطهرها .

— شوف ابن الـ . . ! (صاح كرشة) .

— كرشة ! (قال الحاج ناهراً) .

— ده يفكرنى بالشرط التانى (قلت للحاج طلبة) إذا الجدع ده وجه لى أى كلمة ح ابطل شغل .

— من هنا ورايح مالكش أى دعوة بيه يا كرشة (قال له الحاج) ، وأى حاجة يقولها لك تعملها على طول ، سامع ؟

— سامع ، قال كرشة فى استسلام .

— يا الله يا باشمهنضس (قال الحاج) إحنا ضاع منا وقت كتير — أولا ناولونى الخنجر .

فناولوه لى ، أعملته فى لحيتى وشعرى بالتهذيب ، وفى أظافرى بالتشذيب ، ثم قصدت إلى شجرة التفاح ورسمت عليها عشر علامات بعدد الأيام التى يقولون أننى رقدتها ، ثم قطعت تفاحة واتجهت إلى المركب وأنا أقرشها .

— موش مصدق أبداً أن دى مركب (قلت لهم) ده نعش بس ناقصه الكسوة ! . . وبدأنا العمل ، إكحت هنا وانحت هنا ، نعم هنا دوس هنا ، أصلح ما أفسدوه بجلافتهم الهندسية . ساعتان وأنا أعطى الأوامر حتى تعبت .

— عاوز اتغدى (أخطرتهم) . . فصاد توتو السمك وشواه ، كانت ست سمكات أكلت منها ثلاثاً وحدى .

— أنا موش واخدهم طمع ، أفهمتهم ، لأ ، بس عشان الفوسفور مفيد للتفكير .

وكان الحاج يريد أن أواصل العمل بعد الغداء لكننى اعتذرت .

— ما تنساش انى لسه قايم من العيا ، ولازم ادخل أقيل شوية .

واتجهت بجلال نحو الكوخ ، دخلته وأقفلته على لأنام . فلما أخذت حتى من الراحة نهضت وقصدت إلى المركب من جديد .

— هاها (ضحكت وقد أُوقع بصرى عليها) طب والله لولا قلتولى إنها مركب كنت افتكرتها عربية كارو !

فضحك الحاج طلبة ضحكة صفراء ، وتصعب كرشة فى صمت .

— « أنجر » ! قال توتو فجأة وهو يناولنى الخنجر .

— الله ! هتفت ، ده نطق !

— حيقعد المدة دى كلها ما يلقطش منا كلمة ؟ (تساءل الحاج) ده لو حيطة كان اتعلم .

— الخنجر « أَنْجَرْ » (قالت زازا شارحة) والمركب « أركب » ، والشجرة « أجَرَةَ » !

وضحكت زازا فضحكت وضربتها برفق على ظهرها ، زغر لى الحاج وقال إحم . بالخنجر والمنشار واصلنا العمل ، خمس علامات جديدة رسمتها على جذع شجرة التفاح ونحن نعمل . كلنا نعمل بما فينا الحاج طلبة ، ولعله كان أشدنا حماسة للعمل ، معذور وهو يحمل فى وجهه كل

تلك الغضون والأخاديد . بالخنجر والمنشار ننحت ونكحت ، شيئاً فشيئاً بدأ الموتوسيكل يتحول إلى مركب . فوقفت ذات صباح أفحص نتيجة عملنا ثم ابتسمت .

— أفتكر ياولاد ، (قلت لهم باسماً) إنها بقت مركب .

فتهلل وجه الحاج طلبة وسألنى بلهفة « يعنى ننزل نجربها » ؟

— ما فيش مانع ، قلت له بسماحة علمية ، تقدر تنزل .

— يا الله ياجدعان ، صاح وهو يشمر أكمامه ، يا الله !

— بس أنا موش عاوز اتبل ، أفهمتهم .

واعتليت المركب وهى ما تزال على الشاطئ داعياً زازا إلى مصاحبتى ، بينما راح الرجال الثلاثة يدفعون المركب و ينزلونها إلى البحر . فلما صار الماء عند ركبهم قفزوا ليركبوا ، أخذت بيد الحاج لأعينه على الصعود . وكنا قد نحتنا ما يشبه مجدافين كبيرين تناول أحدهما توتو وتناول الآخر كرشة وراحا يجدفان .

— دى مشيت يا جدعان ! (هتف الحاج بفرحة طفل صغير) . مشيت ! والله ماشية ! . . ورفع إلى السماء وراح يمطرها بالحمد والشكر .

— متهيألى يا حاج ، نبهته ، إنى أنا أستحق كلمة شكر .

— كلمة وبس ؟ دنت تستاهل بوسة !

وهجم على يغرق وجهى بقبلاته كأنه يأكلنى .

— ما كنتش عارف (قلت له وأنا أصده عنى) إن البوسة منك انت ! . . فنظر إلى بخبث ثم التفت إلى زازا .

— كافئيه يا عزيزة ، يستاهلها !

فمالت زازا على وقبلتنى ، ولكن أعرب عن شكرى ملت عليها وقبلتها قبلة يبدو أنها تجاوزت حدود الشكر فقال الحاج إحم .

المقاديف تضرب الماء وسفينتى تسير باسم الله مجريها ومرساها . على الماء تنزلق برشاقة البجعة الحسناء ، بارك الله فى مخى المهندسى الفذ .

— بذمتكو صحيح ؟ سألتهم بعد حين . — صحيح إيه ؟ سألونى
— كنتو عايزين تنزاوا البحر بوابور الزلط ده ؟ !

فضحك الحاج ملء وجهه الذى يموج بالفرحة والأمل . على الماء تمشى سفينتى ، تنساب وتتهادى على إيقاع جميل من خفق الموج على جنبيها .

— من هنا ورايح (قالت زازا ضاحكة) حقنا نسميك أحمد نوح !

— لكى حق والله (قلت مصدقًا) ولو أن فيها من كل صنف واحد بس !

وأشرت إلى ركاب السفينة فضحكت زازا وضربتنى على ظهرى .
— متهيأ لى سرعتنا خفت شوية ؟ تساءل الحاج بعد حين بقلق .
— قول للطور ده يقدف زى الناس (قلت مشيراً إلى كرشة) .
— قدف كويس يا كرشة ؟

— ما أنا باقضف اهه ، برطم كرشة ، إمال انا باعمل إيه ؟

لكن سرعتنا كانت قد خفت فعلا ، حتى بدأ القلق يساورنى أنا الآخر .

— على كل حال الحق موش ع المركب ، نبهت الحاج ، كل ما بندخل جوه الموج بيتقل .
— كلام معقول ، قال مستعدًا لقبول أى تفسير .
ثم بدأت المركب تحيد جهة اليمين .

— إعدل المقداف ياأخينا (قلت لكرشة) — ما هو معضول آهه .

وكان فعلا معدولا ، وكذلك مجداف توتو ، لكن المركب ظلت تحيد إلى اليمين . كنا نسير والجزيرة خلفنا فأصبحت الآن عن يميننا ، رقعة أرض صغيرة على مسافة تقرب من الكيلو . كنا نسير مبتعدين عنها والآن نسير بمحاذاتها .

— حاجة غريبة خالص ، قلت فى غيظ ، ناولنى المقداف .

تناولت مجداف كرشة على أمل أن أعدل من سير المركب ، إذ كانت لى خبرة بالتجديف أيام الجامعة . جدفت كما يجب أن يكون التجديف ، وجعلت توتو يحلو حلوى ، لكن هذا لم يغير من الأمر شيئاً . المركب مصرة على أن تسير بمحاذاة الجزيرة بدلا من أن تبتعد عنها ، كأنها تنوى أن تدور حولها . فلو لم تكن تدور حولها فلماذا هى طول الوقت عن يميننا ؟

— عندى فكرة (قلت) . — إلحقنا بيها ياصى نوح ! (قال كرشة ساخراً) .

حولت حركة الجدافين بما يجعل المركب تتجه نحو الجزيرة عمودياً لكى أرى إن كانت ستطيعنا أو تظل تدور حول الجزيرة . فأطاعتنا المركب ، أخذت تقترب من الجزيرة وبسرعة أكبر مما نطلب . فعكست الوضع ، أدرت المركب كما كانت جاعلا الجزيرة خلفنا ورحنا نجدف ، أطاعتنا المركب أيضاً . راحت تبتعد عن الجزيرة كما حدث من قبل ، حتى وصلت إلى نقطة معينة فحادت إلى اليمين وبدأت تسير بمحاذاة الجزيرة . من جديد رفضت المركب أن تبتعد عن الجزيرة وأصرت أن تدور حولها .

— حاجة موش مفهومة بالمرة (قلت معلنا حيرتى) .

— حاجة تجنن ! (قال الحاج وهو ينفخ) .

— طب والنبى فسحة حلوة ! (قالت زازا) .

— فسحة ؟ ! (قال كرشة وبصق فى البحر) .

عاودت تجربة العودة إلى الجزيرة فأطاعتنا المركب ، وعاودت تجربة الابتعاد عنها فأطاعتنا ، لكننا ما كدنا نبلغ نقطة معينة حتى عادت تدور حول الجزيرة . وفجأة حدث ما هو أغرب من ذلك . فجأة بدأت سرعة المركب تزيد بالرغم من أننا توقفنا عن التجديف ، شيئاً فشيئاً

أخذت تزيد حتى أصبحنا نجرى لا نسير ، كأننا فى لنش بخارى حديث .

— يا ساتر يا رب ! (هتف الحاج فى فزع) يا ساتر يا رب !

بسرعة شديدة تدور المركب حول الجزيرة ، وبالطبع تتقلقل وتمايل وتضطرنا إلى التشبث بحافتها بكل قوتنا مخافة أن ننخلع منها . صوت الماء تحتنا أشبه بصوت شلال يتدفق ، والأفق يدور حولنا ويدور حول مركز واحد هو الجزيرة .

— يا ستار ! يا ستار ! يا ستار ! (ردد الحاج طلبة) .

— دحنا كإننا ف لونا بارك ! (هتفت زازا) .

ولاحظت أنا ظاهرة جديدة ، أننا فى دوراتنا حول الجزيرة نقترب منها فى الوقت نفسه ، كأن المركب تدور فى خطوط حلزونية تدنينا من الجزيرة ولا بد أن تنتهى بنا إليها .

— إحنا بنقرب م الجزيرة ! صاحت زازا مبتهجة .

شيئاً فشيئاً تضيق الدوائر حتى أصبحنا على بعد خطوات من الجزيرة ، درنا حولها دورتين أخيرتين ثم انتهينا إلى الشاطئ . صدمة عنيفة ومقدمة المركب تنغرس فى الرمال فكدنا نندلق منها على الأرض .

— حمد الله ع السلامة ! (قالت زازا بضحكة صغيرة) .

لكن أحداً لم يجبها . الحاج طلبة يدمدم بصلوات لم أسمعها ، وتوتو قابض على المجداف يتفحصه فى بلاهة ، وكرشة التفت إلى وراح يتفرس فى نحواً من دقيقة كاملة ، لو أن النظرات تقتل لقتلتنى نظرته . وأخيراً نطق .

— اطفوا عليك مهندس ! (قال وهو يغمر وجهى ببصقة) .

الفصل السابع عشر

خمس مرات فى خلال يومين كررنا تلك التجربة اللعينة — تجربة الخروج بالمركب من الجزيرة ، وفى كل مرة تتكرر المأساة نفسها . المركب تدور حول الجزيرة كأنها مشدودة إليها بحبل ، ثم تعود إليها فى تلك الدوائر الحلزونية الفاجعة . فوقف كرشة يشوينى بنظراته الحاقدة ، ثم بسط ذراعيه كأنه سيرقص . راح يتقصع فى وقاحة ويقلدنى وأنا أسوق إليهم تعليماتى الهندسية . — إكحط هنا ، إنحط هنا ! خفف هنا ، طقل هنا ! نعم هنا ، خشن هنا . دى موطوسيكل ! دى عربية كارو ! دى وابور زلط ! آهى بقت مركب ياروح امك ، عملنا بيها إيه ؟ ياخى جتك سطين نيلة ع اللى علمك الهندسة !

فدارت فى ذهنى تعليقات كثيرة ، لكننى احتفظت بها لنفسى بالطبع . ورمقه الحاج طلبه فى امتعاض .

— وهو ذنبه إيه يا أخى ؟ (سأله لائماً) هى المركب موش مشيت بينا ؟ هى موش عامت بينا ؟

— طب وبطرجع طانى هنا ليه ؟ (سأله كرشة) وهو يضرب براحته اليمنى ظهر يده اليسرى .

فتريث الحاج فترة قبل أن يجيب .

— البحر ده فيه حاجة ، (قال الحاج طلبة بنبرة خوف) ، الجزيرة دى كلها فيها حاجة . أنا احلف انها مسكونة ولا معمول لها عمل !

فلم أعلق على هذا الكلام أيضاً ، لا أظن أنه يستحق التعليق .

— أنجر ! قال توتو مشيراً إلى الخنجر .

فناولناه إياه وقد ظننا أنه سيصيد السمك ، لكنه انطلق به إلى المركب وجثا بجانبها ، راح يتأملها حيناً ثم بدأ يحك بالخنجر فى نقطة راقت له من مقدمتها .

ـــ يا صلام ياصيدى (تصعب كرشة) قال دى يعنى اللى كط ناقصة !

ثم التفت إلى أنا وقال : « جطلكو نيلة مهنضسين » ؟

ـــ جتك ستين نيلة انت ! (أفلتت منى الكلمة) .

ـــ احطرم نفسك يا أسطاز ! (أجابنى شافعاً إجابته بزغد) .

ـــ يخلصلك كده يا حاج ؟ (سألت المذكور من حيث انبرشت على الأرض) . ـــ ما تحل عنه ياواد ياكرشة ! (قال له الحاج زاجراً) .

فوقف كرشة يصوب إلى الحاج نظرة طويلة متحدية من خلال جفونه الثقيلة المتهدلة ، نظرة لا أذكر قط أننى رأيته يصوب إليه مثلها .

ـــ أنا حر ف نفصى (نطق كرشة أخيراً) ما حدش له عنضى حاجة !

فاحمر وجه الحاج حيث جلس متشاغلا بالتسبيح ، بينما حافظ كرشة على وقفته المتحدية ونظرته المتحرشة . هل قرر الكلب فجأة أن يتمرد على سيده ؟

ـــ إنت بتبوأ فى ياواد ؟ (زجر الحاج طلبة غاضباً) . لكن كرشة لم يتأثر .

ـــ طب بص ما تقولش واض ! (أجابه بنفس اللهجة المتحدية) ، أنا راجل ظبى ظيلك ، آه !

فازداد وجه الحاج احمراراً ، وراح يحملق نحو كرشة فى غضب شديد تمازجه دهشة أشد ، ولمسة من الخوف تراءت فى عينيه واضحة. م أشاح بوجهه فى صمت وامتدت يده بحركة لاشعورية تتحسس جيبه ،

فما لبث كرشة أن أولانا ظهره وابتعد بعد أن بصق على الأرض تعبيراً عن شعوره بالموقف كله . نعم هو قرر أن يتمرد على سيده ، أمر ثبت لنا بوضوح فى اليومين التاليين . فإذا استثنينا تلكؤه الطارئ فى تنفيذ طلبات الحاج طلبة ، وتجاهله التام لها فى بعض الأحيان ، فهناك الطريقة الجديدة التى بدأ يتبعها فى التطلع إلى زازا . كان فيما مضى يغض البصر إذا واجه زوجة سيده ، أما الآن فهو ينظر إليها بصفاقة ويبتسم أيضاً . نظراته الوقحة تكاد تخترق جلبابه المحيط بجسمها ، وريالته تكاد تسيل. ثم تجاوزت جرأته حدود البحلقة ، إذ مرت به زازا يوما فإذا به يشرع فى الغناء .

ـ اتمخطرى ياحلوة ياظينة (طَـرَنَّـم كرشة) يا وردة من جوه جنينة !

هو طبعاً لا يوجه الأغنية مباشرة إلى زازا ، لكنه كما يقولون يريد أن يسمعها . ولم يكن الحاج طلبة موجوداً لحسن الحظ ، كما أنه لم يكن موجوداً فى المرة الثانية ، عندما جاوز كرشة بجرأته كل الحدود . إذ مرت به زازا فى طريقها إلى البئر وكان هو جالساً على الأرض ، فإذا به يرفع ذراعيه ويشرع فى طرقعة أصابعه وهو يترقص .

ـ هظ ياوظ ! هظ ياوظ ! هظ ياوظ !

هكذا ظفها ـ أعنى زفها ـ حيث سارت أمامه ، لم ترهبه نظرة الاحتقار التى رجمته بها زازا .

ـ صلاة النبي أحصن ! (قال كرشة وهو يلعب حاجبيه) يا أرض احفظي ما عليكي ! . . ولم ينس أن يواصل الزفة حين عادت زازا من عند البئر بالجرة المليئة .

ـ هظ ياوظ ! (قال كرشة وهو يصفق) هظ ياوظ !

وكانت زازا معذورة فى الضحكة التى أفلتت منها وهى تواصل رحلتها نحو الكوخ ، تلك الضحكة التى أثرت فى كرشة حتى جعلته يستلقى على

ظهره ، رافعاً ساقيه ومحركاً إياهما فى الهواء كأنه يركب عجلة بالمقلوب .

— بظمتك ياباشمهندس موش حرام ؟

— هو إيه اللى حرام ؟ (سألته بازدراء) .

— الحاج يطمطع بالجمال ده كله واحنا قاعدين نطفرج ؟

وبالرغم من موافقتى له على هذا الرأى فلم أصارحه به ، لا تعجبنى فكرة وقوع الجمال المذكور بين ذراعى الغوريلا . فلما كان اليوم التالى تبين لى أن الأمر أخطر بكثير مما أتصور ، وذلك عندما انتهزت زازا فرصة ابتعاد الآخرين وأتت تحدثنى .

— كرشة ده اتجنن خالص (أخبرتنى) تصور انه خلانى ماشية وقرصنى فى دراعى ؟ !

— يا نهار اسود ! ده لو الحاج عرف كان يضربه بالرصاص .

— اللى رميته فى البحر ؟ (سألتنى ساخرة) .

— ما كانش حقك ترميه أبداً .

فلم تعلق على هذا الرأى ، ووقفت تتأملنى .

— إنما أنت إيه حكايتك الأيام دى ؟ (سألتنى بنظرة جانبية ماكرة)

— حكايتى ؟ — آه حكايتك . لا بتسأل على ولا بتكلمنى ، ولا كأنك تعرف واحدة اسمها زازا !

حقاً إننى أهملتها فى العهد الأخير بصورة وضيعة ، ولكن للضرورة أحكامها .

— لو حصل لك اللى حصل لى (صارحتها وأنا أشير إلى كتفى اليسرى) كنتى تعرفى إيه حكايتى .

أما كرشة فقد رسم فى مساء اليوم التالى بداية عهد جديد تماماً ، عند ما رأى الحاج طلبة يدخل إلى الكوخ مع زازا فقال لنفسه هع ، توطئة لأن ينادى الحاج بصوت يقطر استهزاء .

— يا حاج طلبة ، صاح كرشة ، ما يلظمش خضمة ! ؟

فجمد الحاج طلبة فى مكانه، سمع النداء ولكنه لم يلتفت إلى المنادى. وقف عند باب الكوخ يستوعب ما سمع ثم مد يده إلى جيبه حيث يوجد المسدس . نحواً من دقيقة جمد الحاج على هذا الوضع وهو يفكر ، فالحمد لله أنه انتهى من التفكير إلى تغليب الحكمة ، إذ دخل فى صمت وأقفل الباب وراءه . فعند ذلك خطر لى أنه قد يكون من الواجب على أن إخطره بأمر مسدسه القاضى ، خير له أن يعرف حدود قوته فى مواجهة كلبه الذى انسعر .

— ههع ! قال كرشة ، هع هع هع !

فتركته وذهبت لأنام ، وقبيل الفجر صحوت مذعوراً . صحوت على صوت أذكر أننى صحوت على مثله من قبل ، صوت جسمين عاريين يتلاطمان بقسوة وعنف . فنهضت لكى أرى المنظر القديم نفسه على ضوء القمر الشاحب ، منظر توتو وكرشة وقد التحما فى معركة دموية بالبونيات والروسيات ، وبالمخالب والأسنان ، والخنجر ملقى على الأرض بالقرب منهما ، فأسرعت بالتقاطه وإخفائه وراء ظهرى . وانفتح باب الكوخ عن الحاج الذى أيقظته الضجة ، وقف يتأمل المنظر حيناً ثم التفت إلى .

— فين عزيزة ؟ (سألنى بسرعة) .

— زازا ! (هتفت فى دهشة) هى موش معاك جوه ؟

وقبل أن يجيب أتانا صوت زازا تقول « مانا قدامكوه آهه ! »

وكانت فى الحقيقة خلفنا لا أمامنا ، فالتفت الحاج إليها فى غضب وهم بأن يقول لها شيئاً ثم عدل والتفت نحو المتعاركين . ظل يرقبهما حيناً ثم اتجه إليهما وهو يخرج المسدس من جيبه .

— بس منك له ! صرخ فيهما ، بس يا كرشة ! سيبه يا وله !

فصدع كرشة وترك توتو ليواجه الحاج .

— بدل ما تقل أضبك على (قال له فى غيظ وهو يلهث) إصألنى باضربه ليه . . . وتوقف لحظة ليأخذ نفسه .

— باضر به عشان صيادتك نايم زى ابجرضل (شرح له) ، وهو واخد مراطك ورا المركب وناظل فيها بوص ! . . فتدلى فك الحاج فى بلاهة ، معذور والله إزاء هذه التشكيلة من الشتائم والمعلومات .

— كذاب فى أصل وشك ! (صرخت زازا فى كرشة) كذاب ! والتفتت إلى الحاج قائلة : « هو اللى خلانى رايحة اشرب وجه يعا كسنى جه توتو يحوشه عنى مسكوا ف بعض ! »

فازداد وجه الحاج طلبة بلاهة ، فى حين شرع كرشة يشد شعر رأسه بكلتا يديه .

— يا عالم ! يا هوه ! يا مصلمين ! أنا عاكصتك يا ولية ! أنا قربت منك خالص ؟ ما كانش واخدك ورا المركب وناظل فيكى بوص ؟

— بس يا كذاب ! هتفت زازا ، ماخلتنيش ماشية أول امبارح وقرصتنى فى دراعى ؟

فتردد كرشة لحظة ثم قذف بالاعتراف : « آه حصل ! لكن احنا فى الليلة دى . مين فينا اللى كان واخدك وناظل فيكى بوص ؟ »

— بس يا كذاب ! أعادت زازا بصوت تخنقه الدموع ، بس يا خباص !

وفى عينيها ترقرقت دموع المظاليم ، بينما راح الحاج طلبة ينقل النظر بينها وبين كرشة عاجزاً — مثلى — عن تبين الصادق من الكذاب . وأخيراً ركز بصره على كرشة وأخرج السبحة من جيبه فقدمها إليه .

— إمسك ! قال له آمراً ، تحلف على السبحة دى إن كلامك صحيح ؟

فتناول كرشة السبحة وبدأ يحلف : « وحياط الصبحة دى ! وحياط المصحف الشريف ! وحياط الخطمة الشريفة ! وحياط ربنا ! وحياط النبى ! وحياط الصيدة ! وحياط الحصين ! أعضم عينى وعافيطى ! أنطس

فى نظرى ! ينقطع ضراعى ! يفرمنى طرماى ! أبقى ابن سطين . . إن ما كنت شفطه واخدها ورا المركب وناظل فيها بوص ! »

وكان كرشة — لفرط حماسته — يلقى بأيمانه دون أن يأخذ بينها أى نفس ، فلما انتهى منها وقف يلهث وينهج كأنه خرج لتوه من مباراة فى الملاكمة . أما الحاج طلبة فقد احتقن وجهه وبرزت العروق فيه بدرجة تمكن طالب الطب — لو تصادف وجوده — من دراسة الدورة الدموية على الطبيعة . نحواً من دقيقتين وقف جامداً كالتمثال ثم التفت إلى توتو ، صوب إليه نظرة فيها من الحقد مالو عبئ فى مدفع لانطلقت منه قنبلة ، ثم صوب إليه المدفع الصغير الذى فى يده وتهيأ للضغط على الزناد . . . فصرخت فيه يائساً : « أنا ف عرضك يا حاج ! بلاش تضرب ! بلاش يا حاج انت راجل مؤمن !

غير أنه لم يحفل بى إن كان قد سمعنى أصلاً ، بقوة ضغط على الزناد . . « تك » ! (قال المسدس) .

تكة معدنية باردة أثارت دهشة الحاج فضغط على الزناد من جديد . « تك » ! قال المسدس ثانياً .

فازدادت دهشة الحاج مع بادرة من الخوف فى عينيه ، وضغط على الزناد ثالثاً : « تك ! تك ! تك ! تك ! »

تكات باردة متعاقبة وما من رصاصة تنطلق ، الأمر الذى لم يكن غريباً معه أن يصبح وجه الحاج صورة مجسمة للدهشة والغيظ والرعب . وتوتو يتلقى تلك الرصاصات الوهمية بمزيج مماثل من العواطف ، وكرشة يرقب الموقف بأغبى نظرة فى أغبى وجه رأيته فى حياتى . وأخيراً فتح الحاج مسدسه وأخرج المشط ليفحصه ، خيل إلى مدى لحظة أنه — الحاج لا المشط — سوف ينفجر .

— ابن . . مين اللى سرق الرصاص ؟ (جأر الحاج بحقد أسود) ابن . . مين ؟ !

وألقى بالمسدس على الأرض وراح يجيل النظر بيننا باحثاً عن اللص ، ثم استقرت عيناه على زازا .

ــ ما فيش غيرك يا بنت الـ . ، جأر فى وجهها .

ورفع يده ليصفعها ولكنها وثبت خطوة إلى الوراء ووقفت كنمرة متحفزة ، تدق بقبضتها اليمنى على راحتها اليسرى .

ــ أيوه أنا اللى سرقته ! ورميته فى البحر كمان ! ومسدسك فاضى ! ما عندكش رصاص ! وشجعها ذهول الحاج على الاسترسال : « وأيوه كان بيبو سنى ، عاجبك ولا لأ ؟ أنا حرة ف نفسى ! مالك ومالى ؟ طلقنى ! ما باحبكش ! جتك البلا ! »

فازداد ذهول الحاج ، راح يلتهمها بنظراته حيناً ثم انقض عليها كالوحش وأطبق على عنقها . كادت زازا تنتهى لولا يد توتو التى جذبت الحاج من قفاه وطوحته بعيداً ، وهى اللحظة التى انتهزها كرشة لكى ينقض على توتو من الخلف ويشل حركة ذراعيه ، فى حين هجم الحاج عليه من الأمام وبدأ فى كيل الصفعات واللكمات . كم صفعة ولكمة نالها توتو لا أذكر على وجه التحديد ، ولكنها كانت كافية لأن تجعله يتراخى بين ذراعى كرشة وينزلق إلى الأرض . وحتى بعد أن سقط لم يرحمه الرجلان ، واحد منهما يرفصه فى جنبه والآخر فى رأسه ، فغطى توتو وجهه بذراعيه وضم ركبتيه إلى صدره ليتلقى آخر الرفصات وأقواها فى ظهره ، فسكنت حركته ورقد على الأرض كالقتيل .

ــ قتلته يا مجرم ! صرخت زازا بصوت مجنون ، قتلته يادون ! وكرشة قرصنى وسايبه . خايف منه ليه ياجبان ؟ ! .

فما كاد الحاج يسمع الكلمة حتى طارت يده ــ تلقائياً ــ إلى صدغ كرشة بصفعة أليمة .

ــ مرة تانية ماتعملهاش ! (صرخ الحاج طلبة فى كرشة) .

صفعة شديدة تلقاها كرشة ببساطة وكأنها ذبابة حطت على وجهه ، ثم رفع يده الغليظة وإذا بها تستقر على صدغ الحاج بصفعة مماثلة ، وهو يقول : « ماتعضش إيدك على ! » . . وصفعة ثانية ألصقت الحاج بجدار الكوخ . . . « أنا اقرص على كيفى ! تعايا بط ! » . . وجذب زازا من ذراعها وواصل الكلام : « أقرص على كيفى وابوص على كيفى كمان ، آه ! »

وتناول رأس زازا بين يديه وألصق بخدها شفتيه ، سمعت قبلة أشبه بصوت فرملة طويلة حادة لسيارة مسرعة .

ـ قلط إيه بقى ؟ سأله كرشة وهو يترك زازا .

فلم يقل الحاج شيئاً ، بظهره ضغط على جدار الكوخ لكى يكتسب أكبر قوة ممكنة يندفع بها نحو كرشة . لكن كرشة هو كرشة ، تلقى الحاج المندفع بيديه وصده صدة ردته إلى حيث كان لصق الكوخ ، توطئة لأن ينقض عليه فيطبق على رقبته باليدين . وصرخ فيه : « إنطا موش أضى ياحاج ، موش أضى ! أقطلك ؟ أخنقك ؟ لكن لأ ، أنا برضه عندى إنصانية ! »

ونزع يديه عن عنق الحاج لكى يصوب إلى فكه لكمة إنسانية شديدة تلقاها الحاج فى استسلام حيث استند إلى الكوخ ، ثم بدأ يتزلق ببطء حتى جلس على الأرض ، وقد مال رأسه على كتفه كرجل نعسان . وكرشة راح يتلفت حوله كالمجنون .

ـ فين الخنجر ؟ ! فين الخنجر ؟ !

فشعرت بالمذكور يرتعد فى يدى ، وازدادت الرعدة عندما رأيت كرشة يركز بصره على كأنما قرأ خواطرى .

ـ ما فيش غيرك انط ! صرخ كرشة فى وجهى ، ح طجيبه ولا اصيح ضصلك ؟ . . . فوجدتنى أبرز الخنجر ببساطة من وراء ظهرى . وقلت : « آهه ! »

وقذفت بالخنجر نحو كرشة توطئة لأن أطلق ساقي للريح ، فلما لم أشعر بصوت يلاحقني توقفت والتفت إلى الوراء ، رأيت كرشة وهو يطبق بيده على ذراع زازا ويجذبها إلى الكوخ .

ــ أحمد ! (صرخت زازا من بعيد) ، أحمد ! إلحقني يا أحمد ! حوشه عني يا احمد ! إلحقني يا احمد !

حلوة دي ــ قلت لنفسي ــ آل الحقها آل .



الفصل الثامن عشر

ناظراً إلى الكوخ المقفل على زازا وكرشة أحسست بأننى أريد أن أبكى ، ثم بأننى أريد أن أضحك ، ثم وجدتنى أفعل الأمرين معاً . وكانت الشمس قد بدأت تشرق ، لا أدرى كيف سمحت لنفسها بالشروق فى تلك اللحظة . شعاع منها سقط على الجزيرة وأضاءها كما يضيئها كل يوم ، كان شيئاً مختلفاً ورهيباً لا يدور اليوم فى تلك الجزيرة . شعاع سقط على الحاج طلبة حيث جلس كالنعسان مستنداً إلى جدار الكوخ ، وعلى توتو الذى ما برح طريحاً على الأرض كالجثة الهامدة . فلو أننى كنت مكان الشمس لعدت من حيث أتيت ، لكن الشمس فيما يبدو لا تحفل كثيراً بهذه الأمور ، رأتها أكثر من مرة حتى ألفتها واعتبرتها من روتين الوجود . كان الحاج طلبة أول من أفاق ، رفع رأسه وأخذ يربش حوله بعينين زائغتين . نظر إلى توتو الدائخ ثم إلى أنا محاولا أن يتذكر ما حدث ، فما كاد يتذكر حتى جحظت عيناه كعادته حين ينفعل .

— فين عزيزة ؟ ! (سألنى بصوت زادت اللهفة من بحته) .

فاكتفيت بإشارة صامتة إلى الكوخ الذى يستند إليه ، لا شك أن الإشارة أرحم من الكلام . . . « وكرشة » ؟ (سألنى بنبرة خوف) .

فأشرت إلى الكوخ من جديد ، شافعاً إشارتى بابتسامة صغيرة رجوت أن تهون الأمر عليه . فما كاد يرى إشارتى حتى نزع ظهره عن الكوخ بسرعة كأنما لسعه ، وانتفض واقفاً كأنه عفريت العلبة .

— يعنى . . ؟ (سألتنى عينه المذعورة) .

— أيوه ، أجابته عينى المستسلمة .

فراح يتفرس فى الكوخ كأنه لا يصدق الأمر ، ثم امتدت يده إلى جيبه بحركة لا شعورية. لكن المسدس كان ملقى بجانب قدمه على الأرض ، فصوب إليه رفصة حاقدة أطارته بعيداً . ثم التفت إلى الكوخ وتهيأ لإطلاق الصرخة الصادرة من أعمق أعماق أحشائه المعذبة .

— كرشاه ! دوى صوته كالرعد ، كرشاه !

فرت لحظة قبل أن يجيب كرشة ، تنحنح أولا ثم أجاب .

— أى خضمة يا حاج ؟؟ (تساءل كرشة بصوت هادئ تشوبه نبرة سخرية) .

— إفتح يا إبن الكلب ! (زأر الحاج طلبة) ، إفتح يا مجرم ! إفتح يا ابن ال . . . ! فرت لحظة جديدة قبل أن يجيب كرشة .

— يا حاج طلبة ، (قال المذكور بعد حين) — إيه ؟

فصكت سمع الحاج شتمة بذيئة أعقبتها هعهعة ماجنة ، والهعهعة تبعتها صرخة صغيرة من زازا ، فلا بد أنه ضربها على ظهرها ليلفت نظرها إلى ضعابته — أعنى دعابته . فما كاد الحاج طلبة يسمع تلك الصرخة حتى تحول وجهه إلى ما يشبه بالوناً منتفخاً أحمر ، وراح يلتهم الكوخ بنظرة أعجب كيف لم تشعله ناراً . ثم ارتد إلى الوراء خمس خطوات ووقف يستجمع قوته ، فلما استجمعها هجم على الباب وخبطه خبطة لو أصابت جبلا لهدته . لكنه لم ينفتح ، كيف ثبته كرشة من الداخل لا أدرى . خمس مرات يهجم على الباب بتلك الصورة وما من نتيجة ، لا الباب ينكسر ولا كتف الحاج طلبة . فوقف الرجل ينفخ من الغيظ توطئه لأن يلتفت نحوى فجأة : « واقف تتفرج على يا طور ؟! (صرخ فى) ، موش تيجى تزق معايا » ؟

وكانت رذالة منى حقا أن أقف هكذا بلا عمل ، فسرعان ما انضممت إليه ورحنا نجاهد فى فتح الباب ، ندفعه بالأيدى والأكتاف وندق عليه ونرفصه بلا نتيجة .

— بلاش ضوشة منك له ! صاح كرشة من الداخل ، أنا موش فايق لكو دلوقط ! موش كده يابط ؟ !

وصرخة جديدة — أو ضحكة هسترية — صدرت من زازا فزادت من احتقان البالون الأحمر فوق كتفى الحاج طلبة . ورأيته يرفع يديه إلى أذنيه ليسدهما ، بينما يهز رأسه يميناً وشمالاً وهو مغمض العينين كأنه فى حلقة ذكر .

— يا باشمهنضس ! (نادانى كرشة) .

— أفندم ، (سألته وأنا أتوقع شطمة) .

— ما تقول لطوطو يصطاد لنا صمكتين ! فتريثت لحظة قبل أن أجيب : — الخنجر معاك ، قلت بصوت هادئ ، إحدفه وإحنا نصطاد .

— ههع ! (قال كرشة) لا حدق ياواد ! طول عمرك حدق بس يا خصارة ، مالكش ف صنعة المراكب ! هع هع ! حلوة دى يابط ؟ !

وصرخة ثالثة من زازا فإذا بالحاج طلبة يتهالك فجأة على ركبتيه ، رفع يديه عن أذنيه ليغطى بهما عينيه ، وأخذ جسمه يهتز بالبكاء كأنه طفل عاجز صغير . فبينما أنا أنظر إليه شعرت بمزيج غريب من الرثاء له والشماتة فيه . عسير على الرجل — أى رجل — أن يخوض تجربة كهذه بخصوص زوجته ، وفى الوقت نفسه — كما قالت زازا مرة — حد قال له يتجوزها ؟ لو أنه تركنى أتزوجها لكان الآن يجلس هادئ البال ، ولكنت أنا الذى أهرى بدلا منه وأنكت .

وأخيراً رفع الحاج طلبة يديه عن عينيه ، خيل إلى أننى أنظر فى عينى رجل مجنون . لحظة من التفكير ثم نهض فى صمت واتجه إلى المنطقة التى كنا نصنع فيها المركب ، أخذ يجمع قطع الأخشاب الصغيرة مع النشارة المتبقية من عمليات النحت ، كدسها كلها فى حجر جلبابه وأقبل نحو الكوخ . فى دهشة صامتة رحت أرقبه وهو ينثر تلك الأخشاب

حول جدران الكوخ ، توطئة لأن يتناول حجرين ويجلس بهما القرفصاء بجانب الأخشاب . فبدأت أفهم ، وهى والله فكرة لا بأس بها أبداً . لا شك أن حريقاً صغيراً يمكنه أن يرغم كرشة على الخروج من الكوخ — إذا كان خروجه أمراً مستحبا . فماذا يحدث عندما يخرج كرشة والخنجر فى يده ؟ فى أى صدر كتب لذلك الخنجر أن يغوص من جديد ؟ ما برح الحاج يضرب حجراً بآخر حتى انقدحت الشرارة وأمسكت فى نشارة الخشب ، لسان نار بدأ يتلوى ويسرى فى سائر الأخشاب . والحاج يهوى على لسان النار بذيل جلبابه ، فيصبح اللسان ألسنا كثيرة ، سياج من النيران بدأ يحيط بالكوخ متمسحاً فى جدرانه . فتلاعبت على فم الحاج طلبة ابتسامة غريبة وهو يدمدم بقراءات لم أسمعها ، لا بد أنها صلاة خاصة يحفظها لمناسبات الحريق .

ثم أخذ يتلفت حوله حتى وقع بصره على المركب فاتجه إليها مسرعاً ، بدأ يجذبها على الأرض عائداً بها إلى الكوخ . فى دهشة بالغة رحت أرقبه وهو يرفع مقدمة المركب إلى أعلا ، لا يبرح يرفعها حتى صارت واقفة على بوزها مستندة إلى باب الكوخ . سدت المركب الباب وأصبحت بمثابة باب آخر للكوخ ، والحاج نفسه أسند ظهره إلى المركب غارساً قدميه فى الرمال بقوة ، يعنى أنه . . « يانهار أبوك أسود » ! . . هكذا صرخت وقد فهمت ما يرمى إليه فسرعان ما انطلقت نحوه أجرى . « إنت اتجننت يا حاج ؟ ! (صرخت فيه بلهفة) موش عارف أن زازا جوه ؟ !

فلم يجبنى إلا بالدمدمة وهو يحملق إلى بعين زائغة لا أظن أنها تبصرنى أصلا . والنار قد بدأت تنتقل من أخشاب الوقود إلى جدران الكوخ نفسه ، أخذت الجدران تطقطق وينبعث منها دخان كثيف أسود .

يا حاج اعقل ! زازا جوه يا حاج !

فأصر على تجاهلى وزاد من تثبيت قدميه فى الرمال ، ضاغطاً بظهره على المركب بقوة . وصرخة مفاجئة من داخل الكوخ .

— حريقة ! صرخ كرشة ، حريقة !

ويبدو أنه فتح الباب فوجد المركب قائمة تسده ، بدليل أنه بدأ يدق عليها بجنون : « افطحوا لى ياولاد الكلب ! افطحوا لى » !

ورأيت المركب تتململ تحت ضغط كرشة عليها لكنه لم ينجح فى زحزحتها ، جن الحاج طلبة والمجنون كما يقال فى قوة عشرة عقلاء . فمددت يداً إلى صدره أريد أن أجذبه من جلبابه ، لكنه سبقنى بأن رفع ساقاً رفصنى بها رفصة أوقعتنى أرضاً . فنهضت وأعدت التجربة ، ثلاث محاولات بثلاث رفصات كأننى أواجه بغلا لا إنساناً . وصوت سعال شديد من زازا التى توشك أن تختنق من الدخان الكثيف الأسود .

— أحمد ! أحمد ! (صرخت وسط سعالها) ، إلحقنى يا احمد ! أحمد !

فجن جنونى وهجمت على الحاج لكى أحظى بالرفصة الرابعة .

— توتو ! (صرخت زازا) ، توتو ! أحمد ! توتو ! أحمد ! توتو !

فأسرعت إلى المذكور بالجرة بعد أن ملأتها بالماء، سكبتها على وجهه حيث رقد على الأرض . ثم جثوت بجانبه ورحت أهزه بعنف وأرقع له أصداغه . « إصحى ياتوتو ! إصحى أبوس إيدك ! توتو ! توتو ! » .

صوتى شبه ضائع وسط طقطقة النيران وجعير كرشة وطرقه على الباب ، لكنه نجح آخر الأمر فى تنبيه توتو . فرحة وحشية غمرتنى حين رأيته يتقلب ، وحين رفعته لأجلسه فجلس . فتح عينين ضيقتين وسط وجهه الملىء بالكدمات وراح يتلفت حوله فى بلاهة .

— إلحق يا توتو ! زازا جوه ! زازا ح تتحرق! إفهم ياتوتو ! زازا !

— تزاتزا ؟ ! (سألنى بدهشة) . — أيوه يالوح ، زازا جوه مع كرشة!

فوثب توتو على قدميه ، ترنح لحظة ثم اعتدل . راح ينظر إلى الكوخ المشتعل وإلى الحاج طلبة الذى يسد الباب بالمركب ، بدأ يفهم الموقف. فلما تم له الفهم وثب كالنمر نحو الحاج الذى رفع ساقه ليرفصه بها كما رفصنى ، لكن قيمة الرفصة تتوقف بالطبع على شخص المرفوص . تفادى توتو الرفصة وقبض على قدم الحاج ، جذبه منها فانجذب وهو يتقافز على ساق واحدة . وفى الوقت نفسه رأيت المركب تميل إلى الأمام تحت ضغط كرشة من الداخل ، كادت تسقط على دماغ الحاج لولا أن طوحه توتو بعيداً ، فسقطت على الأرض مثيرة حولها عاصفة من الرمال . فما كاد الباب ينفتح حتى رأيت ماهيأ لى أننى فى إسبانيا ، عندما يفتحون باب العرين فيندفع منه الثور المجنون . هكذا اندفع كرشة والخنجر فى يده ، كالثور الهائج يجرى هنا وهناك بغير هدف واضح وهو يضرب الهواء بالخنجر ، فلو أننى رأيته يتشمم الأرض وينفخ لما دهشت . حظه سيء لأنه لم يولد فى إسبانيا ، كان يمكنه أن يجمع ثروة هناك . ووراء كرشة خرجت زازا وهى تسعل وتسعل ، لكن أحداً لم يلق إليها بالا . كف كرشة بعد لحظات عن الجرى هنا وهناك ووقف أمامنا بالخنجر المرفوع ، كل عضلة فى جسمه تصيح أين الدماء .

— عايظين طحرقونى يا مجرمين ؟ ! زأر كرشة بصوت كالرعد .

وراح يقلب النظر بيننا باحثاً عن الرأس المدبر للحريق ، فيبدو أنه عرفه بدليل أنه اتجه إلى الحاج طلبة . أمامه وقف متباعد الساقين متحفزاً ، قلت فى نفسى أن الحاج طلبة راح .

— عاوظ طحرقنى يا بن الـ . . ؟ (زمجر كرشة فى غل رهيب) .

ونقل كرشة قدمه اليمنى خطوة إلى الأمام ، فنقل الحاج طلبة قدمه خطوة إلى الوراء .

— عاوظ طحرقنى يا بن الـ . . ؟ (كرر كرشة سؤاله مختتما إياه بشتمة جديدة) .

ونقل كرشة قدمه اليسرى خطوة إلى الأمام ، فنقل الحاج قدمه اليمنى خطوة إلى الوراء .

— عاوظ طحرقنى يا بن الـ . . ؟ (كرر كرشة سؤاله مختماً إياه بشمة جديدة) .

عشر مرات كرر كرشة سؤاله مختما إياه بشتمة ، أشهد له أنه لم يكرر أى الشتائم مرتين . هو يتقدم ببطء والحاج يتراجع ببطء ، عينه طول الوقت مركزة فى رعب أليم على النصل اللامع . يستطيع كرشة أن يقتله فى أية لحظة ، لكنه يريد أن يتلذذ بتعذيبه حيناً .

— عاوظ طحرقنى يا بن الـ . . ؟

وللمرة الأولى كرر كرشة شتمة سابقة ، الأمر الذى يبدو أنه أقنعه بوجوب إنهاء المهزلة ، فرفع الخنجر إلى أعلى وأهوى به على الحاج طلبة ، ضربة شديدة تكفى لقتل الرجل لو أنها وصلت إليه لكنها لم تصل . ذلك أنه بينما كان كرشة يزحف نحو الحاج طلبة ، كان هناك شخص آخر يتسلل وراءه من حيث لا يشعر . كان ينقل قدمه اليمنى إلى الأمام فينقل توتو — مثله — قدمه اليمنى إلى الأمام . وكان ينقل اليسرى فينقل توتو يسراه مثلها ، يتبعه فى كل خطوة كأنه خياله . فما كاد كرشة يرفع الخنجر ليصوب الطعنة حتى طارت يد توتو اليمنى وأطبقت على معصمه ، بينما اندفع ساعده الأيسر وطوق رقبته من الخلف . بكل قوته حاول كرشة أن يتخلص من ساعد توتو لكنه كان ساعداً من حديد . أسنان توتو تلمع بين شفتيه المتقلصتين ، يجز على أسنانه ليستجمع كل قوته . بقبضته يلوى معصم كرشة وبساعده يعصر رقبته ، ما لبثت أن رأيت الخنجر ينفلت من يده ويسقط على الأرض . فأخلى توتو سبيل كرشة دافعاً إياه بعيداً ، وبسرعة البرق انحنى والتقط الخنجر .

وقف كرشة يتحسس عنقه الذى كاد يتحطم ، ناظراً فى غباء إلى الخنجر الذى انتقل من يده إلى يد توتو . فلما استوعب الموقف طفح

الغل من عينيه وفاض على وجهه ، وبدأ يزحف نحو توتو مثلما كان يزحف نحو الحاج طلبة . يبطء يتقدم نحو توتو مفترسًا إياه بنظراته ، وتوتو ثابت فى مكانه كنمر متحفز . فلما صار كرشة على بعد خطوات من توتو وقف ينظر إلى الخنجر ويدرس الموقف . دقيقة مشحونة برائحة الموت المختلطة برائحة الحريق ، ثم وثب كرشة فجأة على توتو . يداه حين وثب كانتا تقصدان يد توتو المسكة بالخنجر ، لكن يد توتو كانت أسرع . كالبرق الخاطف طار النصل اللامع إلى بطن كرشة وارتد عنها وقد غمرتها الدماء . لم تكن طعنة ثاقبة وإنما كانت خدشاً طويلاً على السطح ، تحسسه كرشة ثم راح يحملق فى ذهول إلى يده الملطخة بدمه . فلابد أن منظر الدم أطار ما بقى من عقله ، وإلا فلماذا وثب على توتو من جديد ؟

وثب عليه وهو يقصد هذه المرة عنقه ، لكن الخنجر كان فى الطريق . سنه المسنون غاص هذه المرة فى بطن كرشة ، اخترق الجلد وغاص فى اللحم وخرج منه أحمر دامياً . فعاد كرشة يتحسس مكان الطعنة ، بدأ من أمره أنه لا يصدق ما يدور حوله ، يقول لنفسه إن شيئاً كهذا لا يمكن أن يحدث لكرشة . وكان توتو قد تراجع خطوة إلى الوراء ووقف متحفزاً ، كأنه يقول لكرشة إنه لا يريد أكثر من طعنتين . لكن كرشة فيما يبدو كان يريد الثالثة . إذ استجمع كل قوته لكى يثب على توتو من جديد ، وصلت يداه إلى رقبة توتو وأطبقتا عليها ككلابتين من حديد . فترنح توتو وكاد يسقط لكنه تماسك ، وبكل قوته غرس الخنجر فى بطن كرشة . ولم تكن هذه الطعنة مجرد طعنة ، إذ رأيت الخنجر يدور فى بطن كرشة ويمزق لحمه تمزيقاً — يقوره كما قد يقال . فتراخت يداه عن عنق توتو ووقف يترنح ، ومن الحفرة التى من بطنه أطلت كرة حمراء هى فى أغلب الظن معدته . دماء غزيرة تتدفق من بطنه على السروال وتصبغه باللون الأحمر القانى ، وذراعاه تدلتا حوله



بينما رفع رأسه إلى السماء وراح يجيل فيها نظرة زائغة . وفجأة مال إلى الوراء كما يميل لوح من الخشب ، سقط على الأرض متراى الأطراف وسط عاصفة من الرمال .

كانت هذه أول مرة أشاهد فيها معدة بشرية ، فليس غريباً أن أشعر بالغثيان وأريد أن أتقيأ . لكننى لم أفعل ، لست فيما يبدو وجودياً إلى درجة التىء . والحاج طلبة وقف جامداً كالتمثال يرقب المنظر ، فى حين سقطت زازا على ركبتيها مخفية وجهها بيديها وهى تشهق شهقات هستيرية .

وتوتو وقف يلهث ويطيل النظر إلى الرجل المذبوح ، وجهه اكتسى بقسوة لم أعرفها فيه قط من قبل . لا يبدو عليه أى شعور بالإثم بسبب الجريمة التى ارتكبها ، قسوة عجيبة شاعت فى وجهه المليء بالجروح والأورام . ثم أشاح بوجهه وهو يدس الخنجر فى جيبه ، لم يفكر فى أن يغسل عنه الدماء . وأخيراً دبت الحياة فى التمثال الذى يدعى بالحاج طلبة ، ببطء تحرك نحو زازا التى ركعت باكية ، أمامها وقف لحظة صامتاً ثم بدأ يصرخ .

— إنتى طالقة ! طالقة ! طالقة !

فرفعت زازا بصرها إليه ، مزيج نادر من الاحتقار والسخرية والبغض تراءى فى عينيها الدامعتين .

— ياخى يتعل أبوك ابن كلب ! (قالت له زازا) .

— وبتشتمى كمان ؟ !

وطارت يداه إلى عنقها وشرع يخنقها ، كاد يخنقها لولا اليد التى امتدت إليه من الخلف فجذبته من قفاه ، يد توتو التى تحولت إلى قبضة طارت إلى فك الحاج بلكمة عنيفة يمنى ، ثم لكمة مثلها يسرى ، ثم ثالثة يمنى طرحته على الأرض صريعاً . ونظرت إلى الكوخ لكى أكتشف أنه لم يعد هناك كوخ ، انتهزت النار فرصة العراك والتهمته

عن آخره ، لم يبق منه سوى أخشاب قليلة مبعثرة والنار تكمل عليها ، ألسن صغيرة حمراء تتلوى ، مثل ألسن مجموعة من القطط بعد وليمة مشبعة . يكون جميلا جداً لو عاد الشتاء وليس فى الجزيرة كوخ .

فعادت عينى بالرغم منى إلى معدة كرشة ، وكانت قد خرجت نهائياً من بطنه ومعها جزء من مصران ربما كان الاثنى عشر . دماء غزيرة تتسرب من جوفه ، تسيل على جنبه وتنفرش على الرمال ملونة إياها باللون الأحمر . فمن ذلك فهمت لماذا يصاب الناس بالأمراض المعوية ويموتون قبل الأوان ، هذا شيء طبيعى جداً ماداموا يعتمدون فى غذائهم وبقائهم على مثل هذا الجهاز التعس .



الفصل التاسع عشر

بالخنجر الملوث بدماء كرشة نزل توتو إلى البحر ليصيد السمك، لأول مرة فى المدة الأخيرة نزل للصيد مختاراً . فنظرت عن يمينى إلى كرشة الذى ينام ومعدته فوق بطنه ، ونظرت عن يسارى إلى الحاج طلبة الذى ينام كالقتيل ، ثم مررت بينهما قاصداً إلى زازا التى ما برحت جالسة تصوب إلى الأرض نظرة فارغة .

— زازا (قلت لها بلهجة من يريد أن يبدأ حديثاً) .

فرفعت بصرها إلى منتظرة كلامى لكننى لم أجد ما أقول ، ويدى التى مددتها نحو شعرها رددتها قبل أن تصل إليه .

— معلهش يا زازا ، معلهش .

هذا كل ما استطعت أن أقوله لها ، فارتعدت زاوية فمها بابتسامة صغيرة مريرة ولم تقل بدورها شيئاً . وكانت زازا هى زازا لم يطرأ عليها أى تغيير ، ونحن الذين كنا نظن أنها ستخرج من الكوخ مشرحة .

— تزاتزا ! (أتى صوت توتو منادياً من بعيد) .

فالتفتنا لنراه خارجا من البحر فى يديه سمكتان تتلعبطان .

— تزاتزا ! (نادى بلهجة آمرة وهو يشير إليها داعياً) .

فقصدت زازا إليه ، وأشار إلى الأرض آمراً إياها بالجلوس فجلست ، ثم بدأ عملية إشعال النار . وسمعت أنا سعلة خلفى فالتفت لأرى الحاج طلبة قد أفاق وجلس يتحسس مكان اللكمات فى وجهه . نظر إلى فى غيظ كأننى أنا الذى ضربته ، ثم نقل بصره إلى زازا وتوتو حيث جلسا بعيداً . فى غل شديد راح ينظر إلى توتو ، فوقف هذا نافشاً عضلاته كأنه يقول هل من مبارز ؟ لكن الحاج فيما يبدو قد عرف آخر الأمر

قلبر نفسه ، إذ اكتفى من المعركة بزغرة طويلة لتوتو ثم التفت إلى قائلا بلهجة الأمر : «قوم بينا» .

ونهض فنهضت دون أن أعرف ماذا يريد . وبعد حين عرفت ، عندما وجدتنى أحفر بجانبه قبراً لكرشة .

فلما انتهينا من الحفر قصدنا إلى كرشة وحملناه ، الحاج يرفعه من تحت الإبطين وأنا من ساقيه . ما كدت ألمسه حتى سرت فى بدنى رعدة شديدة ، الساقان اللتان دب عليهما منذ حين ليقتل كلا من الحاج طلبة وتوتو . فى الحفرة أودعناه وردمنا عليه ، ثم وقف الحاج طلبة ليتلو صلاة الميت . فبينما هو يتلوها رأيت دمعة تترقرق فى عينيه ، كأن الوغد لم يكن منذ قليل يريد أن يحرقه حياً .

من بعيد وصلتنى رائحة السمك المشوى فالتفت نحوها ، رأيت توتو يناول زازا سمكة سمينة . فابتلعت ريقى وبدأت أتجه نحوهما ، شابكا يدى خلف ظهرى وأنا أسير على مهل كأننى أتمشى بغير هدف . بل إننى بدأت أصفر لحناً زيادة منى فى إظهار حسن نيتى ، مختلساً إلى السمك نظرات خاطفة . «ما تيجى تاكل» ؟ قالت لى زازا وهى تمضغ :

— الله ! قلت بلهجة من فوجىء ، هو الغدا جاهز ؟ !

وفركت كفى فى سرور وجلست أمامها ، وهممت أن أمد يدى إلى السمكة لكى أفاجأ بشىء غريب نوعاً . ما كدت ألمس السمكة حتى امتدت يد توتو فوضعت على وجهى كالسلطانية ، ضاغطة على أنفى ودافعة إياى إلى الوراء ، فسقطت على ظهرى وقد ارتفعت ساقاى فى الهواء . فى هذا الوضع ظننت أنه يريد مداعبتى ، لكننى حين اعتدلت ونظرت إلى وجهه أدركت أننى مخطئ جداً . ليس مازحا صاحب هذا الوجه القاسى الكئيب ، الذى يرفع قبضته ويلوح بها أمام عينى مهدداً : قومى ! (زجر توتو) ، قومى !

وأشار بإصبعه بعيداً ، الأمر الذى فهمت منه أنه يطردنى .

— جرى إيه يا توتو ؟ (تساءلت زازا فى دهشة) ، ما تسيبه ياكل .

فزجر توتو من جديد وهو يشير إلى السمكة ثم إلى البحر ثم إلى نفسه ، حكاية صامتة إلا أنها بليغة جداً .

— طب ندى له حتة صغيرة (قالت زازا راجية) .

ونزعت قطعة من سمكتها ومدتها نحوى ، فإذا بالوغد يضربها على يدها ضربة قاسية أسقطت قطعة السمك على الرمل . وبينما تحسست زازا يدها مكان الضربة رأيت فى عينيها نظرة جمعت بين الدهشة والخوف كأنها تتساءل — مثلى — أهذا هو نفس توتو القديم ؟

— قومى ! (زجر توتو) ، قومى !

فقمت أنا . وقفت لحظة أصوب إليه نظرة كبرياء ثم أوليته ظهرى وابتعدت ، قصدت شجرة التفاح ورحت آكل منها حتى ما عت نفسى . وكذلك فعل الحاج طلبة ، وقف يقرش التفاح وهو يطعن توتو بنظرات حامية . وفجأة حول بصره إلى أنا فى كراهية .

— عاجبك كده يا وسخ ؟ ! (سألنى بشراسة) . فلم أجب من فورى .

— إيه هو اللى عاجبنى يادون ؟ (سألته بهدوء) .

— كان لازم تفوق الكلب ده قبل ما اخد الخنجر من كرشة ؟ فبينما أنا أستوعب كلامه رأيته يضرب بيده على جبينه فجأة كمن اكتشف شيئاً .

— طب قسما بالله العظيم مافى حد ضيع الرصاص غيرك ؟ ! إنت اللى قلت لها تسرقه ! ما فيش غيرك انت ؟ !

وطارت يده إلى صدغى بصفعة مفاجئة صارخاً : « إنت » !

وصفعني ثانياً : « إنت » !

صفعني ثالثاً فاغتظت ، طول عمرى أغتاظ بسرعة .

ـــ طب أنا آه ! (هتفت متحدياً) أيوه أنا !

وصفعته . « أيوه أنا » !

وصفعته ثانياً . « أيوه أنا » .

وهممت بالصفعة الثالثة فتحاشاها بذراعه ومد يديه إلى عنق وشرع يهزنى منه بقوة ويقول : « يا أصل البلاوى ياوش الفساد ! يا كافر يا ملحد يا ابن الكلب » !

وباشتداد ضغطه على عنق تذكرت منظراً رأيته فى مشاجرات سابقة ، فرفعت إصبعين من يدى اليمنى دسستهما فى عينيه ، بينما رحت ألكمه بقبضتى اليسرى فى أسفل بطنه . فكأننى أضرب فى حائط ، لا عينه وجعته ولا بطنه ، ويداه تضغطان على عنق فأكاد أختنق . فلست أدرى ماذا كان يحدث لى لولا اليد التى جذبتنى فجأةمن قفاى وطوحتنى بعيداً ، إذ وصل توتو فى اللحظة المناسبة ليفض الخناقة . وراح توتو يرطن بكلام غاضب لم نفهم منه شيئاً ، ثم أخرج خنجره ورفعه مهدداً .

ـــ أركب ! قال مشيراً إلى المركب ، أركب ! . . فلم نفهم شيئاً .

ـــ أركب ! صرخ من جديد وهو يدفعنى بقوة نحو المذكورة حتى كدت أنكفئ عليها . وكذلك فعل بالحاج طلبة ، توطئة لأن يتناول المنشار الصخرى فيضعه بين يدى .

قال لى مشيراً إلى نقطة معينة فى المركب . « هينا » !

ثم تناول المسدس الفاضى وناوله للحاج طلبة .

ـــ هينا ! (قال مشيراً إلى نقطة أخرى) .

وبدأ يحرك يده ليصور لنا حركة النحت والكحت ، أى أنه يريد منا أن نعاود العمل فى المركب . فلما رأى ترددنا لوح بالخنجر

أمام عيوننا وأشار بيده نحو قبر كرشة ، وكنت ما أزال أذكر معدته .

ــ هينا ! (قال توتو وهو يزغدنى) .

ــ هينا ؟ (سألته مستوثقا) . ــ هينا ! أجابنى مؤكداً .

فبدأت أحك فى النقطة التى حددها ، فى حين وقف الحاج طلبة متردداً . قال له توتو بشراسة . « هينا » !

ــ إشتغل ياحاج (قلت له ناصحاً) الراجل ده انجنن .

فتردد لحظة ثم أدنى فوهة المسدس من المركب وراح يحك به فى النقطة التى عينها له توتو . هو عمل لا معنى له ولكن ماذا نفعل ؟

ــ والله الراجل ده انجنن (قلت لزازا بالإنجليزية) .

ــ خدوه على عقله (أجابتنى بنفس اللغة) .

ــ ما هو ده اللى بنعمله .

وفجأة تدخل توتو فى الحديث .

ــ أربَى ! (عربى) (شخط فى وهو يلكمنى فى صدرى) .

فأردت أن أزعل لكننى وجدتنى أضحك ، واتجه بصرى إلى قبر كرشة . قلت له الله يخرب بيتك ، آدى اللى توتو اتعلمه منك !

ثم واصلت العمل صامتاً ، وكذلك فعل الحاج ، نحواً من ساعة حتى رأيت المذكور يتوقف عن العمل فجأة .

ــ هو إيه يا خويا ! صاح بغيظ مفاجئ وقد طفح به الكيل ، إحنا علينا ذنب ولا إيه ! ودينى مانا مشتغل ! يلعن أبو اللى يشتغل !

وألقى بالمسدس على الأرض وأولانا ظهره مبتعداً ، لكنه لم يبتعد كثيراً . إحدى يدى توتو جذبته من شعره وألقت به على المركب ، واليد الأخرى وضعت سن الخنجر على عنقه .

ــ أركب ! (صرخ توتو فى وجه الحاج) أركب ! أركب !

شريط دماء صغير سال على عنق الحاج طلبة ، ونظرة رعب ملأت عينيه . فلما ترك توتو شعره ورفع الخنجر عن عنقه لم يكن غريباً أن

يعكف على العمل بدون كلام . طول النهار ونحن نكحت وننحت حتى خارت قوانا ، لم يرحمنا توتو إلا عندما غربت الشمس . إذ سحب منا كلا من المنشار والمسدس واتجه بهما إلى الكوخ الذى فوجئ بأنه غير موجود فارتد إلى المركب ، أقامها على جنبها ووضع الأدوات وراءها . ثم نزل إلى البحر فغسل يديه ووجهه ، وقصد إلى شجرة التفاح فأكل خمس تفاحات . — تزاتزا (قال وهو يتكرع) !

كانت زازا طول الوقت واقفة تتفرج ، متباعدة الساقين وقد عقدت يديها خلف ظهرها ، ثم سألته بنبرة ساخرة : « أفندم » ؟

فأشار إلى ماوراء المركب ، ولما لم تطع إشارته من فورها جذبها من ذراعها وسحبها إلى حيث أشار . وبضغطة من يده على كتفها جلست زازا ، حجبتها المركب القائمة عن أنظارنا .

ثم نظر توتو إلينا .

— هينا ! قال لنا مشيراً إلى آخر الجزيرة حيث كان يقوم الكوخ .

— والله ؟ لا ياشيخ ؟ ! (زمجر الحاج طلبة)

فسكت توتو حيناً وهو يبادله نظرة عداء صامته .

— هينا ! (قال مكرراً إشارته) .

— ومراتى يا حضرة ؟ جأر الحاج طلبة وهو يشير إلى ما وراء المركب .

— تزاتزا ! توتو ! (قال توتو مشيراً إليها وإلى نفسه) .

فلما رأى الحاج لا يتحرك من مكانه أخرج الخنجر وراح يسنه على راحته ، ثم رده إلى الخلف وطعن به الهواء ، ثم أشار إلى قبر كرشة ، حكاية أخرى صامتة ولكنها بليغة جداً . فواجهت الحاج طلبة ورحت أطبطب على ظهره .

— يا حاج انت موش طلقتها ؟ (قلت له) ، يا الله بينا من هنا . الراجل ده اتجنن . . !

ورحت أجذبه من ذراعه وهو لا يريد أن يجذب ، واقفاً يحملق إلى توتو بعين يدهشني أنه لم تنطلق منها رصاصة قاتلة . وأخيراً استجاب ليدى التى تجذبه ، أى أنه لولاى أنا لما فارق مكانه إلا على أسنة الرماح . قصدنا إلى آخر الجزيرة وجلسنا وراء الكوخ غير الموجود ، أنا وهو والجمجمة ، نسيت أن أخبرك أن البحر قذفها إلى الشاطئ من جديد . فى صمت جلسنا ، فى عتمة الليل الزاحف ورائحة الشياط تملأ أنفى . فخطر لى أن أكلم الحاج طلبة لكن منظر شبحه الجامد لم يشجعنى ، وعلى أى حال ماذا أقول له ؟ أسأله لماذا أحرقت الكوخ يا حمار ؟ لماذا تزوجت زازا يالوح ؟ لماذا أطلقت المسدس الفاضى على توتو يا حاج ؟ وإذا سألته فبماذا يجيب ؟ فتنهدت فى يأس وانطرحت على ظهرى أتأمل السماء ، سماء عريضة مظلمة نثرت فيها ملايين النجوم ، ملايين من الثقوب الصدئة فى عملية كبيرة سوداء مكفأة علينا .



الفصل العشرون

رأيت فى المنام أن خنجراً حامياً يدس بين أضلاعى ، فهببت مذعوراً لكى أسمع ضحكة أنثى ، وكانت ضحكة من خارج الحلم لا من داخله . زازا هى التى ضحكت من منظر ذعرى ، حيث ركعت بجانبى تهزنى لكى أصحو وتنخزنى بين أضلاعى .

— إصحى قوام ! هتفت فى حماسة ، إصحى! قوم الحق الخناقة!

— خناقة ؟ سألتها وأنا أتثاءب .

— آه ، الحاج طلبة سرق الخنجر من توتو !

— الحاج سرق الخنجر من توتو ؟

— آه خلاه نايم وسرقه من جيبه !

— خلاه نايم وسرقه من جيبه ؟

— آه ، كان حيموته لولا صحى م النوم !

— كان ح يموته لولا صحى م النوم ؟

— أحمد ! جرى لك إيه ؟ — جرى لى إيه ؟

فتأففت ونهضت وهى تجذبنى ، فنهضت وأنا الآخر أتأفف .

— لا حول الله يارب ، هو الواحد ما يعرفش ينام ساعة على بعضها فى الجزيرة دى ؟ عمرى ما أنام إلا وأصحى على خناقة ؟

فلم تجب زازا ، منشغلة بعملية جذبى نحو ميدان المعركة ، فسرت وراءها مترنحاً أدعك عينى . وعلى ضوء الفجر الذى بدا يبزغ رأيت الخناقة ، وكانت حتى هذه اللحظة ما برحت فيما يبدو مشروع خناقة . كان الحاج طلبة وتوتو يقفان متواجهين ، كل منهما قد باعد بين ساقيه وانحنى إلى الأمام قليلا ، وكل منهما قد ركز بصره على وجه الآخر يتأمله ويتفحصه كأنه يريد أن يعرف ماذا يكون . الفرق الوحيد

بينهما هو أن الحاج طلبة كان يمسك الخنجر فى حين أن توتو لا يمسك شيئاً .

— ماعندكيش فكرة ، سألت زازا متثائباً ، بيتخانقوا على إيه ؟

فرمقتنى زازا عاتبة وقالت : « ح يكون على إيه يعنى ؟ على أنا طبعاً » .

— آه صحيح ، لا مؤاخذة .

وفى تلك اللحظة قفز الحاج طلبة قفزة صغيرة إلى الأمام فقفز توتو قفزة مماثلة إلى الخلف ، ثم جمد كل منهما فى مكانه كما كان من قبل . قالت زازا : « بيفكرونى بالقطط » .

— أنا شخصياً بيفكرونى بالديوك . شفتى خناقة ديوك ؟

— لأ .قلت: « ولا أنا ،لكن متأكد انهم لما يتخانقوا يبقوا كده ».

ومن جديد قفز الحاج طلبة قفزة إلى الأمام ، قلدها توتو بقفزة مماثلة إلى الخلف ، ثم جمدا فى وضعهما الأول يتبادلان النظر .

— حتى شوفى نافشين ازاى ؟

فلم تجب زازا وقد انهمكت فى الفرجة ، هى الأخرى قد توتر ذراعاها وتقبضت يداها كأنها مشتركة فى المعركة .

— إنتى بتشجعى مين فيهم ؟ (سألتها مستفسراً) .

— ح يكون مين ؟ توتو طبعاً . — وجوزك ؟

— يلعن أبوه ! — طيب عارفة انا باشجع مين ؟ باشجع الاتنين ! نفسى يدبحوا بعض ويريحونا .

— مهما كان توتو أحسن م الحاج .

— حتى بعد ما كل السمك لوحده ؟

— هو صحيح اتغير ، لكن ما تنساش انه زمان كان كويس .

— فعلا ، غنى لنا مرة ساعة الغروب .

— وعلى كل حال معذور أنه يتغير . هو اللى شافه شويه يا حمد ؟

— قوليها تانى — هى إيه ؟

— أحمد ، حلوة قوى من بقك . — يا سلام .

— آه والله .

وقفز الحاج فقفز توتو كأنه خياله فى المرآة ثم جمدا من جديد ، كلاهما يلهث بصوت مؤذ للسمع فى ساعة الفجر الهادئة . ومرة رابعة قفزا ثم جمدا ، متحفزين متنمرين متوترة كل عضلة وكل خلية من خلايا جسميهما . . قلت لزازا متصعباً : « ياخسارة الأدرينا لين » .

— يطلع إيه ده ؟ — حاجة كده تفرزها الغدة الكظرية ساعة الخناق .

فلم تعلق زازا حيث انهمكت فى الفرجة ، وذكرت أنا أمراً .

— يا ترى كل المعد زى بعضها ؟ — معد ؟

— آه ، أصلى عمرى ما شفت معدة غير معدة كرشة .

— طب بلاش قرف بقى !

وقفز الرجلان قفزة سادسة وسابعة وثامنة .

— الحكاية بقت مملة قوى ، (قلت لزازا متثائباً) .

وتركتها وقصدت إلى شجرة التفاح ، قطفت واحدة ووقفت أقرشها . كنت فى حالة غريبة نوعاً من عدم الاكتراث ، وثمة رغبة حقيقية فى أن أرى الرجلين صريعين . طفح الكيل كما يقولون ووجب أن يضع أحدهم للأمر حداً . ووصلتنى شهقة مفاجئة من زازا فالتفت متباطئاً ، رأيت توتو واقعاً على ظهره — تكعبل ، أغلب الظن — والحاج طلبة ينتهز الفرصة فيلقى بنفسه فوقه وهو يصوب إليه طعنة شديدة لم تبلغه للأسف ، إذ تمرغ الوغد بسرعة ليتحاشاها فانكفأ الحاج على وجهه ونزلت الطعنة على الرمال . وقبل أن ينهض من سقطته كان توتو قد انتفض واقفاً كأنه بزمبلك ، وإذا به راكب على ظهر الحاج طلبة مثلما تركب الحمار . ومن هناك قبض على معصم اليد التى تمسك

الخنجر وراح يلوى الذراع كله إلى الوراء ، خيل إلى أننى سمعت صوت طقطقة عظام الحاج . فما هى إلا لحظة حتى رأيت الخنجر وقد انتقل من يده إلى يد توتو الذى ظل جالساً به على ظهره كأنما أعجبته القعدة . فارتكز الحاج بيديه على الأرض محاولا أن يرفع نفسه ، لكنه ناء بحمل توتو وسقط كما كان . وتوتو ما برح رافعاً خنجره وهو يلهث ، ناظراً إلى قفا الحاج فى هيئة تفكير . هو فى أغلب الظن يشاور نفسه فيما يصنع بعدوه الذى سقط ، هل يقتله أم أن العفو أحسن عند المقدرة ؟ نحوا من دقيقة راح توتو يفكر ويلهث ، وفجأة رأيت يده ترتفع بالخنجر ثم تهوى به على ظهر الحاج ، غاص النصل فى كتفه محدثاً وخزة أليمة فى كتفى أنا .

— توتو ! (هتفت زازا ولكن بعد فوات الأوان)

ورأيت ذراعى الحاج يمتدان إلى الأمام ورأيت أصابعه العشرة تنغرس فى الرمال بقوة ، ثم ما لبث أن تراخت عضلاته وسكنت حركته . فنزع توتو الخنجر من كتفه ونهض عن ظهره ، وقف يرقبه حيناً ثم أولاه ظهره وقصد إلى البحر ليغتسل . وزازا واجهتنى بنظرة ذاهلة ثم أسرعت نحو الحاج وركعت بجانبه تفحصه ، تحسست كتفه ثم رفعت يدها ملوثة بالدماء . فوقفت وشمرت ذيل قميصها ، راحت تنزع منه قطعة جديدة على سبيل الضمان . وهناك عند الأفق كانت الشمس قد بدأت تطل على الكون ، خيل إلى أنها توجه إلى سؤالا .

— الحاج طلبة (قلت أجيبها) . — إيه ؟ تساءلت زازا .

— لا دنا باكلم الشمس . أصلها سألتنى مين القتيل النهارده .

فرمقتنى زازا فى امتعاض وواصلت تضميدها لكتف الحاج . وتوتو فى البحر قد شرع يضرب بخنجره فى الماء ليصيد سمكة ، لا شك أن الإنسان يحتاج إلى شىء من التغذية بعد ارتكاب جريمة متعبة كالقتل . وانتهت زازا من ربط كتف الحاج ، نظرت أنا إلى

قميصها وغلبني الضحك .

— فيه حاجة تضحك ؟ (سألتني بغيظ) .

— انتى ! (أجبتها) كمان يومين ح تلاقى نفسك لابسة « بيبى دول » ! (يعنى عروسة طفل عارية) قطعة من ذيل القميص صنعت منها ذات يوم كمادة لجبين الحاج الساخن ، وقطعة ثانية ربطت بها كتفى أنا ، وها هى القطعة الثالثة على كتف الحاج ، لست أدرى ماذا كنا نصنع بغير هذا القميص النافع . وسألتها : « تفتكرى ح يموت » ؟

— شيء بارد ! وأنا اعرف منين بقى ؟ — على كل حال توتو ما ضربوش غير ضربة واحدة صغيرة . كان ذوق معاه فى الحقيقة .

— تزاتزا ! أتى صوت توتو منادياً .

فى يده سمكة كبيرة تتلعبط ، ألقى بها على الأرض فراحت تتنطط ، فى حين شرع هو يشعل النار .

— تزاتزا ! (عاود توتو النداء) . — آدينى جايه (أجابته زازا فى ملل) .

وقصدت إليه تساعده فى الطهى ، وأنا واقف عن بعد أتفرج جارى الريق . فلشد ما فرحت حين رفع توتو السمكة عن النار وأشار إلى داعياً . ظننت أنه يدعونى للمؤاكلة ولكننى كنت ممعنا فى التفاؤل ، إذ اكتفى بأن قطع ذيل السمكة وألقاه نحوى على الرمال كما تلقى عظمة لكلب . فأسرعت إلى الغنيمة وأنا أبصبص من الفرح بذنب وهمى ، سرعان ما كنت ألتهم ذيل السمكة بكل ما فيه من شوك ورمل .

الفصل الحادى والعشرون

ما كاد توتو ينتهى من الأكل حتى نادانى إلى العمل ، فلماذا أطعمنى إلا لهذا ؟ بالمنشار الصخرى عكفت على النحت والكحت ، أنا المهندس الذى تحول على آخر الزمن إلى نجار . ساعتان من النحت والكحت حتى صرخت يدى من الألم ، وفى سبيل قضية أعرف جيداً أنها خاسرة . لا يستطيع هذا الحمار أن يفهم أن العيب فى البحر لا فى مركبى . وزازا تقسم وقتها بين العناية بالحاج الجريح وبين الفرجة علينا وهى صامتة . كانت تتفرج على توتو بوجه خاص ، تطيل النظر إلى وجهه القاسى كأنها تحاول أن تتعرف فيه على توتو القديم . لكنها لم تحاول أن تكلمه ولا حاول هو أن يكلمها ، دماء الحاج طلبة أقامت حاجزاً جديداً بينهما ، بعد الحاجز الذى أقامته دماء كرشة .

— مش كفاية بقى يا توتو ؟ (قلت له ضارعا) شوف إيدى ؟

وبسطت أمام عينيه كفى المتسلخة فرمقها فى ازدراء وقال « أركب » .

لم نتوقف عن العمل إلا بعد الظهر إذ تراجع توتو خطوة إلى الوراء وراح يتأمل المركب ، ثم أخذ يدور حولها ويتفحصها من كل ناحية .

كانت المركب هى المركب ، لم يطرأ عليها جديد سوى أنها صارت أرق نوعاً . لسبب ما يظن توتو أن خشونة مركبى وثقلها هما السبب فى عجزها عن اقتحام التيار . نظرة ارتياح تراءت فى عينيه ثم دس الخنجر فى جيبه وقصد إلى شجرة التفاح ، ظننت بالطبع أنه سيأكل لكنه لم يفعل . بكلتا يديه راح يقطف التفاح ويلقى به على الأرض ، مالبثت أن رأيت تحت الشجرة كوماً هائلا من التفاح .

— الراجل ده اتجنن ولا إيه ؟ (سألت زازا فى دهشة) .

فبسطت ذراعيها تعرب عن حيرتها ، والوغد توتو يواصل القطع حتى كادت الشجرة تصبح عارية من التفاح . وبدون كلام ترك كل هذا التفاح وقصد إلى البحر حيث شرع في الصيد ، صاد سمكة وألقاها على الشاطئ ، ثم صاد أخرى وألقاها ، ما هي إلا ساعة حتى تجمع على الأرض أكثر من عشرين سمكة .

— ده يظهر انه اتجنن صحيح ! (قالت زازا) .

— إنما جنونه المرة دى كويس ، موش معقول ح يقدر ياكل السمك ده كله لوحده .

واسترعت أسماعنا أنة مفاجئة من ناحية الحاج طلبة فتلفتنا إليه ، رأيناه يرفع رأسه عن الأرض وهو يتأوه ، عدة ثوان ثم سقطت رأسه من جديد . فقصدنا إليه وتحسست جبينه فوجدته ساخناً كالنار ، وجسست نبضه فوجدته سريعاً بعض الشيء إلا أنه نبض رجل حي . فنزعت زازا قطعة جديدة من قميصها وراحت تبللها بالماء لتصنع منها كمادة ، في حين وصلت أنفي رائحة شهية للسمك الذي بدأ توتو يشويه . ساعة كاملة وهو يشوي ويشوي ، صامتاً لا يكلمنا ولا نكلمه ، فلما انتهى من الشي رأيته يشير إلى بالاقتراب فخففت إليه فرحا . من بين العشرين سمكة تناول ثلاث سمكات وقذف بها على الأرض عند قدمى . — دول بتوعى أنا ؟ (هتفت في سعادة) .

فلم يجب توتو بشيء ، ورأيته يشرع في تحويل السمك إلى المركب ، كدسه كله في ركن منها . ثم قصد إلى كومة التفاح وبدأ يصنع بالتفاح ما صنعه بالسمك ، كدسه كله في ركن آخر من المركب . عند ذلك بدأت أفهم ، إذ أنني طول عمري سريع الفهم . هو يعتزم القيام برحلة يعتقد أنها طويلة نوعاً ، وإلا فما لزوم كل هذه المؤونة ؟ ؟ لكنه أعطاني أنا ثلاث سمكات فماذا يقصد من ذلك ؟

— يانهار أبوك أسود ! هتفت وقد فهمت ماذا يقصد .

هو يقصد القيام برحلة لا مكان لى فيها . سيحاول مغادرة الجزيرة بدونى ، فكرة أفزعتنى مدى لحظة ثم تذكرت أنه لا داعى للفزع . هو يظن أنه سينجح فى مغادرة الجزيرة ولكنه لن ينجح ، أكون حماراً لو أن هذه المركب الرقيقة أمكنها أن تحقق ما عجزت عنه المركب الأولى الخشنة الثقيلة . وقاطع توتو أفكارى بإشارة إلى زازا يستدعيها فى حين شرع يجذب المركب حتى أنزلها فى البحر .

— تزاتزا ! (صاح مناديًا) .

فتركت زازا الحاج طلبة وقصدت إلى توتو الذى أشار إلى المركب آمراً إياها بالصعود .

— على فين ياخويا ؟ (تساءلت فى دهشة) .

فلم يجبها بشىء بل جذبها من ذراعها وأنزلها فى الماء .

— طب ودول ؟ (سألته فى حيرة وهى تشير إلى أنا والحاج طلبة) .

— دول ؟ (ردد توتو كلمتها فى ازدراء) — آه دول .

، فراح توتو ينظر إلى حينا ثم بصق على الأرض . ودفع زازا إلى المركب فصعدت مرغمة ، وصعد هو وراءها وتناول المجداف .

— ما تخافيش يا زازا ، ناديتها ، كمان ساعة وتكونوا هنا تانى !

وشغل توتو مقدافه فبدأت المركب تتحرك مبتعدة عن الشاطئ .

— باى باى ! (صحت فى أثرها ملوحًا بيدى) .

فرأيت زازا تلوح لى بيدها من بعيد ، دقائق معدودة وأصبحت المركب بقعة بعيدة سوداء . عند ذلك سرت فى بدنى قشعريرة مفاجئة ، فماذا يكون الحال لو نجح مشروع توتو فى الخروج بالمركب من منطقة التيارات ؟ أليس من الممكن أن أكون حماراً وتكون هذه المركب الجديدة أصلح من مركبى ؟ فماذا يفعل حمار مثلى وهو بمفرده فى هذه الجزيرة الموحشة مع حاج نصف عمر ؟

. قشعريرة ثانية سرت فى بدنى حيث وقفت وحدى فى شمس الأصيل

ناظراً إلى المركب التى أصبحت نقطة صغيرة فى آخر البحر، نقطة صغيرة فيها حمامة بيضاء اسمها زازا . أيمكن أن تخرج زازا من حياتى بهذه الطريقة السافلة ؟

— آه ، (تأوه الحاج طلبة حيث رقد على الرمال) آه .

— جلك أوى ! (أجبته من فوق كتفى) .

ونظرت إلى البحر فإذا بالمركب قد اختفت عن البصر ، كدت أسمع بأذنى دقات قلبى . فأسرعت أجرى إلى حافة الماء وأنا أضيق عينى قدر استطاعتى وأستعرض الأفق بجنون . زازا ضاعت ، زازا الجميلة ، زازتى أنا .

— زازا ! (هتفت بصوت تخنقه الدموع) ، زازا ! زازا !

وفوجئت بنفسى أبكى بحرقة ، دموعى تنهمر من عينى وتبلل لحيتى الشعثاء . دقيقة من اليأس الأسود ثم خفق قلبى فى فرح مجنون ، عندما وقع بصرى من خلال الدموع على نقطة صغيرة سوداء عند الأفق . المركب ظهرت بعد أن اختفت ، فما الغرابة فى أن أتنطط من الفرح ؟ حيث وقفت على حافة الماء رحت أتنطط وأصفق أيضاً ، مركزاً بصرى — بعد أن مسحت دموعى — على النقطة السوداء التى تتحرك ببطء جهة اليمين . تسير أفقياً بعد أن كانت تسير رأسياً — تدور بالاختصار حول الجزيرة كما فعلت بنا من قبل وأنا فيها . لست حماراً وإنما الحمار أنت ياتوتو ، إذ ظننت أنك تستطيع تحقيق ما عجزت أنا عنه . هى تدور وتدور ماأحلى دورانها ، وأنا أصفق وأتحنجل وتنطلق منى ضحكات وحشية متلاحقة . وبينما تدور تقترب من الجزيرة فى خطوط حلزونية ، أدور أنا معها فأكاد أصاب بالدوار . النقطة الصغير البعيدة تحولت إلى بقعة صغيرة ثم كبيرة ، ثم تحولت البقعة إلى مركب ميزت فيها رأسين ، شيئاً فشيئاً تقترب حتى رأيت وجه زازا — حبيبتى زازا — رؤية العين . ورأيت وجه توتو الذى ينطق فى بلاغة شديدة بالغيظ والجنون وخيبة الأمل .

ودورة أخيرة ثم حاذت المركب شاطئ الجزيرة وانغرست فيه بقوة ، تشبث الراكبان بحافتها كي لا ينسكبا منها على الأرض . أردت أن أقهقه لكنني نظرت إلى وجه توتو فأمسكت ، كيف أغامر بالسخرية من صاحب هذا الوجه المجنون ؟ حتى الابتسامة التي ارتسمت على شفتي بالرغم مني رفعت يدى فداريتها بها . وزازا نزلت هي الأخرى صامتة صارمة الوجه ، لا بد أنها غامرت بالضحك منه فشتمها أو ضربها أو أي شيء . أما هو فنزل من المركب ووقف يتفحصها صامتًا ، يدور حولها ويفحص كل جزء فيها ليعرف أن يكمن العيب . فيبدو أنه لم يجد فيها أي عيب ، وإلا فلماذا قفز إليها وركبها ، وتناول المجداف وشرع يجدف من جديد — ده ح يجرب الحكاية تانى ! « هتفت أنا وزازا في نفس واحد » :

ونظرت زازا إلىّ فإذا بنا ننفجر ضاحكين ، وبينما ضحكنا فاض الحب من قلبي ، بسطت ذراعي أبعد ما يكون عني وإذا بزازا تلقي نفسها بينهما . قبلتها بشوق دافق وحنان ، الحمامة البيضاء التي خيل إلى منذ حين أنني سأفقدها . وبينما هي في أحضاني رحنا نرقب المركب التي كانت بقعة فأصبحت نقطة سوداء في آخر البحر . فلما كدنا نفقدها رأيناها تتحرك جهة اليمين وتشرع في الدوران حول الجزيرة . فماذا نفعل سوى أن نضحك من جديد ؟ شيئًا فشيئًا عادت النقطة بقعة ، ثم عادت البقعة مركبًا بها رأس ، ثم بدا في الرأس وجه يقطر غيظًا وغلا وخيبة رجاء . ودورة أخيرة وحاذت المركب الشاطئ وانغرست فيه ، بينما صاحب الوجه المجنون يتشبث بحافتها كي لا يندلق منها على الأرض . فأشاحت زازا بوجهها ورفعت أنا يدى أخفي ابتسامتي ، بينما نزل توتو من المركب ووقف يفترسها بنظراته وهو يلهث . وفجأة رأيته يهجم عليها ليرفصها رفصة شديدة وقد نسي فيما يبدو أنه حافي القدم . فلم يكن عجيبًا أن يصرخ ويرفع قدمه المصابة ويمسكها بكلتا يديه ليخمد الألم ، متقافزًا

بالطبع على قدمه الأخرى كيلا يقع . فكان منظراً جاوز قدرة زازا على كبح نفسها ، فإذا بها تنفجر بضحك هستيرى وهى تضرب الأرض بقدميها وتطرقع بأصابعها فى الهواء . فنظرت أنا إلى وجه توتو ورأيت أن أحذرها .

— زازا (قلت لها ناصحاً) بلاش ضحك ده مجنون .

لكن الأمر كان قد خرج من يدها ، لم يعد فى إمكانها أن تكبح ضحكها الهستيرى . فبينما هى تضحك رأيت توتو يصوب إليها نظرة تقطر حقداً ، ثم أنزل قدمه واقترب منها حيث وقفت تضحك ، وبكل قوته أهوى على خدها بصفعة شديدة ألقت بها على الأرض . فكفت زازا عن الضحك ، وبعينين واسعتين من الرعب جلست تنظر إلى الرجل الذى ضربها ، والذى فوجئت به يرفع قدمه ويصوب ركلة عنيفة إلى جنبها ثم يتهيأ للثانية . فذهلت وجننت ، ولأول مرة فى حياتى فقدت أعصابى . فوجئت بنفسى أندفع نحو توتو من الخلف وأقفز فأتعلق بذراعى فى رقبته ، فإذا به يترنح ويسقط على الأرض . فركبت فوقه كما فعل كرشة بى ذات يوم ورحت أغمر وجهه بلكمات عمياء ، لكمات لم يصل إليه منها للأسف إلا لكمتان والباقى تلقاه الوغد على ساعديه الحديدين . وزالت عنه المفاجأة فإذا به يخلعنى من فوقه ويلقينى على الأرض ، ثم يجذبنى من شعرى ليوقفنى ، ولكمة عنيفة من قبضته أصابت فكى ورسمت حول رأسى عشرات من النجوم المتراقصة . شعرت بلخلخة فى الركب ووجدتنى أترنح ، ولكمة ثانية على فكى الآخر فغبت عن الوجود .

الفصل الثاني والعشرون

كرجل يخرج من بئر مظلم عميق بدأت أعود إلى الوعي ،وبصعوبة فتحت عيني فوجدت فوقي بدراً ساطعاً . هل هي زازا ؟ كلا ، هو البدر الآخر يطل علي من السماء . فجلست وأخذت أدعك عيني ، وفتحت في لأتثاءب فشعرت بألم شديد في فكي . صمت عميق يخيم على الجزيرة ولا أثر لإنسان إلا جثة الحاج طلبة الملقاة بالقرب مني . هناك وراء المركب القائمة على جنبها أتخيل زازا نائمة ، كيف طاوعها قلبها على على أن تتركني وحدي ؟ لابد أن السافل سحبها معه بالقوة وأرغمها على هجري . هل أقوم الآن وأتسلل إلى حيث ينام لكي أجرب سحب الخنجر من جيبه كما فعلت ذات يوم ؟ كلا ، لابد أنه أخفى الخنجر في مكان أمين بعد ما وقع بالأمس من الحاج طلبة ، وما فائدة الخنجر في يدي على أي حال؟

— أحمد !

صوت زازا أتى من ورائي فالتفت مذعوراً، رأيتها تقترب سائرة على أطراف أصابعها. فلما وصلت إلى ركعت على ركبتيها ومدت يدها تتحسس شعري : « إيه للي جابك ؟ » سألتها وأنا أتلفت حولي .

— توتو نام جيت اطمن عليك (أجابتني هامسة) فقت يا حبيبي ؟

— المفروض كده . — مرسي قوى انك دافعت عني (واصلت همسها) .

— العفو يا ستي ده واجب علينا ، أجبتها متحسساً فكي المخلوع .

— أحمد ... — إيه يا روحي ؟

— أنا خايفة قوى . — من إيه يا حياتى ؟
— من توتو ، عمره ما ضربنى كده أبداً . — يعنى هو كان ضربنى أنا ؟
— وشوف كمان عمل إيه فى الحاج طلبة . — فعلا.
— مع أنه زمان كان ابن حلال قوى . — فعلا.
— أحمد ... — نعم ؟
— ماعندكش حاجة غير فعلا ؟ — فعلا .
— إنت خايف زى ما أنا خايفة ؟
— م م م موش قوى . ولو ان فيه حاجة نفسى اعرفها .
— هى إيه ؟ — متأكدة ان توتو رايح فى النوم ؟
— ساعة ما سبته كان بيشخر . — لكن ممكن يصحى فى أى لحظة .
— ممكن طبعاً . — طب ما تروحى له يا بنتى أحسن .
— إخص عليك يا أحمد ، موش عاوزنى معاك ؟ باقول لك خايفة قوى .. وألقت بنفسها على تمرغ خدها فى صدرى .
— خبينى يا أحمد (قالت وهى ترتعد) خبينى .
— استخبى يا روحى ، استخبى ، (قلت ، وأنا أكثر رعدة) .
وأحطتها بالذراعين لأخبئها ، مع أننى والله أحوج الناس إلى الاختباء . — خايفة قوى يا أحمد .
— حتى بعد ما خبيتك ؟ — آه .
— طب استخبى كمان .
فلاذت بى أكثر من قبل ، قطة صغيرة ترتعد بين أحضانى ، اوذى يا حبيبتى لوذى . — أحمد . .
— قوليها تانى . لوذى بلاش دلع ، عايزة أسألك سؤال .
— واحد بس ؟ — لو كان المسدس محشى كنت تعمل إيه ؟
— أضربه . — على توتو ؟

— إمال على روحى ؟ — يا خسارة ماهوش محشى .
— أيوه يا خسارة . — طب خبينى .
— أكتر من كده ؟! ولاذت بصدرى أكثر من قبل ، عطر شعرها نفذ فى صدرى وأسكرنى .
— قلبى شانيل ؟ — وبعدين معاك ؟ ح اقول لك مية مرة آربيج ؟
— طب استخبى يا روحى ، استخبى .

لحظة من النشوة المرتعدة لم تدم بالطبع طويلا ، بسبب الأنة التى سمعناها بجانبنا . فالتفتنا إلى الحاج طلبة ورأيناه يتقلب حيث نام فى ضوء القمر ، توطئة لأن يستوى فجأة جالساً . فى بلاهة راح يتلفت حوله حيناً ، ثم اتكأ بيديه على الأرض وشرع فى محاولة للنهوض . ارتفع عن الأرض قليلا ثم سقط ، ثم ارتفع ثانياً . ببطء يرتفع عن الأرض كأنه لصق إليها بالصمغ ، لحظات من الكفاح ثم رأيناه واقفاً . شبح طويل فى الجلابية البيضاء يترنح وقد رفع رأسه إلى السماء ، ثم بدأ يسحب شهيقاً طويلا يملأ به رئتيه ، سمعنا الهواء وهو يتسلل إلى صدره بصوت كالفحيح . فانتظرت أن أسمع صوت الزفير لكننى لم أسمعه ، لسبب ما رأى الحاج أن يحتفظ بالهواء فى صدره حيناً من الزمن . ذلك — كما تبينت بعد لحظات — لأنه كان يزمع الصراخ .

— حى ! (صرخ الحاج طلبة بصوت كالرعد) حى ! حى ! حى !

أربع صرخات متوالية هزت أركان الجزيرة هزًّا ، مع كل صرخة تجفل زازا بين ذراعى وتنتفض .

— حى ! (صرخ الحاج من جديد) ، حى ! حى !

ثلاث صرخات جديدة ثم سعل الحاج فى وقار ولمّ الجلباب حول ساقيه ، توطئة لأن ينخفض إلى الأرض ويجلس . وسعلة ثانية ثم انطرح على جنبه ونام كما كان من قبل ، أنفاسه ترددت فى هدوء

كأنه لم يبدر منه أى شيء غريب .

— أحمد (هتفت زازا فى هلع) دا باينه اتجنن !

— زازا ، (أجبتها وأنا أرتعد من الخوف) بصى وراكى !

فالتفتت خلفها لكى ترى ما رأيت ، توتو الذى يقف على بعد خطوة منا وقد صحا فى الغالب على صراخ الحاج طلبة . فى صمت يقف ناظراً إلى زازا حيث لاذت بين أحضانى ، بوجه صخرى كوجه أبى الهول يلمع فى ضوء القمر . وبهدوء منذر بالشر مد يده إلى جيب المايوه ففتحه واستل منه الخنجر ، ذلك المنظر الذى ما كادت زازا تراه حتى نهضت على عجل .

— توتو ! (هتفت زازا) بلاش جنان ! أنا ف عرضك ياتوتو !

وهمت بأن تطبطب على صدره فدفعها عنه بقسوة وبدأ يقترب منى بوجه يقطر حقداً وشرًّا . فلست أدرى ماذا أصابنى حتى جلست جامداً بهذه الصورة كأننى تمثال الكاتب الجالس القرفصاء ، لم أتحرك ولا حتى بعد أن رأيت الخنجر يرتفع فى يده إلى أعلى .

— توتو ! (صرخت زازا) .

وهجمت عليه من الوراء تطوق جذعه وتحاول أن تجذبه فكأنما تجذب جذع شجرة بلوط . بكوعه لكزها فى رأسها فتركته وهى تغطى بيديها وجهها ، ويده اليمنى هوت بالخنجر اللامع نحوى . فلا بد عفريت لبسنى فجأة — ذلك الذى جعلنى أنطرح بسرعة البرق على على الأرض وأتشقلب لأتفادى الطعنة ، توطئة لأن أشرع فى الإجراء الوحيد المتاح لرجل فى موقفى وذلك بالطبع هو الجرى السريع . بكل قوتى رحت أجرى وأنا أسمع صوت أقدام تجرى ورائى ، مطلقاً بين الحين والآخر صرخة عبيطة كلما هم بأن يمسكنى . فخيل إلى أننى انقلبت تلميذاً صغيراً يلعب المساكة فى حوش المدرسة ،

خاصة عندما وجدتني أقصد إلى شجرة التفاح وأحتمي وراءها .
أنا في ناحية منها وتوتو في الناحية الأخرى بأسنانه اللامعة مثل خنجره ، ينط يميناً فأنط شمالا كأننا في لعبة حاوريني ياطيطا . لكن الشجرة لم تكن لتحميني طويلا ، ولذلك وجدتني أنطلق بآخر سرعة عندي نحو المركب قافزاً في طريقي على الحاج النائم ، احتميت وراء المركب القائمة على جنبها وعادت المحاورة من جديد . فبينما نحن كذلك إذ رأيت منظراً خيل إلى أنه غريب نوعاً ، منظر زازا التي انحنت على الأرض في آخر الجزيرة وراحت تنبش في الرمال . لكنني بالطبع لم أكترث بالأمر ولم أحاول متابعة حركتها ، مشغولا بالأهم وهو مراقبة توتو . إذ وثب فجأة عبر المركب فإذا به بجانبي ، لحسن الحظ أفقيا لا رأسيا ، قدمه اصطدمت في أثناء القفز بحافة المركب فانكفأ على وجهه .

— أحمد ! أحمد ! أحمد !

زازا تصرخ وهي مقبلة من آخر الجزيرة تجري .

— إشقط يا أحمد ! صرخت حين اقتربت مني ، إشقط قوام !

وقذفت إلى شيئاً مددت يدي وشقطته دون أن عرف ماذا يكون ، جسم صلب فوجئت به بين راحتي ، مسدس الحاج طلبة يلمع بين يدي في ضوء القمر ، فما انتفاعي بمسدس لا رصاص فيه ؟

— المسدس محشي يا أحمد ! صرخت زازا بوحشية ، أنا كنت مخبية الرصاص !

فشعرت بالدماء تتدفق إلى رأسي كالنافورة ومعها ألف سؤال ، ولكن هل هذا وقت الأسئلة ؟ سؤال واحد صامت وجهته إلى المسدس وأنا أرفعه إلى أعلى وأضغط على الزناد ، فأجابني صوت الطلقة المدوية . صوت وقع في أذني ولا صوت مدفع الإفطار في أذن رجل صائم ، بعكس توتو الذي — وقد قام من سقطته — جمد في مكانه ووقف يحملق إلى في ذهول . مسدس محشو بالرصاص ومصوب إليه ، جدير به

أن يخيفه حتى ولو كان فى يدى أنا .

توتو يفكر فى الأمر ويقلب وجوه الرأى ، ثم ابتسامة صفراء تشيع فى وجهه وهو يتقدم نحوى ببطء باسطاً يده . مشهد قديم ذكره توتو ويريد اليوم أن يكوره معى باليد الممدودة والابتسامة الصفراء ، يظن الحمار أن أحمد اليوم هو أحمد الأمس .

— عندك ياتوتو ! قلت له بابتسامة حاولت أن أجعلها أكثر من ابتسامته اصفراراً ، عندك! أنا موش بتاع زمان ، آه ، أنا واحد تانى!

فلو كنت حقا واحداً ثانياً فلماذا وجدتنى أتقهقر إلى الوراء ، ولماذا شعرت بذلك العرق البارد يتصبب على جبينى ؟

— إرجع يا توتو ! ارجع احسن لك !

لكنه لم يرجع ، ما برح يتقدم منى وأنا الذى أرجع .

— يا توتو ابعد احسن لك (قلت له بصوت متهدج) أنا موش عايز أقتلك ! إبعد عنى ياتوتو !

لكنه واصل تقدمه وقد تحولت ابتسامته من صفراء إلى معسولة كأنه يواجه طفلا صغيراً شقيا . فأدركت أننى قد وصلت إلى مفترق الطريق ، وإلى النقطة التى يجب أن أقرر فيها مصيرى بأجمعه . إنى أكره العدوان ولكن ما باليد حيلة ، فى بعض الأحيان يجب على الإنسان أن يتخلى عن إنسانيته .

— ارجع ياتوتو ! أنا بانصحك لآخر مرة !

فواصل توتو الابتسام ، بينما رفعت أنا يدى اليسرى وأسندت بها اليمنى التى ترتعد بالمسدس . سأضغط على الزناد ولست مسئولا إذا استقرت الرصاصة فى مكان قاتل ، جدير بتوتو أن يدرك جهلى بالرماية . بل إننى أغمضت عينى حين صلك سمعى صوت الرصاصة ، ومرت لحظة قبل أن أفتح — لكى أستكشف ما حدث — عيناً واحدة . وبها رأيت توتو واقفاً كما كان ولكن بغير ابتسام ، شفتاه تقلصتا

بعد الابتسام من الألم . وخطا إلى الأمام خطوة عرجاء ثم توقف ، رأيت على فخذه الأيمن شريطاً طويلا من الدم الأحمر . فذكرت ما قرأت عن خطورة الحيوان الجريح وتهيأت لإطلاق الرصاصة الثانية .

ــ أحمد ! (هتفت زازا) .

لكننى كنت قد تغيرت ، شىء غريب طرأ على روحى وفتح نفسى للدماء . رصاصة أخرى أقضى بها على توتو ، وربما ثالثة أقضى بها على الحاج طلبة أيضاً ، لم لا ؟؟ فأغمضت عينى من جديد حين سمعت صوت الرصاصة الثانية : وفى هذه المرة فتحت العينين لا واحدة ورأيت توتو يترنح ويسقط على ركبتيه .

ــ كمل عليه ! كمل عليه !

صرخة غليظة وصلتنى من الحاج طلبة الذى فوجئت به واقفاً عن قرب ، فأعجبنى كلامه واقتربت من الرجل الساقط مصوباً فوهة المسدس إلى رأسه . صرخت فيه بصوت غريب على أذنى :

ــ أكمل عليك ؟ أكمل عليك يا كلب ؟ !

فرأيت شفتيه ترتعدان بشدة وسقط على الأرض ممدود الساق إلى الأمام . بيديه اتكأ على الأرض وراح يتقلقل إلى الوراء زاحفاً على مؤخرته ، صورة مجسمة للرعب الذليل .

ــ أكمل عليك يا وسخ ؟ ! (قلت له وأنا أتابعه بفوهة المسدس) .

ولست أدرى لماذا أحسست بأننى يلعب من نفسه فى وجهى ويتلوى يميناً وشمالا ، بينما راقبت توتو فى تقهقره الذليل وهو يرتعد ويلهث .

فإنى لأهم بالضغط على الزناد إذ فوجئت بزازا تهجم على وتضمنى إليها .

ــ أحمد ! (صرخت زازا فى رجاء) أحمد ! إنت ح تعمل زيهم ؟

فكأنما صبت على دماغى جردل ماء ساقع ، فاضت نفسى فجأة

بالخجل الشديد من نفسى . فوقفت لحظة أصوب إلى توتو نظرة أخيرة قاسية ، ثم أوليته ظهرى وابتعدت ، نافشاً جهد استطاعتى ما أتيح لى من عضلات . وزيادة فى إظهار ثباتى مددت يدى إلى الشجرة وقطفت تفاحة ، رحت أقرشها وأنا أتلفت حولى فى انتصار .

ومن هناك رأيت توتو يميل إلى الوراء معتمداً على كوعيه ، ثم ينزع الكوعين ويتمدد على ظهره متقززاً . ورأيت زازا تتناول ذيل قميصها وتنزع منه قطعة جديدة ، تحول القميص فعلا إلى « بيبى دول » . وصوت شهيق عميق سمعته يتسلل إلى صدر الحاج طلبة ، ذلك الشهيق الذى حبسه فى صدره كما فعل من قبل متهيئاً لصرخته .

— حى ! (صرخ الحاج طلبة بجنون) حى ! حى ! حى !

وترنح فجأة ثم سقط من طوله كالقتيل .



الفصل الثالث والعشرون

نام توتو بعد أن أتمت زازا تضميد فخذه ، وبخلو جسمه من أى جرح آخر فهمتنا أن رصاصتى الثانية قد طاشت . ثم واجهتنى زازا بنظرة غاضبة .

— والله لو عارفة انك كده ما كنت طلعت الرصاص !

— عارفة انى إيه ؟ سألتها متجاهلا .

— إنك قتال قتلة ! موش كفاية رصاصة واحدة ؟ عاوز تموت إاجل ؟ — تبقى بايخة فعلا ، مين يصطاد لنا سمك ؟

— يا سم !

فبدأت أنا أغتاظ .

— كنت عايزانى اسيبه يدبحنى ؟ — لأ ، بس كفاية تخوفه .

— مارضيش يخاف . ماحدش بيخاف منى .

— أنا زهقت قتل وضرب ! وزهقت تنشيف دم ، وربط جروح ! نظرت إلى قميصها ورفعت حاجب المجنون الأيسر .

— ولو ان العملية دى لها فوايدها (قلت لها) قميصك بقى أحسن م الأول بمراحل !

لكنها لم تكن فى تلك النوبة .

— زهقت خناق ! (كررت باشمئزاز) زهقت وقرفت !

— والله وانا زهقت اكتر منك .

فأشارت إلى توتو النائم قائلة : « وموش قادرة افهم ده يتغير ده ازاى ؟ فاكر زمان كان طيب أد إيه ؟

— فعلا (وافقتها) غنى لنا مرة ساعة الغروب .

— م اللى شافه منهم (قالت بحرقة) عذبوه ولاد الكلب !
فنظرت إلى الحاج وبدأت أملأ صدرى بشهيق عميق .
— حى ! (صرخت أقلده) حى ! حى !
فراحت زازا ترمقنى حيناً فى غيظ ، ثم اهتز صدرها بضحكة . وبدأ عقلى يتجه إلى ناحية أخرى ، إذ أننى وإن كنت قد صرت بالنسبة للقتل أحمد جديداً فمازلت بالنسبة للحب أحمد القديم .
— تسمحى تقعدى ؟ وأجلستها فجلست وأنا بجانبها .
— عارفة ان دمك كان خفيف قوى وانتى خايفة ؟ فلم تجب .
— مالكيش نفس تستخبى تانى ؟
— أستخبى من إيه بقى ؟ الاتنين نايمين زى الأموات !
— والتالت معدته طالعة لبرة . يا ترى اتحلل ولا لسه ؟
— بلاش قرف ! — متأكدة انك موش عايزه تستخبى ؟
— آه . — طب أنا عايز استخبى ، قلت مداعباً .
— لايا شيخ ؟ — والنبى لتخبينى ، أصلى خايف قوى .
ومددت يدى نحوها فدفعتها ، لكننى مددتها ثانياً .
— يا سلام يا احمد . — قوليها تانى .
وتناولت وجهها بين راحتى ورحت أنظر فى عينيها ، أغوص فى البحيرتين الزرقاوين الصافيتين . بيدى مسحت على شعرها ، وبأنفى نهلت من عطرها .
— آربيج من قبل ما تسأل ! (قالت بشقاوة) .
وفى عينيها أيت نظرة عرفت منها أنها قد عادت زازتى ، وكما لاذت بى منذ حين لذت أنابها ، خبأتنى بين أحضانها طويلا .
وأشرقت شمس الصباح على جثتين لا جثة واحدة كالأمس ، وشعاع دافئ سقط على توتو فتململ حيث رقد ثم تحامل على يديه واستوى جالساً . ممدود الساقين راح يتطلع بخوف إلى فخذه المربوط



وكان منتفخاً وارماً. ثم نظر إلى فقابلته بوجه رسمت عليه كل ما عندى من الصرامة ، لكى أفهمه أننى مازلت ذلك السفاح الجديد ، وفى الوقت نفسه تحسست المسدس الذى كنت قد علقته فى أستك بنطلون البيجامة . فخفض بصره إلى فخذه وشرع يحل الرباط ، رأيت جرحاً متقيحاً وفخذا محتقناً ينذر بالخطر .

— يا عينى (قالت زازا فى هلع) ده الجرح اتوسخ .

— آر ! (قال توتو بصوت مهدج) . — آر ؟ (سألته) .

— آر ، أجابنى .

وأشار إلى صخرة صغيرة على الأرض وشرع يضرب قبضة بأخرى ويقول آر . — يكونش قصده نار ؟ (تساءلت زازا) .

فأومأ توتو برأسه عدة مرات مصدقاً ، فناولته زازا حجرين ووضعت أمامه بعض الأعواد الجافة ، سرعان ما كان قد أشعل النار .

— أنجر ! صاح يشير إلى الخنجر .

فترددت لحظة ثم قذفت إليه بالمذكور وأنا أتحسس مسدسى ، فمد توتو النصل اللامع فوق النار وشرع يسخنه .

— يا خبر اسود ! هتفت زازا فى فزع ، ده باينه ح يعمل لروحه عملية !

— له حق ، أجبتها ، الرصاصة لازم تطلع . — لكن ده ح يعور نفسه .

— هو حر ، الجرح جرحه والفخد فخده .

وسحب توتو الخنجر من النار متوهج النصل أحمر ، وما لبث أن أدناه من فخذه بيد ترتعد . لحظة من التردد ثم دس السن المتوهج فى الجرح ، سمعت النار تطش فى لحمه وانبعثت منه صرخة ألم . وصرخة أخرى كادت تنطلق من زازا لولا أنها سدت فمها براحتها ، مشيحة بوجهها كى لا ترى المشهد الرهيب . وكذلك فعلت أنا ،

ومن ورائى سمعت زفرات متلاحقة تنبعث من توتو وهو يجرى العملية .
زفرات أليمة وشهقات ، وأنا أتخيل المنظر فأرتعد من مجرد الخيال .

— تزاتزا ! (قال توتو بعد حين بصوت جريح) تزاتزا !

فالتفتنا لنرى دماء غزيرة تغطى فخذ توتو ، وفى نفس الوقت رأينا فى يده رصاصة صغيرة . فأسرعت زازا بنزع قطعة جديدة من ذيل قميصها — هذا القميص سيصبح ذات يوم بلوزة ! — وانحنت فربطت الجرح لتوقف النزيف ، وكان توتو يرتعد من رأسه لقدمه ، أمر طبيعى بالنسبة لرجل أجرى لنفسه عملية جراحية وبدون بنج . فبينما زازا تربط له الجرح رأيته يرتجف بشدة ، وعرق غزير تصبب على وجهه وصدره ، فأصارحك القول بأنه صعب على ، قلت لنفسى هذا الرجل يحتاج إلى لباس يدفئه . فما هى إلا لحظة حتى كنت قد خلعت فانلتى . خذ ! (قلت له بكراهية مصطنعة) خذ جتك البلا !

وقذفت إليه بالفانلة فتلقفها فى فرح ، سرعان ما كان يحشرها بالعافية فى صدره العريض . فلما أنهت زازا عملها رأيته يستلقى على ظهره وهو يلهث ، نحواً من خمس دقائق وهو يتململ ثم سكنت حركته وبدا أنه استغرق فى النوم .

توتو نام والحاج طلبة صحى ، جلس يتلفت حوله فى عباطة ثم حاول أن يحرك ذراعه فتقلص وجهه من الألم . لكنه تماسك وواصل تحريك ذراعه من عند الكتف فى دوائر صغيرة لكى تلين عظامه . وبينما يفعل ذلك يواجهنى بعينين غائمتين فيهما نظرة غريبة ، من خلال وجه مغضن كاد يتوه وسط شعره المنهدل ، ولحيته الكثيفة البيضاء التى طالت وتدلت وكادت تلامس الأرض . كأن عمره مائة سنة ، أو كأنه واحد من أهل الكهف صحى للتو من نومه الطويل . نفس النظرة الغريبة صوبها إلى توتو النائم ، ثم نقلها إلى زازا ، يتفحصنا طويلا

كأنه يريد أن يذكر من نكون . ثم اعتمد بيديه على الأرض وجاهد لكى يقف ، ترنح حيناً ثم اعتدل وبدأ يمشى . كطفل يتعلم المشى سار الحاج طلبة عدة خطوات ، مقوس الظهر يتفحص الأرض قبل كل خطوة ، جلبابه مثل خيمة واسعة حول جسمه الذى ضمر . وإلى الجرة قصد فرفعها فوق فمه وراح يشرب ، ثم اتجه إلى شجرة التفاح فقطف واحدة ووقف يقرشها ، مواصلا تفحصه لنا بتلك النظرة الغريبة الغائمة .

فتنهدت وقصدت إليه ؛ وسألته مجاملا : « ازى كتفك يا حاج » ؟

فوقف يحملق إلى فى ذهول كأنه لا يعرفنى .

— كتفك طاب يا حاج ؟ (أعدت سؤالى) .

فواصل حملقته إلى ثم سعل . — الحمدلله ، الحمدلله ! (أجاب أخيراً) حتى صوته ذبل وصار أشبه بالحشرجة .

— الحمد لله ، ردد الحاج كلمته بضعف وهو يشيح عنى بوجهه . ثم أولانى ظهره وقصد إلى الشاطئ ، جلس يستعرض البحر بنظرة طويلة شاردة . فعدت إلى زازا التى جلست بجانب توتو تتأمله وقد وضعت يدها على خدها .

— صعبان على قوى ، (قالت بمرارة) ، قوى .

وعلى انا كمان ، بس هو اللى جاب الأذية لنفسه .

— مع إنه كان زمان مافيش اطيب منه .

— فعلا ، غنى لنا مرة ساعة الغروب .

علامتان فيما أذكر رسمتهما على جذع الشجرة قبل أن يزول الورم عن فخذ توتو . ثم أصبح يوماً بادى النشاط وراح يثنى ساقه المصابة ويفردها ، ومد يده إلى زازا كى تساعده على الوقوف . وقف أول الأمر على ساقه السليمة رافعاً الأخرى فى الهواء ، ثم أنزلها برفق ليلمس بها الأرض . فما كاد يعتمد عليها حتى بدا الألم على وجهه ،

لكنه تماسك وخطا بها إلى الأمام خطوة عرجاء . من بعيد وقفت أرقبه فى حذر ويدى على المسدس ، إذ خطا خطوة جديدة عرجاء تلاها بأخرى نصف عرجاء ، ثم بثالثة غير عرجاء ، عادت ساقه إلى ما كانت عليه من قبل رصاصتى . فظللت واضعاً يدى على المسدس وأنا أرقب حركته ، إذ أنه كان يقترب منى ببطء . وصل إلى مسافة خطوتين منى ثم وقف يتفرس فى ، لحيته هو الآخر قد طالت وفى شعره المتهدل ظهر كثير من الشعر الأبيض . فى صمت وقف ينظر إلى بعينين سوداوين براقتين ، وسط وجهه الذى مازال فيه أثر من الكدمات. وفجأة تحركت شفتاه وانفرج فمه عن ابتسامة لمعت خلالها أسنانه البيضاء ، أول ابتسامة لتوتو منذ زمن طويل . فترددت حيناً ثم رددت ابتسامته بابتسامة جانبية صغيرة ، ولم أنس أن أرسم فى عينى معنى التحدى ليعرف أن أحمد الجديد مازال أحمد الجديد . وفجأة رأيته يمد يديه إلى فانلتى ليخلعها ، خلعها وقدمها إلى بنظرة امتنان . فتناولتها ولبستها ، كأننى لبست شوالا لا فانلة .

— أنجر ! قال توتو وهو يمد يده باسماً .

فلما رأى ترددى أشار إلى البحر قائلا « أملك » يعنى ، سمك . وعند ذلك زال ترددى وقد أسالت السيرة لعابى ، فناولته الخنجر ونزل يصيد السمك . فلما صاده شواه وناديا الحاج طلبة لكى يشاركنا الطعام . تردد أول الأمر ثم جلس يأكل فى صمت ، شارداً غائم العينين عجوزاً ، فتافيت السمك وأشواكه تعلق بلحيته البيضاء فلا ينتبه إليها . أخرجت له أنا شوكتين ثم زهقت .

— دقنك بعد الأكل عايزه تنفيض ! قلت له مازحاً .

وبالرغم من أنه لم يضحك ، رأيت أن أواصل مداعبته .

— فاكر زمان يا حاج ؟ كان معانا واحد يحب ياكل السمك لوحده !

فواجهنى حيناً بتلك النظرة الغائمة ، ثم لمعت فى عينيه فجأة نظرة أخرى فيها الكثير من شقاوة الأطفال . ورفع يده النحيلة وقد مد سبابته نحوى ، ببطء مدها لينخزنى بها ما بين الضلوع .

— قول يا باسط ! (قال بصوت ماكر ، وابتسامة شاعت وسط غضونه ولحيته) .

— دمه بقى خفيف قوى (قلت لزازا بالإنجليزية) . ثم التفت إلى توتو وقلت : « ولا عاوزنى اتكلم عربى ؟ »

— أربى ! (قال توتو ضاحكاً وهو يشير إلى قبر كرشة) .

وانتهينا من الأكل فوقفت زازا أمامنا كجنية بيضاء ، وضربت بيديها على فخذيها فى شقاوة وهتفت بحماس : « تيجو نلعب مساكة ؟ !

وانطلقت تجرى قائلة إن الشاطر من يمسكها ، فلم أكذب خبراً . أسرعت وراءها وهى تجرى هنا وهناك ضاحكة ، فلما أمسكتها كان من الطبيعى أن أقبلها . وكان هذا دورى لكى أجرى أنا وهى تمسكنى ، فلما أمسكتنى قبلتنى . وبدا على توتو أنه فهم أصول اللعبة فانطلق بدوره يجرى ويدعونا إلى اللحاق به ، فلاحقناه وأمسكناه وضحكنا حين أشار إلى خده مطالباً بقبلة .

ثم خطرت لزازا فكرة جديدة .

— تيجوا نتفسح فى المركب ؟ — أركب ! (قال توتو بسرور) .

— يالله يا احمد .. فرفعت يداً معترضة حازمة .

— لا يا ستى ، أنا موش فاضى للفسحة . ورايا شغل .

— شغل إيه ؟ — ح اقعد اكتب .

— إيه ؟ ! — أكتب ، ماتعرفيش اكتب يعنى إيه ؟

— تكتب إيه يا أخينا ؟ أكتب قصة .

— قصة ؟ ! (صرخت فى استنكار) .

— آه قصة ، كتير على اكتب قصة ؟

— تكتبها لمين بقى ؟؟ سألتني ساخرة .
— للأجيال القادمة ، أجبتها بكبرياء .
فوقفت حيناً تشويني بنظرة استهزاء ثم التفتت إلى توتو .
— يالله بينا احنا ياتوتو .

وانطلقت تجرى كالغزال الشارد ووراءها توتو ، قفزاً إلى المركب وانزلقا بها على الماء . وبالنظر إلى أن توتو لا يعرف التنكيت فلست أفهم سر تلك الضحكة العالية التي انبعثت من زازا .



الفصل الرابع والعشرون

ذلك أنى شعرت فجأة بأن الوقت قد حان لكى أشرع فى تدوين قصتى ، قصة الأحداث المضحكة والفاجعة التى وقعت لى فى تلك الجزيرة القذة . نعم يجب أن أكتبها وأن أعمل على وصولها إلى إخوتى من البشر ، لعلهم يتعظون بها إن هم وجدوا أنفسهم ذات يوم فى جزيرة مثلها . فقصدت إلى الحاج طلبة حيث جلس يسبح وجلست قبالته .

—إلا قول لى ياحاج ، (سألته باسماً) يا ترى دفتر الشيكات لسه معاك ؟ فومضت فى عينيه نظرة حادة وهو يدمدم بالصلوات .

— دفتر الشيكات ؟ ! (سألنى بعد حين بريبة) .

— آه (أجبته وأنا أنتزع من لحيته شوكة) . — ليه ؟

— أصلى عايز اكتب عليه .— تكتب ؟ !

— آه ، أكتب . — تكتب إيه ؟

— أكتب قصة . — قصة ؟ !

لست أدرى لماذا لا يصدق أحد أنى أستطيع أن أكتب قصة .

— أيوه يا سيدى (أجبته بملل) قصة . — قصة إيه ؟(قال ملحاً) .

— قصة الأحداث المضحكة والفاجعة التى وقعت لى فى هذه الجزيرة القذة . فواصل تحديقه فى ثم بدا الغيظ فى عينيه .

— ما عنديش دفاتر ! قال فجأة بجفاء ، فدهشت .

— ليه يا حاج ؟ إنت لسه عايز منه حاجة ؟ — ما فيش دفاتر !

فاغتظت ، وقلت وأنا أتحسس المسدس :

— يا حاج اعقل . إنت موش عارف أنى أقدر آخده منك بالعافية؟

فلم يجب ، راح يزغر لى بكراهية واضحة .

— هات الدفتر يا حاج ، ماتبقاش رذل !

ومن سكات مددت يدى إلى جيبه أتلمس الدفتر ، فد يده يريد أن يمنعنى . لكنه ما لبث أن استسلم ، تركنى أدس يدى فى جيبه وأسحب الدفتر ، وأضفت : « والقلم لو سمحت » .

فتردد لحظة ثم أخرج القلم وناوله لى .

— مرسى يا حاج ، (قلت له بابتسامة صفراء) وما تخافش موش ح اكتب شيكات . وهممت بأن أنهض ثم ذكرت أمراً .

— على فكرة يا حاج الشيكات دى لها رصيد بحق وحقيق ؟

— إمال يعنى نصاب ؟ ! قال بغضب .

— طب ماتزعلش ، قول يا باسط .

وتركته وقصدت إلى شجرة التفاح ، جلست تحتها أبرى القلم بالخنجر ، جاعلا سنه أرفع ما يكون لكى يساعدنى على الكتابة بأصغر خط عندى . فالشيكات محدودة والقلم نفسه صغير ، أخشى أن ينفد هذا أو ذاك فأعجز عن مواصلة الكتابة وتنتهى قصتى بسؤال لا جواب له . فما كدت أشرع فى الكتابة حتى برزت لى مشكلة أخرى هى ماذا أكتب ؟ إننى لم أكتب أية قصة فى حياتى ، فكيف يبدأ كتاب القصص قصصهم ؟ أين لى بالأساوب الأدبى أنا المهندس الذى لم يكتب شيئاً سوى التقارير الهندسية ؟ لكننى يجب أن أحاول ، ويجب أن أنجح . بدأت بوصف منظر غرق السفينة وكيف أنقذتنى زازا ، ثم منظر تعلقنا بالخشبة الطافية والكلام الذى قلناه فى ضوء القمر ، أصارحك القول بأنى بدأت أعجب بأسلوبى . ساعة كاملة وأنا أكتب فى نشوة أدبية ممتعة .

— إنت لسه بتكتب ؟ (فوجئت بصوت زازا التى عادت من الفسحة) . — آه ، أجبتها بإيجاز .

— طب ورينى كتبت إيه . — لأ .

لكنها اختطفت الدفتر من يدى قبل أن أستطيع منعها وجلست

تقرأ . فراقبتها فى خوف من أن تسخر من كتابتى لكنها لم تفعل ، ما كادت تقرأ الشيك الأول حتى بدا عليها الاهتمام وابتسمت فى سرور . كلما أمعنت فى القراءة زاد اهتمامها ، شعرها يتهدل على الشيكات فتزيحه بيدها وتواصل القراءة . ومرة رأيت صدرها يهتز بضحكة مطربة ، سعادة فائقة غمرتنى وقد نجحت فى إثارة إعجابها .

ــ الغريبة انت فاكر كل كلمة قلناها (قالت ضاحكة) .

ــ ودى يا بنتى حاجات تتنسى ؟

ــ إلا واحنا واقفين عند الشجرة وانت ماسك لى المراية .

ــ وكان قميصك منشور بينشف (نبهتها) .

فواصلت القراءة حتى أنهت ما كتبت ، ثم واجهتنى بنظرة إعجاب صريح وقالت : « تعرف انك شاطر قوى فى الكتابة ؟ » .

فأحسست بوجهى يتورد .

ــ موش قوى ، قلت بتواضع . ــ وشك احمر !

ــ هاها .

ومالت على فقبلتنى ، وعندئذ فهمت لماذا يتخصص بعض الناس فى العمل الأدبى . وأسندت زازا رأسها إلى جذع شجرة التفاح وتطلعت إلى الدنيا بابتسامة مشرقة .

ــ موش عارفة انا سعيدة كده ليه ، سعيدة قوى قوى .

ــ والله ومن سمعك . ــ متهيأ لى انى أسعد من اللازم (أضافت) .

فرفعت حاجب الفلسفة الأيمن .

ــ الواحد عمره ما يكون أسعد من اللازم ، أتعس من اللازم معلهش . لكننى كنت أشعر فى داخلى أننى أنا الآخر أسعد من اللازم ، فكم من الناس أتيح لهم أن يستمتعوا بهذا المزيج النادر من الحب والحرية والفلسفة ؟ ثم سمعت زازا تتنهد وتتصعب ، سرحت ببصرها كالحالمة

إلى الشمس التى تنحدر عند الأفق .

ــ مالك ؟ سألتها . ــ لسه برضه ناقصنى حاجة ، عارف إيه ؟

ــ إيه ؟ ــ ولد !   ــ إيه ؟ ! ــ ولد .

ــ ولد ؟ !

ــ أيوه ، ولد أو بنت ما فيش مانع . حتى ولد وبنت يبقوا أحسن ! فخطرت لى أفكار كثيرة لكننى احتفظت بها لنفسى مكتفياً بالنحنحة .

ــ بس محتارة اسميه إيه ؟ ــ الولد ؟ ــ آه . فابتسمت ساخراً .

ــ الأسامى كتير ، عندك أحمد وطلبة وتوتو وكرشة !

ــ لا يا شيخ ، والنبى ؟ . وسكتت وشردت نظرتها إلى الأفق من جديد .

ــ أحمد (خاطبتنى بعد حين) . ــ قوليها تانى .

ــ بلاش دلع وقول لى ، ماعندكش أى أمل ان المركب تشتغل ؟

ــ المركب بتشتغل بس البحر ما بيحبش المراكب .

ــ أصلى الأيام دى نفسى أطلع من هنا قوى .

ــ سبحان الله ! بعد الحكاية ماهديت عاوزه تطلعى ؟

ففتحت فمها لتقول شيئاً ثم عدلت .

ــ كنتى ح تقولى إيه ؟ ــ ولا حاجة . إنت لازم تفكر شوية يا احمد .

ــ أفكر ؟ ــ آه ، فى طريقة نطلع بيها من هنا .

ــ العبد فى التفكير . ــ أصل أنا جت لى فكرة .

ــ إيه ؟ ــ واحنا غرقانين فى البحر انا وانت ، موش سمعنا فوقنا صوت طائر ؟

ــ حصل ، وكاتب عنه فى القصة . ــ الطائر ده راح فين ؟

ــ إيش عرفنى ؟ ــ شفناه فى الجزيرة هنا ؟

ــ لأ . ــ يبقى لازم راح حتة تانية . يبقى فيه بلاد تانية قريبة من هنا .
فسكت أستوعب كلامها واعترفت لها : «ساعات يطلع منك كلام معقول» .
ــ ومادام فيه بلاد قريبة (استرسلت) يبقى ممكن نوصل .
ــ نظريا . ــ بصفتك مهندس لازم تشوف لنا طريقة .
ــ كرشة قال لى «اطفو عليك مهندس !» ثم أنا خلاص قررت اسيب الهندسة واتفرغ للأدب ! فرمقتنى لائمة .
ــ والنبى تفكر جد يا احمد ، عشان خاطرى أنا .
ــ حاضر يا ستى (قلت مستسلماً) أفكر .
فابتسمت فى رضاء حيث استندت إلى جذع الشجرة ، عينها ما برحت شاردة إلى الأفق الذى اكتسى بحمرة الشفق .
ــ مافيش فايدة (قالت بعد حين) موش عاجبنى ولا إسم .
فصوبت إليها نظرة ماكرة .
ــ قبل ما نفصل البدلة ، سألتها ، موش نحضر اللى يلبسها ؟
وابتسمت لها فابتسمت لى ، هناك حيث جلسنا تحت شجرة التفاح . ظلال المساء الزاحف تنتشر حولنا ، وشبح للحاج وهو يصلى العشاء ويتهيأ للنوم ، وتوتو جالس عند الشاطئ البعيد ينظر إلى البحر . وقرص فضى بزغ عند الأفق الشرقى ، وإذا بصوت تينور جميل يداعب آذاننا ، صوت توتو وهو ينشد أغنية جميلة غامضة .
ــ تمام زى زمان ! (قالت زازا ضاحكة) ــ زى زمان واحسن .
ــ إشمعنى ؟ ــ المسدس معايا أنا .
ــ إنت بتحب المسدس ؟ ــ أكرهه عمى ، لكن ما باليد حيلة .
فشاعت فى وجهها ابتسامة ماكرة . ــ بتضحكى ليه ؟ (سألتها) لكنها لم تجب على سؤالى . ثم قالت برقة : أحمد .
ــ قوليها تانى ــ بتحبنى ؟ (سألتنى) . فأجبتها .

الفصل الخامس والعشرون

ما كادت الشمس تشرق حتى أخرجت الورق والقلم وعكفت على الكتابة . من الصبح للظهر وأنا أكتب ، رفضت كل العروض التى حاولت زازا أن تغرينى بها . رفضت أن ألعب الماساكة أو أنزل للسباحة . ورفضت لعب السيجة أو الحجلة أو كيكا ع الواطى مع أننى شاطر فى الأخيرة جداً . بل إننى رفضت أن أقوم للغداء قائلا إننى سآكل وحدى فيما بعد .

— يا أخى قوم كل قبل السمك ما يبرد ، قالت زازا بإلحاح .

فنظرت إليها فى أنفة .

— ليس بالسمك وحده يحيا الإنسان ، أفهمتها .

وواصلت الكتابة كالمحموم ، لم أتوقف عنها إلا عدة دقائق لكى آكل سمكتى ، لم يهمنى أنها باردة . بل إننى لم آكلها إلا لما فى الفوسفور من فائدة لخلايا الفلسفة بالمخ.

— طب قوم نتفسح فى المركب ، اقترحت زازا .

— اتفسحوا انتم ، أجبتها بحزم .

— يا ساتر ! إنت ركبك عفريت ولا إيه ؟ — تقريباً .

فومضت فى عينها نظرة ماكرة .

— تعال نتفسح فى المركب انا وانت لوحدنا !

فأعجبتنى الفكرة لكننى تماسكت .

— ليس بالفسحة وحدها يحيا الإنسان (أجبتها بإباء) . — يا سم !

— أصل فيه حاجة مانتش فاهماها . أنا اكتشفت انى موش بس باكتب قصة ، لأ ، أنا باكتب فلسفة كمان .

ـــ فلسفة ؟ ! ـــ آه ، باتفلسف يعنى ، فهمتى ؟
فوقفت حيناً تلسعنى بنظرة ساخرة . ـــ طيب ياخويا ، اقعد اتفلسف !
وتركتنى وانطلقت إلى المركب ووراءها توتو ، قفزا فى المركب وانزلقا بها على الماء ، لست أدرى ماذا يفعل ذلك الوغد لكى ينتزع منها تلك الضحكة العالية . كالأمس لم أتوقف عن الكتابة إلا عند حلول الظلام ، ومع شروق الشمس عاودتها .
ـــ دى ما كانتش قصة ! (قالت زازا مستنكرة) .
ـــ تاخدى تقرى ؟
ـــ لأ ، وسيبها شوية لأنى عايزة اكلمك فى حاجة مهمة .
ـــ أهم م القصة دى ؟
ورأيت فى عينها نظرة جادة فنحيت الورق وأنصت . نظرة فرح غامر لمعت فى عينها وهى تدنو بوجهها من وجهى وتضع فمها على أذنى .
ـــ أنا ح اولد يا احمد ! همست بفرح كالطفلة) ، ح اولد !
فذعرت ، ثم ابتسمت .
ـــ عارفة انا افتكرتلك قلتى إيه ؟ ـــ إيه ؟
ـــ إنلك ح تولدى .
ـــ سبحان الله ، ما هو ده اللى قلته ! ـــ يا نهار اسود ! (هتفت فى ذعر) .
ـــ إسود فى عينك ! دنا فرحانة بشكل ! حاسة انى ح اطير من الفرح !
ـــ تبقى مجنونة . ـــ ليه ؟
ـــ دى جزيرة حد يولد فيها ؟ تربى العيال ازاى ؟
ـــ ما يهمنيش . كفاية أنى أولد وخلاص !
وبسطت ذراعيها حولها تريد أن تحتضن الوجود .
ـــ يا سلام ، قالت حالمة ، دنالو جانى عيل كنت اعبده ! كنت

أبوس الأرض تحت رجليه ! فرمقتها بازدراء قائلا :
— حاجة موش صحية بالمرة ، وبقك يتملى ريل .
فلم تجبنى ، فرحتها قد استغرقتها إلى درجة مزعجة جداً .
— ثم انا متهيألى انك ناسية حاجة صغيرة ، أضفت بخبث .
— هى إيه ؟
— ناسية أنك ولا مؤاخذة موش متجوزة ! موش الحاج طلبة طلقك ؟
— طب مانا عارفة . إمال انا باقول لك الكلام ده ليه ؟
— ليه ؟ — علشان نصلح الحكاية دى .
فلعب الفأر فى عبى .
— نصلحها ازاى ؟ (سألتها بريبة) . — ح يكون ازاى ؟ بإنك تتجوزنى طبعاً !
— أنا ؟! (هتفت فى ذعر) . — طبعاً ، (أجابت ببساطة) .
فترددت لحظة ثم قلت أخيراً : « طب واشمعنى انا ؟
فزغرت لى قائلة : « بتقول إيه ؟ »
— قصدى يعنى ...
— قصدك إيه ؟ عايز ابنى يطلع مالوش أب ؟! يعيش ازاى فى وسط الناس ؟ فتلفت حولى .
— موش شايف أى ناس حوالينا !
— الناس اللى ح يعيش فى وسطهم بعد ما نرجع .
— إنتى خلاص قررتى اننا ح نرجع ؟
— طبعاً ، إنت موش وعدتنى انك تفكر ؟! . فضحكت .
— أشكرك على الثقة الغالية ! بس لسه ماخدناش موافقة البحر .
— العقل أقوى من البحر (قالت بكبرياء) .
— حلوة دى ، لازم حافظاها من حوار فيلم ، ومقتبس كان !

— موش عايز بتتجوزنى قول ! أنا فيه ألف من يتجوزنى ، آه .

وكان فى كلمتها الأخيرة زفرة بكاء ، ورفعت يدها إلى عينها لتمسح دمعة غير موجودة ، ثم أشاحت عنى بوجهها ملوية البوز . ففكرت فى كلامها ووجدته صحيحاً ، من الحمار الذى يرفض الزواج من زازا ؟ وأنا بالذات ألست مديناً لها بحياتى ؟ ألم تنقذنى زازى من الموت ثلاث مرات ؟

— حبيبتى زازا (قلت لها برقة) عقد جوازك للحاج فين ؟

— وانت مالك ؟ (قالت غاضبة) .

— عايز اشوف صيغته عشان انقلها . فالتمعت عيناها فرحاً .

— إذا كان ع الصيغة انا حافظاها ! طب مليهالى .

— صحيح يا احمد ؟ ! صحيح ح تتجوزنى ؟ — أيوه ياستى ، أمرى لله .

— حبيبى أحمد ، قالت وهى تقبلنى ، إنت أنبل راجل شفته فى حياتى ! — مرسى ! قلت ساخراً من نفسى .

وأخرجت شيكاً فكتبت عليه الصيغة بإملاء زازا ، ذلك الشيك الذى وقعته وأسلمته لها فدسته فى صدرها . ثم تنهدت كمن تخلص من حمل ثقيل ، أسندت ظهرها إلى الشجرة وفى عينيها نظرة حالمة . فرحت أنا أفكر فى الداهية التى حلت بى ، والمصيبة التى ترصدنى فى جوف زازا . هل كان ينقصنى طفل لعين يقلقنى بصراخه ويستأثر دونى باهتمام زازا ؟ وكيف ينمو طفل فى هذه الجزيرة المسحورة ؟ هل ينمو ببطء كسائر الأطفال أو يتحول فى أسابيع — على إيقاع ساعاتنا المجنونة — من طفل إلى غلام إلى فتى يافع ؟ فإذا طالب هذا الفتى اليافع بالأنثى فأين هى ؟ وإذا كنا فى ذلك الوقت قد شحنا ووهن العظم منا ، كيف لنا أن نلم هذا الفتى الأهوج الذى لا نال تربية ولا دخل مدرسة ؟؟

ــ زازا ، قلت لها فى لهفة ، إحنا فعلاً لازم نخرج من هنا .

ــ موش باقول لك ؟ ــ لكن ازاى ؟

ــ فكر . وعلى بال ماتفكر أكون خدت لى حمام .

ونهضت فجأة وانطلقت تجرى إلى البحر ، كجنية بيضاء ألقت بنفسها بين أحضانه . فرفعت يدى أهرش رأسى فى حيرة وارتباك ، أطول أظافر تعبث بأطول شعر لعريس تزوج من دقيقتين .



الفصل السادس والعشرون

أنهت زازا حمامها فأتت وجلست أمامى تسرح شعرها فى المرآة التى أرفعها أمام عينيها ، بنسبة شعر تمسكها بين أسنانها . سألتنى والبنسة تهتز بين شفتيها : « فكرت ؟ » — فى إيه ؟ — فى طريقة نخرج بيها؟

— لا والله لسه !

فنزعت البنسة ورشقتها فى شعرها ، ثم تمددت على الرمال تأخذ حمام شمس . استلقت على وجهها مودعة خدها على يدها ، مسبلة العينين كقطة رومية نعسانة . المرآة فى يدى أفكر فى أن أنظر فيها لكننى أخاف ، إذ أعرف أى منظر سأرى فيها . لكننى ما لبثت أن تجرأت وأدرتها إلى وجهى ، فوالله كدت لا أعرف نفسى فى هذا الوجه الرهيب . شعرى الذى شاب أكثر من نصفه ، ولحيى الكثيفة الشعثاء ، وغضون حول العينين لا أذكر أنها كانت هناك قط . سألتها بيأس : زازا ، بذمتك بتحبينى صحيح ؟ ففتحت عينيها وابتسمت . « طبعاً يا حبيبى »

فهززت رأسى متعجباً : « ذوقك غريب جداً ! »

وأبعدت المرآة عن وجهى وقلت لنفسى انى قطعاً يجب أن أهرب من هذه الجزيرة . لو بقيت هنا شهراً آخر لوجدتنى أقطع من شجرة التفاح غصناً أحوله إلى عكاز ، مقوس الظهر أقبل زازا بفم لا أسنان فيه .

— عارف إذا جالى ولد ح اطلعه إيه ؟ قالت زازا بلهجتها الحالمة .

— إيه ؟— عالم .

— فى الأزهر ؟

— لأ ، فى البيولوجى . — إشمعنى البيولوجى ؟

— إسمها حلو . — بس كده ؟

— آه ، وعلى فكرة ، إيه الفرق بين البيولوجى والفسيولوجى ؟

— البيولوجى تعلمنا ليه بنعيش ، والفسيولوجى تعلمنا ليه بنموت .

فرمقتنى بنظرة فاحصة .

— موش بطالة الكلمة دى . — وانتى سمعتى حاجة ؟ دنا عندى كلام كتير ، بس ماحدش ساب لى فرصة اتكلم .

— فعلا ، طول الوقت — وأنت بتجرى ! — وانتى بتربطى فى جروح .

— مع إننا كان ممكن نعيش مبسوطين .

فهممت بأن أعلق على كلمتها لولا الشىء الذى فوجئت به يسقط على دماغى ، تفاحة حمراء طابت واستوت فسقطت من الشجرة وحدها . فتناولتها وأنا أضحك .

— بتضحك ليه ؟ سألتنى زازا . فكرتنى بتفاحة نيوتن .

— يطلع مين نيوتن ده ؟

— واحد عالم ، تفاحة زى دى وقعت على دماغه طلع منها بفكرة الجاذبية . — الجاذبية ؟! .

— آه . — الجنسية ؟

— لأ ، الأرضية . — طب قشرها لى .

وبينما شرعت أقشر التفاحة زحفت زازا إلى ظل الشجرة وتمددت على ظهرها عاقدة يديها تحت رأسها .

— وتبقى شاطر إذا قشرتها قشرة طويلة ملولوة . — ملولوة ؟

— آه . — وتدينى إيه ؟

فمطت بوزها وطرقعت بقبلة صغيرة .

— إتنين (قلت مساوماً) .

فأومأت برأسها موافقة ، وشرعت أنا أقشر التفاحة وفقاً للمواصفات ،

حيلة قديمة علمتنى إياها أيام الصبا خادمة كانت عندنا ، سمراء فى رقبتها حسنة ورائحتها بصل .

— إتفضلى يا ستى ، قلت فى انتصار ، ملولوة كفاية ؟

وأدليت فوق رأسها قشرة طويلة ملتوية كثعبان أحمر ، ثم تركتها تسقط فوق صدرها . — طب والنبى شاطر .

ومدت لى شفتيها فانحنيت وقبلتها قبلتين . فإنى لأهم بالثالثة إذ سمعنا نحنحة بالقرب منا ، ونظرنا لنرى الحاج طلبة واقفاً يزغر لنا .

— على جهنم ! (قال لنا بصوت ذابل مبحوح) على جهنم ! فضحكت زازا .

— لمعلوميتك ياحاج ، (خاطبته أنا بهدوء) إحنا خلاص اتجوزنا. تحب تشوف العقد ؟ ولو حت له بالشيك .

— بنفس الصيغة بتاعتك يا حاج ! (أضفت باسما) .

فلم يجب بشىء ، وقف حينا يزغر لنا بعينه الغائمة ثم ابتعد وهو يدمدم .

— دمه بق خفيف قوى (قالت زازا ضاحكة) .

وبيدها اليسرى رفعت التفاحة إلى فمها ، فى حين مدت يدها اليمنى إلى القشرة الحمراء تسويها على صدرها فى خطوط حلزونية منسقة .

— عارف إذا جبت ولد ح اسميه إيه !

وذكرت اسما سمعته بنصف أذن ، وبنصف أذن سمعت كل ماقالت فى الدقيقة التالية ، كأن صوتها يصل إلى من مكان سحيق. ذلك بسبب الدوامة العنيفة التى اجتاحتنى فجأة مذ وقع بصرى على القشرة الحلزونية الحمراء فوق صدرها . القشرة حلزونية ونحن نعود إلى الجزيرة كل مرة فى دوائر حلزونية ، فما سبب ذلك ؟؟ لماذا لا نعود إلى الجزيرة فى خط عامودى كالخط الذى نغادرها فيه ؟ لماذا تصر تيارات هذا البحر

على أن تسير فى تلك الدوائر الحلزونية العجيبة ؟ فلو أننا ...

ــ أحمد ! أحمد ! (أيقظنى صوت زازا) سرحت كده ليه ؟

فلم أجبها ووجدتنى أقفز واقفا كالملسوع ، رعدة جامحة تهزنى هزا .

ــ زازا ! هتفت بصوت متهدج ، وجدتها !

ــ هى إيه ؟! (سألتنى فى دهشة) . ــ وجدتها يازازا ، وجدتها !

ــ هى إيه ياأخينا ؟! إنت اتجننت ؟

ــ تفاحة نيوتن نفعت معايا ! جت لى فكرة هايلة !

ــ فكرة إيه ، موش تفهمنى ؟ ــ هايلة والله ، هايلة !

وكالمجنون رحت أقطف التفاح بكلتا يدى كما رأيت توتو يفعل منذ أيام ، تساقط التفاح كالمطر حول زازا افنهضت مذعورة .

ــ قطعى معايا ، قطعى يابت !

ــ لا .. إنت ماية المابة جرى لعقلك حاجة !

ــ قطعى ياولية ماتقفيش ساكتة ! ولاروحى قولى لتوتو يصطاد سمك كتير ! السمك اللى فى البحر كله ! ياسلام .. ده نيوتن ده سره باتع بشكل !



الفصل السابع والعشرون

ركن من المركب ملىء بالتفاح الذى قطفناه ، وركن آخر ينتظر السمك الذى جلس توتو يشويه ، فأخذت زازا على جنب ورحت أشرح لها نظريتى التى لاأعرف بعد ماذا أسميها على وجه التحديد ، وبالطبع ستدخل فى التسمية كلمة الحلزونية ـ النظرية الديناميكية للحركات الحلزونية أوشىء من هذا القبيل . إن التيارات المائية فى هذا البحر ـ شرحت لها ـ من دأبها أن تتجه إلى الجزيرة فى دوائر حلزونية ، الأمر الذى تحققنا منه مرة بعد مرة بالمشاهدة والتجربة . إذن فوفقاً لقانون الاحتمالات يكون من شبه المؤكد أنها تيارات ذات طابع حلزونى . فماذا يحدث لتلك التيارات بعد أن تصطدم بأرض الجزيرة ، هل تتلاشى وتختفى كلية ؟ كلا بالطبع ، لابد أنها ترتد عن الجزيرة بعد أن تصطدم بها ، من ناحية بفعل الصدمة ومن ناحية أخرى لتفسح الطريق للتيارات الأخرى التى لاتبرح تتدفق على الجزيرة . إذن فهناك احتمال كبير فى أن تكون هناك ـ فى الوقت نفسه ـ تيارات تبتعد عن الجزيرة مثل التيارات التى تتوافد عليها ، وهى فى أغلب الظن تتحرك فى دوائر حلزونية مشابهة. فأين تذهب تلك التيارات ؟ ما المانع نظرياً من أن نفترض أن هذه التيارات يمكن أن تحملنا معها ـ إذا نحن وجدناها ـ إلى البحر الواسع العريض ؟ ؟

ـ فهمتى ؟ سألت زازا مستوثقاً .

فلم تجبنى من فورها ، راحت تتفرس فى بنظرة تتضارب فيها معانى الشك مع الرغبة فى التصديق .

ـ طب ليه ماعترناش على التيارات دى قبل كده ؟ سألتنى بريبة .

— سؤال وجيه وجوابه سهل ، ماعترناش عليها لأننا كنا دايما نطلع من الجزيرة ف خط عامودى ، فهمتى ؟ فسكتت تتفكر فى الأمر حينا .
— ياسلام ، قالت أخيراً . — آه ، أجبتها .
وكان توتو قد انتهى من شى السمك فنقلناه إلى المركب ، ودفعنا المركب نفسها إلى الماء ، أنزلناها فى النقطة التى اعتاد التيار أن يرجعنا إليها فى كل مرة . وقبل أن نركب أخذت أستعرض الموقف .
— مليتى القلة ؟ سألت زازا . — أيوه .
— وجبتى غطاها ؟ — أيوه .
— وكيس النايلون ؟ — إمال ح اشيل المشط والمراية ف إيه ؟
— وأنا معايا الخنجر والمسدس ، يالله بينا . — إستنى شوية .
— إيه ؟
فضحكت زازا لسبب لاأعرفه .
— هو احنا ممكن نطلع ولانرجعش هنا تانى ؟ سألتنى .
— فى الغالب ، ليه ؟ — إمال اما اجيب البتاع ده بقى !
— بتاع إيه ؟
لكنها لم تجبنى وانطلقت تجرى بعيداً ، انحنت فى آخر الجزيرة وراحت تنبش فى الرمال . فلما عثرت على بغيتها أقبلت على ومدت نحوى قبضتها المطبقة على شىء ما .
— إفتح إيدك ، قالت باسمة .
فبسطت راحتى لكى تودع فيها ماعندها ، عيون الجميع تركزت على يدى فى اهتمام . إحساس فى يدى بأجسام معدنية صغيرة توضع فيها ، ثم رفعت زازا يدها لكى أرى على راحتى ثلاث رصاصات من رصاص المسدس .
— إحشى مسدسك بقى ! قالت زازا ضاحكة .
فرحت أحملق فى الرصاص بقدر من البلاهة يبدو أنه كان أكبر

من اللازم ، وإلا فلماذا سخسخت زازا من الضحك ، ولماذا عدت توتو بضحكها فقهقه ، وحتى الحاج طلبة نفسه رأيته يهتز بضحكة مكتومة ؟ تعليقات كثيرة دارت فى دماغى لكننى كتمتها ووقفت أحشو المسدس فى صمت .

ـ ماليش دعوة (قالت زازا) إنت اللى علمتنى كده !

ـ طب معلهش ، قلت لها ، هى لك والزمن طويل . يالله بينا .

إلى المركب صعدنا وفيها جلسنا وهم ينتظرون تعليماتى ، إذتناول توتو المجداف وهم باستخدامه فمنعته .

ـ موش ح نقدف ؟ تساءلت زازا فى دهشة .

ـ نقدف ليه ؟ سألتها باستعلاء علمى ، إحنا عارفين التيارات المرتدة ماشية ازاى ؟ ماحدش يتحرك خالص .

ـ لكن .. ـ هس ! اكتموا نفسكم .

صمت عميق خيم علينا حيث جلسنا فى المركب ، أربعة صدور تغلى كلها بأمل واحد . دقيقة من الصمت والمركب ثابتة فى مكانها لاتتحرك ، أنظار الجميع مركزة على فى رجاء تمازجه ريبة ، وتحفز واضح للعن أبى إذا فشلت الخطة . فتقبضت يداى بقوة على حافة المركب ، أنظر إلى البحر فى استعطاف ذليل . وفجأة تقلقلت المركب على سطح الماء مع أن أحداً منا لم يتحرك ، بدأت تدور حول نفسها ببطء وتغير من وضعها . تقدمت خطوة نحو الشاطىء كأنها ستنغرس فيه ، لكنها مالبثت أن غيرت فكرها وبدأت تتأرجح مبتعدة عن الشاطىء برفق ، لافى خط عامودى عليه وإنما بمحاذاته كأنها تنوى أن تدور حول الجزيرة .

ـ دى مشيت ! (هتفت زازا فى دهشة) مشيت !

والحاج طلبة أسرعت شفتاه بالدمدمة ، وتوتو لمعت خلال ابتسامته أسنانه البيضاء . والمركب تنزلق على الماء بحذاء الشاطىء مبتعدة عنه رويداً رويداً .

ـ احنا بنبعد عن الأرض ! (هتفت زازا بفرح) والله بنبعد !
شيئاً فشيئاً نبتعد عن الجزيرة ، فى دقائق قليلة كنا قد درنا حولها دورة كاملة . ثم دخلنا فى الدورة الثانية وشرعنا فى الثالثة ، صارت الجزيرة على مسافة لاتقل عن مائة متر . ومع الدورة الرابعة تضاعفت المسافة ، وبانتهاء الخامسة والسادسة كان الجزيرة قد أصبحت على مدى الشوف .

ـ حاجة مش معقولة أبدا ، قالت زازا وهى تضرب كفاً بكف ، دى معجزة ! فأنذرتها : « طولى بالك ، لسه ما تأكدناش » .

إذ أننا لانكون قد نجحنا إلا إذا تجاوزنا تلك المنطقة المشئومة التى مابرحت تصدنا فى كافة المحاولات السابقة ، إذ تصيدنا فى دوامة التيارات العائدة إلى الجزيرة . فسكتت زازا وسكتنا جميعاً ، أنفاسنا محبوسة ونحن ننظر تارة إلى البحر العريض المنبسط أمامنا ، وتارة إلى الجزيرة التى أصبحت مجرد نقطة صغيرة فى آخر الدنيا .

ـ تفتكرى عمرنا وصلنا للمسافة دى ؟ ؟ (سألتها مستوثقاً) .

ـ ماأظنش (قالت بشىء من التردد)

واكتفى الحاج بالدمدمة وهو يجيل حوله نظرات عصبية زائغة ، والمركب تسير وتسير مدفوعة برياح غير محسوسة . ماهى إلا ساعة حتى كانت الجزيرة قد اختفت تماماً عن أبصارنا .

ـ عمرنا وصلنا للمسافة دى ؟ تساءلت من جديد وفى صوتى نبرة انتصار .

ـ أبدا ، هتفت زازا بفرح ، أبداً ! عمرنا مابعدنا كده أبداً !

ـ أبداً أبداً ! ردد توتوهتافها وهو يتفزز ويضرب على فخذيه بيدى طفل فرحان .

فملأت صدرى بشهيق عميق من هواء البحر المنعش ، وللمرة الأولى أطلقت زفيراً حراً طويلا مع آهة تجمع بين الراحة والظفر . ثم وجدتنى

أتنحنح فى كبرياء وأنا أرفع حاجب العلوم الأيمن .
— باقول ادخل فيها إسمى (قلت لزازا) . — هى إيه ؟
— النظرية طبعاً . أصلى كنت ح اسميها النظرية الديناميكية للحركات الحلزونية لكن غيرت فكرى . ح اسميها نظرية الحركة الأحمدية ، حاجة كده زى الحركة البراونية .
فراحت زازا تحدق فى حيناً ثم غمرتنى بابتسامة تسيل حباً وإعجاباً ، بل إنها مالت على فطبعت قبلة سريعة على خدى .
— والنبى انت مافى منك أبداً (قالت بلهجة صدق) .
— لاماتبالغيش (أجبتها بتواضع العلماء) لازم برضه فيه هنا ولاهنا ، هاها .
وسفينتى تنزلق على الماء كالبجعة الحسناء بغير قلع أو مجداف ، تشق عباب البحر باسم الله مجريها ومرساها . فبورك فى يوم ولدت ويوم ركب فى دماغى هذا المخ العلمى الفذ .
— متهيأ لى سرعتنا (قالت زازا بعد حين فى قلق . — « ده بس متهيألك (أجبتها بثقة) . — طب والله قلت (قالت مصرة) .
فنظرت إلى الماء وأرهفت السمع ، خيل إلى أنا الآخر أنها نطقت صدقاً .
— على كل حال ده شىء طبيعى ، قلت لها مطمئناً ، التيارات ضرورى تنتهى . لازم نبتدى نقدف . خد ياتوتو .
وناولته المجداف الذى هم باستخدامه ثم توقف بادى الحيرة .
— مالك ؟ (سألته) .
فأشار بإصبعه إلى الأمام وإلى الوراء ، ثم إلى الشمال واليمين .
— والله له حق (قالت زازا) ح يقدف على أى ناحية ؟
وكانت هذه مشكلة حقاً ، فإلى أين نحن ذاهبون ؟ البحر عريض فسيح لانهائى أزرق ، شماله كجنوبه كشرقه كغربه ،

وسفينتى غير ذات بوصلة .

ــ أحسن حاجة نخلى الشمس ورانا ونمشى (قلت مقترحاً)

ــ إشمعنى ورانا ؟ (تساءلت زازا) .

ــ ح يكون ليه ؟ علشان ماتزغللش عنينا ، صعبة دى ؟

فبدأ توتو يجدف بنشاط ، فرحا بالفرصة التى أتيحت له لكى يعمل شيئاً .

ــ تعرفى ان توتو نفعنا جداً ؟ ــ فى إيه ؟

فى أنه أكسب المركب هذا القدر من الخفة والنعومة ، لم يكن مستبعداً أن تعجز التيارات عن حمل السفينة الخشنة الثقيلة السابقة .

ــ ربنا يبارك لنافيه (قالت زازا) وهى تربت على ظهره بحنان . كتفاه عريضان وجانباه ضلعا مثلث ينتهى عند خصره النحيل ، عضلاته لا تبرح تنقبض وتنبسط فى ظهره البرنزى المتين ــ لكننى أنا الذى رسمت الخطة .

ــ ناولينى سمكة بس تكون كبيرة (قلت لزازا) .

فناولتنى سمكة والحاج طلبة مثلها ، كادت نسبة الأشواك فى لحيته تطغى على نسبة الشعر . فلما تغذيت تناولت المجداف من توتو ريثما يتغذى بدوره ، وسمعت من زازا ضحكة مطربة .

ــ حقا انت المرة دى نوح بحق وحقيق !

ــ نيوتن من فضلك (نهبتها) .

ــ بس إياك نوصل حته حلوة .

ــ دى بقى معرفهاش ، أنا موش مغسل وضامن جنة .

ــ عشان كده انا خلاص نويت على حاجة ، عارف إيه !

ــ إيه ! ــ خلاص ح اسمى ابنى أحمد .

ــ ده أقل مايجب عليكى . ــ آه ، أسميه أحمد وادلعه توتو .

فزغر لنا الحاج طلبة ولم يقل شيئاً ، بينما رحت أنا أجدف وأجدف

– يظهر انهاح تليل علينا (قالت زازا بعد حين بقلق) .

فالتفت خلفى نحو الشمس ، رأيتها قد انحدرت عند الأفق ماونة إياه بحمرة الشفق . وبحركة لاشعورية نظرت إلى ساعتى فسرعان ماجمدت عينى عليها .

– زازا ! هتفت فى دهشة ، زازا ! – إيه ؟

– بصى ! ؟ ساعتى عقلت !

وأدنيت الساعة من وجهها ، راحت تتفرس فيها حينا ثم هزت كتفها .

– آهى زى ماهى (قالت باستخفاف) . – دى زى ماهى ؟ دى ؟ !

– آه .

– طب دى موش بس هديت عن الأول ، دى بقت أهدى من كل الساعات اللى فى الدنيا .بصى كويس! فهل كان عقرب الثوانى يدور فى سالف الزمن بهذا البطء الشديد ؟؟ إنه يتفسح على الميناء أكثر منه يدور ، يتلكأ عند كل علامة كأنه لايريد أن يفارقها ، فهل أناأعمى؟

– يازازا بصى ! (هتفت فى فرح وحشى) بصى !

– والنبى بلاش عباطة وقدف .

– إنتى عارفة الحكاية دى معناها إيه ؟

– معناها إنلكِ مجنون ! ياتقدف ياتدى توتويقدف .

– قدف ! (قال توتو باسماً) .

فناولته المجداف وأخرجت أوراقى بأنامل مرتعدة ، سجلت عليها هذه الملاحظة عن الساعة .

– يا خسارة ، قلت بحسرة ، الورق قرب يخلص ولسه فيه كلام كتير .

جربت الساعة حين تجرى بسرعة ، وخبرت الشعر حين يتهدل

ويشيب بين عشية وضحاها ، فماذا يكون الأمر لوحدث العكس ؟
— مافيش فايدة (قالت زازا بمرارة) مافيش ريحة أرض حوالينا . ضروري ح نبات فى البحر.

نعم يبدو أننا سنفشل ، حمرة الشفق ذابت فى لون البحر الرمادى ، وعتمة المساء أخذت تنتشر حولنا . والليلة ليست مقمرة ، نجمة واحدة لمعت جهة الشرق وربما كانت الزهرة .

— ما كفاية تفديف ياتوتو (قالت زازا) الدنيا ضلمت .

فأطاعها وترك المجداف ، ثم انخفض فى قاع المركب وهو يلهث . والحاج طلبة كف عن الهمهمة حيث تكدس فى ركن المركب .

— تتعشوا قبل ماتناموا ؟ (سألتنا زازا) .

فطرقعت شفاهنا بالنفى ، من الذى تروح نفسه للأكل فى هذه الظروف ؟ البحر الداكن العريض ، الصامت كالقبر مع أنه يعج بالحياة . رحلة إلى المجهول فى الظلام الذى لايبرح يتكاثف حولنا. صامتين جميعاً نلوك أفكاراً واحدة ، لاصوت حولنا إلا خفق الماء على جنبات المركب. وزازا أراحت خدها على حافة المركب وأدلت يدها فى الماء ، شاردة تفكر . شيئاً فشيئاً يتكاثف الظلام ويحول الجميع إلى أشباح ، حتى ظهر زازا العاجى فى قميصها الممزق كاد يتوه فى الظلام . وبعد قليل تاه فعلا ، غاب الجميع عن بصرى . وصوت أنفاس منتظمة لتوتو والحاج طلبة تدل على أنهما قد ناما ، فدهمنى فجأة شعور مفزع بالوحدة والعزلة ، خيل إلى أنه ليس فى العالم كله إنسان غيرى . برودة سرت فى بدنى ورعدة ، وتسارعت كل من أنفاسى ودقات قلبى .

فمددت يداً مرتعشة أتلمس بها كتف زازا .

— زازا (همست بوجل) نمتى ؟

فسمعت طرقعة شفتيها ، وأحسست بها تستدير نحوى .

— خايفة يازازا ؟ — إنت خايف ؟

ـ قوى ، شوفى إيدى باردة ازاى ؟ ـ ياحبيبى ، دانت بترعش.
وتناولت يدى بين يديها وكانتا دافئتين ، ثم وجدتها تجذبنى نحوها فى حنان وتميلنى لكى أنام ، أراحت رأسى على حجرها كأننى طفل صغير .

ـ خايف من إيه ياحبيبى ؟ سألتنى برقة وهى تمسح بيدها شعرى.
ـ البحر كبير قوى ، قلت بصوت متهدج . ـ ماهو طول عمره كبير.

ـ والنجوم كتير قوى . ـ برضه طول عمرها كتير .
ـ موش للدرجة دى !

ملايين ملايين النجوم تبعثرت فى القبة السوداء ، بعضها نجوم وحيدة ترتعد مثلى، وبعضها أكداس من نجوم نحاسية صدئة أنظر إليها فيخيل إلى أنها قد تتهاوى فجأة فوقى ، أو أننى قد آخذ شهيقاً قوياً فتتسرب مثل ذرات التراب إلى صدرى .

ـ ماتخافش ياحبيبى ، أنا معاك .

بيدها الحنون مشت على جبينى ، شيئاً فشيئاً سرى دفئها فى جسمى وأخذ يطرد الرعدة عنى . تسارعت أنفاسى حيناً ثم هدأت ، بدأت أسترد سكينتى . بل ونشوة غريبة جرفتنى فجأة ، وشعور طارئ بالخفة وبالاستخفاف بكل ماكان يفزعنى ، فوجدتنى أقهقه .

ـ مالك ؟ سألتنى زازا . ـ حاجة غريبة قوى ، عمرى ماخفت بالشكل ده .

ـ أصلك مجنون . ـ هاها .

فماذا يمكن أن يحدث لنا ؟ تنقلب المركب ويأكلنا السمك ؟ أكلناه كثيراً فلماذا لايأكلنا مرة من نفسه ؟ وماذا لو تحولت من آكل للبروتين إلى جزىء بروتين فى خلية سمكة ؟ ماالفرق فى النهاية بين أن أعيش فى خلية أو فى الغلاف الجوى الكوكب ؟

— فكريني بكرة أكتب الحكاية دى . — إنت لسه ح تكتب ؟

نعم وبأصغر خط عندى ، وبدون أن أترك فى الوريقات المتبقية مليمتراً واحداً أبيض ، كأننى خطاط يستعرض مهارته فى تدوين كتابه المقدس على بيضة . إلاقول لى (قالت زازا) تزعل لو ماسميتش الواد أحمد ؟ وليه ماتسميهش أحمد ؟ نفسى ف اسم جديد . إننى حرة . طب اسكت وفكر معايا ف اسم . ماأعجب ذلك الخوف الذى دهمنى ، وما أعجب النشوة التى تعترينى الآن ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . أنا الآخر لايعجبنى اسم النثلرية الأحمدية ، ترن فى سمعى كأنها إحدى الطرق الصوفية ، افتكرت اسم . إيه هو؟ إيه رأيك فى حلزونية أحمد الكبرى ؟ طب بلاش عباطة وخلينا فى الواد . جنين فى جوفها بجانب رأسى ، لو أن سمعى أقوى لسمعت دقات قلبه . عجينة تختمر فى ظلام الرحم وتتشكل ، ضفدعة تتلوى فى قربة ماء ، عفريت مقلوب على رأسه لايرى ولايسمع ولايتنفس لكنه يعيش وينمو . على دقات ساعتى ينمو ، وكم تطربنى تلك الدقات الجديدة المتباطئة ، إلا قولى لى . . إيه ؟ تعملى إيه لو الواد نزل براسين ؟ إن شاالله انت يارب ! ليه ، يبقى بمخين . هاها ، طب والنبى فكرة . بس يضطر يحلق دقنين . طب لوجبت بنت نسميها إيه ؟ عندى فكرة . إيه ؟ إذا جت بنت سميها تفاحة ، وإذا جه واد سميه جمجمة ! ياسم كده ! على فكرة تعرفى إن الجمجمة صعبانة على ؟ ليه ؟ وحدها كده فى الجزيرة . وين قال إنها فى الجزيرة . يعنى إيه ! يعنى جبتها معايا ! إيه ؟ ! طبعاً جبتها . ح اسيبها مسكينة وحدها هناك ؟ أما انتى بقى . أحمد ، بلاش دوشة تخلينى افكر . كانت دائماً أنثى لا معقولة ، وكنا نظن أنها ستخرج من الكوخ مشرحة . جثت على ركبتيها دامعة العين من الضحك وقالت شوفوا لى أى عريس — أحمد . قوليها تانى . تفتكر ح نوصل ؟ ؟ قولى يا باسط . إإإ حم ! الحاج

بيحلم . ده دليل على إنه لسه ما ماتش . والنبى يبق دمه خفيف . إنتى عندك حد دمه تقيل ؟ . يا خسارة . إيه ؟ كان ممكن نعيش سعدا . كان . ضيعوا الوقت فى الخناق . بهدلونا ولاد الإيه . هاها ، دانت يا بنى جريت جرى! من يضحك أخيراً، أحدهما فى القبر والآخر غصت لحيته بأشواك السمك . إلا الشيك أبو ألف جنيه لسه معاك ؟ مكتوب عليه فصل من الرواية .يا ترى يرضوا يصرفوه لك بالشكل ده ؟ بس الأول يكون له رصيد . وبس نوصل . موش شايفة حاجة فى البحر ؟ غير الضلمة مافيش . وحتت تانية طالعة فيها الشمس. تيجى اسمّى بنتى شمس ؟ موش سخنة شوية ؟ البنت شمس والواد تعرف إيه؟ إيه ؟أسميه بحر . إشمعنى بحر؟ موش اتقابلت معاك فى البحر؟ حصل . وموش هو اتخلق فى جزيرة ؟ فعلا . وكمان مركبنا غرقت فى البحر ؟ معقول . هاها . بتضحكى ليه ؟ تصور أن قاع البحر دلوقت فيه كل الحاجات اللى كانت فى المركب؟كراسى مدهب وترابيزات. أى والله . ودواليب مبلولة وتسريحات . سمكة ف درج التسريحة . وقروط فى الشيفونير . وابو جلمبو لابس بيجامة . وأخطبوط لابس فستان . وعلب روج وقزايز بارفان . قلّى شانيل ؟ آربيج ، وكتب بايشة ودوسيهات. وبانيوهات وسيفونات.الله يقرفلك،وغوايش وبروشات. ولاتلسكوب القبطان . وإيه كمان ؟ تمايم دهب وصلبان . وعقود لولى ومرجان . وسبح كهرمان ، وزراير جبة وقفطان . إحنا ح نشعر ولا إيه ؟ ليه لأ ، ولا مخلفات الحرب . بوارج وغواصات . وطرادات ونسافات . وليه نسيت الطيارات ؟ والقاذفات والنفاثات . ولا حروب زمان . خوذ لميع نحاس . وسهام وأقواس . ورماح ودروع . وسيوف ويتوع ، والنبى لعبة حلوة ! وخنجر بتاع راجل قرصان . وإيه كمان ؟ مفاتيح واقفال ، وترابيس أشكال . موش لاقية حاجة تتقال . وحزام عفة من عصر الفرسان . هاها ، والنبى لاسميه بحر . وخزن حديد

فيها وثائق سرية. طب قول رسائل غرامية. وإيه الفرق ؟ على رأيك . وتاج دهب كان فوق دماغ سلطان . طب انت عارف انا نفسي ف إيه ؟ إيه ؟ نفسي التي خاتم سليمان. لو لقيتيه تطلبي إيه ؟أطلب أطلب أطلب حزر أطلب إيه؟ إيه؟ أطلب العفريت وأقول له عارف إيه؟هيه؟ أقول له يسحرني ويعملني عارف إيه ؟؟ إيه ؟ يعملني نسمة هوا. بالألف ولا اليه ؟ما نفسكش تبقى نسمة ؟ما عنديش مانع ، حد يكره الطيران ؟ أنا وانت وتوتو نسمة واحدة . دى تبقى زوبعة . نطير لفوق فى العلالى ، لفوق . أى والله ، ندوى فوق فوهة بركان . ولما نزهق م العلالى ؟ ننزل نصفر فى الوديان . ولا الجناين والغيطان. من غيط قمح أصفر لبستان.

نلاعب السنابل . ونشم زهر البرتقان . يرقص علينا الفراش ، وترفرف العصافير . ويا الحدادى والغربان . نميل فروع الشجر . ونردد صدى الألحان . فردى وباخ وموزار . وليه نسيّ شوبان ؟ ننفخ قلوع المراكب. ونزغزغ الربان . تيجى نغرق مركب ؟ إذا كانت مركب قرصان . ونروح فى كل مكان . لا سور يحوشنا ولا قضبان . وإيه كمان ؟ نلعب ضرورى ف شعر البنات . ونطير الباروكات. والله فكرة ، ونطير ديل الفستان . ونطرّى ع الحران . ونفوق السكران . والتعبان . والهيمان . والغفلان . والزهقان . والحرمان . والعدمان . والصدمان . هاها ، بس يا احمد احسن دخت . أحب الدوخان . أحمد ! قوليها تانى . أحمد ! رق صوتها وما أحلاه حين يرق ، أحمد ! إيه يا روحى ؟ بتحبنى أدما باحبك ؟ يا سلام يازازا ، موش عارفة انك روحى ؟ صحيح ؟ طبعاً ، المهم تكونى انتى بتحبيني . وانت عندك شك يا عنية ؟ جد بتحبيني ؟ قوى والنبى . الحمد لله انك موش فرسة النبى . ليه ؟ كنتى كلتيني . هى فرسة النبى بتاكل جوزها ؟ بعد ما يستنفد أغراضه . موش معقول اقصدى أغراضها . طب أنا فرسة . وشعر زازا تهدل على وجهى وهى تتظاهر بأنها تأكلنى فى حين أنها — كما تلاحظ — تقبلنى .

زازتى الحلوة تقبلنى ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . ثم رفعت رأسها عن شهاب سرى فى السماء بسرعة ، توهج لحظة ثم خبا . يا ترى الشهاب ده معاه ساعة ؟ شهاب ؟ آه ، لو معاه ساعة كان قال انه عاش مليون سنة . أحمد ، ده وقت تخريف ؟ وانحنت من جديد فقبلتنى ، ونشوة عجيبة غمرتنى ، هناك حيث رقدت وسط التفاح . المركب تمايل فكأننى فى أرجوحة ، ووشوشة الماء حولى أغنية من أغانى المهد . الماضى والحاضر والمستقبل فى لحظة ، كاللحظة التى عاشها ذلك الشهاب ، فلو أن ــ أحمد . إيه يا روحى ؟ أحمد ! إيه يازازا ؟ إلحق يا احمد ! ألحق إيه ؟ أنا يظهر ح اولد ! إيه ؟ ! ح اولد يا احمد . ح اولد! يا نهار اسود ! إسود فى عينك ، ح اولد ! مش معقول ! والنبى ح اولد ! زازا ! أحمد ! زازا ، إعقلى يا بنتى ، ده وقت حد يولد فيه ؟ !



تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٣/١٨٣٥

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣